مصر في العصور الوسطى

من الفتح العربي إلى الفتح العثماني

تأليف
الدكتور على ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الرابعة — يناير ١٩٥٤

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

مصر في العصور الوسطى

من الفتح العربي إلى الفتح العثماني

تأليف

الدكتور على ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الرابعة — يناير ١٩٥٤

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى — فبراير ١٩٤٧
الطبعة الثانية — يناير ١٩٤٩
الطبعة الثالثة — اكتوبر ١٩٥١
الطبعة الرابعة — يناير ١٩٥٤

تصدير الطبعة الأولى

بقـــــلم

الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية
M. A, Ph. D, Litt. D, F. R. S., etc.
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الأسكندرية
والأستاذ السابق بجامعة بون (ألمانيا) وليفربول ولندن (انجلترا)

إن ظهور هذا الكتاب يحقق أمنية من أكبر الأماني كانت كامنة في نفسي، إذ طالما فكرت، ولابد أن جمهور المؤرخين المصريين فكروا مثلي، في معالجة تاريخ مصر العام في العصور الوسطى في مجلد واحد، يجمع ما انفرط من عقده في شتى البحوث الفردية المبعثرة في لغات متعددة، ولكن انصرف بعضنا عنه إلى البحوث الفنية المضنية، وجفل البعض الآخر عن المشروع أمام جسامته، وتعدد شعبه ومناحيه.

وإني أغتبط بتصدير هذا الكتاب، الذي يسد بلاشك فراغا في مكتبة القارىء العربي والطالب المصري على السواء، لا لشغفي بموضوعه فحسب، وإنما لما تربطني بمؤلفه من أواصر العلم منذ كان يعمل تحت إشرافي في تحضير رسالته الزاخرة عن المماليك البحرية لنيل درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة فؤاد الأول، فلمست فيه خصال العلماء: من النشاط الوافر، إلى الدقة في معالجة المشاكل التاريخية، إلى التحمس للدرس والعمل لوجه الله والعلم، حتى أن لجنة التحكيم منحته تلك الدرجة بمرتبة الشرف الممتازة، وكان ذلك بإجماع الآراء.

لكن الدكتور علي ابراهيم حسن لم ينظر إلى تلك الدرجة باعتبارها النهاية، وإنما جعل منها البداية لتحقيق رسالة علمية، هي أوسع أفقا من الشهادات والدرجات، التي أصبحت مع الأسف غاية لا وسيلة في عرف الكثيرين من بين طلاب العصر الحاضر: فنشر كتابه الكبير عن «المماليك البحرية». وهو اليوم

يقدم لنا هذا الكتاب الآخر من سلسلة مؤلفاته ، التي أرجو أن يوفقه الله إلى زيادتها كما وكيفاً بمر السنين .

والكتاب الذى نحن بصدده — فيما أعلم — أول كتاب مستقل من نوعه فى اللغة العربية ، جمع فيه مؤلفه تاريخ الأمة المصرية منذ الفتح العربى إلى الفتح العثمانى فى صعيد واحد . وهو — فيما أعلم أيضا — ثالث الكتب التى صدرت فى هذا الموضوع بأى اللغات قاطبة . والكتابان السابقان له من قلم مستشرقين : أولهما ستانلى لينبول ومؤلفه باللغة الإنجليزية قد تقادم عليه العهد فأصبح فى حاجة ملحة إلى قدر غير قليل من التنقيح والتعديل ، وثانيهما جاستون ڤييت ومؤلفه باللغة الفرنسية ليس فى متناول العدد العديد من قراء العربية .

والكتاب الذى بين أيدينا يعد عالج المؤلف موضوعه على أحدث طرق البحث : فهو ليس مجرد حصر للوقائع والأحداث السياسية ، بل هو تاريخ للحضارة المصرية بأسرها فى العصور الوسطى ، قسمه مؤلفه قسمين كبيرين :

القسم الأول عبارة عن عرض لتاريخ مصر السياسى الداخلى ، يعقبه درس لعلاقاتها الخارجية مع دول الشرق والغرب ، فى حدود معقولة لا يطغى فيها الكلام على التاريخ الحضارى الذى أخذ مكانته اللائقة الآن فى مؤلفات المؤرخين الغربيين عن تاريخ دولهم .

والقسم الثانى يشتمل على تاريخ الحضارة المصرية الوسيطة ، وهو موضوع شائك تحيط به صعوبات جمة ويشوب الكثير من أجزائه الغموض لقلة مصادره . ولكن على الرغم من ذلك نجد المؤلف يتصدى لهذا الموضوع ، بما عرفته فيه من همة ومن إقدام ، ويوفق توفيقا ليس بالقليل . استهل المؤلف دراسة الحضارة بالكلام على نظم الحكم بأقسامها الثلاثة التقليدية : الأول نظام السلطنة والخلافة ومجالس الحكم ، والثانى النظام الإدارى وقد شرح فيه اختصاص الدواوين المصرية والوظائف الكبرى فى الدولة ، والثالث نظام القضاء ، ثم أردف ذلك بدراسة فن الحرب والجيش والأسطول فى مراحل التاريخ المصرى الوسيط ، وفى فصل آخر يصور الكاتب لنا حالة مصر الاقتصادية بما فيها الزراعة والضرائب والتجارة والصناعة ، ثم يخص

بالمنشئات العامة باباً يحدثنا فيه عن تأسيس المدن وبناء العمائر والمساجد والقصور والقلاع والمدارس وغير ذلك ، وأخيراً يصف لنا المؤلف الحالة الاجتماعية فيستعرض طبقات الأمة المصرية ويحدثنا عن أعيادها ومواسمها وطعامها وشرابها وملابسها وحفلاتها ومواكبها وولائمها وألعابها وأغانيها .

وبذلك تكتمل صورة هذا العصر فى أسلوب يجعل من الكتاب مرجعا يعتز الطالب بدراسته ، ويسر القارى بتلاوته .

ولما كان الغرض الأول للمؤلف أن يجعل من كتابه دراسة عامة لسد حاجة الطلاب الجامعيين إلى مرجع عربى تجتمع فيه كل هذه الموضوعات فى صعيد واحد ، فقد يظن غير الطلاب من القراء أنه إنما عمد إلى تلخيص ما احتوته بحوث الباحثين والمراجع الكبرى الثانوية فى تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية . ولكننا إذا دققنا النظر فى فصول الكتاب ، وفحصنا الحواشى العديدة التى وردت فى مختلف أجزائه، أدركنا أن المؤلف اعتمد على المصادر الأصلية والوثائق الرسمية ، وهو بذلك قد أعطى كتابه طابع البحث والجدة والاستقلال فى الرأى والحكم ، إلى جانب إجمال التاريخ المصرى فى العصور الوسطى .

وإنى فى الختام أرجو لهذا الكتاب الجديد من النجاح والتقدير ما يستحقه بين طلاب الجامعتين وبين جمهور القراء فى مصر والعالم العربى بأسره .

الإسكندرية فى ١٩ فبراير سنة ١٩٤٧ — عزيز سوريال عطية

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الثانى

الدولة الفاطمية

صفحة

الباب الثالث

الايوبيون والمماليك

أولا — الدولة الأيوبية

القسم الثانى

العلاقات الخارجية ونظم الحكم والحضارة

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

حروب مصر وعلاقتها بمختلف الدول

أولا : من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

صفحة

٢ — فى عهد المماليك

الباب الخامس

نظم الحكم

السياسة والإدارية والحربية والقضائية

أولا — من الفتح العربى الفاطمى

ثالثا — فى عصر الأيوبيين والمماليك

صفحة

الباب السادس

المنشئات

أولا — من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

صفحة

صفحة

الباب السابع

الحالة الاقتصادية

أولا — من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

صفحة

ثانيا — فى عصر الفاطميين

ثالثا — فى عصر الأيوبيين والمماليك

الفصل الثامن

الحالة الاجتماعية

أولا — من الفتح العربى الى الفتح الفاطمى

مصادر الكتاب

الخرائط والصور

أولا — الخرائط

ثانيا — الصور

القسم الاول

التاريخ السياسى

الدول التى حكمت مصر

فى العصور الوسطى

سنة هجرية	العهد أو الدولة	سنة ميلادية
٢٠	حكم الخلفاء الراشدين فى مصر	٦٤٠
٤٠	حكم الأمويين فى مصر	٦٦١
١٣٢	حكم العباسيين فى مصر	٧٥٠
٢٥٤	الدولة الطولونية	٨٦٨
٢٩٢	عودة حكم العباسيين المطلق فى مصر	٩٠٥
٣٢٣	الدولة الإخشيدية	٩٣٤
٣٥٨	الدولة الفاطمية	٩٦٩
٥٦٧	الدولة الأيوبية	١١٧١
٦٤٨ — ٩٢٣	دولة المماليك	١٢٥٠ — ١٥١٧

الباب الأول

مصر منذ الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى (١)

(٢٠ – ٣٥٨ هـ = ٦٤٠ – ٩٦٩ م)

مصر دار إمارة

مصر فى عهد تبعيتها للخلفاء الراشدين والأمويين
والعباسيين ، مصر الطولونية ، مصر الإخشيدية .

أولا – مصر قبيل حكم العرب

جاء على مصر حين من الدهر عرفت فيه حكم الأجنبى الغاصب ، وقد عركت مصر هذا الحكم فى فترات متقاربة حيناً ومتباعدة حيناً آخر من تاريخها الطويل ، ولكنها كانت تقوم من سباتها فجأة فتنفض عن كاهلها حكم الأجنبى البغيض ، أو تقع تحت حكم آخر نتيجة فتح جديد .

وإذا كانت مصر قد عرفت فى القديم حكم : الهكسوس فالليبيين والنوبيين والآشوريين والفرس ، فقد عرفت كذلك حكم البطالمة والرومان والبيزنطيين ، قبل أن تعرف حكم العرب فى العصور الوسطى .

كانت مصر قبيل فتح العرب لها ولاية رومانية أولا ، ثم بيزنطية ثانية وذلك منذ أن انتصر أغسطس قيصر على كليوباترة فى موقعة أكتيوم (٢) سنة ٣١ ق . م إلى أن فتحها عمرو بن العاص عام ٦٤٠ م وقضى على مصر كولاية بيزنطية نهائياً .

---

(١) تركنا تفصيل أمر مختلف مسائل التاريخ العام مثل : نظم الحكم ، الحالة الاقتصادية، المنشآت ، الحالة الاجتماعية ، إلى القسم الثانى الذى سنتكلم فيه على هذه الموضوعات .

(٢) تقع أكتيوم على الساحل الغربى لبلاد اليونان .

١ – مصر ولاية رومانية (٣١ ق م – ٢٨٤م)

(ا) الحالة السياسية :

اعتمد الرومان فى توطيد سلطانهم فى مصر على القوة الحربية ، فأقاموا حاميات عسكرية فى النقط الاستراتيجية التى تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ومن ذلك حامية نيكوبوليس Nikopolis[١] وحامية بابيلون Babylon وحامية أسوان وحاميات أخرى كثيرة على الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر وعلى شواطىء هذا البحر أيضاً .

وكان يحكم مصر فى هذا العصر حاكم Praefectus يرسله الإمبراطور من قبله لتولى إدارة مصر نيابة عنه ، وكانت مدة حكمه فى الديار المصرية قصيرة ، ولذا كان لايهتم بتنمية مرافق البلاد ، بل كان همه منصرفاً إلى جمع المال ليعوض بعض مادفعه ثمناً لمنصبه[٢] .

وعلى الرغم من حكم البطالمة الأبوى لرعاياهم ، فإن الحكم الرومانى كان نيراً على الأعناق [٣]. وفى الحق أن الرومان قد طرقوا كل الوسائل التى تمكنهم من استغلال موارد البلاد ، فكانت مصر فى ذلك الوقت كالشمعة التى تحترق لتضىء لسادتها الرومان : إذ كانت ثروة الديار المصرية ورخاؤها يتمتع بها المحتلون ، باعتبارهم سادة البلاد بحق الفتح ، وكانت الاصلاحات التى أدخلت فيها ترمى إلى غرض واحد هو تنظيم استغلال البلاد لمصلحتهم الخاصة وظلت لغة الحكومة الرسمية منذ الغزو المقدونى حتى الفتح العربى هى اللغة الإغريقية [٤] مما يدعو إلى القول بأن المصريين

---

(١) تقع نيكوبوليس على بعد أربعة أميال شرق الأسكندرية .

(٢) Johnson : Roman Rule, vol. 2 p. 484.

(٣) Westermann : The Ptolemies and the Welfare of their Subjects, Am, Hist. Rev. 1938.

(٤) Munier : l'Egypte Byzantine, p. 89.

كانوا طوال تلك الحقبة كالأجانب فى ديارهم . وأكثر من ذلك كان الشعب المصرى محروما من الاشتراك فى حكم بلاده ، وإذا قيل إن الامبراطور سبتميس سفرس Sep'im ius Severus (١٩٣ — ٢١١م) قد منح الأسكندرية وعواصم المديريات مجالس للسناتو Senatus أثناء زيارته لمصر (١) ، فإن ذلك لم يكن لرغبة الإمبراطور فى العطف على المصريين التعساء ، بل كان يبغى من وراء ذلك الحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب . ومنع المصريون كذلك من الاشتراك فى الجيش حتى لا تكون لهم قوة حربية تستطيع مقاومة الرومان فى المستقبل، ويظهر أن ذلك كان راجعاً إلى ارتياب الحاكمين فى إخلاص المصريين .

(ب) الحالة الاقتصادية :

وكانت مصر فى العصر الرومانى البقرة الحلوب التى تدر الخيرات للرومان ، الذين استنوا من القوانين ما زاد فى الأعباء المالية الملقاة على عاتق الفلاحين ، مما اضطروا معه إلى هجر أوطانهم والالتجاء إلى المعابد والأديرة .

وكان من حق الفلاحين فى العصر البطلمى ، الاحتجاج على أى ظلم وقع عليهم من جانب الحكومة وأصحاب الأعمال الخاصة . وكان يتخذ هذا الاحتجاج شكل « الخروج » من القرى والامتناع عن العمل والذهاب إلى أى قسم إدارى آخر (٢) . وقد طرأ على هذا الاحتجاج تغير حيوى إبان القرن الأول من الحكم الرومانى : فبينما كان هذا الحق إبان العصر البطلمى عملا إجماعياً متفقاً عليه بين جماعة محلية موحدة ، أصبح فى العصر الرومانى مجهوداً فرديا يتركز فى مجرد الهرب من ظلم وقع على الأهالى من جانب الحكومة . ولا عبرة بمعرفة عدد الأشخاص الذين هربوا من قراهم ، إلا بقدر ما يدلنا على مدى ما استولى على الفلاحين من قنوط ، إذ كان الرجل يغادر موطنه دون أن يرغب فى العودة إليه ،

---

(١) Jouguet : l' Egypte Greco— Romaine, pp. 391 – 395.

(٢) هو ما نعرفه اليوم خطأ باسم «الإضراب عن العمل»

وظهر بذلك العجز فى مقدار ما يجبى من الضرائب نتيجة لاختفاء الفلاحين ، مما أثقل كاهل القرويين المكدودين الذين قدر لهم أن يبقوا فى أوطانهم (١) .

وقد زاد حال الزراع سوءاً إهمال نظام الرى ، فأصبح عملهم لا يأتى بالثمرة المرجوة منه ، حتى أن كثيراً منهم فروا من موطنهم مفضلين أن يعيشوا على السطو والنهب ، فتركت مساحات واسعة من الأراضى دون زرع ، بينما تجمعت الأراضى الزراعية فى أيدى كبار الملاك ، مما كان سبباً فى القضاء على صغار الملاك . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن عم الاضطراب جميع المرافق الاقتصادية ، حتى أن قمح مصر الذى كانت روما تعتمد عليه لإطعام أهلها لم يعد يكفى ، وكان لا بد لها من استيراد قمح إفريقية مضافاً إلى قمح مصر منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث الميلادى(٢) .

وفى العصر الرومانى ، كان يفرض على الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر ضرائب عينية فقط ، بينما كانت الحدائق والبساتين تدفع ضريبة نقدية .

وإن نظرة واحدة إلى بعض أنواع الضرائب التى فرضها الرومان على المصريين ، تدلنا على أنهم كانوا على حق فى كراهيتهم وبغضهم لحكامهم : فقد كانت هناك ضريبة سنوية تجبيها الحكومة على الخنازير والغنم والجمال والخيل والثيران والنعاج ، وكانت هناك ضريبة شهرية تجبى على التجار على اختلاف متاجرهم ، وكان صاحب المصنع يدفع ضريبة قبل خروج بضاعته من مصنعه ، ولا تسمح الحكومة بالاتجار فى بعض الأصناف إلا بعد أخذ ترخيص منها ، وكان صيد الطيور والسمك برخصة ، وكانت هناك ضريبة الرؤوس التى فرضت على كل سكان مصر من الذكور الذين تتراوح سنهم مابين ١٤ و٦٠ سنة ، وهناك ضريبة التاج وتدفع عند تولية إمبراطور جديد ، وضريبة تجبى عند الشروع فى إقامة تمثال أو بناء معبد للامبراطور . والأدهى من

---

(١) Westermann : Op. Cit. Am. Hist. Rev. 1938.

(٢) Milne : Egypte under Roman Rule, p. 60.

ذلك كله أن الأهالى كان عليهم مد الجنود الرومانية بالقمح والشعير لغذائهم وعلف دوابهم وذلك حين مرورهم بقراهم ، وكانت تجبى الضرائب على قلاع السفن ، وعلى العربات ، وعلى بيع الأراضى ورهنها ، وعلى المواشى والأخشاب وعلى التجارة المارة فى النيل ، أو المارة من منطقة إلى أخرى ، وتؤخذ ضرائب على الحمامات العامة وعلى الأسواق ، وعلى أثاث المنازل ، وعلى من لم يقم بنصيبه فى السخرة من حفر الترع وتطهيرها (١) .

ومن الطبعى أن يثور المصريون فى وجه الرومان كلما واتتهم الفرصة لذلك . ولا يسترعى انتباهنا بعد ثورات المصريين التى حدثت فى أوائل الحكم الرومانى والتى كان يقضى عليها دون هوادة ، سوى الثورة التى نشبت فى عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) بين المصريين فى الدلتا وعرفت بحرب الزراع (٢) ، وهزمت فى خلالها الكتائب الرومانية ، وكادت تقع عاصمة البلاد فى قبضة الثائرين ، إلا أن النجدة التى أتت من سورية فرقت شمل الثوار وقضت على تلك الثورة نهائياً .

(ج) الحالة الدينية :

حذا الرومان حذو البطالمة فى معاملتهم الدينية للمصريين ،فلم يتعرضوا لمعتقدات المصريين الدينية بسوء ، بل أطلقوا لهم حرية التمسك بها ، مما يدعو إلى القول بأن الحكم الرومانى كان كالحكم البطلمى يقدر ديانة المصريين حق قدرها ، ولا غرو فقد كان واضحاً أمام الغزاة الجدد النتائج التى تمخضت عن احتقار الفرس لمعتقدات المصريين الدينية .

وكان لا بد للدين المسيحى الجديد أن يتسرب إلى مصر خلال القرن الأول ، وذلك لقربها من فلسطين ، وفى الحق أن مصر كانت فى طليعة البلاد التى تسرب

---

(١) Milne : Op. Cit. pp. 115 125.

(٢) Jouguet : l'Egypte Greco—Romaine, p. 369.

إليها الدين المسيحى خفية ولا سيما فى الأسكندرية والوجه البحرى . وقد ازداد عدد معتنق الدين الجديد فى القرن الثانى ، وأدى انتشار المسيحية فى مصر إلى إثارة مخاوف الرومان ، ومن ثم عملوا على اضطهاد دعاتها ومعتنقيها ، ولجئوا إلى التعذيب لصد الناس عنها . وكان بدء اضطهاد الحكومة لمسيحى مصر اضطهاداً منظماً خلال حكم الإمبراطور ستيميس سفروس ، وبلغ أقصاه فى أواخر حكم الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) .

٢ — مصر ولاية بيزنطية (٢٨٤ — ٦٤٠ م)

(ا) الحالة السياسية :

لم تختلف حالة مصر كثيراً فى العصر البيزنطى عنهـا فى العصر الرومانى ، فقد حلت بيزنطة (القسطنطينية) محل روما فى استنزاف موارد البـلاد إلى أقصى حد ممكن . وتابعت بيزنطة خطة روما فى حكم ولاياتها ، فأرسلت الولاة إلى مصر يحكمونها بالنيابة عن الإمبراطور . ومن الطبعى أن هؤلاء الولاة كانوا لا يراعون إلا مصالحهم الشخصية ، ويعملون على ربط البلاد بعجلة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وقد كان الوالى منذ أيام روما الأولى حاكما إداريا وقائداً عسكرياً إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، فكان تفرده بالسلطة على هذا الشكل يكفل له نفوذاً مدنياً وعسكرياً . وقد رأى الإمبراطور دقلديانوس أن يفصل بين الواجبين العسكرى والمدنى فصلا تاما ، وأن تراعى الكفاية العسكرية وحدها عند انتخاب الوالى . ولما كان دقلديانوس يخشى من محاولة قائد ناجح اغتصاب العرش ، فقد زاد من عدد ولايات الإمبراطورية لينقص بذلك من عدد القوات الخاضعة لإمرة أى قائد بمفرده ، ويقال إن مصر قد قسمت تبعاً لذلك فى عهد دقلديانوس إلى ثلاثة ولايات .

وقد أصبحت مصر طوال العصر البيزنطى الحقل الذى ينتج الغلال لبيزنطة ، ولم يكن يهم البيزنطيون إلا الحصول على كل ما يريدون مهما كلف الأمر الفلاحين وغيرهم من سكان مصر . هذا إلى عدم صرف المال المستخرج من مصر فى إصلاحها

والاكتفاء بإرساله إلى خزينة الدولة البيزنطية . وعلى الرغم من كل ما قيل عن استنزاف تلك المقادير الهائلة من غلال مصر وإرسالها إلى القسطنطينية ، فقد ظلت مصر حتى بعد الفتح العربى غنية بغلالها ، حتى أنها استمرت ترسل إمدادات منتظمة من الغلال بعد الفتح العربى إلى المدينة عاصمة الخلافة (١) .

ولما كان مقدار ما تجبيه القسطنطينية فى العصر البيزنطى متوقفاً على مقدار ثروة مصر ، كان طبيعيا أن يوجه الأباطرة البيزنطيون عنايتهم إلى تنمية موارد مصر الاقتصادية ، وقد أفلحت الجهود التى بذلها بعض أباطرة العصر البيزنطى إلى حد ما فى وقف تدهور حالة مصر الاقتصادية فترة من الوقت فى بداية هذا العصر .

(ب) الحالة الاقتصادية :

نظام الرى :

كانت مصر لا تعرف حتى ذلك الوقت إلا نظام رى الحياض ، ومايستدعيه ذلك النظام من إقامة الجسور وشق الترع ، لإيصال المياه من النيل إلى تلك الحياض الكبيرة وصرف المياه الفائضة عن حاجة الأراضى فى مصارف أنشئت خصيصاً لهذا الغرض . وقد تطلب هذا النظام وجود فرق مدربة من المهندسين ، وهيئة بيروقراطية من الموظفين ، وحكومة مركزية تهيمن على كافة شئون البلاد . ومن هنا جاء قول بعض المؤرخين بأن تقسيم مصر ـ الذى يعزى إلى دقلديانوس ـ إلى ثلاثة ولايات منفصلة إدارياً عن بعضها البعض ، قد أضر بنظام الرى فى مصر أكثر مما نفعه (٢) ، حتى أن القرى الواقعة على تخوم « واحة الفيوم » كانت تعانى نقصاً فى مياه الرى .

ويقال إن بروبوس Probus قد كلف جيشه بنزح مياه المستنقعات وكرى الترع ، وأن بعض القرى الواقعة على حدود الفيوم قد انتعشت لفترة موقوتة أثناء القرن

---

(١) Becker, C.H : Camb. Med. Hist. Vol. 2, p. 349.

(٢) Johnson & West : Byzantine Egypt. p. 8.

الرابع الميلادى (١) . ولا يعرف أتابع دقلديانوس عمل بروبوس أم لا ، وإن كان يوجد من الأدلة المباشرة مايوحى بأن دقلديانوس قد اهتم بنظام الرى فى مصر(٢) ، وأنه قام بعمل خاص فى القناة المعروفة باسم « قناة تراجان » ، وثبت أن عاملا كان يأخذ مائتى دراخمة (٣) يومياً لقاء هذا العمل ، وأنه استمر على ذلك مدة شهرين ، أما طبيعة هذا العمل الذى قام به دقلديانوس ، فلا يعرف عنه سوى أنه ليس من السخرة فى شىء (٤) .

وقد أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) عام ٤٠٩ م مرسوماً ، أمر فيه الفلاحين بعدم سرقة مياه النيل بالطريقة التى كانوا يلجأون إليها وهى تحطيم السدود ، وذلك قبل أن يصل ارتفاع الفيضان إثنى عشر ذراعا ، وقد قام العمل من جديد عام ٤٢٤ م فى قناة تراجان ، وسُخر من أجل ذلك عمال من بعض القرى .

ويبدو جلياً ضعف الحكومة المركزية فى ضبط توزيع مياه النيل فى القرن السادس . وعلى الرغم من أن الأمبراطور جستنيان قد أدخل ضمن قانونه مرسوم عام ٤١٦ م الذى ينص على عقاب من تسول له نفسه سرقة المياه أو تحطيم السدود قبل أن يصل ارتفاع الفيضان إثنى عشر ذراعا ، فإن ذلك لم يحسم الداء تماما ، بل على العكس زادت مهمة « حراس النهر » (٥) ، وأضحت من الأعمال الخطيرة وكانت

---

(١) Boak : Geographical Review XVI (1926) p. 353.

(٢) Johnson & West : Bygantine Egypt, p. 8.

(٣) الدراخمة : عملة يونانية وهى تساوى ٦ أوبولات ، والأوبول Obolos الواحد يساوى ٧ مليمات تقريبا

(٤) Johnson & West : Op. Cit. p. 9.

(٥) وظيفة حارس النهر كانت من وظائف العصر البطلمى ، وكان من اختصاصه الإشراف على المواصلات النهرية وكل ما يتصل بمياه النيل ، وقد ازدادت أهمية هذه الوظيفة فى العصر البيزنطى ، وذلك لعمل الفلاحين على سرقة المياه لرى أراضيهم قبل أن تسمح لهم الحكومة بذلك ، وكان هذا العمل محرماً فى نظر القانون .

القرى تحارب بعضها بعضا من أجل تقسيم مياه النيـل بينها (١) . ويظهر أن نظام السخرة كان معروفا فى القرن السادس ، فقد ذكر المؤرخ العربى ابن عبد الحكم صاحب « فتوح مصر » أن عمرا قد استخدم ١٢٠٫٠٠٠ عاملا فى الشتاء والصيف لكرى الترع ، ومن المحتمل أن استخدام الفلاحين المصريين بالقوة فى كرى الترع وإقامة الجسور قد استمر من أيام الفراعنـة حتى نظام الرى الدائم وبناء خزان أسوان (٢) .

الصناعة والتجارة :

إن تاريخ الصناعة والتجارة فى مصر منذ تنازل دقلديانوس عن العرش سـنة ٣٠٥ م حتى الفتح العربى فى سـنة ٦٤٠ م ، إنما هو تاريخ غامض ، لعدم وجود معلومات تفصيلية عن النشاط الزراعى والتجارى والصناعى فى مدينة الأسكندرية . ويلوح أن الأوانى الزجاجية كانت أهم إنتاج صناعى فى تلك المدينة ، وكانت إحدى السلع التى توزع على عـدد كبير من مدن وادى النيـل . وقد لوحظ أن مستوى صناعة هذه الأوانى الزجاجية ظل منحطاً حتى القرن الخامس ، إلا أن الأمثلة العديدة التى تطالعنا فى العصر العربى عن الأوانى الزجاجية تدل على أنه قد أصاب هذه الصناعة انتعاش ملحوظ ، ولم يثبت أن هـذه الأوانى الزجاجية كانت تصنع فى مصر خارج الأسكندرية . (٣) وكانت الأوانى الزجاجية المجلوبة من مصر وسوريا تحتل مكانها بين السلع المصدرة الى الشرق الأقصى (٤) ، كما أن المنسوجات الغالية — المصرية والسورية — كانت بين المتاجر المرسـلة إلى الشرق الأقصى كذلك (٥) . واتصف النساجون المصريون عادة بالسرعه فى تقليد الأقمشـة الأخرى ، وتكلم منشور دقلديانوس عن أن نسـيج الكتان المصرى هو تقليد أنسجة طرسوس ، وتأثر

(١) Johnson & West : Op. Cit p. 10.
(٢) Johnson & West : Ibid. p. 12.
(٣) Johnson & West : Ibid, p. 112.
(٤) Hirth : China and the Roman Orient, p 232.
(٥) Hirth : China and the Roman Orient, p 253.

النساجون القبط كثيرا فى زخرفة أنسجتهم بالفن المعاصر فى سوريا وفارس الساسانية (١) . وكانت مصر البيزنطية تصنع سلعا عديدة من ألياف النباتات المختلفة ومن بينها : الحبال والحصر والسلال ، وعثر على حبات خرز خضراء فى هولندا مجلوبة من مصر ، مما يوضح أن التجارة المصرية قد وصلت فى العصر البيزنطى إلى أقاصى آسيا وأوربا .

الضرائب :

كانت الوحدة التى تقدر بها الضرائب فى مصر هى الأرورة(٢) **Aroura** ، وظلت كذلك منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح العربى . ولم يثبت أن دقلديانوس قد غير التقسيم القديم للأراضى ، إذ بقى هذا التقسيم حتى حكم قسطنطين(٣) .

وقد حلت القسطنطينية محل روما فى امتصاص قمح مصر ، إذ قيل إن عدد سكان هذه العاصمة الجديدة قد زاد بعد أن اتخذها الأباطرة حاضرة للامبراطورية الشرقية، بينما كانت روما تمد بالغلال من الولايات الغربية التى نقص عدد سكانها كثيراً . وقد بلغت حصة القسطنطينية من قمح مصر ٣٠٠٠ر٣ أردبا فى اليوم و ١٠٩٥٠٠٠ر١ أردباً فى السنة(٤) .

وفى أوائل العصر البيزنطى فى مصر ، حدد مقدار الضريبة النقدية على الحدائق والبساتين وخاصة بساتين الكروم . بعد أن كانت غير محدودة فى عصر الرومان . الأراضى الرعوية تدفع الضرائب المستحقة عليها إما نقداً أو قمحاً .

وفى القرن الثالث الميلادى كانت الأراضى المزروعة بالعنب تدفع ضرائب عينية بمعدل ١٤ رطلا للأرورة الواحدة . ولم يكن الزجاج من المصنوعات التى يدفع وكانت عليها ضرائب عينية .

---

(١) Johnson & West : Op. Cit. p. 119.

(٢) الأرورة الواحدة : تعادل بالتقريب ٢٧٥٦ متر مربع .

(٣) Johnson & West : Ibid. p. 230 .

(٤) Hist. Eccl. Vol. 2, p. 13.

وقد فرض فى عام ٣١٦ م ضريبة على المصريين لدفع ثمن نقل الغلال من الإسكندرية إلى بيزنطة . وكانت هذه الضريبة بمعدل ٥٠ دراخمة أتيكية (١) للأرورة الواحدة من الأراضى الصالحة للزراعة و ١٠٠ دراخمة للأرورة من الأراضى الرعوية و٢ دراخمة على كل شجرة زيتون(٢) . وقد فرض على أراضى قرية اكزرنخوس (البهنسا حالياً) ضريبة إما فى أواخر القرن الرابع أو أوائل الخامس الميلادى للأغراض العسكرية . وإذا ماعرفنا أن قيمة العملة كانت متدهورة إلى أقصى حد فى ذلك العصر . فإن مجموع قيمة هذه الضريبة بالعملة الذهبية كان لايزيد عن نصف قيراط من الذهب للأرورة الواحدة(٣) .

(ح) الحالة الدينية :

دخل الدين المسيحى مصر فى العصر الرومانى ، فوجد من الأباطرة الرومان عقبة كؤود فى سبيل انتشاره ، بل تعذيباً واضطهاداً لدعاته وأنصاره . وقد بلغ اضطهاد المسيحيين فى مصر أقصاه فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥م). وقابل المصريون ذلك الاضطهاد بكل ما أوتوا من قوة وعناد ، وتولد عن ذلك حركة قومية أخذت فى النمو . وليس أدل على ذلك من أن الكنيسة المصرية بدأت تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤م) نتيجة للآثار السيئة التى تركها ذلك الاضطهاد فى نفوسهم(٤).

غير أن الحال لم يلبث أن تغير فى العصر البيزنطى ، فقد أحرزت المسيحية نصراً مبيناً باعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣—٣٣٧ م) بها كدين مسموح

---

(١) نسبة إلى آتيكا إحدى مقاطعات بلاد اليونان .

(٢) Johnson & West : Op. Cit, p. 254.

(٣) Johnson & West : Ibid, p. 255.

(٤) Milne : Egypt under Roman Rule, p. 218.

به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية . وقد ساعد على انتشار المسيحية فى مصر تأييد الإمبراطور ثيودوسيس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥ م) لها ، الذى فرض المسيحية قسراً على جميع رعايا الإمبراطورية الرومانية ، ونفذ قرار الإمبراطور دون هوادة فى الأسكندرية والوجه البحرى .

إلا أن مصر لم تجن ثمرة انتصار المسيحية ، إذ سرعان ما احتدم النزاع بين أثنازيوس Athanasius وأريوس Arius حول تفسير طبيعة المسيح . وكان من نتيجة ذلك أن انقسم المسيحيون فى مصر إلى طائفتين : اليعاقبة Jacobites نسبة إلى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها ، وكان من رأيهم أن للمسيح طبيعة واحدة . ومن هنا أطلق عليهم أيضاً اسم المونوفيزت Monophysite أى أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، أما الطائفة الثانية فهى الملكانيون Melkites نسبة إلى كلمة «ملك» — على قول القلقشندى — لاتباعهم مذهب الإمبراطور ، وكانوا يقولون بأن للمسيح طبيعتين ، ولذلك أطلق عليهم الدوفيزت Duophysite أى أصحاب مذهب الطبيعتين .

وقد كانت الغالبية العظمى من المسيحيين فى مصر تدين بمذهب الطبيعة الواحدة ، وخالفوا بذلك مذهب كنيسة القسطنطينية الذى أقره مجمع خلقدونية بآسيا الصغرى ، ولذلك وقع المصريون منذ ذلك الحين تحت اضطهادات الأباطرة لمخالفتهم مذهب الطبيعتين . وقد فرح الشعب المصرى عند ماتوج هرقل إمبراطوراً سنة ٦١٠ م ، وكان قبـــل ذلك حاكما لإفريقية ونجح فى ثورته على الإمبراطور فوكاس ، واعتقد المصريون أن حكمه سيكون أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة وأنه سيكون خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء ، وتمتع المصريون فعلا فى أوائل حكم ذلك الإمبراطور بالهدوء والراحة . إلا أن الهدوء لم يكن دليلا على أن داء الخلافات الدينية قد استؤصل ، فإنها كانت قد أنهكت قوى البلاد بسبب أعمال الاضطهاد والتخريب وإهمال الحكومة تنمية المرافق الاقتصادية حتى ساءت أحوال البـــلاد ، وأصبحت عرضـــة للأخطار الخارجية . كما أن الشعب المصرى أصبح لا يكترث بالدفاع عن البيزنطيين الذين امتهنوا كرامته واضطهدوه ، فتركهم يتلقون ضربات الغزاة وحدهم . وما لبث الفرس أن غزوا مصر سنة ٦١٦ م فى عهد ملكهم كسرى الثانى ، وتحولت مصر إلى ولاية

فارسية ، إلى أن اضطر الفرس إلى الجلاء عنها سنة ٦٢٩م بعد أن حارب الإمبراطور بلاد الفرس نفسها .

على أن هرقل بعد أن أنقذ الدولة من الفرس رأى أن ينقذها من الخلاف الديني ، فأصدر صورة توفيق Mono Thalma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بأن له إرادة واحدة . ولم يفطن هرقل إلى أن مذهبه الذى حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر كما أنه أسند الرياسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس الذى وصل إلى مصر سنة ٦٣١م والذى يعرف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس (١) .

وقد خير المقوقس المصريين بين أمرين : إما الدخول فى مذهب هرقل الجديد وإما الاضطهاد . وكانت نتيجة ذلك أن هرب البطرك القبطى بنيامين تخلصاً من الشدائد ، وقاسى الأقباط من بعده جميع أنواع الاضطهاد ، لعسف قيرس ، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى المذهب الجديد وبينهم بعض الأساقفة . ومن ذلك نرى أن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين بالدولة البيزنطية من أسباب الولاء (٢) .

وتمهد السبيل بذلك لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية هى دولة العرب ، واستطاع العرب فى فترة يسيرة أن يقضوا على دولة الأكاسرة (الفرس) ويقتطعوا من الدولة البيزنطية : الشام وفلسطين ومصر . وساعد العرب على إتمام تلك الفتوحات ما عرف عنهم من : حب القتال وخوض غمار الحروب ، والاتصاف بالشهامة والشجاعة ، وكذلك ضعف البلاد التى فتحوها ، وتناوب عوامل الهرم والانحلال الداخلى عليها .

---

(١) اتفق المؤرخون على أن المقوقس لقب لرجل كان له شأن كبير عند الروم (البيزنطيين) وقت فتح مصر ، وأنه هو الذى صالح العرب عليها ، ولكن اتفاقهم بشأنه وقف عند هذا الحد ، فاختلفوا فى اسمه وجنسه ووظيفته والعمل الذى عمله ومعنى اللقب الذى عرف به . ويظهر أن المقوقس كان عاملا على مصر من قبل الروم وبطريركا ملكيا ، أى على خلاف مذهب السواد الأعظم من المصريين وهو اليعقوبى . راجع حسن إبراهيم حسن : عمرو بن العاص ص ٩٩ .

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٦ — ٧ .

على أن كراهية المصريين للبيزنطيين وسوء أحوالهم السياسية والاقتصادية والدينية وضعف مقدرتهم الحربية ، كل ذلك شجع الدولة العربية الناشئة على فتح مصر ، وهكذا اختمرت فكرة فتح تلك البلاد فى ذهن عمرو بن العاص .

٣ — الفتح العربى

عمرو بن العاص :

لم يحفظ التاريخ عن سهم قبيلة عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، شيئا ذا غناء ، وإنما ترجع تلك القبيلة فى نسبها إلى كعب بن لؤى من بطون قريش . ولقد كان لها فى الجاهلية والإسلام شهرة عظيمة ، لما كان لها من مناقب رفيعة وسيادة فى مكة ، إذ كانوا أصحاب الحكومة فى قريش يحتكم إليهم الناس فيما يختصمون فيه ، كما كانت لهم الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم . ولسنا ندرى حقيقة هذه الحكومة ، ولكنا نعلم أن العادة عند العرب وعند غيرهم من الأمم فى العصور الأولى جرت أن تتقسم الأسر الكبيرة بينها الأعمال الاجتماعية . فلعل هذه الحكومة كانت شيئا يشبه القضاء ، بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفدون على مكة من العرب إلى زعماء بنى سهم ، فيما كان يقع بينهم من الخصومات .

كان العاص بن وائل والد عمرو ، ممن تولى القضاء بين العرب فى الجاهلية ، وكان تاجراً من ذوى اليسار ومن سادات العرب وأشرافهم . وأدرك ظهور الإسلام ولم يسلم ، بل كان من المستهزئين برسول الله عليه السلام ، وهو القائل حينما توفى ابناه القاسم ثم عبد الله : «إن محمداً أبتر» ، فنزلت فيه الآية الكريمة : (إن شانئك هو الأبتر) . وكان حلف الفضول الذى شهده النبى وتحالفت فيه قريش على نصرة المظلوم ، هو بسبب مماطلة العاص فى دفع ثمن سلعة اشتراها من أحد التجار ، فلما عيل صبر الرجل ، جاهر بظلامته حول الكعبة بين رجال من قريش وقال شعرا رقيقاً ، هو :

يالَلرجال لمظلوم بضاعته   ببطن مكة نائى الحى والنفر

إن الحرام (١) لمن تمت مكارمه ولاحرام لثوب (٢) الفاجر الغدر (٣)

فاجتمعت قريش بدار عبد الله بن جدعان ، حيث تحالفوا على أن ينصروا المظلوم من الظالم .

ولم يتفق المؤرخون على سنة ولادة عمرو ولا سنة وفاته ، فمن قائل إنه عاش سبعين سنة ، ومن قائل تسعين أو تسعاً وتسعين . والراجح أنه توفى فى التسعين من عمره ، إذ يضعف من قول ابن قتيبة فى كتابه عيون الأخبار إنه مات فى السبعين ، قوله إنه كان يكبر ابنه عبد الله بإثنتى عشرة سنة .

تربى عمرو فى كنف أبيه مع أبناء أشراف مكة ، وكانت مكة إذ ذاك مركز التجارة والحج ، يؤمها الناس من كل فج ، يتناقلون الآداب ويتطارحون الشعر ، فنشأ نشأة سامية . ولا ندرى متى ولا كيف تعلم القراءة والكتابة ، والراجح أنه تعلمها حين شب ومارس التجارة وأحس الحاجة إلى ذلك ، فما يظن أن مكة كانت تعنى فى هذا العصر بتعليم أطفالها . وكان عمرو فصيح اللسان ، قوى البيان ، مجيداً للشعر ، ولا أدل على ذلك مما يحفظه له التاريخ من روائع الكلم ، ووصفه لمصر يعد آية من آيات البلاغة .

احترف عمرو التجارة أسوة بأهل الشرف والنبلاء من أهل مكة ، فقد كان لتوسط مكة بين اليمن والحبشة والبحرين والشام ، ما مكن أهلها من نقل التجارة بين تلك الأقطار جميعاً فدرت عليهم ربحاً وفيراً ، وكان لتنقل عمرو وأسفاره أبلغ الآثار فى سعة أفقه ودهائه ، مما ظهر فى حياته السياسية والحربية منذ دخل فى الإسلام . ويقال إنه زار مصر والإسكندرية فى الجاهلية .

أما إسلامه ، كما يرويه الطبرى صاحب كتاب الأمم والملوك على لسان عمرو : أنه جمع من رجال قريش من كان يطيعه منهم ، وأدلى إليهم أنه رأى أمر محمد يعلو ، وأشار عليهم أن يلحقوا مع عمرو بالنجاشى ملك الحبشة . وبعد وصولهم طلب عمرو إلى

---

(١) الاحترام .
(٢) لشخص .
(٣) الكثير الغدر .

النجاشى أن يسلمه مبعوث رسول الله إليه وكان قد رحل إلى الحبشة ليوصيه فى أمر من هاجروا إليه فراراً من أذى قريش ، ولكن النجاشى غضب من عمرو وعنفه لأنه يطلب منه رسول رجل يأتيه الوحى ويأمر بالتوحيد ، وأشار عليه بطاعته ، فخرج عمرو من عنده وعاد إلى مكة . ومالبث عمرو بعد قليل أن عزم على مبايعة الرسول عليه السلام ، وفى طريقه إلى المدينة لقى خالد بن الوليد مقبلا من مكة ليعلن إسلامه كذلك ، فبايعا النبى سويا . وكان عمرو يعتذر عن تأخره فى إسلامه مع رجاحة عقله ؛ أنه كان يقلد أشراف مكة وشيوخها فى بقائهم على وثنيتهم ، وكانوا فى نظره أعقل من فيها ، فلما فنى معظمهم وبان له وجه الحق تدبر أمره وأسلم .

ومنذ أن أسلم عمرو ، قدر فيه الرسول عليه السلام كفايته وحزمه ، فنصبه قائداً للسرايا والجيوش ، إذ أمره على سرية ذات السلاسل لإخضاع قبيلة قضاعة فتم له النصر ، وكان فى قيادته للمسلمين مادل على بعد نظره ، فقد حال بين المسلمين وبين تتبع العدو الفار من وجهه ، خشية أن يكون له مدد ، كما حرم على جيشه إيقاد النار رغم البرد القارس حتى لا يرى العدو قلة عدده ، وحمد له الرسول رأيه ، كذلك بعثه النبى مع جماعة لهدم صنم لقبيلة هذيل إسمه سواع .

وكان الرسول يقدر فى عمرو مقدرته السياسية تقديره لكفايته الحربية ، فإنه اختاره ليحمل كتابه إلى ملكى عمان ، وكانا أخوين ، أحدهما يدعى جيفر والثانى عبادا ابنى الجلندى يدعوهما إلى الإسلام فكان أن عمد إلى أصغر الأخوين فأقنعه بالإسلام ، ثم استعان به على إقناع أخيه الأكبر فأسلما ، وتبعهما خلق كثير . ولما تم له ذلك ولاه الرسول على صدقة عمان : يأخذها من الأغنياء ويردها على الفقراء . وظل فى هذا المنصب زهاء سنتين حتى أتاه خبر وفاة رسول الله فعاد إلى المدينة ، وكان له فى الردة وتدعيم الإسلام بعد وفاة الرسول مجهود مشكور .

وشاء الخليفة أبو بكر بعد ذلك أن يشغل العرب بالفتوح الخارجية ونشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ، فوجه الجيوش إلى الشام وفلسطين وهما من أملاك الدولة الرومانية الشرقية فى الشمال وعقد لأربعة من الأمراء هم : أبو عبيدة بن الجراح إلى حمص ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، ويزيد بن أبى سفيان إلى دمشق ، وشرحبيل ابن حسنة إلى وادى الأردن .

وكان لعمرو أثر مشكور فى حملته على الروم فى اليرموك لمواجهة جيوش هرقل العظيمة ، وقد حمل فيها عمرو على الروم حملة عنيفة ، حتى ولى صاحب رايتهم منهزما فأخذ عمرو الراية وظل يقاتل حتى انهزم جيش الروم . أما فى فلسطين فقد كان عليها وال رومى قدير داهية قديم إسمه أرطيون Aretion ، وسماه العرب أرطبون : وضع جنداً كثيفاً فى بيت المقدس وغزة والرملة ، بينما خيم بجنده فى أجنادين ، وكتب عمرو إلى الخليفة عمر يشرح له دقة الموقف ، فرد عليه رده المشهور « رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » ، يقصد أن عمرا لايقل كفاية عن أرطبونهم . وصدق حدس عمر فقد أنهزم الروم على يد عمرو فى أجنادين ، ثم حاصر المسلمون بيت المقدس أربعة أشهر شداداً ، رأى الروم فى نهايتها تسليمها لعمر ، ورضى عمر وتم ذلك التسليم . واضمحل سلطان الروم فى الشام بعد تلك الحروب التى كان لعمرو فيها جهود موفقة ، ثم توجه بعد ذلك شطر مصر وفتحها .

الحملة العربية على مصر :

فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) قدم عمر بن الخطاب الجابية (من أعمال دمشق) ، فخلا به عمرو بن العاص ، واستشاره فى فتح مصر ، فلم يوافق عمر فى بادىء الأمر :

أولا — لإشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل ، فقد كانت الجنود الإسلامية فى ذلك الوقت متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس لقتال الرومان والفرس ، فلم يكن فى استطاعة عمر أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً كبيراً .

ثانياً — لأنه كان يخشى من التوسع فى الفتوح ، لا سيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها .

أخذ عمرو يهون على عمر فتح مصر ، ويذكر له أنه دخلها فى الجاهلية وعرف طيب تربتها ، وخصوبة أرضها ، ومقدار ثروتها وخيرها . وأوضح له أن الاستيلاء عليها يثبت فتوح العرب فى الشام وفلسطين ، ويؤمنها من ناحية الجنوب .

وكان فتح مصر أمراً تقتضيه طبيعة وجود العرب فى بلاد الشام ، فإن بقاء مصر فى يد الروم ، يهدد سلطانهم فيها بالزوال . كذلك كانت مصر حقلا خصيبا يتوفر

فيه حاجتهم من الماء والغلال . ويمكن القول أيضاً أن موقع مصر الجغرافى يساعد العرب على الاستيلاء على المغرب والأندلس . أضف إلى ذلك أن العرب بفتحهم لمصر يحققون أهم غرض لهم من الفتوح العربية وهو نشر الديانة الإسلامية فى بقعة جديدة من بقاع الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

لم يزل عمرو بعمر حتى رضى ، وأذن له بأربعة آلاف مقاتل ، وقال لعمرو : « إنى مرسل إليك كتابا ، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف من قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض واستعن بالله واستنصره » (١) .

تضاربت روايات المؤرخين عن كتاب عمر إلى عمرو ، وسواء وصل هذا الكتاب قبل أن يدخل عمرو الديار المصرية وأهمله ، أم وصله بعد أن اجتاز الحدود المصرية ، فإن عمرا سار فى طريقه إلى مصر حتى وصل إلى مدينة العريش وفتحها من غير أن يصادف مقاومة : لأن حصون هذه المدينة لم تكن من المناعة بحيث تقف فى وجه العرب ، كما أنه لم يكن لهذه المدينة حامية رومانية تقوم بوسائل الدفاع عنها أو بصد العرب عن دخولها .

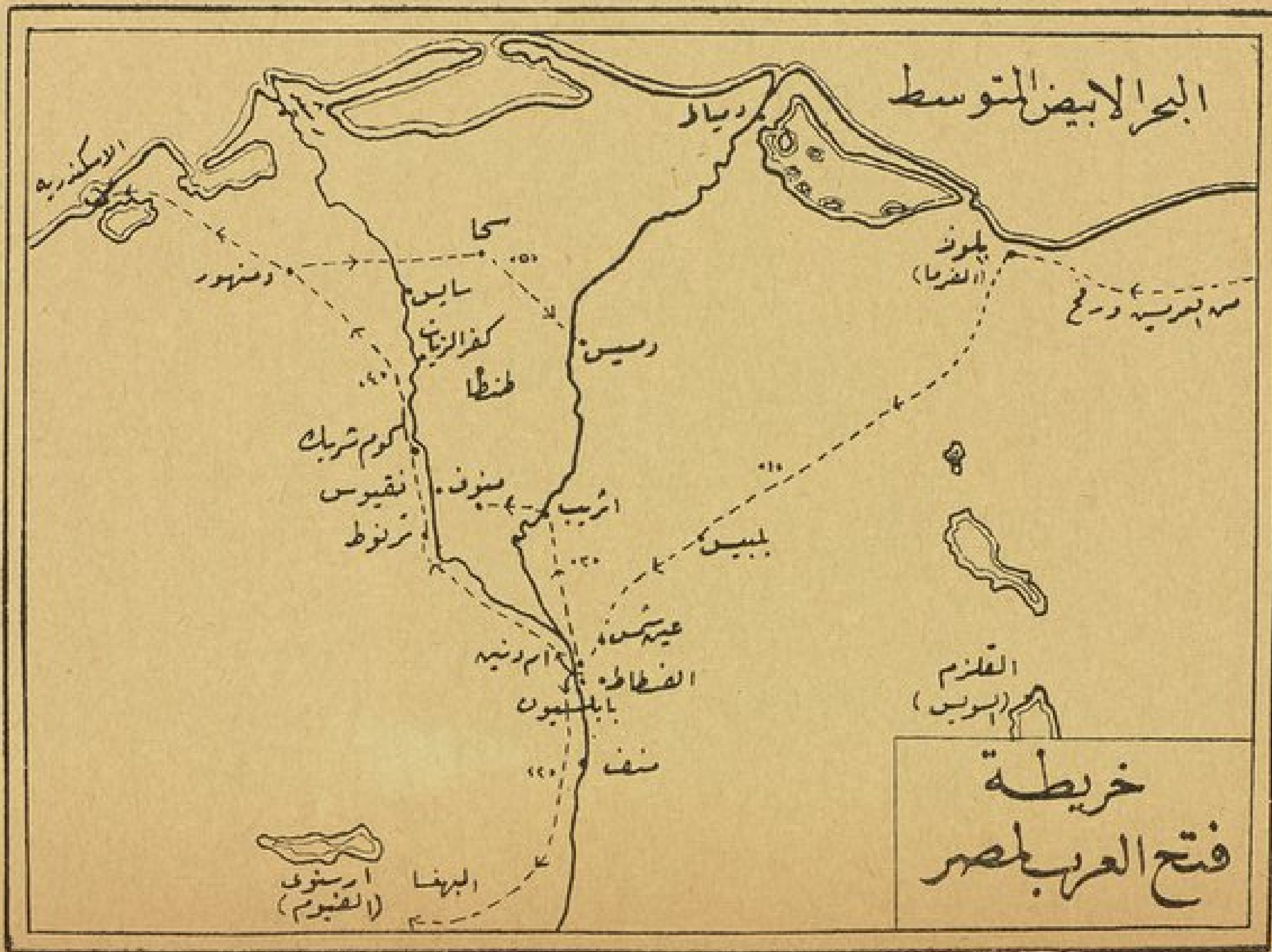
غادر عمرو العريش ، ولم يشتبك مع جند الروم فى قتال حتى وصل إلى مدينة الفرما وتسمى بلوزيم Pelusium ، وهى مفتاح الديار المصرية ، وكان لها ميناء على البحر المتوسط (وتقع شرقى بورسعيد الآن) ويوجد بها عدد من الحصون والكنائس والأديرة ، فحاصرها عمرو نحواً من شهر حتى تم له فتحها سنة ١٩ هـ . وقد نفى بتلر Butler قول المؤرخين إن القبط كانوا أعوانا للعرب على حصارها (٢) .

بعد ذلك سار عمرو حتى وصل إلى مدينة بلبيس ، واستولى عليها بعد شهر لم ينقطع فيه القتال . ويقال إن ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الروم كانت تقيم بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة ، واكتسب بذلك محبة القبط .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣ .

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٦٣ .


خريطة
فتح العرب لمصر
البحر الابيض المتوسط
دمياط
الاسكندرية
سخا
دمنهور
سايس
كفر الزيات
طنطا
رميس
بلوز
(الفرما)
كوم شريك
نقيوس
ترنوط
منوف
اثريب
بلبيس
عين شمس
ام دنين
الفسطاط
بابليون
منف
القلزم
(السويس)
البهنسا
ارسنوى
(الفيوم)

بعد استيلاء عمرو على بلبيس وصل إلى مدينة أم دنين، (١) وهناك نشب القتال بينه وبين الروم، وقد تحصن الروم فى بابليون، ودام القتال عدة أسابيع. ولما استبطأ عمرو أمر الفتح، كف عن القتال وأرسل إلى عمر يطلب المدد، لأن مركزه أصبح من الحرج بحيث استولى اليأس على جنود المسلمين، فبعث إليه عمر بن الخطاب بأربعة آلاف مقاتل، وبكتاب يقول له فيه: «قد أمددتك بأربعة آلاف، فيهم أربعة رجال، الواحد منهم بألف رجل». هؤلاء القواد الأربعة الذين قصدهم عمر، هم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، والمقداد ابن الأسود، وجميعهم من كبار أصحاب رسول الله (٢).

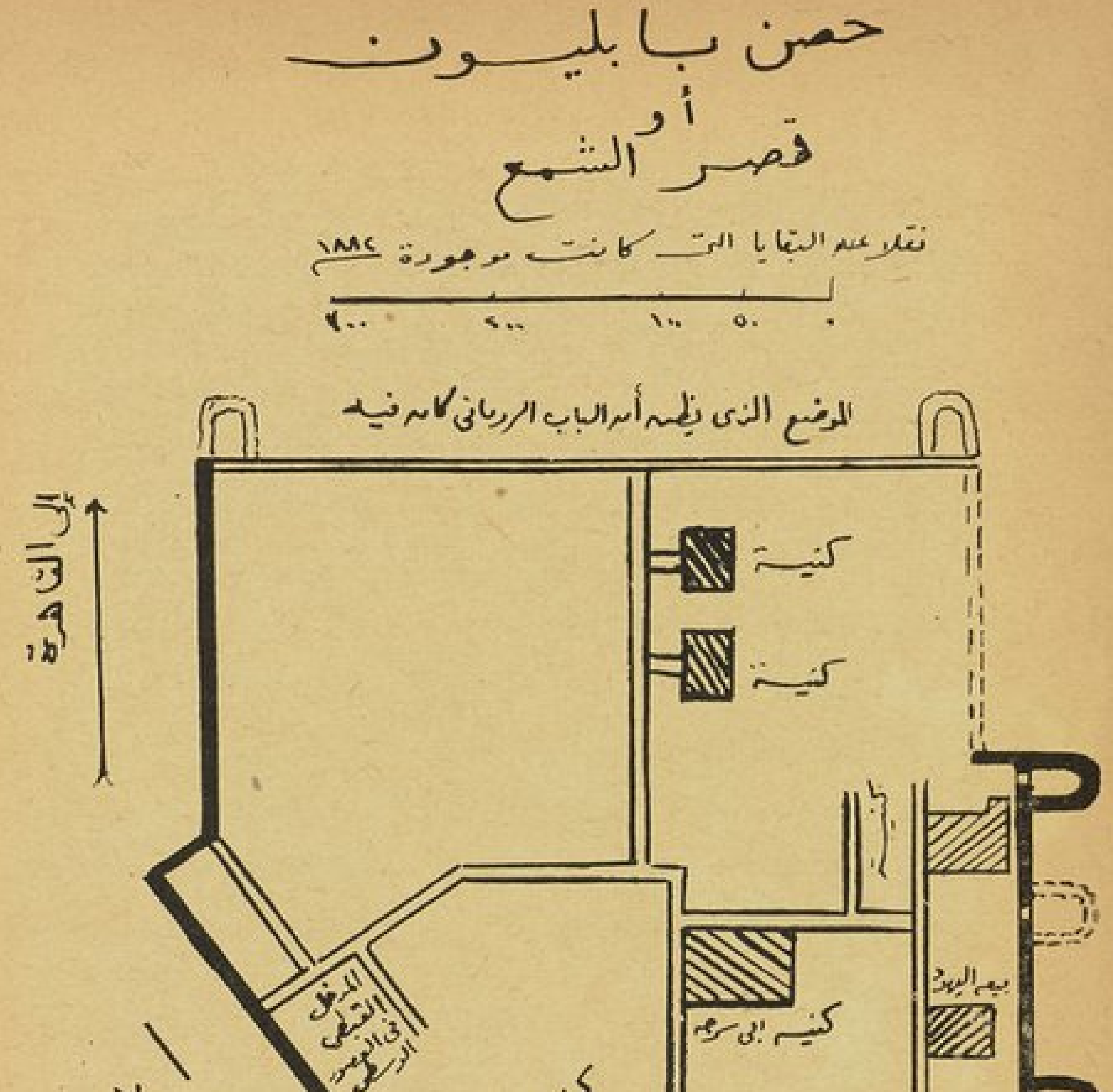
ولما وصل هذا المدد إلى عين شمس (هليوبوليس) سار عمرو بن العاص لملاقاته، فتقدم لقتاله تيودور Theodore ملك الروم فى عشرين ألف. فوضع له عمرو كمينا فى موضع خفى من الجبل الأحمر (شرق العباسية) وآخر فى النيل بالقرب من أم دنين. ولما بلغ القتال أشده خرجت القوة التى كانت كامنة فى الجبل الأحمر وانقضت على الرومان، فاختل نظامهم وذهبوا إلى أم دنين، فقابلتهم قوة العرب التى على النيل، فأصبحوا محصورين بين جيوش العرب، التى قضت على الروم، حتى لم يبق منهم سوى عدد قليل(٣)، سار فى النيل أو فر إلى حصن بابليون، الكائن فى مصر القديمة، والذى استمد اسمه من «بابليون»، التى أقامها فى هذه المنطقة الأسرى الذين وفدوا على مصر من «بابل»، وجدد بناءه الفرس ثم الرومان من بعدهم، وهو الأثر الوحيد الباقى من مخلفات الرومان فى مصر، ولا تزال بقاياه باقية إلى الآن فى حى مصر القديمة، وكانت أسوار هذا الحصن تضم مساحة من الأرض تزيد على الستين فدانا، وكانت أقوى حصون الديار المصرية على الإطلاق حتى الفتح العربى.

---

(١) كانت أم دنين تقع فى شمال حصن بابليون، وموقعها الآن حديقة الأزبكية تقريبا، وعرفت قبل الفتح باسم تندنياس Tendonias، وسماها العرب فيما بعد باسم «المقس» نسبة إلى قائد رومانى اسمه Maximas.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٥٦ . المقريزى: الخطط ج ١ ص ٢٨٩.

(٣) Lane —Poole : Egypt in the Middle Ages, p.5.



Butler : The Arab Conquest of Egypt. (١) راجع

بهذا ثبت قدم عمرو بن العاص فى أم دنين وفى عين شمس التى اتخذها عمرو مركزا لقيادته . ولم يبق أمامه إلا حصن بابليون(١) ، مقر القيادة والحامية الرومانية ، وكان يعرف أيضاً باسم « قصر الشمع » (٢) ، لحاصره سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) وكان هذا الحصن أقوى حصون مصر وأمنعها ، فلا عجب إذا طالت مدة الحصار حتى بلغت سبعة أشهر ، وخاصة أن وقت الحصار صادف زمن فيضان النيل .

ظل الحصار قائماً حتى لم يبق من هذه الأشهر السبعة إلا شهر . ولما رأى المقوقس تصميم العرب على فتح الحصن ، أرسل إلى عمرو يقول له « قد جئتم أرضنا وأنتم عصبة يسيرة ، وأخشى أن تغشاكم جموع الروم فتندمون ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعل أن يأتى الأمر بيننا وبينكم على ما نحب وتحبون » .

أتت رسل المقوقس إلى عمرو ، فأبقاهم عنده يومين ، ليتبينوا مدى قوة المسلمين ، ثم ردهم قائلاً « ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث : أما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين » .

---

(١) يرجع سبب تسمية حصن بابليون بهذا الاسم ، إلى أن عددا من الأسرى من مدينة بابل الأسيوية قد جىء بهم إلى مصر ، على يد الفرعون سيزوستريس وعهد إليهم القيام ببعض الأعمال العامة ، ثم انشأوا بعدها مكانا حصينا فى تلك البقعة سمى باسم « بابليون » نسبة إلى المدينة التى جاءوا منها . ويظهر أن هذا الإسم أطلق أيضا على مدينة كان مكانها فى مصر القديمة . وحلت محل منف وفاقت أعظم المدن المصرية القديمة ، وأخذ نجمها فى الأفول لما أنشأ العرب مدينة الفسطاط بعد الفتح الإسلامى . كما أن الأبراج والأسوار الظاهرة حتى اليوم إنما هى بقايا لحصن بابليون الذى استمد إسمه من المدينة العظيمة التى شيد فيها ، وقيل إن ذلك كان قبل عهد الفرس وإن الفرس جددوا بناءه بعد استيلائهم على مصر وإن الرومان وسعوا فى قلاعه وأبراجه ورفعوا أسواره بعد أن حلوا مكان الفرس فى حكم مصر ، وقيل إن تراجان أحد أباطرة الرومان هو الذى اهتم بإعادة بنائه فى مستهل القرن الثانى للميلاد ، وتضم أسواره ست كنائس قبطية ومعبدا لليهود .

(٢) إن مايطلق على هذا الحصن من عبارة « قصر الشمع » يرجع — على ماذكره المقريزى — إلى أن الفرس أثناء حكمهم مصر ، كانوا قد خصصوا قاعة كبيرة فى أحد أبراجه ، وكان من عادتهم أن يوقدوا شموعا كثيرة فى كل شهر ، وذلك فى ليلة انتقال الشمس من برج إلى آخر .

رجعت الرسل إلى المقوقس فسر بلقائهم ، وقد خاف عليهم أن يقتلهم العرب ، وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا : رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم».

أثار ذلك الكلام مخاوف المقوقس ، فأرسل إلى المسلمين ليبعثوا إليه رسلا يتفاوض معهم فى الصلح ، فبعث عمرو عشرة رجال، على رأسهم «عبادة بن الصامت». وكان رجلا طويلا عريضا أسود . وأعطى له تعليمات بألا يتعدى ثلاث خصال ليختار منها الروم واحدة ، وهى : الإسلام أو الجزية أو القتال . ولما بدأت مفاوضات الصلح . سلك المقوقس طريق الإرهاب المصوغ فى قالب النصيحة (١). فما كان من عبادة إلا أن قال : ياهذا ! لاتغرن نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جموع الروم وكثرتهم ، وأننا لا نقوى عليهم ، دع عنك كل هذا ، واعلم أن كل رجل منا يود ألا يرد إلى بلده ، ولا إلى أهله وولده ، فانظر الذى تريده فبينه لنا ، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ونجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل » .

طلب المقوقس إلى عبادة أن يجيبه إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ، فرفع عبادة يده إلى السماء ، وقال : « لا ورب السماء والأرض ، ورب كل شىء ، مالكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم » . فقال المقوقس لمن حوله : « أطيعونى ، وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله مالكم بهم طاقة ، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين ، لتجيبنهم إلى ماهو أعظم منها كارهين »(٢) .

عقب تلك المناقشات التى دارت بين المقوقس وبين عبادة ، عقد المقوقس اجتماعا قارن فيه بين حالتهم وحالة المسلمين ، ولكن الروم رفضوا الخضوع للعرب ، وصمموا

---

(١) حسن إبراهيم حسن : عمرو بن العاص ص ١١٥ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥١ — ٦٣ .

على مواصلة القتال . ورغم ذلك تفاهم المقوقس مع عمرو بن العاص على شروط الصلح التي يصح أن تبرم بينهما ، فكان أهمها :

١ — أن يفرض للمسلمين على جميع من بالديار المصرية من القبط ديناران(١)، ويستثنى من ذلك الشيوخ والنساء والصبيان .

٢ — للمسلمين حق الضيافة على الروم ، فمن نزل عليه ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليه ضيافته ثلاثة أيام.

٣ — تبقى للروم أرضهم وأموالهم على ماهى عليه ، لايتعرض لهم العرب فى شىء منها .

كتب المقوقس بذلك إلى الإمبراطور هرقل ، فأرسل إليه وإلى قواد الروم يعنفهم على تخاذلهم إزاء العرب ، فرفض الروم الصلح وقاتلوا العرب ، فقابلهم هؤلاء بالمثل . وفى تلك الأثناء تقدم الزبير بن العوام وأتى بسلم ، ووضعه بجانب الحصن وصعد عليه ، وأمرهم بالتكبير إذا سمعوا تكبيره ، فما شعر الروم إلا والزبير على رأس الحصن . فلم يشك الروم فى أن العرب اقتحموه وهربوا ، وتقدم الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، وكانت نتيجة ذلك أن طلب قائد الروم الصلح مع العرب ، فأجابه عمرو إلى طلبه . أما المقوقس فكان فى ذلك الوقت بعيداً عن مصر ، إذ استدعاه هرقل إلى القسطنطينية ، ونفاه إلى جهة لم يذكرها المؤرخون.

بعد أن تم فتح حصن بابليون ، سار عمرو إلى الأسكندرية ، وكانت مدينة حصينة ، عنى بتحصينها الرومان والبطالمة من قبلهم، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية فى ذلك الحين ، كما امتازت بتوالى وصول المدد إليها من الروم ، وبعد قتال دام أربعة عشر شهراً فتحها المسلمون .

وكان من أهم أسباب تسليم الأسكندرية هو : ضعف حكومة القسطنطينية بعد موت هرقل ، وسآمة أهل الأسكندرية من اضطهاد البيزنطيين الدينى لهم ، وإقناع المقوقس لأهلها بأن حكم العرب خير لهم من حكم الرومان .

بذلك تم فتح الأسكندرية ، ولكن عمرو بن العاص رأى أن يعامل المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، ليستجلب بذلك محبتهم ، وكان المقوقس هو الذى

---

(١) الدينار = ٥٥٫٥٠ قرشا .

عقد هذا الصلح مع العرب ، إذ عاد إلى مصر من منفاه بعد موت هرقل . ومن أهم شروط هذا الصلح :

١ — أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين فى كل سنة ، ويعفى الشيوخ والنساء والأطفال من دفعها .

٢ — عقد الهدنة بين العرب والروم لمدة أحد عشر شهراً .

٣ — ألا يباشر العرب أثناء الهدنة أعمالا حربية ضد الأسكندرية ، كما أن على الجنود الرمانية الكف عن الأعمال العدائية .

٤ — ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وأن لا يتدخلوا فى أمور المسيحيين .

٥ — بقاء اليهود فى الأسكندرية .

٦ — ألا يحاول استرداد مصر جيش رومانى .

٧ — أن يكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ جنديا و٥٠ ملكيا بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة .

٨ — أن ترحل الجنود التى فى الأسكندرية مع مايملكون من أموال وأمتعة ، وأن يدفعوا الجزية عن شهر واحد عند رحيلهم .

وذكر بعض المؤرخين أن هذه الهدنة عقدت إلى أن يرد كتاب عمر بإقرار شروط الصلح بين عمرو والمقوقس .

وهكذا تم لعمرو فتح مصر ، فزال سلطان الروم عن هذه الديار ، وأصبحت مصر ولاية عربية إسلامية ، يدين معظم أهلها بالإسلام ، عليها وال من قبل الخليفة عمر ، هو عمرو بن العاص ، وقدر لمصر على مر الأيام أن تقوم بذلك الدور الخطير فى تاريخ الشرق العربى .

موقف سكان مصر إزاء الفتح العربي :

وهنا ينبغى أن نبين موقف الطوائف الآتية إزاء الفتح :

١ — الروم : كانوا الطبقة التى وقفت أمام العرب . باعتبارهم حكام البلاد ومستغلى خيرتها وقاموا بكل المعارك التى نشبت بينهم وبين عمرو . وقيل إن الإغريق شاركهم فى موقفهم إزاء العرب ، ولذلك رحلوا عن الأسكندرية بعد الفتح الإسلامى .

٢ — اليهود : اتخذوا موقف الحيدة إزاء الفاتحين ، فلم يحاربوهم ولم يثوروا عليهم ، وكان وقوفهم ذلك الموقف هو نتيجة ما أصاب تلك الطائفة من الضنك لسوء الحالة الاقتصادية ، ونزاعهم الدائم مع طبقة الإغريق ، وغضب الروم عليهم . ومما يؤيد تلك الحيدة أن عمراً حين عقد الصلح بينه وبين الروم على أثر دخوله الأسكندرية منتصراً ، نص على أن يبقى اليهود فى الأسكندرية .

٣ — القبط : هم سكان مصر الذين نزل بهم عسف الروم ، حتى تمنوا الخلاص من حكمهم ، ولو حلت دولة أخرى محلهم ، فقد رحب القبط بالفرس عند مادخلوا البلاد المصرية قبل الفتح العربى بربع قرن تقريبا ، ولكن سرعان ما استرد الروم بلادهم وعادوا إلى حكمهم بالقهر والجبروت ، ولما جاء العرب إلى مصر واحتاجوا إلى من يشد أزرهم وجدوا فى القبط خير معين ، وليس هناك مايدل على أن القبط ساعدوا العرب فى سيرهم من العريش حتى فتحوا حصن بابليون ، ولكن الثابت أنهم لم يساعدوا الروم ضد العرب ، وأنهم أمدوا العرب بالعلوفة والمؤن وغيرها .

ومما رواه ابن عبد الحكم يتبين لنا أن القبط عمدوا إلى مساعدة العرب فهو يقول « وكان بالأسكندرية عند الفتح (فتح العرب لمصر) أسقف للقبط ، يقال له بنيامين ، فلما بلغه قدومه (قدوم عمرو بن العاص) إلى مصر ، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال إن القبط الذين بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا » . وجاء فى كتاب هرقل

إلى المقوقس نقلا عن ابن عبد الحكم : « إنما أتاك من العرب إثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى ، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم ، فإن عندك بمصر من الروم بالأسكندرية العدد الوفير » . وجاء في كتاب ابن عبد الحكم أيضاً « إن المقوقس طلب أن يعامل معاملة القبط ، فيدفع الجزية وإياهم ، فقبل عمرو » . ثم قال ابن عبد الحكم بعد ذلك : «إن عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حتى أمكنهم الخروج من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطرق وأصلحوا لهم الجسور والأسواق ، قاصدين الأسكندرية »(١) . بذلك يتضح لنا أن القبط ساعدوا العرب مساعدة جدية ولم يكتفوا بالحياد .

عوامل انتصار العرب :

على أن مساعدة القبط للعرب لم تكن العامل الأساسي الذى سهل انتصارهم على الروم ، فإن هذا النصر يرجع إلى عاملين أساسيين : أحدهما معنوى ويتعلق بتأثير الإسلام فى نفوس القبائل العربية التى خرجت من الصحراء باحثة عن السلطان والثروة والملك ، وثانيهما مادي ويتعلق بظروف مصر الداخلية التى قضت الحوادث أن تكون تحت حكم العرب وكذلك بظروف الدولة البيزنطية التى لم يكن بين شعوبها رابطة أو تآلف .

أما العامل المعنوى فآثاره قوية بارزة : طلع الدين الجديد على قبائل مشردة تعبث بعقليتها التقاليد الوثنية(٢) وتمزقها الحروب الأهلية ، وكان العرب يشعرون بالحاجة إلى دين أمتن فى نظمه وأنقى فى تعاليمه وتقاليده من الوثنية المضطربة المنحلة ، فألف الإسلام بين القبائل العربية وأمدها بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية . بل إن سكان مصر كانوا يشعرون بالحاجة إلى تعاليم جديدة ترضى مشاعرهم الدينية بأكثر مما كانت ترضيها تعاليم المسيحية التى كانت تضطرم بالخلاف ويحوطها الجدل .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) راجع ما كتبناه عن الديانة الوثنية عند عرب الجاهلية فى كتابنا «التاريخ الإسلامى العام » ص ١٣٠ـ١٧٥ .

وأما العوامل المادية فترجع إلى اضمحلال الدولة البيزنطية وإلى الفوضى السياسية والاجتماعية التى كانت تقوض من صروح سيادة الدولة ومنعتها، إذ أن القوانين الرومانية كانت وحدها شر ممزق لوحدة الدولة الشرقية وأشد بواعث الانحلال والتفرق لأقطارها ورعاياها . وكانت الجيوش الرومانية قد فقدت صبغتها القومية واندس فيها المرتزقة وأبناء البلاد المفتوحة، وكان لهذا المزج بين العناصر الرومانية والعناصر الأجنبية أكبر الأثر فى انحلال عصبية الدولة .

ولا يمكننا أن نغفل أن العرب كانوا يجيدون بعض الفنون الحربية التى لا يجيدها خصومهم كفن الرماية . وكذلك كانت معظم الجيوش العربية تتكون من الخيالة ، أما الروم فكانت معظم جيوشهم تتكون من المشاة ، وكانوا يستعملون العدد الثقيلة التى تعوق حركات الجيش ، على حين كانت عدد الحرب عند العرب بسيطة ، فكانوا يستعملون الرمح الذى نسمع عنه كثيراً فى تشبيهات العرب وأشعارهم، ويستعملون السيف الذى يعد من أشرف أسلحتهم . وامتاز العرب عن أعدائهم من الروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بالقليل من الزاد ، كما امتازوا بالحماسة الدينية واعتبار الحرب واجباً مقدساً يقومان لدى الفتية الأحداث مكان النظام والكفاية، بل كانت هذه الحماسة تبز شجاعة الجنود الرومانية وتطغى عليها ، ثم أن الطاعة العمياء لأوامر الرؤساء والقادة كانت خاصة واضحة فى الصفوف العربية .

أضف إلى ذلك أن سياسة بطارقة الإسكندرية كانت تجنح إلى مؤازرة العرب لما كان بينهم وبين الأباطرة من خلاف ، وخاصة حين آنسوا من وقوف العرب عند حد الفتح والإحجام عن محاربة الشعائر . وكان فريق كبير من نصارى مصر يحبذ سياسة البطارقة لاسيما فى عهد هرقل الذى رموه بالكفر ، بعد أن أيقنوا من عدالة العرب واعتدالهم فى حروبهم بعدم السماح لجندهم بالعبث فى البلاد ومنعهم من إيذاء الأهلين .

إزاء هذه العوامل كان صد الفتح العربى ، من جانب المقوقس حاكم مصر من قبل الإمبراطور البيزنطى ، أمراً عسيراً .

ثانياً — عهد الخلفاء الراشدين فى مصر

(٢٠ — ٤٠هـ = ٦٤٠ — ٦٦١م)

ولاية عمرو الأولى على مصر :

(٢٠ — ٢٤هـ = ٦٤٠ — ٦٤٤م)

أصبحت مصر بعد الفتح العربى (سنة ٢٠هـ) ولاية تابعة للخلافة الإسلامية ، وظلت على هذه التبعية أكثر من قرنين وربع قرن ، إلى أن حكمها الطولونيون (٢٥٤هـ = ٨٦٨م) فأصبحت البلاد فى عهدهم دولة مستقلة .

كان عمرو بن العاص فاتح مصر هو أول وال عليها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب . وكانت سياسة عمرو فى حكم مصر ترمى إلى التحبب إلى المصريين ، وإلى نشر الأمن . وكان عمرو من بعد النظر بحيث استطاع أن يؤلف بين القبط والمسلمين ، يدل على ذلك كتاب الأمان الذى بعث به إلى بنيامين بطريرك القبط ورده إلى كرسيه بعد أن أقصاه عنه الروم ، ومنحه عمرو إدارة شئون الكنيسة ، فعاد بنيامين إلى الأسكندرية بعد أن غاب عنها ثلاث عشرة سنة فراراً من الروم(١) وبذلك تبع عمرو سياسة حكيمة إزاء المصريين وأطلق لهم حرية العقيدة الدينية وأمنهم على أموالهم ونسائهم .

وعمل عمرو منذ ولى مصر على تنظيم إدارتها وإدخال كثير من الإصلاحات على مرافقها ، فنظم الخراج وعهد إلى القبط بأمر جبايته ، وحث جنده على الانتشار فى الريف ، ونصحهم بالاختلاط بالقبط وأوصاهم بهم خيراً ، وأشار عليهم بأن يمتعوا أنفسهم بخيرات مصر وبأن يتعهدوا خيلهم ليكونوا دواما على استعداد للقتال .

وكان أول ماقام به عمرو بن العاص فى سبيل الإصلاح ، تأسيس مدينة الفسطاط

---

(١) يطلق مؤرخو التاريخ الإسلامى كلمة «الروم» على الدولة البزنطية والبزنطيين .

فى الموضع الذى أقام فيه فسطاطه (خيمته) أمام حصن بابليون (فى مصر القديمة) واتخاذها حاضرة لمصر سنة ٢٠هـ . ووقع اختياره على منطقة قريبة من النيل وجبل المقطم ، واتخذ بها داراً له ، وقسمها إلى خطط أو حارات ، وعرفت هـذه المنطقة بالفسطاط . وكانت شوارع مدينة الفسطاط أشبه بحارات مصر اليوم ، تتكون بيوتها من طبقة واحدة ثم أخذت تزداد فى الاتساع والعلو حتى بلغت طبقاتها ثمانيا . وقد تقدمت الحضارة والمدنية فى مدينة الفسطاط فى العصر الإسلامى، فاختطت بها الشوارع والحارات ، وغرست بها البساتين ، وشـيدت فيها بعض المبانى العامة ، كالحمامات والفنادق والوكالات والأسـواق ومعامل قصب السكر ومعاصر الزيوت كما اتسعت تجارتها إلى حد يفوق الوصف ، وأصبحت أولى عواصم مصر الإسلامية .

وإلى الشمال من حصن بابليون ، أسس عمرو بن العاص سنة ٢١هـ المسجد العتيق ، المعروف الآن بجامع عمرو ، وهو أول جامع بنى فى مصر . وكان طوله أول الأمر خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ، وكان له ستة أبواب ، ولم يكن له صحن ولا محراب مجوف ، وكان سقفه منخفضاً . وقد تولاه ولاة مصر بالزيادة كمسلمة بن مخلد الأنصارى وعبد العزيز بن مروان ، فظل المسجد عامراً بالناس يؤمونه للصلاة فى كل يوم .

وفى سنة ٢٣هـ أعاد عمرو حفر قناة نخاو التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر وأطلق عليها إسم « خليج أمير المؤمنين » لتصل الأقوات بواسطتها فى المراكب إلى الحجاز . كما أنشأ مقاييس للنيل فى مواضع مختلفة على جانبيه ، ليستطيع بواسطتها تحديد مقدار الخراج وتوزيعه على البلاد(١) .

وقد راعى عمرو بن العاص مقدرة أهل مصر فى دفع الضرائب ، وعمد إلى صرف بعض ما يجبى منها لدفع أرزاق الموظفين والجند ، وعلى المنشآت العظيمة وأعمال الإصلاح التى قام بها عصره . ومن أهم ما عرف عن ولاية عمرو الأولى على مصر ، ذلك الخلاف الذى قام بينه وبين الخليفة عمر على مقدار الخراج والذى دارت بينهما من أجله تلك المكاتبات الطويلة(٢) ، وكان خراج مصر قد وصل فى عهد المقوقس

---

(١) سيأتى تفصيل الكلام على منشآت عمرو فى باب (المنشآت) .
(٢) راجع باب (الحالة الاقتصادية) .

إلى عشرين مليون دينار ، ولـكن لم يزد فى السنة الأولى من ولاية عمرو عن عشرة ملايين دينار ، وعن إثنى عشر مليون دينار فى السنة الثانية ، وذلك لأن عمرا راعى حالة النيل من حيث زيادته ونقصانه حتى اضطر أحيانا إلى تأجيل دفعه .

حريق مكتبة الاسكندرية :

ومن الأمور التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسيرة عمرو بن العاص ، مانسب إليه من أنه أحرق ، بأمر الخليفة عمر ، مكتبة الأسكندرية ، التى أسسها بطلميوس الأول ، والتى كانت تشغل جزءاً كبيراً من السرابيوم ، حيث يوجد هيكل سيرابيس القريب من عمود السوارى (فى كرموز) وأمها جمهور الطلاب والمفكرين للدرس والمطالعة وعهد بإدارتها إلى كاليماخس ، وهو عالم كبير ، قام بوضع دليل واف ، سهل على روادها مراجعة الـكتب التى يريدونها . وكانت معظم كتب هذه المـكتبة عبارة عن لفائف من البردى نسخت عليه أكثر المؤلفات القيمة القديمة . ويرجع الفضل لهذه المـكتبة فى ترجمة التوراة [١] إلى اللغة الإغريقية فى عهد الملك بطلميوس الثانى ، لتـكون إحدى ذخائر المـكتبة ، وزخرت مكتبة الإسكندرية فى عهد بطلميوس الأول وبطلميوس الثانى بآلاف الـكتب النادرة ، حتى وصل عدد مجلداتها إلى أربعة آلاف مجلد ، عدا تسعين ألف مجلد كانت بالسرايا الملـكية .

وكانت أول ضربة أصيبت بها مكتبة الإسكندرية ، سنة ٤٨ قبل الميلاد ، وذلك عند قدوم يوليوس قيصر لتأييد كليوباترة ضد أخيها صاحب العرش الشرعى . فقد لجأ يوليوس إلى الشعب الأسكندرى لنصرته ضد الغاصب ، وهنا قامت حرب الإسكندرية ، وقام أشيلاس القائد المصرى ، وحاصر القصر ، وأضرم النيران فى أسطول قيصر ، وكان لهب النار شديداً لدرجة أنها وصلت إلى الأرصفة ، وأحرقت مخازن الجمارك والشون ومخازن الـكتب التابعة للمـكتبة .

---

(١) تم ذلك ، بعد أن اقترح ديمتريوس أمين المـكتبة إذ ذاك ، الشروع فى هذه الترجمة ولإنجازه أرسل بطلميوس الثانى بعثة إلى بيت المقدس ، أتت إلى الاسكندرية باثنين وسبعين عالما ، وهؤلاء قاموا بالترجمة فى ٧٢ يوما ، ولما تمت ، قرئت على يهود الاسكندرية ، فوافقوا عليها ، ومن هنا جاء اسم الترجمة السبعينية .

وهنا ، نسب إلى عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر ، أنه هو الذى أمر بإحراق مكتبة الاسكندرية . وقد تباينت أقوال المؤرخين فى مبلغ صحة هذه الرواية . وكان الرحالة عبداللطيف البغدادى الذى زار مصر بين سنتى ٥٩٥ و ٥٩٨ هـ ، أول من نسب هذا الحريق إلى عمرو وأيده فى روايته أبو الفرج الملطى . روى عبداللطيف أنه سمع عن مكتبة كانت قائمة فى الإسكندرية ، وأن هذه المكتبة لم يعد لها وجود ، وذكر أن الذى أحرقها هو عمرو بن العاص ، بناء على ما سمعه من الأقوال المتواترة والأحاديث التى يرددها العامة إذ ذاك . على أن العلماء الذين لا يستبعدون أن يكون عمرو بن العاص قد أحرقها وبدد كتبها ، يستندون إلى أن غيره من الفاتحين قد فعلوا مثله ، فقد أحرق العرب أنفسهم — على حد قول حاجى خليفة — مكتبات فارس عند فتحهم لها سنة ١٥ هـ ، كما بدد هولاكو زعيم المغول كتب مكتبات بغداد ورمى بها فى نهر دجلة وقت الفتح المغولى لبغداد واستيلائهم عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م).

لكن نسبة الحريق إلى عمرو غير صحيحة للأسباب الآتية :

١ — أن رواية كل من عبداللطيف وأبى الفرج ظهرتا بعد ستة قرون من وقوع الحريق ، فلو سلمنا جدلا بصحتها لما مر عليها أقدم المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، أمثال : اليعقوبى ، والبلاذرى ، وابن عبدالحكم ، والطبرى ، والكندى ، ومن أخذ عنهم كابن الأثير ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى ، دون أن يتعرضوا لها ، مع أن تاريخهم عن مصر يعد من أهم المصادر التى يعتمد عليها .

٢ — ذكر أبو الفرج الملطى أن كتب المكتبة اتخذت وقودا لأربعة آلاف حمام لمدة ستة أشهر ، وهذا غير معقول لأن عمراً لو قصد تدمير المكتبة لأحرقها فى الحال .

٣ — أكد كثير من المؤرخين أن يوحنا النحوى ، الذى قابل عمرو بن العاص وكلمه فى شأن هذه الكتب والذى ذكره أبو الفرج الملطى فى روايته تأييداً لأقواله ، مات قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بثلاثين أو سبعين سنة ، فإن صح هذا القول تنهدم الرواية من أساسها .

٤ — إن ما عرف عن العرب ، من إطلاق سراح الأسير سواء كان مسيحيا أو وثنيا إذا علم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة ، وما عرف عنهم من محافظتهم على

الكتب الدينية المسيحية واليهودية ، يبين لنا أن هذه الرواية لا تتفق وأخلاق العرب (١) .

٥ — والواقع أن حالة مكتبة الأسكندرية انحطت كثيرا بعد الاحتلال الرومانى عند نهاية القرن الثانى الميلادى بسبب نقل كثير من الكتب إلى روما ، وبسبب حوادث النهب والسلب فى عهد الإمبراطور كراكلا . وبلغت الحالة السياسية حداً من الاضطراب ، جعل المكتبة فى حالة ركود تام. وزاد حالتها سوءا انتشار المسيحية وما قام به المسيحيون لهدم آثار الوثنية والقضاء عليها ، وحين لجأ رجال الوثنيه إلى معبد السرابيوم أمر البطريرق بناء على أمر الإمبراطور بهدم هذا المعبد وكسر صنم سرابيس الشهير ، وأضرم النيران فى آخر ملجأ للوثنية ، وذهب فى هذا الحريق جزء كبير من المكتبة ، ولم يبق منها غير مجموعات قليلة من الكتب .

وبذلك تتضح براءة القائد العربى عمرو بن العاص من تهمة تسببه فى إحراق مكتبة الإسكندريه ، التى ألصقها به الرحالة عبداللطيف البغدادى ، وجاراه فيها المؤرخ أبو الفرج الملطى .

مصر أثناء الفتنة التى انتهت بقتل عثمان .

وبعد أن تولى عثمان بن عفان الخلافة سنه ٢٣ هـ بعد مقتل عمر بن الخطاب ، أمر سنه ٢٤ هـ (٦٤٤ م) بعزل عمرو عن ولاية مصر ، ولكن عمرا إحتفظ بعد عزله بمكانته من نفس عثمان ، فاستشاره ، وأسدى له عمرو النصح . ورغم ذلك فقد قيل إن عمراً فارق أخت عثمان لأبيه ، حين عزله عن ولاية مصر وعمل مع الساعين لخلعه ، لأنه رأى أن الخليفة قد أساء إليه فى الوقت الذى كان ينتظر فيه أن يكافئه على جهاده فى سبيل تثبيت قدم العرب فى فلسطين ومصر وفى برقه وطرابلس .

ولى عثمان على مصر بعد عمرو ، أخاه فى الرضاعه عبدالله بن سعد بن أبى السرح ، فتشدد مع الأهالى فى جباية الضرائب وأسرف فى سفك الدماء . وكانت

---

(١) راجع ، حسن إبراهيم حسن : عمرو بن العاص ص ١٠٦ — ١١٨ .

هذه السياسة ، هى التى سار عليها ولاة عثمان على الأمصار الإسلامية وأدت إلى قيام الفتنة التى انتهت بقتل عثمان . ويهمنا أن نتتبع مركز مصر فى تلك الفتنة .

أذكى نيران هذه الفتنة فى مصر ، رجل من أهل صنعاء باليمن ، هو عبد الله بن سبأ ، وكان فى بادىء أمره يهودياً ثم أسلم على ما قيل ، وأخذ بعد ذلك يتنقل فى الولايات الإسلامية ، فبدأ بالحجاز ، فالبصرة ، فالكوفة ، ثم الشام .

كان أول من حمل الناس على كره عثمان ، أبو ذر الغفارى من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، بتحريض عبدالله بن سبأ . ولما جاء ابن سبأ إلى الشام ، لم يجد من أهلها أذناً مصغية ، اللهم إلا من أبى ذر ، فقد كان أهل هذه البلاد يميلون إلى معاوية الذى استعمر بلاد الشام بذوى قرباه وأنصاره الذين جذبهم إليه بالعطايا والمنح ، أما أبو ذر فقد نفاه عثمان إلى الربذة (قرية على مقربة من المدينة) ، وبقى بها إلى أن مات سنة ٣١ هـ .

على أن موت أبى ذر ، لم يضعف من قوة الحملة التى شنها ابن سبأ على عثمان ، إذ وجد الطريق ممهدة أمامه لإسقاطه ، وعلى الأخص فى مصر حيث انضم إليه محمد ابن أبى حذيفة ، وكان عثمان لم يجبه إلى طلبه بتوليته بعض الأعمال .

ونشر ابن سبأ مذهب الرجعة فى مصر ، أى رجعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم ظهر فى الإسلام مذهب تناسخ الأرواح وهو خروج الروح من الجسد وحلولها فى جسد آخر ، ثم نشر مذهب الوصاية ، بمعنى أن علياً وصى محمد وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين ، وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من وصى رسول الله .

واستطاع ابن سبأ أن يحض الناس على الطعن فى عثمان ، وبث دعاته فى البلاد ، واتصل بالثائرين فى الولايات الإسلامية بواسطة الرسل والكتب ، ولما بلغ عثمان ذلك أرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، للقضاء على حركة ابن سبأ ، إلا أن أتباع ابن سبأ استمالوا ابن ياسر إلى جانبهم .

اشتدت الثورة على عثمان فى مصر ، حين خرج محمد بن أبى حذيفة على عقبة ابن نافع والى مصر بعد عبد الله بن أبى السرح ، وكان عثمان قد بعث فى طلب ابن

أبى السرح هو وغيره من ولاة الأمصار ، ليوضحوا له حالة البلاد الإسلامية وليتشاور معهم فيما يجب عمله للقضاء على الفتنة ، واستطاع الثوار فى مصر أن يثيروا السخط والعداء نحو عثمان وولاته فى نفوس الناس ، حتى إنهم تمكنوا من طرد والى مصر عقبة بن نافع من الفسطاط .

وكان نتيجة ذلك كله أن خرج الثوار من كل من مصر والكوفة والبصرة ، ويبلغ عددهم نحو ستمائة رجل ، وتقابلوا خارج المدينة المنورة للاتفاق على طريقة عزل عثمان والتشاور فيمن يولونه الخلافة من بعده . لكنهم اختلفوا فيمن يحلونه محل عثمان : فمال أهل البصرة إلى طلحة ، وأهل الكوفة إلى الزبير ، وأهل مصر وعلى رأسهم ابن سبأ إلى على بن أبى طالب . وفى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ قتل عثمان ، وفى الخامس والعشرين من هذا الشهر تولى الخلافة على بن أبى طالب ، وبذلك رجح رأى أهل مصر .

بعد مقتل عثمان ، عاد وفد مصر من أنصار ابن سبأ إلى بلادهم ، فلما دخلوا الفسطاط ارتجز رجل منهم يفتخر بما أوتوا من نصر ، وبما كان لهم من أثر فى فتنة عثمان ، فقال :

خذها إليك واحذرن أبا حسن ... إنا نمر الحرب إمرار الرسن (١)

بالسيف كى تخمد نيران الفتن

ولاة مصر فى خلافة على :

أغضب مقتل عثمان شيعته فى مصر وأثار حفيظتهم ، فصمموا على الثأر لقتله والمطالبة بدمه ، وبايعوا رجلا منهم يدعى معاوية بن حديج (٢) ، سار إلى الصعيد

---

(١) الرسن : حبل يربط به رأس الدابة مع أنفها .

(٢) ويكنى أبا عبد الرحمن وهو الذى قتل محمد بن أبى بكر بأمر عمرو بن العاص ، وغزا إفريقية ثلاث مرات فأصيبت عينه فى إحداها ، وقيل أيضا إنه غزا الحبشة مع عبد الله بن أبى سرح فأصيبت عينه هناك . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج١ ص ٢٠٦ .

ومعه أتباعه ، فبعث إليهم محمد بن أبي حذيفة والى مصر السابق من قبل على جيشاً ، والتقى الجمعان بنواحى الفيوم ، فهزم أصحاب محمد بن أبي حذيفة ، وسار ابن حديج حتى بلغ برقة ثم رجع إلى الأسكندرية .

وكان هناك عامل آخر خارجى نازع سلطان العلويين فى مصر ، هو حزب الأمويين فى الشام ، وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان ، وكان يعمل على سلخ مصر من على بن أبي طالب . وقيل إن معاوية سار سنة ٣٦ هـ إلى مصر ونزل بلدة سلمنت من كورة عين شمس ؛ فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأنصاره ، ولكن قبض على ابن أبي حذيفة وسيق إلى الشام حيث قتل هو وبعض أنصاره .

لما بلغ على بن أبي طالب مقتل ابن أبي حذيفة ، ولى مصر قيس بن عبادة الأنصارى ، فدخلها فى ربيع الأول سنة ٣٧ هـ ، وكان سديد الرأى قوى البأس . استمال إليه أنصار عثمان وأحسن إليهم ، وكانت أغلبية أهل مصر فى ذلك الوقت من أنصار على . وقد حاول معاوية وعمرو فى عهد ولاية قيس ، التغلب على مصر دون جدوى ، ولذا أعملا الحيلة لإخراجه من هذه البلاد ، بأن أذاع معاوية بين أهل الشام أن قيساً من شيعة عثمان ، وأن كتبه تأتيه . فلما سمع على بذلك ، أمر قيساً بمحاربة الناصرين لحزب عثمان ، وكانوا يعرفون باسم العثمانية ، ولكنه أجابه بأنه أمنهم على حياتهم ليأمن جانبهم ، فعزله على عن ولاية مصر . وخلفه الأشتر بن مالك ، إلا أن هذا الوالى لم يكد يصل إلى القلزم (السويس) حتى شرب شربة من العسل لايبعد أن يكون قد دس له فيها السم ، فمات .

وتولى بعده على مصر ، محمد بن أبي بكر ، فطغى وتكبر وأساء إلى العثمانية أنصار عثمان ، وبعث إلى زعيمهم معاوية بن حديج يدعوه إلى بيعة على فلم يجبه إلى طلبه ، فهدم دورهم ونهب أموالهم ، وآذى أولادهم وحبسهم ، فعولوا على قتاله ، ولكن ابن أبي بكر رأى أن يتلافى ماقد يجره اشتباكه معهم فى القتال فصالحهم ، ثم سيرهم إلى الشام .

ولم يفتر معاوية عن العمل على انتزاع مصر من على ، فزحف عمرو بن العاص

على مصر على رأس جيش من أهل الشام ، وحمى وطيس القتال [1] ، فهزم أهل مصر ودخل عمرو الفسطاط ، وأحضر محمد بن أبى بكر ، والى مصر من قبل على ، وانتقم منه عمرو شر انتقام بأن قتله ووضع جثته فى جيفة حمار ثم أحرقها بالنار . وبذلك خلصت مصر لمعاوية .

وهنا نوضح الظروف التى أدت إلى أن يولى معاوية قائده عمرو بن العاص،دون سواه ، ولاية مصر من جديد .

نهاية حكم الخلفاء الراشدين فى مصر :

رأى على بن أبى طالب أن من أول واجباته عزل معاوية عن الشام . فلم يذعن معاوية لهذا القرار بل أصر على أن يقاتل علياً بجند الشام ، فأجمعوا على قتال على ، اعتقاداً منهم أنه هو الذى حرض على قتل عثمان وآوى قتلته .

ولما بلغ علياً أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام ، سار فى شوال سنة ٣٦ هـ إلى صفين ، وسار معاوية إلى الشام ، وفى صفين التقى الطرفان فى أوائل ذى الحجة من تلك السنة ، وانتهى هذا الشهر فى مناوشات بسيطة بين الفريقين لم تسفر عن نتيجة ، ثم جاء محرم سنة ٣٧هـ فتهادن الفريقان ، إما لاستئناف المفاوضات أو اتباعا للعادة العربية القديمة ، وهى عدم القتال فى الأشهر الحرم .

انقضى محرم وبدأ صفر ، فمل كلاهما هـذه الحال ، وبدأت واقعة صفين وفيها هزم معاوية وقائده عمرو بن العاص ، ولـكن معاوية لجأ إلى المكيدة واستشار عمراً ، فأشار عليه بتحكيم القرآن بدل السيف ، وعلى أثر هذه الخدعة انقسم جيش على ، فإنه لما حاول أن يقنع المنقسمين بالأخذ برأى معاوية لم ينجح ، وانتهى الأمر

---

(١) يسمى ذلك القتال « يوم المسناة » . قال عمرو بن العاص فيه : « شهدت أربعة وعشرين زحفا ، فلم أجـد يوما كيوم المسناة ، ولم أر الأبطال إلا يومئذ » ، وكان ذلك فى صفر سنة ٣٨ هـ .

بخروج بعض المتحاربين من صفوف القتال ، احتجاجاً على إيقاف الحرب ، وهؤلاء عرفوا فى التاريخ باسم « الخوارج » .

ارتضى الفريقان التحكيم ، فندب على أبا موسى الأشعرى ، وندب معاوية عمراً ، وانعقدت محكمة التحكيم فى دومة الجندل (١) ، وظل الفريقان يجتمعان ويتفاوضان فى الأمر ، حتى اتفقا على فكرة أساسية ، هى خلع كل من على ومعاوية ، وترك الأمر شورى ليختار المسلمون من يريدون ، وهى فكرة تظهر فيها الغفلة من جانب أبى موسى ، فمعاوية لايخسر بهذا القرار شيئاً ، لأن المسلمين لم يبايعوه كما بايعوا علياً من قبل . وقدم أبو موسى للكلام من قبيل الاحترام لسنه ، وهنا يظهر مكر عمرو ، إذ أراد أن يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ثم يعمل هو مايريد . نهض أبو موسى وخطب خطبة تتضمن هذا الاتفاق ، أى عزل على ومعاوية ، أما عمرو فأكد ماقاله أبو موسى خاصا بعزل على ، ثم أيد صاحبه وثبت سلطانه .

وإن الناظر فى أمر التحكيم يجد أنه لايقوم على أساس ، إذ لم يكن من وراء الحكمين قوة تستطيع تنفيذ حكمهما ، بعد أن اتفقا على خلع على ومعاوية . بيد أننا نرى أن أشياع الخصمين لم يذعنوا لهذا القرار ، مع أن الحكمين فوضا إليهما أمر الفصل فى الخلافة .

وعلى ذلك انتصر عمرو ومعاوية هذا الانتصار المبين ، الذى كان من آثاره الواضحة تحويل الخلافة إلى البيت الأموى واعتلاء معاوية العرش .

---

(١) دومة الجندل ، بضم الدال وفتحه ، تقع على الطريق من دمشق إلى المدينة المنورة .

ثالثاً — عهد الأمويين والعباسيين فى مصر
إلى قيام الدولة الطولونية

(٤٠ — ٢٥٤ هـ = ٦٦١ — ٨٦٨ م)

ولاية عمرو الثانية على مصر :

(٤٠ — ٤٣ هـ = ٦٦١ — ٦٦٤م)

كافأ معاوية قائده عمرا على مساعدته الجليلة فى الحرب التى قامت بينه وبين على بأن ولاه مصر سنة ٤٠ هـ ، ولاية مطلقة ، أى يدفع أرزاق الجند والموظفين وما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح ، وما بقى بعد ذلك يدخل خزانته الخاصة ، وبذلك جعلها له طعمة . لكن عمرا طمع فى أن يضيف معاوية إليه بلاد الشام أيضاً ، إلا أن معاوية بدلا من أن يحقق رغبة عمرو ، رأى أن مصر بلد قوية غنية ووضعها تحت تصرف عمرو الكلى يجعل مركز معاويه فى خطر ، إذا فكر عمرو فى الخروج عليه ، واستكثر أن تكون مصر طعمة له ، فحقد عليه عمرو . وكادت تقوم بينهما حرب شعواء ، ولكن بعض زعماء المسلمين تولوا إصلاح ذات البين بين الطرفين ، فكتبوا كتابا جعلت فيه مصر ولاية يتولاها عمرو ، على أن يتعهد فى مقابل ذلك بإطاعة أوامر الخليفة وإظهار شعائر الولاء والإخلاص له . على أن عمراً لم يمكث فى ولايته الثانية على مصر أكثر من ثلاث سنوات ، فإنه توفى سنة ٤٣ هـ ، وختمت بذلك حياة رجل من أفذاذ العرب ودهاتهم .

مظاهر حكم الامويين فى مصر :

ولى مصر منذ توفى عمرو بن العاص إلى أن حكمها الطولونيون سنة ٢٥٤هـ ، ٩٩ والياً ، ولى بعضهم الحكم مرتين ووليه البعض الآخر ثلاث مرات . ولذلك فإننا نذكر هذا العدد باعتبار عدد مرات التولية ، لأنه على اعتبار عدد الأشخاص يبلغ عدد الولاة ٦٦ فقط .

وكان متوسط مدة حكم كل منهم لايزيد على سنتين بكثير ، بل لم يبلغ أحياناً هذا القدر ، إذا ماروعى أن ولاية أحدهم وهو عبدالعزيز بن مروان ظلت إحدى وعشرين

سنة . فلا عجب إذا لم تستفد البلاد فى هذا العهد فائدة تذكر ، لأن قصر الولاة وتزعزع مراكزهم وتفرغهم لسد جشع أنفسهم ، حال دون ما كانت ترجوه البلاد من تقدم ورقى . كذلك لم تستفد مصر شيئاً من تبعيتها للعباسيين ومن ولاتهم العديدين الذين كان يبعث بهم الخلفاء من بغداد بين حين وآخر . وبذلك يمكن القول أن كل الإصلاحات التى عملت فى مصر إنما تمت فى عهد ولاية عمرو ، وأن حكم الأمويين والعباسيين لمصر بعد ولاية عمرو اكتنفه شىء من الغموض والإبهام

وكان ذلك الغموض ، نتيجة طبيعية للجمود الذى لحق بالبلاد فى كل نواحى الحياة . وكان من المنتظر أن تتمتع مصر بشىء كثير من الراحه والطمأنينة فى ظل الحكم الإسلامى ، بعد تخلص المصريين من الاضطهادات الدينية التى كانت من أكبر مظاهر مصر البيزنطية ، ولكن السياسة التى سار عليها الخلفاء وعمالهم فى الولايات الإسلامية بعد وفاة عمر بن الخطاب والتى تقوم على الشدة فى جمع الأموال والقسوة فى معاملة الأهالى ، هى التى أدت إلى ذلك الجمود ، الذى ترتب عليه قيام الفتنة ونشوب الثورات .

وكان بقاء الوالى فى الحكم متوقفا على تنفيذ مطالب الخلفاء والسير وفق سياستهم ، التى كانت ترمى إلى جمع أكثر ما يمكن جمعه من الخراج ، مهما اشتد البؤس بالناس وحل بهم الشقاء ، لهذا نقرأ كثيراً عن نشوب الثوارت العنيفة والفتن الداخلية الجامحة ، التى كان يذكى نيرانها القبط والعرب . وكان حكم الولاة يختلف لينا وشدة تبعا لاختلاف ميولهم ، فقد عرف بعض الولاة بالجود ومعاملة الأهالى بالعدل فكسبوا عطف الرعية ومحبتها ، بينما أخذ على البعض الآخر ما أتوه من ضروب العسف وصنوف القسوة والجبروت . على أنه لم يكن من المحتمل أن ترسخ الأمانة والفضيلة فى نفوس ولاة كانوا معرضين للعزل الفجائى ، حسبما تقتضى ميول الخليفة وتشاء تقلبات أهوائه (١).

---

(١) Lane – poole : Egypt in the Middle Ages, p. 24.

أشهر ولاة الأمويين فى مصر (١) :

رغم ذلك ، ولى مصر فى عهد تبعيتها للأمويين . رجال عرفوا بالكفاية وحسن السياسة ، نشروا العدل وأتوا ضروباً شتى من الإصلاح ، كترقية الزراعة والتجارة والصناعة ونحوها .

من هؤلاء الولاة : مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٢ هـ)(٢) ، فقد بنى فى الروضة مقياساً للنيل ودارا للصناعة ، وعامل القبط بالعطف وشملهم بالرعاية فقد سمح لهم بأن يبنوا كنيسة فى الفسطاط ولم يبال باستنكار الجند لذلك العمل ، وعنى ببناء المساجد وإصلاحها فقد أمر سنة ٥٣ هـ بهدم جامع عمرو بن العاص وبنائه من جديد بالآجر بعد أن كان مبنياً باللبن فى عهد عمرو وكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته ، كما أمر ببناء منارات المساجد كلها ، وكان مؤذنو الجامع العتيق يؤذنون إذا مضى نصف الليل فإذا فرغوا من آذانهم أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد ، وأمر ألا يضرب الناقوس عند أذان الفجر لأنه بلغه أن النواقيس تعطل أذان المؤذنين (٣) .

ومن أشهر ولاة الأمويين : عبدالعزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) الذى استمر حكمه لمصر إحدى وعشرين سنة ، وكان من أحسن ولاة ذلك العصر . وصادف عهده ظهور حركة عدائية لبنى أمية ، وأفضى بذلك إلى أبيه مروان بن الحكم ، فرسم له الخطة التى يجب أن يسير عليها ، حتى يؤلف معها قلوب المصريين على اختلاف طبقاتهم وتباين دياناتهم ، وبين له أن هذا الأمر يمكن تحقيقه إذا هو أسرهم بجوده وإحسانه وجذبهم إليه بالمودة ولين الجانب . وقد أورد الكندى صاحب كتاب « تاريخ

---

(١) لم نر ضرورة لإثبات جميع أسماء الولاة ، الذين تولوا أمور مصر فى عهد تبعيتها لكل من الأمويين والعباسيين : لكثرة عددهم ، وقصر حكم كل منهم ، وعدم قيامهم بأعمال بارزة ذات أثر فى مجرى الحوادث .

(٢) ذكر السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص : أن مسلمة ولى مصر من سنة ٤٧ هـ إلى سنة ٥٩ هـ ، والصحيح أن ولايته استمرت حتى عام ٦٢ هـ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

القضاة وتاريخ الولاة » هذه الوصية فقال : يابنى ، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عينا لك على غيره وينقاد قومه إليك . . وماعليك يابنى بعد هذا أن تكون أميراً بأقصى الأرض . أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك فى منزلك» (١) . وزود مروان ابنه بنصيحة فى وصية أخرى ، حتى يكفل له الراحة والطمأنينة ، فأوصاه بتقوى الله فى السر والعلانية ، والبر بالفقراء، وإنجاز وعده إذا ماوعد ، وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل فى أمور الدولة ، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل .

عمل عبد العزيز بنصائح أبيه ، فنجحت سياسته فى مصر نجاحا عظيما : فقد تابع سياسة مسلمة بن مخلد فى العطف على المسيحين واتخذ دير القبط فى مدينة طنوية الواقعة على النيل محل إقامته ودفع للرهبان عشرين ألف دينار (٢) ، وبنى مقياساً للنيل ، وزاد فى جامع عمرو (٣) ، وأقام سنة ٦٩ هـ على خليج أمير المؤمنين قنطرة بطرف الفسطاط كتب عليها اسمه . واتخذ فى سنة ٧٣ هـ مدينة حلوان داراً لإقامته بعد أن أصيب بداء الجذام ، ونقل معه بيت المال ، مما يصح أن يعد دليلا على أنه اتخذ حلوان حاضرة للبلاد ، وخاصة أنه أقام بها إلى سنة ٨٦ هـ وهى سنة وفاته(٤)،وغرس فى حلوان الأشجار والنخيل وبنى المساجد وغيرها من الأبنية الضخمة التى بذل فى سبيل إقامتها زهاء مليون دينار (٥) .

وأنشأ عبد العزيز بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم بواسطة قناطر مقامة على أعمدة (٦) . وهذا النوع من القناطر كان ذائعاً فى أراضى الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الثانى الميلادى . وبلغت عنايته بفن العمارة والتماثيل مبلغاً عظيما حتى إنه ابتنى فى الفسطاط حماما لابنه زبان ، وأقام على باب هذا الحمام

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٤٢ .

(٢) Lane- Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 29.

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٦ .

(٤) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p.26.

(٥) أبوصالح الأرمنى، ورقة ٥٢ ب و ٥٣ ا .

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١٣ .

تمثالا عجيباً من زجاج على شكل امرأة ، أطلق عليه اسم أبى مرة ، وباسمه تسمت القيسارية التى كانت لعبد العزيز ، فكانت تعرف بقيسارية أبى مرة . وكان الحمام يعرف فى زمن ابن دقماق باسم حمام بثينة .

وكان عبد العزيز يتصرف فى شئون مصر المالية كما يشاء ، ولهذا أصبحت مصر كمزرعه خاصة به . واستطاعت أن تظهر بجميع مظاهر النشاط الأدبى والمادى . وأطنب المؤرخون فيما أتاه عبد العزيز من أعمال البر ، فقال بعضهم « إنه كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر » . وفى ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أضحى ... عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات ... كل يوم تعدها ألف قدر[1].

وعلى الرغم من أن خراج مصر كان كله لعبد العزيز ، فإنه لم يترك عند وفاته سوى سبعة آلاف دينار ، عدا بضع أملاك فى حلوان وعددا من الخيل والرقيق . لهذا أجمع الكل على محبته ، ورضوا عن ولايته ، ورثاه الشعراء عند موته أبلغ رثاء . قال سليمان بن أبان الأنصارى :

فمن الذى يبنى المكارم والعلى ... ومن ذا الذى عندى له بعدك الشعر
فكنت حليف العرف والخير والندى ... فمتن جميعا حين غيبك القبر .

سقوط الامويين :

إلا أنه فى سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) سقطت الدولة الأموية ، وزالت بذلك تبعية مصر للأمويين ، وتم ذلك بفرار مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين واستقراره فى نهاية الأمر فى مصر ، ولما وصل مروان إليها أشعل النار فى الفسطاط وفى القنطرة التى تصلها بجزيرة الروضه ، ثم عبر بعد ذلك إلى الشاطىء الغربى ، ولكن جيوش

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٥١ — ٥٢ .

العباسيين تبعته إلى مصر تحت قيادة صالح بن على وأبى عون بن يزيد ، فذهبت محاولة مروان سدى ، ولم يقو على مقاومة العباسيين ، وقتل هو ومن فر معه من الأمويين فى بلدة بوصير من أعمال الفيوم ، وطيف برأسه على البلاد إيذانا بزوال سلطان الأمويين وإعلاناً بتبعيتها لحكم العباسيين فى بغداد ، ذلك الحكم الذى لايختلف كثيراً عن حكم الأمويين للبلاد ، وامتد من سنة ١٣٢ إلى سنة ٢٥٤ هـ .

بعض ولاة العباسيين فى مصر :

أسس العباسيون سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فى الفضاء الواقع شمال شرق الفسطاط عاصمتهم الجديدة ، وأطلقوا عليها اسم العسكر ، فكانت ثانى عواصم مصر الإسلامية بعد الفسطاط ، وبنى صالح بن على دار الإمارة وسط تلك العاصمة . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر ، فأصبح ثانى المساجد الجامعة فى مصر بعد جامع عمرو .

وإذا نظرنا إلى تاريخ مصر فى عهد تبعيتها للعباسيين ، وجدنا أن استياء المصريين من حكم ولاتهم يرجع غالباً إلى زيادة الخراج ، فقد ثار أهل مصر ضد موسى بن مصعب الذى ولى أمور مصر سنة ١٦٧ هـ من قبل الخليفة المهدى . وكانت ثورتهم عليه لتشدده فى تحصيل الخراج ، وزيادة الضريبة على كل فدان إلى ضعف ما كان يؤخذ عليه من قبل ، وفرض ضريبة على الأسواق ، وعلى الدواب . فكرهه الأهالى ، وخرج عليه الجند ، وثارت البلاد ، واشتدت وطأة الثورات فى الصعيد ، وفى كورة الحوف ، فأرسل موسى جيشاً إلى الصعيد لقتال الثائرين ، وقاد بنفسه جيشاً آخر لقتال أهل الحوف ، ولكن الجند تخلوا عنه ، وسلموه للأهالى ، فقتلوه [1] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

ومن الولاة الذين ولوا مصر فى العصر العباسى ، موسى بن عيسى . ولى أمور البلاد ثلاث مرات ، واستمر فى كل ولاية سنة واحدة : الأولى من سنة ١٧١ هـ إلى سنة ١٧٣هـ ، والثانية من سنة ١٧٥هـ إلى سنة ١٧٦هـ ، والثالثة من سنة ١٧٩هـ إلى سنة ١٨٠ هـ . ويعد موسى من الولاة الذين اكتسبوا محبة الأهالى لما عرف عنه من الميل إلى الخير والعدل ، وهو ينتسب إلى على بن عبدالله بن العباس جد الخلفاء العباسيين ، واتبع موسى سياسة التودد إلى الأقباط ، فقد أذن لهم ببناء الكنائس التى هدمت قبل عهده (١) .

كانت مصر فى العصر العباسى مسرحاً للفتن والثورات ، فإن الثورات اشتدت فى البلاد ، حتى اضطر الخليفة المأمون إلى تعيين عبد الله بن طاهر بن الحسين والياً عليها سنة ٢١٠ هـ للقضاء على الاضطرابات ، فتمكن بعد جهد كبير من إعادة الأمن وإقرار النظام ، والتفت بعد ذلك لإصلاح أحوال البلاد ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى العراق ، فعادت الثورات إلى أشد مما كانت عليه حتى اضطر المأمون إلى الحضور بنفسه إلى مصر سنة ٢١٧ هـ (٢) .

ومن أشهر الولاة أيضا : عنبسة بن إسحق الذى ولى مصر من سنة ٢٣٨ هـ إلى سنة ٢٤٢هـ . ومن مآثره تحصين دمياط وتنيس بعد أن أغار عليها الروم سنة ٢٣٨ هـ ، واشتهر هذا الوالى بالعدل والورع ، على أن عدله وورعه لم يكسباه محبة أهل مصر جميعا ، فقد كرهه بعضهم ونسبوا إليه أنه يعتقد بمذهب طائفة الخوارج ، وإذا عرفنا مبادىء هذه الطائفة ، أمكننا أن نقدر خطر نسبة ذلك إلى الوالى .

كان الخوارج يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنى حكمه الأولى إلى أن حكم الحكمين ، وكانوا يمثلون المبادىء الديمقراطية المتطرفة إذ يعتقدون أن الخليفة إذا ظلم رعيته استحل عزله أو قتله ، كذلك جعل الخوارج حق الخلافة مشاعاً بين جميع المسلمين للأحرار والأرقاء على السواء ، وخالفوا بذلك نظرية

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ١٣٣ .

(١) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٢٣ .

الشيعة التى تقول بانحصار الخلافة فى بيت النبى الذى ينتسب إليه العباسيون أصحاب النفوذ فى مصر .

ومن هنا جاء عامل كرهه ، حتى عمل الشعراء على تأليب الخليفة العباسى المتوكل عليه ، ولوم هذا الخليفة على تولية عنبسة ، بل اتهموا هذا الوالى بالتراخى فى طرد الروم عن مصر . وفى ذلك يقول الفضل بن يحيى ، يؤلب الخليفة المتوكل العباسى :

مقيمون بالأشتوم يبغون مثلما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبراً ولا درى من الفجر ما يأتى وما يتجنب
فـــلا منّا إنا بدار مضيعة بمصر وإن الدين قد كاد يذهب

وكان عنبسة آخر من ولى مصر من العرب ، ذلك أن الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ). بدأ عهده بأن أسقط العرب من ديوان الجيش ، وأحل الأتراك محلهم (١) ، واتخذ المعتصم تلك الخطوة الجريئة بعد أن رأى أن دولته الواسعة ، لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، لأن أمه كانت تركية . وكان هؤلاء الأتراك يجلبون من أسواق الرقيق فى بلاد ما وراء النهر ، واتخذ المعتصم من حسن هندامهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سببا للاعتماد عليهم ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وخلع عليهم الهبات والأرزاق ، وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء ، فدب دبيب الغيرة والحسد فى نفوس القواد من العرب والفرس ، إلا أن المعتصم أقصاهم تدريجياً ، وزاد اعتماده على الجند الأتراك حتى بلغ عددهم فى عهده سبعين ألفا ، واشتد خطرهم حتى آذوا الأهلين ، لما كانوا يرتكبونه من الفساد والعنف ، مما أثار غضب العامة .

وظلت مصر يحكمها ولاة من الأتراك ، كانوا يقطعون هذه الولاية بصورة إقطاع ، بمعنى أنهم يلون حكمها ، بشرط أن يؤدوا جزية معلومة لدار الخلافة العباسية .

واستمرت البلاد على ذلك إلى شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ ، حيث ولى أمور مصر أحد هؤلاء الولاة الأتراك ، وهو أحمد بن طولون ، فأسس دولة جديدة ، هى الدولة الطولونية .

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

رابعاً – الدولة الطولونية

(٢٥٤ – ٢٩٢هـ = ٨٦٨ – ٩٠٥م)

ولاة الطولونيين :

عدد	سنة هجريه	اسم الوالى	سنة ميلادية
١	٢٥٤	أحمد بن طولون	٨٦٨
٢	٢٧٠	خمارويه بن أحمد بن طولون	٨٨٣
٣	٢٨٢	أبو العساكر جيش بن خمارويه	٨٩٥
٤	٢٨٤	أبو موسى هارون بن خمارويه	٨٩٧
٥	صفر ٢٩٢ – ربيع أول ٢٩٢	شيبان بن أحمد بن طولون	٩٠٥

١ – أحمد بن طولون

(٢٥٤ — ٢٧٠ هـ = ٨٦٨ — ٨٨٣ م)

أحمد بن طولون منذ ولادته إلى أن ولى مصر :

كان طولون أبو أحمد بن طولون من الأتراك الذين يقيمون بين بلاد تركستان وسيبيريا ، من أسرة تقيم فى بخارى . ولما نشبت الحروب بين أهالى تلك المدينة وبين العباسيين الذين كانت تلك البلاد تابعة لهم ، جىء بطولون هـذا أسيراً إلى نوح بن أسـد السامانى والى بخارى من قبل الخليفة المأمون العباسى . ولما كانت تقاليد الحكم إذ ذاك قد جرت على أن يرسـل الولاة إلى الخلفاء ، جزية من المال والرقيق ، فإن والى بخارى أرسل طولون سنة ٢٠٠هـ إلى المأمون ، من بين المماليك الذين أرسلهم هدية إلى الخليفة . فأعجب الخليفة بقوة بنيته ، وتناسب أعضـائه ، وماتوسمه فيه من النجابة والذكاء ، وغير ذلك من الصفات التى اتصف بها أتراك

تلك الجهات فى ذلك الحين . لذلك ألحقه بحاشيته ، وظل يرقى حتى أصبح رئيساً للحرس وتلقب بلقب أمير الستر ، وكان من مهام صاحب هذا اللقب أن يقوم بالمحافظة على حياة الخليفة نفسه ، مما يدلنا على مبلغ ثقة المأمون فى أمانة طولون وإخلاصه . وظل فى هذا المنصب عشرين عاما ، فى عهد المأمون والمعتصم ، وأنجب فى تلك الفترة عدداً من الأولاد ، من بينهم أحمد بن طولون الذى يكنى بأبى العباس ، والذى يرجع إليه الفضل فى تأسيس أول دولة مستقلة فى مصر بعد الفتح الإسلامى(١) .

ولد أحمد بن طولون فى ٢٣ رمضان سنة ٢٢٠ هـ (سبتمبر ٨٣٥ م) فى مدينة بغداد وليس فى مدينة سامرا ، على ما رواه ابن خلدون ، إذ أن المعتصم العباسى لم يشرع فى تأسيس سامرا إلا فى سنة ٢٢١هـ . ولقى من أبيه كل رعاية ، وكان من صغره قوى الخلق ، متصفا بالرزانة والذكاء ، وحفظ القرآن ، ودرس الحديث ، وتفقه فى الدين . ولما ترعرع حضر مجالس العلماء والمحدثين ، فارتفع شأنه وعظمت منزلته ، حتى أصبح موضع ثقة الخلفاء العباسيين ، الذين عمل تحت رعايتهم كالمتوكل (٢٤٢ — ٢٤٧ هـ) والمستعين (٢٤٨ — ٢٥٢هـ) والمعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) والمعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) .

مات طولون سنة ٢٤٠هـ فى عهد المتوكل وابنه أحمد فى العشرين من عمره ، فعهد المتوكل إلى أحمد بما كان يتولاه أبوه من الأعمال ، فأظهر فى القيام بما عهد إليه كفاية ممتازة وهمة نادرة حتى احتل مكانا عظيم من قلوب رجال البلاط العباسى والضباط الأتراك ، وزاد إعجاب بارجوخ ، أحد هؤلاء الضباط والمتوفى سنة ٢٥٩هـ ، بأحمد حتى زوجه من ابنته خاتون ، فولدت له ابنه العباس .

وكان أحمد يخرج أثناء توليه هذه الأعمال إلى ثغر طرسوس لطلب العلم ، وإلى تلك المدينة خرج أحمد ومعه صديقه ابن خاقان بإذن الوزير عبيد الله بن يحيى ، وقصدهما من ذلك أن يهجرا سامرا ومافيها من الخدع والدسائس ، ويتخذا طرسوس مقراً لهما ، بدليل ماذكره ابن الداية على لسان ابن خاقان صديق ابن طولون من أن

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص٣١٣ .

ابن طولون لما وصل إلى طرسوس « ورأى ما بالناس من الأمر المعروف ومجانبة المنكر وإقامة الحق ، أنست نفسه وزال استيحاشه وتبع المحدثين »

تقع طرسوس على الحدود بين آسيا الصغرى والشام ، فامتازت بصفات قل أن تتفق لمدن أخرى . ففيها استطاعت المدنية الإغريقية أن تحيا مع المدنية العربية ، حياة انتشر معها النشاط العلمى فى هذا الثغر ، حتى أصبح محطا للوافدين عليه للبحث والدرس ، وملجأ لكثير من فلاسفة الروم ، الذين وفدوا عليها فارين من وجه الاضطهادات الدينية التى سادت أوربا إذ ذاك . كذلك كان لوقوع طرسوس فى نقطة الاتصال بين آسيا الصغرى وبلاد الشام ، وإشرافها بذلك على الطريق الموصلة إلى آسيا الصغرى والشام ، أثر فى أن تصبح تلك المدينة فذة فى موقعها الحربى . لذلك استفاد ابن طولون من إقامته فى طرسوس فائدتين : أولاهما أدبية إذا أشبعت رغبته فى تلقى العلم ، وثانيتهما حربية إذ أن أهمية طرسوس الحربية كانت ذات أثر فعال فى تكوينه تكوينا حربيا ممتازا .

عاش ابن طولون فى طرسوس ، مع احتفاظه برزقه الذى أجرته عليه الخلافة العباسية بعد وفاة أبيه هانئا بجو علمى هادىء . ولكنه عاد إلى سامرا بعد مدة لم يشر إلى طولها المؤرخون ، وكان سبب عودته أن أمه ساورتها الوساوس عليه ، وطالبه صديقه ابن خاقان فى العودة لرؤيتها ، فعزم على العودة إلى سامرا . وفى الطريق إلى تلك المدينة حدث حادث أظهر قوة ابن طولون ورباطة جأشه ، مما أكبره فى نظر الخليفة المستعين ، وجعله أكثر اتصالا بالخلافة العباسية . ذلك أن القافلة التى أقلته إلى سامرا بلغ عدد المسافرين فيها خمسمائة ، من بينهم خادم للخليفة، كان قد سار إلى بلاد الروم لجلب بعض النفائس ، وفى الرها انقض اللصوص على القافلة لسلب مافيها على نحو ماجرت به العادة فى تلك الأيام ، لأن الطريق بين الشام والعراق كانت غير آمنة . إلا أن ابن طولون تقدم ، وحارب أفرادها وقتل بعضهم ، وفر الباقى وخلص منهم كل ماأخذوه ، ومن بينه البغل المحمل بمتاع الخليفة، فلما وصلت القافلة إلى سامرا ، وسرد الخادم لمولاه ماكان لابن طولون من فضل

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٤ .

فى تخليص متاعه ، سر منه سروراً عظيما ، ومنحه ألف دينار مكافأة له ، وتوالت صلات الخليفة عليه منذ ذلك الوقت .

والحادثة الثانية التى أظهرت وفاء ابن طولون وشجاعته : أن المستعين لما أرغم على النزول عن الخلافة ، أرسله الخليفة المعتز إلى بلدة واسط ، واختار ابن طولون رقيباً عليه . إلا أنه لم يشدد الرقابة على الخليفة ، بل سمح له بحرية التنزه والصيد . وظل الحال على ذلك حتى أوهم الناس المعتز ألا أمان له فى ملكه إلا إذا قتل المستعين ، وكتب رجال البلاط إلى ابن طولون بقتله ، فرفض إطاعة ذلك الأمر ، وكتب إليهم أنه لا يقتل خليفة له فى عنقه بيعة [1] . وقد أظهر بذلك ما اتصف به من الشجاعة الأدبية والاعتداد برأيه ، والوفاء لخليفة أكرمه ، وأغدق عليه هباته وعطاياه ، فأرسلوا سعيد بن صالح الحاجب أحد رجال البلاط ، فنفذ أمر الخليفة وقتل المستعين بعد دعوة ابن طولون إلى سامرا ، وكان ذلك بإيعاز من قبيحة أم المعتز التى خشيت على ابنها من بقاء المستعين بالله على قيد الحياة ، وقد أكبرت تلك الحادثة ابن طولون فى نظر كبار رجال الخلافة العباسية .

تولية ابن طولون على مصر :

كان من عادة خلفاء العباسيين أن يعينوا ولاة على الأقاليم الخاضعة لسلطانهم ، وبعض هؤلاء الولاة يرسلون إلى تلك البلاد من يحكمها نيابة عنهم ، حتى يبقى هؤلاء الولاة فى بغداد عاصمة العباسيين على مقربة من الخلفاء ، متمتعين بهباتهم وعطاياهم ، وحتى لا تعمل الدسائس عملها فى إبعادهم عن عطف الخلفاء .

اتبعت تلك القاعدة منذ عهد الرشيد ، وسار عليها من جاء بعده من الخلفاء . وظل الحال على ذلك حتى ولى المعتز عرش الخلافة العباسية سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) بعد خلع المستعين . فأقطع مصر باكباك سنة ٢٥٤ هـ ، وهذا فكر فى اختيار رجل ينوب عنه فيها واطمأنت نفسه إلى أحمد بن طولون فاستخلفه عليها ، وأمده بجيش

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٧ .

سار به إلى مصر ، فوصلها فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ هـ (١٥ سبتمبر ٨٦٨ م) ، وولاه با كباك (أو بايكباك) على عاصمة مصر (الفسطاط) دون غيرها ، ولما قتل با كباك وتولى بعده بارجوخ حمو ابن طولون ولاية مصر ، أرسل إلى صهره عهداً بالنيابة عنه فى إدارة شئون مصر ، ليس فقط على الفسطاط كما كانت الحال فى عهد نيابته عن با كباك ، بل على جميع مصر ، وكتب إليه « تسلم من نفسك لنفسك »(١).
فتسلم ابن طولون برقة ، وكانت تابعة لمصر ، ثم سار إلى الأسكندرية وتسلمها وكانت فى ذلك الوقت ولاية قائمة بذاتها لما كان لها من الأهمية التجارية والتاريخية ، وقدر ابن طولون حفاوة إسحاق بن دينار والى الأسكندرية به حين قدومه إليها ، فأقره والياً عليها ، وعاد بعد ذلك إلى الفسطاط ، ومنذ عودته أصبحت إدارة مصر جميعها فى يده .

الصعوبات التى واجهت ابن طولون :

غير أن ابن طولون واجه عدة عقبات بعد أن آل إليه أمر مصر . ولكنه تمكن من أن يجتاز تلك العقبات الواحدة بعد الأخرى ، بما عرف عنه من الحزم والكياسة . وكانت أهم العقبات التى هددت ملك ابن طولون هى : منافسة أحمد ابن المدبر عامل الخراج على مصر ، والثورات التى أشعل نارها ذوو المآرب ، وحركة العباس بن أحمد بن طولون ضد أبيه ، وعداء الموفق طلحة ولى عهد الخلافة العباسية لابن طولون .

١ — منافسة أحمد بن المدبر :

كان ابن المدبر من دهاة الناس وأعلام الكتاب ، ومن أصحاب المنزلة الرفيعة لدى الخليفة المتوكل ، حتى جعله من أفراد حاشيته ، وبلغ من الكفاية والقدرة درجة جعلت الخليفة يسند إليه سبع مصالح فى آن واحد ، وقربه إليه الوزير ابن خاقان ، ولكنه ما لبث أن حقد عليه حين رأى عظيم ثقة الخليفة به ، وأوغر صدر الخليفة عليه حتى أمر بحبسه ولكنه فر ، ثم عفا عنه المتوكل بوساطة بعض ذوى الشأن وأظهر رضاه عنه بتوليته خراج مصر سنة ٢٤٧ هـ .

---

(١) الكندى ص ١٢٥ — ١٣٦ .

عامل ابن المدبر أهالى مصر بالشدة والقسوة ، واشتط فى جميع الخراج حتى إنه كان إذا شكا أحد عدم قدرته على الدفع « أخرجه فحملت عليه الحجارة ، وطولب أعنف مطالبة ، حتى لقد اضطر يوما أحد كبار رجال التجارة أن يبيع حصر داره لهذا السبب » (١) .

لما قدم ابن طولون مصر عهد إليه بأمر الصلاة والإدارة، وظل ابن المدبر يتولى أمر المال والخراج كما كان من قبل وصول ابن طولون إلى مصر . فكان من الطبيعى أن يتنافس الطرفان ، وأن يكيد ابن المدبر للوالى الجديد ، وخاصة بعد أن عرف أنه لن يسمح له بالإمعان فى خطته فى جمع المال ، وهى خطة كانت تنطوى على كثير من أعمال الشطط والعسف .

إلا أن ابن المدبر رأى أن يستميل ابن طولون ، فاستقبله حين وصوله أحسن استقبال ، وأرسل إليه الهدايا النفيسة من المال والجواهر والخيل والرقيق ، فردها ابن طولون إليه ، وقال له : إنه ليس فى حاجة إلى شىء من ذلك (٢) . وأراد ابن طولون أن يقلل من هيبة ابن المدبر فى نظر الشعب ، فبعث إليه يطلب منه عوضاً عن هذه الهدايا ، الغلمان الذين كانوا يسيرون فى ركاب ابن المدبر أينما سار . وكانوا مائة غلام يقفون بين يديه إذا جلس ، وإذا ركب ساروا بين يديه ، مما خلع عليه هيبة ورهبة ، فأرسلهم إليه ابن المدبر ، وزال بذلك ما كان له من روعة واحترام ، وتحول ذلك كله إلى ابن طولون .

إزاء ذلك كله ، لم ير ابن المدبر بدا من أن يكيد لابن طولون لدى الخليفة المهتدى ، وكتب إلى دار الخلافة فى بغداد يبلغها « أن أحمد بن طولون قد عزم على التغلب على مصر والعصيان بها» (٣)، وكان ابن طولون قد كشف حيلة ابن المدبر فى اتصاله بالخلافة العباسية وتحريضها عليه، وأغدق الهدايا على أصحاب النفوذ فى قصر الخليفة ، فتلطف هؤلاء عند الوزير وردوا كتاب ابن المدبر إلى ابن طولون ، وكتم ابن طولون أمر ذلك الكتاب ، وكتب إلى الخليفة يسأله صرف ابن المدبر عن خراج مصر وتقليده محمد بن هلال ، فأجيب إلى طلبه .

---

(١) ابن الداية : كتاب المكافأة ص١٩٨ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص٨ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٩٨ .

حضر ابن هلال إلى مصر سنة ٢٥٦ هـ كما يستدل من قطعة قماش موجودة بدار الآثار العربية (رقم ٨٧٠) مطرزة بحروف من الحرير الأحمر ، تؤيد حضور ابن هلال إلى مصر فى تلك السنة .

على أن ابن المدبر رفض أن يسلم ابن هلال جميع مابيده من الأعمال ، فلم ير ابن طولون بدا من القبض عليه وإيداعه السجن ، وظل محبوسا إلى أن ولى الخلافة المعتمد ، فكتب برد الخراج إلى ابن المدبر ، وتعاهد هذا مع ابن طولون على ألا يكتب لدار الخلافة إلا شاكرا ، وعاش فى مصر ، وهو محدود السلطة بالنسبة إلى ابن طولون ، وظل ابن هلال فى رعاية ابن طولون يحميه من انتقام ابن المدبر(١) .

لم يلبث ابن المدبر بعد أن رأى ازدياد نفوذ ابن طولون وسطوته ، أن تذمر ، فكتب بذلك إلى أخيه إبراهيم . وكان يلى خراج الأهواز ، فسعى لدى دار الخلافة حتى صدر قرار الخليفة بتقليده خراج دمشق وفلسطين والأردن ، فخرج من مصر ليتقلد منصبه الجديد فى سنة ٢٥٨ هـ ، بعد أن وهب ابن طولون ضياعه وعقد قران ابنه على إحدى بناته . إلا أن ابن المدبر رغم هذا الود الذى فارق عليه ابن طولون ، عاد بعد وصوله إلى بغداد إلى سيرته فى الكيد لابن طولون فى دار الخلافة العباسية ، واتصل به ذلك عن طريق الحسن بن مخلد ، الذى جاء مصر بعد غضب الموفق طلحة أخى الخليفة المعتمد عليه .

وانتهز ابن طولون فرصة موت ماجور والى الشام سنة ٢٦٤ هـ ، واستولى على الشام وأمر بالقبض على ابن المدبر ، وكان مقيما فى الرملة ، وجىء به إلى مصر فحبس بها ، ثم أمر بأن يقيد وألبس جبة من الصوف ، وظل فى الحبس حتى مات بعد أن فقد بصره ، وتخلص ابن طولون من منافس أقلقه وهدد كيان ملكه (٢) .

٢ — الثورات :

لم تكن منافسة ابن المدبر هى العقبة الوحيدة فى توطيد ملك ابن طولون، بل حدثت فى عهده عدة ثورات : قام بها العلويون على يد كل من بغا الأصغر وابن الصوفى ، وطمع أحمد بن عيسى بن الشيخ فى مصر ، وثوره قادها أبو عبد الرحمن العمرى،

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ١١ .

(٢) ابن الداية ص ٦٦ .

وثورة أهل برقة. وهذه كلها كانت ثورات عنيفة هددت ملك ابن طولون ، وعاقته في كثير من الأحيان عن القيام ببعض الإصلاحات التي كان ينوي القيام بها في مصر.

وأول هذه الثورات ، ثورات العلويين الذين كانوا يلاقون العسف والجور على يد عمال بني العباس الأتراك في مصر . بدأت تلك الثورات بخروج بغا الأصغر فيما بين برقة والاسكندرية ، في موضع يقال له الكنائس في سنة ٢٥٥ هـ ، وسار إلى الصعيد ، حيث كثر أتباعه وادعى الخلافة ، وإذ ذاك بعث إليه ابن طولون جيشاً هزمه هو وأتباعه وقتله وحملت رأسه إلى الفسطاط ، وقضى بذلك على حركته .

ثار كذلك من العلويين ابراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن الصوفي . وكان مقر ثورته في الصعيد ، وأتى بكثير من أعمال السلب والنهب ، ثم استقر في إسنا سنة ٢٥٥هـ ، فأرسل إليه ابن طولون جيشاً هزمه ابن الصوفي في بلدة هو على مقربة من مدينة قوص الحالية في ربيع سنة ٢٥٦ هـ ، ولكن ابن طولون بعث إليه جيشاً هزمه في إخميم وقتل كثيرا من رجاله ، وفر ابن الصوفي إلى الواحات واختفى بها مدة سنتين ، ثم هرب إلى أسوان ثم إلى عيذاب على البحر الأحمر ثم إلى مكة ، حيث قبض عليه واليها وأرسله إلى ابن طولون الذي كان يجد في طلبه حيثما كان ، وبعد أن حبسه مدة أطلقه فخرج إلى المدينة وأقام بها حتى مات (١) .

ومما أقلق ابن طولون ، خروج أحمد بن عيسى بن الشيخ ، وكان أبوه واليا على فلسطين والأردن . ولما مات ، تغلب ابنه أحمد على دمشق ، وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة ، وانتزع ثلاثة أرباع مليون دينار كان ابن المدبر قد أرسلها من مصر إلى دار الخلافة ، وهي الجزية التي كانت ترسل سنويا من مصر إلى بغداد ، وانتهز ابن الشيخ فرصة اضطراب حبل الأمور في بغداد ، فحدثته نفسه بالاستيلاء على بقية الشام وطمع في مصر . وأرسل الخليفة المهدي العباسي إلى ابن الشيخ بتقليده بلاد أرمينيا ، على أن يستخلف من يندبه عنه في ولاية الشام ، وأرسل في الوقت نفسه إلى ابن طولون بأن يتوجه لقتاله وكان ذلك سنة ٢٥٦ هـ ، ووعده بأن يضم بلاد الشام إلى ولايته إن هو نجح في مهمته . ولكن الموفق خشي أن ينتصر ابن

---

(١) الكندي : كتاب الولاة ص ٢١٣ — ٢١٤. المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣١٩ .

طولون فيضم الشام إلى ولاية مصر ، وذلك لحالة العداء التى كانت قائمة بين الموفق وابن طولون . فأرسل الخليفة إلى ابن طولون يأمره بالرجوع إلى مصر ، وعهد إلى أحد قوداه بمهمة إخضاع ابن الشيخ وتم له ما أراد

ومن الثورات التى واجهت ابن طولون ، ظهور أبى عبد الرحمن العمرى فى الصعيد ببلدة القاصية ، وكانت طائفة البجاة فى أعالى الصعيد ، المعروفة بشدة البأس ، تغير على تلك البلدة وتقتل الأبرياء وتنهب الأموال ، فثار العمرى وعزم على القضاء على تلك الطائفة غيرة لله وللمسلمين . ونجح فى القضاء عليها فدخل بلادهم ونهبها ، وتابع إغاراته عليهم حتى أدوا له الجزية ، ولم يكونوا قد أدوها لأحد من قبله . واشتدت شوكة العمرى وذاعت شهرته ، ووصل خبره إلى ابن طولون فاغتم لذلك ، لأنه كان لا يعلم أن العمرى يجاهد فى سبيل الله ، بل اعتقد أنه خارج عليه كما خرج بغا الأصغر وابن الصوفى من قبل ، وعلى هذا الاعتبار سير إليه جيشاً . ولما لم يفلح العمرى فى إقناع قائد الجيش بأن يفهم ابن طولون حقيقة حركته ، حارب العمرى جيش ابن طولون وهزمه ، إلا أن أتباع العمرى قتلوه وأتوا برأسه إلى ابن طولون طلبا للحظوة عنده ، وبذلك انتهت حركته (١) .

وتلتها ثورة أهل برقة سنة ٢٦٢ هـ وطردهم عامل ابن طولون عليها ، فسير إليهم ابن طولون جيشا بقيادة لؤلؤ ، الذى سار على سياسة اللين التى رسمها له ابن طولون ، إلا أن تلك السياسة لم تثمر ، وقتلوا كثيراً من الجند فى غير وقت القتال . وهنا استعمل معهم قائد الحملة الشدة والعنف ، فنصب المجانيق وضيق عليهم ، حتى طلبوا الأمان وفتحت له المدينة أبوابها ، فدخلها دخول الظافر وقبض على زعمائهم ونكل بهم وأدب الثائرين ، وعين لحكمهم أحد مواليه . ولما عاد لؤلؤ إلى مصر خلع عليه ابن طولون ، وسار فى موكب حافل وأمامه الغنائم والأسرى .

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٣٧ .

٣ — حركة العباس ضد أبيه :

على أن أعظم تلك الثورات خطرا وأكبرها أثرا على ملك بن طولون ، تلك الثورة التى قام بها ابنه العباس .

كان ابن طولون قد استخلف ابنه العباس على مصر لحكمها ، ومعه أحمد بن محمد الواسطى أثناء تغيبه فى الشام لإخضاعها ، وظهرت بودار الفتنة حين رفض الواسطى تعيين بعض أفراد من أخصاء العباس فى الوظائف العامة ، فعمل هؤلاء على إيغار صدره على الواسطى حتى لم يعد له أثر فى إدارة شئون البلاد . فشكا هذا إلى ابن طولون وكتب إليه بما حدث ، ورد ابن طولون عليه بأن يستعمل الأناة حتى يعود هو إلى مصر . ولكن العباس علم بأمر تلك المكاتبات ، مما زاده حقدا على الواسطى ، وكاد الأمر يقف عند هذا الحد ، لولا أن بعض أتباع العباس أشاروا عليه بالقبض على الواسطى لينفرد هو بالنفوذ والسلطان ، فهاجم العباس داره حيث وجد الكتب التى تبودلت بينه وبين أبيه ، فأيقن أن أباه حانق عليه ، مما زاد خوفه منه وسوء ظنه به .

وهنا أوقع أصحابه بينه وبين أبيه ، وأشاروا عليه بالخروج من مصر والعصيان ، ونفذ ذلك العباس ، وحمل معه ما كان موجوداً من السلاح والمال مما قدر بمليون دينار . توجه العباس إلى الجيزة ، ومنها إلى الأسكندرية ، حيث أوهم الناس أنه ذهب إليها لكتاب ورد إليه من أبيه بذلك ، ومن هناك سار إلى برقة ، وإذ ذاك بلغ ابن طولون ما عمله ابنه ، فأرسل إليه رسولا ومعه كتاب يقول فيه :

« ياقرة عينى وأقرب الناس إلىّ وأبرهم لدى وأعزهم على ، خفرت ظنى بك ، أقوى ما كان أملى فيك وأرجا ما كنت لك من غير إساءة قدمتها ولا خطيئة ركبتها معك ، ولم ترع حسن تربيتى لك وعظم إشفاقى عليك ، وإنى أحبك لإحياء ذكرى وصيانة شملى ، فأرضيت عدوى وأسخطت ولى ، وسبحان الله أماتخاف ثمرة العقوق؟ فإن رجعت إلى فكأنك لم تذنب ، وإن تمادى بك الاغترار ، شخصت إليك بنفسى ، ولم أك بأول من خسر سعيه وأخلف تقديره » (١) .

إلا ان العباس ركب رأسه وحرضته بطانته على عدم الرجوع إلى طاعة أبيه ، خوف أن يحل به وبهم الانتقام ، فرد العباس على أبيه بكتاب لايليق أن يصدر من ولد

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥٩ .

إلى والده ، وعاد الرسول إلى ابن طولون فى ذى الحجة سنة ٢٦٥ هـ بعد أن أعيته الحيلة فى رد العباس إلى طريق الصواب .

بعد ذلك ظهر عصيان العباس لأبيه بشكل واضح ، حين عزم على الخروج إلى إفريقية ، مؤملا أن يقيم هناك ملكا ثابت الأركان موطد البنيان ، معتقداً أنه ببذل تلك الأموال التى أخذها من مصر ، وبمنح العطايا والهبات للبربر سكان إفريقية ، وبمعاونة حاشيته التى خرجت معه من الديار المصرية ، يستطيع أن يعلن نفسه ملكا على تلك الجهات . وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب حاكم إفريقية من قبل العباسيين ، يعلمه بأن الخليفة العباسى قد قلده إفريقية وأعمالها . ولم يكتف العباس بأن يبلغه هذا القرار الذى لم يصدر قط ، ولم يكن له نصيب من الصحة ، بل أمره بأن يدعى له على منابر إفريقية على أن يعد نفسه نائباً عنه ، ويستعد على هذا الاعتبار للقائه .

سار العباس إلى إفريقية سنة ٢٦٦هـ . وفى مدينة لبدة على مقربة من طرابلس ، أحسن عاملها وأهلها استقباله ، إلا أنه قابل الإحسان بالإساءة وقبض على عاملها ، واستباح أتباعه البلد فنهبوا أموالها وقتلوا رجالها . وبهذه السياسة تألب على العباس وجوه أهل البربر ، وتآمر عليه إبراهيم بن الأغلب ،وانتهت بقتل كبار رجال جيش العباس ، ونهب أمواله وأسلحته . ونجا العباس من الموت بعد مجهود شاق ، وعاد منهزما إلى برقة ، وعاد بعض أتباعه إلى مصر (١) .

وعلى أثر هـذه الحوادث توترت العلاقات بين ابن طولون وبنى الأغلب ، لما ارتكبه ابنه من الفظائع فى إفريقية . ولما تأكد ابن طولون بعودة ابنه إلى برقة تبادل معه عدداً من الرسائل (٢) . ولكى نتبين مدى غضب ابن طولون على ابنه ، نورد هنا بعض عبارات جاءت فى خطابه إليه قال :

«إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، المثلم لدينه، المنحوس من حظ دنياه وآخرته . أما بعد ، فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنها . . . وستعلم — هبلتك الهوابل (فقدتك الثواكل) — أيها الأخرق الجاهل . . . أى مورد هلكة سلكت ، إذ

---

(١) المقريزى : الخطط ج١ ص ٣١٠ ، راجع :

Zaki Hassan : Les Tulunides, PP. 67— 76 .

(٢) وردت نصوص هذه الرسائل فى ، البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٦٠ — ٢٦٤ ، وفى ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣٢٣ .

على الله جل اسمه تمردت .. وإنا كنا نقربك إلينا وننسبك إلى بيوتنا . فلما طال في البغي انهماكك . لم تكن لهذه النسبة أهلا » . وبعد كلام طويل عير فيه ابن طولون ولده على هزيمته في واقعة لبدة ، مما يدلنا على شدة حنق ابن طولون على ابنه ، قال : « فوالله لأستعملن لعنك في كل صلاة ، والدعاء عليك آناء الليل والنهار والغدو والآصال ، ولأكتبن إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة [1]، كتباً تقرأ على منابرها فيك باللعن لك والبراءة منك ، والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ... وستعلم أيها المخالف أي كبيرة أتيت ، فتندم إن كانت لك روية وفيك فضل إنسانية ، وتود أنك لم تكن ولدت ولا في الخلق عرفت ، إلا أن ترجع راغباً وتسرع خاضعاً إلى ماقبلنا ، فنقيم الاستغفار لك مقام اللعن ، والرقة مقام الغلظة ... » [2] .

إلا أن العباس لم يذعن لنصيحة أبيه ، وشجعه أنصاره على المقاومة . وكانت النتيجة أن عزم ابن طولون على أن يسير بنفسه لقتال ابنه ، وسار إلى الأسكندرية سنة ٢٦٧هـ في جيش بلغ مائة ألف مقاتل ، ولما علم بضآلة جيش ابنه عاد هو إلى الفسطاط وأرسل الجيش . وانتهى الأمر بهرب العباس وقتل عدد كبير من أتباعه ، وأحضر العباس إلى مصر وشاهد مقتل أعوانه وتعذيبهم على يد ابن طولون ، ثم حبس العباس بأمر أبيه ، وظل في الحبس حتى مات (في عهد أخيه خمارويه) .

وبالقبض على العباس ، خمدت تلك الفتنة الجامحة التي ظلت ثلاث سنين (٢٦٥ ـ ٢٦٨هـ) وكان لها أسوأ الأثر في مصر : فقد نغصت على ابن طولون حياته وأقلقت باله ، وعاقته عن إتمام كثير من أعمال الإصلاح التي قام بها منذ أن ولي أمور مصر وأقعدته عن قتال الروم ، لأنه عاد إلى مصر حين سمع بخروج ابنه عليه بينما كان يتأهب لغزوهم ، كما ضربت تلك الثورة أسوأ الأمثال لأهل الثغور : فقد خرجوا على حكم ابن طولون كما فعل أهل طرسوس وحلب وحمص وقنسرين وديار مضر في الجزيرة ، وانضموا إلى الموفق طلحة أخي الخليفة العباسي وعدو أحمد بن طولون .

---

(١) هنا إشارة إلى امتداد امبراطورية ابن طولون .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٥ ـ ١٠ .

٤ — عداء الموفق لابن طولون :

ومن المشاكل العنيفة التى اعترضت ابن طولون ، هى ظهور العداء بينه وبين الموفق بالله أبى أحمد طلحة ، أخى الخليفة المعتمد العباسى وصاحب الأمر فى بغداد . ولما قسم الخليفة أملاك الدولة بين ابنه المفوض وأخيه الموفق ، كانت مصر من بين أعمال المفوض . ولكن حين احتاج الموفق إلى الأموال التى يحارب بها صاحب الزنج حين أصبح على مقربة من بغداد ، كتب إلى ابن طولون يطلب منه أموالا يستعين بها فى تلك الحرب . ومع أن ابن طولون أرسل إليه مليوناً ومائتى ألف دينار ، فإن الموفق استقلها وطلب منه المزيد ، فرفض ابن طولون ، وكتب إليه بأنه ليس تابعاً له ، وأنه إنما أرسل تلك الأموال لأنه يعلم حقيقة الخطر الذى يهدد الدولة العباسية . ومنذ ذلك الحين ، اشتد العداء بين والى مصر وولى عهد الخلافة العباسية ، وعمل على إقصاء ابن طولون عن ولايته ، وفشل فيما دبره له ، ولكنه نجح فى عزله عن ولاية الثغور ومن أهمها ثغور الشام والإسكندرونة وطرسوس وثغور مرعش وأنطاكية فى الجزيرة . إلا أن سلطان ابن طولون عاد إلى تلك الثغور بعد أن فشل الولاة الذين عينوا عليها وقامت الثورات ضدهم .

وزاد الحالة سوءاً بين ابن طولون والموفق ، اعتزام الخليفة المعتمد الشخوص بنفسه إلى مصر ، بتشجيع ابن طولون ، تخلصاً من عسف أخيه الموفق . ولكنه ضبط وهو فى طريقه إلى مصر فأعيد إلى بغداد ، حيث لقى صنوف الهوان على يد أخيه وأعوانه .

وتمكن ابن طولون بعد ذلك من أن يأمر بلعن الموفق على كافة منابر البلاد الخاضعة لسلطانه ، واتبع الموفق معه نفس السياسة ونجح فى استصدار أمر من أخيه المعتمد بلعن ابن طولون على كافة المنابر . وكان عام ٢٦٩ هـ من الأعوام التى بذل فيها والى مصر جهوداً جبارة ليتفادى المؤامرات التى يدبرها له الموفق ، مما أثر فى صحته أسوأ تأثير(٢) .

---

(١) الزنج : طائفة من عبيد إفريقية ، أثاروا الرعب فى حاضرة الخلافة العباسية وهددوا كيان الدولة .

(٢) راجع علاقات ابن طولون والموفق بالتفصيل ، عند كلامنا على علاقات الطولونيين بالعباسيين ، فى باب العلاقات الخارجية .

حالة مصر العامة فى عهده :

كان ابن طولون أحسن مثل للحاكم العادل والوالى المصلح ، وكان عهده عهد سلام شامل ورخاء تام وفنون وآداب ، وخلف لنا ابن طولون عدة آثار ، زالت فى مبانيها إلا جامعه المعروف باسمه .

ومن أشهر آثار ابن طولون ، التى خلدت اسمه ، إنشاء القطائع التى اتخذها عاصمة لدولته ، وتقع فى المنطقة التى بها الآن المنشية والخليفة ، وقد اتخذ كبار رجال ابن طولون وقواده وغلمانه وكذلك أرباب الحرف والصناعات والتجار ، قطيعة خاصة به ، فسميت المدينة كلها باسم « القطائع » ، وهى ثالث العواصم الإسلامية التى أنشئت فى مصر بعد الفتح العربى ، بعد الفسطاط والعسكر .

واقترن «جامع ابن طولون» باسم منشئه أحمد بن طولون ، وهو مسجد كبير كائن بجهة الصليبة وقلعة الكبش ، ويعد أقدم بناء إسلامى بحت بقى على أصله إلى اليوم . وهو ثالث المساجد التى أنشئت فى مصر الإسلامية بعد جامع عمرو وجامع العسكر .

ولم يكتف ابن طولون بذلك ، بل أصلح فى سنة ٢٥٩ هـ مقياس الروضة ، وأنشأ القناطر والبئر فى الصحراء بعد أن اتضح له مدى مايعانيه الناس فى هذه المنطقة من مشقة فى الحصول على الماء . وبنى فى جزيرة الروضة حصنا منيعا ليكون مأوى له إذا ما حاق به خطر ، وأمر فى سنة ٢٥٩ هـ ببناء مارستان على طراز المستشفيات العامة الآن يعالج فيه الناس دون أجر على اختلاف طبقاتهم (١) .

وكل هذه الأعمال العظيمة تطلبت أموالا طائلة قد لاتتمشى مع موارد البلاد فى هذا العصر ، فإن خراج مصر فى عهده لم يزد عن ٤٫١٠٠٫٠٠٠ دينار ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول أن ابن طولون قد عثر على كنزين كبيرين : أحدهما فى الصحراء

---

(١) سيأتى تفصيل الكلام على تلك الآثار ، فى الباب الخامس بالمنشآت .

والآخر فى الجبل . ولكن أحداً منهم لم يبين محتويات الكنزين . ويتضح لنا مبلغ الرخاء الذى شمل البلاد فى عهد ابن طولون ، إذا علمنا أن عشرة الأرادب من القمح كانت تباع بدينار واحد (١) . ومن هنا نقف على درجة الطمأنينة التى تمتع بها المصريون فى عهده .

وفاة ابن طولون : (٢٧٠هـ = ٨٨٣م)

فى سنة ٢٧٠هـ ثار أهل طرسوس على حكم ابن طولون ، فخرج إليهم بنفسه ، واضطر أخيراً إلى الرحيل عن تلك المدينة وهو ممتلىء غيظاً لعدم تمكنه من قمع الفتنة ، وأقام فى أنطاكية ، حيث اشتد عليه المرض ، فعاد إلى الفسطاط فى ٢٠ جمادى الثانية سنة ٢٧٠ هـ ، وأمر الناس بالدعاء له بالشفاء (٢) . ولكن فى ١٠ ذى القعدة من تلك السنة ، توفى ابن طولون ، وسنه خمسون سنة ، ومدة ولايته على مصر ستة عشر عاما ، ودفن بسفح جبل المقطم ، وقيل : إن قبر ابن طولون موجود بتربه قديمة بقرب باب الجد والمجاور للجبل على مقربة من قلعه الجبل (٣) أى جنوبى سجن طرة .

ولما بلغت وفاته الخليفة المعتمد العباسى ، حزن عليه وقال يرثيه :

إلى الله أشكو أسى   عرانى كوقع الأسل
على رجل أروع   يرى فيه فضل الرجل
شهاب خبا وقده   وعارض غيث أفل
شكت دولتى فقده   وقد كان زين الدول.

ولا غرو فقد كان ابن طولون عوناً للخليفة المعتمد ضد أخيه الموفق الذى حجر عليه ، حتى فكر المعتمد فى الحضور إلى مصر ونقل مقر الخلافة إليها .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٨ .
(٢) أقرأ عن الصلوات التى أقيمت بمناسبة مرض ابن طولون :
Zaki Hassan : Les Tulunides, p . 9 .
(٣) ابن الناسخ : مصباح الداجى وغوث الراجى وكهف اللاجى ص ٢٥٤ .

وكان ابن طولون عادلا ، جواداً ، شجاعاً ، متواضعاً ، حسن السيرة ، صادق الفراسة ، يباشر الأمور بنفسه ، ويعمر البلاد ، وكان له ألف دينار كل شهر للصدقة ، واشتهر فى الوقت نفسه بالقسوة الشديدة فى معاملته للخارجين عليه .

٢ — خمارويه بن أحمد بن طولون

(٢٧٠ — ٢٨٢هـ = ٨٨٣ — ٨٩٥ م)

بعد وفاة ابن طولون ، خلفه ابنه خمارويه ، ووافق الخليفة العباسى على تعيين الوالى الجديد ، واعترض خمارويه ، كما اعترض والده أحمد من قبل ، عدة صعوبات كان لابد له من تذليلها والتغلب عليها ، كى تتوطد أركان دولته .

وكان من أشد هذه الصعوبات خطراً ، ذلك العداء الذى كان يضمره الموفق أخو الخليفة العباسى للطولونيين عامة ، مما سبب قيام الحرب بينه وبين خمارويه ، وانتهت بانتصار خمارويه وعقد الصلح بينهما . وعلى أثر وفاة الموفق سنة ٢٧٨ هـ ثم الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ أصبحت العلاقات بين الطولونيين والعباسيين ودية ، حتى إن الخليفة العباسى المعتضد أقر خمارويه على ولاية البلاد الممتدة بين العراق شرقا وبرقة غربا مدة ثلاثين سنة له ولأولاده من بعده ، ابتداء من سنة ٢٧٩ هـ .

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه إثنى عشر خلعة وسيفاً وتاجا ووشاحا »(١) ، وعرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تعرف باسم « قطر الندى » من ابن الخليفة العباسى ، ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه .

وكانت مصر فى عهد خمارويه تستند إلى بيت مال عامر ، فوسع القطائع وجملها ، واستطاع أن يبذل الأموال الطائلة فى تجهيز ابنته إلى الخليفة ، وغالى فى ذلك الجهاز مما أدى به وبيت مال مصر إلى الإفلاس .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزهرة جـ ٣ ص ٧٨ .

ويتضح لنا إسراف خمارويه من قول المؤرخ ابن دقماق « إنه حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به إلا فى وقته »[١] ومن قول المقريزى « إنه لم يبق خطيرة[٢] ولا طرفة[٣] من كل لون وجنس إلا حملها معها »[٤] . فمن هذا الجهاز دكة[٥] من أربع قطع من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق ، فيه حبة من الجوهر لايعرف لها قيمة . هذا إلى ما كان من مائة هاون من الذهب يدق فيها العود والطيب وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير .

ولم يكتف بما أعده لها من جهاز ، بل أمر بأن يبنى لها على رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين القطائع وبغداد قصر تنزل فيه ، وأعد هذه القصور بما تحتاج إليه حتى صارت فى سفرها إلى دار الخلافة العباسية ممتعة بكل وسائل الراحة ، وأسباب الرفاهية . ولم نقف فى مصدر من المصادر العربية على مبلغ نفقات هذا العرس ، وكل ما أتى عليه المؤرخون هو أن مقدار صداقها بلغ مليون درهم على حسب رواية ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » . وليس هذا بالشىء الكثير بجانب ما صرف على جهازها ، وخاصة إذا علمنا أيضاً أن ابن الجصاص الذى عهد اليه بإعداد الجهاز نال جائزة قدرها أربعمائة ألف دينار .

ونستدل من محتويات هذا الجهاز وفخامته على مبلغ الرخاء الذى ساد مصر فى عهد خمارويه وعن درجة رواج التجارة وتقدم الصناعة .

بعد إعداد الجهاز ، خرجت قطر الندى من القطائع قاصدة بغداد ، وسار موكبها فى مطلع الشمس ، وجلست فى هودجها بين الحشايا كأنها فى قصر الإمارة وصحبتها فى موكبها وصيفتها « أم آسية » تقص عليها الطرائف لتدخل السرور إلى قلبها ، وكذا عمها خزرج بن أحمد بن طولون ، وعمتها العباسة ، وأبو عبد الله بن

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٦٧ .
(٢) الخطير من كل شىء : النبيل
(٣) الطرفة : الغريب المستحب .
(٤) الخطط جـ ٢ ص ٣١٩ .
(٥) الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.

الجصاص الذى تولى أمر جهازها ، وبعض الأمراء وكبار رجال الجيش على جياد مطهمة ، وانتشر على طول طريق الموكب حراس من جند خمارويه عليهم الديباج والمناطق والسيوف ، والموسيقى تصدح بأنغام شجية ، وجمهور الشعب على جانبى الطريق يهتف هتافات مدوية بحياة عروس مصر (قطر الندى) تحية للبيت الطولونى الكريم وجدها أحمد بن طولون الذى رفع اسم مصر بين الأمم .

وكان الموكب يستقر بالعروس وأصحابها فى تلك القصور التى أقامها لها أبوها خمارويه بين القطائع عاصمة الطولونيين فى مصر وبين بغداد عاصمة العباسيين ، وأعدت فيها المخادع وعلقت الستور وهيئت الموائد والخدم والحشم والجوارى وكل ما تحتاج إليه ، حتى لم يشعر أحد بتعب الطريق ، وكأن قطر الندى فى طول سفرها تقيم فى قصر أبيها فى القطائع .

وبلغ الموكب شاطىء بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ ، وشهدت بغداد أياما كلها حبور وسرور ، وسارت السفن تمخر عباب نهر دجلة ، وعليها المواشط والوصائف والجوارى يحملن الشموع لاستقبال قطر الندى ، وأخذت بغداد زخرفها وازينت . وجليت قطر الندى على عريسها المعتضد فى يوم الثلاثاء ٥ ربيع الآخر من ذلك العام ، ولمع اسم هذه الفتاة على صفحات التاريخ المصرى الوسيط .

وتدلنا مسألة زواج الخليفة العباسى بابنة خمارويه على مبلغ حرص الدولة العباسية على المحافظة على ود مصر ، مع أن مصر لم تعد فى ذلك الحين أن تكون ولاية من الولايات التابعة لها ، ولا شك أن السر فى ذلك هو قوة مصر وثروتها واتساع رقعة البلاد التى تحت سلطانها ، حتى أصبحت بحيث يرغب الخليفة نفسه فى مصاهرتها .

على أن الإسراف فى أمر هذا الجهاز أدى إلى إفقار خمارويه وحكومة مصر . وتؤكد المصادر العربية أن قطر الندى حين وصلت إلى بغداد كان خمارويه فى هم مقيم وكرب شديد ، مما دعاه إلى لعن ابن الجصاص الذى تولى أمر هذا الجهاز وأشار على خمارويه بمحتوياته .

٣ — أولاد خمارويه وسقوط الدولة الطولونية

(٢٨٢ — ٢٩٢ هـ = ٨٩٥ — ٩٠٥ م)

توفى خمارويه سنة ٢٨٢ هـ ، فأخذت الدولة الطولونية فى الضعف والانحلال . وتولى زمامها طائفة من أفراد البيت الطولونى تنقصهم الحنكة السياسية ، ويستندون إلى خزانة تركها خمارويه خاوية على عروشها .

تولى الملك بعد خمارويه ابنه أبو العساكر جيش (٢٨٢ — ٢٨٤ هـ = ٨٩٥ — ٨٩٧ م) ، فلم يرض عنه الجند وخلعوه وتبرأ العلماء والقضاة من بيعته وأمر به فحبس حتى مات .

وتولى بعده أبو موسى هارون بن خمارويه (٢٨٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٩٧ — ٩٠٥ م) وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، فلم يكن يصلح للولاية ، وفى عهده خرج القرامطة سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢م) بالشام وكانت تابعة لمصر ، فعجز عن قمع ثورتهم[١] . وظهر ضعف الطولونيين واضحاً أمام العباسيين ، فتجددت رغبتهم فى إعادة مصر إلى سلطانهم المطلق من جديد ، وساعد على ذلك وفاة المعتضد زوج قطر الندى بنت خمارويه سنة ٢٨٩ هـ . وكانت قطر الندى قد توفيت قبل زوجها بقليل ، وكان اعتلاء المكتفى عرش الخلافة العباسية ، إيذاناً بزوال سلطان الطولونيين عن مصر .

وهكذا زال من عالم الوجود خمارويه وقطر الندى والمعتضد ، وكأن القدر لم يشأ أن يبقيهم على قيد الحياة حتى يشهدوا مصرع الدولة الطولونية . فقد كان زواج قطر الندى والمغالاة فى تجهيزها إيذاناً بزوال تلك الدولة الفتية ، التى بدأ السوس ينخر عظامها فى ليالى أعراسها ، حتى لفظت فى النهاية أنفاسها ، بعد أن كان الأمل من الزواج أن يثبت العرش فى بيتها .

ذلك أن الخليفة العباسى المكتفى بعث قائده المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر ، فهزم الأسطول المصرى وفر هارون بن خمارويه إلى العباسة[٢] ،

(١) Zaki Hassan : Les Tulunides, pp. 135—143

(٢) العباسة : بلد أول ما يلقى القاصد إلى مصر من الشام .

حيث قتله عماه شيبان وعدى ، فلم يرض الجند عن عملهما . ولما عين شيبان على ولاية مصر (صفر — ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ) رفضوا إقرار تعيينه وكاتبوا محمد ابن سليمان فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥م) وأشعل فيها النار ، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين . وهكذا قضى على الدولة الطولونية ، وخربت القطائع ، ولم يبق منها غير المسجد الجامع .

***

حكمت الدولة الطولونية مصر زهاء ثمانية وثلاثين عاما انتعشت فيها البلاد واستردت قوتها وعظمتها ، فراجت تجارتها ، ونشطت صناعتها وزراعتها ، وقوى الجيش ، وأنشىء أسطول بحرى ، وأصبحت مصر إمبراطورية تمتد من العراق إلى بلاد برقة بما فى ذلك آسيا الصغرى والشام وفلسطين . وكان عهدها عهد نهوض بفن العمارة والزخرفة والنقش وعهد سلام ورخاء ، وعناية بالمرضى والضعفاء ، وتشجيع للعلم والعلماء حتى أن المقريزى روى فى خططه عن القاضى أبى عمرو النابلسى أنه رأى كتابا لا يقل فى حجمه عن اثنتى عشرة كراسة يحوى فهرست شعراء ميدان أحمد بن طولون ... فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، فكم يكون شعرهم (١).

ولا عجب بعد ذلك إذا رثا الشعراء هذه الأسرة ، وتذكروا أيامها بالألم والحسرة ، ويكفيها فخراً أنها وضعت أساس مدنيات الأسرات التى تلتها فى حكم مصر ، وخاصة الفاطميين والمماليك . وإليك بعض ما قاله أحد الشعراء :

قف وقفة بقباب باب الساج ... والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيما إزعاج
كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجا ... يسرى بها السارون فى الإدلاج
وكأن أوجههم إذا أبصرتها ... من فضة بيضاء أو من عاج
كانوا ليوثاً لا يرام حماهم ... فى كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم ... علما بكل ثنية (٢) وفجاج (٣)
وعليهم ما عشت لا أدع البكا ... مع كل نظر وطرف ساج (٤)

(١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص٣٢٦ .
(٢) ثنية : طريق بين جبلين .
(٣) فجاج : طريق مسلوك .
(٤) ساج : سهران لا ينام .

خامساً — مصر منذ سقوط الطولونيين
إلى أن ولى حكمها الإخشيديون
(٢٩٢ — ٣٢٣ هـ = ٩٠٥ — ٩٣٤ م)

حالة مصر العامة فى ذلك العصر :

عقب سقوط الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥م) ، عادت مصر إلى عهد التبعية المطلقة للعباسيين ، إلا أن الاضطرابات استمرت فى البلاد بعد خضوعها لدار الخلافة : وذلك لضعف الخلفاء العباسيين فى بغداد وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، لاستبداد الأتراك بسبب المنافسة القائمة بين الولاة وعمال الخراج ، وأصبح الوالى من الضعف بحيث استبد به الجند . فقد كان تعيينه أو عزله يتم حسب رغبتهم ، ولذا كان يعمل على كسب رضائهم بدفع مرتباتهم إليهم . على أنه كان لايمكنه أن يحصل على المال اللازم للجند إلا بموافقة عامل الخراج الذى كان بمثابة وزير المالية ، وتفوق سلطته الأدبية سلطة الوالى : لأنه كان محتما على جميع الموظفين أن يطيعوه ليحصلوا على مرتباتهم ، ولأنه لايمكن تنفيذ مشروع إلا بعد الحصول على إذن منه بذلك ، ليوافق على فتح الاعتمادات اللازمة . فكان الوالى فى واد ، وعامل الخراج فى واد آخر ، كل منهما يكيد لصاحبه ويعمل على التخلص منه . وكانت سلطة الوالى بذلك إسمية ، وكان مهدداً فى كل حين من جانب الخليفة العباسى بالعزل . على أنه كثيراً ما كان يرفض الإذعان لأمر العزل ويحول دون دخول الوالى الجديد إلى مصر ، وأصبحت السلطة فى البلاد محصورة فى يد القواد وعمال الخراج ، ولم يعد لغيرهم أى نفوذ .

أشهر ولاة مصر :

بعد أن تم لمحمد بن سليمان القائد العباسى القضاء على الدولة الطولونية ، تقلد ولاية مصر مكافأة له ، على ما بذله من جهود فى سبيل جعل مصر تحت سيطرة العباسيين ، وبقى على ولاية مصر أربعة أشهر ، صرف بعدها عن منصبه على أثر اتهامه بالرشوة وابتزاز الأموال . وفى عهد ذلك الوالى ، مر بمصر عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين فى المغرب . ويظهر

لنا أن خبر رحيله من سلامية (١) إلى مصر كان قد تسرب إلى بغداد ، فأرسل الخليفة العباسى تعليمات إلى محمد بن سليمان بتتبع المهدى ، وتمكن بالفعل من القبض عليه ، ولكنه صرفه لما بذله المهدى من الأموال .

وخلف محمد بن سليمان فى ولاية مصر ، عيسى النوشرى (٢٩٢ — ٢٩٧ هـ)، وقيل إن المهدى هرب إلى مصر فى أيام ولايته . ويمتاز عهده بثورة جامحة قام بها أحد أنصار ابن طولون من القواد ، ويعرف بابن الخليج . وذلك أن الوالى الجديد قبض على كثيرين من آل طولون وأتباعهم من القواد ، وساقهم إلى بغداد . وبينما هم فى الطريق ، تمكن ابن الخليج من الهرب ، وعاد إلى مصر ، وفى أثناء عودته ، انضم إليه كثير من الأنصار ، فسار على رأسهم ودخل الديار المصرية . فلما علم عيسى بعودته ، بعث إليه بجيش كان مصيره الانهزام . فاضطر الوالى إلى الالتجاء إلى الأسكندرية ، ونقل معه بيت المال . ودخل ابن الخليج مدينة الفسطاط ، واستقر فى دار الإمارة ، وازدادت شوكته . وهنا تدخل الخليفة العباسى ، وأرسل فى المحرم سنة ٢٩٣ هـ جيشاً لطرد ابن الخليج ، ولكنه هزم . فاختار الخليفة لقتاله فى رجب من هذه السنة قائداً آخر يدعى فاتكا أكثر دربة وأعظم مراساً ، فسار على رأس جيش كثيف ، ودارت الدائرة على ابن الخليج وفر واستتر فى أحد بيوت الفسطاط ، وبذلك استطاع عيسى والى مصر أن يعود إلى الفسطاط هو ومن معه من رجاله . وهناك عرف بمخبأ ابن الخليج ، وقبض عليه وقيده . وبذلك تخلص من رجل أقلق بال الخلافة العباسية أكثر من سبعة أشهر ، ولولا قوة فاتك لقضى على سلطان العباسيين فى مصر ، ورجع عهد سيطرة الطولونيين . وعاد فاتك إلى بغداد ومعه ابن الخليج وأصحابه ، فطيف بهم على الجمال ثم ضربت أعناقهم (٢) ويستدل من سهولة استيلاء أحد القواد الطولونيين ، على مبلغ اضطراب الحكومة المصرية فى عهد سيطرة الولاة العباسيين (٣) . وكان من جراء هذه الثورة أن أجدبت أرض مصر وعدمت فيها الأقوات واشتد بها الغلاء ، ووقع من ابن الخليج أضعاف ما عمله محمد بن سليمان من أعمال السلب والنهب (٤) .

(١) سلامية : مركز الدعوة الفاطمية فى الشام وهى تشبه الحميمة مركز الدعوة العباسية من قبل .
(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٦٣ . ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٥٤
(٣) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 67.
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٥١ ، ١٥٥ .
Wiet : Histoire de La Nation Egyptienne, tome IV. p.414

على أن ضعف مصر واضطراب أحوالها فى ذلك العصر ، شجع الفاطميين على التفكير فى غزو مصر . فإنه فى سنة ٢٩٦هـ ، قدم مصر زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية [١]، بعد أن هزمه أبو عبدالله الشيعى داعية دعاة الفاطميين ، فمنعه عيسى من النزول ، ثم سمح له بأمر الخليفة العباسى أن يعبر النيل ويرحل عن مصر [٢] ، وتوفى عيسى فى ١٦ شعبان سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩م) .

وفى عهد أبى منصور تكين (٢٩٧ — ٣٠٢هـ) والى مصر بعد عيسى ، حدث أول احتكاك حربى بين مصر والمغرب . ومنذ ذلك الحين توالت حملات الفاطميين على مصر للاستيلاء عليها . ومن الولاة الذين تولوا مصر فى تلك الفترة : ذكا الأعور (صفر سنة ٣٠٣هـ) وتكين (فى ولايته الثانية : شعبان ٣٠٧هـ) وهلال بن بدر (ربيع الآخر ٣٠٩هـ) وأحمد بن كيغلغ (رجب ٣١١هـ) وتكين (فى ولايته الثالثة : ذو القعدة ٣١١هـ) ومحمد بن طغج الإخشيد (رمضان ٣٢١هـ) وأحمد بن كيغلغ (فى ولايته الثانية : شوال ٣٢١هـ) ومحمد بن تكين (ربيع الآخر ٣٢٢هـ) ، وتولى على مصر بعد ذلك محمد طغج الإخشيد فى سنة ٣٢٣هـ ، وتمكن فى ولايته الثانية على مصر أن يؤسس الدولة الإخشيدية .

ويمكن القول إن مصر لم تستفد فى الفترة التى تلت سقوط الطولونيين حتى وليها الإخشيديون ، غير اضطراب أحوالها وطمع الغزاة فى الاستيلاء عليها . على أنه بتأسيس الدولة الإخشيدية ، دخلت مصر فى دور جديد من أدوار التقدم والعمران .

---

(١) المقصود بها : تونس.
(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٩٧ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢٠ .

سادساً ـ الدولة الإخشيدية

(٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٤٣ — ٩٦٩ م)

ولاة الإخشيديين :

عدد	سنة هجرية	اسم الوالى	سنة ميلادية
١	٣٢٣	الإخشيد : أبو بكر محمد بن طغج	٩٣٥
٢	٣٣٤	أنوجور : أبو القاسم	٩٤٦
٣	٣٤٩	على بن الإخشيد : أبو الحسن	٩٦٠
٤	٣٥٥	كافور : أبو المسك	٩٦٦
٥	٣٥٧	أحمد بن على : أبو الفوارس	٩٦٨

١ — محمد بن طغج الإخشيد

(٣٢٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٣٥ — ٩٤٦ م)

يدعى الإخشيد محمد أبا بكر بن طغج (١) بن جف ، وهو من أولاد ملوك فرغانة فى بلاد ما وراء النهر . وجرت العادة أن ملوك هذه البلاد كان يلقب كل منهم باسم الإخشيد (٢) ، فأطلق هذا اللقب أيضاً على محمد بن طغج وتسمت به دولته ، فغدت تعرف باسم « الدولة الإخشيدية » .

---

(١) معنى كلمة « طغج » : عبد الرحمن .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٧ وقد فسر هذا المؤرخ ذلك اللفظ بأن معناه « ملك الملوك » . ثم يقول إن ملوك هذه الجهات كانوا يلقبون به كما كان يلقب ملك الروم مثلا « قيصر » وملك الفرس « كسرى » وملك الحبشة « النجاشى » ، وملك مصر قديما « فرعون » .

اتصل جف جد الإخشيد بالخلفاء العباسيين المعتصم فالواثق فالمتوكل ، ومات فى نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل .

أما طغج أبو الإخشيد ، فقد كان على درجة عظيمة من الثراء وسعة العيش ، واتصل بخدمة الطولونيين فى عهد خمارويه الذى ولاه على دمشق وطبرية ، وقيل إنه هو الذى قتل خمارويه بدمشق ، لأن خمارويه كان قد صمم على قتله بعد أن رفض طغج تنفيذ أمره الذى أصدره بقتل راغب والى مدينة طرسوس بآسيا الصغرى . وكان لطغج أيضاً ضلع كبير فى خلع أبى العساكر جيش بن خمارويه سنة ٢٨٣ هـ ، كما أنه عاون محمد بن سليمان القائد العباسى الذى أزال دولة الطولونيين وقضى عليها سنة ٢٩٢ هـ .

وبعد أن قضى على الدولة الطولونية ، سار طغج مع ابن سليمان إلى بغداد ، ولكنه ثقل على الوزير العباس بن الحسن ، لأنه لم يترجل عن جواده حين رآه ، فأوقع به هذا الوزير عند الخليفة ، فأمر به فحبس هو وابنه محمد المعروف بالإخشيد وابنه عبيدالله ، فظلوا فى الحبس حتى توفى طغج سنة ٢٩٤ هـ ، وإذ ذاك أطلق الوزير سراح ابنيه من الحبس واستخدمهما عنده ، وبقيا فى خدمته حتى قتل هذا الوزير بمعرفة ابن حمدان ومعاونة ولدى طغج ، وهربوا جميعاً عقب هذا القتل .

التجأ محمد بن طغج بعد ذلك إلى الشام واتصل بواليها أبى العباس أحمد بن بسطام ، وظل فى خدمته يخرج معه للصيد ويحمل له الطير ، حتى كان يقال له « بازيار ابن بسطام » . ولما تقلد ابن بسطام مصر رافقه ابن طغج (الإخشيد) إليها ، وبقى معه إلى أن توفى هذا الوالى فى مصر سنة ٢٩٧ هـ (١) .

التحق ابن طغج بعد ذلك بخدمة أبى منصور تكين والى مصر إذ ذاك ، واشترك معه فى الحرب التى دارت بين الجند المصرية وجند حباسة بن يوسف الكتامى ، قائد الحملة الفاطمية الأولى على مصر سنة ٣٠١ هـ فأبلى فى القتال بلاء عظيما ، وتوثقت صلته بتكين وأصبحت منزلته لديه منزلة الابن من أبيه . حتى كان ينادمه ويؤاكله ويلازمه فى رحلاته بين مصر والشام . لذلك عهد إليه تكين فى سنة ٣٠٦ هـ بولاية

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٠٧

عمان(١) وجبل الشراة(٢) ببلاد الشام . ثم ولاه مدينة الأسكندرية فظل على ولايتها حتى أغار الفاطميون على مصر فى حملتهم الثانية تحت قيادة القائم بن عبيد الله المهدى وولى عهده ، فاشترك ابن طغج فى قتالهم وردهم . (٣)

وبعد قليل صدرت أوامر الخليفة العباسى المقتدر بتولية محمد بن طغج على الرملة أولا ، وعلى دمشق ثانيا وتوطدت قدمه فى دمشق ، حيث لحق به إخوته : عبد الله والحسن والحسين وعلى (٤) . وكان له فيها عدة غلمان أكبرهم بدر الكبير ومن صغارهم : كافور ، وقد جعله ابن طغج على وضوئه ، كما ولد له بها ابنه أبو القاسم أنوجور فى ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ .

وعهد الخليفة المتقى لابن طغج بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ ، على أثر انتصاره على الفاطميين حين حاولوا غزو الديار المصرية سنة ٣٢١ هـ ، كما أمر بزيادة لقب الإخشيد على اسمه ، ودعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ (يوليه ٩٣٩ م) . وشملت دولته مصر وفلسطين وبلاد الشام والعراق وامتدت إلى نهر الفرات ، كما كانت تشمل أيضا جزءا كبيرا من بلاد العرب (٥) .

تمكن الإخشيد بعد ولايته من أن يثبت سلطانه فى مصر والشام ، وأن يصد الفاطميين عن الديار المصرية ، وطالما حاولوا الإغارة عليها وغزوها وأرسلوا من أجل ذلك الحملة تلو الحملة واستطاع أيضا أن يكتسب ثقة الخلافة العباسية وتقديرها .

على أن صلة المودة والوفاء بين الإخشيد والخليفة العباسى تبدلت إلى كراهية وعداء ، على أثر مسير محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد أخذ مصر ، مما دعا الإخشيد إلى إلغاء الدعاء فى خطبة الجمعة للخليفة العباسى ، وفى رمضان سنة ٣٢٨ هـ

---

(١) عمان : بلد فى طرف بلاد الشام .

(٢) جبل الشراة : صقع من أصقاع بلاد الشام ، يقع بين دمشق ومكة .

(٣) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عهد الإخشيديين ص ٦٩ — ٧٩

(٤) كان لطغج سبعة أولاد ، أحدهم محمد المعروف بالإخشيد .

(٥) يلاحظ أن هذا الاتساع هو نفس ما وصلت اليه الدولة الطولونية ، راجع
Marcel : Egypte depuis la Conquete Arabe, p. 95.

وقعت الحرب بين الإخشيد وابن رائق فى بلاد الشام . واستولى ابن رائق على دمشق ثم يمم شطر مصر لأخذها من الإخشيد ، ولكن الإخشيد خرج بنفسه فى المحرم سنة ٣٢٨ هـ ، ونزل الفرما وكانت جيوش ابن رائق قد اقتربت منها . إلا أن الإخشيد وابن رائق عقدا الصلح بينهما، وعاد الإخشيد إلى مصر، ولكن ابن رائق نقض شرط الصلح ، مما دعا الإخشيد إلى ملاقاته بجيوشه فى دمشق ، حيث هزم ابن رائق ، ولكنه عاد فانتصر على جيوش الإخشيد فى الرمله . وبرغم ذلك تصالح الفريقان ثانية ، على أن يدفع الإخشيد لابن رائق جزية سنوية ويتقلد منه الأراضى الشاميه شمالى الرملة . ولكن وفاة ابن رائق سنة ٣٣٠ هـ بعد عقد هذا الصلح بسنتين ،أعاد إلى الإخشيد ما كان قد تنازل عنه وضم مكة ومدينة إلى ملكه. وفى سنة ٣٣٢ هـ تحسنت العلاقات بين الإخشيد والخليفة العباسى ، حتى عرض الإخشيد على الخليفة المتقى أن يحضر إلى مصر ويتخذها دار إقامة ، فلم يقبل الخليفة، ولو تم ذلك لصارت مصر مقر خلافة ، وهو الأمر الذى سعى إليه ابن طولون من قبل ، وتابعه الإخشيد فى مسعاه ، بقصد جعل الزعامة فى العالم الإسلامى لمصر ، ولكن لم يتحقق ذلك إلا سنة ٦٥٩ هـ فى عهد بيبرس سلطان المماليك فى مصر .

وتجلت علاقة الإخشيد بالفاطميين فى المغرب ، فى تلك الحملات التى بعث بها الخلفاء الفاطميون لأخذ مصر وجعلها مقر خلافة فاطمية . ووضحت تلك العلاقة حين بعث القائم ثانى الخلفاء الفاطميين فى المغرب يطلب إلى الإخشيد نشر الدعوة الفاطمية فى مصر ، وهو عمل معناه نشر المذهب الشيعى ، تمهيدا للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين يدينون بهذا المذهب . وعلى الرغم من أن الإخشيد رفض ذلك بادىء الأمر ، إلا أنه مالبث أن أمر بإلغاء الخطبة للعباسيين ، على أثر مسير ابن رائق بأمر الخليفة العباسى لأخذ مصر من الإخشيد . ولكن العلاقات توترت بين الإخشيديين والفاطميين على أثر وفاة الإخشيد .

واهتم الإخشيد بالبناء ، ولكن على الرغم من أن عمرو بن العاص وصالح بن على وأحمد بن طولون من ولاة مصر ، أنشأوا عواصم لمصر الإسلامية وبنوا فى كل منها مسجدا للجماعة ، وبقيت بعض هذه المبانى دليلا على عظمة منشئها ، فإن آثار الإخشيد ، رغم كثرتها ، زالت فى مبانيها ولم يبق منها إلا الاسم . فقد بنى الإخشيد

قصرا عرف فيما بعد باسم «البستان الكافورى» ، وأنشأ ميدانا أطلق عليه «ميدان الإخشيد» ، إلى غير ذلك من المبانى .

قام الإخشيد بكثير من مشروعات الإصلاح: فتحسنت أحوال البلاد الاقتصادية، ونهضت من الهوة التى انحدرت إليها منذ سقوط الدولة الطولونية إلى أن انتشلها محمد بن طغج . وقد اهتم أبو الحسن على المسعودى الذى زار مصر فى عهد الإخشيد بوصف نظام الرى ، وجبر الخليج ، وقطع السدود ، وليلة الغطاس فى ذلك العصر .

وكان الإخشيد ملكا عظيما ، تدين له بالسلطان ثلاث ولايات : مصر والشام والحجاز ، وعرف كيف يسوس المصريين ، ويعيد النظام والسكينة محل الفوضى والاضطراب ، وتمتعت البلاد فى عهده بالاستقلال الذاتى وبالراحة والطمأنينة .

عاش الإخشيد طوال حياته عزيزا كريماً . ولما شعر بدنو أجله ، عهد بالملك إلى ولده أبى القاسم أنوجور ، على أن يعين كافور وصيا عليه. ومات الإخشيد فى دمشق وكان لا يزال مقيما بها بعد حروبه مع سيف الدولة الحمدانى ، وكانت وفاته فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ (يوليه سنة ٩٤٦ م) وهو فى السادسة والستين من عمره ونقل إلى بيت المقدس ودفن بها (١) ، بعد أن ولى أمور مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وكانت وفاته فى وقت بلغ فيه ذروة مجده .

وقد فصل ابن زولاق الظروف التى انتهت بوفاة الإخشيد ، قال : « ركب الإخشيد بدمشق ركبة عظيمة إلى الصيد ، وبين يديه من الجوارح من كل فن مالم يكن بين يدى خليفة قط ، وبين يديه محمد بن تكين وتكين الخاقانى وجماعة القواد، فما قدم على شىء من الصيد ولا عصفور ، وعاد كاسف البال ، فلما بلغ باب البركة التى كان ينزلها قال : لايبرح أبو بكر ولا أبو على ولا أبو الحسين ، فأمر لهم بأفراس حملوا عليها ، ثم دخل الحمام ، وعملت المائدة ليخرج من الحمام ويأكلوا معه ، فبينما هو فى الحمام إذ خرج الغلمان وقالوا لكافور: إلحق الإخشيد ، فلحقه وقد

---

(١) روى ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٤٣ أن الإخشيد دفن بمصر .

غشى عليه فى الحوض . فرمى كافور بنفسه إلى الحوض وأخرجه وصب عليه الماء ، ثم أخرجه إلى المشلح وألبسه ثيابه ثم بخره ، ودعا بابن الناسى الطبيب فسقاه شرابا وركب ، وقدمت المائدة وجلست الجماعة معه ، وقد مد يديه يكسر الرغيف فما قدر ، فشد يده اليمنى بيده اليسرى فلم يقدر ، ففطن لذلك محمد بن تكين ، فقال : قد أخذت الحمام من الإخشيد ونحن نعود فى غد . فما نطق بحرف وانصرفوا ، وحمل إلى مرقده وابتدأت به العلة خمسة عشر يوما ، وتوفى (١).

وخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنو جور وله من العمر خمسة عشر سنة ، وأقر هذه التولية الخليفة العباسى وقام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

٢ — أولاد الإخشيد وكافور

(٣٣٤ — ٣٥٧هـ = ٩٤٦ — ٩٦٨م)

نشأة كافور :

ولد أبو المسك كافور بين سنتى ٢٩١هـ (٩٠٤م) و ٣٠٨هـ ، لأن سنة ولادته بالضبط لم يحددها المؤرخون . بدأ حياته مملوكا بسيطاً ، وكان دميم الخلقة : أسود اللون شديد السواد ، بصاصا (٢) ، مثقوب الشفة السفلى ، بطنيا ، قبيحاً ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن (٣) . ويكنى كافور «أبا المسك» من قبيل التمليح لأن المسك أسود ، وكان كافور كذلك . ومن الدعابة إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض ، وكان هو أسود اللون (٤) .

اشترى محمد بن طغج الاخشيد كافورا من رجل يدعى محمود بن وهب بثمانية

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٤٣ ، نقلا عن ابن زولاق .

(٢) بصاص : وصف من بص أى برق ولمع وتلألأ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣١ .

(٤) راجع ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٩٣ .

عشر ديناراً (١) . وقيل إن الإخشيد لم يشتره ، وإنما أرسل إليه بهدية ، فتوسم فيه الذكاء فاحتفظ به ورد الهدية ، ورباه فى داره تربية عالية ، وما لبث الإخشيد أن أعجب به ، واختصه من بين عبيده وأولاه ثقته وأعتقه ، وأخذ يرقيه فى بلاطه لما كان عليه من الصفات الطيبة ، وجعله من كبار قواده حتى بعث به على رأس جيش كبير لمحاربة سيف الدولة بن حمدان ، وعهد إليه فى تربية ولديه : أبى القاسم أنوجور (٢) وأبى الحسن على .

وصاية كافور على أنوجور وأبى الحسن :

كان أنوجور ، عندما تولى حكم مصر (٣٣٤ - ٣٤٩هـ = ٩٤٦ — ٩٦٠م) لا يزال طفلا لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره . لذلك فإنه بعد وفاة أبيه الإخشيد وإسناده ولاية مصر إليه ، قام كافور بتدبير أمره ، ورغم أن أباه كان قد استخلفه على مصر فى حياته ، وأقره على ذلك العمل الخليفة العباسى المتقى . وبقيت علاقة كافور بالوالى الجديد على ما كانت عليه من قبل ، وهى علاقة الأستاذ بالتلميذ ، وأصبح كافور صاحب السلطان المطلق فى إدارة الدولة الإخشيدية ، ولم يعد لأنوجور إلا الاسم .

وقد قام فى وجه كافور فى مبدأ وصايته على أنوجور بعض المشاكل ، ولكنه تغلب عليها جميعاً . فقد نجح فى القضاء على ثورة قام بها أهل مصر ، مما رفع شأنه وقوى مركزه ومكنه من أن يقبض على زمام الأحكام ، من غير أن تكون له سلطة شرعية ، وخاطبه علية القوم بالأستاذ ، وذكر اسمه فى الخطبة ، ودعى له على المنابر فى مصر والبلاد التابعة لها ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين (٣).

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣١

(٢) ينطق بضم أو فتح الهمزة ، وهو لفظ أعجمى يقابله فى العربية اسم « محمود » . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧ .

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور ، وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها، والكافورية وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العالية في الدولة ، وقد أوضح أتباع أنوجور له مبلغ استبداد كافور بأمور الدولة بقولهم : « قد احتوى كافور على الأموال، وانفرد بتدبير الجيوش ، وأخذ أموال أبيك ، وأنت معه مقهور » (١) .

وعول أنوجور على المسير إلى الرملة سنة ٣٤٣هـ بقصد إعداد جيش يزحف به على مصر للتخلص من كافور بحد السيف ، ولكن أم أنوجور سعت إلى مصالحتهما ، خوفا على ولدها من بطش كافور فتصالحا ، وظل أنوجور مسلوب السلطة لا يملك من الأمر شيئاً حتى مات في ٨ ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ (٣٠ ديسمبر سنة ٩٦٠م) . ويتهم بعض المؤرخين كافوراً بأنه سعى إلى موته ، حين علم برغبته في التخلص من سلطانه .

وخلفه في حكم مصر أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد (٣٤٩ — ٣٥٥هـ = ٩٦٠ — ٩٦٦م) . ولما كان كافور محباً للسيطرة ، فإنه ظل يباشر الأمر بنفسه ، على الرغم من أن الوالى الجديد كان يناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل زاد على ذلك أن حرمه من كل عمل ومنع الناس من الاجتماع به ، حتى صار أبو الحسن أسيراً في قصره ، لا عمل له إلا الصلاة أو اللهو ، وبقى على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥هـ .

ولاية كافور على مصر :

(٣٥٥ - ٣٥٧هـ = ٩٦٦ — ٩٦٨م)

كان الوارث العرش ولداً صغيراً يدعى أحمد بن أبى الحسن على ، فحال كافور دون تعيينه ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه . وبقيت مصر بغير أمير نحوا من شهر . وفي المحرم سنة ٣٥٥هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسى بتقليده على ولاية مصر . وأظهر الخلع التى وصلت إليه من الخليفة ، فنودى به واليا على مصر وما يليها من البلاد ، فلم يغير لقبه « الأستاذ » ، ودعى له بعد الخليفة على المنابر .

وساعده على تثبيت سلطانه ، أن العلاقة بين كافور والخليفة العباسي، كانت علاقة وئام ووداد ، حتى أنه سار بابنى الإخشيد : أنوجور وعلى إلى بغداد وعاد بهما إلى مصر ، بعد أن قام بتجديد ولاء الإخشيديين للخلافة العباسية ، وتمكن من أن يعتلى عرش الولاية فى مصر ، وهو ليس من أفراد الأسرة الإخشيدية ، وخرق بذلك نظام الوارثة الذى عمل به فى مصر منذ وفاة ابن طولون . ولكن رغم ذلك ، فإن الوالى الجديد سمح لدعاة الفاطميين بأن ينتشروا فى مصر ، داعين للمذهب الشيعى، مما كان من العوامل الممهدة للغزو الفاطمى لمصر .

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٤هـ إلى ٣٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ) ، ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود ، توالت فيه المصائب على مصر : فقد تعرضت بلاد الشام لغزوات القرامطة [1] سنة ٣٥٣هـ ، ووقعت بمصر زلازل مروعة ، وشبت نيران هائلة دمرت نحو ألفى منزل من منازل الفسطاط ، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فساداً

---

(١) ينسب القرامطة إلى رجل يدعى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط. ظهر فى الكوفة سنة ٢٦٤هـ ، فى الوقت الذى ظهر فيه عبد الله بن ميمون بن ديصان الثنوى الذى ينتسب إليه الثنوية الذين يقولون بوجود إلهين : إله النور وإله الظلمة . (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٤٨) . وعبد الله هذا هو مؤسس المذهب الذى عرف فيما بعد باسم مذهب القرامطة . وأظهر عبد الله الزهد والتقشف والعلم والتشيع ، فمازتقة الناس ونجح فى تأسيس جمعية سرية ، ثم أخذ يعلم الناس أسرار الدعوة التى قسمها إلى سبع درجات وزادت فيما بعد حتى بلغت تسعا فى أيام الفاطميين . واتصل أمر عبد الله بوالى الأهواز وأضمر له الشر ، ففر إلى البصرة ، وبعث الحسين الأهوازى أحد دعاته لنشر مذهبه ، فلقى بها حمدان بن الأشعث قرمط ودعاه إلى مذهبه . ولما أحس الحسين بدنو أجله ، عهد بالدعوة من بعده إلى حمدان قرمط ، فقام يبث عقائد هذا المذهب ، الذى أصبح يعرف باسم مذهب القرامطة ، وقيل إن حمدان كان قصير القامة وخطواته متقاربة فأطلق عليه اسم «قرمط» . وقيل أيضا إنه كان فى القرية رجل أحمر العينين يحمل على أثوار له يسمونه كرميتة لحمرة عينيه ، فسمى باسم الرجل الذى فى دار كرميته ، ثم خفف اللفظ فصار قرمط . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠١ .

ومن بين عقائد القرامطة : صوم يومين فى السنة هما المهرجان والنوروز ، وإباحة الخمر وتحويل القبلة إلى بيت المقدس والحج إليه ، وجعل يوم الإثنين بدل الجمعة يوم عطلة ، وفرض درهم على كل من الرجال والنساء .

فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول وأخميم فى مديرية سوهاج ، وكان أشد الأهوال التى انتابت مصر فى عهده ، انخفاض ماء النيل الذى دام تسع سنين ، ست منها فى عهد كافور وثلاثة فى عهد الفاطميين (٣٥١ — ٣٦٠ هـ) . وقاست البلاد الأمرين مما أصابها من القحط والوباء واشتداد الغلاء وكثرة الموت (١) .

وصفه أبو المحاسن بقوله : كان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء وكان عظيم الحرمة وله حجاب ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود مايتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد ، وكان كثير الخلع والهبات ، خبيرا بالسياسة ، فطنا ذكيا ، جيد العقل ، داهية ، كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر (٢) .

ومن الشعراء الذين مدحوه ، أبو الطيب المتنبى ، أشهر شعراء عصره . فارق سيف الدولة الحمدانى مغاضبا ، وقصد مصر ، وامتدح كافوراً بأحسن المدائح ، طمعا فى أن يوليه بعض أعمال مصر ، فخلع كافور عليه ، وأنزله فى داره ، وعين جماعة لخدمته ، وحمل إليه كثيرا من المال ، ولكنه لم يوله عملا من الأعمال ، معتذرا بأنه لا يستطيع أن يولى رجلا يدعى النبوة ، فانقلب مدح أبى الطيب هجاء ، كما أسرف فى مدحه من قبل (٣) .

مدحه المتنبى بقصيدة قال فيها :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه … وإن لم أشأ تملى علىّ وأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه … ويمم كافورا فما يتغرب
فتى يملأ الأحلام رأيا وحكمة … ونادرة أحيان يرضى ويغضب
إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه … تبينت أن السيف بالكف يضرب

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٣٠
(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى : شرح ديوان المتنبى ج ٢ ص ١٥٤ .

تزيد عطاياه على الليث كثرة ... وتبيت أمواه السحاب فتنضب
أبا المسك هل في الكأس فضل أناله ... فإني أغني منذ حين وتشرب (١)

ولما لم ينل المتنبي من كافور ماطلبه استعد للرحيل سنة ٣٥٠ هـ وهجا كافورا قبل مغادرته مصر بيوم واحد، أشد الهجاء، في قصيدة، منها:

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد
جود الرجال من الأيدي وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصي مكرمة ... أقوامه البيض أم آباؤه الصيد
من كل رخو وكاء البطن منفتق ... لا في الرجال ولا النسوان معدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصي إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحز مولود
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن ... يسيء بي فيه كلب وهو محمود (٢).

وقد نبغ بمصر في عهد كافور كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء. ومن أشهرهم القاضي أبو بكر بن الحداد، وتلميذه محمد بن موسى المعروف باسم سيبويه المصري، وأبو عمر الكندي، والحسن بن زولاق. وكان كافور يمتلك أموالا ضخمة، أنفق منها بسعة على العلماء والأدباء والشعراء، فقد نفح أحد مادحيه من الشعراء ألف دينار (٣).

وتوفي كافور بمصر في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ (ابريل ٩٦٨م) وعاش بضعا وستين سنة، وكانت إمارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور، وحمل تابوته إلى القدس، فدفن به (٤) وكتب على قبره:

---

(١) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٨.

(٢) نفس المصدر والجزء ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٦

(٣) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, pp . 90—91.

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) وابن دقماق (ج ٤ ص ١١، ١٢٥) وابن إياس (ج ١ ص ٤٤) أنه دفن بمصر. أما لينبول فيذكر أنه دفن في دمشق:
Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p.103.

مابال قبرك يا كافور منفردا بالصحصح المرت(١) بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب .

وكتب عليه أيضاً :

أنظر إلى عبر الأيام ماصنعت أفنت أناساً بها كانوا وما فنيت
دنياهم ضحكت أيام دولتهم حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت .

مصر بعد وفاة كافور إلى أن استولى عليها الفاطميون :

(٣٥٧—٣٥٨ هـ = ٩٦٨—٩٦٩م)

على أثر وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ ، اختار الجند ورجال البلاط فى مصر ، أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد ، واليا على هذه البلاد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر . ونستدل على ضعف الوالى الجديد ، مما رواه ابن زولاق ، فقد ذكر أن سيبويه المصرى لما علم ببيعة أحمد حفيد الإخشيد ، قال : «أما هذا من العجايب ، ومن عظام المصايب ، أن يعقد فى أعلى المراتب ، ويؤهل للنوايب ، صبى غير بالغ ولا آيب ، ولا قارئ ولا كاتب ، ولا حامل سيف ولا ضارب . . . لقد خس هذا الأمر وهان ، حتى تلاعب به النسوان ، وندب له الصبيان ، فالله على كل حال المستعان » (٢) .

لذلك عين الحسن بن عبيد الله بن طغج والى الشام وابن عم أبيه وصياً عليه(٣) . فاستبد الحسن بالأمر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات وصادر أمواله ، وأساء معاملة الأهلين ، حتى سخطوا عليه . فعاد إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ بعد أن أطلق سراح ابن الفرات ، وترك شئون البلاد مرة أخرى فى يد هذا الوزير الذى لم يستطع أن يدفع رواتب الجند ويخفف عن المصريين ماهم فيه من بؤس وشقاء ، نتيجة لتلك

---

(١) مغارة لانبات فيها .
(٢) ابن زولاق : كتاب أخبار سيبويه المصرى ص ٥٢ و ٥٣ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٥٧ .

المجاعة التى كانت تجتاح البلاد إذ ذاك ، حتى أكل الناس الجيف والكلاب (١) .

ظلت مصر على هذا الحال عدة أشهر ، كانت فيها خاضعة لسلطة الإخشيديين الإسمية ، وصلت فيها إلى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب ، ولم يستطع العباسيون أن يقبضوا على زمام الأمور أو يعيدوا الأمن إلى نصابه ، لأن الخليفة العباسى كان قد وصل إلى درجة من الضعف لم يحاول معها استعادة نفوذه فى مصر . لهذا لا نعجب إذا عجزت الدولتان الإخشيدية والعباسية معا عن صد هجمات الفاطميين عن مصر ، وانتهز الخليفة الفاطمى المعز تلك الفرصة ، وأرسل حملته المشهورة ، لفتح مصر ، بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١ .

الباب الثاني

الدولة الفاطمية

(٣٥٨ – ٥٦٧هـ = ٩٦٩ – ١١٧١م)

مصر دار خلافة [1]

الخلفاء الفاطميون :

عدد	سنة هجرية	اسماء الخلفاء	سنة ميلادية
		في المغرب	
١	٢٩٧	المهدي : عبد الله أبو محمد	٩٠٩
٢	٣٢٢	القائم : محمد أبو القاسم	٩٣٤
٣	٣٣٤	المنصور: إسماعيل أبو طاهر	٩٤٥
٤	٣٤١	المعز : معد أبو تميم	٩٥٢
		في مصر	
	٣٦٢	المعز :	٩٧٢
٥	٣٦٥	العزيز : نزار أبو منصور	٩٧٥
٦	٣٨٦	الحاكم : المنصور علي أبو حسن	٩٩٦
٧	٤١١	الظاهر : علي أبو حسن	١٠٢٠
٨	٤٢٧	المستنصر : معد أبو تميم	١٠٣٥
٩	٤٨٧	المستعلي : أحمد أبو القاسم	١٠٩٤
١٠	٤٩٥	الآمر : المنصور أبو علي	١١٠١
١١	٥٢٤	الحافظ : عبد المجيد أبو الميمون	١١٣٠
١٢	٥٤٤	الظافر : إسماعيل أبو المنصور	١١٤٩
١٣	٥٤٩	الفائز : عيسى أبو القاسم	١١٥٤
١٤	٥٥٥ – ٥٦٧	العاضد : عبد الله أبو محمد	١١٦٠ – ١١٧١

(١) يلاحظ أن مصر أصبحت دار خلافة منذ انتقل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي من بلاد المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م)

أصل الفاطميين

تطرق الشك إلى أصل الفاطميين ، فمن قائل إنهم ينتسبون إلى عبد الله بن ميمون الذى أطلق عليه لقب القداح لأنه كان يشتغل بتطبيب العيون ، ومن قائل إنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق من نسل على وفاطمة .

وتعد مسألة نسب الفاطميين من أعقد المشاكل فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، لتباين آراء المؤرخين بصددها . فقد أمعن بعض المؤرخين فى القدح فى نسب الفاطميين من أمثال : ابن النديم (٣٨٣هـ) فى « الفهرست » ، والباقلانى (٤٠٣ هـ) فى «أسرار الباطنية» ، وابن خلكان(٦٨١هـ) فى «وفيات الأعيان» ، وابن واصل فى «مفروح الكروب فى تاريخ بنى أيوب » ، والذهبى (٧٤٩هـ)فى «تاريخ الإسلام» ، فإن هؤلاء جميعاً أنكروا نسبتهم إلى على وفاطمة .

وتصدى مؤرخون آخرون للدفاع عنهم وإثبات أن الفاطميين علويون من آل البيت ، ومنهم : ابن الأثير (٦٣٠هـ) فى «الكامل فى التاريخ» ، وابن خلدون (٨٠٨هـ) فى «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وفى «المقدمة» ، والمقريزى (٨٤٥هـ) فى «الخطط» و «اتعاظ الحنفا » (١) .

نسبتهم إلى ابن ميمون :

وتلخص أقوال الذين يصرون على نسبة الفاطميين إلى ابن ميمون (٢) ، فى أن أتباع ابن ميمون هذا يعتقدون فى وجود إلهين : أحدهما إله النور وثانيهما إله الظلمة ،

---

(١) السنة المبينة أمام كل مؤلف ، هى سنة وفاته ، أثبتناها لمعرفة العصر الذى عاش فيه.

(٢) ليست هناك ترجمة مستقلة عن ميمون ، بل ورد إسمه فى بعض كتب التاريخ عند الكلام على أصل الدولة الفاطمية وفى كتب الفرق الإسلامية عند الكلام على طائفة الإسماعيلية . قال محمد بن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ فى كتابه الفهرست (طبع أوربا) ص ١٨٦ : أن عبد الله بن ميمون ، ويعرف ميمون بالقداح ، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالميمونية . والميمونية أصحاب ميمون كان من جملة العجاردة ، إلا أنه تفرد عنه بإثبات القدر ، خيره وشره » . الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٧٣ .

وأنهم كانوا يدينون بمذهب الشيعة ، وعملوا على تكوين دولة فارسية ، وأن ابن ميمون نجح فى تأسيس جمعية سرية ، علم الناس عن طريقها أسرار الدعوة الشيعيه ، بأن قسمها إلى سبع مراحل زادت فيما بعد حتى بلغت تسعاً فى أيام الفاطميين ، تبدأ بشرح بعض غوامض القرآن ، وتنتهى بالاعتقاد بأن اسماعيل بن جعفر الصادق هو عبدالله ابن ميمون ، وأن ابن ميمون بمنزلة على من محمد .

تنقل ابن ميمون ، داعيا للشيعة ، من الأهواز إلى البصرة ، ثم إلى الشام حيث أقام فى سلامية ، وخلفه فى الدعوة للشيعة ابنه أحمد ، ثم الحسين بن أحمد ، ثم محمد ابن الحسين بن أحمد المعروف بأبى الشلعلع ، وهو الذى بعث إلى بلاد المغرب أبا عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطميين ومؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب فيما بعد . وكان للحسين ولد اسمه سعيد كثر أنصاره مما هدد سلطان الخلافة العباسية إذ ذاك ، فأمر الخليفة المعتضد العباسى بالقبض عليه ، ففر من سلامية مركز الدعوة الشيعية إلى مصر ومنها إلى المغرب حيث حبسه أمير سجلماسة ، وظل فى حبسه حتى أطلقه منه أبو عبد الله الشيعى .

وإن من ينكر صحة نسبة الفاطميين إلى على وفاطمة ، يذهب إلى أن عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين فى المغرب هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون القداح .

نسبتهم إلى على وفاطمة :

على أن الذين تصدوا لإثبات صحة نسب الفاطميين أدلوا بالحجج الآتية :

١ — ما بين سنة ٣٠٤ هـ وسنة ٣٢٥ هـ أى فى بدء قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، كتب أحمد بن نصر السامانى أمير خراسان يعترف بسلطة عبيد الله المهدى الروحية ويعد بإمداده بالمال والرجال إذا شاء . ولولا اعتقاد الناس فى البلاد الإسلامية بصحة نسب الفاطميين ، لما انتشرت سلطة الفاطميين الروحية والزمنية فى أكثر البلاد ، إلى حد أن اعترف بهذه السلطة أمراء الدولة العباسية ذاتها .

٢ — فى سنة ٤٠٢ هـ ضايق الخليفة العباسى القادر ، الشريف الرضى الشاعر

العلوى المشهور المتوفى سنة ٤٠٤ هـ بأن عزله عن النظر فى المظالم وعن إمارة الحج ، فكتب له قصيدته المعروفة التى منها :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعلى (١)

ولقد أثارت هذه القصيدة حنق الخليفة العباسى فدعا إلى جمع الفقهاء وأقطاب العلوية ، واستكتبهم محضراً فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ كله طعن وتشهير فى نسب الفاطميين . ولقد ذهب ابن الأثير إلى أن الشريف الرضى ناقش جماعة العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يشك واحد منهم فى نسب الفاطميين وأنهم من أولاد على (٢).

٣ — يقول ابن خلدون إنه « من الأخبار الواهية ماذهب إليه كثير من المؤرخين فى العبيديين ، خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفيهم عن آل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن فى نسبهم إلى اسماعيل الإمام بن جعفر الصادق ، معتمدين فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ، تزلفا إليهم بالقدح وتفننا فى الشماتة بعدوهم » (٣) .

٤ — أما المقريزى وهو شيخ مؤرخى مصر الإسلامية وحفيد الفاطميين ، فقد دافع عن صحة نسبة الفاطميين إلى على وفاطمة (٤) .

ولكنه على الرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين والمحدثين فى هذه المسألة ، فإنه يمكن القول بوجه عام أن نسب الخلفاء الفاطميين إلى فاطمة صحيح وأنه بسبب

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٠٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢١ .

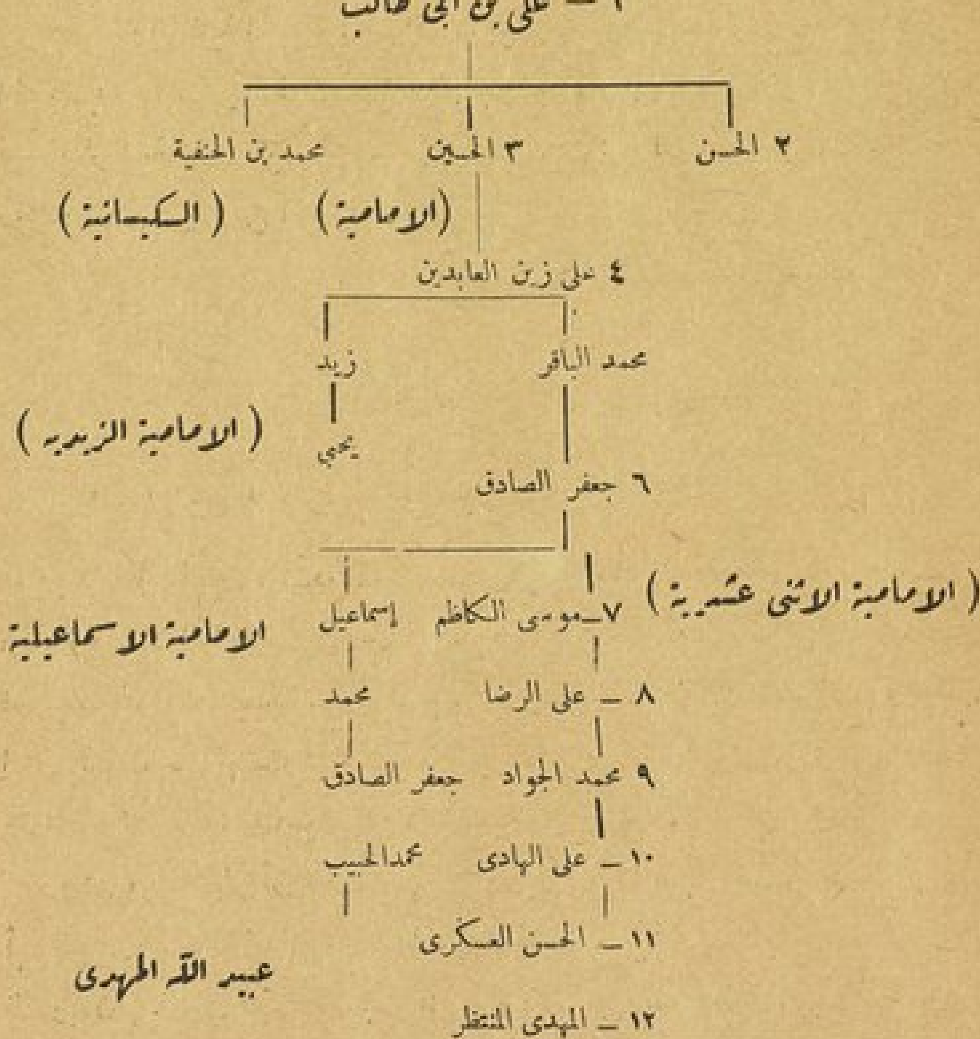
(٤) راجع خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٨٤ وما بعدها ، ومقال للأستاذ أحمد نطق فى هذا الموضوع .

هذا الغلو الذى ساد المعتقدات الفاطمية ، رأى منافسوهم أن يقضوا على ما ادعاه الفاطميون من النسبة إلى فاطمة (١) .

الفرق الشيعية :

وتتفق جميع الفرق الشيعية فى تولية على بن طالب وابنيه الحسن ثم الحسين عرش الخلافة ، وأحقيتهم هم ونسلهم بها دون سواهم . وبعد مقتل الحسين تكونت فرقتان للشيعة : الشيعة الكيسانية والشيعة الإمامية .

وتذهب الكيسانية ، إلى تولى محمد بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية . أما الشيعة الإمامية فتنقسم إلى ثلاثة أقسام :



(١) راجع ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص ٦٢ — ٧٩ .

١ — الإمامية الإثنى عشرية : وهى التى تسوق الخلافة بعد الحسين إلى ابنه على زين العابدين ، ثم إلى أبنائه من بعده محمد الباقر وجعفر الصادق ، ثم إلى الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى ، الملقب عندهم بالمهدى .

٢ — والإمامية الإسماعيلية : وتتفق مع الإثنى عشرية إلى جعفر الصادق أبى موسى الكاظم ، ويخالفونهم فى موسى الكاظم ، فيسوقون الخلافة بعد جعفر إلى ابنه إسماعيل ، ثم إلى أبنائه حتى محمد الحبيب أبى عبيد الله المهدى مؤسس الدولة فى بلاد المغرب . ولذلك سموا بالإسماعيلية ويسمون بالسبعية أيضاً ، وإلى هؤلاء ينتسب الفاطميون .

٣ — والإمامية الزيدية : ويوافقون الإثنى عشرية إلى على زين العابدين بن الحسين بن على ، ثم يسوقون الخلافة إلى ابنه زيد ، ثم إلى يحيى بن زيد . ومن هؤلاء نشأت الرافضة ، أى الذين اعتزلوا زيداً فقال لهم : « لقد رفضتمونى » ، فسموا رافضة ، وهم فريق من الزيدية .

الفاطميون فى المغرب

الصراع بين العلويين والعباسيين من أجل الخلافة :

بعد مقتل الحسين ، تكونت عدة فرق شيعية تطالب بالخلافة ، وهى وإن اختلفت فى المظهر ، إلا أنها اتفقت فى الجوهر ، وهو حصر الخلافة فى آل على . ومنذ مقتل الحسين والدعوة الشيعية تشتد وتحتدم . وظهرت شدتها طوال العصر الأموى ، وظل الحال كذلك حتى نهضت شيعة العباسيين بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، وتم لها القضاء على الدولة الأموية ، وبتأسيس الدولة العباسية على أنقاضها .

وكان من المنتظر أن تقف جهود العلويين فى المطالبة بالخلافة منذ وصول أبى العباس السفاح إلى العرش . ولكن العلويين لم يرتاحوا لنجاح العباسيين ، فالعلويون يعتقدون أنهم أهل بيت النبى وأولاده من ابنته فاطمة ، ويقولون إن العباسيين بايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف

بالنفس الزكية بالخلافة ، فى أواخر أيام الأمويين أثناء اجتماعهم فى المدينة ، وقد بايع محمداً ممن حضر من العباسيين : السفاح ، والمنصور .

ويرد العباسيون على ذلك أن أباهم العباس بن عبدالمطلب عم النبى ، وأن العلويين من فاطمة ، وهى امرأة ، فلا يحق لهم الوصول إلى الخلافة عن طريقها عملا بقانون الوراثة فى الشريعة الإسلامية ، وأن العلويين لم يحسنوا السياسة أو القيادة ، فلا يستحقون الخلافة .

بذلك أدلى كل من هؤلاء ، وأولئك بحججه فى سبيل إثبات حقه فى الخلافة . ومهما يكن ، فقد تمسك العلويون بحقهم ، وناضلوا عنه بالسيف طوراً ، وبالمكيدة والخداع ونشر الدعوة لهم طوراً آخر . لذلك يتميز عهد العباسيين بالصراع الذى قام بينهم وبين العلويين ، فقد قام العلويون بثورات عنيفة ، بلغت من الخطر حدا هدد سلامة الدولة العباسية وكيانها . إلا أن الخلفاء العباسيين قضوا على حركاتهم بشدة ، وانتهى أمر تلك الثورات كلها بالفشل .

انتقال العلويين إلى المغرب :

رأى العلويون بعد ذلك الاضطهاد أن ينشروا دعوتهم فى الخفاء ، فاتخذوا ملاجىء يدرءون بها عن أنفسهم ما كان يوقعه العباسيون بهم ، وذلك فى البلاد التى قام فيها دعاتهم بنشر مذهبهم . من ذلك أن محمد بن الحسن العسكرى ، وهو الإمام الثانى عشر عند الشيعة الإمامية الإثنى عشرية دخل سرداباً فى مدينة سامرا (التى أسسها المعتصم) ، وأمه تنظر إليه ، ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين . ولهذا اعتقدت الإمامية الإثنى عشرية أنه سيظهر ويملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا وظلما . وبوفاة الحسن العسكرى وغيبة ابنه محمد المنتظر ، ظهرت جهود الإمامية الإسماعيلية فى مناوءة العباسيين ، وهذا دفع خلفاء العباسيين إلى تضييق الخناق على هذه الطائفة حتى اضطرت إلى مغادرة سلامية (من أعمال حماة فى سورية) مركز دعوتهم لمواصلة

جهودهم فى بلاد المغرب فى شمال إفريقية ، بعد أن قضى على كل مابذله الشيعيون من مجهودات لتأسيس خلافة علوية فى الشام (١) .

وأهم العوامل التى دفعتهم إلى اتخاذ شمال إفريقية مقراً لهم هى :

١ — بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية فى بغداد ، مما يجعل من الصعب على خلفاء بنى العباس تعقب العلويين وإزال حنقهم ونقمتهم عليهم .

٢ — جهل البربر سكان شمال إفريقية ، وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية ، مما يجعل من السهل تصديق كل مايقصه عليهم آل على ، من المظالم التى تقع على آل محمد ، لإثارة حميتهم لدعوتهم الدينية .

٣ — إن إفريقية لم تكن يوما ما مرتبطة بالأمويين ولا بالعباسيين ارتباطا شديدا ، بل كانت كثيرة الثورات والقلاقل ، حتى تركها الرشيد شبه مستقلة تحت إمرة بنى الأغلب ، وهؤلاء كانوا عاجزين عن حكم المغرب حكما صالحا .

٤ — أن أهل إفريقية كانوا يبغضون ولاتهم لفرضهم الضرائب الفادحة عليهم ، مما لم ينص عليه الدين .

٥ — أن الدولة العباسية نفسها كانت إذ ذاك ضعيفة جدا ، وعاجزة عن إصلاح شئون البلاد أو النظر فى شكاوى الأهلين .

لهذه الأسباب كانت إفريقية تربة خصبة لبث الدعوة لبنى على وفاطمة . ودخل عبيد الله المهدى فى سنة ٢٩٧ هـ مدينة رقادة (جنوب شرق تونس الحالية) حاضرة بنى الأغلب دخول المنتصر ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وبذلك تأسست الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب أو شمال إفريقية .

* * *

حكم الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، أربعة عشر خليفة ، منهم أربعة فى المغرب هم بالترتيب : عبيد الله المهدى ، والقائم بن المهدى ، والمنصور بن القائم ، ثم المعز

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٩ .

ابن المنصور . وهؤلاء حكموا فى المغرب وحدها ، إلا المعز فإنه حكم من سنة ٣٤١ ﻫ إلى سنة ٣٦٢ ﻫ فى المغرب ، ثم انتقل إلى مصر واتخذ القاهرة بدل القيروان والمهدية والمنصورية حاضرة للخلافة الفاطمية منذ ذلك الحين ، وهو على هذا الاعتبار آخر الخلفاء الفاطميين فى المغرب ، وأولهم فى مصر .

يمتاز عهد الخلفاء الذين حكموا فى المغرب بميزتين : الأولى : مد سلطانهم ونشر الدعوة الفاطمية أو الشيعية فى المغرب . والثانية : فتح مصر ، ونشر المذهب الشيعى بها ، ونقل الخلافة الفاطمية إليها ، ومد سلطانهم منها إلى الشام وفلسطين والحجاز . وكانت تلك الأقاليم كلها تابعة إذ ذاك للدولة الإخشيدية .

١ — عبيد الله المهدى (٢٩٧ — ٣٢٢ ﻫ) :

أول خلفاء الفاطميين فى المغرب هو عبيد الله المهدى ، أقام فى بدء خلافته فى القيروان حتى سنة ٣٠٣ ﻫ ، ثم بنى بالقرب منها حاضرة جديدة أطلق عليها اسم المهدية نسبة إليه ، وبنى بالقرب منها مدينة أخرى سماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل المغرب ليقيم فيها أرباب الحرف ، وقد حذا عبيد الله المهدى فى ذلك حذو المنصور العباسى حين اتخذ الكرخ والرصافة مكانين لأرباب المهن والجند .

ويرجع الفضل فى وصول عبيدالله المهدى إلى الخلافة فى المغرب إلى جهود داعية الفاطميين أبى عبد الله الشيعى ، الذى دعا لأولاد على وقضى على دولة الأغالبة فى تونس وأطلق عبيد الله من سجلماسة وسلم إليه مقاليد الخلافة .

وكان بعض رجال الشيعة يعتقدون أن عبيد الله المهدى أول خلفائهم فى المغرب هو الخالق الرازق ، واعتقدت جماعة أخرى أنه نبى ، واعتقدت جماعة ثالثة أنه النبى الحق . ودانت له كل قبائل المغرب بالطاعة والولاء ، وسرعان ما تخلص من أبى عبد الله الشيعى وأقصاه عن المناصب الهامة فى تلك البلاد التى تم فتحها على يده ، وهنا نتساءل عن السبب فى موقف المهدى من أبى عبد الله الشيعى الذى نشر الدعوة الشيعية وأسس دولة الفاطميين فى المغرب .

لعل المهدى وقف ذلك الموقف من أبى عبد الله الشيعى ، لما كان يخشاه من انتقال النفوذ والسلطان إليه . ولئن تعوزنا المثل للتدليل على صحة هذا القول ، فقد

سلك معه المهدى مافعله من سبقه من الخلفاء مع عظماء قوادهم ، من مؤسسى الدول وذوى الشخصيات البارزة : فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وجزاه على صنيعه جزاء سنمار .

وبدأت حملات الفاطميين على مصر لامتلاكها منذ عهد خلافة المهدى ، فأرسل لذلك الغرض ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى فى سنة ٣٠١ هـ ، والثانية فى سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا فى سنة ٣٠٩ هـ ، على حين ابتدأت الحملة الثالثة فى سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد ابنه القائم سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث التى أرسلها المهدى ، فى ضم مصر إلى سلطان الفاطميين ، لأن تلك البلاد كانت من القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء .

٢ — القائم بين المهدى (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) :

وخلف المهدى ابنه أبو القاسم ويلقب بالقائم . وقامت بينه وبين محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) مؤسس الدولة الاخشيدية فى مصر علاقات حربية وسياسية . وتنحصر تلك العلاقات فى أن الخليفة القائم أرسل جيشاً لفتح مصر بين سنتى ٣٢١ و٣٢٤ هـ . إلا أن هذا الجيش باء بالفشل ، وحاول القائم نشر الدعوة الفاطمية فى مصر ، وأرسل إلى الإخشيد خطابا يحثه فيه على ذلك. ولكن الإخشيد رفض القيام بهذا العمل ، وتوترت العلاقات بينه وبين الخليفة العباسى حين بلغ الإخشيد أن ابن رائق يريد الاستيلاء على مصر بإيعاز من الخليفة نفسه ، فأمر بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للفاطميين وذكر اسم القائم الفاطمى . وتلا تلك الخطوة أن اعتنق كثير من المصريين مذهب الشيعة ، مذهب الفاطميين . وزادت تلك العلاقات توثقاً بين الإخشيد والقائم ، حتى إن الإخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنته من المنصور بن القائم ، وكادت هذه المسألة تتم لولا وفاة الإخشيد والقائم فى سنة واحدة هى سنة ٣٣٤ هـ .

إلا أن تلك العلاقات الودية بين الإخشيد والقائم لم تستمر طويلا ، فقد عقد الإخشيد الصلح مع ابن رائق : خوفا من أن يواصل الخليفة العباسى هجماته على مصر ، وخوفا من تهديد الخلافة الفاطمية لملكه ، وحتى يحول بين سيف الدولة الحمدانى

صاحب حلب وبين الاستيلاء على الديار المصرية ، إذ كان يرقب الأمور عن كثب لانتهاز الفرصة للهجوم على مصر .

ولم يفكر الخليفة الفاطمى فى غزو مصر ، لانشغاله بإخضاع الثورات الداخلية التى قامت بها بلاد المغرب فى عهده . وفشلت بذلك مسألة الزواج ومسألة غزو مصر أو على الأقل مشروع اعتراف الإخشيديين بسلطان الفاطميين .

٣ — المنصور بن القائم (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) :

وجاء بعده المنصور بن القائم ، وفى عهده انقطعت العلاقات الحربية والسياسية بين المصريين والفاطميين بسبب قيام الخوارج فى بلاد المغرب فى أواخر عهد القائم وأوائل أيام المنصور بقيادة أبى يزيد مخلد بن كيداد . فقد كان من أثر هذه الثورات واتجاه الخلفاء الفاطميين لإخمادها أن أصبحت خزانة الدولة خالية من الأموال اللازمة لإعداد الحملات الحربية ، ومن ثم قضى المنصور على البقية الباقية من عهده فى إعادة الأمن إلى نصابه ، وفى تعمير البلاد وإعادة بيت المال إلى ما كان عليه . وتمكن المنصور من إخماد فتنة الخوارج وقتل أبى يزيد ، وأنشأ أسطولا كبيرا ، وأسس مدينة المنصورية بالقرب من القيروان سنة ٣٣٧ هـ واتخذها حاضرة للدولة ، وخلفه ابنه المعز .

المعز لدين الله :

ولد أبو تميم معد (المعز) ابن المنصور بن القائم بن المهدى أول خلفاء الفاطميين فى المغرب فى مدينة المهدية فى ١١ رمضان سنة ٣١٩ هـ فى أواخر عهد الخليفة المهدى ، وتربى فى قصر الخلافة ، وما لبث أن بدت عليه مخايل النجابة وأمارات الذكاء ، فقد ذكر المعز يوما حمل وهو صغير إلى المهدى بأن قال :

« فتناولنى وقبلنى وأدخلنى تحت ثوبه ثم أخرجنى وبارك علىّ وسألنى عن حالى وأجلسنى فى حجره ، ودعا لى بمأكل ، فأتيت بطبق من فضة مذهب ، فيه موز وتفاح خريفى وعنب ، فوضع بين يدى ، فلم أتناول منه شيئا ، فأخذه بيده وناولنيه فأخذته بيدى . فقال : امض به فكل منه أنت ما فيه ، وأعط الطبق فلانة ، وذكر بعض البنات ، وهى يومئذ فى مثل سنى ، فقلت : لا ! بل آخذ أنا الطبق وأعطيها

ما فيه . فضحك المهدى وتعجب من انتباهى لذلك ، ودعا لى بخير ، وقال : سيكون له شأن » .

واهتم القائم جد المعز بتربيته ، على ما جرت به عادة الخلفاء الفاطميين فى أن يتعهد الجد ـ لا الأب ـ ولى العهد ، وحتم عليه جده أن يتمعن فى فهم الكتب الدينية ، والتعمق فى دراسة أسرار مذهب الشيعة أى مذهب الفاطميين وإثبات أنهم ينتسبون إلى على وفاطمة وأنهم من آل بيت الرسول . ولم يكتف جده بهذا النوع من الدراسة ، بل حثه على أن ينشأ مطيعا لأبيه محبا لإخوته ، وفى ذلك قال له : « اسمع ما أقول لك : أوصيك بتقوى الله والصبر على مضض ما يؤتى إليك.وإخوتك إخوتك فاحكم معاملتهم فى يومك وغدك » . واتخذه القائم رسولا بينه وبين الرعية ورجال البلاط والولاة حتى يشب مدربا على شئون الإدارة والحكم (١) .

لم يكن التعمق فى دراسة أصول المذهب الفاطمى والعمل على جعل المعز حاكما ممتازا وسياسياماهرا ، هو كل ما تعلمه فى صباه ، بل إنه عمل على تعليمه كثيرا من اللغات : فتعلم اللغة الإيطالية القديمة أى اللاتينية اقرب بلاده من إيطاليا ، وتعلم اللغة الصقلية التى كانت سائدة فى جزيرة صقلية لأنه كان كثير الأسفار والرحلات ، وتعلم اللغة السودانية لأن السودانيين كانوا يكونون جزءاً من جيشه ، ثم أتقن اللغة العربية . وكان إلى جانب ذلك كله ذا ولع بالعلوم ودراية بالآداب .

وعرف المعز بحسن التدبير وإحكام الأمور كما كان حال آبائه من قبل.وفى عهده دانت قبائل البربر فى بلادالمغرب لسلطانه، فقد اتبع إزاءهم سياسة كفلت له اكتساب طاعتهم ، وأتيح له بذلك أن يقضى على أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وانتهى عهد استقلالهم الذى دام زهاء قرنين. وكان من أكابر قواده زيرى بن مناد الصهاجى والقائد جوهر الصقلى ، وبمساعدتهما انتشر سلطان المعز من حدود طرابلس الغرب شرقا إلى ساحل المحيط الاطلنطى غربا ، وبسط نفوذه على جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط ، وأتم جوهر تلك الفتوح التى بدأها أبو عبدالله الشيعى فى المغرب (٢) ، فعظم شأن جوهر عند المعز ، واختاره لقيادة الحملة التى أرسلها لفتح مصر .

---

(١) حسن ابرهيم حسن وطه شرف : المعز لدين الله س ١٣ — ١٤ .

(٢) على ابراهيم حسن . تاريخ جوهر الصقلى س ٢٤ — ٢٥

الفتح الفاطمى لمصر

٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م

مصر فى الفترة التى سبقت الفتح :

إذا أردنا أن نبين العوامل التى ساعدت الفاطميين فى المغرب على فتح مصر فى عهد الخليفة المعز ، رغم استعصائها على من سبقه من الخلفاء ، يجب أن نذكر الأمور الآتية :

١ — أن الدولة العباسية التى كانت تتبعها مصر تبعية إسمية فى عهد الدولة الإخشدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، وهى الدولة التى عاصر حكمها لمصر حكم الفاطميين فى المغرب ، كانت إذ ذاك قد بلغت درجة كبيرة من الضعف ، وتتبين درجة ذلك الانحلال إذا علمنا أن الخليفة العباسى نفسه لم يعد له من الأمر شىء . كذلك نستدل على ضعف الدولة العباسية من ثورة بعض ولاتها واستقلالهم بولاياتهم وتكوين ماعرف فى التاريخ باسم الدويلات الإسلامية ، وهى تلك الدول الصغيرة أو المقاطعات ، التى انتهز ولاتهـــا فرصة ذلك الضعف واستقلوا بولاياتهم مع بقاء أعترافهم بسلطة الخليفة العباسى الدينية ممثلة فى ذكر اسمه فى الخطبة (خطبة الجمعة) ونقشه على السكة (العملة) ، حتى يكتسبوا أمام رعاياهم الصفة الشرعية التى ماكانوا ليحصلوا عليها لولا مباركة الخليفة العباسى — ظل الله فى الأرض وممثـــل النبى — لملكهم . كذلك استبد بالسلطة فى بغداد نفسها ، دون الخليفة العباسى ، بعض الدويلات التى كان أولها دولة بنى بويه ، وكانت تقبض على زمام الأمور فى بغداد وقت الفتح الفاطمى لمصر . ودولة هـذا حالها من الضعف وحال خليفتها ، لاننتظر منها أن تدافع عن مصر ، باعتبارها إحدى ولاياتها أو أن تصد عنها الغزاة من الفاطميين كما كانت تفعل من قبل ، مع أنها كانت تهتم بدوام تبعية مصر لها ، بدليـل اتحادهم مع حكام مصر من الإخشيديين فى طرد الحملات الفاطمية التى أرسلها الخلفاء الفاطميون الأول .

٢ — أن مصر انتابها منذ أواخر عهد كافور ، البؤس والشقاء . وكان أشد ماصادفها من المحن : مسألة انخفاض النيل سنة ٣٥١ هـ الذى استمر إلى سنة ٣٦٠هـ أى إلى مابعد الفتح الفاطمى لمصر بما يقرب من ثلاث سنين وصحبه القحط والوباء، ولم يستطع كافور صد القرامطة الذين أغاروا على بلاد الشام إحدى ولايات مصر إذ ذاك ، أو صد ملك النوبة الذى نهبت جيوشه كثيرا من بلاد الصعيد ، كما عجز كافور عن دفع رواتب الجند حتى ثاروا عليه . وبلاد هذا حالها وحال حكامها ، لاننتظر منها أن تصد الغزاة من الفاطميين الذين تعلموا من هزائمهم السابقة فى مصر دروساً فى فتح البلاد ونشر دعوتهم فيها ، وخاصة بعد أن أحسن كافور استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه فى بلاطه من قبل المعز سنة ٣٥٥ هـ يدعونه إلى طاعته ، ومال إلى المذهب الفاطمى الكثيرون من الكتاب والجنود الإخشيدية والكافورية، وصار فى مصر عدد غير قليل من أصحاب الوظائف العالية يدينون بعقائد المذهب الشيعى ، وهؤلاء كاتبوا المعز يدعونه لفتح مصر ، كما يستدل من قوله فى رؤساء كتامة : « إنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب ، أجيب عليها بخطى ».

٣ — أن محاولة فتح مصر ، منذ قيام الدوله الفاطمية فى المغرب ، جاءت فى وقت كانت فيه بلاد المغرب نفسها تغلى كالمرجل بالثورات والفتن ، ولم تكن أحوال الفاطميين قد استتبت فيها بعد ، لأنهم كانوا لايزالون فى بدء تكوين دولتهم فى تلك الجهات . فلم يكن من المعقول من قوم لم يستقروا على قرار ولم تكمل معداتهم الحربية وتكثر مواردهم المالية ويكوّنوا القادة المحنكين، أن يفتحوا بلدانا جديدة ويؤسسوا إمبراطورية ، وهم لم يصبحوا بعد بمملكة بعيدة عن مهب العواصف والأعاصير . ومنذ خلافة المهدى ، بدأت الحملات الفاطمية على مصر للاستيلاء عليها . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث ، لأن بلاد المغرب لم تكن معدة إعدادا فنيا يتفق وعظم المهمة التى أرسلت الحملات من أجلها ، وهى فتح إقليم كمصر تقوم على حكمه دولة هى دولة الإخشيديين ، التى تؤيدها خلافة لها صبغة سياسية وروحية ، هى خلافة العباسيين . ولكن فى عهد المعز كانت أحوال بلاد المغرب قد استقرت وسادها الأمن والنظام .

٤ — أن القواد الذين بعث بهم الخلفاء الفاطميون الأول لم تؤهلهم حنكتهم الحربية لفتح البلاد ، فعرف المعز هذا النقص واختار لقيادة الحملة الفاطمية الرابعة الذاهبة لفتح مصر ، رجلا عرف ما امتاز به من الصفات الحميدة والشجاعة النادرة ، ذلك الرجل هو جوهر الصقلى .

جوهر الصقلى :

ولد جوهر بجزيرة صقلية، ولذا لقب «جوهر الصقلى» نسبة إلى موطنه الأصلى، ويظهر أنه ولد بين سنتى ٣٠٥ هـ و٣٠٧ هـ ، لأن سنة ولادته غير معروفة بالضبط . ويغلب على الظن أنه ولد مسلما ، لأن الإسلام دخل جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ . وشب فى حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعز ، الذى اختصه من بين مواليه وكناه بأبى الحسين . وظل جوهر يتدرج فى سلك المناصب ، حتى اتخذه المعز فى سنة ٣٤١ هـ كاتبا له ، ولقب منذ ذلك الحين «جوهر الكاتب». ولما كانت الكتابة هى الخطوة الأولى إلى الوزارة ، فقد رقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٥٧ هـ أى قبل أن يعهد إليه بفتح مصر بسنة واحدة ، تقديراً لكفايته الحربية التى أظهرها عند ما عهد إليه بفتح ما بقى من بلاد المغرب ، فقد فتحها كلها فى أقل من سنة حتى كانت تفتح له البلدان المنيعة أبوابها ، وأخضع أهلها لسلطان المعز ودنوا له بالطاعة ، فأرسله لفتح مصر ولقبه بالقائد .

عوامل اهتمام الفاطميين بفتح مصر :

قبل أن نوضح سير الفتح الفاطمى ، نبين لماذا عنى الفاطميون عناية خاصة بالاستيلاء على مصر :

١ — رأى الفاطميون أن موارد بلاد المغرب لم تكن كموارد مصر ، إذ ليس هناك من شك فى أن مصر تفضلها كثيراً من حيث ثروتها .

٢ — رأى الفاطميون أن مصر كانت أكثر صلاحية لأن تكون مركزاً لسلطان الإمبراطورية الفاطمية ، لأهمية موقعها الجغرافى ، فهى قريبة من المراكز الإسلامية القديمة وهى المدينة ودمشق وبغداد ، أى من الحجاز وسورية والعراق ، وبالفعل امتد نفوذ الفاطميين بعد فتح مصر إلى الحجاز وسورية ، أما الاستيلاء على

العراق فلم يتحقق ، لأن بنى بويه — الذين انتقلت السلطة إلى أيديهم فى بغداد وكانوا من الشيعيين المتحمسين — بعد أن فكروا فى تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ، خشوا على سلطانهم من الضياع ، إذا انتقلت الخلافة فى بغداد إلى الفاطميين الذين كانوا أقوى بكثير من الخلفاء العباسيين .

الحملة الفاطمية بقيادة جوهر :

بدأ المعز يستعد لفتح مصر : بجمع الأموال الوفيرة ، وإنشاء الطرق ، وحفر الآبار ، وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة فى الطريق بين المغرب ومصر . وأعد جيشاً ضخما بلغ مائة ألف مقاتل ، حتى وصف بأنه « مثل جمع عرفات كثرة وعدة » ، وقال عنه ابن هانىء الأندلسى شاعر المعز :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع   وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله   فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

وأمده المعز بأموال وفيرة ، وضعها فى صناديق بلغ مجموعها ألفا ومائتى صندوق حملها على الجمال . وجمع رجال الجيش من قبيلة كتامة إحدى قبائل البربر التى اشتهر رجالها بالشجاعة الفائقة حين عهد إليها بإخضاع المغرب لسلطان المعز ، فرأى المعز أن يستعين بها ثانية فى فتوحه فى الشرق .

وقد خطب الخليفة فى رجال كتامة قبل رحيلهم إلى مصر خطبة طويلة ، هى فى الواقع وثيقة تاريخية تتضمن الخطة التى اعتزم المعز نهجها من النواحى السياسية والدينية ، إذ انتهز الخليفة هذه الفرصة وأوضح لأشياعه أنه يعيش عيشة زهد وتقشف ، كى يخصص همته ووقته لبلوغ غاية واحدة هى نشر نفوذه الدينى والسياسى فى المشرق . وأوضح الطرق التى يتبعها لبلوغ غايته وهى تعمير بلاده وصيانة أرواح رعاياه ، وإخضاع أعدائهم وإذلالهم ، كى يستتب النظام وتنتشر ألوية السلام ، حتى يحقق معنى المثل المشهور «العدل أساس الملك » ، فقد رأى أن الظلم والاستبداد يثيران مكامن السخط ويذكيان روح العصيان . وختم خطابه بقوله : إن رجال كتامة لو أخلصوا لأوامره ونواهيه لسهل فتح المشرق على أيديهم ، كما سهل أمر المغرب بهم [١] .

---

(١) تجد هذه الخطبة فى المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٠ — ٦١ .

وضع المعز على رأس هذا الجيش ، القائد جوهرا ، فخرج من القيروان أكبر مدن بلاد المغرب فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ (فبراير ٩٦٩م) ووصل إلى رقادة التى تبعد عن القيروان بأربعة أميال ، فاستقبله فيها الخليفة المعز وحياه تحية بالغة وكشف عن مبلغ ثقته بنجاحه فى مهمته ، فقال له أمام جنده « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر » ، ومنها سار جوهر إلى برقة فترجل له صاحبها وقبل يده ، وهى التحية التى أمره المعز بأدائها لجوهر ، وكان قد كبر ذلك على الوالى ، وبذل مائة ألف دينار على أن يعفى من أداء التحية على هذا النحو ، ولكن المعز لم يجبه إلى طلبه .

وصل جوهر فى النهاية إلى الأسكندرية ، فسلمت له بعد أن أجاب أهلها إلى ما التمسوه من المحافظة على أرواحهم وأموالهم ، ولم يشك أحد من أهلها من نهب وسلب ، بل استطاع جوهر أن يكبح جماح عساكره الذين كان النظام مستتبا بينهم إلى درجة تدعو إلى الإعجاب .

واضطرب أهل الفسطاط حين اتصل بمسامعهم نبأ وصول جوهر إلى الأسكندرية واستيلائه عليها ، وعولوا على ندب الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر بشأن الصلح وطلب الأمان ، فأناب الوزير عنه أبا جعفر مسلما ، أحد الأشراف العلويين لمقابلة جوهر ، فقابله فى تروجة القريبة من الأسكندرية ، وأجابه جوهر إلى ما التمسوه وكتب له عهدا بما طلبوه . وفى ذلك العهد ، تعهد جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، وبنشر العدل ، وبث الطمأنينة فى النفوس ، وحماية مصر ضد هجمات المغيرين عليها ، وترك الحرية للمصريين فى إقامة شعائرهم الدينية ، مع إشادته فى الوقت نفسه بالعلويين (١) .

إلا أن أهل الفسطاط اختلفوا على قبول الصلح ورجعوا عنه ، واستعد الإخشيديون وأنصار كافور بقيادة نحرير لقتال الفاطميين . وبعد قليل وصل الفاطميون بقيادة جوهر ومعونة جعفر بن فلاح إلى الجيزة ثم عبروا النيل إلى مدينة الفسطاط ، ودار القتال بين الفريقين ، وانتهى الأمر بهزيمة المصريين وقتل

---

(١) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٤٠ — ٤٢ ، حيث تجد نص هذا العهد .

كثير منهم ، حتى التمسوا من أبى جعفر مسلم العلوى أن يقوم بهذا الدور ثانية . فكتب أبو جعفر إلى جوهر يهنئه بالفتح ويسأله الأمان ، فقبل القائد الفاطمى ملتمسه ، وأذاع على جنده منشوراً حرم عليهم فيه أن يقوموا بعمل من أعمال العنف والنهب . وهاك نصه بعد البسملة :

« وصل كتاب الشريف الجليل ، أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه ، وهو المهنأ بما هنأ به من الفتح الميمون ، فوقفت على ماسأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ، ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان » (١)

وعلى أثر ذلك هدأت المدينة ، وسكن الناس ، وعاد دولاب الأعمال التجارية إلى دورانه العادى ، وخاصة بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً عليه اسم المعز لدين الله وأمنا الناس من جديد وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة .

وفى اليوم التالى (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج الشريف أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ، ووقف الشريف على يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر «الأرض» فقبلوا كلهم الأرض بين يديه عدا الشريف والوزير ، وتقدم الناس واحداً واحداً . فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى الفسطاط .

ولما غربت الشمس ، عبرت الجنود الفاطمية الجسر ،وبين أيديهم الصناديق الملأى بالأموال المحمولة على البغال . ثم أقبل جوهر فى حلة مذهبة فى فرسانه ورجاله ،

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٢ .

وعسكر بجيشه فى الموضع الذى اختطت فيه مدينه القاهرة . وحين ذهب المصريون فى اليوم التالى لتهنئة جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر المعز فى الليل (١) .

وسر المعز سروراً عظيما بذلك الفتح ، وعبر محمد بن هانىء الأندلسى شاعر بلاطه عن سرور مولاه بقصيدته التى قال فى مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الأسكندرية جوهر تصاحبه البشرى ويقدمه النصر(٢)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين جميعاً عن مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية ، فغدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسى غربا إلى البحر الأحمر شرقا ، ونافس القاهرة حاضرة الدوله الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية . وأصبح ذلك خطوة أولى لمد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء امبراطورية فاطمية فى المشرق والمغرب ، كما كان داعياً إلى اشتداد النزاع بين طائفة السنيين والشيعيين ، ذلك النزاع الدينى الذى ظهر بصورة أشد فى الأجيال التالية ، حين أخذت كل طائفة منهما تلعن الأخرى وتحط من قيمتها (٣) .

حكم جوهر الصقلى لمصر(٤)

(٣٥٨ — ٣٦٢هـ = ٩٦٩ — ٩٧٢م)

سياسة العامة :

حكم جوهر مصر نيابة عن الخليفة المعز ، فى الفترة ما بين سنة ٣٥٨ هـ التى تم

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠ · المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٦ .

(٢) ديوان ابن هانىء الأندلسى ص ٨٦ .

(٣) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٤٧ ·

(٤) يلاحظ أن فترة حكم جوهر الصقلى لمصر كانت عبارة عن فترة انتقال بين عهدين : عهد الدولة الإخشيدية الخاضعة إسميا للخلافة العباسية السنية ببغداد ، وعهد الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر .

فيها الفتح الفاطمى للبلاد ، وسنة ٣٦٢هـ وهو العام الذى حضر فيه المعز إلى مصر لتسلم مقاليد الأمور ونقل مقر الخلافة من المنصورية إلى القاهرة .

ويمكننا أن نحكم على مبلغ ثقة المعز بجوهر حربياً وإداريا . إذا علمنا أنه سمح له بحكم البلاد أربع سنوات ، تعد أدق فترات الحكم الفاطمى ، إذ هى فترة انتقال يتوقف عليها مصير الدولة الفاتحة دولة الفاطميين ، ومصير أنصار الدولة البائدة دولة الإخشيديين .

ويعتبر جوهر فى الواقع المنفذ الأول للسياسة الفاطمية ، التى كانت ترمى إلى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق ، لتأسيس خلافة فاطمية واسعة الأرجاء ، لأن جوهرا هو الذى مد سلطان الفاطميين فى الشام وفلسطين .

وجعل جوهر على رأس الحملة الذاهبة لفتحها ، قائداً عرف بالجرأة والإقدام ، هو جعفر بن فلاح . وحازت تلك الحملة انتصارات على الإخشيديين فى الرملة وطبرية ودمشق . ولكن الأحوال العامة لم تستقر تماما للفاطميين ، لأن الجند نهبوا المدينة ، وعمد ابن فلاح إلى القبض على زعماء دمشق مما أثار ثائرتهم وأهاج نفوسهم . واستنجد أهل دمشق بالقرامطة لتخليصهم من الفاطميين ، ولبى هؤلاء نداءهم ، واشتبك زعيمهم الحسن القرمطى مع جعفر بن فلاح فى بلدة الدكة قرب دمشق فى معركة انتهت بهزيمة جعفر وقتله (١) .

وساعد الحظ جوهرا فقضى على القرامطة وردهم عن مصر مهزومين ، وطالما تاقوا للاغارة عليها وفتحها ، ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لتم للقرامطة ما أرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين عن مصر ، ولما توطدت دعائمه فيها .

---

(١) لم تستقر السيادة للفاطميين فى تلك البلاد لأن المرونة الحربية كانت تعوز القائد جعفر ، وتمت سيادة الفاطميين على الشام وفلسطين بعد أن خرج جوهر بنفسه على رأس حملة فاطمية افتتحها ، وذلك فى عهد الخليفة العزيز بالله ، بعد أن كاد النفوذ الفاطمى يتلاشى من تلك الأقطار . وبعد عودته سنة ٣٨٦هـ من الشام إلى مصر أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل . فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ، ويقضى بين الناس بالعدل ، ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدى العابثين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من خاصته ، فقد كبح جماح الجند المغاربة ومنعهم من التعدى على الأهلين حتى كان يعاقب المتعدين منهم بالقتل جزاءاً لهم وردعاً لغيرهم .

ويقترن اسم جوهر فى مصر — عدا فتوحاته الهائلة — بتلك المنشآت العظيمة التى تمت فى عهده : فهو مؤسس القاهرة ، رابعة حواضر مصر الإسلامية ، بعد الفسطاط والعسكر والقطائع . وأقام بها قصر مولاه المعز ، وقد عرف باسم « القصر الشرقى الكبير » . ولما فرغ من بنائه ، أقام حول المدينة سوراً كبيراً من اللبن ، كان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وجعل للقاهرة أربعة أبواب هى : بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح . وفى تلك المدينة بنى جوهر « الجامع الأزهر » كى يتلقى فيه الناس عقائد المذهب الفاطمى ، وذلك فى ٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ ، وهو أول مسجد شيد فى مدينة القاهرة المعزية ، ورابع المساجد الجامعة فى مصر الإسلامية بعد جامع عمرو وجامع العسكر وجامع ابن طولون (١) .

وهنا يلاحظ أن من بين العواصم الإسلامية التى أنشئت منذ الفتح العربى ، وهى الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، لم تبق سوى القاهرة : فقد زالت الفسطاط سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م) حين أمر الوزير المصرى شاور بإحراقها خوفا من دخول جيوش عمورى ملك بيت المقدس إليها حين وصولها إلى الديار المصرية لمساعدة ضرغام فى الوصول إلى منصب الوزارة ضد شاور . كذلك تخربت مدينة العسكر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى على أثر المجاعة التى حدثت فى ذلك العهد . وقضى على القطائع فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٣ م) حين أشعل محمد بن سليمان قائد العباسيين النار فى تلك العاصمة وجعلها كأن لم تكن . وكذلك يمكن القول أن العاصمة الثالثة (القطائع) لمصر الإسلامية كانت الأولى فى الزوال ، وتلتها العاصمة الثانية (العسكر) ، وتلاها

---

(١) سنتكلم على فتوح جوهر فى الشام وفلسطين فى باب السياسة الخارجية . وسيأتى تفصيل الكلام على القاهرة والجامع الأزهر فى باب المنشئات

العاصمة الأولى (الفسطاط) . ولكن لم يزل من المساجد الجامعة التى أنشئت فى تلك العواصم ، سوى جامع العسكر ، وبقيت جوامع عمرو وابن طولون والأزهر على حالها ، مع توسيع أبنيتها وتجديدها .

الدعوة الفاطمية فى ولاية جوهر

برهن جوهر على حسن سياسته ، حين لجأ إلى الوسائل السلمية فى نشر المذهب الفاطمى ، ولم يلجأ إلى العنف والشدة . فاعتمد على المساجد التى اتخذها كمدارس يتلقى فيها الأهالى تعاليم هذا المذهب ، دون أن يفرض على أحد اعتناقه كرهاً . بيد أن ذلك لم يمنعه من تحقيق الغرض الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين ، وذلك بإسناد مناصب الدولة الهامة إلى معتنقى هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

بدأ الفاطميون الدعوة لمذهبهم فى جامع عمرو فى شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ ، واتخذوا خطوة حاسمة بذكر اسم الخليفة الفاطمى المعز فى خطبة الجمعة . وكان ذلك حادثاً هاما فى تاريخ الخلافة الفاطمية فى مصر وفى تاريخ الخلافة العباسية فى بغداد ، لأنه جعل مصر لأول مرة فى تاريخها مقراً للخلافة بعد أن كانت تابعة لدار الخلافة فى المدينة أو دمشق أو بغداد .

ولم يكتف جوهر بذلك ؛ بل خطا قبل وصول المعز إلى مصر ، عدة خطوات فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، منها : أنه منع استعمال بعض العبارات المألوفة عند السنيين مثل عبارة « سبح باسم ربك » ، وزاد فى الأذان عبارة « حى على خير العمل » ، وقرئت البسملة « بسم الله الرحمن الرحيم » بصوت مرتفع ، وأمر بأن يزاد فى خطبة الجمعة « اللهم صلى على محمد المصطفى وعلى علىّ المرتضى وفاطمة البتول (الطاهرة) وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ، اللهم صلى على الأئمة الراشـــدين آباء أمير المؤمنين الهادين

المهتدين » (١) . وفى رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر ، شعار العلويين (٢) . ولما أسس الجامع الأزهر ليكون مقرا يتلقى فيه الناس عقائد المذهب الفاطمى ، زيد فى الخطبة والأذان عبارات شيعية بحتة من أهمها : « السلام على الأئمة ، آباء أمير المؤمنين ، المعز لدين الله » .

خاتمة حكم جوهر فى مصر :

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، تمكن خلالها من إلغاء الخطبة للعباسيين ، وإقامتها للخليفة الفاطمى ، ومن ضرب السكة باسمه ، ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وتقرير لبس الملابس الخضراء شعار العلويين ، وبث الدعوة للخليفة المعز خاصة ، ولأهل بيته من العلويين عامة .

ولما رأى جوهر أن دعائم ملك الفاطميين قد توطدت فى مصر والشرق ، كتب إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولى شئونها ، فخرج من المنصورية فى شوال سنة ٣٦١ هـ ، ووصل إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ ، فأصبحت مصر منذ دخوله دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، وأصبحت القاهرة مركزا للامبراطورية الفاطمية (٣) . وبوصول المعز إلى مصر ، بدأ نشاط جوهر السياسى يقل شيئاً فشيئاً ، حتى توارى بعد قليل عن مسرح السياسة المصرية ، وأفل نجمه ، ودالت دولته ، وتلاشى سلطانه ، ولم يعد إلى الظهور إلا فى عهد الخليفة العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكين (٤) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفاء ص ٢٧ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ص ٩٧ .
(٣) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١٠٤ — ١١٠ .
(٤) راجع : سياسة الفاطميين إزاء بلاد الشام وفلسطين ، فى باب العلاقات الخارجية .

العصر الفاطمى الأول

١ — المعز لدين الله

(٣٦٢ — ٣٦٥ هـ = ٩٧٢ — ٩٧٥ م)

المعز فى مصر :

وصل المعز إلى القاهرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، وأقام فى القصر الذى بناه له جوهر ، ومعه أولاده وحاشيته وخدمه . وفى اليوم التالى لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وعلماؤها ووجوهها لتهنئته والاحتفال به ، ثم جلس على السرير الذهب الذى صنعه له جوهر فى الإيوان الجديد (١) . وأذن المعز بدخول الناس عليه فدخل الأشراف فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم . وتقبل المعز بعد ذلك ما قدم إليه من الهدايا والتحف من المهنئين ، ثم أمر بإطلاق سراح جميع من اعتقلوا من الإخشيديين والكافوريين . وفى عيد الفطر ركب المعز للصلاة ، فصلى بالناس إماماً ، وأطال فى الركوع والسجود ، وكبر بعد القراءة على ما جرت به عادة جده على بن أبى طالب . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه جوهر وخطب الناس ، وأبلغ فى خطابته حتى أبكاهم ثم انصرف (٢) . وفى ذلك العيد خلع على جوهر خلعة مذهبة ، وقلده سيفاً ، وقدم إليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ، وخمسين ألف دينار . وقد منحه المعز ذلك إعجابا بما أصابه من النجاح ، وتقديراً لما قدمه لدولته من خدمات . على أن المعز خوفا منه على سلطته فى مصر أن تنتقل إلى يد جوهر ، صرفه عن مناصب الدولة الكبيرة ، وقلدها يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، ويذكرنا ذلك بما فعله أبو جعفر المنصور مع أبى مسلم الخراسانى وما فعله عبيد الله المهدى مع أبى عبدالله الشيعى (٣) .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٦ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١ .

(٣) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١٠٤ — ١١٠ .

سياسة في نشر الدعوة :

كانت مسألة الشك فى نسبة الفاطميين إلى على وفاطمة ، من أكبر العوامل فى نشر الدعوة الفاطمية . ومن أطرف ما يروى فى هذا السبيل ، ما ذكره المؤرخ ابن خلكان الذى أمعن فى القدح فى نسب الفاطميين ، من أن جماعة من أهل مصر طعنوا فى نسب المعز وفى اتصاله بعلى بن أبى طالب ، حتى إن الخليفة لما وصل إلى مصر ، اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم : إلى من ينتسب مولانا؟ فأجابه المعز أنه سيعقد مجلساً يضم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه . وهنا يروى ابن خلكان : أن المجلس لما انعقد فى القصر الفاطمى سل المعز سيفه إلى النصف ، وقال : هذا نسبي ، ثم غمرهم بالذهب ، وقال : وهذا حسبي (١) ، ومن هنا نشا القول المأثور : سيف المعز وذهبه ، للاشارة إلى بطلان الشيء ، أو أنه أخذ كرها ، وسواء أكانت تلك الرواية صحيحة أم غير صحيحة ، فإن ترديدها وانتشارها قد اتخذه البعض دليلا على مبلغ الشك فى نسب الفاطميين (٢) .

وبدأ المعز دعايته فى مصر بأن أمر على أثر وصوله إليها ، بنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة ، وهى : « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب » (٣) .

واستعان المعز بالشعراء فى نشر الدعوة الفاطمية ، وعلق عليهم أهمية كبرى ، وتابعه فى سياسته من جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، وتقاضى هؤلاء رواتب كبيرة وأغدقت عليهم الهبات السنية ، وكانوا يختارون ممن اشتهروا بسعة الاطلاع ، وامتازوا بالمقدرة فى فن الإنشاء ، حتى يستطيعوا إقناع الناس بحججهم القوية ، وعباراتهم الرصينة ، بما ترمى إليه الدعوة الفاطمية ، ولذا نرى رجال الأدب الشيعيين قد نظموا القصائد مدحا فى المعز ، ومن جاء بعده من الخلفاء ، وجاراهم فى ذلك المضمار عدد من الشعراء السنيين ، ولو أنهم كانوا أكثر اعتدالا فى مدحهم من

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .
(٢) راجع ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٩ .
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧١ .

الشعراء الشيعيين الذين ينتمون إلى الدولة الحاكمة . وكان خبر تشجيع الفاطميين لشعراء الناصرين لهم بالهدايا والعطايا ، قد اتصل بمسامع الشعراء المقيمين فى غير مصر من الأقطار . فدفع ذلك الكثير من هؤلاء إلى الهجرة إلى مصر واتخاذها دار إقامة ، حيث استقبلوا بجميع مظاهر الترحيب ، وكان أكثر الشعراء رحيلا إلى مصر شعراء الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة لم يكن لها إذ ذاك من النفوذ والسلطان ما كان لها قبل أن تصبح تحت سيطرة قواد الأتراك وفى قبضة بنى بويه والسلاجقة ، فلم يلقوا أى مظهر من مظاهر التشجيع فى بلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد ، فرحلوا إلى مصر .

وغلا المعز فى نشر الدعوة الفاطمية غلوا دفع به فى كثير من الأحيان إلى الكفر والإلحاد ، فقد أشاد ابن هانىء الأندلسى (١) شاعر بلاطه بمحامد العلويين ، وناط به المعز الآمال الكبيرة على أن يحاكى الشعراء العباسيين ويبذهم . وإذا تصفحنا ديوان هذا الشاعر ، وجدنا أكثره قد نظم فى مدح المعز وأسرته ، واشتط فى ذلك حتى نسب إليه صفات الألوهية والنبوة ، قال :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار (٢).

وزاد بعض الشعراء على ذلك ، أن نصحوا المعز بأن يقضى جانباً من وقته محتجبا. وقيل إنه ظل محتجباً تحت الأرض سنة كامله ، حتى اعتقد بعض الناس أنه صعد إلى السماء . وبلغ من رسوخ هذا الاعتقاد فى الأذهان أن الجندى كان إذا رأى سحابة فى السماء ، ترجل وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » .

---

(١) أجمع المؤرخون الذين ترجموا لمحمد بن هانىء الأندلسى ، على تفوق هذا الشاعر على جميع شعراء الأندلس ، فكانت مكانته من هؤلاء الشعراء مكانة المتنبي من شعراء المشرق . وقد عاش الشاعران فى عصر واحد ، وكان ابن هانىء يسمى متنبي المغرب . ولد فى إشبيلية فى بلاد الأندلس ، وكان أبوه هانىء من قرية من قرى المهدية فى شمال إفريقية ، وتجلت مواهبه فى الشعر والفلسفة ، وانتقل إلى الأندلس حيث ولد له محمد الذى اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، واتهم بمذهب الفلاسفة ونقم عليه أهل هذه المدينة ، فأشار عليه الملك بأن يرحل عنها ريثما ينسى الناس أخباره ، فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة ، ولقى جوهر القائد ومدحه .

(٢) ديوان ابن هانىء ص ٩١ .

واهتم بالأزهر باعتباره المركز الرئيسى لتلك الدعوة ، حتى بنى فى قصره منظرة يشاهد منها الزينات الباهرة التى كان يزين بها ذلك الجامع فى أيام المواسم .

وفى أواخر عهده (صفر سنة ٣٦٥ هـ) قرأ على بن النعمان قاضى القضاة وداعى الدعاة فى مجمع حافل فى مسجد عمرو ما كتبه أبو حنيفة النعمان المغربى عن أصل المذهب الشيعى .

واتخذ المعز داعى الدعاة فى مصر لنشر الدعوة الفاطمية . وكان يساعده إثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية ، ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون إليه فى يومى الإثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعى ، فيعرضها الداعى بنفسه قبل إلقائها على الخليفة ، فيقر ما يقبله منها ويذيله بإمضائه ثم يردها الداعى إليهم . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس فى مكانين كبيرين فى قصر الخليفة ، فكان يجلس على كرسى الدعوة فى الإيوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلساً خاصا يعرف بمجلس الداعى ، وفى هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعى ، فإذا فرغ الداعى من إلقاء محاضرته على الحاضرين ساروا إليه لتقبيل يده ، فيمسح على رءوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة . وكان داعى الدعاة يجمع النجوى (١) من الإسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس ، ومن يدفع من سراة الإسماعيلية ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثى دينار كان يعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها : « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » فيدخرها ويفخر بها . وكان داعى الدعاة يواظب على الجلوس فى القصر لإلقاء محاضرته ، وكان يفرد لآل على مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلساً ، وللعامة والنازحين إلى مصر من البلدان الأجنبية مجلساً ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً ، كما كان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر (٢) .

---

(١) النجوى : هى الصدقة ، وكانت عبارة عن ثلاثة دراهم وثلث .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٦ . راجع ، على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٧٢ ، وحسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٤١ — ١٤٣ .

أعماله :

قام المعز ، منذ اعتلى عرش الخلافة الفاطمية فى مصر ، بأعمال مجيدة تتجلى فى توسيع رقعة أملاك الدولة الفاطمية فى الشرق ، وفى ترتيب نظم الحكم الفاطمية ، وفى الفخامة التى لازمت مواكبه (١) . كذلك نستطيع أن ندلل على عظمة مصر ورخائها فى عهده ، من أعماله التى قام بها : فقد استن لأول مرة فى تاريخ الفاطميين سنة إقامة الولائم فى قاعة الذهب بقصر الخليفة ، وفى تلك القاعة كان ينعقد مجلس الملك ، وظلت هذه السنة قائمة حتى نهاية عصر الفاطميين ، وبلغ عرشه الذى كان يجلس عليه من الفخامة والأبهة حداً عظيما يفوق الوصف . وأمر بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق ، وضح عليها كافة أقطار العالم (٢) . كما أمر بعمل كسوة للكعبة ، مربعة الشكل ، نقش فى حافاتها الآيات التى وردت عن الحج بحروف من الزمرد الأخضر . وامتد سلطان المعز من حدود طرابلس شرقا إلى سواحل المحيط الاطلنطى غربا ، وفتح جوهر مصر وبعض جهات سورية ، ودعا أمير مكة للمعز .

تقوى المعز وورعه :

ورغم ماعرف عن المعز من التقوى والورع ، فقد نسب إليه أنه تعمد (تنصر) ومات نصرانياً ، ودفن فى كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة (٣) . على أنه يكفى لنفى ذلك ، أن نذكر :

١ — أن تلك الرواية لم يذكرها مؤرخو مصر الإسلامية ولم يتناولها الأفرنج

---

(١) سيأتى تفصيل الكلام على هذه الموضوعات فى موضعه .

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٣ .

(٣) أثار مسألة تنصر المعز ماذكره مرقص سميكة (باشا) ، فى تقويم الحكومة المصرية سنة ١٩٣٣ (ص ٢٩) ، من أن هناك كنيسة صغيرة . . . يقال إن الملك المعز لدين الله تعمد فيها سراً . وقد تصدى بعض الكتاب والمؤرخين لنفى هذه الرواية ، ومن بينهم المرحوم الأستاذ أحمد زكى (باشا) والأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن .

بالبحث والتحليل ، مع أن المعز ليس أمره بالهين إلى حد أن تمر حادثة خطيرة كهذه دون أن يذكرها هؤلاء المؤرخون ، فهو أول حاكم لأعظم إمبراطورية إسلامية قامت في الشرق في العصور الوسطى وأكبر عاهل إسلامي ظهر في القرن الرابع الهجرى .

٢ — أن تلك الرواية لم ترد إلا في كتابين : أحدهما وضعه قسيس قبطى عن تاريخ الكنيسة وهو «الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة» ، وما كان القساوسة مؤرخين يعتمد عليهم في مسائل التاريخ الإسلامي . والثاني وضعه بتلر وهو «الكنائس القبطية القديمة في مصر» ، وهذا ذكر تلك الرواية على أنها خرافة نقلها عن صاحب كتاب «الخريدة النفيسة» ، فهو يقول : وفي هذه المعمودية ، طبقاً لأسطورة القسيس ، عمد السلطان المعز حينما اعتنق النصرانية (١) .

٣ — أن تلك الرواية لو صحت ، لما غفل عنها العباسيون الذين عمدوا إلى إضعاف مركز الخلافة الفاطمية في مصر ، عن طريق تشكيك الناس في صحة نسبهم إلى على وفاطمة ، إلا أن أحداً من خصوم الفاطميين لم يقل بأن المعز قد أصبح نصرانيا .

٤ — أن المعز ، حرص في مواكبه وحين قيامه بالشعائر الدينية وفي خطبه ومنشورات قواده أن يبدو إماماً دينيا أكثر منه ملكا سياسياً . وقد أثبت ابن زولاق ، صديق المعز ومؤرخ سيرته ، بعض هذه المظاهر ، ونقلها عنه المقريزى في كتابه « اتعاظ الحنفا » ، ومنها :

(ا) لما وصل المعز إلى قصره ، عند انتقاله من المغرب إلى مصر ، « خر ساجدا ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل » (٢) .

(ب) « في يوم عرفة نصب المعز الشمسية التي عملها للكعبة على إيوان قصره ، وعليها آيات الحج بزمرد أخضر » (٣) .

(ج) ركب المعز يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة «وخطب وأبلغ وأبكى

---

(١) Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt, p. 117.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٨ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر ص ٩٠ .

الناس ، وكانت خطبته بخضوع وخشوع . . . » (١) .

(د) « غدا المعز للصلاة فى عيد النحر بعساكره ، وصلى وطول الركوع والسجود » (٢)

(هـ) فى أول صلاة جمعة رسمية أقيمت للفاطميين بعد فتح مصر سنة ٣٥٨هـ ، دعى للمعز فى الجامع العتيق « اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة ، وسليل العزة المهدية ، عبد الله معد أبى تميم ، المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين » (٣)

(و) يبين العهد الذى قطعه جوهر على نفسه — باعتبارة نائب المعز فى مصر — مبلغ تدين المعز وقائده ومحافظتهما على الشعائر الدينية الإسلامية ، وفيه « فعاجله (٤) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة ، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق .. وآثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه . . . وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم... وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونص نبيه صلى الله عليه وسلم فى سنته » (٥).

ولم يطل حكم المعز لمصر ، فقد توفى سنة ٣٦٥هـ وخلفه فى حكمها ابنه العزيز .

٢ — العزيز بالله

(٣٦٥ — ٣٨٦هـ = ٩٧٥ — ٩٩٦م)

ولد العزيز بن المعز سنة ٣٤٤هـ فى مدينة المهدية ، وقدم القاهرة مع أبيه سنة ٣٦٢هـ ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨٥ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢ .
(٣) المقريزى . اتعاظ الحنفا ص ٩٤ .
(٤) فعاجله : يقصد أن المعز عاجل أعداءه من القرامطة والبيزنطيين .
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٧٠ .

وعهد إليه أبوه بالخلافة ، وخلفه فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

سياسته فى نشر الدعوة :

يمتاز هذا العهد باتخاذ خطوات جريئة فى نشر الدعوة الشيعية والقضاء على السنة ، وخاصة أن مسألة نسبة الفاطميين إلى على وفاطمة كانت لا تزال موضع شك بين عدد كبير من المصريين ، بدليل مارواه ابن خلكان من أن الخليفة العزيز صعد المنبر يوم الجمعة فى أوائل أيام خلافته ، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات :

إنا سمعنا نسباً منكراً — يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا — فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ماقلته — فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة — وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم — يقصر عنها طمع الطامع (١)

وأمر العزيز بلعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة ، إذ عدوا أعداء لعلى بن أبى طالب ، ونقشت فضائل على وأبنائه من بعده على السكة وعلى جدران المساجد . وكان الخطباء يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر ، وألزم جميع المصريين بأن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب .

وأبطل العزيز صلاة التراويح سنة ٣٧٢ هـ من جميع المساجد المصرية ، كما أمر سنة ٣٨٥ هـ بنقش لعن الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه وعلى أبواب الحوانيت وعلى المقابر ، ولون ذلك كله بالذهب فى كثير من أحياء القاهرة . وكان لتلك السياسة أثرها فى تحويل السنيين إلى المذهب الشيعى .

* * *

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠

وأنشئت مكتبة القصر فى العصر الفاطمى ، لنشر عقائد المذهب الشيعى . وقد فاقت هذه المكتبة غيرها من مكاتب العالم الإسلامى ، وكانت تقع فى القصر الشرقى الكبير أو القصر المعزى . وتحوى ٢٠٠,٠٠٠ مجلد عدا الكتب الأخرى ، وقيل إن عدد كتبها بلغ ٦٠٠,٠٠٠ مجلد ، وقال آخرون إن هذا العدد بلغ مليونين(١). وكانت تحتوى على مصنفات فى الفقه واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكيمياء ، عدا المصاحف التى احتوتها المكتبة ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وعلى بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب وغيرهما من مشاهير الخطاطين فى ذلك العصر ، وكان فيها ١,٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخط الطبرى نفسه . وكان من عادة الخليفة إذا زار مكتبة القصر أن يترجل ، ثم يسير إلى دكة مرتفعة فيجلس عليها ، ثم يأتيه الخازن بنسخ من المصحف ، مختلفة الحجم من المجلدات مما يوصى الخليفة بشرائه (٢) .

وزراء العزيز :

امتاز عصر العزيز بالعطف على النصارى واليهود (٣) ، فرفعهم إلى كرسى الوزارة ، وقلدهم أرقى مناصب الدولة ، ويرجع ذلك العطف إلى زواجه من سيدة مسيحية . وبرز من بين هؤلاء فى عهده : يعقوب بن كلس ، وعيسى بن نسطوروس ، ومنشا .

كان يعقوب بن كلس يهوديا ، ولد فى بغداد ، ورحل إلى الشام ، ثم جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور ، ونال الحظوة لديه ، وبخاصة حين أسلم فى شهر شعبان سنة ٣٥٦ هـ واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ، فلم يأمن ابن كلس على نفسه ، وسار خفيـــة إلى بلاد المغرب ، حيث اتصل بالمعز ودله على

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ٢٠٠

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٩ ، راجع عصر المستنصر لمعرفة ماحل بمكتبة القصر أثناء الشدة العظمى التى اجتاحت البلاد فى زمنه .

(٣) راجع الحالة الاجتماعية عند الفاطميين فى الباب الثامن .

أوجه ضعف مصر وحثه على غزوها ، وظل ابن كلس فى بلاد المغرب ، حتى عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (١).

وعين يعقوب وزيراً بعد وصوله إلى مصر بقليل ، فأدار شئون الدولة الفاطمية فى عهد المعز والعزيز بمهارة وهمة ، واقترن اسمه بإصلاح نظام الضرائب بفحص مصادرها ، والتشدد فى تحصيل المتأخر منها ، وسلك سبيل الحزم فى جبايتها، وحماية دافعى الضرائب من دفعها كرهاً . فزادت نتيجة لذلك موارد الدولة المالية ، واستخدمها العزيز فى إصلاح مرافق البلاد وفى تلك المنشآت العظيمة التى تأسست فى عصره : كالقصر الغربى ، وقاعة الذهب ، وقصور عين شمس ، والمسجد الذى أتمه ابنه الحاكم .

وكان ابن كلس يد العزيز اليمنى فى نشر المذهب الفاطمى ، فهو بطبعه عالم أديب ، ألف بعض الكتب لنشر الدعوة الشيعية ، وكان يهتم بجمع الكتب وخاصة فى مكتبة القصر ، كما كان يعقد الاجتماعات فى داره ليقرأ على المجتمعين ما كتبه فى أصول المذهب الشيعى ، وحين ينتهى الاجتماع يتقدم الشعراء ، فينشدون مدائحهم . ويذهب الموظفون إلى داره ليشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن ، وبعضهم بنسخ شىء من كتب الحديث والفقه والأدب مما يساعد على نشر الدعوة ، وجعل فى داره جماعة من القراء والأئمة ، عهد إليهم إقامة الصلاة فى مسجده الخاص (٢) .

وكان لابن كلس الفضل فى توجيه نظر العزيز إلى تحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية ، وأوقف عليه العزيز بعد ذلك الأوقاف ، وقدم لطلابه ما احتاجوا إليه من المسكن والمأكل .

ولما توفى ، حزن العزيز عليه حزناً بالغاً ، وعين بدله عيسى بن نسطوروس ، الذى لم ينل محبة الشعب المصرى لمبالغته فى إكرام أهل الذمة ، فعزله العزيز ولكنه أعاده إلى منصبه بشفاعة ست الملك ابنة العزيز من زوجته المسيحية .

---

(١) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى : جوهر الصقلى ص ٣٥ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤١ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

أثره في تكوين الامبراطورية الفاطمية :

يتميز عصر العزيز بتلك الفتوحات الهائلة ، التى قام بها لتوسيع رقعة الإمبراطورية الفاطمية ، حتى أصبحت تلك الإمبراطورية تمتد : من بلاد العرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا .

وفى أيامه اشتد خطر القرامطة وأفتكين فى الشام ، وكان قد استعصى أمرهما على المعز . فتمكن العزيز بمعونة جوهر الصقلى من القضاء عليهما ومن توطيد سلطان الفاطميين فى سورية وفلسطين ، بعد أن فشل فى ذلك جعفر بن فلاح . ولجأ المعز إلى جوهر — وكان إذ ذاك نسياً منسياً منذ عهد المعز — فخرج إلى سورية بعد أن اضطربت أحوالها ، ثم خرج العزيز بنفسه إلى تلك البلاد ، وخاض معركة حامية ضد القرامطه ، كان من نتيجتها أن فر زعيمهم الحسن وأسر أفتكين التركى ، وكان قد رحل من بغداد إلى دمشق لإقامة الخطبة للعباسيين ، وظل أسيراً فى مصر إلى أن مات سنة ٣٧٢ هـ .

كذلك نشأت فى ذلك العصر ، بين مصر وبين كل من الدولة البيزنطية والدولة العباسية والدولة الأموية فى الأندلس ، علاقات ودية أو عدائية (١) .

وفاته :

وفى رجب سنة ٣٨٦ هـ خرج العزيز إلى بلبيس قاصدا الشام لغزو الروم ، وفى تلك البلدة مرض مرضا شديداً ، فاستدعى إليه القاضى محمد بن النعمان المغربى ، وأبا محمد الحسن بن عمار زعيم كتامة إحدى قبائل المغرب ، واستشارهما فى تولية ابنه المنصور ، الذى تلقب بعد توليته الخلافة بالحاكم بأمر الله .

ويروى أن الحاكم قال : استدعانى والدى قبل موته ، وهو عارى الجسد ، وعليه الخرق والضماد ، وقبلنى وضمنى إليه ، وقال : واغمى عليك ياحبيب قلبى !

---

(١) سيأتى أمر هذه الفتوح ، عند كلامنا على العلاقات الخارجية فى الباب الرابع .

ودمعت عيناه ، ثم قال : امض ياسيدى ، فالعب فأنا فى عافيه . قال الحاكم : فمضيت والتهيت عما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله العزيز إليه . ودفن العزيز مع أبيه المعز فى إحدى حجرات القصر الشرقى الكبير ، وله من العمر ثلاث أربعون سنة .

٣ – الحاكم بأمر الله

(٣٨٦ — ٤١١ هـ = ٩٩٦ — ١٠٢٠م)

تولى الحاكم الخلافة سنة ٣٨٦ هـ فى اليوم الذى مات فيه أبوه العزيز ، وكان إذا ذاك حدثاً فى الحادية عشرة من عمره . وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان التركى ، وسرعان ما شعر الحاكم بأن برجوان يسلب السلطة منه . فقتله . وتولى الوزارة من بعده ابن عمار أحد المغاربة من قبيلة كتامة ، ولم يعمر هذا الوزير طويلا إذ ارتكب كثيرا من أعمال العنف والشدة إزاء النصارى واليهود حتى ثاروا عليه ، ونشب القتال فى شوارع القاهرة ، واضطر بن عمار إلى الاختفاء ، وانفرد الحاكم بالسلطة وهو فى الخامسة عشرة من عمره .

تناقضه :

جمع الحاكم بين صفات متضاربة : فاكتملت له الشجاعة والإحجام ، والجبن والإقدام . وكان يحب العلم ، ويضطهد العلماء . ولبث سنين طويلة على ضوء الشموع ليلا ونهاراً ، ثم آثر الظلمة على النور ، وصار يحب الجلوس فى الظلام الدامس . وكتب على المساجد سب الصحابة ، ثم محاه . وحرم الاشتغال بعلم الفلك ورصد النجوم ، وكان هو نفسه يقوم بالرصد ، ميالا للعزلة والانزواء ، محباً لسفك الدماء .

كانت حالة الحاكم متضاربة متناقضة ، حتى أطلق عليه بعض المؤرخين صفات مختلفة : فسماه الأستاذ مرجليوث « الحاكم المجنون » The Mad Hakem (١) .

---

(١) Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus. p. 30.

وقال عنه المقريزى : « إنه كان يعتريه جفاف فى دماغه ، ولذلك كثر تناقضه ، وكانت أفعاله لاتعلل ، وأحلامه وسياسته لاتؤول » ، من ذلك :

١ — أنه أصدر سنة ٣٩٥ هـ مرسوما يحرم بيع الملوخية لأنه أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن أكل الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ، ونهى أيضا عن استعمال القرع وطلب إلى الفلاحين أن يعطوه وثائق كتابية بعدم زرعه وذلك لأن أبا بكر كان يحب أكله ، ثم نهى عن بيع الفقاع (نوع من الخمر) وذلك لأن عليا كان يكرهه ، وحرم بيع الزبيب لأنه من العنب فهو خمر مجفف ، ونهى عن بيع أكثر من أربعة أرطال من العنب ، وأمر بقتل جميع الكلاب عدا كلاب الصيد ، وكانت الناس فى ذلك الوقت تتخذ الكلاب فى المنازل للحراسة والمؤانسة (١) .

٢ — بدأ الحاكم يتجول ليلا فى المدينة ، فأصبحت الأنوار تسطع فى جنباتها ، وفتحت محلات المدينة أبوابها لروادها فى الليل بدل النهار ، وكان السرور يعم جميع الناس لهذه المناظر التى كانت تزيدها الأنوار الصناعية بهجة وروعة ، فقد أخذ الناس فى تعليق الثريات على أبوابهم ليكتسبوا بذلك رضى الخليفة ، ولكنه امتنع بعد قليل عن التجول وحرم على الناس الخروج ليلا من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ، فأقفرت الشوارع وخلت المحلات التجارية من مظاهر الزينة .

٣ — منع النساء من الخروج من منازلهن ، ومن الظهور غير متنقبات وفى حالة منافية للآداب والحشمة ، وحرم عليهن الظهور فى أعلى المنازل أو دخول الحمامات العامة أو السير وراء الجنائز ، ومنع صانعى الأحذية من صنع أحذية خاصة بهن ، وظل النساء على هذا الحال سبع سنين ، حتى ولى ابنه الظاهر (٢) .

٤ — اشتد الحاكم ، بعكس أبيه العزيز ، فى معاملة أهل الذمة ، حتى أمر بهدم بعض كنائسهم ، وبإلغاء بعض أعيادهم ، ثم تطرف فى معاملته لهم حتى جعل لهم سنة ٤٠٢ هـ علامات تميزهم (٣) . ولكن فى سنة ٤١١ هـ عدل عن سياسة الشدة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٦٦ .
(٢) يحيى بن سعيد ص ٢٠٨ .
(٣) راجع ما كتبناه عن الحالة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، فى الباب الثامن .

فسمح لهم ببناء ما تهدم من كنائسهم ، وأطلق لهم حرية العبادة ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم .

٥ — اشتد فى معاملة أهل السنة ، فقد قضى فى سنة ٣٩١ هـ على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل على ، وحبس قاضى القضاه لعدم اعترافه بإمامة على وبعث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه وحمله على الاعتراف بتلك الإمامة . ولما لم يفلحوا فى إقناعه رفعوا أمره إلى الحاكم فأمر بقتله وفى سنة ٣٩٥ هـ أمر بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع [١] ، ثم أمر بتغيير مواعيد الصلاة ، وألغى الحج والزكاة . ولكن فى سنة ٣٩٦ هـ ثار أبو ركوة الذى ينتسب إلى الأمويين فى الأندلس وهجم على مصر بجيش من المغاربة . ولكى يصلح الحاكم الأمر بينه وبين رعاياه السنيين، خفف من تشدده فى مراعاة المذهب الفاطمى، وعدل عن سياسة اضطهاد أهل السنة ، رائده فى ذلك أنه لا يسير على سياسة واحدة إلى النهاية ازاء طائفة بعينها . وأبطل الحاكم كثيراً من الأعمال التى قام بها ضد السنيين : مثل لعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ، وبالغ فى مصالحة السنيين حتى أمر بمحو السباب الذى نقش بلعنهم ، ومعاقبة كل من أقدم على سبهم . ولم يكتف بذلك . بل أنشأ فى نفس السنة (٣٩٦ هـ) مدرسة لتعليم قوانين المذهب السنى ، وأهدى هذه المدرسة كثيراً من الكتب النفيسة ، وكانت نتيجة هذه السياسة التى سار عليها الحاكم ، أن ساءت سمعته عند الشيعيين الذين وجدوا أنفسهم فى بلد يسير فى اتجاه عادات المذهب السنى [٢] .

ادعاؤه الالوهية :

اشتغل الحاكم بعلم النجوم ، وبنى فى سفح المقطم رصدا ، عرف باسم « الرصد الحاكمى » ، وكان يكثر من الذهاب إلى هذا الرصد . وادعى علم الغيب ، واتخذ لنفسه جواسيس من النساء ، يندسسن فى دور علية القوم ليكتشفن ما يحدث فى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٦٦ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٩٢ .

منازلهم ، ويقدمن عن ذلك تقارير فى اليوم التالى ، فإذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس ، وأخبرهم بتفصيل ماحدث فى منازلهم .

أمعن الحاكم فى ادعائه علم الغيب ، حتى إن ابن زولاق قص علينا حكاية ننقلها بنصها ، وإن كان من البعيد تصديقها ، وهى : « ونادى فى الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته ، وأصبح الناس يستغيثون ، فأحضر صنما كان يسمى عنده أبا الهول ، فكان كل من ضاع له شىء يجلس بين يديه ويقول له : يا أبا الهول : ضاع كذا وكذا ، فيقول شخص داخل الصنم ، ماضاع منك أخذه فلان ووضعه فى المكان الذى يقول عليه الصنم ، فيحضر لصاحبه ، ثم مازال على ذلك حتى قرر جميع ماضاع لأربابه ، ثم صلب اللصوص وعادت الناس فى أمن ينامون فى بيوتهم ، وأبوابهم مفتوحة وحوانيتهم كذلك ، ولم يسرق لهم شىء ، حتى إذا وقع من أحد درهم يبقى فى مكانه لايجسر أحد أن يأخذه حتى يأتى إليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره » (١) .

ولكن يظهر لنا أن الحاكم كان يضع فى هذا الصنم رجلا يلقن هذه الحوادث التى تحدث بالمنازل ، ثم يأمر الخليفة بإحضار أصحابها ، ويأمر أبا الهول أن يقص عليهم ماحدث فى بيوتهم ، فإذا سمع الناس ذلك اعتقدوا أن الحاكم يعلم الغيب . ويقال إن أهل السنة فى مصر فطنوا إلى هذه المسألة ، وأحبوا أن يعرفوا حقيقته ، فانسل أناس إلى مكان الصنم وكسروه ، فوجدوا بداخله رجلا ، وقد تأثر هذا الرجل بما فعله هؤلاء الناس وارتج عليه وفقد النطق .

وادعى الحاكم تجسم الإله فى شخصه ، وساقه إلى هذا السبيل أنصاره من أمثال : الأخرم وحمزة الدرزى ، الذين نسبوا إليه بعض الصفات التى لايتصف بها إلا الله ، وكان إذا بدا للناس فى الطرقات خروا له سجداً وقبلوا الأرض ، ومن أبى كان نصيبه الموت . وفى سنة ٤١١ هـ نادى الأخرم فى المسجد العتيق وفى حضرة قاضى القضاة : « بسم الحاكم الرحمن الرحيم » ، يرمى بذلك إلى أن يعتقد الناس أنه الشخص الأعلى والمخلوق الأعظم .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٧٥ ، نقلا عن ابن زولاق .

وتفصيل ذلك أن حسن الأخرم الذى قدم من بلاد فرغانة إلى القاهرة سنة ٤٠٥ هـ ، تمكن بفضل تأييد ما ادعاه الحاكم من أن له بيعة إلهية ، من أن يتقرب إليه ، ويكتسب عطفه ورعايته . وبعد فترة قصيرة من حضوره إلى مصر ، وجه همه لنشر هذه العقيدة ، وسار لذلك مع فريق من أتباعه إلى جامع عمرو بن العاص ، وألقى على الحاضرين أصول دعوة ألوهية الحاكم . فأثار حديثه مكامن حقد المسلمين على الخليفة ، وضجوا بالتهليل والتكبير والتضرع إلى الله عز وجل أن يخلصهم من شره ، وعولوا على رفع شكواهم إلى القاضى أحمد بن محمد بن أبى العوام . بيد أن هذا القاضى لم يكد يحضر ويتبوأ مجلسه فى المسجد ، حتى قدم إليه أحد أتباع الأخرم رقعة صدرت بعبارة : بسم الحاكم الرحمن الرحيم ، وفيها يطلبون منه الاعتراف بألوهية الحاكم وإذاعة هذه العقيدة بين الناس . فاحتج القاضى وثار ، وتبعه فى ذلك من كان حاضرا فى المسجد وانقضوا على من سلموه الرقعة وقتلوهم ، ثم وجهوا همتهم إلى القضاء على الأخرم الذى تمكن من النجاة بنفسه ، وظلوا يتعقبونه حتى تيسر لبعض السنيين القبض عليه وقتله .

كذلك عكف حمزة بن على ، الذى قدم إلى القاهرة من مقاطعة سوسن ببلاد الفرس ، على بث الدعوة سرا للحاكم . وجهر بها فى أوائل سنة ٤٠٨ هـ . ولما علم الحاكم بذلك أولاه رعايته ، وبعث إليه بالأسلحة ليدافع بها عن نفسه وعن أتباعه ، فقوى بذلك نفوذ حمزة ، وبعث بالرسل إلى كبار رجال الدولة لأخذ البيعة للحاكم فى صفته الجديدة التى أسبغها عليه .

ونافس حمزة فى بث دعوة ألوهية الحاكم ، أحد دعاته محمد بن اسماعيل الدرزى ، فقد قدم الدرزى إلى الحاكم رسالة زعم فيها أن روح آدم عليه السلام ، انتقلت إلى على بن أبى طالب ، وأن روح على انتقلت إلى العزيز أبى الحاكم ، ثم انتقلت إلى الحاكم نفسه . وسرعان ما سما الدرزى إلى قمة المجد ، فقد كافأه الحاكم على هذا العمل بأن عهد إليه الإشراف على شئون الدولة ، وعلت مكانته على مكانة الوزراء وأصبح سفير الكبراء لدى الخليفة الفاطمى فى قضاء مطالبهم وتحقيق رغباتهم . ولقيت دعوة الدرزى إلى ألوهية الحاكم معارضة شديدة من المصريين السنيين ، وتجلى ذلك عند ما شرع فى قراءة رسالته بالجامع الأزهر ، وحاولوا قتله ، ولكنهم

لم يتمكنوا من القضاء عليه لفراره ، فنكلوا بأتباعه . ومازالوا يتعقبونه حتى أنه ود التجأ إلى قصر الخليفة ، وإذ ذاك طالبوا الحاكم بتسليمه ، ولكنه ظل يماطلهم حتى دبر له سبيل الفرار ، وأمده بالأموال ، فرحل عن مصر إلى الشام ، حيث واصل نشر دعوته ، وتمكن بفضل قوة حجته من أن يستميل إلى جانبه عدداً كبيراً منهم.

وعلى الرغم من استنكار أهل السنة من المصريين للدعوة ، التي قام بها الأخرم وحمزة والدرزى ، لبث عقيدة ألوهية الحاكم ، وتحفزهم للفتك بكل من يعمل على إذاعتها ، فإنها لقيت أذناً مصغية لدى بعض العامة ، حتى أصبحوا يقبلون الأرض للحاكم إذا ماسار فى الطرقات ، ويقولون له : « السلام عليك ياواحد يا أحد ، يامحيى يامميت » .

وشجع الشعراء المتصلون بالبلاط الفاطمى هـذا الاعتقاد ، ولم يترددوا فى أن ينسبوا إلى الحاكم بعض صفات الله ، وهم يقرءون القرآن بحضرته . ذكر المؤرخ ابن خلكان : أن الحاكم كان جالساً فى مجلسه العام ، وهو حفل بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) ، والقارىء فى أثناء ذلك يشير إلى الحاكم » (١) .

ابتدأت الدعوة إلى ألوهية الحاكم بادعائه أن له طبيعية إلهية ، بعد أن كان بشراً كسائر الناس . وهناك كتاب مخطوط اسمه « رسائل الحاكم بأمر الله ، والقائمين بدعوته » (٢) ، ومن هذا المخطوط نتبين ما كان يدعيه الحاكم من صفات الألوهية، وتدل اللهجة التى كتبت بها هـذه الرسائل على ما توقعه الحاكم من مقاومة الأهلين ومعارضة الجانب الأعظم من المصريين .

وقد أعلن الناس الذين اتبعوا سياسة الحاكم (أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) . وقد أكد الدعاة إلى ألوهية الحاكم خطر تعدد الآلهة ، ودافعوا عن

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص١٦٧ .

(٢) هـذا المخطوط يحتوى على ٦٤ ورقة ، ويشتمل على عشرين رسالة ، ويوجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة (مخطوطات الشيعة) رقم ٢ .

ضرورة الاعتقاد بوحدانية الحاكم باعتباره : (الخالق ، الرازق ، علام الغيوب) .

ويظهر لنا أن الدين الإسلامى عطل فى عهد الحاكم وعمل بدين جديد ، بنى على التعاليم التى قام بها دعاته وشرحها الشراح فى مجالس الحكمة ، وفى الوثائق التى قامت مقام القرآن . وقد ظهر بين المصريين روح السخط على أعمال الحاكم ، واستهجنوا سياسته ، وخاصة حين بلغت به الجرأة أن أبطل الأديان كافة ، وطلب إلى الناس اعتناق مذهبه الذى كانت مبادئه تتلى فى مجالس الحكمة .

كان الحاكم فى نظر دعاته هو رب العرش ، وكان دعاء المؤمنين بوحدانية الحاكم وسرمديته يتلى فى القصر الفاطمى . ومما جاء فيه : « سبحانك يامبدع الأشياء ! يا مخترع العالمين ، سبحانك يامن تعزز بالكبرياء والجبروت ، سبحانك يامن تعالى على المساوىء ، سبحانك يامن لا تلحقه صفة ولا له صفة ، شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد . وأنك بارى لابارى لك ، وخالق لا ضد لك ، وقادر لا مقدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك ، أسألك يامولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ، أسألك يامولانا بأول شىء ظهر فى توحيدك وتنزيهك ، ونفى التشبيه عنك : أن تمن علىّ بخالص معرفتك ، وحميد طاعتك ، والبلوغ إلى مرضاتك ، والثبات على أمرك ، والتجنب لنهيك ، والصبر على ماينالنى فى عبادتك من شدائد المحن والبلوى يا أرحم الراحمين » (١) .

ويؤكد الدعاة إلى ألوهية الحاكم أنه ظهر أولا فى صورة إنسان ، وتسمى باسم إنسان ، وقام بأفعال البشر ، ولكنه مالبث أن تجرد عن صفاتهم ، وتنزه عن مساوئهم . وظل دعاته يبثون فكرة ألوهيته ، حتى اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت وأنه « صاحب العاجلة » (أى الدنيا) وإليه « حكم الآجلة » (أى الآخرة) ، وكان ذلك التغالى فى بث الدعوة للحاكم من عوامل مقتله .

دار الحكمة ودار العلم :

ومن أشهر الأعمال التى خلدت اسم الحاكم ، إنشاؤه فى سنة ٣٩٥ هـ جمعية

---

(١) رسائل الحاكم بأمرالله س ٢٧ — ٣٢ . راجع ، حسن ابراهيم حسن : « الفاطميون فى مصر » ، س ١٤٩ .

علمية « أكاديمية » أطلق عليها اسم « دار الحكمة » ، فالتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء . وألحق بدار الحكمة مكتبة سميت « دار العلم » حوت مالم يجتمع مثله فى مكتبة من المكاتب ، وأجرى الحاكم ومن جاء بعده من خلفاء الفاطميين الرواتب على خدامها ومن بها من الفقهاء ، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والمحابر والورق (١) ، وكان الغرض من إنشاء دار العلم هو الرغبة فى نشر المذهب الشيعى (٢) ، وهو نفس الغرض الذى من أجله أنشأ الفاطميون مكتبة القصر .

وكانت دار الحكمة أهم منشئات الحاكم ، لأن الجامع المعروف باسم « جامع الحاكم » بنى الجزء الأكبر منه فى عهد أبيه العزيز ، واقتصر عمل الحاكم على إتمامه .

ست الملك أخت الحاكم :

عاصرت ست الملك ثلاثة من الخلفاء الفاطميين ، وهم : العزيز ، والحاكم ، والظاهر . وقامت فى عهد كل منهم بدور ظاهر ملموس ، وعاشت فى قصر جمع بين الإيمان والإلحاد ، وبين الحكمة والتناقض ، وبين القوة والضعف ، وفى بلاطها كانت تدبر المؤامرات وتوضع الخطط .

تلك هى ست الملك : أبوها « العزيز » رجل مسلم عربى بل هو خليفة للمسلمين ، ويرجع أصله إلى الرسول ، وأمها امرأة نصرانية من الشام ، وأخواها بطريقان ملكانيان للمسيحيين . ورثت عن أبيها أصله وقوته ، وعن أمها جمالها وذكاءها ، وبرزت للتاريخ سيدة قوية الشخصية ، خارقة الذكاء ، حازمة ، تعطف على المسيحيين لأن أمها كانت مسيحية . ولمس أبوها فيها هذه الصفات ، فكان يستشيرها فى أمور الدولة الهامة ، ويتقبل مشورتها ، وقبل موته أوصاها بأن تتكفل أخاها بالعناية والرعاية لصغر سنه .

نفذت ست الملك وصية أبيها ، فعطفت على أخيها الخليفة الحاكم ، وحمت عرشه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٥٧ .

(٢) راجع عصر المستنصر ، لمعرفة ماحل بدار العلم أثناء الشدة العظمى التى اجتاحت البلاد فى زمنه .

من الدسائس والمؤامرات ، وأنقذته من سيطرة وصيه ومربيه برجوان ، وحكم البلاد تحت إرشادها .

وعاشت ست الملك فى قصر أخيها عيشة هانئة وادعة ، يحوطها الترف والنعيم ، وحولها مئات من الجوارى وطائفة من رجالها المخلصين ، ولبست أفخر الثياب وتحلت بأثمن الجواهر . ولكن الحال لم تستمر طويلا على هذا المنوال ، فقد تلبد الجو واضطربت أمور الدولة ، بعد أن وقع الحاكم تحت تأثير جماعة من النفعيين أقنعوه بأن روح الله قد حلت فى جسده حتى أمر الناس بعبادته .

حاولت ست الملك أن ترد أخاها إلى الصواب فلم تستطع ، ونظرت إلى الدولة فوجدت الشعب متذمراً والحكم منحلا ، ودولة آبائها مشرفة على الانهيار ، وظلت البلاد على حال من التقلب والغموض . وذعرت ست الملك من هذا الإلحاد ، وعجبت من انقياد أخيها لتلك الفكرة ، وهو خليفة المسلمين وسليل فاطمة الزهراء بنت الرسول ، وعبثاً حاولت أن تقنعه بأنه بشر مثلها ، وأن ألوهيته خرافة .

على أن الحاكم ثار عليها ، وأنكر أخوتها ، كما تنكر لأمه وابنه وزوجته ، حين ادعى أنه لم يلد ولم يولد ، وتضايق من تمرد أخته ورفضها لعبادته ، وحاك حولها الإشاعات واتهمها بباطل التهم . ولكن ست الملك جاهدت ضد أخيها ، حين رأت أن تدبر أمر مقتله ، فداء للدين والوطن ، وتطهيراً لسمعتها وسمعة أسرتها .

وفاة الحاكم :

أدت معتقدات الحاكم الدينية وشذوذه السياسى إلى سخط الأهالى ، حتى اغتالوا كثيراً من دعاته ، وانتهى الأمر باغتيال الحاكم نفسه سنة ٤١١هـ .

وقد اختلفت الروايات فى كيفية قتله ، إذ يقال إن أخته ست الملك كان لها يد فى قتله ، لأنه اتهمها فى أخلاقها ورماها بأمور عدتها مشينة لشرفها . يقول أبو المحاسن إن ست الملك اتفقت مع سيف الدولة بن دواس ، أحد شيوخ كتامة على اغتياله ، وقالت له : لى إليك أمر لى فيه من الاجتماع بك ، فإما تنكرت وجئتنى ليلا ، أو فعلت أنا ذلك ، فقال : أنا عبدك والأمر لك ، فتوجهت إليه ليلا فى داره متنكرة ولم تصحب معها أحدا ، فلما دخلت عليه قام وقبّل الأرض بين يديها دفعات ووقف فى الخدمة ، فأمرته بالجلوس ، وأخلى المكان . فقالت : يا سيف الدوله ، قد جئت

فى أمر أحرس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الحظ الأوفر . وأريد مساعدتك فيه ، فقال : أنا عبدك ، فاستحلفته واستوثقت منه ، وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم ، وقد أضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الألوهية وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقت يا مولاتنا ! فما الرأى ؟ قالت : أقتله ونستريح منه ، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال ، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره ، وشيخ الدولة والقائم بأمره ، وأنا امرأة من وراء حجاب ، وليس غرضى إلا السلامة منه ، وإنى أعيش بينكم آمنة من الفضيحة (١) .

واتفقت ست الملك مع عبدين على قتل الحاكم عند خروجه إلى جبل المقطم ، فظلا يرقبانه ، إلى أن قرب الصباح ، فوثبا عليه وطرحاه أرضا وقتلاه ، ثم حملاه إلى ابن دواس ، فحمله معه العبدان إلى أخته ست الملك ، فدفنته فى مجلسها ، وكان ذلك فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ . وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج هذه الليلة راكباً حمارا وبصحبته رجلان ، وأنه اختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر ، فقام بعض رجال الدولة وقضاتها وأخذوا فى البحث عنه ، فعثروا على الحمار الذى يركبه مقطوع اليدين ، ثم تابعوا السير حتى وصلوا إلى بركة شرقى حلوان، فوجدوا فيها ثيابه وهى سبع جبات مزررة وفيها أثر السكاكين . ثم ظهر رجل من إحدى بلاد الصعيد وادعى أنه قتل الحاكم واعترف بذلك ، ولما سئل عن سبب قتله ، قال : قتلته غيرة لله والدين ، فقيل له : وكيف قتلته : فأخذ سكينا وضرب بها قلبه ، وقال : هكذا قتلته ! ولم يلبث أن خر صريعاً وتوفى (٢) .

ويعتقد الدروز أن الحاكم الذى اختفى سنة ٤١١ هـ سيعود إذا ما زالت المفاسد المنتشرة فى العالم ، وهو على هذا الاعتبار الإمام المنتظر لهذه الطائفة .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٢) أبوالمحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٩١ .

٤ ـ الظاهر

(٤١١ — ٤٢٧ هـ = ١٠٢٠ — ١٠٣٥ م)

خلف الحاكم ابنه الظاهر ، وعمره ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بأعباء الحكم ، وماتت بعد قليل (٤١٥ هـ) . فاشتغل بإدارة شئون الدولة ، وبدأ عهده بالابتعاد عن سياسة العنف التى سار عليها أبوه ، وتمتعت البلاد بالهدوء والطمأنينة ، إذ أنه ألغى القوانين التى أصدرها الحاكم ، وعمل على اكتساب ود أهل الذمة وأعلن أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم ، ثم التفت إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حال الزراعة [١] .

ولكن هذا السلام لم يدم طويلا ، فقد انخفض ماء النيل ، واشتد الضيق بالبلاد ، إلا أنه عالج هذه الحالة بحكمة ، إذ عقد حلفا مع إمبراطور الدولة البيزنطية على أن يمده بالحبوب مقابل تجديد الظاهر لكنيسة القيامة التى كان قد هدمها . على أن الغلاء اشتد والكرب عم ، حتى أصبحت الحرب سجالا فى الطرقات بين الجند والأهالى . وأهم مابنى فى عهده : القصر المعروف باسم « قصر اللؤلؤة » ، القريب من القصر الغربى .

وتوفى الظاهر فى المقس سنة ٤٢٧ هـ ، فأخذ وزيره الجرجرائى البيعة لابنه معد أبى تميم الذى تولى الخلافة وتلقب بالمستنصر بالله .

٥ ـ المستنصر

(٤٢٧ — ٤٨٧ هـ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م)

وخلفه ابنه المستنصر وهو فى السابعة من عمره ، وكان المستنصر أطول الخلفاء عهداً ، فقد ظل فى الخلافة ستين سنة ، تقلبت البلاد خلالها فى أدوار شتى . وظهرت القاهرة فى أوائل خلافته (إلى سنة ٤٤٠ هـ) بمظهر القوة وفاقت غيرها من مدن العالم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢ .

الإسلامى فى العظمة والعمران : فكانت دورها محكمة مبناء مبنية بالحجر ، يفصل بعضها عن بعض حدائق غناء ، وكانت أسواقها وحوانيتها ملأى بالطرف النفيسة ، والأهالى يرتعون فى رغد من العيش ، كما كان الأمن مستتباً والهدوء شاملا .

يدل على ذلك ماذكره الرحالة الفارسى « ناصر خسرو » [١] ، فى كتابه « سفر نامه » أو « زاد المسافر » عن زيارته مصر مابين سنتى ٤٣٩ ، ٤٤١ ﻫ فى أوائل عهد المستنصر . فقد وصف ثروة البلاط الفاطمى وأبهته وما كانت عليه البلاد إذ ذاك من يسر ورخاء ، وكشف عن مبلغ حب الشعب للخليفة ، وقال إن كل الفنادق والحوانيت والحمامات كانت ملكا للخليفة .

وفى الشطر الأول من خلافة المستنصر : امتدت رقعة الدولة الفاطمية من المحيط الأطلنطى غربا إلى نهر الفرات شرقا ، واعترف الصليحى الشيعى بسلطان المستنصر فى اليمن حول سنة ٤٥٥ ﻫ ، وأقيمت الخطبة للمستنصر على منابر بغداد نحوا من سنة على يد البساسيرى القائد العباسى [٢] .

الشدة المستنصرية

غير أن مصر لم تتمتع بذلك الرخاء طويلا ، فقد استقلت بلاد المغرب عن الدولة الفاطمية وتلتها بلاد اليمن ، وحلت بالقاهرة تلك الأيام السود التى تعرف فى التاريخ باسم الشدة العظمى . فقد انقطع ماء النيل ، وأهملت الزراعة تبعا لذلك ، وقلت الأيدى العاملة بانتشار المجاعات والأوبئة ، وتلا ذلك قيام الحروب الأهلية فى الديار المصرية ، نتيجة لحدوث الغلاء وندوة القوت .

اشتدت الحالة بين سنتى ٤٥٩ و ٤٦٠ ﻫ ، ودونت عن مصائب هذا القحط والغلاء القصص المروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم ١٠٫٠٠٠ نفس ، وعدمت الأقوات حتى أكل الأهالى القطط والكلاب ، ثم خطف بعضهم بعضا ، وبيع

---

(١) راجع تاريخ حياة ناصر خسرو فى كتاب « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » للدكتور زكى محمد حسن ص ٥٦ — ٦٣ .

(٢) راجع علاقات الفاطميين بالعباسيين ، فى باب العلاقات الخارجية .

لحم الإنسان عند الجزارين ، وأكل الناس الجيف ، ووقفوا فى الطرقات يأكلون من ظفروا به ، ويخطفون الناس بالكلاليب ، وحصد الطاعون سكان البلاد بمنجله حصداً ذريعاً ، واكتسح الدور داراً بعد دار ، لافرق بين عظيم وحقير ، بل نالت المصائب من الجميع على السواء ، حتى أن الخليفة نفسه باع أثناء تلك الشدة جميع ممتلكاته وما فى قصره من ذخائر وتحف وملابس ، ولما اشتد به الضيق باع مقادير لاتحصى من البلور والجواهر واليواقيت (١) .

وتصادف فى وقت حدوث تلك الشدة التى استمرت سبع سنوات، وقوع النزاع بين الجند السودانيين الذين كانت تعتمد عليهم أم الخليفة وكانت سودانية ، وعددهم ١٠٫٠٠٠ وبين الجند الأتراك الذين كان يرأسهم ناصر الدولة بن حمدان ، على أثر محاولة أحد الأتراك قتل أحد السودانيين ، الذين كانوا فى حاشية المستنصر خارج القاهرة ، فهجم عليه بعض العبيد وقتلوه . فاستاء الأتراك مما حدث ، وأظهر لهم المستنصر براءته من الحادث ، إلا أن الأتراك صمموا على محاربة السودانيين ، وانتهى الأمر بإبعاد معظمهم إلى جهة الصعيد، فأوقعوا الرعب هناك فى قلوب الأهالى وحالوا دون زراعة الأرض، واكتسح الباقى منهم الدلتا حتى وصلوا إلى الأسكندرية واستقروا فيها (٢) .

ويهمنا من إيراد خبر ذلك النزاع بين الأتراك والسودانيين ، أن الأتراك انتهزوا تلك الفرصة ونهبوا المدن وأصبح بيت المال خلوا من المال لإرضاء الجنود التركية . فلجأت الجنود إلى القوة للحصول على أرزاقهم المتأخرة ، وأتلفوا قصور الخلفاء الجميلة وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوم والأحجار الكريمة والمجوهرات . وأغار الأتراك على المكاتب المنقطعة النظير حتى تلاشى أغلب الكتب التى كانت فى مكتبة القصر التى أولاها يعقوب بن كلس كل عناية ، والتى كانت فى دار العلم التى أنشأها الحاكم وأعطى المستنصر معظمها للأتراك ، وكانوا يكوّنون القواد فى ذلك الوقت ، فى مقابل ما كان متأخراً لهم من الرواتب ، وبيع عدد كبير منها بثمن بخس ، ونهب

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥ — ١٦ .

(٢) ابن ميسر ص ١٧ .

البعض الآخر وحمل فى النيل إلى الأسكندرية وكان ذلك سنة ٤٦١ هـ، وما بعدها. ويقول المقريزى بصدد ماحل بمكتبة القصر: إن الكتب الجليلة المقدار، المعدومة النظير فى سائر الأمصار، صحة وحسن خط وتجليد وغرابة، قد اتخذ عبيدهم وإماؤهم من جلودها نعالا وأحذية ثم أحرقوا أوراقها زعما منهم أنها تحوى كلام المشارقة الذين يخالفون مذهبهم. (١)

ازداد نفوذ ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجند الأتراك حتى تولى إدارة شئون مصر بأمر الخليفة نفسه سنة ٤٦٣ هـ، فأخذ يعمل من ذلك الحين على إضعاف شأن المستنصر والاستئثار بالحكم فى مصر، وبدأ بأن حذف اسم الخليفة من الخطبة فى الوجه البحرى، وهدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد بعد أن كان البساسيرى أحد قواد العباسيين قد هدد بغداد نفسها بوضعها تحت سلطة الفاطميين سنة ٤٥٠ هـ. وازدادت حالة المستنصر سوءاً حتى رآه رسول الخليفة القائم العباسى عند حضوره من بغداد إلى القاهرة، جالساً فى إحدى حجرات القصر على حصير بال لابساً قبقابا وحوله ثلاثة من الخدم. وتأثر الرسول من هذا المنظر المحزن، ولم يتمالك نفسه من البكاء، وأخبر ناصر الدولة بما رآه، فسمح للخليفة بمائة دينار فى كل شهر، وقبض على أم الخليفة وأخذ منها أموالا وفيرة، ففرت إلى بغداد هى وبناتها.

هذه الفترة التى دامت أكثر من تسع سنوات، يعبر عنها المؤرخون بالشدة العظمى، واقترن حدوثها بوقوع عدة فتن وحروب أهلية مزقت مصر شر ممزق. وانتدب المستنصر لعلاج هذه الحالة رجلا يعد بحق من أكبر وزراء مصر فى ذلك العصر، هو أبو محمد الحسن اليازورى، فخفف من حدة وقعها وقبض على زمام السلطة تسع سنوات، وعالج خطر المجاعة بوضع يده على مخازن الغلال، ولكن

---

(١) المقريزى: الخطط ج ١ ص٤٧.

(٢) بعد سقوط الدولة الفاطمية تم بيع مكتبة القصر على يد رجل خبير بالكتب يدعى ابن صورة، واستغرقت عملية البيع بضع سنين، وما بقى منها حتى سنة ٦٩٤ هـ فى عهد المماليك باعه الطلبة أثناء المجاعة التى حلت بالبلاد إذ ذاك، كل مجلد برغيف.

المستنصر قبض عليه سنة ٤٥٩ هـ ، بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر ، وأرسله إلى تنيس حيث قتل . وبعد تلك السنة لم يكن هناك رجل يعدل اليازورى فى كفاءته وبطشه يقف فى وجه العناصر المتعادية المتطاحنة ، فتزعزع مركز مصر وتتابع الوزراء حتى بلغ عدد الوزارات أربعين وزارة مختلفة فى تسع سنوات . (١)

بدر الجمالى :

وكادت البلاد تتردى فى هوة لا مخرج لها منها ، لولا أن الله هيأ لمصر رجلا عظيما هو بدر الجمالى الأرمنى الأصل . تولى بدر بعض أعمال الشام، وكان المستنصر يعرف فيه الهمة والبسالة والإدارة منذ كان حاكما لمدينة عكا ، فاستنجد به ليقضى على العناصر التركية المتنافره . فجاء وقبض على هذه العناصر بيد من حديد ، ووضع حداً للفوضى والجرائم وأعاد عهد سيطره القانون ، فعاد إلى البلاد الأمن والنظام ، وانتزع مديرية الشرقية من العرب وقتل منهم عدداً كبيراً وأسرهم وأخذ منهم أموالا كثيرة ، وعمر الريف ، فرخصت الأسعار وعادت إلى ما كانت عليه فى أوائل عهد المستنصر ، وزاد إيراد مصر حتى تحسنت أحوال الفلاحين . وتفرغ بعد ذلك لإصلاح ما أفسده الأتراك ، فعنى بتحصين مدينة القاهره ، وأحاطها بسور يعرف بسور بدر الجمالى ، وانتدب ثلاثة مهندسين من البيزنطيين لتجديد بناء أبواب زويلة والفتوح والنصر ، وبنى على جبل المقطم فى سنة ٤٨٧ هـ جامعه المعروف باسم « جامع الجيوشى » نسبة إليه .

ويعد بدر أول الوزراء الذين أصبحوا من أرباب السيف والقلم، أى انحصرت فى يده كل السلطات الحربية والمدنية . (٢)

انتهت أيام الشده العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود التركية ،

---

(١) ابن ميسر ص ٣١ — ٧١ .

(٢) يوجد فى كتاب الإشارة إلى من نال الوزاة لابن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وصف لوزارة بدر الجمالى وأعمالها .

ووفره غلة سنة ٤٦٥ ﻫ ، وتقلد بدر الجمالى الوزاره . وتوفى بدر سنة ٤٨٧ ﻫ ، وخلفه فى الوزاره ابنه الأفضل ، وكان أبوه قبل وفاته قد جعله وليا للعهد ، وهذه أول مره نسمع فيها عن ولاية العهد فى نظام الوزاره .

وفى عهد المستنصر ظهرت روح العداء والكراهية إزاء أهل السنة ، وخاصة عند ما تولى بدر الجمالى الوزاره ، فقد كان من الشيعة الغلاة ، ولذلك نراه يعيد نقش لعن الصحابة على الجدران ويدخل الرسوم الشيعية فى الآذان .

ثروة المستنصر :

وأهم ما يسترعى النظر فى عصر المستنصر ، تلك الثروة الطائلة التى كان يملكها الخليفة حتى سنة ٤٦٠ ﻫ ، والتى يضيق النطاق عن حصرها وتبين مقدار ما كانت عليه البلاد من يسر قبل ظهور الشدة العظمى . وأمدنا ابن ميسر فى كتابه « تاريخ مصر » ببيان موجز عن كنوز المستنصر ، استمده من مجلد ضخم يقع فى نحو العشرين كراسة اطلع عليها بنفسه وذلك البيان يشتمل على ذكر تلك الكنوز من طرف وأثاث وملابس وذهب وغير ذلك مما نقل من القصر أثناء ثورة الأتراك وما بعدها ، ومن هذه النفائس أيضاً ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمس وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسروانى (١) ، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب . وكلها مما بعث به البساسيرى أحد قواد العباسيين ، حين عزم على إقامة الخطبة فى بغداد للخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٥٠ ﻫ

ومن ثروة المستنصر وممتلكاته التى لا تقوم بمال : سيفه الخاص ، وسيف الخليفه المعز ، وسيف النبى عليه السلام ، وسيف الحسين بن على ، وسيف جعفر الصادق ، وسبحة من الأحجار الكريمة قومت بثمانين ألف دينار ، وأعداد لا تحصى من الأسلحة والسروج والرماح والخواتم والأكواب والصحاف والأوانى والأطباق والصوانى والسكاكين والمحابر التى قومت الواحدة منها بألف دينار ، وكل ذلك

(١) نسبة إلى خسرو شاه الفرس .

مصنوع من الذهب والأحجار الكريمة (١) . واشتملت ثروته أيضاً على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا (٢) ، ويقال إن بوران بنت الوزير الحسن ابن سهل جلست عليها يوم زفت إلى الخليفة المأمون العباسى . واشتملت ثروته على خريطة مزركشة بالذهب تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم وموجز لحياة كل منهم ، وعلى عدد من المصورات الثمينة المتقنة الرسم ، كل ذلك عدا ثلاثين مليون دينار من الذهب .

ومما يؤسف له جد الأسف أن هذه الثروه الضخمة قد نهبها الأتراك أثناء ثورتهم التى قاموا بها سنة ٤٦٠ ﻫ ، ولم يكتفوا بذلك بل استولوا على ممتلكات القصر وعرضوها للبيع بأبخس الأثمان ووزع الثمن عليهم ، حتى إن الخليفة نفسه الذى استولى الأتراك على ماله وممتلكاته والذى كان معتزلا فى داره كان مدينا بحفظ حياته إلى بنت أحد الفقهاء ، إذ كانت تجرى عليه رغيفين كل يوم .

على أن هذه الثروه العظيمة التى كان يملكها المستنصر حتى سنة ٤٦٠ ﻫ ، لاتدل بحال من الأحوال على أن الفلاح المصرى كان فى رغد من العيش ، بل على العكس من ذلك ، فإنه بينما كان الخليفة ووزراؤه وحاشيته يسكنون القصور الفخمة التى تحوى من الأثاث والرياش وموائد الطعام ماكان مضرب الأمثال من حيث الوفره وحسن التنسيق ، كان أهل البلاد يسكنون منازل صغيره غير صحية ، وجل عملهم الكد والكدح لتدبير الثروه اللازمة للخليفة وسائر رجال دولته . وساءت حال مصر فى أواخر أيام المستنصر وساءت معها أحوال الفلاحين وتناوبتهم الأوبئة والمجاعات ، وبدأ منذ وفاته سنة ٤٨٧ ﻫ (١٠٨٥ م) عصر الضعف فى الدولة الفاطمية .

ومما تجدر الإشاره إليه تلك الشدة التى انتابت البلاد فى عهد المستنصر . كما أن

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ص٤١٤ .
(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٤٣ و ٤٨ .

الشكبات التي حلت بمصر في عهده لم تقتصر على اعتراف إفريقية بسلطان العباسيين ، بل قطع أمير مكة والمدينة الخطبة للمستنصر سنة ٤٦٢ ﻫ وتمكنت جيوش العباسيين سنة ٤٦٧ ﻫ من فتح الرملة وبيت المقدس ودمشق ، واستقل روجر النورمندى بصقلية سنة ٤٨٤ ﻫ بعد أن كان الفاطميون قد استولوا عليها .

العصر الفاطمى الثانى

ازدياد نفوذ الوزراء :

منذ النصف الثانى من عصر المستنصر ، وبخاصة منذ تولى بدر الجمالى الوزارة، استأثر الوزراء بالنفوذ والسلطان ، وبدأ عصر الوزراء العظام فى الدولة الفاطمية ، وأصبح الوزير رب السيف والقلم ، بمعنى أن كل أمور الدولة قد آلت إليه ونتيجة لذلك أصبح الخلفاء مسلوبى السلطة مع الوزراء الذين قبضوا على ناصية الحكم ، وعملوا على اختيار خلفاء ممن لايحولون بينهم وبين تنفيذ مشيئتهم ، فاستفحلت سلطة الوزراء وتضخمت ثروتهم .

وبرز فى هذا العصر عدد من الوزراء ، منهم : الأفضل بن بدر الجمالى فى عهد المستعلى والآمر ، والأكمل بن الأفضل فى عهد الآمر والحافظ ، وبهرام ورضوان فى عهد الحافظ ، وابن السلار وابن مصال فى عهد الظافر ، وطلائع بن رزيق وابنه أبو شجاع العادل فى عهد الفائز ، وشاور وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف ابن أيوب فى عهد العاضد آخر خلفاء الفاطميين .

خلفاء العصر الفاطمي وأشهر وزرائهم .

٥٨٧ — ٥٦٧هـ = ١٠٩٥ — ١١٧١ م

	الخلفاء		الوزراء
	المستنصر (الشطر الثاني)	١	بدر الجمالي
	المستعلي	٢	الأفضل بن بدر الجمالي
	الآمر	٣	الأفضل بن بدر الجمالي
		٤	الأكمل بن الأفضل
	الحافظ	٥	الأكمل بن الأفضل
		٦	بهرام الأرمني
		٧	رضوان بن الولخشي
	الظافر	٨	ابن السلار
		٩	ابن مصال
	الفائز	١٠	طلائع بن رزيق
		١١	أبو شجاع العادل
	العاضد	١٢	شاور [ينافسه ضرغام]
		١٣	أسد الدين شيركوه
		١٤	صلاح الدين يوسف بن أيوب

٦ ـ المستعلي

٤٨٧ — ٤٩٥هـ = ١٠٨٥ — ١١٠١م

بعد المستنصر ، تولى الخلافة المستعلي . وفي عهده ظهر نفوذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، فقد حال دون تولية نزار أكبر أبناء المستنصر ، إذ اعتقد أن نزاراً قد يضعف نفوذه ، ولذا عمل على تولية أخيه المستعلي بن المستنصر ، وكان صغير السن فحجر عليه الأفضل وأصبح هو مطلق التصرف في شئون الدولة . إلا أن

نزاراً لم يقف مكتوف اليدين إزاء إقصائه عن العرش ، بل سار إلى الأسكندرية وناصره واليها التركى ناصر الدولة أفتكين بعد أن مناه نزاراً بالوزارة إن هو وصل إلى العرش . ولكن الأفضل لحقه بها ومعه عدد من الجند ، ودارت بين الوالى ونزار من جهة وبين الأفضل من جهة أخرى ، معركة كبرى انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده إلى القاهرة ، ولكنه عاد ثانية إلى الأسكندرية وحاصرها . وظل على حصارها سبعة أشهر ارتكب خلالها كثيراً من أعمال العنف ، حتى طلب أفتكين ونزار الأمان ، فمنحهما إياه ، ولكنه أمر بإرسالهما إلى القاهرة حيث قتلا (١) .

وصفا الجو للأفضل بعد قضائه على تلك الفتنة ، فنقل إلى داره التى شيدها سنة ٥٠١ هـ دواوين الحكومة ، وجعل بها أماكن خاصة لإقامة الأسمطة (الولائم) فى الأعياد ، واتخذ فى أحد أبهائها مجلساً للعطاء . وكان متعصباً للشيعة ، ولذا فإنه فى العاشر من المحرم كل عام ، يوم ذكرى مقتل الحسين ، يزداد الصياح والبكاء والعويل (٢) .

الباطنية .

تعتقد الباطنية فى خلافة نزار بن المستنصر ، فإنه لما توفى المستنصر الفاطمى سنة ٥٨٧ هـ ، وتدخل الوزير الأفضل فى تولية ابنه المستعلى دون نزار ، قام نزاع بين الإسماعيلية أنصار الفاطميين فى مصر . فذهب فريق منهم إلى أحقية المستعلى بالخلافة كما أصبح فريق آخر يعتقد فى أحقية نزار . ويقول الباطنية إن الحسن بن الصباح صاحب قلعة ألموت بجوار بحر قزوين وزعيم الباطنية الثانى لما زار مصر فى عصر المستنصر سأله عن اسم الخليفة من بعده ، فقال له : «الخليفة بعدى ، ولدى نزار» . ولذا يرى الباطنية أن نزارا هو رأس الشيعة ، وأنه إمام الحق .

وأصل طائفة الباطنية أن الفاطميين لما رأوا نشر دعوتهم خارج مصر أرسلوا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤١٦ — ٤١٨ .
De Lacy O'Leary : The Fatimid Khalifate, p 212.

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٠ .

دعاتهم إلى فارس ، حيث راجت الدعـوة فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى . وكان داعى الباطنية الأكبر فى فارس ، هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، ثم ظهر رئيسهم الثانى الحسن بن الصباح الذى رحل إلى مصر ، حيث لقى المستنصر ، وتلقى أصول الباطنية ، وهى مذهب تفرع عن الشيعة ، ولكن كانت له عقائده الخاصة . وعاد الحسن بعد ذلك إلى خراسان لخدمة هذا المذهب بقلمه وسيفه . فانضوى تحت لوائه عدد كبير من أهالى هـذه البلاد ، وملك سنة ٤٨٤ هـ عدداً من القلاع فى نواحى بحر قزوين . وكان الحسن يعيش فى قلعة ألموت التى تحيط بها الحدائق . وقيل إنه كان يؤثر على أصحابه باستعمال المواد المخدرة ، وفى أثناء غيبتهم كان ينقلهم إلى جهات ذات مناظر جميلة ، فيتخيل الرجل الذى نقل أنه ذهب إلى الجنـة . وهؤلاء الباطنية عكروا صفوا السلاجقة ، وقتلوا الوزير نظام الملك ، وكثر عددهم واشتد أمرهم ، وقويت شوكتهم ، وظلوا على ذلك حتى سنة ٥٢٤ هـ ، حيث ملك السلطان محمود قلعة ألَمُوت من يد صاحبها الحسن بن الصباح .

وكان الفاطميون أنفسهم باطنيين ، إذ كانوا فى أعمالهم يصدرون عن العقائد الباطنية ، التى كان قوامها إدعاؤهم علم الباطن . وأن لهم قوى غير قوى البشر ، وبذا نرى أن مذهب الشيعة الأول تأثر بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة .

٧ — الآمر

(٤٩٥ — ٥٢٤ هـ = ١١٠١ — ١١٣٠ م)

توفى المستعلى سنة ٤٩٦ هـ ، وخلفه الآمر ، فكان مسلوب السلطة مع الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، كما كان الحال مع سلفه المستعلى . وفى عهـد الآمر ظهر تعصب الأفضل للسنة ، كما يتجلى فى إغلاقه سنة ٥١٣ هـ ، دار العلم (١) ، التى أسسها الخليفة الحاكم ، وزودها بآلاف الكتب لبث عقائد المذهب الشيعى ، مذهب

---

(١) راجع ماسبق ذكره عن إنشاء دار العلم فى عهد الحاكم .

الفاطميين . وذلك على أثر ما اتصل به من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة باسم البديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة ، وهى الشافعى والمالكى والحنفى ، يترددان على تلك المكتبة ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا مذهب السنة ، ومن بين من اعتنقوه ، شيخان من الأساتذة المحنكين من رجال القصر الفاطمى . فاتخذ الأفضل تلك الحادثة ذريعة لإلغاء تلك الدار ، على اعتبار أن وجودها أصبح لا يتفق مع الغرض الذى أنشئت من أجله . ولم يقف الأفضل فى إساءته للمذهب الشيعى ، فى عهد الآمر عند هذا الحد ، بل خطا خطوة جريئة ، وهى أمره بإلغاء الاحتفال بمولد النبى ومولد فاطمة ، وعلى ، ومولد الخليفة القائم بالأمر (الآمر) على ما جرت به عادة الشيعة [1] . وكانت تلك الأوامر كافية لتقويض دعائم ملك الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تقوية دعواهم على اعتبار أنهم من سلالة على بن أبى طالب ، وعلى هذا الأساس عنوا عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى فى أيام انحلال دولتهم .

لذلك دبر الخليفة الآمر مكيدة لقتل الأفضل . ولما تم قتله تنصل من دمه ، وقتل قتلته اقتصاصاً له ، حتى لا يعرف أنه هو الذى حرضهم عليه ، وشرح ابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، أى بعد مقتل الأفضل بنحو أربعين سنة ، الأحوال التى أحاطت بمقتله ، وقرر أن مقتله كان تدبيراً من الخليفة الفاطمى وأنصاره لدواع سياسية وحزبية ، واشترك فى تدبير قتله عبد الله المأمون بن البطائحى، أحد خواص الأفضل بعد أن منى بأن يخلفه فى مركزه ، واختار لهذا العمل جماعة من الرجال على أن يقتلوا عقب إتمامه ، ويظهر الخليفة ورجال بلاطه فى الوقت نفسه أشد مظاهر الحزن حتى لا يتهموا بأن لهم يداً فى هذا العمل فيثيروا سخط الناس ، وخاصة أن كثيرين منهم كانوا يقدرون الأعمال الجليلة التى أداها الأفضل وأبوه للدولة الفاطمية ، وكان الرجال الذين أجهزوا على الأفضل سنة ٥١٥ هـ من فرقة الباطنية التى نكل الأفضل بمعتنقى مذهبها [2] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

ونال البطائحى ما كان يرجوه وخلف ضحيته فى الوزارة كما كان معتاداً فى ذلك الحين ، وعاد للآمر نفوذه بعد وفاة الأفضل . وأمر بنقل ثروة الأفضل إلى دار الخلافة ، وجعل على ذلك جماعة من الكتاب يقومون بإحصائها ، وتم ذلك فى أكثر من شهرين بين سمع الخليفة وبصره ، حيث كان يقضى صدر النهار فى الجزء الذى عين من قصره لنقل تلك الثروة إليه ، ويقضى الجزء الباقى من اليوم فى إحدى دور الوزير ليعمل الإحصاء اللازم ، مما يدل على أن ثروة الأفضل بلغت من الضخامة مبلغاً كبيراً قدر بستة ملايين دينار (١) .

وسرعان ما اضمحل نفوذ الآمر ، وعاد سيرته الأولى من الضعف بعد اعتلاء أبى على بن الأفضل كرسى الوزارة سنة ٥٢٤ هـ فى أواخر سنى حكم الآمر .

ومن محاسن الآمر تشجيعه للشعراء ، فقد جعل القنطرة التى كانت تطل على بركة الجيش طاقات عليها صور الشعراء ، كل شاعر باسمه وبلده ، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قصيدة للشاعر فى المدح ، وعلى الجانب الآخر رف مذهب ، وأمر عند دخوله إليها بأن يوضع على كل رف صرة مختومة ، فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ نصيبه بيده .

وعامل الآمر أهل الذمة معاملة تنطوى على العطف . ومن أهم إصلاحاته تجديد قصر القرافة وبناء قصر الهودج فى جزيرة الروضة لزوجته البدوية ، وإنشاء جامع الأقمر . وتوفى سنة ٥٢٤ هـ ، وخلفه الحافظ .

٨ ـ الحافظ

(٥٢٤ – ٥٤٤ هـ = ١١٣٠ – ١١٤٩م)

يتميز عصر الحافظ كعصر من سبقوه من خلفاء العصر الفاطمى الثانى ، بظهور نفوذ الوزراء ، وتلاشى نفوذ الخلفاء . تقلد الوزارة فى عهده أبو على أحمد بن الأفضل

---

(١) ابن ميسر ص ٢٣٧ .

ابن بدر الجمالى ، وتلقب بالأكمل ، فاستأثر بجميع السلطات وشل يد الخليفه عن التصرف فى شئون الدولة ، وزاد على ذلك أن منع الناس من زيارة الحافظ إلا بإذن منه ، واستولى على ما فى القصور من التحف ومنع ذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة ، وأمر بالدعاء للامام المنتظر ، لأنه يدين بمذهب الإمامية ، وأمر الخطباء بذكر اسمه فى الخطبة وتلقيبه بألقاب ، منها «ناصر إمام الحق ، هادى القضاة إلى اتباع شرع الحق ، مولى النعم ، رافع الجور عن الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم» (١) . وفى سنة ٥٢٥ هـ اتخذ الوزير الأكمل خطوة جريئة ضد الشيعيين ، بأن عين أربعة من القضاة : اثنين من الشيعيين واثنين من السنيين ، وأعطى كلا منهم سلطة إصدار أحكامه وفق مذهبه ، وبذلك لم يجعل إصدار الأحكام حسب المذهب الشيعى دون سواه ، كما كان الحال منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر :

وأثارت سياسة الأكمل غضب الشيعيين ، فدبروا مؤامرة لاغتياله ، وتم لهم ما أرادوا ، وبينما كان الوزير سائرا فى طريقه ممتطيا جواده لعبة كرة القدم ، إذ هجم عليه أحد غلمان الخليفة وقتله (٢) . وهنا نلاحظ أن هذه هى المرة الثانية التى يغتال فيها وزراء من بيت بدر الجمالى ، بتحريض الخلفاء .

بموت الأكمل ، عاد الخليفة الحافظ إلى عرشه ، إلا أن ذلك لم يكن معناه تخلصه من سيطرة الوزراء ، فقد تخلص من الأكمل بن الأفضل ليقع تحت سيطرة بهرام الأرمنى والى الغربية الذى قلده الحافظ الوزارة ، رغم نفور الناس من ذلك العمل (٣) . وقد صدق ظنهم ، فإن نفوذ الوزير بهرام سرعان ما تزايد ، وما لبث أن سأل الخليفة أن يأذن له بإحضار إخوته وبنى جلدته من أرمينيا ، حتى بلغ عدد الأرمن فى مصر بعد فترة يسيرة ثلاثين ألفاً . واتخذ هؤلاء خطة عدائية إزاء المسلمين فجاروا عليهم

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٥ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٩ — ٣٧٠ .

(٣) ابن ميسر ص ٩٧ وقد عدد الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه «الفاطميون فى مصر» ص ١٤ ، العوامل التى ذكرها خاصة الخليفة ، ليعدل الحافظ عن هذا الرأى .

وصادروا أملاكهم وبنو كثيراً من الكنائس والأديرة معتمدين على تشجيع بهرام لهم ، وشكا المسلمون إلى الخليفة الحافظ ظلم بهرام وأهله وعشيرته ، وخاصة أن أخاه والى قوص ويدعى الباساك ، ظلم أهالى تلك البلدة واستباح أموالهم .

لما اشتد الحال ، استنجد المسلمون بوالى الغربية رضوان بن الولخشى ، وفى مدينة سخا إحدى مدن الغربية صعد رضوان المنبر ، وخطب فى الناس خطبة بليغة حضهم فيها على الجهاد ، وجمع ثلاثين ألف مقاتل سار بهم إلى القاهرة لقتال بهرام(١) . ولما كان رضوان يطمح أن يكون وزيراً ، أمكننا أن نعرف أن القتال أصبح يدور من أجل كرسى الوزارة ، وبدأ من ذلك الحين عهد تنافس وتطاحن للوصول إلى ذلك المنصب ، مما أدى إلى اضطراب أحوال الدولة الفاطمية وقرب نهايتها .

انتهى النزاع بين بهرام ورضوان بهزيمة بهرام والتجائه إلى أخيه فى قوص ، إلا أنه قبل وصوله إليها كان الأهالى قد قتلوا أخا بهرام ومثلوا بجثته ، فثار لموت أخيه ونهب المدينة وقتل كثيراً من أهلها ورحل إلى أسوان ، وبذلك خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة ولقب بالأفضل . واشتط بعد توليه الوزارة على أعوان بهرام ، فصادر أملاكهم ، وقتل الكثير منهم ، بل وعمل على إبادة الأرمن . وكان رضوان أول من تلقب بلقب ملك من وزراء الفاطميين ، وتلقب بذلك اللقب من جاء بعده من الوزراء فى العهد الفاطمى (٢) .

وهذه الأعمال لم ترض الخليفة الحافظ ، فأحضر بهرام من أسوان وأسكنه فى قصره وأحله من نفسه محل الإكرام والتعظيم ، فحقد رضوان على الخليفة ، وتحول التطاحن من خلاف بين الوزير بهرام والطامعين فى منصبه إلى خلاف بين الخليفة ووزيره ، وازدادت الوحشة والنفور بين الفريقين ، وضعف أمر رضوان واضطر إلى الهرب من القاهرة فى سنة ٥٣٣ هـ إلى صرخد من أعمال دمشق ، وعاد بعد عام إلى مصر على رأس جيش كبير وحارب جند الخليفة قرب باب الفتوح ، وانتهى الأمر بهزيمة رضوان والقبض عليه وحبسه فى قصر الخليفة وظل به حتى قتل ، وبقتله انتهى

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages pp . 199

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٤٠ .

هذا النزاع الطويل بين بهرام ورضوان . أما بهرام فإنه أقام فى قصر الخليفة مكرماً يستشيره فى مهام الدولة دون أن يقلده عملا رسمياً ، وظل على ذلك الحال حتى توفى سنة ٥٣٥ هـ (١). فحزن عليه الخليفة حزناً عظيما وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام ، وسار بنفسه فى جنازته يبكى بكاء شديداً (٢) .

وجدير بالذكر هنا أنه فى ذلك العهد تم لعبد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية سنة ٥٤٠ هـ ولم يبق لهم سوى مصر . وتوفى الحافظ سنة ٥٤٤ هـ وخلفه الخليفة الظافر .

٩ — الظافر

(٥٤٤ — ٥٤٩ هـ = ١١٤٩ — ١١٥٤ م)

يتميز عهد الظافر باشتداد النزاع بين الوزراء ، كما يتجلى فى النزاع الذى دار بين الوزير ابن السلار ومنافسه ابن مصال . وقد طلب ابن السلار النجدة من نور الدين صاحب حلب ودمشق لينصره على منافسه ، وكان ذلك الالتماس من ناحية ذلك الوزير معناه السماح لنور الدين بالتدخل فى شئون مصر الداخلية . كما أدى طلب ابن السلار المساعدة من نور الدين إلى نتيجتين خطيرتين : أولاهما أن مصر ظهرت بمظهر الضعف وعدم القدرة على صد هجمات الصليبيين الذين كانوا قد بدءوا غاراتهم على الديار المصرية طامعين فى الاستيلاء عليها ، ففكر نور الدين بدوره فى الإغارة على مصر ، وثانيهما أن الصليبيين ونور الدين أصبحا على علم بأحوال مصر وبخاصة حالة النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين وحالة الحزبية والعنصرية فى الجيش . وكانت النتيجة أن وقف المتنافسان (الصليبيون ونور الدين) على غزو مصر ، لبعضهما بالمرصاد (٣) .

دارت رحى الحرب بين ابن مصال وابن السلار ، وانتهى الأمر بقتل ابن مصال

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٨٢ .
(٢) ابن ميسر ص ٤٨ .
(٣) حسن ابراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ص ٢٩٥ .

أولا ، وتبعه منافسه . وفرح الخليفة الظاهر بقتل ابن السلار فرحاً شديداً ، لأنه كان قد بدأ عهده بطرده من الوزارة وبتعيين ابن مصال ، ولكنه لم يصدع بأمر الخليفة ، وجمع أعوانه وحل محل منافسه فى الوزارة بالقوة . ومع أن ذلك كان أمراً عادياً فى ذلك الوقت ، إلا أن الظافر استاء من عمل ابن السلار . وسر الخليفة لما بلغه نبأ مقتل الوزير ، حتى إنه لما سمع بذلك نفح قاتله نصر بن عباس بن أبى الفتوح عشرين ألف دينار .

وكان عباس والد نصر يتقلد الوزارة بعد مقتل ابن السلار ، فتآمر مع ابنه نصر على قتل الظافر . وللوصول إلى ذلك ، ذهب عباس إلى قصر الخليفة ، ومعه ألف سياف متظاهرين بالاستفسار عنه ، ولما تم له قتل الظافر سنة ٥٤٩ ﻫ ، قتل إخوة الخليفة واتهمهم بالاشتراك فى قتل أخيهم . إلا أن حيلته لم تنجح وعرف القاتل الحقيق ، وأثار عمله أشد مظاهر الاستياء ، حتى ثارت مدينة القاهرة ، واضطر للهرب إلى الشام ، وقتله وهو فى طريقه إليها جماعة من الصليبيين أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فى إثره ، وقبض على ابنه نصر وأرسلوه إلى القاهرة ، فوضع فى قفص من حديد وطيف به فى المدينة ، بعد أن جدع أنفه وصلمت أذناه وصلب حياً على باب زويلة ، وترك معلقاً هناك عدة شهور ثم أحرقت جثته .

١٠ — الفائز

(٥٤٩ — ٥٥٥ ﻫ = ١١٥٤ — ١١٦٠ م)

ترك الخليفة المقتول طفلا فى الرابعة من عمره ، ودعى له بالخلافة ، وتلقب بالفائز . وفى عهده استنجد نساء القصر بالأمير طلائع بن رزيق والى الأشمونين ، لتخليصهن من حالة الفوضى السائدة وإصلاح أحوال البلاد ، فسار إلى القاهرة واستولى على دار الوزارة وتلقب بالملك الصالح . وكان قوى الشكيمة ، ومثالا للرجل الذى تحتاج إليه مصر فى تلك الحقبة المضطربة من تاريخها ، فتمكن من إعادة الأمن إلى نصابه ، وقتل القواد الذين كانوا يثيرون الفتن والدسائس ، ودبرت لطلائع فى عهد الفائز عدة مؤامرات لقتله ، فلم تنجح كلها ، وأخصها تلك التى دبرتها له عمتا الخليفة ، وتوفى الفائز سنة ٥٥٥ ﻫ ، وطلائع لا يزال فى الوزارة .

١١ — العاضد

(٥٥٥ — ٥٦٧ هـ = ١١٦٠ — ١١٧١ م)

وبموته انتقلت الخلافة إلى العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر ، فعمل الوزير طلائع على الحد من سلطانه ، ولكن العاضد نجح فى قتل طلائع سنة ٥٥٦ هـ ، وأحل محله فى الوزارة ابنه أبا شجاع العادل فظل فى الوزارة سنتين حتى خلعه شاور والى الصعيد سنة ٥٥٨ هـ واعتلى كرسى الوزارة ، ثم ظهر ضرغام أمير البرقية وهى فرقة من الجند المغاربة من برقة وخلع شاور ، فهرب هذا إلى الشام واستنجد بنور الدين ليعيده إلى منصبه ، وليقف بنفسه على حقيقة الأحوال فى مصر ، خصوصاً أنه اتصل به أنها فى اضطراب شديد ، وأن قوتها الحربية ضعيفة جداً ، وفى الوقت نفسه استنجد الوزير ضرغام بعمورى ملك بيت المقدس .

لبى كل من نور الدين وعمورى طلب شاور وضرغام : فأرسل نور الدين حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى وكان صغير السن ، وحضر الصليبيون إلى مصر بقيادة عمورى نفسه . وتتابعت حملات نور الدين وعمورى على مصر ، حتى بلغ عدد هذه الحملات ثلاثاً [١] ، وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين ، وانتصار حملة نور الدين ، والقضاء على الوزراء المتنافسين ، وتقلد الوزارة أسد الدين شيركوه الذى توفى بعد قليل ، فأسندت إلى صلاح الدين الأيوبى ، فحصر كل جهده فى تنفيذ سياسة نور الدين فى القضاء على سلطان الفاطميين .

سقوط الفاطميين :

عمل صلاح الدين منذ اعتلائه كرسى الوزارة على تثبيت مركزه فى مصر : فقتل شاوراً بعلم الخليفة الفاطمى ورضائه ، وتمكن بحسن سياسته من أن يكتسب ثقة الأهلين ، وأسند مهام الدولة إلى أنصاره ، وظل يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة حتى جعله سجين قصره . فأثار ذلك حنق أهل القصر وأتباع الخليفة وجنده من السودان ، ودبروا

---

(١) أنظر علاقة الفاطميين بالصليبيين ونور الدين ، فى باب العلاقات الخارجية .

مؤامرة للقضاء عليه . ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وقبض على زعيمها مؤتمن الخلافة نجاح وقتله ، وأحل محله فى البلاط الفاطمى بهاء الدين قراقوش ، وقتل كثيراً من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفاً للثأر لزعيمهم نجاح وللانتقام مما حدث ، فاشتبكوا مع جند صلاح الدين فى المكان المعروف باسم « بين القصرين » ، وأحرق فى هذه الواقعة كثير من الدور والشوارع ، وحلت الهزيمة بالسودانيين فى النهاية ، وفروا إلى الجيزة ومنها إلى الصعيد واستمروا فى ثورتهم إلى أن قضى عليهم نهائياً (فى سنة ٥٧٢ هـ)(١). ولولا قضاء صلاح الدين على تلك المؤامرة لفشلت محاولته إقامة دولة أيوبية ، على غرار ما فعله أحمد بن طولون .

بذلك توطدت سلطة صلاح الدين فى مصر ، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقرباءه ، فلبى طلبه ، وفى ذلك دليل على أن صلاح الدين اعتزم منذ حضر إلى مصر أن يقيم ملكا لنفسه ولأسرته من بعده فيها .

وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى دمياط أن تعلق به المصريون على اختلاف نحلهم شيعيين وسنيين ، ووثقت به الخلافة العباسية ، واستطاع أن يسند المناصب الدينية فى مصر إلى الفقهاء المتضلعين فى المذهب السنى ، وأن يقضى على العناصر التى لم يثق بها فى جيشه ، وانضم لصلاح الدين معظم رجالات الدولة .

أصبح الخليفة الفاطمى مسلوب السلطة ، ضعيف الجانب ، وفى ذلك الوقت رغب نور الدين وهو من غلاة السنة ، فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى ، وهو عمل معناه إزالة الدولة الفاطمية . وعلم صلاح الدين برغبة سيده نور الدين ، ولكنه تردد فى تنفيذ هذه الرغبة ، لأنه خاف أن يثير هذا العمل أهالى مصر(٢) . ولما صمم نور الدين على طلبه عقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء ، واستشارهم فى ذلك ، فوافقه بعضهم ووعدوا بتأييده ، وراعى الآخرون خطورة هذا العمل . وكان فى ذلك المجلس رجل فارسى يدعى « الأمير » تعهد بأن يقوم بهذه المهمة ، وصعد فى يوم الجمعة إلى المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة العباسى

---

(١) ابن شداد ص ٥٢ ، وابن الأثير جـ ١١ ص ١٣٩ — ١٤٠ .
(٢) ابن الأثير جـ ١١ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

المستضىء ، فلم يحتج أحد على ذلك ، وأمر صلاح الدين فى يوم الجمعة التاليـة بإقامة الخطبة للخليفة العباسى (١).

تم ذلك التغيير من غير أن يلق مقاومة ، ودون أن يعلم الخليفة العاضد بذلك ، إذ كان مريضاً ، ورأى أعضـاء أسرته أنه إن عوفى فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن يفجعوه بهذه الحادثة قبل موته ، وتوفى العاضد فى ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ ، وقبل أن يتصل به أمر الحادث . وجلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر وما فيه من كنوز وطرائف ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه فى جناح منه .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر عصراً طويلا امتد من سنة ٣٥٨ هـ إلى ٥٦٧ هـ ، وزالت عن الوجود تلك العظمة ، ولم يبق بعدها إلا ذكرى جميلة تعطينا فكرة عن ذلك العز الخالد والمجد التالد ، ولا شك أن زوال الخلافة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغـلاة ، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسى بعد أن قطعت فى مصر وفى سائر الولايات الفاطمية الأخرى أكثر من قرنين — يعد انتصاراً للسنة على الشيعة .

ويدلنا البحث فى عوامل سقوط الدولة الفاطمية ، على أن سقوطها يرجع إلى أن الخلفاء الفاطميين لما تركوا البساطة التى كانت تمتاز بها حياتهم الأولى أيام حكمهم فى المغرب (٢) ، انغمسوا فى حياة الترف والبذخ بقصورهم الجميلة فى القاهرة ، كما عهدوا فى إدارة دولتهم إلى مواليهم من البربر ، فـكان من أثر ذلك أن اغتصب الوزراء تدريجياً نفوذ الخلفاء حتى أصبحوا فى العصر الفاطمى الثـانى يلقبون بلقب ملك ، بينما سادتهم الخلفاء منزوون فى قصورهم ، وبعد أن كان نفوذ الفاطميين يشمل فى الشطر الأول من حكمهم شمالى إفريقية والشـام وجزيرة رودس ، وكانت أسماء خلفائهم تذكر فى الخطبة بالجوامع ما بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر ، وفى اليمن

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٩ .

(٢) يدل على ذلك ، خطبة المعز فى شيوخ كتامة قبيل رحيل جيشه إلى مصر ، إذ قال : « وإنى لا أشـتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا ما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ، فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم » . نص الخطبة ص ٦٠ ، ٦١ فى اتعاظ الحنفا .

والحجاز والموصل — رغم هذا بدأت قوة الفاطميين فى الانحلال ، بسبب تهاون كبار رجال الدولة فى اختيـار الخلفاء الأكفاء ومبايعة الأطفال بالخلافة ، ليسهل على الوزراء والحجاب الانفراد بالسلطة ، لذلك فإنه فى سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالى شمال إفريقية عقائد المذهب الشيعى نهائياً ، وانتهى الاعتراف بالخلافة الفاطميـة فى بلاد العرب سنة ٤٧٣هـ . وجاء العهد المظلم الذى أعقب وفاة اليازورى ، وهو عهد الشدة العظمى التى حدثت فى عهد المستنصر الفاطمى ، وجرفت فى طريقها جميع مظاهر الحضارة فى مصر . كذلك قامت الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين ، وإن كان تقلد بدر الجمالى للوزارة قد وضع حداً لمدة قصيرة لهذا الاستبداد العسكرى .

على أنه يظهر لنا أن السبب الأساسى فى القضاء على الخلافة الفاطمية ، يرجع غالبا إلى الحروب الصليبية ، فإن تلك الحروب قد عجلت بزوال دولتهم الفتية ، لأن اشتباك الفاطميين مع الصليبيين فى الشام وعدم قدرتهم على الوقوف أمامهم والحيلولة دون امتلاكهم لبيت المقدس ، قد أوقف نور الدين صاحب حلب ودمشق وأوقف الصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية فتوجهت أنظارهم لامتلاك هذه البلاد ، وأخذ كل منهم يعمل على امتلاكها ، وتم لنور الدين النصر فى هذا الميدان ، وبدأت طلائع الدوله الأيوبية فى الظهور منذ اعتلاء صلاح الدين كرسى الوزارة .

***

ومهما قيل فى الدولة الفاطمية ، فإن الباحث فى تاريخ هذه الدولة ، لا يسعه إلا أن يذكر ما أدته لمصر من جليل الخدمات ، وما خلفته من الآثار الباقية على الزمن تشهد لعصرها بالقوة والعظمة ولخلفائها الأول بالنفوذ والسلطان .

انتقل الفاطميون إلى مصر ، بعد أن توطد حكمهم فى شمال إفريقية ، وكان ذلك بفضل جوهر الصقلى ، ذلك الكاتب الكبير ، والقائد المحنك ، والسياسى الخطير الذى كان له من المواهب الفذة التى طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوداث .

نشر الفاطميون الدعوة الشيعية فى مصر وفيما استولوا عليه من الأقطار كالشام

والحجاز ، وبذلك تم لهم ما أرادوا من نشر دعوتهم فى المشرق كما نشروها فى المغرب واعترف بسلطان الفاطميين : شمال إفريقية ، ومصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وبسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر ، وعلى اليمن ، والموصل ، وبلاد ما وراء النهر ، ومكة ، والمدينة ، بل وخطب لهم على منابر بغداد حاضرة العباسيين .

وكان عهد الفاطميين فى مصر عهد إصلاح شامل : فقد بنوا مدينة القاهرة ، ونشطوا فى بناء المساجد وخاصة الجامع الأزهر لنشر الدعوة الفاطمية ، كما أسسوا دور الكتب لتشجيع البحوث فى العقائد الإسماعيلية ، وأسسوا مجمعاً علمياً . وفاقت القاهرة فى عصرهم بغداد وقرطبة فى النهضة العلمية ، فقد شجع الخلفاء الشعراء والأدباء بالهبات والأعطيات ، طمعاً فى اجتذابهم إلى جانبهم ليشيدوا بذكرهم ويرفعوا من قدرهم ويذكروا فضل أسرتهم على مصر ويبثوا عقائد الفاطميين فى نفوس الأهلين دون ضجر أو إكراه .

على أنه حين أصبحت الدولة الفاطمية على وشك الانهيار ، عاد أهل مصر وأهل البلاد التى فتحوها إلى المذهب السنى ، وفشلت بذلك المجهودات الهائلة التى بذلها الفاطميون فى سبيل نشر دعوتهم وإقامة دولتهم فى المشرق ، ولم تعد تلك الدولة إلى مقرها الأصلى فى المغرب كما كانت قبل فتح مصر ، لأن نفوذ الفاطميين كان قد زال نهائياً من المغرب حين بدأت دولتهم فى الانحلال فى المشرق ، وقامت على إثرها الدولة الأيوبية التى حيت المذهب السنى فى مصر من جديد .

الباب الثالث

الأيوبيون والمماليك

مصر دار سلطنة (1)

أولا — الدولة الأيوبية

٥٦٧ — ٦٤٨ هـ = ١١٧١ — ١٢٥٠ م

سلاطين الأيوبيين :

عدد	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
١	٥٦٧	الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٧١
٢	٥٨٩	العزيز عماد الدين عثمان	١١٩٢
٣	٥٩٥	المنصور ناصر الدين محمد على	١١٩٨
٤	٥٩٦	العادل سيف الدين أبو بكر	١٢٠٠
٥	٦١٥	الكامل ناصر الدين محمد	١٢١٨
٦	٦٣٥	العادل الثانى	١٢٣٨
٧	٦٣٧	الصالح نجم الدين أيوب	١٢٤٠
٨	٦٤٧	المعظم توران شاه	١٢٤٩
٩	٦٤٨	عصمة الدين أم خليل شجرة الدر	١٢٥٠

(1) يلاحظ أن مصر أصبحت دار سلطنة ، بعد أن حصل صلاح الدين الأيوبى على لقب « سلطان » من الخليفة العباسى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) .

أصل الايوبيين :

يرجع أصل الأيوبيين إلى نجم الدين أيوب ، الكردى الأصل . كان أبوه يدعى شادى من قبيلة الهذبانية ، إحدى القبائل التى استقرت ببلدة دوين فى أطراف أرمينية .

اتصل «شادى» أبو نجم الدين أيوب بشخص يسمى بهروز ، وساعد الحظ بهروز فوصل إلى وظيفة كانت تعد من وظائف الدولة الهامة ، هى وظيفة حاكم بغداد سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) تحت سلطة السلاجقة بعد أن كان مربياً لأبناء مسعود السلطان السلجوقى ، وكان لبهروز لدى السلطان السلجوقى مكانة سامية ، حتى أقطعه قلعة تكريت ، وتقديرا لعامل الصداقة الوطيدة القائمة بين بهروز وشادى ، أسند بهروز حراسة قلعة تكريت إلى نجم الدين أيوب بن شادى وقيل إنها أسندت لشادى نفسه ، وآلت بعد وفاته إلى ابنه نجم الدين (١) . وسواء أكانت حراسة هذه القلعة فى يد شادى أو ابنه نجم الدين ، فإن ذلك يبين لنا أن العلاقات بين بهروز وشادى كانت قوية .

قضى نجم الدين أيوب فى حكم تكريت عدة سنين ، اكتسب فى خلالها خبرة بشئون الإدارة ، وتمتع بمحبة الأهالى ، ولكن سرعان ما توترت العلاقات بين نجم الدين وبهروز على أثر حادث اشترك فيه نجم الدين بمحض إرادته وحريته . ذلك أن عماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى كان قد عزم على توسيع أملاكه هاجم بغداد سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) خارجا على الخليفة العباسى والسلطان السجوقى .

غير أن الهزيمة لحقت بزنكى ، وكاد يقضى عليه لولا أن نجم الدين أيوب سهل له سبيل العودة ، فعبر نهر دجلة إلى تكريت ، حيث بقى بها خمسة عشر يوما حتى ضمدت جراحه ثم عاد إلى الموصل ، فنشأت منذ ذلك الحين علاقات ودية بين أيوب وأخيه شيركوه من جهة وبين زنكى من جهة أخرى . وفى الوقت الذى توطدت فيه العلاقات بين أسرتى أيوب وزنكى ، اشتد العداء بين أيوب وبهروز الذى ظل يتحين الفرصة المناسبة لطرد أيوب من تكريت ، حتى انتهى الأمر بأن تمكن بهروز من إخراج أيوب من تكريت ، وقابل الأهالى خروج أيوب بحزن عميق ، مما يدل

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٥ .

على مكانته السامية فى قلوبهم [١] ، على أن أيوبا رحب بخروجه من تلك القلعة ، إذ كان قد عزم على المغامرة فى حوادث الشرق الأدنى ، وعلى ربط مستقبله بشخصية عظيمة هى شخصية عماد الدين زنكى ، الذى كان إذ ذاك قد عظمت مكانته وأصبح نداً للسلطان السلجوقى [٢] .

رحلت أسرة أيوب عن تكريت سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨م) ميممة شطر الموصل ، فرحب زنكى بقدمها وأكرم وفادتها ، وقدر مواهب رجالها . فأسند حكم بعلبك بعد فتحها سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) إلى أيوب [٣] ، وقلد شيركوه قيادة الجيش . ويظهر لنا أن زنكيا كان موفقاً فى استخدام هذين الأخوين العظيمين ، فقد كان أيوب حاكما مستنيراً محبوبا من رعيته ، عادلا فى أحكامه ، كما اتصف شيركوه بالشجاعة والإقدام والمغامرة وحب القتال [٤] .

وفى ليلة رحيل نجم الدين أيوب من تكريت سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨م) ولد له ولد أسماه «يوسف» ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم صلاح الدين . نشأ يوسف فى بلاط زنكى بالموصل ، وقضى طفولته فى ظل والده أيوب فى بعلبك ، وأخذ عنه براعته فى السياسة وشجاعته فى الحروب . فلا غرو إذا شب صلاح الدين متشبعاً بالدهاء السياسى والروح الحربية . وتعلم صلاح الدين يوسف علوم عصره ، وتثقف بثقافة أهل زمانه فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث .

وبعد مقتل عماد الدين زنكى ، رحل صلاح الدين يوسف مع والده إلى دمشق ، ثم دخل فى خدمة نور الدين سلطان حلب أخى عماد الدين زنكى ، فاستعان نور الدين بشيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف فى تحقيق أغراضه فى مصر ، وتمكن بمعونتهما من ضم مصر إلى أملاكه .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١ ص ٢٧ .
(٢) ابن الأثير : الدولة الأتابكية ٢١٤ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٧ . المقريزى : السلوك ج ٦ ص ٤٢.
(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٣٠ .

قيام الدولة الأيوبية

١ — صلاح الدين الأيوبى

(٥٦٧ — ٥٨٩ هـ = ١١٧١ — ١١٩٣ م)

قامت الدولة الأيوبية فى مصر : نتيجة التنافس بين شاور وضرغام فى الوزارة فى أواخر العهد الفاطمى ، واستنجاد كل من المتنافسين بأعداء الدولة الفاطمية الطامعين فى أملاك مصر . فقد استنجد شاور بنور الدين سلطان حلب ، وضرغام بعمورى ملك بيت المقدس ، وانتهز كل منهما تلك الفرصة وأرسل الجيوش لتحقيق مطامعه فى الاستيلاء على مصر بحجه الدفاع عمن استنجد به .

أرسل نور الدين حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، وانتهت الحملات النورية على مصر بانتصار نور الدين على الصليبيين فى مصر . وبمقتل شاور وزير العاضد ، اعتلى أسد الدين شيركوه كرسى الوزارة ، ولكنه توفى بعد قليل ، فأصبح صلاح الدين وزيرا فى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) وهو فى الثانية والثلاثين من عمره . ومنذ ذلك التاريخ أخذ يوطد مركزه فى مصر ، ويعمل على تأسيس دولة تحل محل الدولة الفاطمية المنحلة، وبوفاة الخليفة العاضد الفاطمى تم لصلاح الدين ما أراد .

العقبات التى اعترضت صلاح الدين :

لم تستقر الأمور تماماً لصلاح الدين منذ أن وصل إلى منصب الوزارة ، بل اعترضته عدة صعاب ، كان لابد له من تذليلها والتغلب عليها ، كى يحقق ما كانت تصبو إليه نفسه من إقامة دولة جديدة يكون هو مؤسسها وأول سلطان لها ، وله فيما كان يحدث فى أوروبا فى القرن الثانى عشر الميلادى وفى الشرق الأدنى حوالى ذلك الوقت من ظهور دول جديدة ، أبلغ مثل وأكبر حافز .

وكان وجود صلاح الدين فى مصر نائبا عن نور الدين ، ومحاطا بالصليبيين

الطامعين فى امتلاكها ، ومناضلا بقايا الفاطميين وأنصارهم من مثيرى الفتن والقلاقل ضد حكمه ، مما رسم له طريق الكفاح فى سبيل تحقيق آماله .

كان صلاح الدين سنياً ، ووزيراً فى دولة شيعية ، عمل خلفاؤها على تأسيس دولتهم على دعائم شيعية . حضر إلى مصر فى مهمة مؤقتة ، كان من المفروض بعدها أن يعود إلى وطنه فى الشام ليواصل خدمة سيده نور الدين . ولكن استقر به المقام فى الديار المصرية ، وتولى أكبر منصب فيها ، ورغم أن صلاح الدين كان شاباً فى مقتبل العمر ، فقد كانت له الكلمة العليا فى إدارة شئون البلاد . ولما كان يعمل بين كهول أفنوا أعمارهم فى خدمة الفاطميين ، فلا عجب إذا أوغرت صدورهم واشتد عليه حقدهم ، وكثر حساده وأعداؤه ، واعتبروه دخيلا عليهم ومغتصبا لحقوقهم . ومن هنا نتبين مدى حرج موقفه الداخلى .

بدأ صلاح الدين حياته فى مصر موالياً لسيده نور الدين ، فحذف اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم نور الدين بعد اسم الخليفة العباسى ، وكان العاضد مريضاً ، ومات دون أن يعلم بذلك التغيير .

ذلك أنه فى أحد المساجد قام الخطيب فى ذلك اليوم فى صلاة الجمعة ، متبعاً الطريقة المأثورة عن السنيين : «فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عنهم جميعا ، ودعا لعمى النبى صلى الله عليهم وسلم حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن جميعهم ، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ،ورضى عن فاطمة الزهراء ، وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ » . ثم ألقى عظته بعبارات بليغة ،أثرت فى السامعين حتى لانت له أقسى القلوب وسالت من العيون الدموع الغزيرة ، وكان لابساً ثوب سواد — وهو شعار العباسيين — مرسوماً بذهب ، وعليه طيلسان شرب رقيق (يسميه الأسبان الأحرام) ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضاً ، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له ، فعند صعوده فى أول درجة ، قلده المؤذن المذكور السيف ، ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين — إشارة منه إلى التزام السكون — ثم فى الثانية ثم فى الثالثة ، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة « ثم أخذ يتلو الدعاء وهو واقف بين علمين أسودين عليهما علامات

بيضاء ، وقد ثبتا فى أعلى المنبر ، « ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر (لدين الله بن المستضىء) ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب » (١) .

هوى بذلك نجم الدولة الفاطمية ، وظل عرش مصر شاغراً ، حتى اعتلاه صلاح الدين بعد كفاح مع عناصر عدة . فقد كانت بقايا الفاطميين وأنصارهم أول مايتطلبه اهتمام صلاح الدين ، ذلك أنه بعد وفاة العاضد أبقى صلاح الدين أسرة الخليفة المتوفى فى القصر الفاطمى ولم يخرجهم منه (٢) ، ولم يقس فى معاملتهم ، بل مهد لهم سبيل الترف والنعيم ، حتى ينسيهم تراثهم المغتصب ويبعدهم عن سبيل الحكم . غير أن الطامعين فى العرش من أنصار الفاطميين لم يعدموا وسيلة يقلقون بها صفو صلاح الدين .

ومن هنا قامت الفتنة التى أحدثها الجند السودان بزعامة مؤتمن الخلافة نجاح ، ولكن صلاح الدين قضى على تلك الفتنة تماماً ، وقتل زعيمها وطرد الثوار إلى الوجه القبلى ، ومالبث أن أجلاهم عن الديار المصرية ، وغز السودان . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن فتحه للسودان كان بقصد اتخاذه ملجأ يحتمى فيه إذ ماغدر به سيده نور الدين ، وخاصة أن العلاقات بين الرجلين كانت قد ساءت فى ذلك الحين ، بسبب شك نور الدين فى أطماع صلاح الدين فى مصر والشام . ولكن الواقع أن غزوه السودان كان للقضاء على الطوائف الثائرة ، فإن مناخ بلاد السودان وحالتها العامة لم تكن تشجعه على الالتجاء إليها ، حتى إن صلاح الدين رأى أنها لا تستحق المجهود الذى بذل لأجلها (٣) .

على أن أعنف حركة قامت ضد صلاح الدين ، هى الحركة التى دعا إليها الشاعر

---

(١) ابن جبير (طبعة رايت) ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 93

(٣) راجع ما ذكر عن تلك الثورة فى : ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٥ .

المعروف عمارة اليمني ، الذى طالما مدح الفاطميين وأيامهم . فقد عمل عمارة على إعادة الحكم للدولة الفاطمية ، إذ اعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمي ، وبلغ من تحقير هذا الشاعر لشأن صلاح الدين أنه كان يطلق عليه لقب « المملوك الصغير » . واستطاع عمارة فى سبيل الوصول لأغراضه ، أن يضم إلى حركته كثيراً ممن جمع بينهم الحقد على الدولة الأيوبية ومن تأثرت مواردهم المالية نتيجة قيامها . فجمع حوله كثيراً من السودانيين ، وبعض التركمان الحاقدين ، وبعضا من قواد صلاح الدين الحاسدين له لوصوله إلى الوزارة ، بل أكثر من ذلك أن المتآمرين ضد صلاح الدين فاوضوا عمورى ملك بيت المقدس ، وراشد الدين سنان رئيس الإسماعيلية الحشيشية ، لإرسال حملات إلى مصر ضد الأيوبيين . وانضم كبار موظفى الدولة إلى حركة عمارة اليمنى : أمثال عبد الجبار بن إسماعيل داعى الدعاة ، وابن كامل قاضى القضاة ، وعبد الصمد الكاتب ، وجماعة من بنى رزيق من أسرة شاور ، والعوريس ناظر الديوان (١) .

ومما زاد فى خطورة هذه الحركة ، اتفاق عمارة اليمنى مع ملك صقلية النورماندى على مهاجمة الشواطىء المصرية ، فى الوقت الذى تقوم فيه الثورة ضد الأيوبيين فى القاهرة (٢) . فأرسل ملك صقلية أسطولا كبيراً مكوناً من ٢٨٢ قطعة فى سنة ٥٧٠ هـ (يولية ١١٧٤ م) وحاصر الأسكندرية بالمجانيق والدبابات لمدة ثلاثة أيام ، استبسلت فيها حامية الأسكندرية وقاومت بكل شجاعة ، ولكنها أوشكت على التسليم ، لولا أن صلاح الدين أعلن أنه سيمدها بالعتاد والذخيرة ، فأوجس الأعداء خيفة ورفعوا الحصار وهربوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة فى سفنهم . وكذلك لم يف ملك بيت المقدس بوعده فى إرسال حملته ، لما علم بمصير حملة ملك صقلية وبقضاء صلاح الدين على مدبرى المؤامرة .

ذلك أن أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى صلاح الدين عن طريق زين العابدين على بن نجا ، الذى ظل يشترك مع المتآمرين حتى عرف خططهم كاملة ، وعندئذ تمل

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٤ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٣

تفاصيلها إلى صلاح الدين (١) . وبذلك فشلت حركة عمارة اليمنى ، واستطاع صلاح الدين أن يقبض عليه وعلى باقى زعماء الحركة الذين ساعدوه فاعترف بعضهم، وبرروا عملهم هـذا بما نالهم من قطع أرزاقهم بإقصائهم عن مناصبهم ، فصلب صلاح الدين أكثر المتآمرين وقتل عمارة اليمنى فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ (ابريل ١١٧٤ م) ، ونفى بعضهم إلى الصعيد ، وقيل إنه لم يتعرض بسوء لجنده وقواده الذين خرجوا عليه ، وإنما تجاهل فعلتهم لعلهم يرتدعون عن غيهم .

أما الفتنة الداخلية الثالثة التى واجهها صلاح الدين، فقد قامت فى أسوان وقوص، وسببها أن كنز الدولة وهو مصرى من أبناء الصعيد ، نزح إلى أسوان (٢) بعد فتنة مؤتمن الخلافة نجاح ، واستطاع هناك أن يجمع حوله بقايا الجنود السودانية وغيرهم من أنصار الدولة الفاطمية . ولما أنس كنز الدولة من نفسه القـدرة على مناهضة صلاح الدين ، قام بحركته بقصد إعادة الخلافة الفاطمية ، فقتل بعض أمراء صلاح الدين فى تلك الجهات ، وفى الوقت نفسه خرج عباس بن شادى فى قرية طود ، واستولى على قوص . فأرسل صلاح الدين إلى هؤلاء الخارجين أخاه الملك العادل بجيش كبير ، وتمكن العادل من قتل كل من كنز الدولة وعباس بن شادى، وقضى بذلك على تلك الفتنة فى صفر سنة ٥٧٠ هـ (سبتمبر ١١٧٤ م) (٣) .

موقف صلاح الدين من نور الدين :

لم تـكن الفتن الداخلية هى العقبة الوحيدة التى واجهت صلاح الدين فى بداية حكمه ، فقد كان صلاح الدين أحـد قواد نور الدين ، ولما حكم مصر حكمها نيابة عنه ، وكان يذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد اسم الخليفة العباسى ، وكذلك ضربت السكة باسمه ، على أن تبعية صلاح الدين لنور الدين كانت إسمية ، وكان صلاح الدين هو حاكم مصر الفعلى ، وله جيشه وحاشيته ، كما كان متمتعا بحب رعيته .

---

(١) ابن واصل : مفرج الـكروب ص ٤٩.
(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٨ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة.

لذلك لم يستطع نورالدين ، رغم حسده له ، أن يتدخل فى شئونه ويحد من أطماعه . يضاف إلى ذلك أن موقف نور الدين كان حرجا أمام خصومه من السلاجقة والصليبين وأمراء الجزيرة، وكان يعتمد على مساعدات صلاح الدين له ضد أعدائه، فاضطر أن يتفادى قيام عداء بينهما . أما صلاح فقد قيل إنه تنكر لسيده نور الدين وأراد الاستقلال بمصر ، وقد شعر نور الدين بنوايا صلاح الدين وأطماعه ، وذلك عند ما دعا صلاح الدين أهله وعشيرته من الشام سنة ٥٦٨ ﻫ (مايو ١١٧٣ م) ، وكان ذلك بمثابة قطع كل صلة بينه وبين مملكة نور الدين . وقد وزع على أهله بعضا من كنوز الفاطميين وأسكنهم فى قصورهم ، رغم اكتفائه بالدار التى كان يشغلها عند ما كان وزيراً وتسمى « دار الوزارة » . وفى ذلك يقول أبو شامة « ... لما دخل فصل النيروز وزاد ، استأذن الأمير نجم الدين أيوب ، نور الدين فى قصده ولده صلاح الدين ، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده[١] ، وخيم بظاهر البلد . خاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونصب نورالدين على الكرك المجانيق »[٢] .
ومن قصيدة للشاعر عمارة اليمنى ، مدح بها صلاح الدين :

جاءته إخوته ووالده إلى ... مصر على التدريج والترتيب
فأسعد بأكرم قادم وبدولة ... قد ساعدتك رياحها بهبوب

ويستدل على نوايا صلاح الدين من محاولاته المتكررة ، ليتفادى مقابلة نور الدين عند حصن الكرك ، رغم ترتيباتهما المشتركة لغزو هذا الحصن والتلاقى فيه ، فقفل راجعا إلى مصر عند ما علم بمسير نور الدين إليه ، وفى مرة أخرى رجع إلى مصر ، واحتج بمرض والده أيوب[٣] . كما أن صلاح الدين لم يمد يد المساعدة لنور الدين فى حروبه مع الصليبيين ، بحجة أنه مشغول بقمع الثورات الداخلية فى مصر . ويعتقد بعض المؤرخين أن صلاح الدين ظل وفيا لسيده طول حياته ،

---

(١) لم يرد ذكر أسماء إخوة صلاح الدين
(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ص ١٨٣ .
(٣) ابن : الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٧١ .

بدليل عمله على استرضائه بالهدايا الكثيرة والتحف النفيسة التى آلت إليه بعد الفاطميين ، وذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة (١) ، ويؤيدون صلاح الدين فيما ذهب إليه ، بأنه كان مشتغلا بالفتن الداخلية فلم يتمكن من مساعدة نور الدين فى حروبه .

علاقة صلاح الدين بالملك اسماعيل بن نور الدين :

فى تلك الفترة الحرجة من حياة صلاح الدين ، توفى سيده وعدوه نور الدين فى شوال سنة ٥٦٩ ﻫ (١٥ مايو ١١٧٤ م) وهو متأهب لغزو مصر لإخراج صلاح الدين منها . وإلى ذلك الحين ، كان صلاح الدين قد نجح فى التغلب على العقبات التى صادفته منذ أن أصبح وزيراً : إذ أنه قضى على مؤتمن الخلافة نجاح ، وارتدت الحملة الصليبية إلى دمياط سنة ٥٦٤ ﻫ (١١٦٩ م) فى بداية عهده . وكان لهذا الارتداد أكبر الأثر فى ذيوع اسم صلاح الدين ، إذ جعل العالم الإسلامى ينظر إليه نظرته إلى بطل من أبطال الإسلام ، أمكنه الوقوف فى وجه الصليبيين ، كذلك نجح صلاح الدين فى فتح اليمن ، وفى القضاء على حركة عمارة اليمنى ، وحركة كنز الدولة .

وكان للأحداث التى أعقبت وفاة نور الدين ، أثرها فى جعل صلاح الدين ينقل جهوده من الميدان المصرى إلى الميدان الشامى . فقد حدث أن قامت المنافسة الشديدة بين أمراء نور الدين فى حلب ودمشق وبين رجال الجيش الزنكى بالموصل على من يعتلى عرش الدولة النورية الشاغر . وانتهت هذه المنافسة باعتلاء اسماعيل بن نور الدين عرش أبيه ، ولكنه وقع فريسة فى أيدى أمراء الدولة المنقسمين . وكان طفلا فى الحادية عشرة من عمره ، فضاعت بذلك قوة الدولة النورية وهيبتها ، وبدأت بها ظاهرة التجزؤ : فأصبحت الجزيرة والموصل تحت سيطرة سيف الدين غازى ، وانفرد شمس الدين بن الداية بحلب ، وشمس الدين بن المقدم بدمشق . وأدى تنافس هؤلاء الأمراء على السلطة والنفوذ ووقوع السلطان الصغير تحت سيطرتهم

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤ .

إلى ضعفهم ، حتى إن ابن المقدم لم يقو على قتال الفرنجة فعمل على استرضائهم بالمال ليتجنب شرهم (١) .

بعد وفاة نور الدين ، أحاط بالملك اسماعيل حزبان من الأمراء : حزب الحلبيين الذى يميل إلى بقاء اسماعيل فى حلب كما كان نور الدين فيها من قبل ، وحزب الدمشقيين الذى يريد نقل العاصمة إلى دمشق لإرجاعها إلى مجدها القديم الذى كانت عليه قبل اتخاذ نور الدين لمدينة حلب عاصمة للدولة . وبذلك تنازع هذان الحزبان : فاستنجد الحلبيون بالصليبيين لمساعدتهم ، واستعان الدمشقيون بصلاح الدين كى ينصرهم على منافسيهم .

ساعد ذلك الضعف الذى انتاب دولة نور الدين فى عهد اسماعيل وتنافس أمرائه فيما بينهم ، على تدخل صلاح الدين فى شئون بلاد الشام ، كى يحول دون وقوع تلك الدول الإسلامية غنيمة فى يد الصليبيين ، فتصبح مصر والشام وباقى الإمارات الإسلامية ، فى خطر عظيم .

وكان هدف صلاح الدين هو القضاء على خطر الصليبيين ، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو توحيد القوى الإسلامية كلها فى جبهة واحدة ، ليتمكن من حصر الصليبيين بين شقى الرحى ، بين المسلمين فى الجزيرة وشمال الشام من جهة ، وبين الأيوبيين فى مصر من جهة أخرى . لذلك فإنه حين استنجد به هؤلاء الأمراء المتنازعون ، لبى دعوة أمراء دمشق ، وسار إلى الشام ، على اعتبار أنه أكبر أمراء المسلمين وأجدرهم برعاية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، وتمكن صلاح الدين دون قتال من الاستيلاء على دمشق (١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ) ثم استولى على حمص وحماه .

حاول صلاح الدين أن يقنع الملك الصالح اسماعيل بإخلاصه ، فلم ينجح فى ذلك ، وحال الملك بينه وبين دخول حلب ، ولكن صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين إزاء ذلك العمل ، فإنه حاصر حلب ، إلا أن أهلها استبسلوا فى الدفاع عنها واستنجدوا بريموند صاحب طرابلس ، وبسيف الدين غازى صاحب الموصل ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ص ١٨٠ .

وبطائفة الإسماعيلية التى كاد أحد أفرادها أن يفتك بصلاح الدين لولا أنه نجا بأعجوبة . فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب ، واستولى على بعلبك كى يحمى جيشه من الخلف ، ثم عاد إلى حصار حلب من جديد ، وأعلن استقلاله وحذف اسم الملك الصالح اسماعيل من الخطبة واتصل بالخليفة العباسى وحصل منه على لقب « سلطان ».

صلاح الدين بعد حصوله على لقب سلطان:

هكذا أصبح لصلاح الدين حق شرعى فى حكم مصر ، ولم يعد يحكمها نيابة عن أسرة نور الدين ، وأحرز صلاح الدين بعض انتصارات استولى بها على منبج وإعزاز ، واشتد حصاره لحلب التى أصبحت معزولة عن كل المدن المجاورة ، وعند ذلك طلب الملك الصالح إسماعيل الصلح ، فقبل صلاح الدين ، واتفق الطرفان على تنفيذ شروط الصلح ، وتلك الشروط تدلنا على أن صلاح الدين لم يقصد إذلال أسرة نور الدين .

وابتسم الحظ ثانيا لصلاح الدين ، فتوفى أكبر منافس له ، وهو سيف الدين غازى صاحب الموصل فى سنة ٥٧٨ هـ ، كما توفى الملك الصالح اسماعيل . ولما كان اسماعيل طفلا لم يعقب وريثا للعرش ، فإن الانقسام والتنافس ظهرا ثانية بين أمراء الدولة النورية . فخرج صلاح الدين من القاهرة سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، وزحف على الشام ، فانضمت إليه بعض المدن دون قتال . وانتصر فى سنجار وآمد وتل خالد ، ثم استولى على حلب سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، ولم يمض وقت طويل حتى كان شمال الشام كله فى يد صلاح الدين . ولم يبق بعد كل تلك الانتصارات ، إلا مدينة الموصل ، وهى مدينة قوية تعادل حلب ودمشق فحاصرها صلاح الدين ، ثم تركها لانشغاله بإخضاع الأرمن ، ولكنه مالبث أن عاد إليها ، وحاصرها ، ومنع عنها الأقوات والإمدادات ، حتى طلبت الصلح ، وانتهى الأمر باعترافها بسيادة صلاح الدين الذى ترك عليها أميرها عماد الدين زنكى ، على

أن يكون تابعا له ، ويقيم الخطبة ، ويضرب السكة باسم صلاح الدين ، ويرسل له المساعدات الحربية وقت الحاجة إليها (١) .

هكذا خضعت كل الإمارات الإسلامية الشامية لصلاح الدين، واستطاع أن يجمع دولة نور الدين تحت سلطانه ، ويوحد كلمة المسلمين ، ومهد بذلك لنضاله المقبل ضد الصليبيين ، ذلك النضال الذى كرس له صلاح الدين حياته ومواهبه (٢) .

خرج صلاح الدين من القاهرة لآخر مرة سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) زاحفا على الشام ، لتوحيد شمل المسلمين ، وإعدادهم لقتال الصليبيين . وكان أغلب حياة صلاح الدين بطل الإسلام العظيم فى خارج مصر ، ذلك أنه لم يقض من مدة حكمه التى بلغت أربعة وعشرين سنة ، سوى ثمانى سنوات فى مصر ، لأن تبعيته لملك دمشق التى دامت خمس سنين لم تكن سوى تبعية إسمية . كما أن أعظم انتصاراته كانت فى سورية ، وبلاد الموصل ، وفلسطين . ولما غادر القاهرة فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢ م ، خرج رجال القصر لتوديعه ، وحين وقف الركب عند بركة الحبش وصدحت الموسيقى ، سمع صلاح الدين شاعرا ينشد شعرا تشاءم منه ووقع فى نفسه أنه لن يرى مصر بعد ذلك . وقد صح حدسه ، إذ لم تكتحل عينه بمرأى مصر بعدها (٣) .

دارت رحى الحرب بين الصليبيين وبين صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ . فغزا أرض الفراتين ، واستولى على دمشق التى كان قد ضمها إلى أملاكه بعد موت نور الدين ، وانتصر على الصليبيين فى موقعة حطين ، وكان ذلك فاتحة انتصارات باهرة للمسلمين ،فسلمت لصلاح الدين مدن طبرية ، وعكا ، ونابلس ، والرملة ، وقيسارية، وأرسوف ، ويافا ، وبيروت ، والأسكندرونة . ودخل فلسطين واستولى على عسقلان ، واسترد بيت المقدس التى كانت مقدسة بالنسبة إليه ، كما كانت بالنسبة إلى المسيحيين ، وأخضع الأرض المقدسة بأسرها ، وحارب فرسان أوروبا حول عكا

---

(١) Lane - Poole ·Egypt in the Middle Ag·s. p. 209 .

(٢) راجع العلاقات الخارجية فى عصر الأيوبيين فى الباب الرابع .

(٣) مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (شهر مارس سنة ١١٩٣ م) فى دمشق .

نحو سنتين ، ونازل آخر الأمر ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا نزالا جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى فى أوربا نفسها . وأخيرا أمضى معاهدة الصلح التى عقدت فى الرملة فى شهر سبتمبر سنة ١١٩٢ م ، وبه أصبحت جميع الأراضى فى أيدى المسلمين إذا استثنينا جزءاً ضيقاً من الساحل بين مدينتى صور ويافا . ودعا البابا العالم المسيحى أن يحمل السلاح لتخليص بيت المقدس ومملكة أورشليم . وقد استجاب لندائه : إمبراطور ألمانيا ، وملوك انجلترا ، وفرنسا ، وصقلية ، وليوبولد صاحب النمسا ، ودوقى برغندية ، وكونت الفلاندرز ، ومئات من مشاهير البارونات ، والفرسان من جميع الأقطار ، وانضموا إلى ملك بيت المقدس وأمراء فلسطين ، وفرسان المعبد والكنيسة . إلا أن الإمبراطور قد مات ، وعاد الملوك من حيث أتوا ، وقد تركوا أنبل جماعة من رعاياهم قتلى فى الأرض المقدسة . غير أن بيت المقدس بقيت فى يد صلاح الدين ، ولم يبق لملكها الإسمى إلا قطعة صغيرة من الأرض حول عكاء . لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحى فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكنها لم تستطع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه .

ولما انتهت حروب السنوات الخمس وخفت محنها ومصائبها ، لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التى تقع بين جبال كردستان ، وصحراء ليبيا . وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينية ، وسلطان قونية ، وإمبراطور القسطنطينية — وكلهم وراء الحدود — يتوددون إليه ويخطبون وده ، ويتوقون إلى محالفته (١) . وظل صلاح الدين يتفقد أحوال سوريا وفلسطين ، وزار بيت المقدس ، وذهب إلى دمشق حيث استقبل استقبالا حافلا وتغنى بمدحه الشعراء والأدباء .

تقدير صلاح الدين :

مرض صلاح الدين بعد كل تلك الجهود ، ولزم فراشه ، ومات فى سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس سنة ١١٩٣ م) ، وله من العمر ٥٥ سنة ، بعد أن أسر مواطنيه بجليل أعماله ، وقهر الصليبيين بقوته ، وخلص العالم الإسلامى من كوارث داخلية وخارجية كادت تودى به وبدولته وتوقعه فى أيدى الأعداء ، ويعتبر صلاح الدين من

(١) Lane - Poole : Saladin, pp. 360

الشخصيات العظيمة النادرة فى التاريخ الإسلامى ، فقد كان سياسيا ماهرا ، وقائدا محنكا ، نبيلا فى تصرفاته ، ميالا إلى الكرم والعفو ، محبا للعلم والأدب ، مخلصا مع أصدقائه وأعدائه ، وفيا بوعوده وعهوده ، فإنه لم ينقض اتفاقا أو صلحا عقده حتى حين كانت تسنح له الفرصة للتخلص من أعدائه ، لذلك فإنه لما توفى هذا البطل العظيم ساد الحزن أرجاء البلاد الإسلامية ، وبكاه شعبه المحزون عليه رجالا ونساء ، وتمنى الجميع لو افتدوه بأرواحهم .

ويتميز عصر صلاح الدين بتلك المنشآت الهائلة التى تمت فى عهده : فقد شيد قلعة الجبل ، وعهد ببنائها إلى وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان لها سور وأبراج وثلاثة أبواب . ولم يبن عاصمة جديدة ، أسوة بمن سبقوه ، بل ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة ، بعضها إلى بعض ، وأحاطها بسور عظيم ، وبذلك اتسعت مدينة القاهرة . وعنى ببناء المدارس : كمدارس الناصرية والقمحية والسنية ونهض بالحركة العلمية فى البلاد نهضة مباركة .

وإذا كان صلاح الدين من أبرز شخصيات العالم الإسلامى ، فإن عصره كان كذلك من أزهى العصور ، وحفل بكثير من الشخصيات التى كان لها من رجاحة الرأى ، وسداد الفكر ما ساعد صلاح الدين على إنجاز كثير من مهام الدولة . فكان والده نجم الدين أيوب أول مستشار له ، وأكبر عون ونصير ، ولكن الزمن لم يمهله طويلا ، فقد وافته منيته فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ ودفن فى مصر ، ثم نقلت جثته وجثة أخيه أسد الدين شيركوه إلى الحجاز (١) . وبوفاته انتهت حياة أولى شخصيات الأيوبيين والساعد الأيمن لصلاح الدين .

وبعد وفاة نجم الدين أيوب ، اعتمد صلاح الدين على أخيه العادل سيف الدين ، واسترشد بآراء القاضى الفاضل ، وكان من الشخصيات المقربة إليه ، فترك له حرية التصرف فى مكتبة القصر ، وكانت تحوى ١٢٠,٠٠٠ مخطوط (٢) ، وبهاء الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٧٦ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٧.
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ .

قراقوش الذى عهـد إليه بالإشراف على بناء قلعة الجبل ، وكان الأخيران من رجال الدولة الفاطمية ، ثم انضما إلى صلاح الدين ، وخدما الدولة الأيوبية الناشئة أجل الخدمات .

خلفاء صلاح الدين

(٥٨٩ — ٦٤٨هـ = ١١٩٣ — ١٢٥٠م)

بعد موت صلاح الدين ، انقسمت السلطنة الأيوبية بين أبنائه الثلاثة وأخيـه وبعض أقاربه . فاستقل ابنه العزيز بمصر ، وابنه الأفضل بدمشق وسوريا الوسطى ، وابنه الظاهر بحلب ، أما أخوه العـادل فحكم العراق وديار بكر والرها ، وتولى أبنـاء عمومته حماه وحمص وبعلبك واليمن ، واعتبر كل منهم مستقلا فى ولايته . وهكذا قضى بموت صلاح الدين على وحدة الدولة ، ودب الشقاق بين أبنـاء صلاح الدين بعضهم وبعض ، وبين عمهم العادل وأبناء عمومتهم ، مما أضعف الدولة وهد كيانها .

٢ — العزيز عماد الدين

٥٨٩ — ٥٩٥ هـ = ١١٩٣ — ١١٩٨ م

خلف صلاح الدين على عرش مصر ، الملك العزيز وهو أصغر أبنائه الثلاثة ، وكان شابا فى الحادية والعشرين من عمره ، وساعد على تبوئه هذا المنصب : أنه كان يحكم مصر نيابة عن أبيه أثناء حياته ، وأن أخاه الأكبر المعروف بالأفضل حاكم دمشق كان شابا مستهتراً منغمسا فى اللهو والشراب مما لا يجعله كفؤا لتبوأ العرش .

حدث نزاع بين العزيز وأخيه الأفضل ، فقد كانت مدينة القدس ضمن أملاك الأفضل ، ولما كانت تتطلب مجهوداً عظيما لدفع الصليبيين عنها ، فإنه كتب لأخيـه العزيز بالتنازل له عنها ، وسر العزيز لذلك وبعث جنده إلى القدس لتسلمها ، ولـكن بدا للأفضل ألا يسلمها له حسب اتفاقه معه ، فساءت العلاقات بين الأخوين وحبب

إليه رجال دولته محاربة أخيه الأفضل (١) . وقد مر ذلك النزاع فى ثلاث مراحل ، اشترك عمه العادل فى كل منها : مرتين إلى جانب الأفضل ، ومرة إلى جانب العزيز ، وطمع الملك العزيز بعد توليه عرش مصر فى حكم دمشق ، منتهزاً فرصة ضعف مركز أخيه فيها ، وجمع لذلك جيشاً زحف به عليها .

فى ذلك الوقت كان الملك العادل أخو صلاح الدين يرقب الحوادث ، كى تتاح له الفرصة فى النهاية للاستيلاء على العرش وإخضاع الدولة لسلطانه ، مع عمله فى نفس الوقت على أن تظل الدولة محتفظة بكيانها ولا تنحدر إلى طريق الانهيار . فذهب العادل إلى الشام ، لنصح العزيز بالإقلاع عن حصار دمشق ، حتى لا يوجد ثغرة ينفذ منها الطامعون فى مصر من أعداء الدولة الأيوبية ، وأخصهم الصليبيون ، وتدخل باقى الأمراء للفصل فى هـــذا الأمر ، وأقنعوا العزيز بصحة رأى عمه العادل ، فلم يجد العزيز بدا من قبول النصح ، واصطلح مع أخيه الأفضل ورجع إلى مصر وودعه الأفضل أحسن وداع (٢) .

شعر العزيز بعد ذلك بقوته وضعف أخيه ، أما الأفضل فإنه استمر فى لهوه واعتمد على بعض الرجال الذين ساءت سمعتهم وكرههم الشعب وخاصة الوزير محمد ابن الأثير ، لذلك أصبح موقف الأفضل فى دمشق فى غاية الحرج ، ولم يجد وسيلة للتخلص مما هو فيه سوى التحالف مع عمه العادل . ورحب العادل بذلك ، كى يضعف من سلطان العزيز ونفوذه ، واتفق الإثنان على خلع العزيز عن عرش مصر ، وسارا معا من الشام حتى وصلا إلى بلبيس ، ولما استعصت عليهما لسوء حال جيشهما تركاها وسارا إلى القاهرة ، إلا أن العزيز خرج واسترضى عمه العادل بأن استوزره (٣) . وبذلك تدخل العادل فى شئون الدولة بصفة فعلية ، وقبض على زمام الأمور ، بحجة منع الأفضل من الاستيلاء على القاهرة . وكان وصوله إلى الوزارة ، الخطوه الأولى فى سبيل وصوله إلى العرش وتحقيق أمنيته التى طالما عمل جاهدا لنيلها . على أن

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ١١٥ .
(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٩١

العادل مالبث أن حرض العزيز على أخذ دمشق من الأفضل ،وتم لهماأرادا وتولاها العزيز ، ولـكنه وهبها قبل موته للمعظم عيسى ابن الملك العادل (١) .

استمر العزيز على عرش مصر يساعده فى حكمها عمه العادل ، حتى توفى العزيز سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) ، وكان شجاعا رحيما كريماً ، ويتصف بالعفةوكرم الأخلاق.

٣ — المنصور ناصر الدين

٥٩٥ — ٥٩٦ هـ = ١١٩٨ — ١٢٠٠ م

خلف العزيز ابنه الملك المنصور وهو طفل فى التاسعة من عمره ، حكم مصر لمدة سنة وتسعة أشهر ، كانت عبارة عن نزاع بين عمه الأفضل وعم أبيه العادل ،لتنافس كل منهما على الوصول إلى العرش . وكان أبوه العزيز قد أوصى قبل وفاته بأن يتولى لوصاية عليه الوزير بهاء الدين قراقوش (٢) ، وقيل إن الوصى عليه كان أزكش مقدم الأسدية (٣) .

ومهما يكن اسم الوصى الذى أشار به أبوه ، فإن الأمراء اتفقوا على استدعاء عمه الأفضل للوصاية عليه حتى يبلغ سن الرشد ، إلا أن الصلاحيةوزعيمهم جهاركس كانوا ضد هذا الرأى وعملوا على مقاومته ، ولـكن الأفضل سار إلى مصر وحكمها واستبد بالأمر ، ولم يترك للمنصور من السلطة إلا إسمها ، منتهزاً فرصة انشغال عمه العادل فى العراق . ولما تأكد الأفضل من عدم رضاء عمه العادل عنه ، عزم على أن يقف منه موقف الهجوم بدلا من الدفاع ، فاتفق الأفضل مع أخيه الظاهر على أخذ دمشق من يد عمهما ، وحاصراها ولـكن محاولتهما فشلت ، ورجع كل من الأفضل والظاهر إلى دولته .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ١٤٦ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٤٦ .

سار العادل فى إثر الأفضل إلى مصر ، وتعقدت الحالة أمام الأفضل ، فقد كان الشعور قوياً ضده لكراهية رجال الدولة لوزيره محمد بن الأثير ولعجزه عن دفع أجور الجند حتى تألبوا عليه . ولكى يدافع عن مصر ، حاول حرق بلبيس حتى يسد الطرق أمام العادل ، الذى استمر فى الضغط على الأفضل فى مصر .

ولم يجد الأفضل بداً من عقد الصلح مع عمه ، واتفق على أن يأخذ العادل مصر ، فى مقابل أن يترك للأفضل ميافارقين وجبل جور وديار بكر . وبهذا صار العادل وصياً على المنصور ، وكان يخاف أن تتعقد الأمور فى يده ، فتنهار الدولة الأيوبية ويطمع فيها جيرانها ، كما كان يتوق للوصول إلى العرش واضعاً نصب عينيه : أن الملك ليس بالإرث ، فجمع مجلساً من الفقهاء قرر أنه يجب خضوع الصغير للكبير ، وأعلن خلع السلطان الصغير ، وتولية العادل سلطاناً على مصر .

وهكذا وصل العادل إلى العرش ، ووحد تحت إمرته كل إمبراطورية أخيه صلاح الدين تقريباً ، مع استثناء بلاد العرب وشمال سوريا (حلب ، حمص ، حماه) فقد نص على أن تحتفظ باستقلالها الذاتى ، واعترفت هذه الولاية بسيادته ، وساهمت فى حروبه ، وضربت السكة باسمه وخطب له على كل المنابر الإسلامية .

٤ — العادل سيف الدين

٥٩٦ — ٦١٥ هـ = ١٢٠٠ — ١٢١٨ م

كيف وصل إلى السلطنة :

كان العادل أعظم سلاطين الأيوبيين فى مصر بعد صلاح الدين ، فقد اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه صلاح الدين فى غزواته ومفاوضاته وإدارة أقاليم الدولة ، إذ وكل إليه معاونة ابنه العزيز فى حكم مصر عندما كان يحارب الصليبيين فى الشام ، كما عهد إليه بحكم حلب ثم العراق ، وذاع صيت العادل بين ملوك أوربا ، فكان صديقاً لريتشارد قلب الأسد ووسيطاً بينه وبين أخيه صلاح الدين أثناء محاولة الصليبيين الاستيلاء على مصر .

اشتهر العادل بالكفاية والدهاء والدراية بشئون الحكم ، ولكنه ـ بحكم وصية أخيه ـ كان بعيداً عن العرش ، ولما رأى ضعف سلالة أخيه وحاجة الدولة إلى سلطان قوى ، فضلا عن أن الوصول إلى السلطنة كان أمنيته التى ينشدها ، انتهز فرصة الشقاق الواقع بين أبناء صلاح الدين الثلاثة : العزيز والأفضل والظاهر للوصول إلى الحكم ، واشترك فى منازعاتهم وناصر أحدهم على الآخر ، ليمهد الطريق لنفسه ، دون أن يظهر بمظهر الطامع فى العرش ، بدليل أنه لم يخلع العزيز من السلطنة بعد وفاة أبيه صلاح الدين ، بل ظل يتحين الفرصة حتى سنحت له فاقتنصها . وكان ذلك ضرورياً لحفظ كيان الدولة الأيوبية التى بلغت من الانقسام درجة كان يخشى عليها من الانهيار .

وما أن تولى العادل زمام الحكم فى مصر ، حتى عزم على التخلص من المنصور السلطان المعزول ، فأخرجه هو وأسرته من مصر إلى الرها ، ولكنهم هربوا إلى حلب ، وظل المنصور فى رعاية عمه الظاهر أمير حلب حتى توفى[١] . إلا أن تصرف العادل إزاء المنصور سبب قيام طائفة الصلاحية ضده ، رغم أنهم ساعدوه من قبل أثناء نزاعه مع الأفضل .

الصعاب التى واجهت العادل :

١ — موقفه من أبناء صلاح الدين :

ومن الطبيعى أن يقف الأفضل والظاهر عما المنصور السلطان المعزول ، ضد العادل مغتصب السلطنة ، ولم تفلح الطرق الودية فى إرجاع التفاهم والتعاون بين الطرفين . وحاول الأفضل والظاهر الاستيلاء على دمشق ، ولكن العادل سبقهما إليها ومنعهما من أخذها ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الفريقين ، نص فيه على : أن يكون للعادل مصر ودمشق وجميع ما فى يده من البلاد ، ويكون للظاهر حلب ،

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ١٥٣ .

وللأفضل قلعة النجم وسروج وسميساط ، وأن تقام الخطبة للعادل[١] .

غير أن الأفضل انتهز فرصة قتال العادل مع الصليبيين وألب أعداءه ، لذلك انتزع منه العادل أملاكه عدا سميساط ، فقابل الأفضل عمل العادل بقطع الخطبة له ودعا للسلطان السلجوقى صاحب الروم . كان العادل دائماً شجى فى حلق الأفضل بن أخيه : فقد أصبح تحت يد العادل حران والرها وميافارقين ، وأخذ من الأفضل دمشق وقلعة النجم وسروج .

ولكن الظاهر حاول أن يوجد علاقات ودية بينه وبين عمه العادل ، فتزوج الظاهر صفية خاتون ابنة العادل ، وأنجب منها إبنا ، إلا أن هذا الزواج لم يفلح فى إيجاد الصفاء بين العم وابن أخيه ، وظل كل منهما يتحين الفرصة للايقاع بالآخر والتخلص منه . وقد حدث أن خرج الظاهر من حلب للحج ، ولكنه منع من أداء تلك الفريضة ، بحجة أنه أتى للاستيلاء على اليمن ، فقال . «قيدونى ، ودعونى أقض مناسك الحج » ،فرفض طلبه ، وتألم الناس لتلك المعاملة التى عومل بها الظاهر[٢] .

٢ — عداء الإسماعيلية والصلاحية :

لم يكن موقف العادل إزاء بعض شخصيات أسرة صلاح الدين ، وعداء هؤلاء له ، هو كل ما صادف العادل من العقبات ، فقد ظهرت أثناء سلطته بعض الطوائف المتمردة على حكمه ، وأهمها طائفتا الإسماعيلية ، والصلاحية .

كانت الإسماعيلية تعادى الأيوبيين منذ ظهور صلاح الدين فى مصر ، واشتركت فى الفتنة التى قام بها عمارة اليمنى ، بقصد خلع صلاح الدين ، ولا نعجب لقيام العداء بين طائفة الإسماعيلية وبين الأيوبيين . إذ كان الفاطميون من الشيعة الإسماعيلية ، وقد قبض العادل على تلك الطائفة سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م) ، وصادر أملاك زعمائها وسجنهم .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ١٧٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٥٩ .

أما الصلاحية ، فهم أنصار صلاح الدين ، الذين كرسوا جهودهم لخدمة أبنائه من بعده ، ولكنهم ساعدوا العادل قبل أن يتولى حكم مصر ضد الأفضل بن صلاح الدين بعد أن رأوا استهتاره وسوء خلقه أثناء توليته حكم دمشق ، على أنهم انقلبوا على العادل ، حين عزل سلطان مصر الشرعي الملك المنصور ، حفيد صلاح الدين ، وابن العزيز ، إذ كانوا يريدون أن يظل العادل وصيا على السلطان ، لا مغتصبا للملك ، واشترك الصلاحية مع الأفضل بن صلاح الدين ، فى زحفه على دمشق لأخذها من يد العادل ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، لاستبسال العادل فى الدفاع عنها ، غير أن العادل استراح من هذه الطائفة بموت زعمائها : الأمير جهاركس والأمير عز الدين أسامة والأمير تراجا ، والاستيلاء على حصونهم .

٣ — فشل أمام الصليبيين :

وواجه العادل عدة حملات صليبية ، زحفت على مصر خلال حكمه لها ، فقد خرج الصليبيون بأسطول كبير إلى مصر ، ولكن العادل اصطلح معهم سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) ، وعقد هدنة مع ملك بيت المقدس . وواجه كذلك حملة الأطفال التى زحفت على مصر ، ولو أنها لم تترك بالبلاد أى أثر سوى أنها ملأت البلاد بأسرى من الفتيات بيعوا كالرقيق . ثم أرسلت أوربا حملة صليبية هاجمت مصر بقيادة جان دى برين Jean de Brienne ، وصلت إلى دمياط وحاصرتها ، ورغم أنها كانت محصنة ويشرف عليها برج السلسلة ، فقد استولى عليها الصليبيون ، وسقط هذا البرج .

٤ — المجاعة تكتسح مصر :

ومما زاد فى حرج مركز العادل ، أن مصر اكتسحتها فى السنوات الأولى من حكمه مجاعة خطيرة ، كادت تكون صورة مماثلة للمجاعة التى حدثت فى عصر المستنصر بالله الفاطمى ، فقد انخفض فيها ماء النيل حتى لم تعد المياه كافية لزراعة الأراضى ،

مما سبب انتشار القحط ، وتفشى الأوبئة ، وسوء أحوال مصر الاقتصادية [١] ، وصحب هذه المجاعة زلزال حدث فى الصعيد ، هدم كثيراً من أبنية مصر ، ومات بسببه الكثيرون ، وامتد خطره للشام ، وهدم جهات عديدة فى نابلس وعكا وصور ودمشق ، وأهلك عدداً لا يحصى من السكان [٢] .

٥ — تقسيم ملكه بين أبنائه :

ورغم ما واجه العادل من الصعاب الداخلية والخارجية ، فقد اتسع ملكه إلى حد كبير ، ووصله تقليد رسمى من الخليفة العباسى فى بغداد بحكم مصر والشام وأرض الجزيرة ، وخلع الخليفة عليه الخلع الثمينة ، على أنه كان من الصعب على العادل أن يحكم هذه المملكة الواسعة ، فوزعها بين أولاده ، وكانوا تسعة عشر إبنا ، عينهم جميعاً ملوكا على أجزاء دولته ، نذكر منهم : الكامل الذى حكم مصر نيابة عن أبيه فى حياته مما مهد له سبيل الوصول إلى سلطنتها بعد مماته ، والمعظم عيسى الذى حكم الشام ، والأوحد نجم الدين أيوب الذى حكم ميارفاقين ونواحيها ، والأشرف مظفر الذى حكم الولايات الشرقية [٣] .

وهذه الطريقة التى اتبعها العادل ، فى حكم مملكته الواسعة بواسطة أبنائه ، ضمنت وحدة الدولة أثناء حياته ، ولكن كان لها خطرها بعد مماته ، شأن كل سلطان يترك إرثه موزعاً بين أبنائه ، فإن تقسم أملاك الدولة أوجد التنافر والتحاسد ، وأعاد من جديد المأساة التى حدثت بعد صلاح الدين .

تقدير العادل .

كان العادل حاكما عادلا ، ذكياً ، حليما حسن التدبير ، محباً للأدباء والعلماء مشجعاً لهم ، سياسياً محنكا ، نال إعجاب الصليبيين وصداقتهم ، قوى الجسم ، أكولا ، قام برحلات عديدة ، جاب بها أطراف امبراطوريته الشاسعة الأرجاء ،

---

(١) راجع الحالة الاقتصادية فى مصر فى عصر الأيوبيين ، فى الباب السابع .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٤ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ١٦٧

كى يضمن استتباب الأمن والنظام ، متفقداً أحوال أبنائه فى الاقاليم ، التى أنابهم عنه فى حكمها .

وحزن العادل حزنا شديداً على وقوع برج السلسلة المتصلة بدمياط فى أيدى الصليبيين ، فمرض ، ومات سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، وكتم أصحابه خبر موته ونقل إلى دمشق ، حيث استولى ابنه المعظم عيسى على أمواله ، وخلفه فى حكم مصر ابنه الكامل .

ومما يؤسف له أن ذلك الملك الشاسع الذى توحد تحت سيطرة العادل ، انقسم ثانية بعد وفاته بين أبنائه العديدين ، وساد الشقاق بينهم ، وحاول ابنه الكامل أن يوحد الدولة من جديد .

٥ — الكامل ناصر الدين

٦١٥ — ٦٣٥ هـ = ١٢١٨ — ١٢٣٧ م

حكم الكامل مصر نيابة عن أبيه العادل ، فلما مات أبوه استقل بحكمها ، دون معارضة تذكر . وحياة الكامل السياسية هى كفاح عنيف ضد الصليبين ، وضد إخوته : الفائز ، والأشرف ، والمعظم عيسى ، وابنه الناصر . واستطاع الكامل أن يخرج من هذا الكفاح منتصراً محتفظا بقوته ، رغم أن بداية حكمه لم تكن تبشر له بالنجاح فى هذا السبيل ، وعمل من جهة أخرى على توسيع ملكه ، مما كلفه كثيرا من الجهد والمال .

تولى الكامل العرش فى ظروف حرجة ، إذ كان الصليبيون منتصرين فى دمياط ، ذلك الانتصار الذى أدى إلى موت أبيه كمدا . وفى الوقت الذى تصدى فيه الكامل لمقاومة خطر الصليبيين قام ضده عدد كبير من أمراء مصر ، بزعامة عماد الدين أحمد بن المشطوب بقصد عزله من السلطنة ، وتولية أخيه الفائز مكانه ، مما أدى إلى انسحاب السلطان الكامل إلى أشموم طناح (١) ، وبذلك تمكن الصليبيون وسط ذلك الاضطراب الداخلى من أخذ دمياط .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٦ .

وكان من المتوقع أن تطيح الفتنة بسلطة الكامل وحياته ، لولا أن أخاه المعظم عيسى تدخل فى صالحه ، وخلصه من ابن المشطوب ، وأرسل الفائز إلى الشام بحجة جلب الأمداد اللازمة لإجلاء الصليبيين عن دمياط ، وساعده الحظ بموت الفائز ، واستطاع بعد موته أن ينتقم من زعماء الفتنة أنصار أخيه المتوفى (١) .

بذلك صفا الجو للكامل ، فاستعاد نفوذه ، وثبت سلطانه، إلا أن صداقة المعظم لأخيه الكامل لم تدم ، ودب الخلاف بينهما ، لطمع المعظم فى ملك مصر ، فقطع المعظم الخطبة لأخيه ، ولكنه بعد أن اتخذ تلك الخطوة الجريئة وجد أنه لايقوى بمفرده على أخيه الكامل ، فطلب مساعدة جلال الدين الخوارزمى ، فلبى طلبه وتحالفا معاً ضد السلطان الكامل ، على أن الحظ ابتسم ثانية للكامل ، فمات المعظم عيسى ، وفرح أخوه لموته وخلاصه من تلك المحنة .

وهنا نلاحظ ظاهرة طالما تكررت فى العصر الأيوبى ، وهى دوام تنازع الإخوة على سلطنة مصر ، على الرغم من حكمها لأقاليم تعد مستقلة استقلالا ذاتيا ، وذلك لأن مصر كانت تعد مركز الحضارة الإسلامية ومقر السلطنة ، ولذا اشتد تنافس أفراد الأسرة الأيوبية على من يلى سلطنة الديار المصرية ومن يتولى حكم إقليم من الأقاليم التابعة لها كالشام والعراق ، تلك الأقاليم التى يعدها السلطان الأيوبى مكملة لسلطته فى مصر ولا غنى له عنها وعلى الأخص فى كفاحه مع الصليبيين .

واستولى الكامل بمساعدة أخيه الأشرف على آمد وكيفا وبعض قلاع أخرى . وبوفاة الأشرف زحف الكامل على دمشق وضمها إلى أملاكه ، وبذلك أصبح تحت سيطرة الكامل ملك أخويه المعظم والأشرف ، وبعض قلاع اكتسبها من حروبه مع المغول ، واستولى على نابلس وبيت المقدس ، وأرسل ابنه الملك المسعود إلى اليمن فامتلكها ، واستولى على مكة وزبيد والحجاز . وهكذا اتسع ملكه حتى كان أئمة المساجد يدعون له على المنابر بقولهم : «سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها . ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ،

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ١٩٦ .

ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك الكامل » (١) .

ومن أبرز أعمال السلطان الكامل إتمامه فى سنة ٦٠٤ هـ قلعة الجبل ، الذى بدأ السلطان صلاح الدين فى بنائها وتوفى قبل أن يتمها ، وأصبحت تلك القلعة منذ عهد الكامل مقرا لدور الحكومة . كذلك أنشأ الكامل فى سنة ٦١٦ هـ مدينة جديدة على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، هى مدينة المنصورة . وبنى الكلية الكاملية ، التى سميت نسبة إليه .

ورث الكامل عن أبيه صفاته الطيبة : فكان قائداً قديراً ، وسياسياً بارعاً ، وإداريا نشيطا حازما ، يدير أمور دولته بنفسه حتى إنه عندماتوفى وزير أبيه لم يعين وزيراً بدله وقام بالأمر بمفرده . وكان محباً للحديث ، مشجعاً للعلماء والأدباء ، وكان هو نفسه عالما ينظم الشعر ويجيده ، كريما فى عطاياه وصداقته .

ولما كان الكامل فى دمشق ، أصابه برد شديد ، فدخل الحمام وصب على نفسه ماء ساخنا ، عملا بنصيحة الرازى فى كتابه « طب ساعة » ،فأصيب بالحمرة، وأصابته نزلة حادة لم يحتملها ، فمات . وهذا الحادث جعل الشعراء يسخرون من حمامات دمشق ، بأبيات فيها كثير من الزراية والتهكم (٢) ، وقد أخفى موت الكامل حتى استتب الأمر لابنه العادل ، واتفق الأمراء على تأييده ، فتولى عرش مصر ولقب « العادل الثانى » .

وبعد الكامل : أخذت دولة الأيوبيين فى الضعف ، وكانت وفاته بداية عهد الانحلال فى الدولة .

٦ ـــ العادل الثانى

٦٣٥ — ٦٣٧ هـ = ١٢٣٧ — ١٢٤٠م

يطلق على هذا السلطان « العادل الصغير » أو « العادل الثانى » ، تمييزا له عن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٣ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٧ .

الملك العادل أخى صلاح الدين . وكان العادل الثانى نائبا عن أبيه الكامل فى حكم مصر ، فلما مات أبوه أصبح سلطانا على مصر ، كما حدث حين اعتلى الكامل العرش بعد نيابته عن أبيه العادل الأول فى حكمها أثناء حياته ، رغم وجود أخوة أحق منه بحكم مصر لأنهم أكبر منه سنا . كذلك مهدت نيابة العادل عن أبيه فى حكم مصر أن يتخطى أخاه نجم الدين أيوب ويحكمها بعد وفاة أبيهما الكامل بالطريقة التى تولى بها كل من العزيز والكامل عرش مصر من قبل . على أن حكمه لم يستمر إلا سنة واحدة وشهرين ، كلها مليئة بالفتن والانقلابات التى انتهت بنزع العرش منه وقتله .

تعرض العادل فى بداية حكمه لمؤامرات دبرها بعض أمراء مصر ترمى لعزله وتولية الناصر ابن الملك المعظم مكانه ، ولكن هذه الحركة فشلت .

أما المنافس الأعظم للعادل الثانى ،فهو أخوه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فقد عزم هذا الملك على أن ينزع من العادل سلطته إذ كان يطمع فى ولاية العرش بعد وفاة أبيه الكامل واستاء من ولاية أخيه العادل على العرش ، رغم صغره عنه فى السن ، ورأى نجم الدين أن يمهد لذلك بالقضاء على الظاهر أخى الكامل ، فزحف بجيشه على دمشق واستولى عليها وعلى نابلس ، ثم أخذ أملاك الناصر كلها واضطره إلى الهرب ، فلجأ إلى مصر حيث أكرمه السلطان العادل الثانى . ولكن قبض بعد قليل على الصالح أيوب وسجن فى الكرك ، وعاد الملك الناصر إلى ملكه فى دمشق .

على أن الناصر صاحب دمشق لم يتفق مع العادل ، لأن العادل لم تكن له شخصية قوية يمكن الاعتماد عليها . ولكنه اتفق مع الصالح أيوب ، لذلك رفض الناصر أن يسلم العادل أخاه أيوبا المسجون فى مقابل مائة ألف دينار يدفعها له العادل ، وهكذا اتفق الناصر مع الصالح أيوب على أن يمكنه من تولى العرش ، مقابل أن يأخذ منه دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل . ويمكننا القول بأن الصالح أيوب قد اضطر إلى الاتفاق مع الناصر ، على اعتبار أنه الوسيلة الوحيدة إذ ذاك لحل الموقف والتخلص من الحبس .

أما العادل ، فكان موقفه فى مصر قد زاد ضعفا ، لسوء تدبيره وغلظته واستبداده ، فاتفق الأمراء ضده وقبضوا عليه ، وطلبوا من الصالح أيوب الإسراع إلى مصر ، لتولى الحكم ، فسار إليها ومعه الناصر ، وجلس على عرش مصر ، وقبض على أخيه العادل وسجنه فى القلعة ، ثم أمر بنفيه إلى الشوبك ، فلما رفض العادل الإذعان للأمر ، أمر الصالح بشنقه وعهد إلى ثلاثة من المماليك بتنفيذ أمره ، وأذاع أنه مات منتحرا(١) .

٧ ــ الصالح نجم الدين أيوب

٦٣٧ ــ ٦٤٧هـ = ١٢٤٠ ــ ١٢٤٩م

إن العرش الذى بذل الصالح أيوب فى سبيل الوصول إليه ، ذلك المجهود الكبير ، كان عرشاً مضطرباً مزعزع الأركان ، جلب لصاحبه الكثير من المشاكل والمتاعب .

كان أهم ما اعترض الصالح أيوب ، تمرد فرق الجيش الأيوبى عليه ، فقد تمردت عليه فرقة الأشرفيه ، فشتتها وسجن زعماءها وقتل كثيرين منهم ، ثم ضم إلى جانبه فرقة الخوارزمية التى طردها جنكيزخان إمبراطور المغول ، وقد استطاعت هذه الفرقة ، فى أول حكمه ، أن تساعده مساعدات جليلة ، ولكنها ما لبثت أن تألبت عليه بعد قليل . ووجد الصالح أيوب أن خير وسيلة لعلاج تلك الحالة هو تكوين جيش جديد ، فاشترى كثيرا من الأتراك المماليك وجعلهم خاصته وبطانته وقضى على غالبية أمرائه ، وعين الأتراك محلهم (٢) .

وكان هؤلاء المماليك من أشد الناس احتراماً للصالح أيوب ، وتقديراً لشخصه وبلغ من محبته لهم واعتماده عليهم أن تزوج السيدة شجرة الدر (٣) ، من المماليك

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١ .

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

(٣) لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ صاحب كتاب « مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب » أهمية خاصة فى دراسة العصر الأيوبى ، لأنه عاصر سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك ، وشاهد بنفسه شجرة الدر ، وأطلق عليها فى كتابه « شجر الدر » .

البحرية . وكان لتلك الزوجة التى تولت حكم مصر فيما بعد ، أبعد الأثر فى سير الحوادث فى أواخر عهد دولة بنى أيوب فى مصر ، وكان هؤلاء الجند المرتزقة ، هم نواة السلطنة المملوكية التى خلفت الأيوبيين فى حكم مصر .

وأهم ماشغل بال الصالح أيوب فى سلطنته هو علاقته بأمراء الولايات ، الذين كثيرا ما أثاروا الفتن فى وجهه ، مما عرض ملكهم للزوال . ولكن سلطان مصر مالبث أن انتصر على هؤلاء الأعداء جميعاً بمساعدة الخوارزمية الذين استولوا على حران وخربوها .

غير أن ابنه المغيث عمر وقع أسيراً فى يد الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك . وانتهى الأمر باتفاق الصالح أيوب مع الصالح إسماعيل ، على أن يطلق إسماعيل سراح المغيث بن الصالح أيوب فى مقابل أن يستولى اسماعيل على دمشق ويقيم الخطبة لسلطان مصر ، واتفق الإثنان على مقاومة الملك الناصر . على أن ذلك الصلح الذى أبرم بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل مالبث أن نقض . فقد ضبط الصالح اسماعيل خطابا أرسله الصالح أيوب سرا يوصى فيه الخوارزمية ضد الصالح إسماعيل ، معترفا بأنه لم يتفق معه إلا لكى يطلق سراح ابنه المغيث . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، أن الصالح اسماعيل لم ينفذ الصلح ، بل أرجع المغيث إلى معتقله وقطع الخطبة عن الصالح أيوب وعاد إلى تحالفه مع الملك الناصر .

ولو عرفنا أن الصالح أيوب كان يقاتل الصليبيين إذ ذاك ، تبينا كيف تفاقمت المشاكل أمامه . إلا أن المساعدة التى قدمتها له الفرقة الخوارزمية كان لها أكبر الأثر فى التغلب على تلك المشاكل التى أحاطت به ، وخاصة أنهم انتصروا على الصليبيين واستولوا على بيت المقدس ، وحاصروا دمشق حصاراً عنيفاً ثم استولوا عليها ، وعين عليها المعين وزير الصالح أيوب ، وأصبح موقف الصالح اسماعيل حرجاً ، حتى أنه طلب الصلح مع الصالح أيوب ، فرفض طلبه [١] .

أدركت الخوارزمية أن انتصارات الصالح أيوب فى كل حروبه ، وخاصة استرجاعه

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٤

بيت المقدس من أيدى الصليبيين قامت على أكتافهم ، فسيطر عليهم الغرور ، وبالغوا فى طلب المنح والأموال ، فلما لم يستطع السلطان إجابة كل طلباتهم ، تألبوا عليه وانضموا إلى أعدائه ، ولكن حالة الصالح أيوب تحسنت بانضمام صاحبى حلب وحمص إليه ، كما وصله بناء على طلبه تقليد رسمى من الخليفة العباسى بحكم مصر والشام واستطاع بمساعدة حلفائه الجدد أن يقضى على الخوارزمية .

وهكذا استقرت الأحوال للصالح أيوب ، وحل الوئام والسلام بينه وبين صاحبى حلب وحمص محل الشقاق والخصام ، واستطاع الصالح بعد ذلك أن يتفرغ للصليبيين (١). ومن أبرز الأعمال التى اقترنت باسمه ، تشييده فى سنة ٦٣٨ هـ قلعة الروضة ، التى بناها فى جنوبى جزيرة الروضة ، وانتقل إليها هو ومماليكه البحرية ،

كان الصالح أيوب من أعظم خلفاء صلاح الدين : فقد كان زاهداً ، عفيف اللسان ، طموحاً ، يقابل المصائب بجنان ثابت وحيلة واسعة ، له هيبة أبيه الكامل وشجاعته .

ونبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص ، كان لهم أكبر الأثر فى تغيير مجرى السياسة المصرية ، من أهمهم « شجرة الدر » ، وهى أرمنية وكانت أم ولد فى حريم الصالح نجم الدين أيوب ، بعثها الخليفة المستعصم بالله من بغداد إلى نجم الدين أيوب فى القاهرة ، فولدت له ابنه خليلا ، وكانت فى صحبته ببلاد المشرق فى حياة أبيه السلطان الكامل ، ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بحلب سنة ٦٣٧هـ . واشتهرت هذه السيدة بالذكاء ، والدهاء ، والجمال ، وتوطدت مكانتها بمولد ابنها خليل ، حتى لقد سميت « أم خليل » ، وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ولازمها طول حياتها . ولما اعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة الأيوبية فى مصر ، تبوأت شجرة الدر أسمى مكانة وصارت ملكة غير متوجة ، إذ رأى فيها السلطان أيوب ماحببها إليه ، فأعتقها ، ثم تزوجها .

مات الصالح أيوب ، والحرب دائرة بين المسلمين والصليبيين . وتجلى دهاؤها فى أنها أحكمت إخفاء خبر وفاته فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر : إذ أمرت

---

(١) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 235
سيأتى تفصيل ذلك عند كلامنا على العلاقات الخارجية .

بأن يتولى غسل جثمانه أحد أطبائه ووضع فى تابوت حمل فى جنح الظلام إلى قلعة الروضة ثم إلى قبره بجوار المدرسة الصالحية حيث دفن ، وكانت تقول للأمراء — بعد دفنه — «أن السلطان مريض لا يصل إليه أحد» ، كما كان السماط السلطانى يمد فى مواعيده ، والأوامر تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية .

كان نجم الدين من أعظم ملوك مصر وأشجع سلاطين آل أيوب . مات وهو على قتال الأفرنج أمام المنصورة فى ليلة النصف من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، ونقل جثمانه فى سفينة إلى جزيرة الروضة حيث وضع فى إحدى قاعات القلعة ذات الستين برجا والتى كانت قائمة مكان سراى المانسترلى الحالية وبقى بها إلى أن نقل فى يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ . ولما مرت جنازته بالأحياء أغلق التجار حوانيتهم وتعطلت الأسواق ثلاثة أيام ، ولبس رجال الدولة وقواد الجيش البياض من الثياب حزنا عليه وحلق مماليكه شعور رءوسهم حينما تقدموا لحمل تابوته . وساروا به على أكتافهم حتى وصلوا إلى المدرسة الصالحية التى كانت قائمة فى حى بين القصرين «شارع المعز لدين الله» ، ودفنوه فى القاعة التى كانت مخصصة لشيخ المالكية ، ولما دفن استمر العزاء ثلاثة أيام بلياليها فى مدرسته وبعثت زوجته شجرة الدر بالسناجق السلطانية ، وأمرت بأن تعلق فى داخل القاعة على الضريح ليرى الزائر آلات الجهاد التى كان يحملها آخر سلاطين بنى أيوب فى قتاله وكفاحه فى معركة المنصورة .

المعظم توران شاه

٦٤٧ — ٦٤٨ هـ = ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م

قبل أن يعرف خبر وفاة السلطان أيوب ، استدعت شجرة الدر «توران شاه» ابن زوجها ، وكان غائبا عن مصر فى حصن كيفا ، وأصدرت الأوامر إلى أكابر رجال الدولة ومقدمى الجند بأن يحلفوا له يمين السلطنة كما دعا له خطباء المساجد ، وقبل وصوله استمرت هى فى وضع الخطة الحربية والإشراف على تنفيذها ومراقبة سير المعركة ومد القواد بآرائها ، وبلغ من حماسها أنها كانت ترقب سير المعركة وتضافر الأهالى مع الجند فى التنكيل بالأعداء . وبعد وصول توران شاه إلى مصر تسلم قيادة الحرب وزمام الملك .

لم يزد حكم هذا السلطان عن شهرين ، تولى الملك فى وقت كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى المنصورة وأخـــذوا يتقدمون نحو القاهرة ، فلما حضر من كيفا ، أدار دفة الحرب ضد الصليبيين بمهارة فائقة ، حتى انتصر المسلمون ، فأحبوه وقدروه .

إلا أن هذه البداية الحسنة ، انقلبت إلى مأساة، بسبب طباع توران شاه الخشنة، فإنه احتجب عن الناس ، وأبعد كثيراً من رجال الدولة (١) . وتنكر لشجرة الدر زوجة أبيه ، ولم يذكر لها جميلها فى حفظ العرش له ، وكانت قد هربت خوفا منه إلى بيت المقدس ، فأرسل إليها يهددها ويطالبها بإرجاع ما حملته معها من مال وجواهر . واشتد كذلك فى معاملة المماليك البحرية ، ويقال إنه كان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بسيفه ، فيقطعها ويقول « كذا أفعل بالبحرية » (٢) .

اتفق الأمراء والمماليك وشجرة الدر على قتله ، وفشلت أول محاولة فى هـذا السبيل ، إذ أن الطعنة التى وجهت إليه تلقاها بيده ، وهرب ممن حاول قتله بعد أن عرف أنه من المماليك ، وأقسم ألا يبقى لهم بقية (٣) ، فخافوا منه ، وصمموا على القضاء عليه ، وبالفعل قتلوه ، وتركوه ملقى على جانب البحر دون دفن ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسى فدفن .

ويعتبر بعض المؤرخين أن توران شاه ، هو آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، على حين أن أغلب المؤرخين اتفقوا على اعتبار شجرة الدر السلطانة الأخيرة فى هذه الدولة .

٩ — عصمة الدين أم خليل شجرة الدر

٦٤٧ هـ = ١٢٥٠ م

عقب مقتل توران شاه ، نادى كبار رجال الدولة بشجرة الدر سلطانة على

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٥١ .
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ .
(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٥٩ .

مصر ، على أن يكون الأمير عز الدين أيبك مقدماً للعساكر ، واختارت الصاحب بهاء الدين المعروف بابن حنا وزيراً لها ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة مثل : « الملكة عصمة الدين شجرة الدر » و «الستر العالى والدة خليل » ، ودعى لها على المنابر بدعوات مبتكرة مثل : « اللهم أدم سلطانة الستر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدة الملك خليل » و « احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية (نسبة إلى الخليفة المستعصم) ، صاحبة الملك الصالح» . ونقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية : «المستعصمية الصالحية (نسبة للملك الصالح) ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل أم المؤمنين » .

وشهد عهد الصالح أيوب وتوران شاه وشجرة الدر ، الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا المعروف باسم القديس لويس ، واستطاع لويس أن يستولى على دمياط بسهولة ، ثم سار من دمياط إلى القاهرة ، ولكنه تمهل ستة أشهر حتى تصله الإمدادات ، ووصل إلى منطقة القاهرة ، واستولى عليها رغم دفاع المسلمين المجيد . وفى هذه الأثناء توفى السلطان أيوب وتولى سلطنة مصر توران شاه، فأدار دفة القتال بمهارة ونشاط ، وحصر الفرنسيين ومنع عنهم الإمدادات ، حتى طلب لويس الصلح وعرض تنازله عن دمياط مقابل أخذ بيت المقدس . ولكن توران شاه رفض ذلك وهزم لويس فى فارسكور هزيمة شائنة . وفى هذه الأثناء قتل توران شاه ، وتولت شجرة الدر زوجة أبيه أيوب سلطنة مصر ، فأقرت أن يدفع لويس الفدية ، فدفعها هو وأنصاره وأطلق سراحهم وأرجعت دمياط للمسلمين . وهنا يلاحظ أن هزيمة جان دى برين ولويس التاسع ترجع إلى جهلهما بجغرافية الديار المصرية .

حكمت شجرة الدر مصر بعد موت توران شاه مباشرة ، وبلغت مدة حكمها ثمانين يوماً ، أظهرت فيها جدارة وكفاية نادرة وحسن تدبير للأمور ، وكانت هذه الملكة على اتفاق تام مع أمراء المماليك ، فلا عجب إذا اتفق الأمراء — بعد مقتل توران شاه — على توليتها الملك ، تحت رعاية أيبك التركمانى ، وخطب لها على جميع منابر الدولة الإسلامية ، ويقال إن الخليفه العباسى لم يقبل أن تتولى حكم مصر امرأة ، فأرسل إلى زعماء المماليك يقول لهم : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا » (١) .

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٣٦٨ .

وحاول كثير من أمراء دمشق أن يبايعوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز الأيوبي ، وسلمت له دمشق فعلا ، ولكن تلك المحاولة انتهت بالفشل .

على أن شجرة الدر عندما وجدت أن بقاءها على عرش مصر ، يثير مشاكل كثيرة ضدها تزوجت عزالدين أيبك التركمانى وتنازلت له عن العرش، ولكنه كان ضعيفاً فى رأيه وشخصيته وسلطته، وقد حاول أن يتزوج غيرها ، فتآمرت عليه ودبرت قتله (١) ، وحاولت أن تزوج غيره وتقيمه على الملك ، فلم تلق تشجيعاً من أحد .

وهكذا أسدل الستار على الدولة الأيوبية ، بل إن حكم الأيوبيين انتهى منذ أن ولى عز الدين التركمانى عرش مصر .

* * *

انتهى حكم الدولة الأيوبية فى مصر ، بعد أن نالت تلك الدولة مكانة عظيمة فى تاريخ مصر والإسلام ، فقد بدأت عهدها بانقلاب خطير شمل ناحيتين ، إحداهما دينية والأخرى سياسية .

فمن الناحية الدينية : حولت مصر من مذهب الشيعة ، الذى عمل الفاطميون على نشره فى تلك البلاد ، إلى المذهب السنى الذى يعتنقه العباسيون .

ومن الناحية السياسية : حطم الأيوبيون دولة الفاطميين ، تلك الدولة التى كانت قد هرمت وضعفت من أثر النزاع والانقسام ، فأدى ذلك إلى تدخل الطامعين فيها من جيرانها ، مما أضعف مركزها وقلل من هيبتها وانتهى الأمر بزوالها وقيام دولة الأيوبيين الفتية مكانها ، ووطدت تلك الدولة دعائم ملكها وقضت على أعدائها .

كذلك اهتم سلاطين الأيوبيين بالإصلاحات الداخلية : فأقاموا المنشآت،ونهضوا بالتعليم ، ووقفوا حجر عثرة فى طريق الصليبيين وحالوا بينهم وبين أطماعهم فى الاستيلاء على سوريا ومصر ، كان ذلك النزاع من أهم ماتميز به عهد الدولة الأيوبية، وكان انتصارها فى هذا الميدان من أهم عوامل شهرة صلاح الدين وخلفائه ومن دواعى إعلاء مجد الإسلام .

ولكن على الرغم من نشاط الأيوبيين فى ميادين الحروب والإصلاح الداخلى ، فإن عهدهم تميز بكثرة حوادث النزاع على عرش السلطنة ، مما أدى فى النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٦ .

ثانيا — دولة المماليك

٦٤٨ — ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧م

١ — المماليك البحرية [١]

٦٤٨ — ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ — ١٣٨٢م

سلاطين دولة المماليك البحرية :

عدد	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
		١ - السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد	
١	٦٤٨	أيبك	١٢٥٠
٢	٦٥٥	على بن أيبك	١٢٥٧
٣	٦٥٧	قطز	١٢٥٩
٤	٦٥٨	بيبرس	١٢٦٠
٥	٦٧٦	بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
٦	٦٧٨	سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
٧	٦٧٩	قلاوون	١٢٧٩
٨	٦٨٩	خليل بن قلاوون	١٢٩٠

(١) للمؤلف كتاب دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، يقع فى ٤١٦ صفحة ، ويشمل تاريخ دولة المماليك البحرية السياسى ، وعلاقاتها الخارجية ، وأنظمتها الحكومية ، فعلى من يريد الاستزادة من تاريخ تلك الدولة الرجوع إليه .

عدد	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
		٢ — عصر الناصر محمد	
٩	٦٩٣	الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٢٩٢
١٠	٦٩٤	كتبغا	١٢٩٤
١١	٦٩٦	لاجين	١٢٩٦
	٦٩٨	محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٢٩٨
١٢	٧٠٨	بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨
	٧٠٩	محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	١٣٠٩
		٣ — أولاد الناصر محمد	
١٣	٧٤١	أبو بكر بن محمد	١٣٤٠
١٤	٧٤٢	كجك بن محمد	١٣٤١
١٥	٧٤٢	أحمد بن محمد	١٣٤٢
١٦	٧٤٣	اسماعيل بن محمد	١٣٤٢
١٧	٧٤٦	شعبان بن محمد	١٣٤٥
١٨	٧٤٧	حاجى بن محمد	١٣٤٦
١٩	٧٤٨	الناصر حسن بن محمد	١٣٤٧
٢٠	٧٥٢	صالح بن محمد (سلطنته الثانية)	١٣٥١
	٧٥٥	حسن بن محمد	١٣٥٤
		٤ — أحفاد الناصر	
٢١	٧٦٤	صلاح الدين بن حاجى بن محمد	١٣٦١
٢٢	٧٦٤	شعبان بن حسن بن محمد	١٣٦٣
٢٣	٧٧٨	شعبان بن حسين	١٣٧٦
٢٤	٧٨٣ — ٧٨٤	زين الدين حاجى	١٣٨١ - ١٣٨٢

أصل المماليك :

أخذ يبدأ استخدام المماليك، ولاة مصر الإسلامية من الطولونيين إلى الإخشيديين ثم الفاطميين ، ولما آلت السلطنة إلى الأيوبيين (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) نهجوا نفس تلك السبيل ، وأكثروا من شراء المماليك الترك ، وبنيت لهم الشكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » ، وسنحت لهم الفرصة بعد ذلك أن تولوا الحكم فى مصر .

وقد أنشأ السلطان قلاوون ، الذى يعد من أعظم سلاطين دولة المماليك ، فرقة جديدة من المماليك ، كونها من الأرمن والجركس وأطلق عليها اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج قلعة الجبل التى أقاموا بها ، وعرفت تلك الطائفة باسم «الشراكسة» أيضاً ، وبلغ عددها ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك .

وكانت الغالبية العظمى من جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم إلى مصر ، تأتى من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد ، فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية .

والمماليك عبارة عن طائفة من الأرقاء المشترين بالمال ، ثم كثر عددهم ، وحكموا قطراً غنيا كمصر ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر ، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم ، ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصرية .

وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى أحزاب متطاحنة ، ولكن هذا الانقسام الداخلى لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجى الذى كانوا يواجهونه كعصبة واحدة ، مما يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية إزاء عدوهم المشترك .

وكان باب الترقى فى حكومة المماليك مفتوحا على مصراعيه لكل مملوك يثبت كفايته فى العمل ، فيترقى من مملوك بسيط إلى أمير حتى يبلغ عرش السلطنة نفسه . ولم يكن السلطان إلا واحدا من أمراء المماليك قدموه على أنفسهم لقوة شخصيته ووفرة أنصاره وكثرة جنده وقدرته على التغلب على المنافسين من الطامعين فى العرش ، وبذلك كان مملوك اليوم هو سلطان المماليك فى الغد .

١ — السلطنة المملوكية إلى أن اعتلى بيبرس العرش :

٦٤٨ — ٦٥٨ هـ = ١٢٥٠ — ١٢٦٠ م

بعد أن زالت دولة بنى أيوب وانتقل حكم مصر إلى مماليكهم ، بانتخاب عز الدين أيبك التركمانى لعرش السلطنة (٦٤٨ - ٦٥٥هـ = ١٢٥٠ - ١٢٥٧م) ، نلاحظ أن الحالة لم تستقر تماما ، شأن كل دور من أدوار الانتقال فى مختلف عصور التاريخ البشرى .

على أن المماليك لم ينتخبوا من بينهم الأمير أيبك سلطانا، لأنه كان أقواهم فى إدارة شئون البلاد ، بل على العكس من ذلك دفعهم إلى هذا الاختيار كونه من أواسط الأمراء مكانة وليس من أعيانهم حتى إذا بدا لهم أن مصلحتهم تقتضى صرفه عن العرش استطاعوا ذلك فى يسر وسهولة ، لضعف شأنه وضآلة نفوذه (١) .

وقد اعترض أيبك فى عهد سلطنته عدة عقبات ، فإن الناس لم ينسوا بنى أيوب باعتلاء أيبك عرش السلطنة ، فقد ذكر لنا ابن إياس أن كثيرا من المماليك البحرية كانوا لايزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعى فى عرش البلاد ، فلم يرضوا عن سلطنة أيبك ولم يطمعوا فى أن يكون للمماليك حكم وادى النيل (٢) . لذلك وقع فى عهد سلطنة أيبك حادث نادر الوقوع فى تاريخ الأمم والشعوب ، وهو إقامة سلطانين معاً فى وقت واحد ، إذ اتفق بعض أمراء المماليك بزعامة الأمير فارس الدين أقطاى مع أيبك على إقامة سلطان آخر من بنى أيوب ، فاستدعوا الناصر صلاح الدين يوسف وبايعوه بالسلطنة ولقبوه الملك الأشرف ، وظل الناصر صلاح الدين شريكا فى السلطنة حتى قويت شوكة أيبك بانضمام عدد كبير من المماليك إليه . فانتهز فرصة ازدياد خطر التتار فى بلاد الشام وتهديدهم مصر سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) وقطع

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٠ .

إسم الأشرف شريكه فى السلطنة من الخطبة ، وسجنه فى قلعة الجبل(١) .

ولم يكد أيبك يتخلص من تلك العقبة حتى خرج الملك الناصر صاحب دمشق بجيوشه ووصل إلى الديار المصرية بقصد الاستيلاء عليها ، ولكن جيوش أيبك هزمته وأرغمته على العودة إلى الشام . كما أن عدداً كبيراً من الجند عزموا فى الشهور الأولى من حكمه على خلعه ، وإقامة الملك المغيث عمر أحد أبناء البيت السلجوقى مكانه فى السلطنة . وهنا نرى المعز أيبك يبتكر حيلة للتخلص من منافسيه ويستعين بالخلافة العباسية لتحقيق أغراضه ، ويأمر بأن ينادى فى القاهرة ومصر أن « البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز نائبه فيها »(٢) .

وقد أقلق بال أيبك أن الأمير فارس الدين أقطاى رئيس المماليك البحرية ، الذى ساعد على إقامة الناصر صلاح الدين فى السلطنة مع أيبك ، ظهر إذ ذاك على مسرح السياسة المصرية وأخذ يعمل على التقليل من شأن أيبك حتى إنه كان يعده من أتباعه ويسميه باسمه دون لقب السلطنة تكبراً منه ، كما كان يأنف من أن يتلقى أوامره من السلطان وإنما كان يقطع فى المسائل الهامة برأيه . ولما اشتد عسف أقطاى ومماليكه وتجرءوا على السلطان أيبك ، بعث فى طلبه وتظاهر أنه يريد استشارته فى مهام الدولة(٣) ، ولما وصل إلى قلعة الجبل فى شعبان سنة ٦٥٢ هـ أغلق بابها ومنع مماليكه من الدخول معه ثم أمر به فقتل . وعلى أثر ذلك فر أنصار أقطاى من الأمراء ، أمثال الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين قلاوون ، إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك والملك الناصر يوسف صاحب دمشق(٤) .

ولا يكاد عهد أيبك يخلو من المنازعات التى قامت بينه وبين كبار المماليك البحرية على السلطنة ، واستمر الحال فى منازعات بينه وبين كبار المماليك إلى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) ، حين ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجرة الدر ، فقد دب

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦٥ .
(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٧٠ .
(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٧٠ .
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

فى نفسها دبيب الغيرة والحقد، وطالما كدرت هذه الغيرة صفو عيشهما، إذ أرغمته على أن يطلق زوجته الأولى وأم ولده على. فسئم أيبك مثل هذه الحياة الزوجية، وأرسل إلى الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته، ويظهر أنه كان يرمى من وراء ذلك إلى التخلص من شجرة الدر. ولكن هذا التدبير لم يلبث أن انكشف أمره، وأدركت شجرة الدر ـ لخبرتها بدسائس القصر ـ أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها أيبك، فقد يعاجلها هو بالتخلص منها، وكان أيبك يتحرز منها ومن غلمانها أينما ذهب، حتى إنه وطد العزم آخر الأمر على إخراجها من القلعة وإسكانها فى دار الوزارة مبالغة فى الاطمئنان على نفسه، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق، يعد لهذا الأمر الخطير عدته.

فطنت شجرة الدر إلى ما يدبر لها، وتوجست من زوجها خيفة، فبعثت إليه فى باب اللوق تتلطف به وتلتمس منه الصفح عنها، ولم ير أيبك بأساً من أن يستجيب إلى دعوة زوجه، وقضى عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة. ولما غربت الشمس، غادر ميدان اللوق ودخل القصر، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة، وكانت قد أعدت خمسة من غلمانها الأشداء، ولما استراح أيبك ودخل الحمام انقضوا عليه وقتلوه.

وتعددت الروايات فى الطريقة التى قتل بها: فقيل إن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه حتى مات، وقيل إن القتلة لما انقضوا عليه أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه وأنها تأثرت بتضرعه وطلبت من الغلمان أن يتركوه ولكنهم لم يستمعوا إليها خوفاً على حياتهم إذا ما ظل على قيد الحياة.

ولكى تتقى شجرة الدر عواقب هذه الجريمة، أرسلت ليلا إلى القاضى ابن مرزوق واستشارته فى الأمر بعد أن أخبرته بموت السلطان، ولم يبد رأياً وأرسلت فى الوقت نفسه تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية كالأمير عزالدين أيبك الحلبى وجمال الدين العزيزى، فلم يقبلها أحد منهم رهبة وخوفاً، وبذلك أخفقت شجرة الدر فيما حاولته من إقامة أمير تستتر وراءه فى الحكم. وأذيع فى صباح اليوم التالى أن السلطان أيبك مات فى الليل فجأة، فلم يصدق أكثر الناس هذا النبأ، وراجت الإشاعات وكثرت الظنون، فركب المماليك إلى القلعة وحاصروها وقبضوا على الخدم والحريم، ونادى الأمراء المعزية بتولية المنصور على ابن السلطان أيبك.

بدأ على بن أيبك ، الذى لقب باسم « المنصور نور الدين » (٦٥٥ — ٦٥٧ هـ) عهده فى السلطنة بالانتقام لقتل أبيه ، فاعتقل شجرة الدر مع بعض جواريها فى البرج الأحمر ، واستولى المماليك المعزية على جميع ما فى القصر السلطانى واقتسموا جوارى شجرة الدر التى ظلت تعانى أشد ألوان الهلع والخوف ، وحاول المماليك الصالحية إنقاذها وحمايتها لأنها جارية أستاذهم فلم يستطيعوا . وفى يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ ، ذهب المماليك المعزية إلى البرج الأحمر وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم السلطان المنصور لكى تتولى قتلها بنفسها . فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سروال وقميص ، فبقيت فيه أياماً ثم حملت فى قفة ودفنت فى تربتها قرب مشهد السيدة نفيسة الذى لايزال إلى اليوم بقسم الخليفة فى القاهرة (١) .

هكذا ماتت شجرة الدر بعد أن ظلت سنين طويلة زينة البلاط وصاحبة النفوذ فى مصر . امتازت بمواهب قلما تجتمع فى امرأة : فإلى جانب جمالها ، كانت عالية النفس ، قوية العزيمة ، وافرة الحشمة ، ظلت منذ تولى سيدها وزوجها السلطان أيوب عرش مصر أبرز شخصية فى الدولة ، يعلو نفوذها كل نفوذ ويغلب رأيها على كل رأى . وكان لثاقب رأيها وثابت جنانها وحكيم توجيهها ، فى الوقت الذى غزا فيه الصليبيون مصر ، أبعد الأثر فى إنقاذ البلاد من كارثة مروعة محتومة . وقد قامت هذه المرأة العظيمة ، التى رفعها القدر إلى عرش مصر ، بدور هام فى حوادث انتقال السلطنة من أيدى الأيوبيين إلى أيدى أمراء المماليك .

* * *

وبعد إقامة على بن أيبك سلطاناً على مصر ، ولم يكن يتجاوز الحادية عشرة من العمر ، عين الأمير سيف الدين قطزا أتابكا له . وقد عمل قطز منذ تعيينه أتابكا للسلطان على ، على اغتصاب الملك منه وساعدته الظروف على ذلك باستيلاء هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المستعصم العباسى وتهديده مصر ، لذلك لم يجد صعوبة كبيرة فى القبض عليه واعتقاله بقلعة الجبل .

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤١٧ .

وقد واجه قطز منذ بدأ حكمه خطر تهديد التتر لمصر ، وخرج للقائهم فى أواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ وألحق بهم هزائم شائنة فى عين جالوت[١] وفى بيسان بفلسطين وقتل من التتر نحو النصف ، وخرج بعد ذلك من دمشق عائداً إلى مصر حتى وصل إلى القصير ، إحدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية ، حيث بقى مع بعض خواصه وأمرائه على حين رحل جنده إلى جهة الصالحية . واتفقت جماعة من المماليك بزعامة الأمير ركن الدين بيبرس على قتل السلطان أثناء عودته ، وتم لهم ما أرادوا وقتلوه فى ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ[٢] .

٢ — السلطنة المملوكية فى بيت بيبرس

٦٥٨ — ٦٧٩ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٧٩ م

وانتقل الملك بعد قطز إلى ركن الدين بيبرس وكان فى الصالحية ، فى ١٤ ذى الحجة سنة ٦٥٨ ، ووصل فى ١٩ ذى الحجة من السنة نفسها ومعه الأمراء إلى القلعة وتسلمها ، وفى اليوم التالى نودى فى القاهرة أن « ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك ركن الدين بيبرس » .

ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك ، إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام ، وقد أطنب المؤرخون فى مناقبه بسبب ما ابتدعه من النظم والقواعد التى قوت أسس دولة المماليك . فى عهده أقيمت الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ،

---

(١) تقع عين جالوت بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ، وقد حدثت تلك الموقعة فى ٢٦ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وتلك الموقعة لم تنقذ مصر من براثن المغول فحسب بل أنقذت العالم المتحضر كله ، إذ كانت أول هزيمة تحل بالمغول لأول مرة فى تاريخهم أيضا ، مما كان سببا فى زوال ذلك الاعتقاد الخاطىء بأن المغول قوم لا يقهرون .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٣٠٧ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ . راجع ، على إبراهيم حسن : « دراسات فى تاريخ المماليك » ص ٣٩ — ٤٥ ، حيث تجد تفصيلات لما ذكرناه عن « السلطنة المملوكية حتى ظهور بيبرس » .

وبإحيائها اكتسبت سلطنة بيبرس صفة شرعية بفضل التقليد الذى حصل عليه من الخليفة ، وأمن جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج .

ولكى ينفذ بيبرس ما اعتزمه من إحياء الخلافة العباسية ونقلها إلى القاهرة ، استقدم أحمد ابن الإمام الظاهر أحد رجال الدولة العباسية ، وكان قد نجا من المغول بعد سقوط بغداد ، واستقبله بيبرس عند وصوله بمظاهر التكريم والإجلال ، وركب الأمير العباسى وهو مرتد شعار العباسيين ومعه بيبرس إلى قلعة الجبل ، فلما وصلا إليها رفض بيبرس أن يتقدم الأمير فى الدخول ، أو أن يجلس معه على كرسى أو مرتبة (١) .

ثم عقد بيبرس مجلساً فى قاعة الأعمدة ، حضره العلماء والقضاة والأمراء وسائر عظماء الدولة ، لبحث نسب هذا الإمام ، فأقروا جميعاً بأنه الإمام أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصرلدين الله ، المتصل النسب بالعباس بن عبدالمطلب ، وقبل قاضى القضاة شهادتهم وحكم بصحة نسبه (٢) ، وبايعه هو والقضاة ولقبوه «المستنصر بالله» ، ثم بايعه بيبرس على « كتاب الله وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها فى مستحقها » (٣) . ثم أخذ له الظاهر البيعة من الناس على اختلاف طبقاتهم، ونقشت السكة فى مصر بإسميهما ، وأمر بالدعاء للخليفة قبل الدعاء فى خطبة الجمعة . ودعا بيبرس الخليفة ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فخطب الناس خطبة استهلها بقراءة سورة الأنعام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم، وترضى على الصحابة وذكر بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر ، فامتدح الناس خطبة الخليفة ، وزادت

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) أجمع المؤرخون على نسبة الخليفة المستنصر بالله إلى الخلفاء العباسيين . غير أن أبا الفداء لم يقطع بصحة هذا النسب حين ذكر أنه فى سنة ٦٥٩ هـ قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، زعموا أنه ابن الإمام الناصر . المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

عناية السلطان به (١). وفى ٤ شعبان سنة ٦٥٩هـ عقد اجتماع تلى فيه تفويض الخليفة العباسى للسلطان الظاهر بيبرس ، وذلك تقوية لعرشه على أعدائه من أمراء المماليك وإثباتاً لأحقيه المماليك عامة فى تولى شئون مصر . . وبعد أن فرغ الخليفة من قراءة التفويض ، المعبر عنه إذ ذاك بالتقليد ، أحضر للملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة وهى : جبة بنفسجية اللون ، وعمامة سوداء ، وطوق من ذهب ، وسيف . فلبسها وسار فى الموكب فى طريق مفروش بالبسط ، يمتد من باب النصر إلى القلعة ، وتقدم السلطان الموكب ، ثم تلاه الخليفة ، فالوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه ، وتبعهم سائر الناس مشاة (٢) .

عزم بيبرس بعد ذلك على إعادة الخلافة العباسية فى بغداد ، وتقليدها للخليفة المستنصر بالله ، فرحل مع الخليفة إلى دمشق ، وهناك فهم أن تأسيس خلافة قوية فى بغداد قد يكون خطراً على ملكه ، فعاد إلى مصر وترك الخليفة وحده . وحاول الخليفة بمساعدة بعض الفرسان الوصول إلى بغداد ، فلما علم التتار بقصده حاربوه ، وانتهى الأمر بقتله .

ولما علم بيبرس بمقتل المستنصر بالله العباسى حزن عليه ، ولكنه بعث فى طلب أمير عباسى آخر — جريا على سياسته فى استمرار بقاء الخلافة العباسية — فجاءه الأمير أبو العباس أحمد سنة ٦٦١ هـ . وتمت مظاهر استقباله وطريقة مبايعته وتحقيق نسبه ، على نحو ما اتبعه بيبرس مع الخليفة السابق ، ولقب « الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » .

وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر ، ولكن لم يكن هناك فى هذه المرة تفكير فى الاستيلاء على بغداد وإحياء الخلافة بها ، إذ أدرك بيبرس أن بقاء الخليفة فى مصر فى قبضته يعود على السلطنة بفوائد جمة ، كما أن الخلفاء العباسيين قد أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على المظاهر الدينية . وسار على خطة

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠١ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٧ .

بيبرس نحو خلفاء بنى العباس فى القاهرة من جاء بعده من سلاطين المماليك ، وقد بسط مؤرخو مصر مركز الخليفة فى المواكب السلطانية وحفلات تتويج السلاطين ، حيث كان يمشى كافة الأمراء على الأقدام بين يدى السلطان ، ماعدا الخليفة فإنه كان يركب من الركائب السلطانية وليس بعده أحد لا من الوزراء ولا من الأمراء إلا السلطان . وكان يلبس العمامة البغدادية وعليه قباء بعلبكى مطرز أسود حرير وفوق رأسه راية الخلافة السوداء . وقد استمرت هذه الخلافة العباسية الإسمية فى مصر زهاء قرنين ونصف . وكان سلاطين مصر من لدن بيبرس إلى طومان باى يعطون الخلفاء إقطاعات واسعة رزقا لهم ، ولبثت قرية امبابة وجزيرة ابن الصابونى إقطاعا للخليفة إلى أن حرمه منها السلطان قايتباى ، وكان للخلفاء بجانب ذلك حق النظر على مشهد السيدة نفيسة والاستيلاء على خيراته ، فكان مورد رزق واسع لهم ولأهلهم ، وظلوا من أجل ذلك فى سعة من العيش ، فلما فتح السلطان سليم مصر قطع عن الخليفة تلك الأرزاق .

بذلك أحاط بيبرس عرشه وعرش من جاء بعده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة والتبجيل ، وأثبت أحقية المماليك فى تولى شئون مصر . وساعد ذلك على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التى قد يثيرها ضد حكم بيبرس بعض أمراء المماليك الذين كانت الأحقاد تغلى فى صدورهم كالمرجل .

وسن بيبرس نظام ولاية العهد لأول مرة فى تاريخ المماليك البحرية وحصر وراثة العرش فى أسرته (٦٦٢هـ) ، وذلك بتولية ابنه محمد بركة خان عهده ، ليحول بذلك دون تدبير الدسائس والمؤامرات التى كان يحيك شباكها كبار الأمراء حول عرش السلطان القائم ، ولكى يحتفظ بالسلطنة فى بيته بعد وفاته .

وإلى بيبرس يرجع الفضل فى رفع شأن الأسطول المصرى ، بعد أن اضمحل فى أواخر عهد الدولة الأيوبية . كما كان له أعظم الأثر فى إصلاح نظام القضاء فى دولة المماليك ، بأن عين قضاة من المذاهب الأربعة للفصل فى الخصومات .

كان بيبرس إداريا حازما ، فقد دأب على ترقية شئون بلاده وتنمية مواردها : فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد ، وبنى المساجد كمسجده المعروف باسمه

فى ميدان الظاهر بالقاهرة . وكان له مقام كبير بين أمراء مصر حتى هابوه وخشوا بأسه ولم يكن أحدهم يجسر على الدخول عليه إلا بإذنه الخاص .

وكانت حكومة بيبرس استبدادية مستنيرة ، إذ كان بيبرس على رأسها مطلق السلطان ، وهو يعد بحق مؤسس دولة المماليك ومبتدع طرق حكمها : فقد نظم الأداة الحكومية ، واستعان فى إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب ، واستحدث كثيرا من الوظائف الهامة ،ووجه عنايته إلى إعدادجيش قوى يكون عدة له وقت الحرب ليتمكن من القيام بالدور الذى رأى أن يقوم به وهو محاربه الصليبيين تقليداً لصلاح الدين وليتمكن من محاربة المغول ، وعمل بيبرس على إصداره عدة قوانين لرفع المستوى الخلق فى مصر إذ أمر سنة ٦٦٤هـ بمنع بيع الخمور وإقفال الحانات ونفى كثير من المفسدين .

كان بيبرس قائداً شجاعا ضربت الأمثال ببطولته وشهامته ، وقد تجلى ذلك فى كثير من المواقع الحربية التى خاض غمارها : كواقعة المنصورة التى انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين سنة ٦٤٧ هـ ، وواقعة عين جالوت التى قاد فيها جيوش السلطان قطز ضد جيوش التتار التى أغارت على بلاد الشام (١) .

وقد أبلى بيبرس أحسن البلاء فى مطاردة الصليبيين وإجلائهم عن الشرق الأدنى ، مثله فى ذلك مثل صلاح الدين الأيوبى وخلفائه من سلاطين الأيوبيين ، ورغم أن ذلك لم يكن بالأمر الهين ، فقد استولى فى بلاد الشام على قيسارية وأرسوف وصفد وشقيف ويافا وطرابلس وأنطاكية سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) ، مما أضعف الصليبيين وزاد فى قوة المسلمين وعظمة بيبرس .

وكان بيبرس أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ويعطف على الفقراء والمعوزين .

وفى ٢٧ المحرم سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) توفى بيبرس على أثر عودته من واقعة قيسارية بدمشق ودفن بها . ولما حضر الأمراء من دمشق أعلنوا موت السلطان ثم

---

(١) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٤٥ — ٥١ .

دخلوا على ابنه السعيد بركة خان (٦٧٦ — ٦٧٨ هـ) وأعلموه بوفاة أبيه . ولم يعين له أتابك ، إذ كان قد بلغ التاسعة عشرة من العمر حين اعتلى العرش ،وقام الخلاف بينه وبين الأمراء من بدء حكمه مما أدى فى النهاية إلى خلعه ، ذلك أن بركة خان خرج فى سنة ٦٧٧هـ إلى دمشق ، فاتصل بأمرائها أنه يريد القبض عليهم فرحلوا عنها إلى مرج الصفر قرب دمشق وأقاموا هناك ، ولما سار هؤلاء الأمراء إلى مصر ليعملوا على خلع بركة خان ، رحل هذا من دمشق ووصل إلى الديار المصرية . فلما بلغ الأمراء خبر وصوله على حين غفلة ، خرجوا إليه يضمرون له السوء العاجل ، ولولا ضباب القاهرة فى ذلك اليوم لما استطاع بركة خان أن يصل إلى قلعة الجبل بسلام . ولما علم الأمراء بوصوله إلى القلعة حاصروه بها وشددوا عليه الحصار حتى قبل أن يخلع نفسه من السلطنة .

وفى أثناء المنازعات التى قامت بين بركة خان بن بيبرس وأمراء مصر ، ظهر أمير قوى كان له أثر كبير فى سير الحوادث الجارية فى ذلك الوقت هو الأمير سيف الدين قلاوون ، أحد المماليك البحرية الذين نبغوا فى أواخر عهد الدولة الأيوبية . وكان قلاوون أحد الأمراء الذين خرجوا من مصر مع من غادرها من المماليك البحرية عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاى على يد السلطان أيبك ،ولكنه مالبث أن عاد إليها وعظم نفوذه فى عهد السلطان بيبرس حتى أصبح من أمراء مصر البارزين ، ويظهر أن قلاوون كان يرمى إلى اعتلاء عرش السلطنة وأنه كان يمهد لذلك،وأتيحت له الفرصة حين أصبح صاحب النفوذ المطلق بعد تعيينه سنة ٦٧٨هـ فى وظيفة أتابك للسلطان الجديد أخى بركة خان المسمى العادل بدر الدين سلامش . ولم يكن لهذا السلطان مع قلاوون إلا مجرد الاسم واللقب ، ولم تطل مدته فى السلطنة أكثر من ثلاثة أشهر ، وبعد خلعه لزم داره حتى أرسله قلاوون إلى قلعة الكرك . وهنا يجب أن نلاحظ أن على بن أيبك وبركة خان وسلامش ابنى بيبرس ، قد سهل خلعهم من السلطنة على يد أمراء المماليك البارزين . وهذا يدلنا على أن نظام وراثة العرش لم يكن طبيعيا عند المماليك ، وأن قوة السلطان أو ضعفه كان متوقفاً على المهارة الحربية وكثرة الأتباع ، وقد كان نظام وراثة العرش فى بعض الأحيان ستاراً يسمح لكبار أمراء المماليك بالدس والحكم من وراء الستار .

١ – السلطنة المملوكية في بيت قلاوون :

٦٧٩ — ٧٨٤ هـ = ١٢٧٩ — ١٣٨٢ م

السلطان قلاوون :

٦٧٩ — ٦٨٩ هـ = ١٢٧٩ — ١٢٨٩ م

انتقل الملك بعد سلامش إلى أتابكه المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٩ — ٦٨٩ هـ) . ويلاحظ هنا أن السلطنة ظلت فى بيت قلاوون من بين أبنائه وأحفاده حتى انتهاء دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤ هـ . وسار قلاوون على نهج بيبرس فى إدارة شئون البلاد وتقريب الشعب إليه ، وكانت سياسته قائمة على الإكثار من المماليك ليكونوا عوناً له ولأولاده من بعده فى تثبيت عروشهم ، وأنشأ لذلك فرقة جديدة من المماليك أطلق عليها اسم «البرجية» نسبة إلى أبراج القلعة التى أقاموا بها .

كذلك سار قلاوون على سياسة بيبرس فى إخراج الصليبيين من بلاد الشام ، واستولى على اللاذقية وطرابلس سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، وتابع سياسة بيبرس إزاء التتار ، فهزمهم وأبعد أذاهم عن مصر والشام .

وكان قلاوون ملكا عظيما لايميل إلى سفك الدماء ، إلا أنه كان محباً لجمع المال ، ولم يكن حبه للمال بقصد الإنفاق على شئونه الخاصة ، بل كان للانفاق على المشروعات الحيوية التى رأى شعبه فى حاجة إليها ، وأشرف قلاوون على تنفيذها فى حزم وعزم. يدل على ذلك تلك المنشآت العظيمة : فقد أنشأ القبة التى دفن تحتها ، ومدرسته ، ومارستانه الذى بناه سنة ٦٨٨ هـ (١٢٧٨ م) ويعرف الآن بمستشفى قلاوون . وعلى الجملة أحسن قلاوون سياسة الملك ، وقام بتدبير شئون السلطنة خير قيام .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون :

٦٨٩ — ٦٩٣ هـ = ١٢٨٩ — ١٢٩٣ م

توفى قلاوون سنة ٦٨٩ هـ ، فخلفه ابنه خليل وتلقب بالأشرف . وفى عهده عاد

نفوذ الأمراء إلى الظهور بشكل جلى ، وافتتح الأشرف عهده بالغدر برجالات الدولة الذين كانت لهم السطوة والنفوذ زمن أبيه وبادر إلى التخلص منهم . ولم يتعظ بما حل بالسلطان قطز حين قتله الأمير بيبرس ، ولا بما حدث للسلطان سلامش بن بيبرس حين خلعه الأمير قلاوون . وزاد فى عداء الأمراء له ، تعاظمه عليهم واستخفافه بهم بعد عودته من فتح عكا سنة ٦٩٢ هـ ، وباستيلائه عليها انتهت دولة الصليبيين فى الشام . لذلك دبر الأمراء أمر مقتله ، وحانت لهم الفرصة فى سنة ٦٩٣هـ حين نزل السلطان خليل بإحدى قرى مديرية البحيرة للصيد ، فهجموا عليه وضربوه بالسيوف حتى مات وتركوه فى المكان الذى قتل فيه .

وحكم الأشرف مصر ثلاث سنين وشهرين ، برهن خلالها على أنه كان حاكما شديد البأس مهيباً فى أعين الناس ، كفئاً لتولى ملك مصر عارفا بأحوال المملكة . وفيه يقول ابن إياس : كان الأشرف بطلا لا يكل من الحروب ليلا ونهارا ... ولا يعرف من أبناء الملوك من كان يناظره فى العزم والشجاعة والإقدام ... وكان سفاكا للدماء قتل خلقاً كثيراً من الأمراء وغيرهم ، وكان يسمع الكلام فى حق الناس بالباطل من وزيره ابن السلعوس ، وكان ذلك سبباً فى زوال ملكه (١) .

ورغم ذلك ، فإنه يكفى السلطان خليل فضلا ، أنه هاجم عكا أمنع حصون الصليبيين ، وكانت قد استعصت على أبيه قلاوون ، ودخلها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) بعد حصار طويل ، ثم استولى على صور وحيفا وبيروت .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

٦٩٣ — ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ — ١٣٤١ م

بمقتل السلطان خليل ، انتقل الملك إلى الناصر محمد وهو الابن الثانى للسلطان قلاوون . نشأ الناصر فى بيت الملك محاطاً بالأمراء والنواب والحراس ، ودرج فى

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٦ .

مراتب العز والإمارة فهو ابن ملك وأمه بنت أمير من أمراء المغول . غير أنه لم يتمتع طويلا بعطف أبيه قلاوون إذ أنه مات والناصر لم يناهز الخامسة من عمره ، إلا أن الناصر لم يحرم من عطف أخيه خليل الذى اهتم بتربيته وأحسن معاملته على الرغم من أنه كان أخاه لأبيه فقط .

وكان للبيئة التى عاش فيها الناصر محمد ، أثر عظيم فيما نشأ عليـه من صفات ، وانعكست عليـه كثير من صفات أبيـه قلاوون ، فقد كان محباً لجمع المال ، مهتما بالمشروعات الحيوية ، كما نشأ محباً للغزو ميالا للسيطرة والنفوذ .

اعتلى الناصر محمد عرش مصر ثلاث مرات : استمرت الأولى عاما واحداً أى من سنة ٦٩٣ هـ إلى سنة ٦٩٤ هـ ، ثم اغتصب الملك منه العادل زين الدين كتبغا فالمنصور حسام الدين لاجين ، واستمرت فترة الاغتصاب هذه أربع سنوات أى من سنة ٦٩٤ هـ إلى سنة ٦٩٨ هـ .

جلس زين الدين كتبغا على عرش مصر سنة ٦٩٤ هـ . وكان منذ اعتلائه العرش سىء الطالع : فقد أصيبت البلاد عقب ولايته بالغلاء والوباء حتى تشاءم الناس من سلطانه وتمنوا زواله ، كذلك أساء إلى سمعته ترحيبه بالأمراء والجند المغول الذين فروا إلى مصر من وجه غازان بعد اعتناقه الإسلام ، ومما غير عليه قلوب رعيته تحكم بعض أمرائه فى أمور الدولة حتى أفسدوا نظام المملكة . ولم يكن ذلك من الخطورة ، بقدر الدسائس التى حاك شراكها لاجين ، أشد الأمراء نفوذاً فى ذلك الوقت ، فقد طمع ذلك الأمير فى السلطنة منذ اعتلاها كتبغا ، وبدأ يكيد له فى الباطن حتى واته الفرصة فى سنة ٦٩٦ هـ حين غضب بعض أمراء الشام على كتبغا لعزله عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام ، فأشعل لاجين نار الفتنة وزاد عوامل البغضاء والكراهية فى نفوس أعوانه ، واتفق معهم على قتله .

ولما خرج كتبغا من دمشق بجنوده متجهاً نحو الديار المصرية ، هجم عليه لاجين فى اللجون بالقرب من طبرية ، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته ، وفر كتبغا إلى دمشق ، وعقب فراره استولى لاجين على خزائنه وانضم إليه حرسه وسائر رجال جيشه دون أن يبدى كتبغا أية مقاومة ، وبايعه الأمراء بالسلطنة فى المحرم سنة

٦٩٦ هـ (١٣٩٦ م) (١) . وهذا يدلنا على أن الاغتصاب كان أمراً مألوفاً لدى الأمراء ، بدليل أنهم لو كانوا يتمسكون بالمبدأ الوراثى لانتهزوا فرصة فرار كتبغا وأعادوا الناصر محمد إلى عرشه .

بعد وصول لاجين إلى عرش السلطنة ، كانت أمامه عقبتان ، لابد له من اجتيازهما ليثبت عرشه : أولهما كتبغا وما كان ينتظر أن يأتى به من الدسائس لاستعادة عرشه ، وثانيهما الناصر محمد الذى كان لا يزال مقيما بمصر وهو فى نظر الناس صاحب الحق الشرعى فى الملك . ولكن لاجين تمكن من التغلب على كل من هاتين العقبتين ، فإن كتبغا سلم بالأمر الواقع بعد محاولات غير مجدية ، وأقنع الناصر بالرحيل إلى الكرك بعد أن طمأنه بإعادته إلى ملكه متى بلغ سن الرشد . ولكن عرش لاجين مالبث أن تزعزع : فقد أثار حفيظة الأمراء بتعيينه منكوتمر أحد مماليكه المكروهين نائباً للسلطنة ، وزاد فى سخطهم وسخط الجند عليه حين أمر فى سنة ٦٩٧ هـ بعمل الروك المعروف فى التاريخ باسم « الروك الحسامى » وبه صار مايخص هاتين الطبقتين معا من القراريط الأربعة والعشرين التى كانت تنقسم إليها أرض مصر عشرة قراريط بعد أن كان هـذا القدر يخص كل طبقة منها على حدة ، ثم أغضب الشعب بإهماله شئون الدولة ، كما كرهته المماليك الأشرفية باعتباره أحد قتلة الأشرف . لذلك فإن الأميرين سيف الدين طغجى وسيف الدين كرجى تمكنا من قتله، بينما كان جالسا فى قصره يلعب الشطرنج ، وذلك فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ .

وكان ما تخلل عهد كل من كتبغا ولاجين من فتن واضطرابات وما انتاب البلاد من مظاهر الضعف والانحلال فى أثناء حكميهما ، من العوامل التى هيأت للناصر سبيل العودة إلى العرش . ومن ثم تبتدئ مرحلة سلطنته الثانية ، وتمتد من سنة ٦٩٨ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ .

وأبرز ما يلاحظ على سلطنة الناصر الثانية ، تضييق الخناق عليه ، واستخفاف الأمراء بأمره وعدم اكتراثهم لشأنه ، حتى اضطر إلى الرحيل إلى الكرك مرة

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٣ — ٦٤ .

ثانية ، وأقام فى جو بعيد عن المؤامرات والدسائس التى كان يحيكها حوله خصومه من أمراء مصر الطامحين إلى النفوذ والسلطان . غير أن رحيله عن حاضرة ملكه سنة ٧٠٨ هـ ، مكن بيبرس الجاشنكير من اغتصاب العرش لنفسه ، وهنا يلاحظ أن هذه هى المرة الثالثة التى يغتصب فيها عرش الناصر .

ولكن هذا لم يصرف الناس عن الناصر أو يضعف من اعتقادهم فى أنه يستطيع وحده أن ينقذ مصر من الفوضى التى سادتها أثناء حكم بيبرس الجاشنكير ، فلا عجب إذا لم تنقطع المراسلات بين أمراء مصر من ناحية وبين الناصر محمد من ناحية أخرى، يرجونه فيها العودة إلى بلاده (١) .

وكان من المعقول أن ينزل بيبرس عن العرش بعد ذلك ، غير أنه لم يرض بهذه الخاتمة ، وحاول أن ينقذ موقفه ، بأن عمد سنة ٧٠٩ هـ إلى أخذ العهود والمواثيق على الأمراء والحكام بمعونة الخليفة المستكفى بالله ، الذى حث الناس على طاعة السلطان. ولكن ذلك لم يجد، وفوجىء السلطان برحيل معظم أمراء مصر والمماليك السلطانية إلى الناصر بالكرك ليصحبوه فى عودته إلى القاهرة ، فأعلن بيبرس أنه خلع نفسه من السلطنة بعد أن استولى على ما فى خزائن مصر من الأموال وفر هاربا . واتصل خبر هروبه بالعامة ، « فادركوه وهو خارج من القلعة ، وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة » (٢) .

وعاد الناصر من الكرك إلى القاهرة (٣) . وكان أول مافعله عقب تسلمه زمام الملك أن أمر بالقبض على بيبرس الجاشنكير ، فقبض عليه بالقرب من غزة ، حيث كان يحاول الهرب .

ومن الأبيات التى نظمها شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم الشارمساحى ، يتضح لنا بأجلى بيان مبلغ كره العامة للمظفر بيبرس الجاشنكير :

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٤ — ٢٤٢ .

(٢) العينى : عقد الجمان (مخطوط) ج ٢٢ القسم الأول ص ١٦٨ .

(٣) يعتبر المؤرخ أبو الفداء صاحب كتاب «المختصر فى أخبار البشر» شاهد عيان لرحلة الناصر محمد من الكرك حتى وصل إلى القاهرة، إذ أنه رافق الناصر فى رحلته حتى دخل القاهرة ، ولم يعد إلى الشام إلا بعد أن جلس على العرش . راجع المختصر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .

ولى المظفر لما فاته الظفر — وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا — كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه — أثواب عارية فى طولها قصر
لما تولى تولى الخير عن أمم — لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا (١)

وعقب وصول الناصر إلى قلعة الجبل ، أنشد الشعراء مدائحهم بين يديه ، ومنها يتبين مبلغ حب الشعب له وتفانيه فى الإخلاص للملك ، قال محمد البدر البزاز المنجى قصيدة يجمل فيها ما مر به الناصر من الشدائد أثناء سلطنته ويحيى عودته :

نشأت فى حجر هذا الملك مرتفعاً — تذبه غير مفطوم من الصغر
وحين آل إليك الملك وامتثلت — منه المراسم فى ورد وفى صدر
أعرضت عنه لأسباب علمت بها — وخبر شهرتها يغنى عن الخبر
وعدت ثانية يقظان محترساً — وبت عن كيد من يخشى على حذر
وهذه العودة الغراء ثالثة — يقضى لك الحق فى أيامك الأخر (٢)

* * *

استمرت سلطنة الناصر محمد الثالثة اثنتين وثلاثين سنة متصلة (٧٠٩ — ٧٤١هـ) انفرد فيها وحده بحكم مصر . وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه ، وعلى الذين أقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله . وفى سلطنته الثالثة ازداد تعلق الشعب بالناصر لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال ، وبذلك تعتبر هذه الفترة فى الواقع عهد سلطنة الناصر الحقيقية ، لأنه كان قبل ذلك آلة فى أيدى الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه عنه كما شاءت أهواؤهم .

يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة ، وبدأت أساليب الحكم والإدارة فى الاستقرار ، بفضل التجارب التى قامت بها حكومة الناصر ، كما ازدهرت الفنون حتى عد المؤرخون

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٧٦ .
(٢) عقد الجمان (مخطوط) جـ ٢٢ القسم الأول ص ١٧٠ .

عصره أزهى عصور الفن فى دولة المماليك خاصة وفى تاريخ مصر الإسلامية عامة. وامتد هـذا العصر فترة طويلة بلغت ثمانية وأربعين عاما، وهذا يجعل الباحث فيه يلم بكثير من أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصر دولة المماليك البحرية (١).

كانت القاهرة فى عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة متحدة. ولا شك أن الناصر نجح إلى حد أبعد من سلاطين مصر الإسلامية فى تكوين تلك الإمبراطورية، وبسط إمبراطوريته نفوذها على بلاد اليمن والحجاز، وخطب ودعا ملوك أوربا وآسيا عن طريق إبرام المعاهدات والمصاهرة وإرسال الهدايا.

وفى عهد الناصر محمد وقفت مصر فى وجه المغول الذين كانوا قد اجتاحوا الخلافة العباسية فى بغداد وثلوا عروش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب حتى أصبحت أثراً بعد عين. على أن وقوف مصر فى وجه المغول أكسبها مركزاً ممتازاً عند الأمم الشرقية والغربية التى تنافس ملوكها وأمراؤها فى التودد إلى السلطان الناصر، وغدت أنظار الملوك والأمراء تتجه إليه للدفاع عنهم وصد أعدائهم. وحسب الناصر فضلا أنه نجح فى طرد بقية الصليبيين، وفى مقاومة ثلاث غزوات مغولية.

ويعد الناصر من السلاطين الأبطال، الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر، فقد أنهى باستيلائه على أرواد — إحدى الجزر الواقعة على ساحل بلاد الشام — دولة الصليبيين فى الأراضى المقدسة. وفى سنة ٧٠٢هـ(١٣٠٣م) تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر على مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد، فهلك معظم جيش المغول وهزموا ومات كثير منهم. وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الحاسمة فى التاريخ، وعلى أثرها مات غازان كمداً، وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلى مصر بأعظم مظاهر الترحيب حتى أقيمت له أقواس النصر فى القاهرة وخرج الشعب المصرى يحيى قاهر المغول.

---

(١) على ابراهيم حسن: آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية. بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، المجلد السابع، سنة ١٩٤٤.

ويمتاز عصر الناصر بما حدث فيه من تطورات جوهرية فى نظم الحكم ، فقد طبع المماليك بلاطهم فى ذلك العصر بطابع خاص لم يكن موجودا من قبل . فزادوا فى عدد الوظائف وفى اختصاصات شاغليها ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والأبهة والجلال ، وأرضوا بذلك كثيرا من المتطلعين إلى شغل الوظائف والمراكز المختلفة فى الدولة . وبلغ النظام الإدارى فى عصر الناصر مبلغاً عظيما من الدقة والتنسيق فنظمت دواوين الحكومة ، واستحدثت وظيفة ناظر الخاص سنة ٧٢٧ هـ ، وألغيت فى نفس تلك السنة وظيفة نائب السلطنة ومنصب الوزير . وعنى الناصر بموارد الدولة المالية ، فوسع نطاقها حتى يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح .

غير أن نشاط الناصر لم يكن مقصورا على الحروب والغزوات والعناية بأمر الحكومة ، بل اتجه إلى مختلف نواحى الحضارة المادية ومظاهرها داخل مملكته ، ونظرا لأنه كان متديناً يخاف الله ، نجد أن ذلك النشاط صبغ بصبغة دينية ، كما يظهر ذلك من العمائر التى شيدها والتى ما زال بعضها قائماً يشهد له بالبر والتقوى كما يشهد لعصره بالبراعة فى الفنون والعمارة . وكان من أشهر المبانى التى شيدها : المدرسة الناصرية التى تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحى النحاسين ، وكذا المسجد الذى بناه بالقلعة سنة ٧١٨ هـ ثم هدمه سنة ٧٣٥ هـ وأعاد بناءه من جديد لتوسيع جوانبه ، وفى سنة ٧٠٣ هـ شرع الناصر فى تجديد المارستان الكبير المنصورى الذى أسسه السلطان قلاوون سنة ٦٨٨ هـ ، وبنى الناصر سبيلا ألحقه بمدرسته ، وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة ، وشيد القصر الأبلق فى قلعة الجبل ، وأنشأ خانقاه (بيت) فى سرياقوس من ضواحى القاهرة لإمداد فقراء الصوفية القادمين من البلاد الشرقية .

واسترعت هذه الظاهرة نظر المؤرخ ابن إياس حتى عبر عن ذلك بقوله : ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه ، وقد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر ، وغير ذلك من العمائر والإنشاء » (١) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣ .

وبوفاة الناصر فى سنة ٧٤١ هـ انطلقت ألسنة الشعراء لتأبينه والإشادة بذكره وتقدير شخصيته وتعداد مناقبه . ولا غرو فقد كان الناصر العامل الأول فى وضع أسس السياسة العامة لدولة المماليك ، والمنفذ الأكبر لقواعدها ، كما كان شديد البأس ، سديد الرأى ، يتولى أمور الدولة بنفسه ، مطلعاً على أحوال مملكته ، محبوباً من رعيته ، مهيباً فى أمراء دولته ، وهو على الجملة ، المثل الأعلى للرجل السياسى فى دولة المماليك كما كان بيبرس المثل الأعلى للقائد الحربى (١) .

أطراه أبو المحاسن بعبارات مملوءة بالإعجاب والتقدير لمواهبه وأخلاقه ، ووصف ما يتحلى به من حزم وشجاعة ودهاء وكياسة ، فقال : إنه « أطول الملوك فى الحكم زماناً (٢) ، وأعظمهم مهابة ، وأحسنهم سياسة ، وأكثرهم دهاء ، وأجودهم تدبيرا وأقواهم بطشاً وشجاعة ، مرت به التجارب ، وقاسى الخطوب ، وباشر الحروب ، وتقلب مع الدهر ألوانا ، ونشأ فى الملك والرياسة ، وله فى ذلك الفخر والسعادة ، خليقاً بالملك والسلطنة ، فهو سلطان وابن سلطان ، ووالد ثمانية سلاطين من صلبه والملك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية ، فهو أجل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع » (٣) .

ووصفه ابن إياس ، فقال :

الناصر السلطان قد خضعت له ... كل الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعباً
ترجى مكارمه ويخشى بطشه ... مثل الزمان مسالما ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهبا (٤) .

---

(١) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ص ٩١ — ٩٤ ، حيث تجد تفصيل الكلام على بيت قلاوون .

(٢) يقصد بالطبع أن مدة حكمه هى أطول مدة جلس فيها سلطان من سلاطين دولة المماليك على عرش مصر .

(٣) النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٧٤ .

(٤) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٣ .

وتوفى الناصر فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٧٤١ ﻫ ، فانبرى الشعراء لتأبينه والإشادة بذكره ، بدليل ما ورد فى كتاب الإلمام الذى ألفه النويرى الأسكندرانى ما بين سنة ١٣٦٥ م وسنة ١٣٦٧ م :

فقد الوجود بل الوجود لفقــده — متحسرا أضحى شبيه الحائر
يبكى عليك بأدمع كيواقت — حمر ولؤلؤ بعضها كجواهر
زار الثرى فأضا الثرى من نوره — وأجابه أهلا بنعم الزائر
فغدا به القبر الذى قد حله — روضاً يفوح كنشر مسك عاطر (١)

استقر على عرش مصر بعد الناصر محمد أولاده وأحفاده ، يتعاقبون عليه واحدا بعد الآخر حتى نهاية دولة المماليك البحرية ، وهى مدة تبلغ ثلاثا وأربعين سـنة ، وبلغ عدد هؤلاء السلاطين الذين حكموا مصر من بيت النصر : ثمانية أولاد وأربعة أحفاد ، بلغ متوسط حكم السلطان الواحد منهم ثلاث سنوات ونصف سنة . ويتميز عهدهم : بصغر سن السلطان ، وقصر مدة حكمه لسهولة خلعه على يد أمراء مصر ، ولظهور نفوذ الأتابكة ظهوراً واضحاً ، واشتد تنافس الأمراء على النفوذ وجعلهم السلطان ألعوبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم . ولذلك ضعفت السلطنة المملوكية بعد وفاة السلطان الناصر واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل فى جميع أرجائها .

أولاد الناصر محمد وأحفاده :

٧٤١ — ٧٨٤ ﻫ = ١٣٤١ — ١٣٨٢ م

بعد وفاة الناصر تولى العرش ابنه سيف الدين أبو بكر (٧٤١ — ٧٤٢ ﻫ) ، وهو أول من تولى السلطنة من أولاد الناصر . وسرعان ما ساءت العلاقات بينـه وبين أتابكه قوصون لامتناعه عن تلبية بعض مطالبه ، فحرض الأمراء عليه ، ثم قبض

---

(١) راجع مخطوطة برلين « كتاب الإلمام للنويرى » ، ورقة ٢٢٣ — ٢٣٤ .

على السلطان وبعث به إلى قوص وقتل بها ، ولم تزد مدة حكمه على ثلاثة أشهر (١).

واعتلى العرش بعد أبي بكر أخوه علاء الدين كجك (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م)، وعمره إذ ذاك يتراوح بين الخامسة والسابعة ، فعين الأمير قوصون أتابكا له ، فعمل معه ماعمله مع أخيه . وما لبث أن خلع السلطان الطفل بعد أن حكم مصر خمسة أشهر .

وخلفه أخوه أحمد ولقب بالناصر (٧٤٢ — ٧٤٣ هـ = ١٣٤٢ م) . ولم يستمر طويلا في مصر بعد وصوله إلى العرش بل رحل إلى الكرك ، وعزم على جعلها محل إقامته مع بقاء السلطنة في القاهرة ، ولكن هذا الإجراء لم يعجب الأمراء فعزلوه .

ووقع اختيار الأمراء على أخيه إسماعيل (٧٤٣ — ٧٤٦ هـ) فبدأ عهد بمحاصرة أخيه بالكرك وقتله ، ومرض إسماعيل سنة ٧٤٦ هـ ومات .

وتولى السلطنة من بعده أخوه شعبان (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ) ، ولم يكن عهده خيرا من عهد سلفه ، فقد اشتد الاستياء حين أمر بالقبض على أخويه الأميرين حاجى وحسين وسجنهما تمهيداً لقتلهما ، وحاربه بعض كبار الأمراء ، وانتهى الأمر بهرب شعبان إلى القلعة ، والإفراج عن أخويه .

وخلفه أخوه حاجى (٧٤٧ — ٧٤٨ هـ) فأمر بحبس أخيه شعبان وقتله ، وانحطت في عهده السلطنة المملوكية ، فقد كان السلطان « يجتمع بأوشاب الناس وطبقاتهم المنحطة ويلعبون معا بالحمام » (٢) ، وانتهى أمره بالقتل ، ولما يستكمل سنة على عرش السلطنة .

واعتلى العرش الناصر حسن بن قلاوون (٧٤٨ — ٧٥٢ هـ) ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، ولم يلبث أن عزل على يد أمراء مصر وأمروا بحبسه في القلعة .

وأعيد الناصر حسن إلى عرش السلطنة للمرة الثانية (٧٥٥ — ٧٦٢ هـ) ، وظل على العرش ست سنوات ونصف ، حكم فيها بنفسه ، إذ كان قد بلغ سن الرشد ،

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) الفصل الأول جـ ٥ ص ٤١ .

ولكن حدث فى نهاية عهده أن اختلف مع الأمير يلبغا ، فقبض هذا الأمير على السلطان ، وقيل إنه اشتد فى عقوبته حتى مات ، وهو منشىء المسجد الكبير القريب من القلعة ، والمعروف باسم مسجد السلطان حسن .

بذلك كانت طريقة تولية السلاطين من أولاد الناصر وعزلهم واحدة : فالسلطان الطفل يأتى به الأمراء ويجلسونه على العرش ، ثم يختلفون فيما بينهم على السلطة والنفوذ فيصبح السلطان ألعوبة فى أيديهم ، حتى يأتى الوقت الذى يرون فيه استبدال غيره به ، فإما أن يخلعوه وإما أن يقتلوه .

وكانت حالة مصر فى عهد أحفاد الناصر ، لا تختلف عما كانت عليه فى عهد أولاده ، من الضعف والاضطراب وانتشار الفوضى ، واشتد ضعف مصر فى أيام سلطنة أحفاد الناصر حتى انتهى الأمر بسقوط دولة المماليك البحرية .

كان السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ – ٧٦٤هـ) بن المظفر حاجى ابن السلطان محمد بن قلاوون أول أحفاد الناصر فى السلطنة ، ميالا إلى الطرب ، مدمنا شرب الخمر . لذلك قبض عليه أتابكه يلبغا وخلعه من السلطنة وحبسه فى القلعة .

وتولى بعده السلطان شعبان (٧٦٤ — ٧٧٨هـ) ابن السلطان الناصر حسن .
وقد تعرضت أبو قير من جهة البحر فى أوائل عهده لغارة صليبية ، إذ دخل ميناءها فى ٢٧ شعبان سنة ٧٦٤ هـ مائة قرصان على سفينة فعاثوا فسادا فى القصور والبساتين وأسروا ستة وستين شخصا مابين رجل وامرأة وطفل ، ومضوا بهم إلى ساحل صيدا فافتداهم أهلها وعادوا بهم إلى أبى قير حيث سلموهم إلى أهليهم مشكورين. واختلف السلطان شعبان مع أمراء مصر ، وهرب ، ولكنه لم يلبث أن عاد خفية إلى القاهرة ثم اختفى فى منزل سيدة ، إلا أنها أبلغت خبر وجود السلطان فى منزلها عندما خافت على نفسها من اختفائه عندها ، فذهب إلى ذلك المنزل عدد الجنود وقبضوا عليه وهو مختبىء فوق سطح المنزل ، ثم غطوا وجهه وصعدوا به إلى القلعة وقتلوه .

وخلفه السلطان علاء الدين على بن شعبان (٧٧٨ — ٧٨٣ هـ) فاختلف معه الأمراء ، وأعلنوا تولية سلطان آخر هو أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون ، فأصبح على عرش مصر سلطانان . والتف حول كل سلطان فريق من الأمراء يسنده ويعضده . وكانت إقامة أنوك هى نكاية فى السلطان القائم تمهيدا لعزله بوضعه أمام الأمر الواقع . يقول المقريزى : فلم يجد الخليفة بدا من سلطنة أنوك فأقاموه ،

ولقبوه بالملك المنصور ، وأركبوه بالشعار السلطانى وجلس المنصور أنوك بكرة يوم الجمعة وبين يديه أرباب الدولة والأمراء وأرباب الأقلام على العادة (١) .

ولكن أنصار شعبان ثاروا ضد تعيين أنوك ، وكان من هتافاتهم العظيمة الدلالة على مدى انحطاط دولة المماليك فى سلطنة أحفاد الناصر « سلطان الجزيرة مايساوى شعيرة » ، وتمكنوا من القبض على أنوك وقتل الأمير يلبغا الذى أقامه (٢) ، وظل علاء الدين على سلطاناً حتى توفى فى ١٢ صفر سنة ٧٨٣ هـ .

وكان حاجى بن شعبان (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ) هو آخر سلاطين المماليك من بيت الناصر ، بل آخر سلاطين دولة المماليك البحرية ، وكان سنه حين اعتلائه العرش تتراوح بين التاسعة والحادية عشرة ، فعين برقوق أتابكا له ، فعمل هذا على الوصول إلى السلطنة ، ولما ضمن تأييد الأمراء والنواب ، استدعى الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، وخاطبهم القاضى بدر الدين بن فضل ، قائلا : «ياأمير المؤمنين وياسادتى القضاة ، إن أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة ، وأن الوقت قد ضاق ونحن محتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » . واستقر الرأى على خلع الملك الصالح حاجى ، وجلس برقوق على العرش .

وبعزل حاجى وتوليه أتابكه برقوق السلطنة ، ينتهى عصر أولاد الناصر وأحفاده وزوال الملك عن بيت قلاوون ، بعد أن حكم مائة وثلاث سنين ، قبض فيها قلاوون وابناه الأشرف خليل والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم ، بينما حكم الباقون من ذرية قلاوون حكما صوريا ولم يكن كل منهم أكثر من ألعوبة فى أيدى الأمراء .

---

(١) المقريزى : السلوك (مخطوط) جـ ٤ ص ٥٤ — ٥٦ .

(٢) مر بنا فى عصر دولة المماليك فيما قبل وفاة الناصر محمد ، شذوذ فى أنظمة الحكم يماثل ذلك الشذوذ ، وهو وجود سلطانين فى وقت واحد على عرش مصر : الأول حين أقيم الناصر يوسف مع السلطان أيبك سنة ٦٤٨ هـ كل منهما بلقب سلطان ، والثانى حين أقام السلطان قلاوون ابنه الصالح على سنة ٦٧٨ هـ سلطانا على مصر . إلا أن الأول أقيم برضاء أيبك حتى لا يعزل عن الحكم ، وأقيم الثانى بأمر أبيه على ألا يحكم إلا حين غيابه عنها .

٢ — المماليك البرجية

٧٨٤—٩٢٣ هـ = ١٣٨٢ — ١٥١٧ م

سلاطين دولة المماليك البرجية :

رقم	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية	
١	٧٨٤	السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق		١٣٨٢
٢	٨٠١	« « الناصر زين الدين أبو السادات فرج		١٣٩٨
٣	٨١٥	« (الخليفة) المستعين بالله العباسى		١٤١٢
٤	٨١٥	« الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى		١٤١٢
٥	٨٢٤ محرم	« « المظفر أحمد بن المؤيد شيخ	يناير	١٤٢١
٦	٨٢٤ شعبان	« « الظاهر أبو الفتح ططر	أغسطس	١٤٢١
٧	٨٢٤ ذو الحجة	« « الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	أكتوبر	١٤٢١
٨	٨٢٥	« « الأشرف سيف الدين بن برسباى	أكتوبر	١٤٢٢
٩	٨٤١	« « العزيز يوسف بن برسباى	يونيو	١٤٣٨
١٠	٨٤٢	« « الظاهر جقمق	سبتمبر	١٤٣٨
١١	٨٥٧ محرم	« « المنصور عثمان بن جقمق	فبراير	١٤٥٣
١٢	٨٥٧ ربيع أول	« « الأشرف إينال	مارس	١٤٥٣
١٣	٨٦٥ جماد أول	« « المؤيد أحمد بن إينال	فبراير	١٤٦١
١٤	٨٦٥ رمضان	« « الظاهر خشقدم	يونيو	١٤٦١
١٥	٨٧٢ ربيع أول	« « الظاهر بلباى	أكتوبر	١٤٦٧
١٦	٨٧٢ جماد أول	« « تمربغا	ديسمبر	١٤٦٧
١٧	٨٧٢ رجب	« « الأشرف قايتباى	ديسمبر	١٤٦٧
١٨	٩٠١	« « الناصر محمد بن قايتباى	أغسطس	١٤٩٥
١٩	٩٠٤	« « الظاهر قانصوه الأشرفى	أكتوبر	١٤٩٨
٢٠	٩٠٥	« « الأشرف جانبلاط	يونيو	١٤٩٩
٢١	٩٠٦ جماد آخر	« « طومان باى بن قنصوه الأشرفى	ديسمبر	١٥٠٠
٢٢	٩٠٦ شوال	« « قانصوه الغورى	أبريل	١٥٠٠
٣٢	٩٢٢ — ٩٢٣	« « طومان باى (الثانى)	١٥١٦ — ١٥١٧	

أهم مظاهر هذا العصر :

سميت دولة المماليك الثانية باسم « البرجية » أو مماليك البرج لأنها تنتمى إلى لواء من الجند كان مقيما فى القلعة منذ أن جنده قلاوون ، ولتمييزها عن دولة المماليك البحرية الذين أقاموا فى جزيرة الروضة . كما كانوا يسمون أيضا « المماليك الشراكسة » نسبة إلى موطنهم الأصلى الذى أتوا منه وهو جورجيا وبلاد الشركس .

ولم يكن هناك ثمة فارق كبير بين الشراكسة أو المماليك البرجية وأسلافهم الأتراك أو المماليك البحرية ، إذ كانت مصر تسير من سىء إلى أسوأ ، حتى اصطبغ عهد المماليك البرجية بالفوضى والاضطراب ، ولا غرو فقد وصل سلاطين هذه الدولة إلى العرش بعد فتنة وانقلاب سياسى ، فطبع عهدهم بطابع الفتن والثورات التى كانت تقوم بين حين وآخر . ويمكن أن نرجع أسباب الاضطراب الداخلى الذى ساد عصر دولة المماليك البرجية إلى العوامل الآتية :

١ — أن سلاطين المماليك البرجية أصبحوا تحت سيطرة قواد الجماعات العسكرية أكثر من ذى قبل .

٢ — أن حرس السلطان أخذ يكون لنفسه حزبا مستقلا ، وكان يسميه نسبة إلى السلطان الجالس على العرش ، مثل « الأشرفى » و « المؤيدى » و « الناصرى » ، وكان الحزب يبقى عاملا قائما بذاته بعد موت السلطان أو عزله ، وكثيراً ما كانت تتخاصم هذه الأحزاب ويقاتل بعضها البعض من فوق أسوار القلعة ومن سقف مسجد السلطان حسن المقابل لها ، وتقام المتاريس فى الشوارع ، ويجعل من الأسواق ساحات للقتال ، حيث كان المتمردون يوثقون فى سروج الجمال حتى يلحقهم الموت .

٣ — عدم اتصاف السلاطين بالهيبة والقوة وخوض غمار الحروب ، مما أعجزهم عن كبح جماح جنودهم إلا نادراً .

٤ — اعتماد السلاطين على المؤامرات والخدع والحيل لرغبتهم فى الاحتفاظ بالسلطة أكثر من اعتمادهم على النجاح فى الحرب أو الشجاعة الشخصية .

ولم تكن الحروب الداخلية هى كل ما بليت به مصر فى عهد المماليك البرجية ، بل كانت هناك اضطرابات خارجية ، فقد اعتاد أمراء سوريا أن يقوموا بحركات ثورية عنيفة ، شغلت جانبا كبيرا من مجهود السلاطين ، وهناك كذلك غارات البدو المتكررة على مصر وغزوات المغول وخاصة فى عهد زعيمهم تيمورلنك ، يضاف

إلى ذلك مضايقات قراصنة الفرنجة فى البحرين الأبيض والأحمر ، مما أدى إلى إيجاد سوء تفاهم بين السلاطين والبابا ، وتعرضت مصر أيضا لكثير من المجاعات التى سببتها كثرة الفتن الداخلية والاضطرابات الخارجية . ولا ننسى أيضا منافسة السلاطين العثمانيين لحكام مصر حتى أصبحت الدولة العثمانية أكبر عدو للمماليك .

وساد الفساد كثيرا خلال الفترة التى حكمت فيها أسرة الشراكسة ، ولم يكن للعدل أو النزاهة وزن فى سير الأمور الجارية ، حتى أن شيخ الإسلام — وهو الحاكم الدينى — كان يختلس أموال الودائع . وكان الجنود ، ممن كانوا يشترون من العبيد البيض من اليونان والشراكسة والأتراك والمغول ، يقومون بثورات فى الشوارع حتى أن السيدات لم يجرأن على مغادرة منازلهن وكان الفلاحون يخشون جلب حاصلاتهم إلى الأسواق حتى لا تقع غنيمة فى يد المماليك أو فى يد الحكومة . أما فى القرى فقد كان الناس يتلاشون إزاء ضغط الجند وقلما استتب الأمن والسلام فى عاصمة البلاد .

السلطان برقوق :

٧٨٤ — ٨٠١ هـ = ١٣٨٢ — ١٣٩٦ م

يعد برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية ، فقد كان أتابكا للسلطان الصالح حاجى آخر سلاطين المماليك البحرية ، ولكنه اغتصب منه عرش السلطنة ، على ما جرت به عادة الأتابكة من اغتصاب عروش أولاد أسيادهم .

كان عهد برقوق عهد اضطراب ، من جراء الدسائس والفتن التى أطاحت بعرشه فترة من الزمن ثم أرجعته إليه . بدأ برقوق عهد سلطنته بتهيئة الجو لتثبيت مركزه فقضى على منافسه برخ ، وعقد مجلساً حضره الخليفة المتوكل وكبار رجالة الدولة ، وأقر الجميع أحقيته فى السلطنة . غير أن موافقة المتوكل كانت صورية ، لأنه لم يكن للخليفة العباسى فى القاهرة أثر فى توطيد عروش السلاطين أو زعزعتها . ودبرت مؤامرة لخلع برقوق ، غير أنها كشفت وقبض على القائمين بها ، وعذبوا وقتلوا ، وعزل الخليفة المتوكل وولى مكانه الخليفة الواثق . واشتد برقوق فى عقاب كل معارضيه ، فكان يقتل أو يعذب كل من حامت حوله الشبهات بالعمل ضد عرشه ،

حتى يمكن القول أن عهده كان عهد إرهاب لم تشهد البلاد مثله، مما أدى إلى حدوث انفجار شديد (١) . فثار أمراء سوريا ثورة عنيفة ضد حكم برقوق ، وتزعمها يلبغا الناصرى صاحب حلب، وأيد تلك الثورة الرأى العام فى مصر الذى حنق على برقوق لقسوته ، واستولى يلبغا على دمشق وزحف على القاهرة . فاضطر برقوق إلى التسليم ، وتوصل إلى الخليفة المتوكل الذى كان قد عزل ، ليتوسط له لدى يلبغا لينجو بحياته ، فقبل يلبغا رجاءه ولم يقتله ، ولكنه أرسل أسيراً إلى الكرك . وهكذا انتهت الفترة الأولى من حكم برقوق فى فتن واضطرابات .

أما عن الفترة التى تلت عزل برقوق واستمرت حتى رجوعه إلى عرشه ثانية ، فإن البلاد كانت ميداناً لنزاع خطير بين اثنين من كبار القواد المسلمين هما يلبغا أمير حلب ومنطاش أمير ملطية ، فإنه بعد انتصار يلبغا على برقوق عين للسلطنة الصالح حاجى الذى كان برقوق قد اغتصب منه العرش ، وأصبح يلبغا وصياً عليه كما كان برقوق قبل اعتلائه العرش ، وأخذ الوصى الجديد فى تشتيت أنصار برقوق(١) . غير أن منطاش حسد يلبغا ، وثار ضده وتحالف مع أنصار برقوق ، واستطاع أن يعزل يلبغا ويأسره ويتولى مكانه ويقيم عصر إرهاب يشبه ذلك الإرهاب الذى أقامه برقوق ويلبغا تخلصاً من منافسيهما . أما برقوق فقد استغل حالة الاضطراب السائدة وهرب من الأسر وكون جيشاً حارب به منطاش واستطاع أن يأسر الصالح حاجى ، فتنازل له هذا السلطان الطفل عن العرش ، وعاد برقوق إلى القاهرة وأصبح سلطاناً على القاهرة للمرة الثانية ، غير أنه فى الفترة الثانية من سلطنته انتفع بتجاربه السابقة وعزم على عدم الالتجاء إلى القسوة والعنف فى معاملة الأهالى .

وابتهجت القاهرة بعودة برقوق ، فعمل هو بدوره على إكرام شعبه ، وأصدر عفوا عاما عن جميع المعارضين وعمن أثاروا الفتن ضده ، وعامل جميع الأهالى برفق حتى الخارجين عليه ، وساعد الحظ برقوقا إذ قتل يلبغا ، أما منطاش فاعتقله برقوق ثم عذبه وقتله ، واستراح بقتل هذين الرجلين ، ولكن دبرت ضده بعد ذلك

---

(١) Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp 102,326

(٢) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 330.

مؤامرتان : قام بالأولى رجل شيعى ، وبالثانية أحد المماليك ، وانتهى أمر المؤامرتين بالفشل وتشتيت أنصارهما .

ولو استثنينا مناوشات يلبغا ومنطاش والمؤامرتين الأخيرتين ، لأمكننا القول أن الفترة الثانية من حكم برقوق كانت بوجه عام هادئة ، وخاصة من جانب سوريا التى لم تقم فى الفترة الثانية من حكمه بأى حركة ضده ، بل على العكس قوبل حين زارها بترحاب شديد . وقضى بقية حياته فى إصلاح حالة البلاد الداخلية حتى مرض أخيراً ، ومات بعد أن عهد بالسلطنة إلى ابنه فرج فى سنة ٨٠١ هـ .

السلطان فرج بن برقوق :

٨٠١ — ٨١٥ هـ = ١٣٩٦ — ١٤١٢ م

تولى فرج عرش مصر وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، وتكررت معه مأساة أبيه ، من حيث تنحيه عن العرش وعودته إليه مرة ثانية . وساد عهده الفتن والاضطرابات ، فقد كان يكافح عدة قوات : فقد تنكر له أمراء سوريا وخرجوا عن طاعته ، وثار عليه أمراء الجراكسة وكادوا يفتكون به لولا أنه اختفى وتولى أخوه بدله حتى عاد فرج إلى عرشه ثانية وأخمد الفتنة وقتل أخاه ، واصطدم بمشكلة لا تقل عن سابقتها خطورة وهى القحط الذى اكتسح مصر مصحوبا بالوباء ، والذى ذهب ضحيته ما يقرب من ثلث سكان البلاد .

على أن أكبر عقبة اعترضت سبيل فرج هى خروج سوريا على سلطانه . فقد ثارت سوريا فى أول عهده ، ولكنه استطاع أن يخمد فتنتها ويقضى على الثائرين . غير أن أمراء سوريا ثاروا مرة أخرى ، منتهزين فرصة انشغال فرج بحربه مع المغول ، حتى اضطر إلى ترك ميدان القتال ، وعاد إلى القاهرة لإنقاذ عرشه ، ولم ينقذ عرشه هذه المرة أنه قضى على فتنة سوريا ، ولكن أنقذه اختلاف السوريين فيما بينهم . وعادت سوريا إلى النضال مرة ثالثة ضد السلطان فرج وظهر فيها أمير عظيم يدعى حكم ، جمع أغلب ولاياتها تحت سيطرته وتسمى بلقب سلطان ولكنه مات فى القتال .

أما ثورات سوريا الأخيرة ضد فرج فقد تزعمها الأمير شيخ الذى قاتل فرجا فى بعلبك وهزمه وطارده إلى القاهرة ، واستولى على القلعة (١)، وعزل السلطان فرجا الذى انتهى أمره بالقتل ، وتولى مكانه الخليفة المستعين سلطانا على مصر ، بمساعدة الأمير شيخ .

وهكذا كانت حياة فرج كفاحا مستمراً ، فقد تزعزع عرشه أكثر من مرة ، ورغم احتفاظه بقوة مقاومته لأعدائه فإنه قضى عليه أخيراً .

السلطان المستعين والسلطان شيخ المؤيد :
٨١٥ — ٨٢٤ هـ = ١٤١٢ — ١٤٢١ م

جلس الخليفة المستعين على عرش مصر ولكنه كان ألعوبة فى يد الأمير شيخ ولم يكن له من الأمر شىء ، ومع أنه كان سلطاناً وخليفة فى وقت واحد ، فقد استطاع شيخ أن يعزله ، ثم سجنه وأعلن نفسه سلطانا على مصر .

وباعتلاء شيخ العرش ، لم يصبح أمامه إلا منافسه نوروز الذى قام بثورة فى سوريا وهدد شيخ ، ولكن شيخ استطاع أن يهزم نوروز وقبض عليه وقتله ، ثم انتصر على الخارجين عليه فى سوريا ووصل بجيشه إلى قيسارية وعاد إلى ملكه منتصرا ظافراً ، ووراءه الآلاف من الأسرى ومالا يحصى من الغنائم ، وأتيح له بعد ذلك أن يحكم البلاد حكما هادئاً ، وأن يأتى ببعض الإصلاحات فقد صكت فى عهده عملة عرفت باسم العملة المؤيدية أو الميدى ولكنها ضربت مثلا للنقد الخسيس ، وبنى المؤيد جامعه المعروف باسمه بجوار باب زويلة .

أما من الوجهة الاقتصادية فقد فرضت فى عهده الضرائب الفادحة ، وزاد الحالة سوءا ظهور الأوبئة التى أهلكت الكثيرين من الأهالى ، ومات المؤيد بعد مرض لم يمهله طويلا وترك العرش لابنه أحمد .

---

(١) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 334.

السلطان أحمد بن شيخ بن السلطان ططر :

محرم - ذى الحجة ٨٢٤ هـ = يناير - أكتوبر ١٤٢١ م

كان أحمد الذى خلف والده شيخ المؤيد طفلا عمره سنة ونصف، فتولى الوصاية عليه الأمير طوبغا ، وأصبحت السلطة كلها فى يده ، ولكن نافسه فيها ططر الذى كان من القوة بحيث تمكن من عزل هذا الوصى ، واستحوذ على النفوذ والسلطان وقضى على أسرة شيخ المؤيد وعزل السلطان الطفل واغتصب منه العرش ، إلا أنه لم يمكث طويلا فى السلطنة ، فقد توفى بعد شهرين من سلطنته .

السلطان محمد بن ططر والسلطان برسباى :

٨٢٤ — ٨٤١ هـ = ١٤٢١ — ١٤٣٨ م

ورث محمد بن ططر عرش مصر وله من العمر عشر سنوات ، ولكنه لم يستمر على عرش السلطنة طويلا ، ثم عزله وصيه برسباى وأصبح سلطانا على مصر .

ويمتاز معظم عهد برسباى بالهدوء الشامل : فقد كانت سوريا هادئة ، كما أنه قضى على القراصنة الذين كانوا يهددون التجار ، واستولى منهم على عدة غنائم وعلى كثير من الأسرى ، وأجبر ملك قبرص على تقبيل الأرض بين يديه ، أضف إلى ذلك أن برسباى بسط سيطرته على مكة وجدة ، واحتكر تجارة الشرق .

ولكنه رغم هذا لم ينعم طويلا بذلك الهدوء : فإن سوريا ثارت ضده من جديد ، فأرسل إليها جيشا استولى على الرها ونهبها ، كما أنه حاصر مدينة آمد ولكنه مالبث أن عقد هدنة مع أميرها ، ثم تعرض برسباى إلى حركة عنيفة قام بها منافسه جانى بك إلا أنه استطاع أن يخمد هذه الحركة وأن يقتل زعيمها وانتشر فى عهد برسباى طاعون أهلك فى ثلاثة أشهر نحوا من ثلاثمائة ألف نفس [١] . ووسط هذا الاضطراب ، توفى برسباى ، تاركا العرش لابنه يوسف الطفل الصغير .

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 147.

السلطان يوسف بن برسباى والسلطان جقمق :

٨٤١ — ٨٥٧ هـ = ١٣٤٨ — ١٤٥٣م

لم يحكم يوسف بن برسباى أكثر من ثلاثة أشهر ، ثم خلفه جقمق وسجن يوسف فى القلعة وتولى بدلا منه .

وواجه جقمق ، منذ بدء حكمه ، ثورة منافسه قرقيش ، غير أن جقمق استطاع أن ينتصر عليه ، ويقتله . كذلك ثارت ضده فرقة الأشرفية ، ولكن جقمقا استطاع أن يشتتهم ، كما ثارت حلب لإرجاع يوسف بن برسباى إلى العرش ، واشتدت الثورة حتى استعمل جقمق منتهى العنف فى إخمادها ، وأعيد يوسف إلى الأسر ثانية بعد هربه منه(١) . وأخيراً تخلص جقمق من هذه المتاعب ، وقضى بقية حكمه فى هدوء ، خاصة وأن علاقاته بالفرس وأمراء آسيا الصغرى كانت طيبة ، وتزوج من ابنة دلجادر حاكم مدينة أبلستين ، وكانت قد صحبت أباها عند حضوره إلى القاهرة فى مهمة رسمية ، كما تزوج باخريتين من آسيا الصغرى تسمى إحداهما شادة زادة(٢) .

السلطان عثمان بن جقمق والسلطان اينال :

٨٥٧ — ٨٦٥ هـ = ١٤٥٣ — ١٤٦١ م

اعتلى عثمان العرش وعمره ثمانية عشر عاما ، وكان قاسيا فى معاملته للأمراء ، فاتحدوا ضده وخلعوه وسجنوه .

وتولى السلطنة من بعده إينال قائد الأسطول ، فسار سيرة طيبة أرضت المماليك وأغدق عليهم السلطان الهبات والأموال مما أثر فى مالية الدولة ، غير أن الجراكسة كثرت طلباتهم وأشتد خطرهم حتى حاصروا القلعة وهددوا السلطان إينال وعزم بعضهم على إعادة عثمان بن جقمق إلى العرش ، ولكن حركتهم انتهت بالفشل ، إلا أن تلك الحوادث أضعفت إينالا ، واضطر أخيراً إلى إجابة طلبات الجراكسة

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 341.

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 152.

المتطرفة. ومما زاد الحالة سوءا أن الطاعون عاود هجومه على مصر مصحوبا بمجاعة خطيرة . وكان الأمراء مسالمين للسلطان إينال ولم تتعرض مصر فى عهده لغزوات خارجية ، كما أنه أرسل جيشاً حاصر به قونية وقيسارية وخربهما ، وسلمت له كرمان دون قتال .

السلطان أحمد بن اينال والسلطان خشقدم :

٨٦٥ — ٨٧٢ هـ = ١٤٦١ — ١٤٦٧ م

جلس أحمد بن إينال على عرش مصر بعد أبيه ، وارتكب المماليك فى عهده كثيراً من أعمال العنف فتنازل عن الحكم بعد عدة شهور ، وخلفه خشقدم .

كان عهد خشقدم مضطربا كالعهود التى سبقته ، فقد وجد هذا السلطان نفسه عدة قوى مناهضة : فالجراكسة ثاروا عليه لأنه من غير جنسيتهم ، وسوريا فى ثورة ضده تحت زعامة جانم ، والبدو يهددون المواصلات وينهبون ولا يتورعون عن سلب الحجاج ، كذلك ثار عليه حزب الظاهريين بعد أن قتل زعيمهم جانى بك رغم صداقته له . وبذا تألب الجميع عليه . إلا أنه صالح الظاهريين ، وعمد إلى الإيقاع بين الأحزاب حتى يحتفظ بسلطانه عليهم ، ونجح فى سياسته ، حتى إنه مات والأحزاب منقسمة على بعضها (١) .

السلطان قايتباى :

٨٧٢ — ٩٠١ هـ = ١٤٦٧ — ١٤٩٦ م

لم يتول قايتباى مباشرة بعد خشقدم ، وإنما سبقه بلباى وتمربغا ، ومدة حكم كل منهما حوالى الشهر ، وكانت فترة مليئة بالدسائس والفتن ، وتولى قايتباى بعدهما ، والبلاد فى أشد حالات الفوضى والارتباك .

اتصف قايتباى بالجرأة والشجاعة ، فإنه حين علم باضطهاد العرب فى أسبانيا . أرسل إلى ملكها يهدده بهدم كنائس الشرق ، إذا لم يقلع عن معاملة المسلمين بالشدة .

---

(١) Lane—Poole: Egypt in the Middle Ages, p. 341

على أن حالة مصر المالية فى عهده كانت سيئة ، وتفشى الطاعون فى البلاد بصورة بشعة ، حتى كان يموت يومياً حوالى الإثنى عشر ألفا من السكان (١) . وكانت أعنف حركة واجهت قايتباى ، تجدد الاضطرابات فى سوريا بزعامة سيوار ، وقد استطاع هذا الثائر ، بمساعدة الباب العالى أن يهزم قايتبايا هزائم متعددة ، وأن يسيطر على سوريا ، فلم يجد قايتباى وسيلة لمقاومته إلا التحالف مع الباب العالى ، وبذا استطاع أن يرغم سيواراً على طلب الصلح ، وأن يصبح من أتباعه ، وانتهى الأمر بقتله .

ولم يتخلص قايتباى من سيوار ، إلا ليشغل بأمر ذلك النزاع العنيف الذى قام فى أواخر عهده بين قائدين كبيرين هما : قانصوه الخمسمائة وأكبر دى .

الناصر محمد بن قايتباى ، قانصوه الاشرفى ، جانبلاط ، طومان باى الاول :

٩٠١ — ٩٠٦هـ = ١٤٩٦ — ١٥٠١م

وحكم بعد قايتباى ابنه السلطان الناصر محمد ، ولم يدم حكمه أكثر من سنتين وكان ضعيف الخلق ، اعتلى العرش وهو صغير السن ، فتولى الوصاية عليه فى بدء حكمه القائد قانصوه الخمسمائة . إلا أن أكبر دى صمم على أن يكون هو الوصى على السلطان ، وقام بثورة عنيفة واستعان بالسوريين . ففر قانصوه ، ولكن أنصاره قاوموا أكبر دى واضطروه إلى الهرب كذلك ، وبقى الناصر محمد وحده . على أنه تخلص من هذين الرجلين ، كى يقع فريسة فى أيدى المماليك الطامعين ، فعزم على الهروب والالتجاء إلى أكبر دى ، ولكن قبض عليه وأسر ، وانتهى أمره بالقتل .

وخلفه ثلاثة سلاطين ضعاف ، تعاقبوا على العرش وهم على التوالى : قانصوه الأشرفى ، وجانبلاط ، وطومان باى الأول . وتميز عهدهم : بقصر مدة الحكم ،

---

(١) Lane—Poole : Eygpt in the Middle Ages, p. 342.

وكثرة الاضطرابات وغارات البدو ، وثورات السوريين ، وظلم المماليك وتعسفهم . وانتهى حكم كل منهم بالعزل نتيجة لهياج المماليك ومحاصرتهم القلعة وطردهم .

ويمكن أن نتبين مدى الضعف الذى انتاب سلاطين المماليك البرجية ، من أن السلطان قانصوه الأشرفى هرب فى زى امرأة ، وأسر السلطان جانبلاط وسجن ثم قتل ، وتمكن السلطان طومان باى الأول من الفرار .

السلطان قانصوه الغورى :

٩٠٦—٩٢٢هـ = ١٥٠١ —١٥١٦ م

بدأ السلطان قانصوه الغورى عهده بأن شتت شمل أنصار طومان باى ، وأعمل فيهم النفى والتعذيب والقتل ، وظل طومان باى الأول يكيد للسلطان قانصوه حتى خانه أحد أتباعه وقتله ، فاستراح قانصوه من أخطر منافس لعرشه ، وتفرغ بعد ذلك للتغلب على الصعوبات الأخرى التى اعترضت سبيل حكمه ، فقاوم البدو بمساعدة أمراء سوريا ، وأعد أسطولا لحماية التجارة من غارة البرتغاليين وخاصة فاسكو دى جاما ، وأرسل البابا يهدده باضطهاد المسيحيين وهدم كنائس الشرق إذا لم يكف البرتغاليون عن غاراتهم على مصر .

ولكن ذلك لم يجد ، واستولى البرتغاليون على عدن ، فاستعد لمقاومتهم ، ولكن السلطان العثمانى سليما الأول حاربه ، واستطاع أن يهزمه فى موقعة مرج دابق قرب حلب شمال الشام ، ومات السلطان قتيلا تحت سنابك الخيل (١) .

السلطان طومان باى الثانى :

٩٢٢-٩٢٣هـ = ١٥١٦-١٥١٧م

بعد مقتل قانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق ، استقر الرأى على تعيين طومان باى ابن أخيه خلفاً له ، واعتمد هذا التعيين الخليفة الذى كان قد انضم إلى السلطان سليم العثمانى . وجلس طومان باى على عرش مصر فى أحرج الظروف : فالخليفة العباسى فى القاهرة قد انحاز إلى جانب سليم الأول ، وسوريا قد خرجت من حوزة

---

(١) راجع علاقات قانصوه الغورى بالعثمانيين وحروبه معهم فى باب « العلاقات الخارجية » .

المماليك بعد انهزام الغورى فى مرج دابق ، والعثمانيون يسيطرون على الموقف ويمممون شطر مصر .

ويتميز عهده بالحرب مع العثمانيين ، التى انتهت بمقتله (١) . وقد كان طومان سلطاناً شجاعا عادلا محبوباً من الشعب ، حزنت البلاد لفقده حزناً عميقاً ، وحاول بعض أتباعه الأوفياء أن يقتل السلطان سليما انتقاما له ولكنه فشل ، وقتل طومان باى شنقاً على باب زويله فى إبريل سنة ١٥١٧ م ، بعد أن خانه أحد زعماء العرب ، وكان طومان باى قد التجأ إليه فى مديرية البحيرة بعد هزيمته فى واقعة الريدانية ، إذ سلمه لسليم .

وكان طومان باى آخر سلاطين دولة المماليك البرجية ، وبمقتله دخلت البلاد فى عهد جديد ، إذ أصبحت مصر تحت السيادة العثمانية .

---

(١) راجع تفصيل الكلام على فتح العثمانيين لمصر فى باب (العلاقات الخارجية) .

القسم الثانى

العلاقات الخارجية والحضارة ونظم الحكم

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

حروب مصر وعلاقاتها بمختلف الدول

يعد موضوع العلاقات بين مصر والشرق فى العصور الوسطى من أجدر الموضوعات بالدرس والتحليل. بدأت هذه العلاقات بفتح العرب لمصر وتحويلها إلى دولة إسلامية سنة ٢٠ هـ. ومنذ ذلك الحين ومصر إما تحكم مباشرة من مركز الخلافة من المدينة أيام الخلفاء الراشدين أو من دمشق أيام الأمويين أو من بغداد فى عهد الخلفاء العباسيين، وإما أن تخضع بصفة إسمية للخلافة ويحكمها وال شبه مستقل يعينه الخليفة كما كان الحال أيام الطولونيين والإخشيديين، واستمر الحال كذلك حتى أصبحت مركزا للخلافة أيام الفاطميين، ثم عادت إلى عهد التبعة الإسمية للخلافة العباسية فى عهد سلاطين الأيوبيين، وفى عهد سلطنة المماليك لم تصبح مصر مستقلة استقلالا تاما فحسب بل أكثر من ذلك أصبحت مقراً للخلفاء العباسيين الذين كانوا خاضعين تماماً لسيطرة المماليك.

وإليك فترات حكم الأسرات فى مصر:

(أولا) فترات كان يربط فيها مصر بالخلافة، الخطبة والسكة والجزية:

١ — عهد تبعية مصر للخلفاء الراشدين ٢٠ — ٤٠ هـ = ٦٤٠ — ٦٦١م

٢ — عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين ٤٠ — ١٣٢هـ = ٦٦١ — ٧٥٠م

٣ — عهد تبعية مصر للخلفاء العباسيين ١٣٢ — ٢٥٤هـ = ٧٥٠ — ٨٦٨م
٢٩٢ — ٣٢٣هـ = ٩٠٥ — ٩٣٤م

(ثانياً) فترات كانت فيها مصر مستقلة فى الحكم، مع التبعية لغيرها فى الاسم فقط:

١ — الدولة الطولونية ٢٥٤ — ٢٩٢هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥م

٢ — الدولة الإخشيدية ٣٢٣ — ٣٥٨هـ = ٩٣٤ — ٩٦٩م

٣ — الدولة الأيوبية (١)　　٥٦٧ — ٦٤٨هـ = ١١٧١ — ١٢٥٠ م

ثالثا — فترات كانت فيها مصر دولة مستقلة استقلالا تاما :

١ — الدولة الفاطمية　　٣٥٨ — ٥٦٧هـ = ٩٦٩ — ١١٧١ م

٢ — دولة المماليك　　٦٤٨ — ٩٢٣هـ = ١٢٥٠ — ١٥١٧ م

أولا ـ من الفتح العربى الى الفتح الفاطمى

١ — من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية

علاقة مصر بالخلافة :

عند ما تحولت مصر إلى ولاية إسلامية لم تكن علاقتها بالخلافة علاقة المغلوب بالغالب والعبد بالسيد ، وإنما كانت علاقة مبنية على التعاون والمنفعة المتبادلة ، فقد أراح الإسلام مصر من عنت الروم واضطهادهم الدينى ، كما أراحها من الضرائب الثقيلة التى فرضها الرومان . وهكذا نرى أن مصر كانت تعتبر الخليفة الإسلامى منقذا لا فاتحا ، ولا ننسى أن عمر بن الخطاب عهد بولاية مصر إلى عمرو بن العاص الذى تميز عهده بالشفقة على المصريين والتسامح معهم ، فلم يكن هناك إذا داع لتمرد مصر على حكم العرب ، ولا ننسى كذلك صرامة عمر وشدته فكانت الولايات الإسلامية فى عهده لا تجسر على القيام بأية حركة ثورية .

فلما جاء عهد عثمان — وهو المعروف بلينه وطيبته — تغير الحال عن ذى قبل ، وتمكن عبدالله بن سبأ من أن يجد فى مصر تربة خصبة لنشر مبادئه الثائرة على حكم عثمان ، والقائلة بالحق الإلهى لعلى بن أبى طالب ، وقد انضم المصريون إلى عبد الله بن سبأ لكراهيتهم لعبد الله بن أبى سرح ، ذلك الوالى الذى عينه عثمان فاضطهد المصريين وفرض عليهم الضرائب الفادحة ، وحكمهم بطريقة لا تتفق وسياسة التسامح الحكيمة التى سار عليها عمرو بن العاص فى مصر .

---

(١) يلاحظ أن الدولة الأيوبية تأتى فى الترتيب الزمنى لحكم مصر بعد الدولة الفاطمية ، ولكنا وضعناها هكذا ، لأن التقسيم وضع على أساس استقلال الدولة الحاكمة استقلالا ذاتيا أو استقلالا تاما .

انتشرت حركة عبد الله بن سبأ وانضم إليها الكثيرون ، وعلى رأسهم محمد بن أبي حذيفة ، فأرسل إليهم عثمان ، عمار بن ياسر فاستمالوه إليهم ، واتفق ابن سبأ مع الثائرين فى الكوفة والبصرة واجتمعت وفودهم بالوفود المصرية فى المدينة ، وقد أجاب عثمان مطالب المصريين فرجعوا . ولكنهم قابلوا فى الطريق أحد رجال عثمان ومعه رسالة إلى عبدالله بن أبى سرح يأمره فيها بقتل زعماء الحركة بمجرد وصولهم مصر ، وهكذا رجع المصريون وباقى الثائرين من المدن الأخرى وحاصروا عثمان وانتهى الأمر بقتله (١) .

فلما تولى الخلافة على بن أبى طالب اضطربت مصر بين حزبين هما : حزب على وحزب عثمان ، على أنها لم تتدخل تدخلا جديا فى النزاع بين على ومعاوية . وانتهى الأمر باستيلاء معاوية عليها ، وظلت مصر مضطربة حتى استقرت الخلافة لمعاوية وولى عمرو بن العاص عليها ، فساد فيها الهدوء .

ولم نسمع أن مصر عارضت فى بيعة يزيد كما حدث أن أغلب العواصم الإسلامية الأخرى ، ولعل ذلك راجع إلى تأثير عمرو بن العاص .

وظلت مصر على وفائها للخلافة الأموية ، غير أنه فى بدء خلافة مروان بن الحكم انتشرت فيها دعوة عبدالله بن الزبير حتى إن ابن الزبير استولى عليها وولى عليها عبد الرحمن بن جحدر ، ولكن مروان بن الحكم بعد انتصاره فى موقعة مرج راهط ، سار بجيش كبير إلى مصر وهزم ابن جحدر ودخل عين شمس ثم الفسطاط فى جمادى الأولى سنة ٦٠ هـ ، وأخضع مصر لسلطانه مرة أخرى ، وقتل كل من ظل على مبايعته لابن الزبير (٢).

علاقة مصر بغيرها من البلدان :

قامت بين مصر وبلاد النوبة حروب ، لمتاخمة ذلك الإقليم لمصر ، فقد غزاها عمرو بن العاص ، وأتم عبد الله بن أبى سرح هذا الغزو حتى بلغ دنقلة سنة ٣١ هـ وقاتل النوبيين قتالا عنيفاً ، قال فيه أحد الشعراء :

---

(١) راجع الباب الأول من هذا الكتاب لدارسة تاريخ هذه الحركة بالتفصيل .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٩٢ .

لم تر عينى مثل يوم دنقلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة

على أن عبدالله بن أبى سرح لم يتمكن من فتح النوبة ، وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الطرفين أشبه بمعاهدة اقتصادية ، فقد اتفق فيها على أن ترسل النوبة إلى مصر ما تحتاج إليه من الرقيق فى مقابل أن تأخذ منها ما ينقصها من الحبوب .

وفى نفس السنة التى غزا فيها عبدالله بن أبى سرح بلاد النوبة ، وقعت بين ذلك الوالى وبين الروم موقعة عنيفة قرب الأسكندرية أطلق عليها معركة « الصوارى » لكثرة صوارى السفن التى اشتركت فى القتال ، وقد انتصر المصريون فى هذه الموقعة واستولوا على كثير من سفن الروم ، وكانت هذه السفن نواة للأسطول المصرى الكبير ، الذى اعترف بفضله فى النضال الذى قام فيما بعد بين الأمويين والبزنطيين .

أما عن بلاد المغرب — وهى أيضا متاخمة لحدود مصر — فقد حاول عبد الله ابن أبى سرح أن يفتحها ، فاستأذن فى ذلك عثمان رضى الله عنه ، فلما أذن له سار إليها بجيشه ، غير أن خطته لم تجد كثيراً ، فترك القيادة لعبدالله بن الزبير ، فتمّ فتح تلك البلاد على يديه .

١ — فى عهد الطولونيين

علاقات الطولونيين بالعباسيين :

ما كاد ابن طولون ينجو من المشكلات الداخلية التى اعترضته ، حتى واجهته مشكلة خارجية أجل شأناً وأعظم خطراً ، هى ظهور العداء بينه وبين الموفق بالله أبى أحمد طلحة ، أخى الخليفة المعتمد العباسى وصاحب الأمر والنهى فى بغداد . كان الموفق لا يرى أخاه المعتمد أهلا للخلافة ، وزاد حنق الموفق على المعتمد تقديمه ابنه المفوض عليه فى ولاية العهد . وقسم الخليفة أملاك الدولة بين ابنه المفوض وأخيه الموفق : على أن يخص الموفق الأملاك الشرقية وتنضم إليه البصرة والكوفة ، ويخص المفوض الأملاك الباقية وهى القسم الغربى من الدولة العباسية . ووضع المعتمد تلك الشروط فى الكعبة ، ونص فيها على أنه إذا حدث فى القسم الخاص بأحدهما

ما يستدعى إنفاق شيء من المال ، فإن نفقته تكون من مال خراج ذلك القسم . وكانت مصر من القسم الذى يشرف عليه المفوض ابن الخليفة .

بدأ الخلاف بين ابن طولون والموفق حين احتاج الأخير إلى الأموال التى يستعين بها فى قتال صاحب الزنج .

والزنج هم طائفة من عبيد إفريقية ، أثاروا الرعب والفزع فى حاضرة الخلافة العباسية ، وهددوا كيان الدولة ، وكان مسرح هذه الثورة الجامحة العنيفة فى المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط . وقاد هؤلاء الزنوج رجل فارسى يسمى على بن محمد ، ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على ، ولكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعى ، على الرغم من ادعائه النسب إلى على وفاطمة ، ولكنه جهر بعقائد مذهب الخوارج الذين جعلوا الخلافة أمراً مشاعا بين جميع المسلمين للأحرار والأرقاء على السواء . قدم صاحب الزنج العراق ، ودعا إلى تحرير العبيد فى البصرة وضواحيها واستمال قلوبهم ، حتى إنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه ، فعظم شأنه وقويت شوكته ولقيت دعوته قبولا ، ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ . وما لبث الزنج أن ألقوا الفزع فى قلوب كثيرين من أهالى البلاد الإسلامية : فقد نهبوا القادسية ، وهزموا أهالى البصرة واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة ، ثم استولوا على البصرة وذبحوا كثيراً من أهلها وخربوا مسجدها الأعظم وأضرموا النار فى المدينة .

أثار الزنج مخاوف الخليفة العباسى المعتمد حين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بغداد ، وظل خطرهم يتزايد حتى عهد إلى أبى أحمد الموفق طلحة بقتالهم (١) ، فكتب ابن طولون بأن يمده بما يستعين به فى تلك الحرب ، مع أن مصر كانت ضمن أعمال المفوض .

ولما علم الخليفة المعتمد بذلك بعث إلى ابن طولون بكتاب يأمره فيه بأن يرسل

---

(١) دامت الحرب بين صاحب الزنج والموفق أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وقضى عليهم الموفق وقواده .

المال المعتاد إرساله سنويا إلى بغداد مباشرة لا لأى شخص آخر ، ويحذره فى هذا الكتاب من نوايا الموفق بالله ، فيقول : إن الموفق إنما أنفذ نحريراً (رسول الموفق) إليك عينا ومستقصيا على أخبارك ، وأنه قد كاتب بعض أصحابه ليفسدهم عليك فاحترس منهم (١) .

على أن ابن طولون بعث إلى الموفق مع رسوله نحريراً مليونا ومائتى ألف دينار وودع الرسول بنفسه حتى العريش ، ولما عاد إلى مصر وفض الكتب التى أخذها من نحرير وجدها موجهة إلى بعض القواد يستميلهم فيها إلى الموفق فعاقبهم ابن طولون حتى ماتوا .

والواقع أن ابن طولون أراد مساعدة الموفق فى قتاله لصاحب الزنج ، صيانة للدولة العباسية ومحافظة على أركانها من أن تتصدع ، تخالف أمر الخليفة . ولم يكن ذلك عن خوف من الموفق ، لأن مصر لم تكن من القسم الذى يشرف عليه أو تجبى له منها الأموال ، كما أن ابن طولون كان يعلم أن لديه من القوة الحربية مايكفى للوقوف فى وجه الموفق . ورغم ذلك كله ، فإن الموفق لم يقدر لابن طولون عمله بل سخط عليه وكتب إليه مستقلا ذلك المال ويقول إن الحساب يوجب أضعاف ماحمله إليه .

رد ابن طولون على الموفق بكتاب طويل يتضح منه أن ابن طولون ساعد الموفق ، رغم أنه ليس تابعا له ، لأنه كان يعلم حقيقة الخطر الذى يهدد سلامة الدولة العباسية . قال ابن طولون فى كتابه إلى الموفق : « على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها ولا الأمر الذى يدعو إليها ويوجبها ، إذ لم يكن بينى وبينه معاملة توجب مشاجرة أو تحدث منافرة . وكان العمل الذى أنا سببه ليس له ، والمكاتبة فى أموره ليست إليه ، وتقليدى ليس من قبله ولا أنا من ولاته »(٢) .

وكانت نتيجة ذلك الخطاب أن اشتد العداء بين الموفق وابن طولون ، إذ كان الموفق يعمل على إقصاء ابن طولون عن مصر بشتى الوسائل ، لاعتقاده أنه إنما يريد تكوين امبراطورية مستقلة ، كما أن ابن طولون ضاق بالموفق ذرعا فقطع صلته به ومنع حمل المال إليه ، وأخذ يوسع ملكه فاستولى على الرملة ودمشق وحمص وأنطاكية

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٢٠ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨٧ و ١٩٨ .
(٢) ابن الداية : نفس المصدر ص ٢٠ و ٢٤ . المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٧٨ و ١٨٩ .

وغيرها من مدن الشام حتى أصبح ملكه يدانى ملك الخليفة نفسه . وظلت تبعيته مع ذلك للخلافة العباسية قائمة ، وتتمثل فى ذكر اسم الخليفة فى الخطبة وإرسال الجزية السنوية المعتادة إليه .

عقب وصول خطاب ابن طولون إلى الموفق ، بدأ هذا يكيد لوالى مصر بأن أحضر موسى بن بغا التركى الذى أشركه المعتمد مع ابنه جعفر المفوض فى إدارة القسم الغربى من الدولة ، وأمر موسى بعزل ابن طولون والكتابة إلى ماجور والى دمشق بأن يتولى مصر بدلا منه . إلا أن كلا من ماجور وموسى لم يجدا من أنفسهما قدرة على تنفيذ ما أمرهما به الموفق وتثاقلا عن السير ، لعلمهما بقوة ابن طولون الحربية . ولما اتصل بابن طولون مايدبره له الموفق أقلقه ذلك ، لالعجزه عن مواجهة الموقف ، بل لأن ذلك سيضطره إلى محاربة جيش الخليفة العباسى. واستعد للقتال بتحصين الفسطاط وبناء حصن الجزيرة وإعداد أسطول بحرى مؤلف من مائة سفينة حربية ، كل ذلك وموسى مقيم فى الرقة ينتهز الفرصة للاغارة على مصر . وبعد عشرة شهور من إقامته هناك حدث مالم يكن فى الحسبان ، وهو ثورة جنده من الأتراك عليه ومطالبته بأرزاقهم ، فعاد موسى إلى سامرا ، حيث خدم الحظ ابن طولون إذ مات موسى سنة ٢٦٤ هـ ، بعد شهرين من وصوله إليها . وبذلك انتهت المحاولة التى دبرها الموفق للقضاء على ولاية ابن طولون فى مصر .

لما فشل الموفق فى عزل ابن طولون عن مصر دبر له مكيدة أخرى لدى الخلافة العباسية ، هى عزله عن ولاية الثغور ، ويقصد بالثغور إذ ذاك كل أرض تقرب من أرض العدو ويخشى هجومه منها ، وكان أهمها ثغور الشام والأسكندرونة وطرسوس وثغور الجزيرة كثغرى مرعش وأنطاكية . وللوصول إلى ذلك أوغر الموفق صدر الخليفة المعتمد على ابن طولون ، وأفهمه أن الثغور تحتاج إلى من يقيم فيها . ورغم محبة المعتمد لابن طولون فقد نجحت مكيدة الموفق واستقر رأيه على أن يتولى الثغور ولاة مستقلون . ولكن سوء الطالع الذى لازم الموفق فى خطواته التى قصد بها إقصاء ابن طولون عن مصر لازمه أيضا حينما قصد إقصاءه عن ولاية الثغور ، إذ توفى الواليان اللذان عينا من قبل الخليفة على الثغور ، وأساء الثالث ويدعى لؤلؤة التصرف ، حتى ضج أهالى طرسوس والجند الأتراك بالشكوى وأنذروا

بتسليم قلعتهم للروم . وإزاء هذا الاضطراب رد الخليفة الثغور إلى حكم ابن طولون، على أن ينيب عنه فيها من يحفظها ويضبط أمرها ، فعين ابن طولون أحد أنصاره لإدارتها وأوصاه أن يحسن معاملتهم .

بذلك فشل الموفق فى كل محاولاته ضد ابن طولون ، سواء فى صرفه عن مصر أو عن الثغور ، فاتجه الموفق ناحية الخليفة المعتمد وضيق عليه وغل يده عن كثير من أعمال الدولة دون أن يترك له شيئاً من حرية التصرف . وتفصيل ذلك أن حال الخليفة المعتمد بلغت حدا من الضعف لايمكن تصوره ، حتى قيل إنه احتاج مرة إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها ، فقال :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ماقل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ويمنع بعض مايجبى إليه ؟ (١)

شكا المعتمد إلى ابن طولون حاله ، فرد عليه ابن طولون بكتاب يخوفه فيه من الموفق ويشير عليه بالحضور إلى مصر . ومما جاء فى ذلك الكتاب : « قد منعنى الطعام والشراب والنوم ، خوفى على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه ، فيصبح أصحابه وقد حنثوا فى اليمين المؤكدة له فى أعناقهم ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم مجتمعة آراؤهم شديد بأسهم ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانحياز إلى مصر ، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ويزول عنه مايخاف فى كل لحظة » (٢) . ويظهر أن ابن طولون كان يرمى من وراء ذلك إلى حماية شخص الخليفة من الامتهان لإكرام الخليفة له ، كما قصد أيضاً أن يجعل الخليفة بعد وصوله إلى مصر فى كنف ابن طولون ، فيصبح صاحب الأمر المطلق حتى على الخليفة نفسه ، لأن وجوده فى مصر يقوى مركز ابن طولون ومركز مصر الدولى.

ارتاح الخليفة إلى فكرة ابن طولون ، وكتب إليه يخبره بعزمه على المسير إلى

---

(١) حسن ابرهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٨ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ٦٨ — ٦٩ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤٥ .

مصر . وانتهز المعتمد فرصة غياب أخيه الموفق ، وانشغاله بحرب صاحب الزنج وخرج من سامرا واستقر فى الرقة سنة ٢٦٩ هـ . وبعد ذلك العام عاما عنيفا حدثت فيه أحداث كبيرة ، إذ ارتفع فيه ابن طولون إلى القمة ، ولقى حتفه بعده بسنة واحدة . ومالبث الموفق أن علم بمسير الخليفة المعتمد إلى مصر ، فعمل على إحباط المشروع ، وعهد بذلك إلى ابن كنداج عامله على الموصل والجزيرة وفى الرقة كثر الجدل بين أتباع كل من الخليفة وابن كنداج على النتائج التى تترتب على تنفيذ المشروع الذى اعتزمه الخليفة . وبعد أن اشتد النقاش ، أمر ابن كنداج بالقبض على كل من حضر مع المعتمد من سامرا ، وعنف الخليفة بشدة على ترك ملكه وفرقة أخاه وهو منشغل بحرب الزنج والاحتماء بأحد ولاة الدولة العباسية وهو ابن طولون ، ثم أمر بأن يكبل كل من الخليفة وأتباعه بالقيود ويعودوا من حيث أتوا ، وفشلت بذلك محاولة الخليفة الاستقرار فى مصر ، وأحبط مشروع ابن طولون وهو نقل مقر الخلافة إلى الديار المصرية ، وما يتبع من مزايا كبيرة أهمها رفع شأن مصر بين الأمم وحبس الضرائب عن بغداد والاستفادة بها فى تعمير مصر .

استاء ابن طولون من عمل الموفق وعامله على البصرة ، فارسل إلى أهل مصر كتابا قرئ عليهم ، وفيه « أن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد وأسره وحرش عليه وأنه يبكى بكاءا شديداً » (١) . وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة فذكر ما آل إليه أمر المعتمد وقال : « اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه » .

ولم يكتف ابن طولون بذلك بل أرسل إلى عامله على دمشق كتابا أمره فيه بأن يحضر القضاة والفقهاء والأشراف فى مجلسه ويقرأ عليهم نص كتابه ، وفيه يعلن خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وحصره إياه ، ومما جاء فيه : « أن أبا أحمد خلع الطاعة وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة » . وشهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجالات مصر هم : القاضى بكار بن قتيبة ، ومحمد ابن ابراهيم الأسكندرانى ، وفهد بن موسى . ووافق بكار على خلع الموفق وسماه

---

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٦٦٢ .

الناكث ولكنه لم يوافق على لعنه (١) . وفى ذلك يقول الكندى : وسماه بكار، الناكث(٢)، وأشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور ، فطلب منه أحمد (ابن طولون) أن يلعنوا الموفق ، فامتنع بكار فألح عليه فأصر على الامتناع حتى أغضبه ، وكان قبل ذلك مكرما معظما له وعارفا بحقه ، وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار . فلما غضب عليه أرسل إليه : أين جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتمها ستة عشر كيسا فقبضها أحمد » (٣) .

وأتيح لابن طولون أن يصل إلى هذه القوة ، حتى أمر بلعن ولى عهد الخلافة نظرا لما كان عليه حال الدولة العباسية من ضعف ووهن . نستدل على ذلك مما قاله منصف بن خليفة الهزلى أحد شعراء مصر فى هذا العصر :

ياغرة الدنيا الذى أفعاله	غرر بها كل الورى تتعلق
أنت الأمير على الشآم وثغرها	والرقتين وما حواه المشرق
وإليك مصر وبرقة وحجازها	كل إليك فؤاده متشوق
هتك الخلافة صاعد وخليله	اسحق لعباً والحسود الأخرق
أسيافنا بيض المتون (٤) فليتها	بنجيع (٥) من جذل الإمام تخلق (٦)

وقال قعدان بن عمرو :

طال المدى بابن طولون الأمير كما	يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها	منه على الهول ماض غير محجام
فى محفل للمنايا فى مناقبه	مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بنى كنداج معلقة	بالمشترى لم يفته أو بهرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا	بصارم من سيوف الله صمصام
يأيها الناس هبوا ناصرين له	مع الأمير بدهم الخيل فى اللام

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٩٥ .
(٢) الكندى ص ٥١٢ .
(٣) راجع سيرة بكار بن قتيبة فى كتاب القضاة للكندى ص ٥٠٩ — ٥١٤ .
(٤) المتون : حد السيف . (٥) النجيع : الدم . (٦) تخلق : تخضب .

ليست صلاة مصليكم بجائزة ... ولا الصيام بمقبول لصيام
حتى يرى السيد الميمون ذبحكم ... عن الإمام بأطراف القنا الدامى

وقد أثرت سياسة لعن الموفق على منابر دمشق فى نفسه أيما تأثير ، حتى أمر هو أيضاً سنة ٢٦٠ ﻫ بلعن ابن طولون على المنابر ، ونجح فى استصدار أمر من أخيه المعتمد على كافة المنابر التى تدخل فى حدود الدولة العباسية ، ولو لم يكن الموفق مشغولا بحرب صاحب الزنج لكان عقاب ابن طولون شديدا [١] ، وهكذا تحولت الخصومة بينه وبين الموفق من ميدان القتال إلى ميدان المنابر ، وفى عام ٢٦٩ ﻫ أيضا حاول ابن طولون أخذ مكة من عامل العباسيين عليها ، ولما علم بذلك الموفق اشتد قلقه وبعث جيشا انتهى بهزيمة قواد ابن طولون ، وزاد الحالة سوءا أنه قرئ فى المسجد الحرام كتاب بلعن ابن طولون .

وهكذا يكون عام ٢٦٩ﻫ عاما مشئوما عليه ، إذ نجح الموفق فى محاولاته ضده فبعد أن فشل فى صرفه عن مصر والثغور ، نجح فى لعنه على المنابر ، وقضى على محاولاته فى فتح مكة ، كما قضى أيضا على ولايته على الثغور ، فقد ثار أهل طرسوس على نائبه فيها واشتدت ثورتهم لدرجة أن ابن طولون فشل فى تهدئة الحالة مع أنه خرج إليهم بنفسه ، واضطر إلى الرحيل عن طرسوس ، ومات كمدا سنة ٢٧٠ ﻫ بعد عودته إلى مصر بقليل .

* * *

واعترضت خمارويه ، كما اعترضت والده أحمد من قبل ، عدة صعوبات ، كان لابد له من تذليلها والتغلب عليها ، كى تتوطد أركان دولته . وأشد هذه الصعوبات خطراً ، ذلك العداء الذى كان يضمره أبو أحمد الموفق طلحة للطولونيين عامة .

وكان الواسطى ، كاتب أحمد بن طولون ، أى الرجل الذى كان يقوم بمهام الوزير ، قد حرض خمارويه على قتل أخيه العباس ، فقتله ، ولكن الواسطى خاف بعد ذلك أن يؤلب الناس خمارويه عليه ، فينتقم منه ليثأر لأخيه ، فبعث الواسطى

---

(١) Lane – Poole : Egypt in the Middle Ages, p . 96 .

إلى الموفق طلحة يصغر من شأن خمارويه ويدعوه لأخذ مصر ، فأجابه الموفق إلى ذلك ، وسار من بغداد على رأس جيش كبير ، يساعده ابن كنداج والى الموصل وابن أبى الساج والى أرمينية والجبال ، فاستولى على دمشق ، ثم استأنف سيره ، حتى وصل بالقرب من الرملة . وفى هذه البلدة تقابل الفريقان ، وحدثت واقعة كبرى كان النصر فيها حليف الموفق ، فعاد خمارويه ، ولكن فلول جيشه باغتت جند العباسيين وهم منشغلون بجمع الأسلاب والغنائم وهزمتهم (١) . ولما علم خمارويه بذلك عاد إلى الشام ، واستولى على دمشق سنة ٢٧٣هـ ، ثم على الموصل وأرمينية وخضعت له تلك الجهات ودعت له فى خطبة الجمعة .

وكان من نتيجة هذا الانتصار أن عرض الخليفة العباسى وأخوه الموفق الصلح على خمارويه على أساس توليته على مصر والشام ، مدة ثلاثين سنة . هو وأولاده من بعده ، وهنا أمر خارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر ، والدعاء له مع الخليفة ، وعقب ذلك النصر اعترف بولايته ولاة الموصل والجزيرة وطرسوس وأرمينية (٢) .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج فى سنة ٢٧٨هـ والخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ على توطيد سلطان خارويه ، الذى استطاع أن يكسب رضاء الخليفة المعتضد بهداياه فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده على أن يرسل ٢٠٠ر٠٠٠ دينار عن الأعوام التى امتنع فيها عن تسليم الجزية و ٣٠٠ر٠٠٠ دينار عن الأعوام المقبلة (٣) . وظلت سياسة حسن التفاهم قائمة ، حتى عرض خمارويه زواج ابنته قطر الندى من ابن الخليفة ، ولكن الخليفة تزوجها هو ، توطيدا لأواصر المودة بينه وبين الوالى ، وجهزت بأفخم جهاز ، صار مضرب الأمثال فى مصر وسائر الأقطار فى العصور الوسطى .

واستمرت العلاقات ودية بين بغداد والقطائع طول عهده الخليفة المعتضد زوج قطر الندى . ولكن بوفاة المعتضد وولاية المكتفى عرش الخلافة العباسية ، عادت

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٣١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١٩ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١٩ .

مصر إلى عهد التبعية المطلقة للعباسيين ، وظلت مصر على هذه التبعية الأثين سنة (٢٩٢ — ٣٢٣هـ) ، فى حالة اضطراب وارتباك بسبب ضعف مصر وبغداد فى آن واحد ، وأصبحت علاقة بغداد بمصر تنحصر فى العمل جهد الطاقة على صد غزوات الفاطميين ، التى توالت على مصر بعد تأسيس الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب .

علاقات الطولونيين بالبيزنطيين .

أقام ابن طولون قبل توليته على مصر ، فى طرسوس ، الواقعة على الحدود بين آسيا الصغرى والشام ، وأفادته إقامته فى تلك المدينة فى تنشئته نشأة حربية لأهمية ذلك الثغر الحربية ، كما أشبعت رغبته فى تلقى العلم لأنها كانت موطن فلاسفة الروم .

على أن أهل طرسوس — ومعظمهم من الروم — أقلقوا بال ابن طولون بعد أن أصبح والياً مصر ، وكثيرا ما شقوا عصا الطاعة عليه وقتلوا ولاته ، إذ أنهم فى سنة ٢٦٥هـ قتلوا واليه على تلك المدينة ، مما اضطره إلى الخروج إليهم بنفسه لإخضاعهم ، ولكنه لم يستطع ذلك لثورة العباس على أبيه ابن طولون .

وقام الروم بعدة اضطرابات فى سنة ٢٦٩هـ ، ولم يكن فى قدرته رد الروم فى طرسوس إلى طاعته ، لأنه كان منشغلا إذ ذاك بمسألة التجاء الخليفة العباسى إليه ورغبة ابن طولون فى جعل مقرّ إقامته فى الديار المصرية والاستعانة به ضد أبى أحمد الموفق طلحة ، ثم لانشغال ابن طولون بعقد مجلس فى دمشق لعزل الموفق . وذهب ابن طولون بنفسه سنة ٢٦٩هـ قبل وفاته بقليل إلى طرسوس لإخضاعها ، ولكنه مالبث أن مرض بها مرض الموت ، ولم يتحقق حلمه فى إخضاع تلك المدينة .

ومن ذلك يمكن القول أن طرسوس لم تخضع لحكم ابنّ طولون خضوعا تاما وظلت الحرب سجالا بينه وبين الروم حتى أن نائب أحمد بن طولون فى الشام خلف الفرغانى التركى غزا ثغور الشام وقتل من الروم بضعة عشر ألفا وغنم منهم غنائم حربية .

وبعد وفاة ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ تقلص نفوذ ابنه خمارويه على طرسوس ،

ولكنه عمل على استعادة نفوذه وأرسل طغجا ابن جف لغزوها سنة ٢٧٤هـ ، فقابله واليها بالإكرام والتبجيل ، فامتنع عن فتحها واكتفى بالاستيلاء على طرابيزون . وكان ذلك من عوامل الخلاف بين خمارويه وطغج ، ذلك الخلاف الذى أدى فى النهاية إلى قتل خمارويه فى دمشق سنة ٢٨٢ هـ .

٣ ـ فى الفترة التى تلت سقوط الطولونيين إلى أن ولى حكمها الإخشيديون

الحملات الفاطمية على مصر :

بدأت حملات الفاطميين على مصر لامتلاكها منذ خلافة عبيد الله المهدى(١) . (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ = ٩٠٩ — ٩٣٤ م) أول خلفاء الفاطميين فى المغرب . فأرسل لذلك الغرض ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى سنة ٣٠١ هـ ، والثانية فى سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا فى سنة ٣٠٩ هـ ، فى حين ابتدأت الحملة الثالثة فى سنة ٣٢١هـ واستمرت حتى عهد ابنه القائم سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث التى أرسلها المهدى فى ضم مصر إلى سلطان الفاطميين .

ذلك أنه فى سنة ٣٠١ هـ جمع المهدى جيشا من المغاربة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى (٢) ، فاستولى على برقة ، وهناك انضم إليه أبو القاسم بن المهدى وولى عهده . وواصل السير إلى الأسكندرية فاستولى عليها ، وتابع السير فى الوجه البحرى، وإذ ذاك بعث الخليفة المقتدر العباسى ، مؤنسا الخادم أحد كبار قواده ، على رأس

---

(١) يرجع الفضل فى وصول عبيد الله المهدى إلى الخلافة فى المغرب إلى جهود داعية الفاطميين أبى عبد الله الشيعى ، الذى دعا لأولاد على وقضى على دولة الأغالبة فى تونس وأطلق عبيد الله من سجنه فى سجلماسة وسلم إليه مقاليد الخلافة ودانت له كل قبائل المغرب بالطاعة والولاء .

(٢) نسبة إلى قبيلة كتامة ، وهى القبيلة التى قامت بنصرة الفاطميين وساعدت على تأسيس دولتهم بالمغرب .

جيش بلغ أربعين ألف مقاتل (١) ، فحلت الهزيمة بجيش حباسة جهة الجيزة ، وعاد أدراجه ، فقتل المهدى حباسة بعد وصوله .

وفى سنة ٣٠٧ هـ سار إلى مصر جيش آخر من الفاطميين بقيادة أبى القاسم ابن المهدى . فاستولى على الأسكندرية ، وما لبث أن هزم هذا الجيش فى الجيزة كسابقه ، وأحرقت كثير من سفن المهدى ، وقتل وأسر معظم الجند والقواد الفاطميين ، وكان لانتصار مؤنس الخادم على الحملتين الفاطميتين على مصر ، رنة فرح فى البلاد ، حتى أمر الخليفة العباسى بإطلاق لقب « المظفر » عليه إشادة بما ناله من نصر وخلع عليه هذا اللقب وسط مظاهر التكريم والاحتفالات الرائعة (٢) .

أما الحملة الفاطمية الثالثة ، فقد ابتدأت سنة ٣٢١ هـ وظلت ثلاث سنوات حتى سنة ٣٢٤ هـ . وفى أثناء هذه الفترة ، حدثت بين الجيوش الفاطمية والجيوش المصرية عدة مناوشات ، انتهت بعقد الصلح بين الفريقين ، إلا أن هذا الصلح لم يطل أمده وعادت الأحوال إلى ما كانت عليه قبل عقده .

بذلك انتهت هذه الحملات الثلاث بالفشل . ويرجع ذلك إلى أن الخليفة العباسى كان إذ ذاك من القوة بحيث استطاع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ، ولأن الفاطميين أنفسهم كانوا يواجهون سلسلة مصاعب داخلية واضطرابات وقلاقل ، وكان الخوارج يثيرونها فى وجههم حيناً بعد حين ، وكان الواجب يقضى عليهم بأن يعملوا على التغلب أولا على هذه المصاعب .

على أن هذه الحملات الفاطمية الثلاث على مصر ، وإن كانت قد فشلت من الناحية الحربية إلا أنها أدت إلى نشر الدعوة للفاطميين فى مصر ، فقد أصبح فيها فى ذلك الوقت عدد كبير يعطف على تلك الدعوة وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدوا بمساعدتهم على فتحها . ويظهر أن الدعوة للفاطميين فى مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين من الأنصار حتى إن ذكا الرومى والى مصر (٣٠٣ —

---

(١) الكندى ص ٢٧٤ .

(٢) مسكويه جـ ١ ص ٧٦ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٠٣ .

٣٠٧ هـ) قد خشى استفحال أمر هذه الدعوة ، وأخذ فى اضطهاد القائمين بها ، فسجن كثيرين منهم ونكل بهم (١) .

ولا شك أن الدعوة للبيت العلوى قد صادفت نجاحاً عظيماً فى مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعى ويعمل على نشره ، ويرجع ذلك إلى أن الفاطميين أدمجوا فى صفوف جندهم الذين أرسلوهم لفتح مصر ، دعاة عهدوا إليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمى ، أضف إلى ذلك ما قام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال الكتب بخطهم مذيلة بإمضاءاتهم لهذه البلاد ، يدعون الناس لاعتناق العقائد الفاطمية .

٤ – فى عهد الإخشيديين

١ – فى عهد محمد بن طغج الإخشيد

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية فى بغداد :

ينبغى لمن يتصدى لبحث علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية فى بغداد أن يعلم أن الخليفة العباسى كان فى ذلك الوقت قد فقد كل نفوذ وسلطان ، ولم يستطع أن يسترد سيطرته على بغداد ، فقد استحوذ عليها الأتراك إذ ذاك وأصبحوا سادة البلاد وأولى الأمر فيها وذهب ما كان لشخصية الخليفة من جلال ووقار ، وتقلصت أراضى الدولة العباسية وأصبحت سلطة الخليفة عليها إسمية : كما حدث فى بلاد العرب الجنوبية، وفى بلاد الحجاز ، وخضعت خراسان والأقاليم الواقعة فى شرقيها للسامانيين ، وظهرت قوة بنى بويه فى بقية بلاد فارس ، وأصبح أعالى بلاد العراق فى أيدى الحمدانيين ، وفى شمالى إفريقية أخذ الفاطميون يعملون على توطيد مركزهم فيها ، ولم يتوان ولاة الأندلس عن أن يتخذوا لأنفسهم لقب خليفة ، ولم يبق من أملاك الدولة العباسية سوى مصر والشام يحكمهما وال من قبل الخليفة ، لأن الشام كانت تابعة لمصر .

---

(١) الكندى ص ٢٧٤ .

رغم ذلك ، ظلت علاقة الإخشيد بالخليفة العباسى ودية ، وظلت مصر تعترف فى الخطبة بسيادة العباسيين عليها . ولكن تبدلت صلة الوفاق التى سادت بين الإخشيد والخليفة العباسى بمسير رجل من رجال الدولة العباسية يدعى محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد أخذ مصر (١) . فأثار هذا العمل حنق الإخشيد حتى ألغى الدعاء للخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، وأمر بذكر اسم الخليفة القائم الفاطمى مكانه ، وفى رمضان سنة ٣٢٨ هـ وقعت الحرب بين الإخشيد وابن رائق ، فبعث ابن طغج بأحد رجاله ويدعى عمران بن فارس ، على رأس جيش كبير إلى بلاد الشام لملاقاته ، ورغم ذلك استولى ابن رائق على دمشق ، بعد أن هزم واليها عبيدالله بن طغج ، واستولى على حمص وحلب ودخل الرملة (٢) .

على أن الإخشيد استعمل مع ابن رائق الأناة والصبر حتى لا يغضب الخليفة العباسى . لذلك كتب إلى على بن أحمد العجمى نائبه فى بغداد يطلب إليه أن يخبر الخليفة الراضى بمسير ابن رائق إلى مصر ، ويستوضحه حقيقة الأمر ، ومما جاء فى حديثه : « فإن كان أمير المؤمنين قلده ، سلمت له أو يأمرنى بالقتال ، فإنى صالحته وراضيته فما رضى » ، ولما عرض ابن العجمى ذلك الأمر على الخليفة لم يبد رأيا فى الموضوع ، ولكى يحكم قال : « من حارب بالسيف وهزم صاحبه ، فالعمل له » . فكتب ابن رائق يبلغ ذلك الرأى إلى الإخشيد (٣) .

وأعد الإخشيد العدة لقتال ابن رائق ، فاستخلف أخاه الحسن على مصر ، وخرج بنفسه سنة ٣٢٨ هـ ونزلا الفرما التى كانت قد اقتربت منها جيوش ابن رائق (٤) . ويظهر أنه لم يكن للاخشيد وابن رائق رغبة جدية فى القتال ، لأنه على أثر وقوع مناوشات بسيطة ، عقد الصلح بينهما على أن تكون الرملة للاخشيد وطبرية وما فى شمالها من المدن لمحمد بن رائق ، وعاد الإخشيد بعد ذلك إلى

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦ .
(٢) ابن سعيد ص ٢٦
(٣) ابن سعيد ص ٢٥
(٤) Marcel : Egypte depuis la Condnéte bes Arabes,p. ·62

دمشق فى جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ ، فسر الناس سروراً عظيما وزينت له الطرقات والأسواق (١) .

إلا أن ابن رائق نقض شروط الصلح وسار من دمشق فى شعبان سنة ٣٢٨ هـ (يونيو سنة ٩٤٠ م) ميمما شطر الديار المصرية . فلما بلغ الإخشيد ذلك غضب غضباً شديداً وأيقن أن الحرب واقعة لا محالة بينه وبين ابن رائق ، فغادر البلاد على رأس جيوشه إلى الرملة ، ودار القتال بين الفريقين ، فانتصر الإخشيد أولا فى العريش ، وعاد ابن رائق منهزما إلى دمشق ، وذهب الإخشيد إلى الرملة وبعث منها بجيش تحت قيادة أخيه الحسين ، ولكن ابن رائق هزمه هزيمة كبرى وقتل قائده الحسين (٢) .

ورغم ذلك تصالح الفريقان مرة أخرى ، وفى ذلك الصلح تعهد الإخشيد بأن يدفع لابن رائق جزية سنوية قدرها ١٤٠ ألف دينار ، وأن يتقلد ابن رائق من الإخشيد ولاية الأراضى الشامية الواقعة شمالى الرملة ، وتعهد كل من الطرفين بأن طلق سراح أسراه (٣) .

وتضاربت أقوال المؤرخين إزاء الدافع لذلك الصلح . فروى ابن سعيد أن ابن رائق عز عليه أن يرى جثة الحسين بن طغج بين القتلى ، فغسله وحنطه وبعث به إلى الإخشيد فى صحبة ابنه مزاحم ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ومعه كتاب يعزى فيه محمد بن طغج ويعتذر إليه عما حدث ويخبره أنه أرسل إليه ابنه ليفعل به ما يريد . وكان لذلك العمل أثره فى نفس الإخشيد ، فاستقبل ولد ابن رائق بمظاهر الترحيب والتكريم ثم رده إلى أبيه معززاً مكرما (٤) . وتوثقت العلاقات بين الإخشيد وابن رائق حتى تزوج مزاحم بفاطمة بنت الإخشيد، وارتبط الرجلان برباط مقدس من المصاهرة والنسب، كان له أثره فى عقد الصلح على هذه الصورة ولكن ستأتى

---

(١) الكندى ٢٨٩ .
(٢) الكندى ص ٢٩٠ .
(٣) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٢٩ .
(٤) ابن سعيد ص ٢٨ .

لينبول يرى من جهة أخرى أن هـذا الحادث قصة تـكون موازنة طريفة لأعمال الهمجية التي امتاز بها هذا العصر .

ومهما من أن الإخشيد كان يجب عليه أن يقاوم أعداءه حتى النهاية ، مقتديا فى ذلك بما كان يفعله ابن طولون عندما كانت تهدده الخلافة العباسية من الشرق والدولة البيزنطية من الغرب ، فإنه يجب علينا أن نبين أن الظروف السياسية التى أحاطت بالإخشيد حتمت عليه عقد الصلح ، ومنها : خوفه من أن يواصل الخليفة الفاطمى هجماته على مصر ، وخوفه من تهديد الخلافة العباسية لملكه ، وعلمه أن سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب يرقب الأمور عن كثب لانتهاز الفرصة للهجوم على مصر . على أن مقتل ابن رائق فى شعبان سنة ٣٣٠ هـ بعد عقد هذا الصلح بسنتين أعاد إلى الإخشيد ما كان قد تنازل عنه من البلاد الشامية ، بل انضمت أيضا مكة والمدينة إلى ملك الإخشيد فى مصر والشام .

على أن العلاقات بين الإخشيد والخليفة العباسى فى بغداد ما لبثت أن تحولت إلى علاقات ود وصفاء ، وذلك فى سنة ٣٣٢ هـ وصل الخليفة المتقى العباسى إلى درجة كبيرة من الضعف ، حين استحوذ الحمدانيون على النفوذ فى بغداد ، وصارت السلطة يتقاسمها توزون رئيس الشرطة فى بغداد والبريدى صاحب الأهواز وهما من قواد الأتراك . ووقع الخليفة فريسة بينهما من جهة وبين الحمدانيين من جهة أخرى ، فاستنجد بالإخشيد أقوى ولاته فى ذلك الوقت . فسار الإخشيد إلى الشام فى سنة ٣٣٢ هـ ، والتقى الخليفة فى مدينة الرقة الواقعة على الطريق بين الشام والعراق . وفى تلك المدينة قدم الإخشيد إلى المتقى عدداً من التحف والهدايا ، فقيل « إنه حمل إليه من العين والورق والـكسوة والجوهر والطيب والفرش والـكراع والبغال ما مبلغه مائتان وخمسون ألف دينار » ، عدا ما قدمه إلى أتباع الخليفة وخاصته[1] . مما يدل على وفاء الإخشيد ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت لا يملك من الأمر شيئا .

وفى الرقة عرض الإخشيد على الخليفة البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر ،

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠ .

وهو الاقتراح الذى سبق أن عرضه أحمد بن طولون فى نفس هذا المكان على الخليفة المعتمد (١) . وقال له الإخشيد . يا أمير المؤمنين ؟ أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله فى نفسك ، وسر معى إلى الشام ومصر فهى لك وتأمن على نفسك » (٢) . فلم يقبل الخليفة ذلك العرض ، حتى لا يترك بغداد عاصمة ملكه ومقر أسرته ، ولو كان قبل ذلك لتغير مجرى الحوادث ولأصبح لمصر مركز ممتاز بين الأمم الإسلامية .

سار الإخشيد بعد ذلك من الشام عائداً إلى مصر ، كما رجع المتقى إلى بغداد بعد أن تعهد توزون القائد التركى بحمايته ، إذا ما عاد إليها ، إلا أن توزون لم يوف بعهده ، فإنه حبس الخليفة ثم قتله (٣) . ولما بلغ الإخشيد ما حدث للخليفة حزن حزناً شديداً . ولما بويع المستكفى بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) أقر الإخشيد على ولاية مصر .

علاقة الإخشيد بالفاطميين :

بدأت علاقة الإخشيد بالفاطميين فى عهد القائم ثانى الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب . فقد كتب هذا الخليفة إلى الإخشيد خطاباً يحثه فيه على نشر الدعوة الفاطمية فى مصر ، وهذا بعض ما جاء فى هذا الكتاب :

« قد خاطبتك فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجزل لى فى عقد الدين وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ، وضمنت رقعتى مالم يطلع عليه أحد من كتابى وذوى المكانة عندى . وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه ، فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ، ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى ، وليس يتوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى ، لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ، ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد منهم أحد حسن

(١) Wiet : Histoire de La Nation Egyptienne , t. 4. P. 136

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤١ .

المكافأة ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغى أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك ، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك ، وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم ، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فإننى أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه فى أمرك وتعول عليه بمثل ذلك ، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذى يحملنى على التطاطى لك وقبول الميسور منك ، إنما الرغبة فيك ، وأنت حقيق بحسن مجازاتى على مابذلته ، والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل» (١) .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر فى نفس الإخشيد ، فقد ذكر ابن زولاق ن الإخشيد لما وقف على ماجاء فيه أخبر رسول الخليفة بأنه لا يعرف القراءة والكتابة وأنه ليس من الصواب أن يفضى بما فى نفسه إلى كاتب من الكتاب ، ثم صرفه بعد أن قال له : وأنا أتدبر الجواب وأجيب عنه ويصل مع من أثق به وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه » (٢) . وهكذا ماطل رسول الخليفة القائم .

ولكن حدث بعد ذلك ماغير صلة المودة التى ربطت الإخشيد بالخليفة العباسى ، تلك الصلة التى منعته من قبل من إجابة طلب الخليفة الفاطمى . ذلك أن الأخبار، أوصلت إلى الإخشيد بمسير محمد بن رائق إلى مصر بأمر الخليفة العباسى لأخذها وهنا يذكر ابن زولاق نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى فى مصر قصة ندرك منها أن الإخشيد ثارت ثائرته وأمر بإلغاء الخطبة للخليفة العباسى وإحلال اسم الخليفة الفاطمى مكانه ، وهذا العمل كان بمثابة خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين فى مصر ، قال الخطيب العباسى . « دعانى الإخشيد ، فقال لى : إذا كان يوم الجمعة ، فأقم الدعوة لأبى القاسم صاحب المغرب وأسقط الدعوة للراضى »(٣) .

---

(١) ابن سعيد: كتاب المغرب ص ٢٥ – ٢٦ . حسن ابراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ص ٨٩ – ٩٠ .
(٢) ابن سعيد ص ٢٦
(٣) ابن سعيد ص ٢٦ – ٢٧ .

وتلا ذكر اسم الخليفة الفاطمى اعتناق عدد كبير من المصريين لمذهب الفاطميين حتى أصبحوا يدعون لهذا المذهب جهارا ، ومعنى الدعوة لهذا المذهب ذكر أهل بيت النبي وبيان فضائلهم .

على أن المؤرخين ، مع إجماعهم على أن الإخشيد أمر بقطع الخطبة للخليفة العباسى فإنهم لم يذكروا أن الدعوة أقيمت فعلا للخليفة الفاطمى ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسى لما ضن المؤرخون بموافاتنا بهـذا الخبر لأهميته وخطورته ، فإن ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة كانا من أهم مظاهر الخلافة فى الولايات الإسلامية .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وذلك العداء القائم بين الخليفة العباسى والإخشيد على أثر مسير ابن رائق إلى الشام ، وقيام علاقات المودة بين الإخشيد والفاطميين ، وظهور فريق من الشيعيين فى مصر يعمل على نشر المذهب الفاطمى ـ كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الإخشيد قـد قطع الخطبة للخليفة العباسى ولو إلى حين (١) .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى إن الاخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الإخشيد ، فوافق القائم على ذلك ، وبعث بموافقته إلى الإخشيد ، فأرسل القائم إليه صداقا قدره مائة ألف دينار ، فاستقل لإخشيد هذا المبلغ .

هذا مارواه لنا ابن سعيد ، ونحن نشك فيه كل الشك إذ كيف يعقل أن يعرض الإخشيد وهو أحـد ولاة الخليفة العباسى ، أن يزوج ابنته من ولى عهـد الخليفة الفاطمى الذى كان يضمر له العباسـيون الـكراهية والبغضاء ، وقيل إن الخليفة العباسى قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الإخشيد حين اتصل بعلمه نبأ هذا الزواج ، فعدل الإخشيد عن المضى فى هذا السبيل ، ومات هو الخليفـة القائم الفاطمى بعد قليل .

---

(١) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٦١ .

توترت العلاقات بعد وفاة القائم بين الإخشيد والخليفة الفاطمى المنصور بن القائم ، واشتغل الخليفة الجديد بالقضاء على الثورات الداخلية التى قامت فى بلاد المغرب فى عهده ، ومن ثم فشل مشروع غزو مصر أو على الأقل اعتراف الإخشيديين بسلطان الفاطميين (١) .

علاقة الإخشيد بالحمدانيين :

على أثر عودة الإخشيد إلى مصر بعد مقابلته للخليفة المتقى ، سار سيف الدولة الحمدانى إلى حمص ميمما شطر دمشق للاستيلاء عليها ، فبادر الإخشيد بإرسال غلاميه فاتك وكافور على رأس جيش كبير إلى بلاد الشام للدفاع عن ممتلكاته . وظلت الحرب سجالا بين الفريقين ، حتى خرج الإخشيد سنة ٣٣٣ هـ بجيش كثيف إلى الشام وأوقع بجيش سيف الدولة الحمدانى فى حمص وقنسرين ، ثم استولى على حلب حاضرة الحمدانيين (٢) . إلا أن الإخشيد رغم انتصاره عقد صلحا مع سيف الدولة مؤداه أن يترك حلبا للحمدانيين وأن يتعهد بدفع جزية سنوية لسيف الدولة مقابل احتفاظ الإخشيد بدمشق وما فى جنوبها إلى آخر أعماله فى مصر .

وقد لام كثير من المؤرخين الإخشيد على عقد ذلك الصلح كما لاموه على مصالحته لابن رائق من قبل ، لأنه على الحالتين كان الإخشيد هو الفائز المنتصر . ولكن الإخشيد فسر غرضه من إبرام هذه المعاهدة بأنه أراد إبقاء الدولة الحمدانية كحصن منيع يكفيه مؤونة محاربة الروم الذين لا يفترون عن مهاجمة الشام كلما سنحت لهم الفرصة . ومما يلفت النظر كما أنه كما كانت ابنة الإخشيد من نصيب ولد ابن رائق بعد عقد الصلح بينهما ، كذلك كانت ابنة أخى الإخشيد من نصيب سيف الدولة الحمدانى (٣) ، وفرح سيف الدولة فرحاً عظيما بهذا الصلح وتلك المصاهرة حتى إنه نثر على الحاضرين ثلاثين ألف دينار .

---

(١) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٦٩ .
(٢) الكندى ص ٢٩٢ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٢٥٥ .

(ب) فى عهد كافور

علاقة كافور بالخلافة العباسية :

ظلت علاقات الود والوئام التى سادت بين الإخشيد والخليفة العباسى فى بغداد قائمة زمن كافور ، حتى سار بابنى الإخشيد : أنوجور وعلى إلى بغداد ، وعاد بهما إلى مصر بعد أن قام بتجديد ولاء الأسرة الإخشيدية للخلافة العباسية (١) . وتمكن كافور بذلك الصفاء الذى ساد بين الطرفين من أن يحتفظ بمبدأ وراثة العرش على النحو الذى وضعه الإخشيد ، وذلك بأن حصل على موافقة الخليفة العباسى على تولية الأمير أنوجور بن الإخشيد على مصر بعد أبيه ، وأصبحت مملكته تشمل : مصر والشام والمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) . واستطاع كافور بعد ذلك أن يضم إلى حكم مصر كل بلاد سورية بما فى ذلك دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس والمصيصة (٢) وغيرها من المدن والثغور (٣) . ولكن كافورا حين وجد أن مصلحته الشخصية تتعارض مع مبدأ حصر وراثة العرش فى أسرة الإخشيد ، استغل فرصة صغر أولاد الإخشيد ، وتقدير الخليفة العباسى له ، وتمكن من أن يستصدر قرارا من دار الخلافة فى ٢٦ المحرم سنة ٣٥٥ هـ بتوليته على مصر وما يقع تحت سيطرتها من البلاد ، على الرغم من أنه لم يمت بأية قرابة إلى الأسرة الإخشيدية الحاكمة ، وتخطى أحمد بن على بن الإخشيد .

علاقة كافور بالحمدانيين :

بعد استيلاء كافور على زمام الحكم فى مصر ، جاءته الأنباء باضطراب الأمور فى الشام واستيلاء سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب على دمشق وعزمه على المسير إلى الرملة ميمما شطر مصر ، إذ اعتقد سيف الدولة أن الفرصة قد سنحت له كى يستحوذ على جزء من ممتلكات صهره الإخشيد ، فخرج إليه كافور من مصر على

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٢) تقع المصيصة بين أنطاكية وبلاد الروم بالقرب من طرسوس فى بلاد الشام .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

رأس جيش كبير ، ومعه أنوجور بن الإخشيد وعمه الحسن بن عبيد الله بن طغج أخو محمد بن طغج ، والتقوا مع سيف الدولة قرب الرملة وانتصروا عليه انتصارا حاسما بالقرب من حلب والرقة (الكورة التي منها دمشق) (١) .

وعقب هزيمة سيف الدولة ، دخل الجيش المصرى سنة ٣٣٦ هـ مدينة دمشق وغنم الغنائم الوفيرة ، ثم عقد الصلح بين الفريقين ، بنفس الشروط التى تصالح بها الإخشيد مع سيف الدولة ، أما الجزية التى نص عليها فى صلح الإخشيد مع سيف الدولة فقد أوقف دفعها (٢) ، وبتلك المعاهدة عاد لسيف الدولة ما كان تحت يده من حلب وغيرها من البلاد .

علاقة كافور بالفاطميين فى المغرب :

فى عهد كافور ، حاول المعز لدين الله الفاطمى إعادة الكرة لغزو مصر ، بعد أن فشل فى غزوها أسلافه المهدى والقائم والمنصور . وسار بجيشه من بلاد المغرب إلى حدود مصر الغربية ووصل إلى الواحات ، فجهز إليه كافور جيشاً أوقف تيار تقدمه وطرده (٣) .

وعلى الرغم من أن هذه الحملة قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها نجحت فى نشر المذهب الشيعى ، مذهب الفاطميين ، فى مصر لأن كافورا تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز ، يدعونه إلى طاعته والاعتراف بسيادته ، ووعد كثيرا من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمى ، وكان ذلك من أكبر العوامل التى سهلت فتح الفاطميين لمصر سنة ٣٥٨ هـ .

إلا أنه يمكن القول إن كافورا لم يسر شوطاً بعيدا فى السماح للدعاة الفاطميين بالانتشار فى البلاد ، ولم يمنع اضطهاد الذين أظهروا ميولهم نحو الشيعة . وبذلك أظهر كافور سعة حيلة وشدة دهاء مع كل من المنتمين للمذهبين : السنى والشيعى . يدل على ذلك مارواه أبو المحاسن من أن كافورا « كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر » (٤) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩٨ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٩٢ .
(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .
(٤) النجوم الزاهرة : نفس المصدر جـ ٤ ص ٦

ثانيا – فى عصر الفاطميين

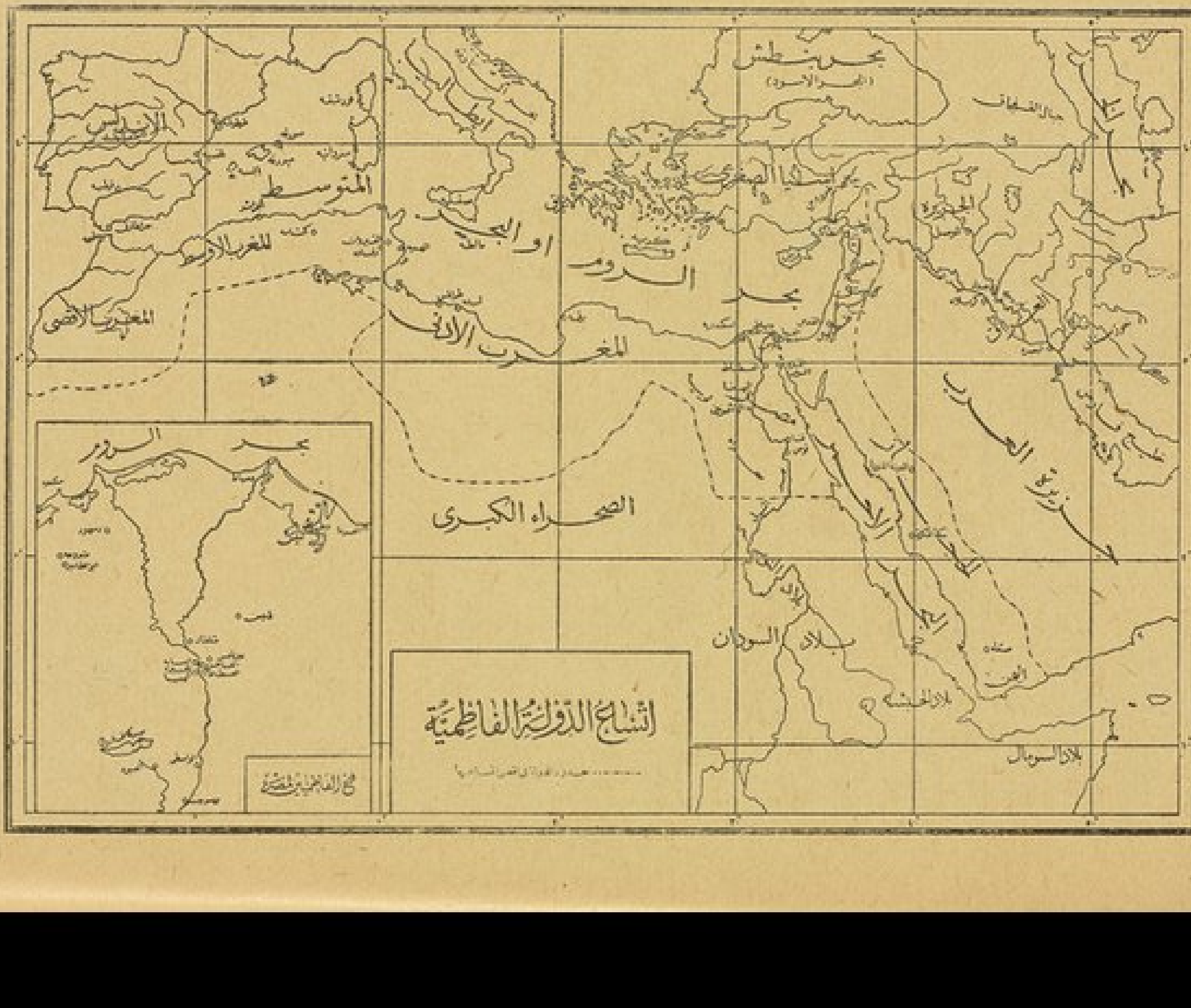
يشمل موضوع العلاقات الخارجية فى عصر الفاطميين المسائل الآتية :

١ – سياسة الفاطميين إزاء بلاد الشام وفلسطين .
٢ – علاقة الفاطميين بالخلافة العباسية .
٣ – سياسة الفاطميين إزاء البيزنطيين (الدولة الرومانية الشرقية) .
٤ – سياسة الفاطميين إزاء الدولة الأموية بالأندلس .
٥ – سياسة الفاطميين إزاء جزيرة صقلية .
٦ – علاقة الفاطميين بالصليبيين ونور الدين .
٧ – تقلص سلطان الفاطميين .

١ – سياسة الفاطميين إزاء بلاد الشام وفلسطين

كان أول غرض يرمى إليه الفاطميون من استيلائهم على مصر هو : مد نفوذهم إلى بلاد الشام وفلسطين التى كانت جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية ، وإنشاء دولة فاطمية فى المشرق والمغرب معاً ، فلما تم لهم فتح مصر وأقاموا بها ولاية فاطمية تجهوا نحو سورية لفتحها وبذلوا فى سبيل ذلك جهوداً جبارة . وكان من الطبعى أن يزول سلطان الإخشيديين عن سورية بعد زواله عن مصر وأن يتوقع ولاة الإخشيديين فيها زوال سلطانهم عن تلك البلاد وإحلال السيادة الفاطمية محل السيادة الإخشيدية . رغم ذلك عول الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدى والى الرملة ودمشق على صد الهجوم الفاطمى على سورية ، وأناب عنه فى حكم دمشق شمولا الإخشيدى وسار هو إلى الرملة . ولكن نائبه لم يخلص له ، وكتب إلى جوهر الصقلى يدعوه إلى الحضور إلى دمشق ويعده أن يساعده فى فتحها مساعدة جدية ، فكان ذلك حافزاً لجوهر على الإسراع فى إرسال حملة فاطمية إلى سورية لفتحها .

جعل جوهر على رأس تلك الحملة قائداً من القواد المعروفين بالجرأة والإقدام والشهامة ، ذلك القائد هو جعفر بن فلاح ، من كتامة إحدى قبائل البربر وأحد قواد المعز الذين بعث بهم إلى مصر لمعاونة جوهر فى فتحها . ويظهر أن الباعث لجوهر


اتساع الدولة الفاطمية
بحر بنطش
(البحر الأسود)
الأندلس
المتوسط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
المغرب الأدنى
بحر الروم
آسيا الصغرى
الجزيرة
الصحراء الكبرى
جزيرة العرب
بلاد السودان
بلاد الحبشة
بلاد السومال
بحر الروم
فتح الفاطميين لمصر

على تعيين جعفر على رأس الحملة الفاطمية الذاهبة لفتح سورية لم يكن فقط تقديره لكفايته الحربية وما اشتهر به من حسن القيادة والفوز فى المعارك ، وإنما أراد أن يبعده عن مصر حتى لا يكون مصدر خطر على نفوذ جوهر ، فقد يعمل على أن يكون له ما لجوهر من النفوذ والسلطان فى مصر .

وصلت حملة جعفر إلى سورية ، فبدأت أعمالها بهزيمة الحسن الإخشيدى فى الرملة هزيمة شائنة أدت إلى أسره وإلى قتل وأسر عدد كبير من جنده ، وأرسل إلى الفسطاط حيث حبس ثم إلى المغرب حيث بقى بها حتى مات . وتخلص الفاطميون بهزيمة الحسن وأسره ، من أقوى ولاة الإخشيديين على الشام .

تابعت حملة جعفر فتوحها فى سورية ، فاستولت على طبرية وقتلت واليها الإخشيدى فاتكا ، واتجهت بعد ذلك ناحية دمشق عاصمة الشام ، ولكن فتحها كان أشق وأعسر من فتح الرملة وطبرية ، فإن أهل دمشق صمموا على مقاومة الفاتحين من الفاطميين وردهم عن مدينتهم . لذلك خرج أهلها مشاة وفرسانا حاملين السلاح لملاقاتهم ، وطال القتال ، ولكن الفاطميين هزموهم ودخلوا مدينتهم . وكان من السهل أن تستكين المدينة بعد ذلك لولا شدة جعفر وأعوانه فى معاملة كبار أهل دمشق حين قابلوه طالبين إليه العمل على إعادة الأمن إلى نصابه . إلا أن الأحوال فى دمشق ما لبثت أن عادت إلى مجرها الطبيعى بعد أن اشتد جعفر على الأهلين حتى قمع فتنتهم ، ثم رضى بعد قليل أن يؤمنهم على حياتهم وأموالهم فهدأت ثائرتهم واطمأنت نفوسهم ، وذهب جعفر إلى مسجد دمشق حيث صلى هو ورجاله ، وأقيمت الخطبة فى محرم سنة ٣٥٩ هـ للخليفة الفاطمى ، دلالة على أن البلاد أصبحت تابعة للخلافة الفاطمية وحذف اسم الخليفة العباسى (١) .

والظاهر أن الأحوال العامة لم تستقر تماما ، لأن جعفراً لم يكبح جماح جنده بعد فتح دمشق ، بل ترك لهم حرية السلب والنهب فى المدينة حتى استاء وجوهها وأصحاب الرأى فيها ، ولم ير جعفر بدا من القبض على زعماء الفتنة من أهل دمشق وقتلهم ، فهدأت الثورة واستقرت الأحوال ، ودان أهل تلك البلاد لسلطان

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٢ — ٨٣ .

الفاطميين ، وفتحت سورية ، وتحقق بعد فتحها الغرض الأول الذى كان يرمى إليه الفاطميون من فتح مصر ، وهو جعلها جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق ، لتأسيس ولاية فاطمية شاسعة الأرجاء .

وإذا جاز لنا أن نقارن بين قيادة جوهر فى فتح مصر ، وقيادة جعفر فى فتح الشام ، تبين لنا : أن جوهراً ألف بين قلوب أهالى مصر حين أمر جنده بعد فتح الأسكندرية بالكف عن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد . أما جعفر فقد ارتكب فى فتح الشام كثيراً من أعمال العسف والاضطهاد، وكلما هدأ زعماء دمشق أثارهم جنده بما أتوه من أساليب العبث بالنظام والاستهتار بالأرواح ، مما كان له أسوأ الأثر فى نفوسهم ، فتمنوا الخلاص من السيادة الفاطمية (١) . ويتجلى ذلك فى استنجاد أهل الشام بالقرامطة بزعامة الحسن القرمطى ، والأتراك بزعامة أفتكين .

استنجد أهل دمشق بالقرامطة أولا لتخليصهم من الفاطميين ، فلبوا نداء أهل الشام ، وخاصة أن جعفراً كان قطع عن القرامطة الجزية التى اعتادت دمشق أن تدفعها سنويا ، وقدرها ثلاثمائة ألف دينار لزعيمهم الحسن بن أحمد القرمطى ، وفى سبيل ذلك اتحد مع أمير الرحبة الواقعة على نهر الفرات ومع بعض القبائل العربية (٢) ، واشتبك الحسن القرمطى مع جعفر بن فلاح فى بلدة الدكة على مقربة من دمشق ، فهزم جعفر وقتل على يد الحسن ، وانتهت بذلك حياة ذلك الفاتح الذى مد سلطان الفاطميين إلى المشرق ودوخ زعماء الشام .

ويظهر أن مصرعه كان نتيجة سوء تدبيره وترفعه عن الاستماع لنصح جوهر ، حتى كان يكاتب المعز دون رئيسه المباشر جوهر ، إلى أن نبهه المعز إلى خطأ هذا التصرف . وساءت العلاقات بين جوهر وجعفر ، حتى إنه لم يبعث إلى جوهر فى طلب الأمداد بعد أن أحدقت به جيوش الحسن ، فخر صريعاً فى ميدان القتال ،

---

(١) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٥١ .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ — ٣٥٠ .

وتشتت جنده ، واستولى القرامطة على دمشق ، وأمر زعيمهم الحسن بلعن الخليفة المعز الفاطمى على منابر دمشق ، وارتاح أهل دمشق لذلك العمل لأنهم كانوا من السنيين الغالين فى عدائهم للشيعة . ولكن هذا اللعن بدا غريبا من جانب القرامطة الذين كانوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل على ، ويعتقدون بنظرية الحق الإلهى للامام الفاطمى (١) .

* * *

وثانى الأخطار التى واجهت حكم الفاطميين فى سورية ، خروج أفتكين التركى من بغداد إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسى . واشتد مركز ولاة المعز فى سورية حرجا بعد ذلك ، وخاصة أن أهل الشام كانوا يكرهون الفاطميين لمخالفتهم لهم فى المذهب الدينى من جهة ، ولسوء سياسة الفاطميين فى بلادهم من جهة أخرى (٢) . لذلك دخل أفتكين دمشق دون قتال ، وكان الروم قد سبقوه إليها محاولين الاستيلاء عليها ونهبوها ، وانتشروا فيها يحرقون ويسلبون ويقتلون . ولكن أفتكين صرفهم عنها بعد أن دفع كثيراً من الأموال ، وفى سبيل ذلك اشتط أفتكين فى جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار أخذها إمبراطور الروم ورحل عن دمشق ، فقوى برحيله عنها نفوذ أفتكين ودعا للخليفة الطائع العباسى على منابرها وهدد سلطان الفاطميين (٣) .

وفى ذلك الحين ، ظهر القرامطة للمرة الثانية وهددوا الفاطميين فى الشام ، ودعاهم أفتكين إلى ذلك ، فقدموا دمشق سنة ٣٦٥ ﻫ وأجمعوا على طرد الفاطميين من سورية ، وتركوا دمشق وهاجموا يافا وصيدا وعكا ، وتفاقم خطر القرامطة وأفتكين واستعصى أمرهما على الفاطميين فى عهد المعز ، ولم يتم القضاء عليهما إلا فى عهد العزيز على يد جوهر .

---

(١) De Lacy O'Leary : The Fatimid Khalifate, p. 108.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩ .

ذلك أنه لما توفى المعز سنة ٣٦٥ هـ وخلفه ابنه العزيز ، كتب إلى أفتكين يستميله إليه ويعده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق ، فرد عليه أفتكين « هذا بلد أخذته بالسيف ، وما أدين لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً »(١). فاستاء العزيز أشد استياء من ذلك الرد ، وبعث بحملة إلى دمشق لتتولى طرد أفتكين منها ، وولى رياسة تلك الحملة القائد جوهرا ، فسار جوهر سنة ٣٦٦ هـ إلى الشام وبدأ باحتلال الرملة ، ولما علم بذلك أفتكين ذكر أهل دمشق بما كان من سوء معاملة جعفر لهم واستثار حماستهم ضد الحكم الفاطمى. والظاهر أن أفتكين قد أفلح فى سياسته التى رمى إليها ، إذ جدد أهل الشام ثقتهم به وتمسكوا بحكمه ، وخاصة أنهم هم الذين سبق أن استنجدوا به ، يدل على ذلك قولهم له : « أما اخترناك لسياستنا ورياستنا ، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا ، أو نألوك جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ ونفوسنا دونك وبين يديك فى المدافعة عنك » .

عقب ذلك استعد كل من الطرفين : جوهر وأفتكين ، للقتال ولم يجد نفعا ذلك الأمان الذى حمله جوهر من العزيز إلى أفتكين لتهدئة الحال ، فقد رفضه أفتكين واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء فى كتاب العزيز إليه بتأمينه وترك الفتنة .

دار القتال بين جوهر وأفتكين فى دمشق ، وفى ذلك القتال هزم أفتكين ، وكاد يقضى عليه لولا أن سمع مشورة أهل دمشق ، واستنجد بالحسن القرمطى فلبى طلبه وسار إلى دمشق ، وهنا رأى جوهر بحكمته وبعد نظره أنه لا قبل له بقتال أفتكين والحسين متحدين ، فطلب الصلح على أساس أن يجلو لهما عن دمشق وأجابه أفتكين إلى ما طلب . ورحل جوهر عن عاصمة الشام فى جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ ، وكان القرامطة إذ ذاك قد اقتربوا منها ، وسار إلى طبرية ثم إلى الرملة ، وهناك نشب قتال بين جوهر والحسن القرمطى وتبعه أفتكين واتحد معه ضد جوهر بعد أن كان قد عقد معه صلحاً (٢) . فلم يجد جوهر بداً من الرحيل إلى عسقلان فوصل إليها ليلا وتبعه إليها أفتكين والحسن وحاصراه فيها ، حتى ندرت الأقوات وارتفعت الأسعار

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٥ — ١٦ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٩ .

ونزل بالأهلين ضيق شديد ، واشتد الحال على جوهر حتى أكل جنده الدواب الميتة (١) .

وهنا أعمل جوهر الحيلة ، فرأى أن يقضى على التحالف القائم بين أفتكين والحسن القرمطى ، ذلك التحالف الذى كان أساسه القضاء على سلطان الفاطميين فى الشام . وللوصول إلى فض ذلك التحالف كتب جوهر إلى أفتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ورجاه أن يعمل على حقن دماء المسلمين وإخماد نار الفتنة (٢) ، فقبل أفتكين الاجتماع بجوهر . وفى ذلك الاجتماع دعاه جوهر إلى الصلح ، وقبول السلم ، فقال له أفتكين أنه يرضى بذلك ، ولكن الحسن القرمطى لايرضاه ، وما زال به جوهر حتى قبل أفتكين أن يخرج جوهر وجنده من عسقلان سالمين ، على شرط أن يعلق أفتكين سيفه ويعلق الحسن رمحه على باب عسقلان ، ويخرج جوهر وجنده من تحتهما فرضى جوهر بذلك الحل ورحل عن عسقلان . ومع مافى ذلك الشرط الذى اشترطه أفتكين من المذلة لجوهر ، فإن جوهرا قبله حتى يتخلص من المأزق الحرج الذى كاد أن يودى به وبجنده ، ويتلافى الشر قبل وقوعه . واستاء الحسن القرمطى من ذلك الحل ، حين علم به وأراد أن ينقضه ، ولكن أفتكين صمم على تنفيذ ما عاهد جوهرا عليه (٣) .

رحل جوهر عن عسقلان وقصد إلى مصر حيث شرح للخليفة العزيز حقيقة الحال فى بلاد الشام واستفحال أمر أفتكين ومن معه ، وأشار عليه بالخروج إلى الشام بنفسه حتى يتحاشى غزوهم مصر .

خرج العزيز بنفسه من مصر قاصدا الشام لقتال القرامطة وأفتكين ، وتلاقى مع جيوشهما فى الرملة ، وشاهد بنفسه شجاعة أفتكين فى القتال ، فأعجب بما رآه من فروسيته وشهامته وأرسل إليه رسولا من قبله دعاه إلى مقابلة العزيز وبلغه رسالته إليه ، وفيها يقول : « يا أفتكين ! أنا العزيز ! قد أزعجتنى عن سرير ملكى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٧ .
(٢) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١١٤ .
(٣) ابن القلانسى : نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

وأخرجتنى لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مسامحك فى جميع ذلك وصافح لك عنه ، فاترك ما أنت عليه ولذ بالعفو منى ، فلك عهد الله وميثاقه ، إنى أؤمنك وأصطفيك، وأنوه باسمك . . . وأهب لك الشام وأتركه فى يدك »(١) . وتلك الرسالة تدلنا غاية الدلالة على شدة حرج مركز العزيز والدولة الفاطمية فى بلاد سورية ،وعلى عظم خطر القرامطة وأفتكين على سلطان الفاطميين فيها .

ولكن أفتكين رد بأن الأمر ليس بيده وحده بل بيده ويد الحسن ، وهنا لم يجد العزيز بدا من أن يحمل عليهما بجيشه فهزمهما معاً سنة ٣٦٨ هـ وقتل كثيرا من جندهما مما بلغ نحو العشرين ألفاً ، وفر الحسن القرمطى هارباً راضيا من الغنيمة بالإياب ، وقضى بذلك على رأس تلك الفتنة التى كادت تقوض الدولة الفاطمية الفتية . أما أفتكين فقد أسر بينما كان يحاول الهرب على فرس له ومنح من أسره مائة ألف دينار ، وسار به العزيز هو ومن معه من الأسرى إلى مصر ، وفى الوقت الذى كان يظن فيه أن أفتكين سيقتل لا محالة أكرمه العزيز وأخذ بالمثل القائل بالعفو عند المقدرة . وكان لجوهر أكبر الأثر فى تلطيف حدة غضب العزيز على ذلك الرجل الذى دوخ الفاطميين ، وكاد يقضى على دولتهم وهى فى عنفوان قوتها وكامل فتوتها ، وجعل دولتهم قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، وبالغ العزيز فى إكرامه فأسكنه دارا فسيحة وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل متمتعا بنعم العزيز حتى مات فى القاهرة سنة ٣٧٢ هـ .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين فى سورية بفضل جوهر ، فأصبح صاحب الفضل فى فتح مصر وسورية ، لأن سلطان الفاطميين لم يثبت نهائيا فى سورية حتى خرج جوهر إليها بنفسه بعد أن أخفق فى ذلك جعفر بن فلاح وانفض الناس من حوله وتخاذل عنه الجند ووقع قتيلا فى الميدان ، وأصبحت سورية منذ ذلك التاريخ ولاية فاطمية حاضرتها دمشق (٢) . وبعد أن عاد جوهر من الشام إلى مصر سنة ٣٧٦ هـ أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل ، فلازم داره وأصبح نسيا منسيا (٣) .

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٨ .
(٢) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١١٨ .
(٣) توفى جوهر فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين ، وكفن فى سبعين ثوبا ما بين مثقل وموشى بالذهب ، وصلى عليه العزيز بالله ، ودفن فى القرافة الكبرى

إلا أن الأحوال لم تستقر تماما للفاطميين فى تلك البلاد ، فإنه بعد أن استحوذ السلاجقة على النفوذ فى بغداد ، أرسل السلطان ملكشاه السلجوقى سنة ٤٦٢ هـ إلى قائده أتسز Atsiz بأمره بالاستيلاء على الشام تنفيذا لسياسة السلاجقة فى استعادة الأراضى التى كانت تملكها الدولة العباسية فسار إلى الشام وتمكن من فتح الرملة ثم يمم السير إلى دمشق ، ولكن جيوش الفاطميين ردته عنها ، فعاد إلى محاصرتها سنة ٤٦٧ هـ وشدد عليها الحصار حتى فتحها ، وحذف إسم المستنصر من الخطبة وأحل محله اسم المقتدى الخليفة العباسى ، ومنع من الأذان عبارة « حى على خير العمل » وهى من العبارات الشيعية وكان لذلك أحسن الأثر فى نفوس أهل دمشق . ولم يمض على مافعله أتسز قائد السلطان ملكشاه السلجوقى عامان حتى أرسل بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى جيشاً إلى دمشق لإعادتها إلى سلطان الفاطميين ، ولكن ملكشاه كان قد أقطعها منذ سنة ٤٧٠ هـ لأخيه تاج الدين تكش بن ألب أرسلان ، فاستنجد أتسز بتاج الدين وسارا معا إلى دمشق ، ولم يكد جيشهما يقترب منها حتى رحل عنها الجيش المصرى وعادت إلى سلطان السلاجقة .

وبعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، أصبحت الخلافة الفاطمية مقصورة على مصر وبعض البلاد السورية ، فقد استقل الأتابكة بفلسطين ، ومحمود نور الدين بن زنكى بدمشق وحلب ، وقامت الحروب الصليبية فاحتل الفرنجة المدن الساحلية فى فلسطين ، وأصبحت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية محل النزاع بين نور الدين والصليبيين ، وصارت سورية بعد ذلك من أملاك الدولة الأيوبية .

٢ — علاقات الفاطميين بالدولة العباسية

يعد موضوع علاقة الفاطميين بخلفاء بنى العباس فى بغداد من أهم الموضوعات فى تاريخ الخلافة الفاطمية ، لأن معظم الأقطار التى استحوذ عليها الفاطميون كانت تابعة للخلافة العباسية تبعية فعلية أو إسمية : فبلاد المغرب نفسها التى أقام الفاطميون ملكهم فيها بادىء الأمر كانت تحت حكم بنى الأغلب الذين عينهم العباسيون على تلك البلاد ، كذلك مصر التى استولى عليها الفاطميون كانت ولاية إخشيدية والإخشيديون تابعون تبعية ولو إسمية للعباسيين ، ولما مد الفاطميون سلطانهم إلى المشرق فى الشام وفلسطين والحجاز واليمن عد ذلك انتقاصا لسلطان العباسيين

وامتهانا لشأن خلفائهم فى بغداد . لذلك يجب على مؤرخ الفاطميين أن ينظر إلى تلك العلاقات نظرة فاحصة ، ليرى كيف أن دولة ناشئة هى دولة الفاطميين تتحول إلى امبراطورية هائلة تبتلع فى عدادها ممتلكات دولة عتيدة ، لخلفائها حتى فى عهد ضعفهم سلطان روحى هائل على العالم الإسلامى .

تبدأ العلاقة بين الفاطميين والعباسيين منذ أن استقر الفاطميون فى المغرب مكان الأغالبة أصحاب السلطان فى تلك البلاد من قبل العباسيين . فقد عد ذلك اقتطاعا لإحدى الدويلات الخاضعة للدولة العباسية ، ولم يكن ذلك العمل الأول من نوعه ، إذ كانت ظاهرة التجزؤ قد بدأت فى الدولة العباسية ، فإن الأمراء الأقوياء انتهزوا فرصة ضعف العباسيين واستولوا على بعض الأقطار التابعة لهم .

كذلك فكر معز الدولة بن بويه (٣٣٠ — ٣٥٦ هـ) أحد سلاطين البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) الذين استحوذوا على السلطة فى بغداد وسلبوا الخليفة العباسى كل نفوذ ، فى إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية ، ولكن أنصاره أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأى وأبانوا له أن الخليفة العباسى فى بغداد ضعيف جدا ومن الممكن حبسه أو قتله متى خرج عن طاعة البويهيين ، أما خلفاء الفاطميين فإنهم من القوة بحيث إذا رأوا القضاء على البويهيين تم لهم ما أرادوا . وانتصح بنو بويه بهذا الرأى وعدلوا عن مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين . ولو تم ذلك لكان قد تحقق للعلويين أملهم فى الخلافة ، الذى ظلوا يناضلون من أجل تحقيقه منذ قيام الخلافة الأموية (١) .

على أن العلاقات بين العباسيين والفاطميين ازدادت وضوحا ، منذ أن كانت الدولة الفاطمية فى المغرب تتحرق شوقا للاستيلاء على مصر ومد سلطانها منها إلى ولايات الشرق . فقد دأب الخلفاء الفاطميون منذ عهد عبيد الله المهدى على العمل على فتح مصر ، وأرسل لذلك الغرض ثلاث حملات إلى مصر كما بينا ، استمرت طوال عهد المهدى وشطرا كبيرا من عهد الخليفة القائم بن المهدى ، وانقطعت فى البقية الباقية من حكم القائم ، وطوال عهد المنصور بن القائم ، وكان العباسيون من القوة بحيث استطاعوا رد الحملات الفاطمية الأولى على مصر . وظل الحال كذلك حتى

(١) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص٨٥ — ٨٦.

جاء المعز لدين الفاطمى وأرسل حملته المشهورة بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ هـ، تلك الحملة التى نجحت فى الاستيلاء على مصر وحولتها من ولاية إخشيدية سنية تدين بالطاعة والولاء للخليفة العباسى إلى ولاية فاطمية شيعية، مما يدلنا على عجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء ، وزال سلطان الإخشيديين والعباسيين معاً عن مصر . ونافست القاهرة الحاضرة الفاطمية الجديدة ، بغداد حاضرة العباسيين ومدينة المنصور والرشيد الزاهرة . ولم تقف جهود الفاطميين عند ذلك الحد بل عملوا على إقامة دولة فاطمية فى الشرق والغرب ، تشمل مصر والشام وفلسطين والحجاز واليمن ، فتقلص سلطان العباسيين عليها ، وصادف ذلك عهد اختلال أحوال الدولة العباسية وضعف نفوذ الخلفاء العباسيين ووقوعهم تحت سيطرة بنى بويه والسلاجقة ، مما سهل على الفاطميين مهمتهم وهى مد حدود إمبراطوريتهم على حساب العباسيين (١) .

ولما كان الفاطميون شيعيين والعباسيون سنيين ، فإن ذلك الاختلاف فى المذهب الدينى كان من عوامل العداء بين الدولتين : الفاطمية والعباسية ومن عوامل المشقة التى لاقاها الفاطميون الفاتحون فى نشر مذهبهم فى الأقاليم التى ضموها لإمبراطوريتهم.

وفى عهد الخليفة العزيز بن المعز زاد اتصال العباسيين — وكان خلفاؤهم إذ ذاك تحت سلطان بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) — بالفاطميين فى مصر . يدل على صحة ما قلناه ، ذلك الكتاب الذى بعث به العزيز سنة ٣٦٥ هـ إلى عضد الدولة سلطان بنى بويه فى بغداد ، ومن ذلك الكتاب نرى أن خلفاء بغداد اعترفوا بإمامة الفاطميين ، رغم ذلك العداء المستحكم بين الدولتين . يقول العزيز فى كتابه إلى عضد الدولة : « من الإمام العزيز بالله إلى عضد الدولة الإمام نصير ملة الإسلام . وبعد فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما يحمله من إخلاصك فى ولاية أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين ، فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك » (٢) .

ورد عضد الدولة على كتاب العزيز بكتاب يعترف فيه بفضل أهل البيت

---

(١) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٣٢ و٣٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

ويقر للخليفة « أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وأنه فى طاعته » . ووجه الغرابة فى أمر تلك المراسلات أن عضد الدولة أرسل خطابه هذا الذى يعترف فيه بإمامة الفاطميين بعلم الخليفة الطائع العباسى ، مما يوضح لنا عظمة الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من تاريخها ، وعجز العباسيين عن الوقوف أمامها .

وفى عهد تسلط سلاطين بنى بويه على الخلفاء العباسيين فى بغداد ، ازداد ضعف الخليفة العباسى وعمل البويهيون على مناصرة الفاطميين . ونادى بذلك السلطان بهاء الدولة بن بويه سنة ٣٩٨ هـ فى زمن الخليفة العباسى القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) وعهد الخليفة الفاطمى الحاكم ، فإن بهاء الدولة الذى استبد بالسلطة دون الخليفة العباسى ، تعصب للشيعة وناصر الفاطميين حتى أضمر كل من الخليفة العباسى والسلطان العداء للآخر . ولكن تحويل الخلافة إلى الفاطميين ، كان معناه القضاء على سلطان بنى بويه فى بغداد الذين جعلوا الخليفة ألعوبة فى يدهم . لذلك فإنه عندما تعرض نفوذهم فى العراق للخطر سنة ٤٠١ هـ ، حين أمر قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى الحاكم ، سارع بهاء الدولة رغم ميوله الشيعية بإرسال جيش اضطره إلى رد الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد ، قاصداً بذلك الاحتفاظ بسلطان بنى بويه فى العراق . وبذلك فشلت المحاولة الثانية التى بذلت فى سبيل إقامة خطبة فاطمية فى بغداد ، وكانت الأولى فى عهد البويهيين أيضا زمن معز الدولة بن بويه ، حين كان خلفاء الفاطميين لا يزالون فى المغرب ولم تكن دولتهم قد تأسست بعد فى مصر (١) .

لجأ الخليفة العباسى القادر بعد تلك الحادثة — حادثة محاولة إقامة الخطبة للحاكم فى بلاد الخلافة العباسية — إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين . وتفصيل ذلك أن الخليفة القادر أمر فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ بكتابة محضر يقدح فى أنساب الخلفاء الفاطميين وعقائدهم ، على أن يقرأ فى بغداد وينشر فى الأمصار ، وجاء فيه : « وهم (أى الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومعتقدون ما أوجب الله على العلماء أن

---

(١) حسن ابراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٨٩ .

ينشروه للناس ، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر ، وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم ، وهو ومن معه من سلفه الأرجاس الأنجاس ، عليه وعليهم اللعنة ، أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب وأن ذلك باطل وزور . . . وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار ، فساق ، فجار ، زنادقة . . . عدلوا الحدود وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية » (١) . ويقول أبو المحاسن تعليقا على موقف الحاكم إزاء عمل الخليفة القادر أنه « لما بلغ الحاكم ذلك قامت قيامته ، وهان فى أعين الناس ، لكتابة هؤلاء الأعلام فى المحضر »(٢). وسار الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) بن القادر على سياسة أبيه فى الطعن فى نسبهم تحقيرا لهم وصرفا للمسلمين عن أن يولوا وجوههم شطرهم ، واستكتب علماء بغداد سنة ٤٤١ هـ محضراً يماثل المحضر الذى كتب فى عهد أبيه طعناً فى الفاطميين .

ولكن خطة الخليفة القادر والخليفة القائم فى محاربة الفاطميين بسلاح التشهير بنسبهم لم تؤد إلى الغرض المقصود ، وهو إضعاف نفوذ الفاطميين وحث الخاضعين لسلطانهم على الثورة عليهم . فإنه على العكس ما كاد عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ينتهى ويتولى عرش الخلافة الفاطمية المستنصر ،حتى امتد سلطان الفاطميين فى الشطر الأول من خلافته على الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالى إفريقية بما فى ذلك مصر ، وأصبح اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقا ، كما أذيع اسمه على منابر الحجاز واليمن والموصل .

إلا أن الأمر الخطير الذى حدث إذ ذاك ، هو ذكر اسم الخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد حاضرة العباسيين . فإن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى انتهز فرصة ضعف الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانشغال طغرلبك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد العراق ، واشتباكه مع إبراهيم ينال الذى شق عصا الطاعة عليه ، ودخل البساسيرى بغداد فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ حاملا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر الجزء ص ٢٣٠ .

الرايات المستنصرية ، فرحب به أهل الكرخ الذين كانوا شيعيين ، وازداد نفوذهم فى بغداد وأدخلوا فى الآذان عبارة « حى على خير العمل » كما انضم أهل السنة إلى الخليفة القائم بأمر الله .

ودار القتال بين كل من السنيين وعلى رأسهم الخليفة العباسى ، وبين الشيعيين تحت قيادة البساسيرى . وانتهى الأمر بانتصار البساسيرى وأتباعه ، وخطب يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ على منابر بغداد للمستنصر الفاطمى بجامع المنصور وانتهز الأهالى هذه الفرصة ونهبوا دار الخلافة العباسية .

ولما استتب الأمر للبساسيرى فى بغداد قبض على الوزير أبى القاسم بن المسلمة وقال له « مرحباً بمدمر الدولة ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد » ، فقال له ابن المسلمة : « أيها الأجل ! العفو عند المقدرة » ،فقال له البساسيرى : وقد قدرت فما عفوت ، وأنت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والأموال والأطفال، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف ، وقد أخذت أموالى وعاقبت أصحابى ودرست دورى وسبيتنى وأبعدتنى » (١) ، ثم أمر البساسيرى بحبس الوزير أبى القاسم .

أما الخليفة القائم فحمل إلى معسكره راكبا، وعلى كتفه البردة ، وبيده سيف مسلول ، وعلى رأسه اللواء . ولما رأى ما حل به من الإهانة امتنع عن الطعام والشراب ، فألح عليه قريش أحد أتباع البساسيرى ، حتى حمله على تناول الطعام وسار به إلى قلعة الحديثة حيث ظل مسجونا بها . وعند ما وصل الخليفة العباسى إلى الأنبار شكا البرد وبعث يطلب من واليها بعض الملابس فأرسل إليه جلباباولحافا .

وسار البساسيرى فى حكم أهل بغداد سيرة طيبة : فقد أحسن معاملتهم ، وبذل الأموال للفقهاء ، وأفرد لوالدة الخليفة داراً وعين لها راتباً شهرياً ، وحبب إليه بحسن سياسته وعدم تعصبه كلا من السنيين والشيعيين .

ولما استقر الأمر للبساسيرى وأصبح مطلق التصرف فى بغداد ، أرسل إلى المستنصر بالله يبشره بامتداد نفوذه إلى بلاد العراق ويبلغه أن اسم الخليفة الفاطمى الشيعى فى مصر قد ذكر فى الخطبة على منابر بغداد ، مقر الخلافة العباسية السنية . وفى الوقت الذى كان منتظراً فيه أن يحبذ المستنصر للبساسيرى عمله ، فإنه لم يحبه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٩ .

إجابة تنم عن تأييده لعمله ولم يمده بالأموال الكافية . وكان ذلك بتأثير الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى الذى كان يحقد على البساسيرى ، فاستطاع أن يوغر صدر المستنصر عليه ويخوفه من عاقبة اتساع نفوذ البساسيرى فى العراق .

إلا أن البساسيرى لم يقابل السياسة التى اتبعها المستنصر إزاءه بسياسة مثلها ، بل على العكس وأصل فتوحه فى بلاد العراق واستولى على البصرة وواسط وخطب على منابر جوامعهما باسم المستنصر الفاطمى . وظلت الخطبة تقام باسم المستنصر على منابر بغداد نحواً من سنة أى أربعين أسبوعا . واشتد نفوذ البساسيرى فى بغداد واتصل بالخلافة الفاطمية فى مصر ، حتى إنه فى أثناء السنة التى أقيمت فيها الخطبة باسم الفاطميين فى بغداد ، أخذ عمامة الخليفة العباسى وعرشه وخلعته ، وأرسلها إلى المستنصر حيث حفظت فى قصر الخلافة الفاطمية ، حتى عرضت للبيع على ما ذكرنا فى أثناء الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد ذلك الخليفة .

ومن أطرف ما روى فيما يتعلق بإقامة البساسيرى الخطبة للمستنصر فى بغداد ، أن مغنية حين علمت بتوغل البساسيرى فى أراضى الدولة العباسية ، يفتتحها باسم المستنصر أنشدت :

يابنى العباس صدوا   ملك الأمر معد
ملككم كان معارا   والعوارى تسترد[1]

وطرب المستنصر لتلك الأغنية ، ووهبها أرضا بمصر تعرف الآن بأرض الطبالة ، نسبة إلى هذه السيدة التى غنته هذه الأبيات بدف فى يدها ، وأرض الطبالة تحد اليوم من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكة الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصرى .

على أن الخليفة العباسى لم يقف مكتوف الأيدى إزاء ما قام به البساسيرى من نشر سلطان الفاطميين فى بلاد العراق ، فكتب إلى طغرلبك أول ملوك السلاجقة يطلب منه القدوم إلى بغداد وإخراج البساسيرى منها . وكان الخليفة بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ لبى طغرلبك طلبه وسار بعساكره إلى بغداد ، ففر البساسيرى منها ، إلا أن طغرلبك ظفر به وقتله شر قتلة سنة ٤٥١ هـ ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢ .

ثم أطلق سراح الخليفة القائم وأعاده إلى بغداد وخطب له على منابرها . وحين ذاك يصدق المثل الذى ذكرناه ، فإن الخليفة تخلص من سلطان البساسيرى والفاطميين ليقع تحت سلطان السلاجقة ، ويصبح حاله تحت إشرافهم أشد هوانا ومذلة مما لو استمر سلطان البساسيرى فى بغداد .

إلا أن السلاجقة لم يكتفوا بما حل بالبساسيرى ، بل عمدوا إلى استعادة نفوذ الخليفة العباسى أو على الأصح نفوذهم على الأقطار التى فقدتها الدوله العباسية ، نتيجة سياسة الفاطميين الخاصة باتساع رقعة إمبراطوريتهم على حساب العباسيين . وتنفيذاً لتلك السياسة التى رسمها طغرلبك ، أرسل السلطان ملكشاه أول سلاطين السلاجقة فى بغداد ، الجيوش إلى الشام سنة ٤٦٢ هـ . فتمكنت من فتح الرملة وبيت المقدس ، ولكنها عجزت عن فتح دمشق فعادت إليها ثانية سنة ٤٦٧ هـ ، حيث نجحت فى فتحها وفى حذف اسم الخليفة المستنصر من الخطبة وإحلال اسم الخليفة المقتدى العباسى محله . ولم يكتف بذلك بل سارت جيوش العباسيين بأمر ملكشاه إلى مصر ، وكان وزير المستنصر إذ ذاك بدر الجمالى ، ولكنها هزمت فعادت ثانية إلى دمشق ، وكانت الجيوش المصرية قد احتلتها فعادت تلك الجيوش إلى مصر سنة ٤٧٠ هـ .

وعلى ذلك يمكن القول إنه بوفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، أصبحت الخلافة الفاطمية مقصورة على مصر وعلى بلاد سورية . ذلك أن محمود نور الدين ابن زنكى كان قد استولى على دمشق وحلب ، واستولى الصليبيون على المدن الساحلية فى فلسطين ، وظلت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية محل النزاع بين نور الدين والصليبيين ، حتى أصبحتا من أملاك الدوله الأيوبية بعد أن تأسست تلك الدولة فى مصر على أثر سقوط الدولة الفاطمية .

وهكذا قدر للخلافة العباسية ، التى ظلت حتى سنة ٦٥٦ هـ وهى السنة التى استولى فيها التتار على بغداد ، أن تحيا نحو قرن من الزمان بعد زوال منافستها الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، مع أن كلا من الدولتين انتابتهما فى أخريات أيامهما نفس عوامل الضعف والانحلال التى انتابت الأخرى ، وأهمها التنافس على المناصب وضعف الخلفاء والوقوع تحت سيطرة الأجانب ، مما هد كيانهما وهوى بهما إلى الحضيض وعجل أمر زوالهما .

٣ — سياسة الفاطميين إزاء البيزنطيين

باستيلاء الفاطميين على بلاد الشام ، تاخمت حدودهم الشمالية أراضى الدولة البيزنطية ، وكان من أثر ذلك قيام الحروب بين الدولتين : الفاطمية والبيزنطية . وانتهز البيزنطيون فرصة انشغال الفاطميين بقتال القرامطة زمن المعز واستولوا على أنطاكية ، ثم تحالفوا مع أفتكين التركى ضد الفاطميين ، ولكنهم انفضوا من حوله بعد أن هزمته جيوش الخليفة الفاطمى سنة ٣٦٧ هـ ، وظل النزاع بين الدولتين على أشده ، حتى إن العزيز أعد فى سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم (أى الدولة البيزنطية) ، إلا أن تلك الحملة لم تحقق الغرض المنشود من إرسالها لاحتراق بعض مراكبها ، وظلت تلك العلاقات العدائية بين الدولتين قائمة حتى أرسل باسيل الثانى Basil II إمبراطور الدولة البيزنطية رسلا تحمل الهدايا إلى الخليفة العزيز وطلبوا منه عقد الصلح ، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط منها :

(١) أن يطلقوا سراح أسرى المسلمين فى بلادهم .

(٢) أن تتبادل مصر مع الدولة البيزنطية العلاقات التجارية .

(٣) أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين سبع سنوات .

وظلت العلاقات ودية بين الدولتين على أثر هذا الاتفاق ، بدليل أن إمبراطور الروم عاود هداياه للخليفة العزيز وأرسل إليه ٢٨ صينية من الفضة وأطباقا محلاة بالذهب .

إلا أن إرسال الهدايا لم يكن معناه زوال حالة العداء نهائيا بين الدولتين ، فإن الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى أمد أبا الفضائل الحمدانى صاحب حلب بحملة لتحول دون استيلاء منجوتكين قائد العزيز على هذه الولاية ، ولكن الدائرة دارت على البيزنطيين سنة ٣٨١ هـ وعاد منجوتكين إلى دمشق ، إلا أنه حاصر حلبا فى السنة التالية وشدد عليها الحصار حتى اضطر واليها إلى الإستنجاد بالإمبراطور باسيل مرة أخرى ، فاضطر إزاء الخطر الذى يهدد بلاده إذا استولى الفاطميون على حلب ، إلى السير بنفسه إلى الشام ، ونجح فى حملته حتى أنه استولى على حصن شيزر فى أعالى بلاد

الشام وفتح حمص وواصل سيره حتى وصل إلى طرابلس ، ولكنه عجز عن فتحها ، وعاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ ،بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام(١).

ولما علم العزيز بمدى توغل البيزنطيين فى بلاد الشام ، أمر وزيره عيسى بن نسطوروس بإنشاء أسطول يسير بحرا إلى طرابلس ، ولكن بعد أن تم إعداد هذا الأسطول أحرقته النيران وهو ما يزال فى ميناء المقس، فأمر العزيز بإعداد أسطول آخر بعث به إلى الشام ، ولما أصبح على مقربة من طرابلس تحطمت معظم سفنه على أثر هبوب عاصفة شديدة عليه ، وأسر البيزنطيون بعض رجاله ، وخرج العزيز على رأس حملة بحرية ، إلا أن المرض اشتد عليه بعد أن وصل إلى بلبيس وتوفى بها سنة ٣٨٦ هـ بينما كان متأهباً لمغادرة الديار المصرية لقتال البيزنطيين .

وتابع الخليفة الحاكم سياسة أبيه العزيز فى منع البيزنطيين من التقدم جنوبا فى بلاد الشام ، فأعد حملة إلى الشام سنة ٣٩٨ هـ بقيادة حسين بن الصمصامة ، أوقعت بالبيزنطيين فى أفامية Aphamea وظلت تطاردهم حتى أنطاكية، ثم عاد حسين إلى دمشق. ولما علم باسيل الثانى إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة ، سار بنفسه على رأس حملة أغارت على الأراضى الساحلية الواقعة بين أنطاكية وبيروت ، وتلاقى فى طرابلس بجيش ابن الصمصامة ودارت بينهما موقعة قتل فيها عدد كبير من الروم، ولكن الفاطميين عدلوا عن متابعة إغاراتهم على الروم كى يتفرغوا للقضاء على الفتن الداخلية ، ورحب الإمبراطور باسيل بتلك السياسة الجديدة ، وأرسل من قبله سفيرا ليفاوض الخليفة الحاكم فى الصلح ، فأعد الحاكم عدته لاستقباله وأمر بتزيين القصر ، وأخرج أكياساً مصنوعة من الحرير مشغولة بالذهب ووضعها فى الإيوان المعد لاستقبال السفير ، فأصبح يتلألأ بالذهب كما علق فى صدر الإيوان درقة (درع) من ذهب مكللة بفاخر الجوهر إذا ما سطعت عليها أشعة الشمس أضاءت ما حولها وصار لها بريق يخطف الأبصار ، وفى وسط تلك المظاهر الهائلة والحفاوة البالغة ، تقابل رسول الروم بالخليفة الحاكم بأمر الله ، وتم الاتفاق بينهما على الصلح ، وتلخص شروط الصلح فيما يلى :

---

(١) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 147.

١ — إيقاف الحرب بين الروم والفاطميين فى مصر لمدة عشر سنوات .

٢ — يتمتع المسيحيون الذين يقيمون فى أنحاء الإمبراطورية الفاطمية بالحرية الدينية ويسمح لهم بتجديد كنائسهم .

٣ — يتعهد الإمبراطور باسيل الثانى بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب(١) .

إلا أن تلك السياسة الودية التى قامت بين الدولتين : البيزنطية والفاطمية ، ما لبثت أن تبدلت إلى علاقة عدائية عند ما اتصل بالإمبراطور البيزنطى نبأ السياسية العدائية التى اتبعها الحاكم إزاء النصارى .

وظلت العلاقة بين الدولتين متوترة حتى تولى الخليفة الظاهر ، فعملت عمته ست الملك التى كانت وصية عليه على إقامة علاقات ودية بين مصر والدولة البيزنطية . ولتحقيق تلك الرغبة أرسلت نقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى الإمبراطور ، ليبلغه أمر الإجراءات التى اتخذت فى القاهرة فى صالح النصارى ، وتجديد بناء الكنائس ، حتى تمحى بذلك الأمور التى سببت غضب الدولة البيزنطية من الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم . ولكن رغم ذلك ظلت غارات البيزنطيين مستمرة على شمال الشام حتى كانت سنة ٤٨١ هـ ، حين أرسل الظاهر رسولا إلى الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن لعقد الصلح . فأبرمت بينهما معاهدة نصت على بناء كنيسة القيامة التى هدمها أبوه الحاكم وعلى أن يذكر اسم الخليفة الفاطمى على منابر بلاده(٢) .

وفى أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى كانت العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية على شىء من المودة والصفاء . فقد تم الاتفاق بينه وبين الإمبراطور قسطنطين التاسع سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) على أن يمد الإمبراطور مصر بالغلال والأقوات ليستطيع الخليفة بذلك أن يقاوم الغلاء والمجاعة التى حلت بمصر فى هذه السنة(٣) . غير أن هذا الإمبراطور توفى قبل تنفيذ هذا الاتفاق .

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩١٤ .
Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 136

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٦٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦ .

وخلفته الإمبراطورة تيودورا ، فاشترطت لمعونة مصر اقتصاديا شروطا ، أهمها أن يتعهد الخليفة بمساعدتها حربياً إذا ما اعتدى على دولتها أى معتد، فلم يوافق المستنصر على ذلك ، وكانت النتيجة أن منعت الإمبراطورة إرسال الغلال إلى مصر ، فثار لذلك المستنصر ، وأرسل حملة بقيادة مكين الدولة الحسن ، ووصلت تلك الحملة إلى أنطاكية. فردت الإمبراطورة على ذلك العمل بإرسال حملة بحرية سنة ٤٤٧ هـ ، هزمت جيوش المستنصر ، فبعث المستنصر إلى القسطنطينية بالقاضى أبى عبد الله القضاعى ليقوم بتسوية الخلاف بين الدولتين . فلم تهتم الإمبراطورة بوجوده ، على حين رحبت برسول السلطان طغرلبك السلجوقى وسمحت له بإقامة الخطبة للخليفة القائم العباسى ، فأخفق مسعى الصلح وتوترت العلاقات بين الدولتين ، وخاصة حين أرسل المستنصر نتيجة لسياسة الإمبراطورة العدائية إزاءه يطلب كنوز كنيسة القيامة ، وتم له ما أراد ، وظلت العلاقة بين الدولتين عدائية إلى نهاية العصر الفاطمى .

٤ — سياسة الفاطميين إزاء الدولة الأموية بالأندلس

كانت العلاقة بين الدولتين الفاطمية فى مصر والأموية فى الأندلس متوترة : لأن الدولة الفاطمية فى مصر كانت تخالف الأخرى فى النزعة الدينية ، كما كان الخلاف بينهما قويا لما بينهما من المنافسات على بسط نفوذهما فى بلاد المغرب ، ولكى يصل الأمويون فى الأندلس إلى غرضهم فى المغرب ، عمل عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) على أن يقوى دولته مادياً وأدبياً ، فبنى أسطولا حربياً يتألف من مائتى سفينة ، وتلقب بلقب خليفة ، ومن ثم أضيف إلى الخلافتين العباسية والفاطمية خلافة ثالثة هى الأموية بالأندلس .

وأغار الأسطول الأندلسى على كثير من ثغور الدولة الفاطمية فى المغرب ، وخاصة فى عهد المعز الفاطمى ، ولكن الخليفة الفاطمى هزم الأسطول الأندلسى هزيمة منكرة ، فلم يتحقق للأمويين بالأندلس الغرض الذى أرسلوا أسطولهم من أجله ، واستمر العداء قائماً بين الدولتين حتى بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الثالث واعتلاء عرش الخلافة الأندلسية الخليفة الحكم المستنصر بالله الأموى بن عبد الرحمن الناصر

لدين الله ، الذى أرسل إلى بلاد المغرب حملة للقضاء على الدولة الفاطمية فيها ، ونجحت الحملة فى إضعاف الدعوة الفاطمية فى تلك البلاد حتى خرجت على سلطان المعز فى المغرب بعض القبائل المهمة كقبيلتى زناتة ومكناسة ، وأقامت الدعوة للمستنصر الأموى ، ورحل كثير من أمراء العلويين إلى أسبانيا ، فاستقبلتهم الدولة الأموية بالأندلس بكافة مظاهر الترحيب

وتتبين لنا درجة العداء بين الدولتين الأموية بالأندلس فى عهد الحكم المستنصر والفاطمية فى عهد العزيز ، من رد الحكم المستنصر على كتاب كان قد بعث به العزيز ليه يسبه فيه ويهجوه ، قال : « قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك » .

وقد ظلت العلاقة بين الدولتين الفاطمية فى مصر والأموية فى الأندلس متوترة فى عهد الحاكم الفاطمى ، كما كانت فى عهد أسلافه المعز والعزيز ، وكانت الدولة الأموية تتحين الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر . وظهر ذلك واضحاً فى الثورة التى قام بها أبو ركوه ، الذى سمى بذلك الاسم لركوة كان يحملها فى أسفاره جرياً على سنة الصوفية ، وذلك الرجل من ذرية هشام بن عبدالملك بن مروان ، وكان يدعو لعمه هشام بن الحكم صاحب الأندلس وتبعه كثير من الناس، وعظم أمره وسار إلى برقة فى شمالى إفريقية على رأس جيش كبير واستولى عليها بعد أن هزم جيوش الحاكم الفاطمى. ولم يقتصر أمره على ذلك، بل ضرب عملة جديدة ، واستحوذ على جميع ما كان فى دار الإمارة من الأموال .

ولما اتصل بالحاكم نبأ ما عمله أبو ركوة ، حزن واضطرب وأعد العدة لمحاربته ، فجهز جيشاً كبيراً مكوناً من خمسة آلاف فارس ، تحت قيادة ينال الطويل أحد قواد الأتراك ، ولسوء الحظ كان معظم رجال ذلك الجيش من قبيلة كتامة من البربر ، وكانت غير راضية عن هذا القائد التركى . لذلك لم يلبث ينال أن هزم أمام أبى ركوة وأسر ينال ، وطلب إليه أبو ركوة أن يلعن الحاكم فرفض . وأهان أبا ركوة إهانة بالغة ، فاستاء أبو ركوة وأمر بقتله ، واستولى على ما معه من الأموال الطائلة ، وقوى بذلك أمر أبى ركوة وزاد من عزمه على غزو مصر ، إلا أن الحاكم الفاطمى صمم على القضاء على حركته فى المغرب وفى مصر ، وجهز جيشاً كبيراً معظمه من

الشاميين والحمدانيين ووضع على رأسه الفضل بن عبد الله ، وتلاقى الجيشان معاً واشتد القتال ، وانتهى بهزيمة أبي ركوة وقتله هو ونحو ثلاثين ألفا من رجاله . وكافأ الحاكم قائده الفضل على هذا الانتصار الحاسم بأن أقطعه عدة أراضى ومنحه كثيراً من الأموال . ولكن الحاكم رغم تقديره لذلك القائد العظيم ، الذى نجى الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب من أن تصبح من ممتلكات الدولة الأموية بالأندلس ، خاف على نفسه من غرور ذلك القائد ، فجزاه جزاء سنمار إذ قبض عليه وقتله شر قتلة (١) .

ولم تقع بين الدولتين الفاطمية فى مصر والأموية بالأندلس إلى نهاية عصر الفاطميين حوادث تستحق الذكر .

٥ — سياسة الفاطميين إزاء جزيرة صقلية

كانت صقلية إحدى جزر الدولة الرومانية . وكان أهلها يعرفون باسم الروم ، وقد ظلت تلك الجزيرة تحت حكم الرومان حتى فتحها الأغالبة أتباع إبراهيم بن الأغلب الذى أقطعه هارون الرشيد شمال إفريقية فى سنة ١٨٤ هـ(٨٠٠م) فوليها هو وأولاده من بعده إلى سنة ٢٩٦هـ وظلوا بالمغرب حتى استولى عليها الفاطميون. استقر الأغالبة فى صقلية سنة ٢١٢هـ ، وساعد على فتحها شهامة قائد جيش الأغالبة المعروف بأسد ابن الفرات ، وكان يشغل وظيفة قاضى القيروان فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، وكان جيشه يتألف من تسعمائة فارس وعشرة آلاف جندى . وعلى أثر هذا الفتح أسلم أكثر سكان الجزيرة وبنوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم ، وصادفت اللغة العربية فيها جوا صالحاً ، ووجد الدين الإسلامى مرعى خصيبا بين أهلها ، ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية فى صقلية ، العصر الذهبى لها ، إذ فيه بذت تلك الجزيرة جميع ممالك أوروبا من حيث الحضارة والمدنية (٢) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦ — ٢١٧ .
(٢) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١٧ — ٢٠

ظلت تلك الجزيرة منذ سنة ٢١٢ﻫ فى يد الأغالبة حتى استولى أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ﻫ على بلاد المغرب ، وأسس بها دولة علوية أو فاطمية ، فإنه منذ ذلك التاريخ ثار على أهالى صقلية الحاكم المعين من قبل الأغالبة الذين استحوذ الفاطميون على ملكهم فى شمال إفريقية . ولما كتبوا بذلك إلى أبى عبد الله الشيعى أقرهم على عملهم وولى والياً جديدا هو على بن عمر البلوى ، الذى ظهرت فى عهده محاولة بعض الصقليين تحويل الجزيرة إلى السيطرة العباسية فى بغداد ، ولكن محاولتهم فشلت . ورغم عدم استقرار الأحوال العامة فى تلك الجزيرة: لكثرة الفتن والثورات بين طوائف السكان من الروم والمسلمين وتعدد حوادث عزل الولاة ، فإن الدولة الفاطمية كانت تحرص دواما على تعيين ولاة من قبلها وإبقاء تبعية تلك الجزيرة لها: أولا لخصوبة تربتها ووفرة معادنها مما يضمن لها موارد وفيرة . وثانياً لحسن موقعها الجغرافى الحربى مما جعلهم يفكرون فى اتخاذها قاعدة لأسطولهم فى البحر الأبيض فيتقون به غارات الروم والأمويين بالأندلس على شواطىء إفريقية، ويتفرغون بذلك لفتح مصر ومد سلطانهم منها إلى المشرق .

ظلت صقلية على تلك التبعية للخلافة الفاطمية فى المغرب ومصر حتى بدأ عهد الضعف فى الدولة الفاطمية فى النصف الثانى من عهد المستنصر بالله الفاطمى، فشمل الاضطراب جزيرة صقلية أيضا ، فقد قامت فى الجزيرة فى ذلك الوقت حركة انفصالية عنيفة ضد الحكم الفاطمى ، ولم يلبث أهل صقلية أن ثاروا ، واستعان بعضهم بالفرنجة وسهلوا لهم أمر فتح الجزيرة ، فرحبوا بذلك وتقدموا داخلها ، واستولوا على كثير من مدنها .

ولما رأى المسلمون فى صقلية ما حل بهم طلبوا النجدة من والى الفاطميين على إفريقية المعز بن باديس ، فأرسل إليهم أسطولا لطرد الروم من الجزيرة ، ولكن لسوء الحظ غرق معظم رجاله ، ولما توفى باديس وخلفه ابنه تميم ، انتهز فرصة ظهور بوادر ضعف الخلافة الفاطمية وأبطل ذكر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى من الخطبة على منابر إفريقية سنة ٤٤٣ﻫ ونشر الدعوة للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، أما صقلية فأرسل إليها تميم أسطولا آخر لمساعدة مسلمى الجزيرة على إخراج الروم منها . ولم يمض وقت طويل على وصول هذا الأسطول حتى حدثت فتنة بين أهل هذه

الجزيرة وتميم ، وانتهز الروم تلك الفرصة وضيقوا الحصار على المسلمين حتى لم يبق لديهم ما يأكلونه .

وظلت الحروب مشتعلة بين المسلمين والروم فترة طويلة من الزمن ، استولى الروم أثناءها على جميع بلاد الجزيرة وعلى ثغورها ، واضطر المسلمون إلى التسليم سنة ٤٨٤ هـ ، وامتلك الجزيرة روجر النرمندى Roger الإنجليزى الأصل ، والذى كان يحتل إذ ذاك جنوب إيطاليا فتقدم إلى صقلية واحتلها أيضا ، وخرجت منذ ذلك الحين من حوزة الفاطميين . ويمكن القول بوجه عام أن سلطان الفاطميين تقلص عن صقلية ، تلك الجزيرة التى نشأ فيها جوهر فاتح مصر والشرق ، منذ ظهور الشدة العظمى فى عهد المستنصر .

بذلك فقدت الدولة الفاطميه قطرا من أغنى أقطارها ، بعد أن حكمته نحو قرنين من الزمان ، قام ولاتها أثناءها بكثير من الإصلاحات ، فحفروا الترع ، وعنوا بالزراعة كما نشروا العدل ، فساووا بين المسلمين والنصارى فى المعاملة وحرية العقيدة ، فكان للأولين مساجدهم وللآخرين كنائسهم ، كذلك لم يرهق الفاطميون مسيحى تلك الجزيرة بالضرائب الباهظة واكتفوا بأن أخذوا سنويا دينارين من أغنيائهم وديناراً واحدا من الصناع وأرباب الحرف ، وأعفوا النساء والأطفال من دفع الضرائب (١) .

٦ — علاقة الفاطميين بالصليبيين ونور الدين

عجلت حوادث النزاع المتكررة بين الوزراء المصريين على كرسى الوزارة ، فى العصر الفاطمى الثانى ، بتدخل الأجانب فى شئون مصر : فقد استنجد شاور وزير العاضد بنور الدين سلطان حلب ودمشق ، واستنجد منافسه ضرغام بعمورى ملك بيت المقدس . وقبل أن يتمكن عمورى من دخول مصر ، أرسل نور الدين إليها حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه (ابن أخى شيركوه) صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ودارت الحرب بين جند شيركوه والمصريين تحت أسوار القاهرة (٢) ، واستمرت سجالا عدة أيام تمكن شاور خلالها من قتل منافسه ضرغام

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

Lane-Poole: Egypt in the Middle Ages, p. 177.

وطيف برأسه فى الطرقات وسط مظاهر الفرح (١) . وأدرك بذلك غرضه وهو تولى الوزارة . واختلف مع شيركوه ولم يقدر له أثره فى تثبيت مركزه بل نقض الشروط التى عاهد نور الدين عليها ، وهى أن يدفع له ثلث نفقات الحملة التى ترسل إلى مصر كما أبى أن يدفع الجزية التى وعده بإرسالها . وعاد شيركوه بعد ذلك إلى الشام بعد أن عرف ما كان يسود مصر من الفوضى ، فظل هناك مدة يعد العدة مع نور الدين لحملة ثانية على مصر (٢) .

وبالفعل أرسلت حملة ثانية إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦م) بقيادة شيركوه وصلاح الدين أيضاً ، ووافق وصولها وصول الفرنجة . فسار الجيشان بحذاء شاطىء النيل حتى وصلا إلى القاهرة ، واتحد المصريون وشاور مع الفرنجة الذين عسكروا بالقرب من الفسطاط ، فى حين عسكر شيركوه فى الجيزة . ودارت بين الفريقين موقعة حامية بالقرب من البابين ، وهى بلدة على بعد عشرة أميال جنوب المنيا ، وأحرز شيركوه نصراً مبيناً . لكنه لم ير من الحكمة أن يسير مباشرة إلى القاهرة للاستيلاء عليها ، فسار فى الصحراء شمالا حتى وصل إلى الأسكندرية فدخلها من غير مقاومة وأقام ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها ، وعاد هو إلى الصعيد يجبى الأموال من أهلها وحاصر الصليبيون الأسكندرية ، ولما لم يكن مع صلاح الدين القوة الكافية لصدهم أسرع إليه شيركوه وعقد معهم صلحاً على أن يعود شيركوه إلى الشام مقابل خمسين ألف دينار يدفعها الصليبيون . وعادت حملة نور الدين إلى الشام وهى مصممة على أن تعود لامتلاك مصر قبل أن تقع هذه البلاد لقمة سائغة فى أيدى منافسيه من الصليبيين ، وعادت حملة الصليبيين إلى فلسطين (٣) .

اعتقد شاور أن عودة حملتى نور الدين والصليبيين إلى بلادهما ، مما يزيل مخاوفه ويثبت مركزه ، إلا أنه كان واهما فى ذلك ، فسرعان ما عادت حملة شيركوه الثالثة إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ ، وذلك حين علم نور الدين أن الفرنجة قد جمعوا كافة قواتهم وزحفوا بها على مصر من جديد ونقضوا ما عاهدوا المصريين عليه . وفى هذه المرة

(١) Lane - Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, P. 82.

(٢) ابن شداد ص ٤٣ .

(٣) ابن شداد ص ٤٣ — ٥٠ .

اتحد شاور مع حملة نور الدين لا مع الصليبيين ، كما كان الحال فى الحملة الثانية ، واتحد المصريون كذلك مع نور الدين بعد أن رأوا فظائع الفرنجة فى بلبيس[١] . ولما تقدم الفرنجة نحو الفسطاط ، أمر شاور بإحراقها ليحول بذلك بين الفرنجة وبين الوصول إليها ، واستمرت النيران تأكل هذه المدينة ٥٤ يوما ، وأسرع الأهالى نحو القاهرة ليستعدوا لصد هجوم الفرنجة ، فهزمت جيوش الفرنجة ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر وقابله أهلها بالترحاب ، واستقبله الخليفة العاضد الفاطمى بأحسن مظاهر الترحيب[٢] ، إذ قدر له تخليصه من الوقوع فريسة لحكم الصليبيين.

وعلى الرغم من اتحاد شاور مع شيركوه فى قتال الفرنجة ، فإن شيركوه كان واثقا من أن فرصة امتلاك مصر لن تتاح له مادام شاور فيها ، فأمر بالقبض عليه وعهد إلى صلاح الدين بأمر قتله ، فقام بما عهد إليه[٣] . وأسندت الوزارة إلى شيركوه فى سنة ٥٦٤ هـ ، وظل بها مدة شهرين حتى مات فتولاها من بعده صلاح الدين يوسف ، ومن هنا تبدأ مأساة سقوط الفاطميين ، إذ أن سياسة نور الدين دارت حول قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمى والقضاء على الخلافة الفاطمية .

٧ — تقلص سلطان الفاطميين

يجب على من يريد معرفة كيف خرجت الأقطار التى انضوت تحت لواء الفاطميين عن سلطانهم ، أن يتتبع كيف تأسست الدولة الفاطمية فى المغرب وكيف امتدت بعد ذلك إلى الشرق وتحولت إلى إمبراطورية : فأولا استولى أبو عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطميين على إفريقية وكانت تشمل المنطقة المعروفة اليوم باسم تونس ، ثم مد عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين نفوذه على بلاد المغرب حتى مدينة فاس فى مراكش ، كما اعترف بسلطانه حاكم صقليه ، وبعث عبيد الله المهدى حملتين لغزو مصر وكان من المحتمل أن يستولى عليها لولا قيام أهالى بلاد المغرب بالفتن والثورات فى وجهه طوال مدة حكمه .

---

(١) أبوشامة س ١٣٧ .
(٢) ابن الأثير س ١٣٦ — ١٣٧ .
(٣) ابن شداد س ٤٧ — ٤٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ س ٥٠١ — ٥٠٢ .

على أنه منذ عهد الخليفة الظاهر الفاطمى ، بدأت الدولة الفاطمية فى الانكماش. فإنه لم يكد يتولى الخلافة فى مصر ، حتى خرج عليه ببلاد الشام صالح بن مرداس الكلابى واتجه إلى حلب وظل يحاصرها إلى أن استطاع أخيراً الاستيلاء عليها ، وكذلك تغلب ابن المفرج البدوى صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام ، وكان لذلك أثره فى اضمحلال نفوذ الفاطميين فى هذه البلاد .

أما فى الحجاز ، فقد حدث فى عهد الظاهر أيضا ، أن أحد الحجاج المصريين ضرب وجه الحجر الأسود ثلاث ضربات متواليات وقال : إلى متى يعبد الحجر ! ولا محمد ولا على يقدران على منعى عما أفعله ، إنى أريد هدم هذا البيت . فلما علم بذلك المكيون ثاروا على المصريين وقتلوا جماعة منهم ونهبوا مامعهم من الأموال ، وكان من أثر ذلك أن ساءت العلاقة بين المصريين والحجازيين . وظلت الفتنة مشتعلة بين الفريقين إلى أن استطاع أحد القواد المصريين ، ويعرف بأبى الفتوح الحسن ابن جعفر ، إخمادها [١] .

كذلك لما علم الظاهر أن يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة (شمال غرب الهند) قد عظم أمره ، كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى طاعته وأرسل إليه الخلع . وكان أبوه الحاكم قد أرسل إليه كتاباً بهذا المعنى قبل وفاته ، فمزقه ابن سبكتكين ولم يعره أى اهتمام . فأراد الظاهر أن يعيد عليه الكرة لعله يعود إلى طاعته ، فلم يعبأ به أيضا وبعث بالكتاب وبالخلع إلى الخليفة العباسى القادر فى بغداد ، فجمع القادر القضاة والأشراف والجند ببغداد وجمع الخلع التى أرسلها الظاهر إلى ابن سبكتكين ، وكانت سبع جبب وفرجية ومركب ذهب وأضرم النار فيها وسبك المركب ذهبا وضرب منه ٤٠٥٠٠ دينار تصدق منها الخليفة على ضعفاء بنى هاشم .

ومما تقدم يتبين لنا كيف تقلص نفوذ الفاطميين فى كل من الشام والحجاز ، بعد أن توطدت سلطتهم فيها أيام المعز والعزيز . ويرجع السبب فى ذلك إلى ماجبل عليه الظاهر من حب السلم ، حتى إنه لم يعن عناية تامة باستعادة نفوذ مصر على هذه البلاد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٨ — ٢٤٩.

وفى عهد المعز انتشر سلطان الفاطميين من حدود طرابلس الغرب شرقا إلى سواحل المحيط الأطلنطى غربا ، بفضل مهارة جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى ، وفى سنة ٣٥٨ ﻫ فتح جوهر مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، ثم فتح بعض جهات سورية ، ودعا أمير مكة للمعز الفاطمى على منابر بلاده . وتفصيل تلك الدعوة أنه فى سنة ٣٤٨ ﻫ بلغ المعز ، وكان إذ ذاك فى المغرب ، أن القتال قد دار بين بنى حسن وبنى جعفر فى الحجاز ، فأنفذ الأموال مع بعض رجاله سراً لفض الخلاف بين الطائفتين ودفع الدية عن القتلى ، فدفعوا ديات سبعين من قتلى بنى حسن زاد عددهم عن قتلى بنى جعفر ، فلما فتح جوهر مصر دعا حسن بن جعفر الحسنى أمير مكة للمعز اعترافا بهذا الجميل الذى أسداه المعز إليه ، فولاه المعز على مكة من قبله .

وفى عهد العزيز الفاطمى ، امتد نفوذ الفاطميين على جميع الأقطار من بلاد العرب شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا وعلى جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط ، وانضمت جميع بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين بفضل ما أظهره العزيز والقائد جوهر من الحنكة والمهارة الحربية .

وفى الشطر الأول من خلافة المستنصر ، كانت رقعة الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلنطى غربا إلى نهر الفرات شرقا . وقد اعترف الصليحى الشيعى ، الذى أخضع بلاد اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة ، بسلطان المستنصر فى اليمن حول سنة ٤٥٥ ﻫ . وفى عهد المستنصر أيضا أقيمت الخطبة على منابر بغداد نحواً من سنة على ما بينا على يد البساسيرى القائد العباسى . وزادت عظمة مصر إذ ذاك ، حتى إن البساسيرى أخذ عمامة الخليفة العباسى وعرشه وخلعته وأرسلها إلى مصر وحفظت فى قصر الخليفة الفاطمى ، بل اتجه التفكير إلى إرسال الخليفة العباسى إلى القاهرة . وكان الخليفة العزيز قد بنى القصر الغربى لابنته ست الملك ، فزينه المستنصر وأنفق على تزيينه ما يبلغ مليونى دينار ، ليكون مقرراً أو سجنا للخليفة العباسى الذى انتظر المستنصر أن يؤتى به إليه فى كل حين .

هذا هو مدى امتداد الإمبراطورية الفاطمية فى عهود الخلفاء الفاطميين الذين تم فى عهدهم هذا الامتداد .

* * *

وفى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، تقلصت الإمبراطورية الفاطمية وانكمشت إلى أضيق حدودها ، بسبب انشغال المستنصر بتفريج أزمة الشدة العظمى التى انتابت مصر فى عهده . لذلك فإنه منذ النصف الثانى من عصر المستنصر تضاءل سلطان الفاطميين ، ذلك أنه :

١ — ثار أهل أفريقية سنة ٤٤٣ ﻫ ضد الحكم الفاطمى وأظهروا استياءهم من عقائد المذهب الشيعى ، واعترفوا بسلطان العباسيين ، ثم تكونت فى بلاد المغرب دويلات إسلامية مستقلة (١) .

٢ — استقل روجر النرمندى سنة ٤٨٤ ﻫ بصقلية بعد أن استولى عليها من الفاطميين سنة ٤٨٣ ﻫ ورحل عنها العلماء العرب وأذعن أهلها لسلطان الفرنجة .

٣ — قطعت الخطبة للمستنصر فى بلاد اليمن على أثر وفاة الصليحى أمير اليمن الذى أقام الخطبة للفاطميين سنة ٤٤٧ ﻫ ، وأعيدت الخطبة للفاطميين بعد ذلك .

٤ — قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطبة للخليفة المستنصر سنة ٤٦٢ ﻫ على أثر انقطاع الأموال التى كانت ترد إليهما من مصر ، بسبب ما أصاب البلاد المصرية من الأوبئة والمجاعات التى مزقت شملها كل ممزق ، وخطبا للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، وبعثا إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقى حاكم بغداد يخبرانه بذلك ، فأرسل إلى أبى هاشم صاحب مكة ثلاثين ألف دينار . ولما بلغ المستنصر ذلك لم يعبأ بهما لانشغاله بالعمل على تخفيف وطأة الغلاء والمجاعات والأوبئة التى حلت بمصر فى هذه الفترة .

٥ — فى سنة ٤٦٢ ﻫ تمكنت جيوش العباسيين التى أرسلها السلطان ملكشاه السلجوقى إلى الشام من فتح الرملة وبيت المقدس ثم من فتح دمشق سنة ٤٦٧ ﻫ وقطع الخطبة عن المستنصر وإحلال الخليفة العباسى فى الخطبة مكانه ، بل وهدد ملكشاه مصر نفسها ، ولكن بدراً الجمالى صد جيوشه عنها .

٦ — بعد ثورة أهالى شمال إفريقية ضد حكم الفاطميين واعترافهم بسلطان العباسيين سنة ٤٤٣ ﻫ ، لم يستمر إشراف الخليفة العباسى على تلك الجهات طويلا ، فإن الفرنجة بعد استيلائهم على جزيرة صقلية تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦ .

إفريقية الشمالى . فاستولوا على مدينة المهدية العاصمة الأولى للدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، وظلوا بها إلى أن أجلاهم عنها الموحدون تحت قيادة زعيمهم عبد المؤمن ابن على الذى استطاع سنة ٥٤٠ هـ أن يحشد جيشا كبيراً غزا به بلاد شمال إفريقية ، فاستولى على مراكش والجزائر ، واشتبك مع النرمنديين فى تونس فأجلاهم عنها ، ثم تابع الزحف شرقا حتى حدود مصر الغربية ، فضم إلى حوزته طرابلس وبرقة ، وبعد أن تم لعبد المؤمن فتح هذه البلاد عاد إلى المغرب الأقصى وظل به حتى مات سنة ٥٥٨ هـ . وهكذا تم لعبد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدوله الفاطمية فى شمال إفريقية ، ما عدا مصر التى أصبح سلطان الفاطميين مقصوراً عليها ، وعلى بعض البلاد الشامية منذ أواخر عهد المستنصر إلى أن زالت الخلافه الفاطميه على يد صلاح الدين الأيوبى سنه ٥٦٧ هـ .

٧ — أصبحت مصر واليمن وبعض البلاد السورية ، كما بينا ، هى البقية الباقية من الإمبراطورية الفاطمية . ولكن استقل محمود نور الدين بن زنكى بدمشق وحلب ، وقامت الحروب الصليبية ، فاحتل الصليبيون المدن الساحلية فى فلسطين وسوريا ، وأصبحت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية محل النزاع بين نور الدين والصليبين . وكان من أثر حملات شيركوه الثلاث على مصر أن أسندت الوزارة إلى شيركوه ثم إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فعمل هذا على إعادة المذهب السنى فى مصر ، وأنشأ المدارس لتعليم عقائده ، ونجح أخيراً فى قطع الخطبة للخليفة الفاطمى سنة ٥٦٧ هـ ، وبذلك عادت مصر إلى المذهب السنى ، وزال سلطان الفاطميين الشيعيين .

ثالثا فى عصر الأيوبيين والمماليك

١ — فى عصر الأيوبيين

علاقات الأيوبيين بالصليبيين

اتجاه الصليبيين ناحية الشرق :

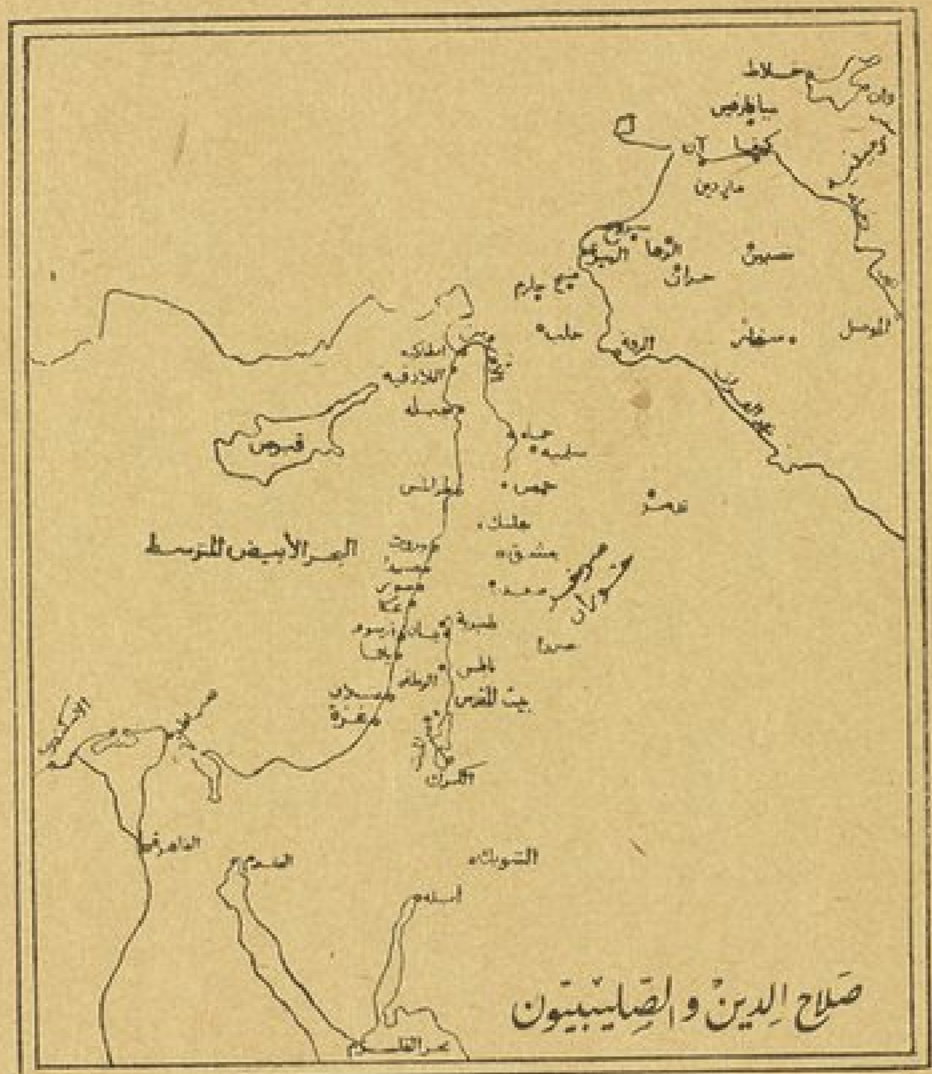
كان أول عهد الشرق الأدنى بالحروب الصليبية سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٦م)، وآخر عهده بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢م). ولا تقتصر أهمية علاقات الأيوبيين بالصليبيين، على أن غزاة مسيحيين اعتدوا على أقاليم إسلامية، بل إن أهميتها فاقت ذلك الاعتبار بكثير، ذلك أن قوات إسلامية تصدت لقتال الصليبيين ودونت بذلك صفحة مجيدة فى تاريخها. فإن تلك الحروب خلعت على صلاح الدين صفات الجرأة والشهامة والذود عن الإسلام، كما أنها أظهرت الدولة الأيوبية وقوت مركزها وأعلت مقامها بين الدول الشرقية، لأن تلك الدولة هى التى بدأت النضال الفعلى مع الصليبيين، وأخذت على عاتقها مهمة العمل على إجلاء الصليبيين عن بلاد الشام ضاربة أحسن الأمثال فى الكفاح والنضال، مما هيأ لها مركز الصدارة فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين.

وفى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، غزت الشواطىء السورية حملة أوروبية، اشترك فيها البابا وانجلترا وفرنسا وألمانيا، وتمكنت تلك الحملة من تأسيس أربع إمارات صليبية فى الشرق الأدنى، هى: بيت المقدس، وأنطاكية، وطرابلس، والرها.

ومما ساعد تلك الحملات على تثبيت قدمها فى تلك الإمارات: ذلك النزاع الذى كان قائماً بين السلاجقة السنيين فى العراق والفاطميين الشيعيين فى مصر، أضف إلى ذلك حدوث التنافر بين الإمارات الإسلامية فى حلب ودمشق وخلاط ونحوها[١]، مما أضعف الجبهة الإسلامية عن أن تدرأ خطر غزوات الصليبيين.

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٣٤.


خلاط
ميافارقين
ماردين
الرها
حران
نصيبين
سنجار
الموصل
منبج
حلب
الرقة
انطاكية
اللاذقية
جبلة
قبرص
حماة
سلمية
حمص
طرابلس
تدمر
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
حوران
طبرية
نابلس
بيت المقدس
عسقلان
غزة
الكرك
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
الشوبك
أيلة
صلاح الدين والصليبيون

وقد ظهرت ، فى ذلك الوقت الذى دفع فيه الصليبيون بقواتهم لغزو الشرق ، بعض القوى الإسلامية الفتية ، التى أخذت على عاتقها توحيد المسلمين تحت رايتها ، وتوسيع أملاكها على حساب الإمارات الصليبية ، حتى يتيسر طردهم نهائيا، وتمخضت هذه الحركة عن ظهور عماد الدين زنكى ، الذى تمكن فى آخر حياته من الاستحواذ على إمارة الرها ، أهم الإمارات الصليبية وأعظمها شأنا لدى الصليبيين(١)، حتى أن أوروبا حين علمت باستيلاء عماد الدين زنكى على إمارة الرها ، بعثت حملة صليبية أخرى ، وهى المعروفة فى تعداد الحملات الصليبية ، بالحملة الثانية . ولكن تلك الحملة لم تتمكن من تخليص الرها ، وانصرفت إلى المنازعات الداخلية والأغراض الشخصية.

وبعد سقوط الرها فى أيدى المسلمين ، ظلت الإمارات الصليبية الثلاث الباقية وهى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس ، المراكز التى يهاجم منها الصليبيون القوى الإسلامية الناهضة .

وفى ذلك الوقت الذى اشتد فيه التنافس بين الصليبيين والمسلمين على الإمارات الصليبية ، توفى عمورى Amalaric ملك بيت المقدس (٥٦٩هـ = يولية ١١٧٣م)، وزالت بموته شخصية فذة عند الصليبيين ، فقد كان يسيطر على الإمارات الصليبية فى الشرق الأدنى ، وهو يضارع عند المسلمين شخصية صلاح الدين، وأصبح الصليبيون بذلك تعوزهم الوحدة وينقصهم التماسك .

خلف عمورى فى مملكة بيت المقدس ابنه بلدوين الرابع Baldwin IV ، وكان طفلا أبرص(٢) ، فاتفق على أن يكون ريموند الثالث Raymond III وصيا عليه . ولما كان الأمل ضعيفا فى شفاء بولدوين وفى قدرته على أن يعقب خلفا له ، تزوجت أخته سيبلا Sybilla من وليم مونتفرات سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦م) (٣) ، حتى تعقب وريثا يخلف الملك بلدوين فى مملكة بيت المقدس ، غير أن مونتفرات توفى فى نفس سنة زواجه ، وأعقبت منه سيبلا طفلا ، وتزوجت بعد موته من جاى لوزجنان Gay Luzignan فلم يكن بالشخصية القوية التى يمكنها أن تقف فى وجه صلاح الدين .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٩ — ٤٠ .
Stevenson : Crusaders in the East, p. 153

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٦.

(٣) Stevenson : Crusaders in the East, p. 215.

وظهرت إذ ذاك شخصية ، شغلت إلى حد كبير ، ذلك الفراغ الذى حدث بوفاة عمورى ملك بيت المقدس ، وهى شخصية ريجنالد دى شاتيون الذى يسميه مؤرخو العرب البرنس أرناط ، وهو شاب مغامر ، متحمس لتحقيق أغراض الصليبيين فى الاحتفاظ بالإمارات اللاتينية والجهاد ضد المسلمين (١) .

جاء أرناط إلى الشام مع الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، وتمكن منه نور الدين وسجنه مدة طويلة ، بلغت الخمسة عشر عاما . ويختلف المؤرخون فيمن أطلق سراحه : فقيل نور الدين ، وقال بعضهم إنه الملك الصالح إسماعيل. وتزوج أرناط بعد إطلاق سراحه من أميرة حصن الكرك ، وأصبح أمير القلاع حول البحر الميت ، وقام بحركات وصفت بأنها أجرأ ما قام به الصليبيون ضد المسلمين فى الشرق الأدنى طول مدة إقامتهم فيه .

على أن ظهور أرناط بعد عمورى ، لم يمنع ذلك الانقسام الذى حل بالصليبيين بسبب تعدد الشخصيات الطامعة فى عرش بيت المقدس ، واختلافهم فيما بينهم على طرق الجهاد ضد المسلمين . وانقسموا إلى حزبين : حزب يدعو لقتال المسلمين دون هوادة ويتزعمه بلدوين وأخته سبيلا وزوجها جاى لوزجنان ويؤيدهم أرناط ، وحزب يدعو لمهادنة المسلمين ويتزعمه ريموند الثالث مما دعا الصليبيين المتطرفين إلى اتهامه بالتوانى فى تأدية الرسالة الصليبية .

١ — علاقة صلاح الدين بالصليبيين

بذلك كانت حالة الصليبيين ، مما ساعد صلاح الدين على تنفيذ سياسته ، وهى طرد الصليبيين فى سوريا ، إذ أنه كان مشغولا فى ذلك الحين بالقضاء على المنازعات القائمة بين أمراء المسلمين . ولما تم له إخماد الفتن الداخلية فى مصر وتوحيد القوى الإسلامية تحت رايته وأصبح الوريث الوحيد لنور الدين ، بدأ يتحين الفرصة لمحاربة الصليبيين

على أن الفترة التى قضاها صلاح الدين فى توحيد القوى الإسلامية (٥٧٢ — ٥٨٢ هـ = ١١٧٦ — ١١٨٦ م) لم تخل من مناوشات بينه وبين الصليبيين ، فإنه فى سنة ١١٧٦ م بعد أن صفا الجو بينه وبين إسماعيل بن نور الدين ، سار لمقاتلة

(١) كان ريجنالد دى شاتيون أميرا من أمراء الفرنسيين ، وكان مغامرا غادرا لا عهد له ولا وفاء ، يهاجم الحجاج وقوافل التجار وينهب أموالهم ويأسر رجالهم ونساءهم ، حتى أطلق عليه مؤرخو العرب لقب « الشيطان » .

الصليبيين وقابلهم عند تل جازر قرب الرملة حيث أوقعوا به هزيمة شائنة[١]، وأسروا كثيراً من المسلمين، من بينهم الفقيه عيسى الهكارى فافتداه السلطان بستين ألف دينار، وتابع الصليبيون انتصاراتهم وقاموا بمناوشات عديدة فى حماه وقلعة حارم وحمص، وغنموا كثيراً من الغنائم.

ولكن لم يأت عام ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) حتى تمكن صلاح الدين من أن ينتصر على الصليبيين فى موقعة مرج العيون، ثم موقعة مخاضة الأحزان سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩م) وكان انتصارا باهراً، فقد استطاع أن يأسر كثيرين من أمراء الفرنجة منهم بلدوين ملك بيت المقدس وريموند ملك طرابلس ورئيسى فرقتى فرسان المعبد والكنيسة، وقتل هذان الأخيران لخطرهما.

وعقب هذا الانتصار عقد صلاح الدين سنة ٥٧٦ (١١٨٠م) هدنة لمدة سنتين مع بلدوين ملك بيت المقدس، وانضم ريموند ملك طرابلس إلى تلك الهدنة فيما بعد، بينما آثرت إنطاكية ألا تنضم إليها، واستمر صلاح الدين فى مفاوضاته مع أمراء وملوك الإسلام فى الجزيرة والعراق وشمال الشام، حتى تم له ما كان ينشده من توحيد القوى الإسلامية.

على أنه رغم الهدنة التى كانت قائمة بين صلاح الدين والصليبيين منذ عام ٥٧٦ هـ (١١٨٠م) فإن أرناط أمير حصن الكرك لم يعترف بتلك الهدنة، ورأى أن واجبه يقضى عليه بقتال المسلمين كلما وجد إلى ذلك سبيلا، لذلك أخذ يتعرض للقوافل السائرة بين دمشق والقاهرة مارة بحصن الكرك، كما جرد حملة سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) على بلاد العرب، إلا أن أحد قواد صلاح الدين ويسمى فروخ شاه لحق به وحال بينه وبين الوصول إلى ذلك الإقليم الذى يعد مركز الديانة الإسلامية. ولكن القدر سخر من أعمال أرناط، فقد قذفت العواصف والأنواء بسفينة للحجاج المسيحيين قبالة دمياط، وكانت تحمل ألفا وخمسمائة مسافر فأسرهم صلاح الدين.

وفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨١م) كانت الهدنة القائمة بين صلاح الدين والصليبيين قد انتهت: فلم يجددها صلاح الدين، مما أساء إلى الصليبيين الذين انتهزوا فرصة وجوده فى العراق لضم بلدانها تحت سلطانه، وقاموا بمهاجمة قرى دمشق، فلم يعبأ صلاح الدين بأمرهم. ولم تفتر عزيمة أرناط عن قتال المسلمين، فقد أرسل سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)

---

(١) Lane – Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 205—206.

أسطولا إلى خليج العقبة ، وبعض المراكب الحربية إلى شواطىء الحجاز ، إلا أن العادل ، نائب صلاح الدين فى حكم مصر أثناء غيابه فى العراق ، أرسل أسطولا بقيادة لؤلؤ الحاجب(١) شتت شمل الصليبيين عند الحوراء شمال ينبع ، وأسر الكثيرين منهم ، وفر الباقون ومعهم أرناط(٢) ، ومدح الشعراء لؤلؤاً فقال بعضهم :

يا حاجب المجد الذى ماله	ليس عليه فى الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤاً عندما	أضحت من البحر له نسبه
لله ما تعمل من صالح	فيه وما تظهر من حسبه
كفيت أهل الحرمين العدا	وذدت عن أحمد والكعبه

توفى بلدوين ملك بيت المقدس سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وخلفه بحق الوراثة بلدوين الخامس ابن أخته سيبلا ، لكنه توفى فى سنة ٥٨٢ هـ (صيف ١١٨٦ م) . وبموتهما تعقد الموقف بين جاى لوزبجنان وبين ريموند الثالث الذى كان وصياً على بلدوين ، فأعلن لوزبجنان نفسه ملكا على بيت المقدس بمساعدة أرناط . فغضب ريموند الثالث واستنجد بصلاح الدين ، ولكنه لم ينجده ، إذ كان قد عقد سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤ م) هدنة مع الصليبيين لمدة أربعة أعوام . وبذلك لم ينقض صلاح الدين عهده رغم سنوح الفرصة له للتدخل فى شئون الصليبيين ولزيادة الانقسام بينهم ، بينما نقض أرناط هذه الهدنة فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٨٨ م) . وتهيأت الفرصة بذلك أمام أرناط وصلاح الدين ، ليهاجم كل منهما الآخر من جديد .

وقد هيأ أرناط الفرصة لصلاح الدين لمحاربة الصليبيين ، تنفيذاً لتلك الرغبة التى طالما جاشت فى صدره ، وكانت مهاجمة أرناط لإحدى قوافل الحج الإسلامية التى قيل إن أخت صلاح الدين كانت من بين أفرادها ، هى الشرارة التى أشعلت نار الحرب بين الفريقين ، فقد غضب صلاح الدين من ذلك العمل ، وهدد أرناط بالقتل إذا تمكن منه ، واستعد صلاح الدين لقتال الصليبيين ، ووافته الإمدادات الحربية من المدن الشامية ، وسار إلى بلدة طبرية وحاصرها .

---

(١) كان لؤلؤ أرمنيا ، اعتنق الإسلام على أيدى الفاطميين ، وتخصص فى قيادة السفن وحروب البحار ، فعرف صلاح الدين له فضله ، وجعله أميراً للأسطول .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٧٦ — ٧٨ .

واقعة حطين :

لما اتصل بالصليبيين نبأ استعدادات صلاح الدين الحربية اجتمعوا فى بلدة صفورية حيث تناقشوا فى خطة الحرب الواجب اتباعها إزاء صلاح الدين فانقسموا قسمين : فأشار بعض المجتمعين وكانوا أقلية باتخاذ خطة الهجوم ، ووافقت الأغلبية على اقتراح رعوند الثالث الذى يقضى باتخاذ خطة الدفاع مع بقاء الصليبيين فى صفورية ، ووافق جاى لوزيجنان ملك بيت المقدس على خطة الدفاع ، إلا أن أرناط تمكن من استمالة لوزيجنان إلى جانبه ، فأخذ برأيه وهو الهجوم على المسلمين ، ومن ثم تقدموا واحتلوا تلا على مقربة من حطين .

ولما استعصت قلعة طبرية على صلاح الدين على الرغم من تسليم مدينة طبرية له ، سار لملاقاة الصليبيين . وفى سنة ٥٨٣ هـ (يولية ١١٨٧ م) دارت رحى الحرب بين الفريقين فى حطين ، وانتهت بهزيمة الصليبيين هزيمة فادحة . ومات كثير من الصليبيين وفر الباقى ومن بينهم أرناط وجاى لوزيجنان ، فأسرهم المسلمون ، وقتل صلاح الدين أرناط بيده كما أقسم من قبل ، وقتل مائتين من فرسان المعبد والكنيسة عقابا لهم على الدور الذى قاموا به مع الصليبيين ضد المسلمين ، ولكنه عفا عن لوزيجنان قائلا إن الملوك لا تقتل الملوك .

أثر الواقعة :

كانت هزيمة الصليبيين فى واقعة حطين ، فاتحة انتصارات للمسلمين على الصليبيين : فقد سلمت قلعة طبريه لصلاح الدين عقب ذلك الانتصار المبين الذى أحرزه فى حطين ، واتجه نحو الساحل وحاصر عكا أربعة أيام حتى سلمت له على أساس أن يترك صلاح الدين لسكانها حرية الاختيار بين الرحيل عن مدينتهم ومعهم أموالهم وأمتعتهم الخفيفة وبين البقاء ، فيها على أن يدفعوا الجزية المفروضة على أهل البلاد المفتوحة ، إلا أن معظم أهالى عكا خشوا أن ينقض صلاح الدين عهده ففضلوا الرحيل وتسلم صلاح الدين عكا ، ثم سلمت له باقى المدن الساحلية التى تقع جنوب عكا وهى : نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت ، وكذا المدن الواقعة شمال عكا مثل الأسكندرونة وذلك بنفس الشروط التى سلمت بها عكا [1] ، ولم يستعص

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٣ ص ٩٤ — ٩٤ .

على صلاح الدين إلا بلدة صور فتركها . وسبب تركه لها عدة صعوبات لاقاها ، نتيجة لتجمع الأهالى ، الذين هاجروا من بلادهم بعد تسليمها له ، فى تلك المدينة وتكوين جبهة مضادة له .

وكما سهل انتصار صلاح الدين فى حطين استيلاءه على المدن الساحلية شمال وجنوب عكا ، فإن ذلك الانتصار أدى إلى دخوله فلسطين ، إذ أنه استولى على عسقلان بعد أن أقنعها جاى لوزيجنان بمزايا تسليمها لصلاح الدين بالشروط التى سلمت بها المدن الأخرى . وكان صلاح الدين قد وعد بإطلاق سراحه إن هو أدى له هذه الخدمة ، وفعلا بر صلاح الدين بوعده وحدد يوم أول أغسطس من سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) لفك أسره ، أى بعد مرور عام من تسليم عسقلان ، على ألا يشترك جاى فى حرب ضده ، ولكن جاى لم يوف بعهده وحارب فيما بعد ضد صلاح الدين فى عكا (١) .

تتابعت انتصارات صلاح الدين بعد ذلك وأصبح الطريق مفتوحا أمامه إلى مدينة بيت المقدس ، وفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) حاصر صلاح الدين تلك المدينة حصاراً شديدا ، وزادت حالة أهالى بيت المقدس سوءا حين وقف حسام الدين لؤلؤ بأسطوله حائلا دون وصول الإمدادات لمدينتهم ، فقلت بها المؤن وندرت الأقوات وضاق الأهالى ذرعا بتلك الحالة رغم استبسالهم فى الدفاع عن تلك المدينة المقدسة ، واضطروا أخيرا إلى طلب الصلح ، وترك لهم صلاح الدين مدة قدرها أربعون يوما للجلاء عن المدينة يستعدون فيها للرحيل ومعهم أمتعتهم ، واشترط أن تدفع قبل لرحيل فدية قدرت بعشرة دنانير عن الرجل وخمسة عن المرأة واثنين عن الطفل ، ومن لم يستطع دفعها وقع فى الأسر ، وأعفى العجزة والفقراء والشيوخ من دفع تلك الفدية ، وتسامح مع النساء حتى زوجة أرناط نفسه ، وخرج البطريق سالماً ومعه تحفه وكنوزه دون أن يتعرض له أحد . ولما تم الجلاء دخل صلاح الدين بجيشه واحتل بيت المقدس . وفى الوقت الذى كان من المنتظر فيه أن يخرب صلاح الدين تلك المدينة التى طالما أثار وقوعها فى يد الصليبيين أشجانه ، فإنه على العكس أصلح المنشآت التى تصدعت نتيجة للعمليات الحربية التى قام بها ، وزاد على ذلك أن جمل المسجد الأقصى وأقام فيه منبراً .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ١٨٢ .

بعد أن انتهى صلاح الدين من الاستيلاء على بيت المقدس ، حاصر صور ، وكانت فلول الصليبيين المهاجرين من المدن السورية التى سلمت لصلاح الدين قد تجمعت فيها . وأصبحت تلك المدينة ، التى لم يتمكن صلاح الدين من الاستيلاء عليها مركز المقاومة ضد القوى الإسلامية بزعامة صلاح الدين ، وزادها مناعة وصول إمدادات حربية إليها بقيادة كونراد منتفرات ، وبذلك تمكنت حامية صور من إنزال خسائر فادحة بسفن المسلمين التى كانت تحاصرها من ناحية البحر ، فاضطر صلاح الدين لرفع الحصار : لمناعة صور واستبسال أهلها فى الدفاع من جهة، ولطول مدة الحصار ، وضجر جند صلاح الدين من جهة أخرى .

بعد أن رفع الحصار عن صور ، اتجه صلاح الدين إلى حصن الأكراد قبالة طرابلس نفسها للاستيلاء عليها، ولكن دون جدوى مما اضطره إلى الرحيل عنها . وذهب صلاح الدين بعد ذلك إلى أنطاكية لأخذها فلم يتمكن من ذلك ، وعقد هدنة مع أميرها لمدة ثمانية أشهر ، على أن تنقض تلك الهدنة إذا جاءت إلى فلسطين حملة صليبية أخرى .

وتفرغ صلاح الدين بعد ذلك للاستيلاء على بقية حصون الصليبيين ، فاستولى على طرابلس بعد أن استعصى أمرها عليه مدة ، ثم استولى على كل المدن الساحلية شمالى صور ، واتجه جنوبا للقضاء على المدن الباقية فى مملكة بيت المقدس ، وأخذ حصن الكرك سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) .

لم يبق أمام صلاح الدين بعد تلك الانتصارات الباهرة التى أحرزها على الصليبيين سوى صور ، وكانت أوربا قد أرسلت إليها قبل ذلك ، حملة بقيادة كونراد منتفرات على مابينا ، بقصد تقويتها ضد محاولة صلاح الدين الاستيلاء عليها ، فطلب منتفرات نجدة جديدة من ملوك أوربا فاستجابت لطلبه ، حيث قام البابا بإعلان الجهاد ضد المسلمين والتصميم على تخليص بيت المقدس من أيديهم ، وسارعت كل من ألمانيا وانجلترا وفرنسا لتلبية ذلك الطلب .

بذلك تكونت الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيها : ثلاثة من أقطاب ملوك أوربا هم : فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . سار بربروسا من ألمانيا واتخذ الطريق البرى إلى آسيا الصغرى مخترقا بلاد المجر والبلقان ، ثم ذهب إلى آسيا واخترق جبال

طوروس ، ولكن بربروسا غرق فى نهر سالف أثناء عبوره ، فتشتتت حملة ألمانيا، ولم يصل منها إلى عكا سوى عدد قليل .

أما فيليب أوغسطس ورتشارد قلب الأسد فقد أبحرا من مرسيليا حتى وصلت حملتاهما إلى صقلية واستقرا بها مدة سنة (٥٨٧ هـ = ١١٩١ م) ثم أبحرا منها دون أن يتفقا على خطة معينة : فاتجه فيليب أوغسطس نحو عكا مباشرة ، وتخلف رتشارد فى جزيرة قبرص ليجعل منها مركزاً بحريا يهاجم منه فلسطين ، ثم لحق بفيليب فى عكا . وتمكنت تلك الحملة الصليبية من حصار عكا والاستيلاء عليها فى سنة ٥٨٧ هـ رغم استبسال المسلمين فى الدفاع عنها وبقاء صلاح الدين فى ميدان القتال مع أنه كان مريضاً . وتم ذلك النصر بفضل شجاعة رتشارد ملك انجلترا حتى أطلق عليه « قلب الأسد » (١) .

وكان من الممكن أن يواصل الصليبيون انتصاراتهم على المسلمين ، لولا تلك المنافسات التى كانت تظهر بين أمراء الصليبيين من حين لآخر مما كان له أسوأ الأثر فى حالاتهم العامة . وزاد من حدة هذه المنافسات إنضمام فيليب إلى أحد الفريقين المتنافسين وانحياز رتشارد إلى الجانب الآخر .

بقى رتشارد وحده فى سوريا لمحاربة المسلمين ، بعد أن رحل فيليب إلى فرنسا ، فاستولى على أرسوف ويافا وحصنها من جديد . وعزم على استرجاع بيت المقدس ، ولما علم صلاح الدين بعزم رتشارد حصن بيت المقدس ، وأصبحت خطته هى ترك الساحل للصليبيين وتقوية نفسه فى الداخل ، واستطاع الصليبيون بالفعل أن يستولوا على كل مدن الساحل ، ولكنهم رغم ذلك تفاوضوا مع صلاح الدين ، وكان العادل أخو صلاح الدين هو واسطة الاتصال بين المسلمين والصليبيين ، تلك المفاوضات التى أدت فى النهاية إلى عقد صلح الرملة .

صلح الرملة:

قام نصر الصليبيين على أكتاف رتشارد ملك انجلترا يساعده كنراد صاحب صور . ولكن الوحشة سرعان ما دبت بين رتشارد وكنراد ، مما أدى إلى صعوبة

---

(١) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 210.

التعاون بينهما ، كما أن الحالة فى انجلترا كانت تستدعى سفر ملكها إلى هناك، يضاف إلى كل هذا أن ريتشارد أدرك أن انتصارات الصليبيين مهما بلغت من الاتساع لابد أن تقف عند حد ، وأنه من الصعب على الصليبيين وهم بعيدون عن أوطانهم أن يقهروا المسلمين ، وهم فى بلادهم عارفين « طبوغرافية » ميدان القتال بكل دقة وتفصيل ، وتصلهم الإمدادات بأسرع وقت ممكن وبأى قدر يريدون .

لكل هذه الأسباب مجتمعة ، دخل الطرفان فى مفاوضات الصلح ، وقدم كل من ريتشارد وكنراد شروطا للمسلمين ، وكانت شروط كنراد على جانب عظيم من الاعتدال ، ولكن هذا الرجل مات بعد أن اتهم بالخيانة نتيجة اعتداله .أما رتشارد فكان داهية جباراً استطاع أن يكون صداقة بينه وبين الملك العادل ويجعله وسيطا فى المفاوضة مع أخيه صلاح الدين .

اقترح ريتشارد ، لإصلاح ذات البين بين المسلمين والمسيحيين ، أن يزوج أخته للملك العادل أخى صلاح الدين ، ويحكم الإثنان إقليم بيت المقدس ، وهكذا تقوم صلة نسب بين زعيمى المسيحية والإسلام ، وتكون هذه الصلة واسطة لإيجاد السلام بين الطائفتين . ولكن القساوسة لم يوافقوا على هذا الاقتراح ، كما أن المسلمين هزئوا به ، فلم يؤخذ بهذا الحل وبدأ البحث عن طريق آخر لإحلال الوئام محل الخصام .

وأثناء تلك الفترة كانت العمليات الحربية سائرة فى طريقها المعتاد لا تتأثر بما يتبادله رتشارد وصلاح الدين من هدايا ومكاتبات ، فحاصر صلاح الدين يافا واستولى عليها ، ولكن رتشارد استطاع أن يسترجعها بمساعدة عدد قليل من الجند لدرجة أن المسلمين ذهلوا من شجاعته وأعجبوا به أيما إعجاب حتى إنهم لقبوه «قلب الأسد». وقد رغب الصليبيون فى الزحف على مصر ، واقترحت طائفة منهم احتلال بيت المقدس ، واستقر رأى الصليبيين أخيراً على الذهاب إلى الرملة ومنها إلى بيت المقدس، ويقال إن صلاح الدين قد بات طوال تلك الليلة يصلى ويدعو الله أن ينقذ بيت المقدس من أيدى الصليبيين .

عادت المفاوضات ثانية بين المسلمين والصليبيين ، مما أدى إلى عقد صلح الرملة بين الفريقين ، ومن أهم شروطه :

١ — تخريب عسقلان ، وكان ذلك ضرورياً ، لأنها مفتاح بيت المقدس .

٢ — يحكم الفرنجة الساحل من صور إلى يافا ويكون جنوبى ذلك الساحل لصلاح الدين ، ويقع فى حدوده بيت المقدس .

٣ — يسمح للمسيحيين بالحج إلى بيت المقدس فى أمن واطمئنان (١) .

وهنا نلاحظ أن بيت المقدس ، وهو السبب الرئيسى لهذه الحملات الصليبية ، ظل فى أيدى المسلمين

(ب) علاقات خلفاء صلاح الدين بالصليبيين

فى عهد الملك العزيز :

توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ﻫ (١١٩٣م) وهو بدمشق . وكانت تلك الحروب الطويلة قد أنهكت قواه مما أدى إلى موته . وخلفه ابنه العزيز فلم يحدث بينه وبين المسيحيين نضال يذكر ، وكل ماحدث لم يعد عدة مناوشات بسيطه ، واستغل أمراء الصليبيين فرصة نزاع العزيز مع أخيه الأفضل واحتلوا جبلة ، وقيل إن الأكراد هم الذين سلموها لهم لأن الصليبيين كانوا فى حالة لا تسمح لهم بإنزال ضرر بالمسلمين، إذ كان أمير أنطاكية وطرابلس منشغلا بكفاحه ضد جاره ملك قبرص ، كما كان شمبانى ملك أورشليم الإسمى رجلا ضعيفاً لا يخشى بأسه .

على أن هنرى السادس إمبراطور ألمانيا أعد جيشاً كبيراً وأسطولا مكونامن ١٤ سفينة ووصلت هذه القوة إلى عكا سنة ٥٩٤ﻫ (١١٩٧م) وهزمت المسلمين قرب صيدا ، واستولت على بيروت واستعدت للهجوم على بيت المقدس،ولكن الإمبراطور مات فجأة مما سبب اضطراباً فى جيشه ، فاصطلح قواده مع المسلمين ورجعوا إلى وطنهم . ويمكننا اعتبار حملة هنرى السادس من طلائع الحملة الصليبية الرابعة .

فى عهد الملك العادل :

اشتبك الملك العادل فى نضاله ضد المسيحيين مع فرنجة سوريا ومع الحملتين الصليبيتين الرابعة والخامسة وحملة الأطفال .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢٠ .

أما عن نضاله مع أمراء المسيحيين فى سوريا فهو نضال ليست له أهمية تاريخية ، فقد انتهز الصليبيون فرصة نزاعه مع أبناء أخيه وقاموا بإغارات انتهت بالفشل . ولم تتوجه الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر بل سارت إلى القسطنطينية واحتلتها وأسقطت الإمبراطور البيزنطى ، ثم خرج الصليبيون بأسطول كبير إلى مصر وعبروا النيل من جهة رشيد ووصلوا إلى فوة ونهبوها (١) ، ولكن العادل اصطلح معهم سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤م) وعقد هدنة مع عمورى ملك بيت المقدس فرجبت به يافا والرملة. ولما كثرت إغارات الصليبيين اضطر العادل إلى مقاومتهم فأحرز بعض انتصارات فى طرابلس ، ثم عقدت هدنة مع ملكها سنة ١٢٠٧م ، وفى سنة ١٢٠٨م تحالف مع البنادقة وأبرم معهم اتفاقاً يمنحهم به بعض امتيازات تجارية فى موانى مصر ، مقابل منع الصليبيين من التقدم نحو الديار المصرية (٢) .

وواجه العادل كذلك حملة الأطفال (٦٠٩هـ = ١٢١٢م) ، وهى حملة تحمس فيها بضعة آلاف من أطفال أوروبا ، على اعتبار أن استرداد بيت المقدس الذى عز على الرجال سيأتى على يد فتيان أطهار ، وخرجوا زاحفين على الشرق الإسلامى ، فكان الأثر الوحيد الذى أوقعوه بمصر هو أنهم ملأوها بأسرى من الفتيان الذين بيعوا كالرقيق . ويمكن أن تعتبر هذه الحملة طليعة للحملة الخامسة .

خجلت أوربا من حملة الأطفال ، إذ أنها كانت تعنى تقاعد الرجال عن الجهاد ، فأرسلت للمرة الخامسة قوات كبيرة إلى الشرق الإسلامى . وفى هذه المرة نزل الصليبيون فى عكا وكانوا من القوة بحيث عجز العادل عن صدهم فاحتلوا ونهبوا بيسان وصيدا (٣) ، ثم قر رأيهم على مهاجمة مصر فزحف عليها القائد جان دى برين Jean de Brienne بالاشتراك مع الأسقف بلاجيوس ، ووصل هذا الجيش إلى دمياط وكانت محصنة تحصيناً قويا ويشرف عليها برج السلسلة ، وهو برج عظيم قائم على جزيرة فى النيل وأمامها سلسلة تمتد فى النهر ، وقد حاصر الصليبيون دمياط

---

(١) المقريزى: كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٦ .

(٢) Lane-Poole : Egypt in the Middle ages, p. 209

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٦٣ .

لمدة أربعة أشهر حتى أمكنهم الاستيلاء على برج السلسلة . فحزن العادل على ضياعه حزناً عميقاً ، مات بسببه وهو فى الشام .

فى عهد الملك الكامل :

تولى الكامل الحكم فى فترة عصيبة جداً ، كان فيها الصليبيون منتصرين وموجهين كل قواهم لحصار دمياط . لذلك عمل الكامل على إنقاذ المدينة ، فأغرق بعض السفن فى النهر حتى يجعلها عقبة أمام الصليبيين تمنعهم من عبوره ، واستبسل المصريون فى الدفاع ، ولكن الحصار اشتد عليهم ومنعت عنهم المؤن وفشت المجاعات والأوبئة وكثر الموتى ، وصمد المصريون وصبروا على مشقة الحصار ولكن قامت مؤامرة دبرها قواد المسلمين ضد الكامل وكانوا يرمون إلى خلعه وقتله أيضاً ، فترك الكامل ميدان القتال وهرب إلى أشموم طناح ، فحدثت اضطرابات فى جيشه واستغل الصليبيون الفرصة فهجموا على دمياط ، ورغم أن الكامل رجع إلى الميدان وقد جمع جيشاً كبيراً ، فإنه لم يستطع الدفاع عن المدينة وعرض على الصليبيين أن يترك لهم بيت المقدس مقابل تركهم دمياط فرفضوا . وهذا يدلنا على تغير الروح الدينية عندهم وتحولهم عن الغرض الرئيسى الذى قامت من أجله الحملات الصليبية وهو استرداد بيت المقدس ، واستطاعوا بعد ذلك أن يمتلكوا دمياط[١] وأن يعملوا فيها السيف ، وشرع المسلمون فى تحطيم أسوار بيت المقدس وبعض مدن أخرى حتى لا تصبح معاقل للصليبيين إن هى وقعت فى أيديهم .

بعد احتلال دمياط عزم الصليبيون على السير إلى القاهرة ، ولكنهم أخطأوا مرتين : أولاهما حين أضاعوا وقتا كبيرا فى مناقشة موقفهم وانتظار الأمداد التى التى تصلهم من أوربا ، ولم يبدأوا فى الزحف إلا فى يوليو سنة ١٢٢١ م أى بعد مرور سنة ونصف ، كان المسلمون فى أثنائها قد استعدوا وحشدوا قواهم ثانية[٢] . وثانيتهما حين اتخذوا طريقا خاطئا من أجل الوصول إلى القاهرة ، إذ أن الطريق

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٦ ص ١٩٦ .

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٣٨ .

الطبيعى فى الوصول إليها هو طريق الفرما وبلبيس ، وذلك هو الطريق الذى اتخذه كبار الفاتحين أمثال قمبيز والأسكندر وعمرو بن العاص . ولكن الصليبيين تركوا هذا الطريق واخترقوا الدلتا وسط منطقة مائية ، تجرى فيها شبكة معقدة من القنوات وأفرع النيل تصلح لأن تكون أشراكا ومناطق للدفاع ، وخاصة أن ذلك الوقت وافق فترة الفيضان . أما المسلمون فقد ترصدوا لهم فى مكان حصين محل المنصورة الحالية (١) ووحدوا جهودهم ، وتناسى الأمراء أحقادهم الماضية وكونوا كتلة إسلامية جعلت غرضها الأول طرد هذا العدو المشترك من الأراضى المصرية .

تقدم الصليبيون فى هذا الطريق المائى الذى لايعرفون شيئا عن طبوغرافيته وارتبكوا وسط القنوات المعقدة ، وارتفعت مياه النيل وامتلأ بها كثير من القنوات وحطم المسلمون السدود وتركوا المياه تغطى المنطقة وأصبحت البلاد شبه بحيرة ، فأحيط الصليبيون بالمياه وحاولوا الهرب ، فلم يتمكنوا ، وطلبوا الأمان . وقبل الكامل طلبهم ولم يعمل على إهلاكهم حتى لايتعرض فيما بعد لنقمتهم ، وسمح لهم بالرحيل فتركوا دمياط بدون مقابل وأطلق الأسرى من الطرفين وأقيمت هدنة لمدة ثمانى سنوات . وهكذا انسحب الصليبيون نادمين على الاتفاق الأول الذى عرضه عليهم الكامل ورفضوه .

وقاد فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا ، حملة يمكن أن نسميها الحملة الصليبية السادسة ، وهى أعجب حملة قام بها ملك أوربى . خرج من أوربا بحملته وهو محروم من رحمة الكنيسة ومعه قوة ضئيلة لا تزيد عن ستمائة فارس ، وسار بها إلى الشرق الإسلامى حيث كسب ماعجزت عنه الحملات الكبرى التى سبقته . وطبيعى أن الحرب لم تكن الوسيلة التى يلجأ إليها فردريك المحروم من الكنيسة ، وفى عداء مع ملك بيت المقدس ، وليست لديه القوة الحربية الكافية لمواجهة أعدائه ، فاتخذ طريقاً سلمياً أوحت به إليه طبيعته الميالة إلى الفلسفة والمنطق ، وكان فردريك عالما

---

(١) لم تكن مدينة المنصورة قد أنشئت إذ ذاك ، وإنما بناها الكامل أثناء وبعد هذه الواقعة . أنظر باب المنشآت .

أديبا ، خبيرا بالروح الشرقية ، وكان — كالكامل — متسامحاً من الناحية الدينية ، فتصادق مع الكامل وأرسل إليه هدية عبارة عن دب أبيض وطاووس مركب من الذهب ومرصع بالجواهر ، فرحب الكامل بالهدية وأرسل لفردريك بعضاً من تحف الهند واليمن منها سرج من الذهب وكثير من الجواهر (١) . وكانت ظروف كل من الملكين تغريه بعقد الصلح : فقد كان فردريك محروماً من الكنيسة ويريد أن يعمل عملا يمكنه من استرجاع بركة البابا كما كان مركزه حرجا فى سوريا لسوء علاقته بجان دى برين وأنصاره ، أما الكامل فقد كان متخوفا من منافسيه . ونصت شروط الصلح على أن يأخذ فردريك بيت المقدس ، دون أن يحصنه أو يعيد بناء أسواره ، ويستولى كذلك على المدن الساحلية من عكا إلى يافا ، وأن يطلق سراح كثير من الأسرى الصليبيين ومنهم ضحايا حملة الأطفال ، وفى مقابل ذلك تعهد فردريك بالدفاع عن المسلمين ضد أى عدو حتى من الفرنجة ، وكذلك اتفق على ألا يصل إلى الإمارات الصليبية فى سوريا أى مساعدة من أوربا (٢) .

غير أن هذا الصلح قوبل باستياء من المسلمين والمسيحيين على السواء : فأطلق البابا على فردريك لقب « تابع محمد » لتسامحه مع المسلمين ، وقال أنصار البابا أنه كان يجب على هذا الملك أن يفتك بالمسلمين لا أن يساومهم ، واستنكر فرنجة سوريا تركهم محاطين بالأعداء دون أن تصلهم مساعدة من أوربا ، أما المسلمون فأغضبهم التنازل عن بيت المقدس . وفى الحقيقة انتفع الكامل بهذا الصلح : إذ قضى السنوات التسع الباقية من حكمه فى هدوء تام مع الصليبيين ، كما أن الصليبيين حصلوا على بيت المقدس ، وهو الغرض الأساسى الذى قامت حملاتهم من أجله .

فى عهد الصالح أيوب :

شهد هذا الملك مناوشات بين المسلمين والصليبيين فى سوريا ، وشهد كذلك حملة قادها لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس وهى الحملة الصليبية

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج١ ص ٣٢٣ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٨٣ .

(٢) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 210

السابعة . ذلك أنه فى أثناء النزاع بين الملك الصالح أيوب ومنافسه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ، سلم الصالح إسماعيل للفرنجة بيت المقدس وطبرية وعسقلان ووعدهم بإعطائهم جزءاً من مصر إذ ساعدوه على تبوىء عرشها (١) . ولكن الصالح أيوبا ضم إلى جانبه فرقة الخوارزمية واستعان بها على استرجاع بيت المقدس ، وتم له ماأراد وأسر عدداً من المسيحيين أحضرهم معه إلى مصر ، حيث أقيمت الاحتفالات الرائعة ابتهاجاً بهذا النصر (٢) .

وأحست أوربا بخطر المسلمين ، فقامت منها حملة صليبية قد تكون الوحيدة التى تستحق لقب حملة دينية منذ أيام جودفرى ، وكان يقودها لويس التاسع ، جمع فيها الملك لويس جيشاً قوياً وأسطولا مكونا من ٢٨٢ سفينة وسار إلى مصر . وعلى الرغم من أن جزءاً كبيراً من قوته أبادته العواصف ما بين قبرص ومصر وأن المصريين دافعوا عن بلادهم دفاعاً مجيدا وساعدهم فى ذلك عرب كنانة الشجعان ، فإن لويس استطاع أن يستولى بسهولة على دمياط ويحتلها بكامل معدانها وحصنها ، ويقال إن السبب فى هزيمة المصريين هو فشل الخطة التى وضعها فخر الدين بن الشيخ . وسار لويس من دمياط إلى القاهرة مستخدما فى عبور النهر ، الجسور التى أهمل المسلمون تحطيمها أثناء إسراعهم بالفرار . غير أن لويس ارتكب نفس الخطأ الذى وقع فيه الصليبيون من قبل ، وذلك أنه استخدم نفس الطريق المائى الذى استخدمه جان دى برين ، كما أنه أيضا تمهل مدة ستة أشهر حتى وصلته الإمدادات . ووصل لويس إلى منطقة المنصورة وكانت محصنة تحصيناً قوياً من الداخل والخارج ، فأظهر شجاعة كبيرة فى حصارها . ورغم دفاع المسلمين المجيد وقذفهم جيشه بالرماح والسهام والنيران اليونانية ، فإن لويس انتصر عليهم ، ولكنه كان انتصارا ضعيفاً ، إذ فقد نصف فرسانه . وفى هذه الأثناء مات الملك الصالح أيوب وأرسلت شجرة الدر تستدعى ابنه توران شاه .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٣٢٣ .

فى عهد توران شاه :

رجع توران شاه من كيفا إلى المنصورة وأدار دفة القتال بكل مهارة ونشاط ، واستطاع أن يحصر الفرنسيين ومنع عنهم الإمدادات والذخائر ، حتى أشرفوا على الهلاك وأصيبت خيولهم بداء مميت (١) فطلب لويس الصلح وعرض تنازله عن دمياط فى مقابل أخذ بيت المقدس ، وهى نفس الشروط التى عرضها الكامل قديماً على جان دى برين .

ولكن توران شاه كان يشعر بقوة مركزه ، فرفض هذه الشروط التى عناها جده فى أوائل حكمه ، وطارد لويس الذى تقهقر إلى دمياط واستطاع أن يهزمه فى واقعة فارسكور الشهيرة . وهذه الواقعة تعتبر من المواقع الخالدة التى حدثت بين الصليبيين والأيوبيين ، فتك فيها المسلمون بالفرنجة ، وأغرقوا الكثير من سفنهم ، وغنموا منهم غنائم وفيرة وأسروا منهم عدداً كبيرا من بينهم الملك لويس وبعض الأمراء والنبلاء (٢) ، وقتل من هؤلاء الأسرى حوالى سبعة آلاف ، وترك النبلاء والأغنياء حتى تؤخذ منهم فدية ثم يطلق سراحهم . وفى هذه الأثناء قتل المماليك توران شاه .

فى عهد شجرة الدر :

لم يقم فى عهد هذه السلطانة نزاع بين الصليبيين والمماليك وإنما تم تسليم الأسرى ، وكانت المفاوضات فى هذا الشأن قد بدأت بين توران شاه والملك لويس ، فدفع لويس وأنصاره الفدية المقررة وأطلق سراحهم وأرجعت دمياط للمسلمين . وذهب لويس إلى عكا وسخر من المسلمين الذين أطلقوه وأرسل يقول لهم : « ما رأيت أقل عقلا ولا دينا منكم : أما قلة الدين فلأنكم قتلتم سلطانكم بغير ذنب ، وأما قلة العقل فلأنكم أطلقتمونى ولو طلبتم مملكتى لدفعتها لكى أخلص » (٣) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٤ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٤ ص ٣٥٦ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١٣ .

وقال الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة يصف فيها انتصار الجيش المصرى على الصليبيين ومنها :

قل للفرنسيس إذا جئته … مقال نصح عن قؤول فصيح
أجرك الله على ما جرى … من قبل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها … تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم … ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم … بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم … إلا قتيل أو أسير أو جريح
قل لهم إن أضمروا عودة … لأخذ ثأر أو لنقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها … والقيد باق والطواشى صبيح(١)

وهكذا انتهت حملة لويس دون أن يكتسب هذا الملك شيئاً بل أنه على العكس خسر سفنه ورجاله وبذل مجهوداً بغير جدوى ، وكذلك كانت نهاية جان دى برين من قبله . وكان سبب انهزام هذين الرجلين هو جهلهما بجغرافية البلاد المصرية واتخاذهما نفس الطريق المائى إلى القاهرة بعد احتلال كل منهما لمدينة دمياط .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدولة الأيوبية بدأت عهدها بانتصارها على الصليبيين وانتهى عهدها بانتصارها عليهم أيضا . وبقيت مدينة المقدس ، وهى محور النزاع ، فى يد الأيوبيين حتى النهاية .

أما الأسباب التى سببت انهزام الصليبيين فى أغلب الأحوال ، فأهمها : زوال الروح الدينية التى كانت سبب حماستهم واندفاعهم فى القتال ، كما أن الخلاف كان يدب بين أمراء الفرنجة فى سوريا من حين إلى آخر مما سبب انقسامهم ، كذلك لم يكن للفرنجة جيش قوى منظم وإنما كانوا ينظمون قواتهم على الطريقة الإقطاعية التى كانت متبعة فى العصور الوسطى .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ .

٢ – فى عصر المماليك

تمتعت مصر فى عهد المماليك بمركز ممتاز بين دول العالم الهامة : شرقية كانت أو غربية : فقد تمكنت من القضاء على الصليبيين وأجلتهم عن الشام ، وتمكنت من صد المغول وهزمتهم هزيمة شنيعة لأول مرة وأوقفت بذلك تيار تقدمهم ، وأخضعت أرمينية ، وبسطت نفوذها على بلاد اليمن والحجاز ، ووسعت أملاكها فى إفريقية وأصبح بلاط سلاطينها مركزاً لسفراء الدول الأوربية الذين حضروا إلى مصر حاملين الهدايا والكتب المرسلة من ملوكهم .

١ – علاقات المماليك بالصليبيين

لم يكن سلاطين المماليك أقل حماسة فى طرد الصليبيين من الشرق الأدنى ، من سلافهم الأيوبيين . فقد أعقب فشل الحملة الصليبية السابعة وطرد قائدها لويس ملك فرنسا من مصر ، فترة سكون وخمول حتمتها الظروف المحيطة بالمسلمين والصليبيين : فإن دولة المماليك كانت إذ ذاك جادة فى تثبيت مركزها ، شأن كل دولة فى طور التكوين ، كذلك كانت الفتن الداخلية المنتشرة فى الإمارات الصليبية فى سوريا عاملا قويا فى انصرافها عن متابعة حروبها مع المسلمين . وساعد على إطالة فترة السكون من جانب الصليبيين : انعدام الروح الدينية بين أمرائهم ، وكثرة تنازع هؤلاء الأمراء فيما بينهم ، وفتور الحماس الدينى فى أوروبا حتى لم تعد ترسل إليهم الإمدادات ، أضف إلى ذلك عدم تأسيس جيش ثابت منظم لهذه الإمارات يدافع عنها ، وكذلك عدم وجود سلطة مركزية تربط هذه الإمارات بعضها ببعض .

ولما توطدت سلطة المماليك وقويت شوكتهم فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، رأى ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين وخلفائه فى مطاردة الصليبيين وإجلائهم عن الشرق الأدنى . ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، فقد كان عليه أن يناضل الإمارات الصليبية وهى : أنطاكية وطرابلس والجزء الباقى من مملكة بيت المقدس . ولكى يصل بيبرس إلى غايته ، رأى أن يقضى على هذه الإمارات ، الواحدة بعد الأخرى .

ولما فطنت بعض المدن الصليبية لاستعداد بيبرس الحربى ، سارعت إلى عقد

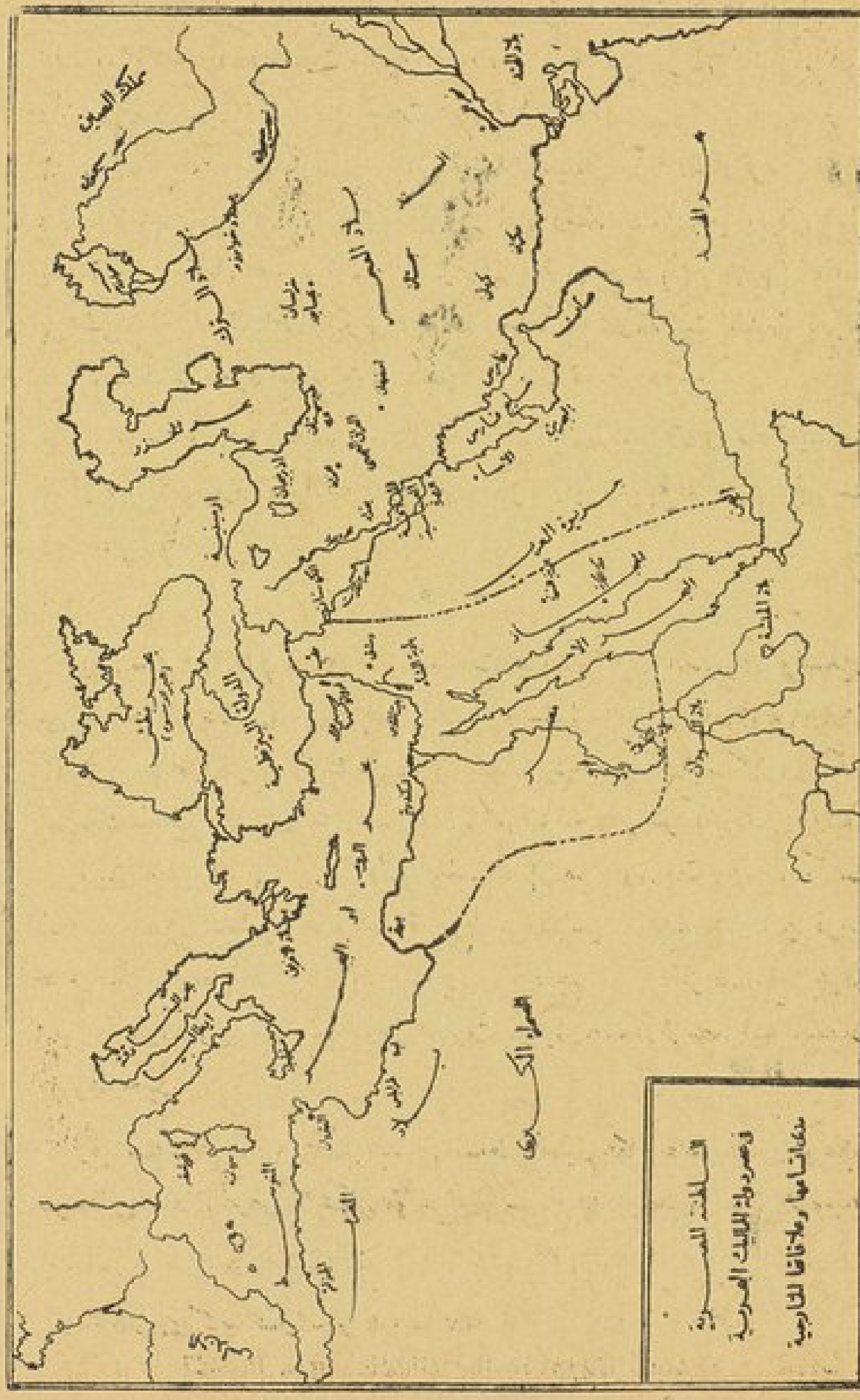
صلح معه ، وكانت أهم المدن البادئة بذلك هى يافا وبيروت . وفى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) حاصر بيبرس مدينة قيسارية . وكان لويس التاسع قد حصنها حين كان فى الشام ، واستولى بيبرس عليها مما قوى الروح المعنوية بين الجند ، ثم سار إلى قلعة أرسوف البحرية وتقع جنوب قيسارية ، ودافع فرسان الكنيسة عنها دفاعا مجيداً لمدة أربعين يوما ، ولم يستطع المماليك رغم حماسة جندهم وعنفهم فى الهجوم على القلعة أن يستولوا عليها ، ففاوض بيبرس فرسانها على أن يسلموها له مقابل تأمينهم على أرواحهم وأموالهم فقبلوا ذلك ، ولكنه غدر بهم وأجبرهم على هدم حصونهم وحملهم أسرى إلى القاهرة ، وكافأ بيبرس قواده وأمراءه على ما بذلوه من جهود بأن أقطعهم إقطاعات عديدة ومنحهم هدايا ثمينة (١) .

وقد أقلقت انتصارات بيبرس الإمارات الصليبية ، حتى رغب فرسان المعبد فى عقد صلح معه ولكنه رفض وآثر الاستمرار فى قتال الصليبيين حتى يقضى عليهم ، لذلك فإنه فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) حاصر صفد ، فسلمت له بعد أن منح أهلها الأمان ولكنه عاد فغدر بهم على نحو ما فعله فى أرسوف ، وقتل من أهلها نحو ألفين. وبعد تخريب قلعتها أمر بإعادة بنائها ونقش على جدرانها عبارة تدل على مبلغ زهوه بانتصاره وهى أنه : عماد الدين الذى حول الكنائس إلى مساجد ، ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين ، وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن ، وبذلك قويت الروح المعنوية بين المسلمين .

بعد استيلاء بيبرس على صفد ، استولى فى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) على شقيف ثم على يافا بعد أن لاقى صعوبة كبيرة فى فتحها ، وتوجه فى نفس ذلك العام إلى طرابلس وخرب كل البلاد المحيطة بها وقتل كل من وقع فى يده من الأسرى ، ثم ذهب إلى أنطاكية وكانت أقوى الإمارات الصليبية إذ كانت تأتيها الإمدادات من الدولة النورماندية ، وكانت فى الوقت نفسه متحالفة مع التتار أعداء المماليك مما جعلها خطرا على سلطان الدولة المملوكية ، وهاجمها بيبرس وأسر حاكمها وحاول بواسطته أن يعقد صلحاً مع أهلها على أساس إخلاء المدينة ولكنهم رفضوا فهجم بيبرس وجنوده

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٢٩ .



السلطنة المصرية
في عصر دولة المماليك البحرية
مدى اتساعها وعلاقاتها الخارجية

على المدينة وقتلوا الكثير من سكانها وأسروا من بقى حياً وقيل إن عددهم بلغ مائة ألف نسمة ، وبعد ذلك سلمت حامية المدينة ، وكان عددها حوالى ثمانية آلاف ، وأشعل بيبرس النيران فيها حتى أضحت هشيما (١) .

أضعف سقوط أنطاكية روح المقاومة عند الصليبيين وزاد ذلك فى قوة المسلمين ، وكان لانتصار بيبرس أثره فى الممالك المجاورة حتى أرسل ملك أرمينيا يعرض تسليم بلاده لبيبرس مقابل عقد هدنة معه (٢) . وفى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) عقدت طرابلس صلحاً مع السلطان بيبرس ، ثم عقد صلحاً مع مملكة بيت المقدس ، ومع ذلك كانت فكرة طرد الصليبيين من الشرق لا تزال تسيطر عليه .

ومنذ سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) لم يقع بين المسلمين والصليبيين أى حادث يستحق الذكر ، إذ كان بيبرس قد انصرف إلى قتال المغول والإسماعيلية ، وتوفى فى سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) .

***

وفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٥ م) استؤنفت المناوشات بين الصليبيين والمسلمين على يد السلطان قلاوون ، فبدأ بحصار اللاذقية واستولى عليها ، وهاجم فى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) طرابلس ، وكانت فى ذلك الوقت مدينة حصينة آهلة بالسكان ، ولكنها رغم ذلك سقطت بعد شهر من حصارها ، ودمرت المدينة وأسر كثير من أهلها .

لم يبق للصليبيين فى الشرق الأدنى بعد ذلك إلا صور وبيروت وعكا ، وكانت عكا أمنع حصون الصليبيين ، فرغب قلاوون فى الاستيلاء عليها ، وانتهز فرصة تحرش سكانها ببعض التجار المسلمين المارين بها وهاجم المدينة ، فزحف عليها بجيشه لحصارها ، ولكن المنية عاجلته فى الطريق ، وتولى بعده عرش مصر ابنه السلطان الأشرف خليل .

وفى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١م) هاجم السلطان خليل عكا وحاصرها ، ورغم دفاع جنودها وإمدادات قبرص لها تمكن من دخولها سنة ٦٩٢ هـ بعد أن ظل يحاصرها

---

(١) المقريزى كتاب السلوك ص ٥٤٤ — ٥٤٧

(٢) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, P. 267.

أربعة وأربعين يوما (١) .

وأعقب ذلك عدة مذابح شنيعة، وتسلمها المسلمون بعد أن ظلت فى أيدى الصليبيين مائة عام (٢) . ثم توجه خليل بعد إلى صور وحيفا، فلاقتا على يده أهوالا شديدة ، ثم سلمت بيروت ونجت بذلك من التخريب (٣) .

وقد أكثر الشعراء من الإشادة بذكر سقوط عكا ، فقد قيل :

قد أخذ المسلمون عكا ۔ وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم ۔ خيلا تدك الجبال دكا
وقسما الترك منذ سارت ۔ لا تركوا للفرنج ملكا (٤)

وباستيلاء السلطان خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) على حصن عكا وبعض المدن الساحلية ، انتهت دولة الصليبيين فى بلاد الشام ، فاتخذوا جزيرة أرواد (٥) مقراً لهم ، وبنوا لأنفسهم سوراً عظيما يتحصنون به من الغزاة ، ولكنهم ما فتئوا يغيرون على سكان المدن الساحلية فى بلاد الشام وقطعوا الطريق على السابلة، مما جعل نائب هذا الساحل يستغيث بالسلطان الناصر محمد .

جهز الناصر فى أول المحرم سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أسطولا بحريا انضم إليه جيش طرابلس، وحاصر هذه الجزيرة الجيش والأسطول معاً ، وانتهى القتال بهزيمة الصليبيين وامتلاك الناصر للجزيرة بعد أن قتل من أهلها نحوا من خمسمائة (٦) .

ويلاحظ أن انتهاء دولة الصليبيين من الأراضى المقدسة لايعنى انتهاء الحروب الصليبية ، وقد أثبت الدكتور عزيز سوريال عطية أن تلك الحركة استمرت إلى أواخر العصور الوسطى وأرخ لجميع الحملات الصليبية التى وقعت بعد سقوط عكا وأرواد فى سنة ١٢٩١ — ١٢٩٢ م (٧) .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٦٤.

(٢) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 209.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٧٦٦.

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٦٥.

(٥) جزيرة على ساحل بلاد الشام ، فتحها المسلمون سنة ٥٤هـ. أنظر لفظ أرواد فى معجم البلدان لياقوت .

(٦) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٤٩.

(٧) راجع : A.S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages

٢ ـ علاقة مصر بالمغول

ا – مغول فارس :

كانت بلاد الفرس من البلاد التى دخلت فى حوزة المغول ، ولم يأت عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حتى سقطت بغداد فى يد هولاكو ، وخلفه بعد وفاته ابنه أباقا ، فكان ثانى إيلخانات المغول فى فارس . وقد أحسن أباقا خان معاملة المسيحين وقربهم إليه ما زاد المغول قوة ضد دولة المماليك ، ألد أعداء المغول . وكان على عرش المماليك إذ ذاك سلطان عظيم هو بيبرس ، الذى هزم جند هولاكو المغولية قبيل اعتلائه العرش سنة ١٢٦٠ م وطردهم من غزة وشتت شملهم فى عين جالوت خلال سلطنة قطز . وكانت هزيمة المغول فى تلك الموقعة ضربة عنيفة لهم ، ما أدى إلى استحكام العداء بين إيلخانات المغول وسلاطين المماليك طوال ذلك العصر .

ولما مات أباقا خان ، وقع الاختيار على أخيه تكودار سلطانا سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، فأصبح ثالث إيلخانات المغول فى فارس ، وأول من أسلم منهم ، وأظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ثم بعث بنبأ إسلامه إلى قلاوون سلطان مصر . ولكن عهده لم يطل ، فقد قتل فى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ هـ) . وخلفه أرغون وحكم الدولة الفارسية نحوا من سبع سنين ، وقتل فى سنة ٦٩٦ هـ ، وخلفه بيدو فآثر الدين المسيحى ، وسرعان ما تغلب عليه غازان وقتله (١) .

كان غازان ، إيلخان المغول ، الذى تحارب معه الناصر ، قد قضى وقتا طويلا من حكمه فى محاربة المماليك فى مصر . وكانت حالة الضعف التى سادت مصر فى أثناء اغتصاب عرش الناصر على يد كل من كتبغا ولاجين ، ما شجع غازان

---

(١) D'Hosson : Histoire des Mongols, Vol. III, pp 553 et Seq.
Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٢ — ٣٦ .

على التفكير فى الإغارة على بلاد الشام وفتح دمشق وعزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكه (١) .

أعد غازان جيشاً بلغ عدده مائة ألف مقاتل لغزو سوريا ، ولما اتصل بالسلطان الناصر خبر عبور غازان نهر الفرات ،جهز جيشاً لمقاتلة المغول ، وسار جيش المماليك إلى الشام ، وواصل سيره حتى دخل عسقلان (٨ ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ = ١٢٩٨ م). وما كادت تصل إليه الأخبار بكثرة عدد المغول حتى وقع الرعب فى قلوب جند المماليك ، والتقى الفريقان فى مجمع المروج فى وادى الخزندار بين حماة وحمص . وكان عدد المماليك عشرين ألفا ، وبلغ المغول خمسة أضعافهم (٢) . وكان جيش المماليك يجمع أكفأ الأمراء والقواد وبعض رجال الدين لبث الحماسة فى الجنود ، أما غازان فقد رتب جيشه ترتيباً محكما ، وهزم الناصر فى موقعة الخزندار ، رغم تلك الجهود الحربية التى بذلها ، وهى تعد من أعظم المواقع التى دارت بين المماليك والمغول .

وعقب ذلك ، زحف المغول إلى حمص ونهبوا مافيها من خزائن السلطان والمؤن والذخائر ، ثم وصلوا إلى دمشق فوقع الرعب فى قلوب الأهلين وازدحم الناس على أبواب المدينة يريدون الخروج منها . واتفق جماعة من أهل دمشق على اختيار وفد من كبرائهم لمقابلة غازان لطلب الأمان ، فلما قابلوه أخبرهم أنه أرسل أمانا لأهل دمشق مع أربعة من المغول (٣) . وقد تضمن هذا الأمان : تأمينه الأهلين جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، والعمل على إيجاد حكومة رشيدة تقر العدل والنظام (٤) . على أن غازان حين نزل بظاهر دمشق لم يعمل وفق ما أذاعه فى أمانه، بل عاث جنده فساداً فى بلاد الشام وفلسطين وارتكبوا كثيراً من أعمال النهب والتخريب

سار المغول بعد ذلك إلى الصالحية (ربيع الثانى ٦٩٨ هـ = ١٢٩٨ م) ونهبوها وأخذوا مافى مدارسها وجامعها من البسط والقناديل وقتلوا من أهلها

---

(١) Zettersteén : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٥ .
(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩.
(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٣٦ — ٦٤٠.
(٤) ورد نص هذا الأمان فى، النهج السديد لابن أبى الفضائل ٦٤٠ — ٦٤٤.

تسعة آلاف (١) . ثم أخذ غازان دمشق ، وبالغ المغول فى أعمال السلب والإحراق وارتكبوا كثيراً من الفظائع وأهدرت الدماء البريئة بغير ما رحمة ولا شفقة . وقد عبر أحد الشعراء عما عاناه أهل دمشق من الشدائد أثناء استيلاء غازان عليها بقوله :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة   فما أحد منا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة   وغدر وأغبان وغم ملازم(٢)

إلا أن غازان، رغم استتباب الأمر له فى دمشق ، رحل عنها قاصداً بلاد فارس سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) ، إذ أنه خاف عاقبة طول مقامه فى سوريا وما ينتج عن ذلك من مهاجمة الجيوش المصرية له من الغرب وخروج حامية قلعة دمشق التبعة فى سورية على سلطان غازان . وبذلك أعاد غازان سورية إلى حوزة المماليك حتى تأتيه الفرصة المواتية لغزوها من جديد .

ولكن حدث بعد ذلك مالم يكن فى الحسبان ، فقد عزم غازان على مهادنة المماليك . ولذلك أرسل فى مايو سنة ١٣٠١ م (العشرة الأيام الثانية من رمضان سنة ٧٠١ هـ) إلى الناصر وفداً يحمل رسالة يعيبه فيها لهجومه على أطراف بلاده من غير سبب ، ثم يتوعده بالانتقام إذا لم يكف عن عدوانه ، إذ اتصل بمسامعه أن المماليك يريدون الأخذ بثأرهم ومقاتلته ، كما يخبره أن المغول قد عدلوا عن جمع الجيوش والمسير إلى بلاده ، وأخيرا يطلب إليه أن يعد له الهدايا والتحف(٣) . ولكن الناصر رد على هذا الكتاب بكتاب طويل ، يفند فيه أقوال غازان ويبرهن بأدلة واضحة أن المغول هم الذين بدأوا بالحرب وبادروا إلى العدوان ، وأن رسل غازان جاءوا فى وقت اشتبكت فيه الأسنة والرماح ، وأبى الناصر أن يرسل إليه ماطلب منه من الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بإرسالها إليه وعندئذ يردها عليه مضاعفة (٤) .

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ص ٩٣٥ .
(٢) Zettersteen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٣ .
(٣) تجد نص هذا الكتاب فى، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٦٩ — ٧١ .
(٤) تجد نص رد الناصر على غازان فى، القلقشندى: نفس المصدر جـ ٧ ص ٢٤٣ — ٢٥٠ .

وباستعراض هذه الرسائل الدبلوماسية ، يتضح أن عقد الصلح بين المغول والمماليك أصبح بعيد الوقوع . لذلك استؤنفت الحرب بين الناصر وغازان فى سنة ٧٠٢ ﻫ (١٣٠٢ م) ، وعبر غازان نهر الفرات ، وخرج الناصر من مصر على رأس جيش كبير لملاقاة المغول فى الشام ، وقد بلغ الحماس من الجند أشده ، وصحب الخليفة العباسى فى القاهرة جيش المماليك ومعه كل من سلار وبيبرس أعظم أمراء مصر إذ ذاك (١) . وفى مارس سنة ١٣٠٣ م (رمضان ٧٠٢ ﻫ) تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص ، فهزم جيش الناصر المغول هزيمة شنيعة ، وهلك معظم جيش المغول ومات كثير منهم ، وأسر المصريون عشرة آلاف من المغول، وغنموا عشرين ألف رأس من الماشية ، ولم تقم لغازان بعد تلك الموقعة قائمة. وعلى أثر ما أحرزه الناصر فى هذه الموقعة من نصر على المغول ، انتقل إلى دمشق، وبعد أن خلع على نواب الشام سار إلى مصر ، فأقيمت له الزينات على المنازل وفى الشوارع والميادين ورفعت الأعلام وأقيمت أقواس النصر ، ابتهاجاً بقدومه وفرحاً بانتصاره . أما غازان فقد مات كمداً ، فى عنفوان شبابه ، وهو لم يكتمل الثانية والثلاثين ، وذلك سنة ٧٠٤ﻫ (١٧ مايو ١٣٠٤ م)(٢) .

خلف غازان على العرش أولجايتو Uljaytu محمد خدابنده بن أرغون (٧٠٥ — ٧١٦ﻫ = ١٣٠٥ — ١٣١٦ م) . وفى عهده خف ذلك العداء الذى استحكم بين المماليك والمغول ، فقد أوفد السفراء إلى مصر لإظهار صداقته للناصر ولتأكيد حسن نياته نحوه . على أنه لم يكن مخلصاً فى تودده إلى سلطان مصر ، فقد اعتنق مذهب الشيعة ، مما جعل العداء شديداً بينه وبين المماليك السنيين وطمع فى الاستيلاء على سورية ومصر . وأرسل لذلك السفراء إلى البابا كلمنت الخامس وإدوارد الثانى ملك انجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا ، يطلب منهم العون على أخذ مصر وسورية ولكن هذه البعوث لم تأت بطائل . وفى عهده قام المغول فى سنة ٧١٢ﻫ (١٣١٢م) بحملة على سورية ولكنها اضطرت إلى العودة ، وهزم المغول كذلك فى ماردين فى عهد المماليك (٣) .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٢٣ .

(٢) Browne, Vol. III pp. 42—43.

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٦١ — ٦٩ .

توفى أولجايتو فى ١٧ ديسمبر سنة ١٣١٦ م، وخلفه ابنه أبو سعيد (٧١٧هـ—٧٣٥هـ = ١٣١٧ — ١٣٣٤ م) ، وفى عهده تحسنت العلاقات بين الناصر محمد والمغول. ويظهر أن أبا سعيد شعر بأنه لا يستطيع مناهضة المماليك لعدم استقرار الأمور فى بلاده ولنقص استعداده الحربى . فرأى من الحكمة أن يخطب ود المماليك ، فأرسل إلى الناصر يطلب الصلح ، وذلك سنة ٧٢٢هـ (١٣٢٢ م) ، فوافق الناصر على هذا الطلب (١) . وبذلك عمل كل من الفريقين : المماليك والمغول ، على نسيان الأحقاد القديمة التى كانت بينهما وظلت مصر بمأمن من غارات المغول إلى عهد تيمورلنك .

* * *

وفى عهد السلطان برقوق ، عاد العداء بين المماليك والمغول سيرته الأولى فاجتاح تيمورلنك وسط آسيا وزحف غربا حتى استولى على بغداد ، وبعث بعدة رسائل إلى برقوق يطلب إليه أن تكون العلاقة بينهما ودية ، ولكن برقوقا شك فى صدق نواياه ، وانضم إلى أمير بغداد الهارب من وجه المغول ، وارتبط به بصلة النسب . وبذلك اشتد سوء التفاهم بين تيمورلنك وبرقوق ، وأعد برقوق جيشاً لاسترداد بغداد ، ولكن تيمورلنك زحف شمالا ، فعاد برقوق إلى القاهرة وتوفى بعد قليل .

ولم تكن العلاقات بين السلطان فرج بن برقوق وبين المغول بأحسن مما كانت عليه أيام أبيه ، فقد أمر السلطان فرج باعتقال سفير تيمورلنك ، وبذلك تحولت غارات المغول إلى مصر والشام ، حيث أغار تيمورلنك على حلب وحمص وبعلبك ودمشق . وخطب لتيمورلنك على منابرها . وخرب هذا الطاغية المغولى دمشق وباقى المدن التى قابلها فى طريقه ، ثم هدد القاهرة فى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، فاضطر الناصر فرج إلى تعديل سياسته مع المغول بعد أن رأى قوة شوكتهم وإيقاعهم بالأتراك العثمانيين وقيام الثورة فى مصر ، فعمل على اكتساب ود تيمورلنك وأرسل وفداً يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة ، ثم مات تيمورلنك ، فضعفت بموته دولة المغول ، ولم نسمع شيئاً عن غاراتها على مصر بعد ذلك التاريخ .

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٦٦ — ٦٩ .

(ب) مغول الهند :

بدأت علاقة مغول الهند بمصر من سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٥ م) ، حين أرسل محمد ابن طغلق إلى الخليفة العباسى بالقاهرة ، وهو المستكفى بالله ، يطلب منه أن يمنحه تفويضا يجعل حكمه شرعيا ليتمكن بذلك من تسكين الفتن الداخلية التى تقوم ضده بين آن وآخر ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وبعث التفويض مع رسول خاص ، وخرج السلطان ابن طغلق بنفسه لاستقبال رسول الخليفة وأمر بأن يذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة وينقش على السكة ، مما ساعد على إيجاد علاقة ودية بين الهند ومصر (١) . ومن العوامل التى ساعدت على توثيق العلاقات بين مصر والهند فى عصر المماليك ، عامل التجارة ، فقد نشأ تبادل تجارى بين مصر والهند ، فكانت مصر تستورد منها جميع المنتجات اللازمة لها كالحنطة والحمص والسمسم وجوز الهند ، كما كانت الهند تستورد من مصر كثيرا من الغلات لاسيما الكتان (٢) . كذلك ساعدت سهولة المواصلات على وفود عدد من الهنود إلى مصر ، وبلغ من اهتمام السلطان الناصر بهم أن ولى بعضهم مناصب هامة فى الدولة فتمتعوا بمكانة محترمة بين أهل مصر ، وأسند كذلك إلى بعض المصريين مناصب فى الهند (٣) .

وانتهز ابن طغلق فرصة هذه العلاقات الطيبة بين مصر والهند ورغب فى الاتحاد مع الناصر على عدوهما المشترك : مغول فارس . ذلك أن بلاد الهند كانت — قبل أن يجلس محمد بن طغلق على عرشها — فى حرب مع المغول فى فارس ، فرأى أن يتحالف مع الناصر عليهم ، وبعث إليه سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١م) رسولا يحمل بعض الهدايا الثمينة ويعرض عليه مشروعاً يقضى باتحاد مصر والهند فى القيام بهجوم على

---

(١) Arnold : The Caliphate, p. 107.
Wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Dlehi, pp. 168—170.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٨٢ — ٩٣ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ١ ص ١٥ .

عدوهما المشترك . وذلك بأن تشترك معه مصر فى الإغارة على بلاد فارس من ناحية الغرب ، فى الوقت الذى يتقدم هو لمهاجمتها من الشرق . ولكن الناصر لم يجبه إلى ماطلب ، لأن العلاقات كانت تقوم إذ ذاك بين مصر وفارس على أساس المودة والصفاء . وحاول ابن طغلق بعد ذلك أن يقوم بهذا المشروع وحده وجهز جيشاً كبيراً ، ولكن قلة دخل دولته أعجزه عن القيام بحملته فاضطر إلى العدول عن عزمه (١) .

(ج) مغول القفجاق :

كان للمغول دولتان عظيمتان هما : دولة بنى هولاكو وتشمل بلاد العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، ودولة بنى جوجى بن جنكيزخان فى الشمال وتعرف باسم بلاد القفجاق وتشمل السهول الفسيحة الواقعة فى جنوب الروسيا وغربى آسيا القريبة من الروسيا وامتد سلطانها على سيبيريا والجزء الجنوبى من الروسيا .

كانت سياسة دولة بنى جوجى قائمة على أساس المسالمة لسلاطين المماليك فى مصر ليكونوا عونا لهم على أعدائهم من بنى هولاكو . لذلك لما ولى أوزبك خان Uzbeck Khan (١٣١٣ — ١٣٤٠ م) عرش القفجاق عرض قطلغمير نائب بلاد الروم على رسل الناصر مشروع زواج الناصر من إحدى أميرات ذلك البيت ، فظلت الرسل والهدايا تتبادل من الجانبين ستة أعوام ، حضرت فى نهايتها مخطوبته طلبناش القفجاقية (٧٣٠ هـ = ١٣٢٠ م) مع وفد من كبار رجال تلك الدولة . ولما وصلت العروس إلى الإسكندرية حملت إلى القاهرة على عجلة موشاة بالذهب ومزينة بالطنافس الثمينة ، فتلقاها الناصر بالبشر والترحيب وأكرم الوفد الذى صحبها ، وفى اليوم الثالث من وصولها عقد زواجها عليه بين مظاهر الفرح والابتهاج .

بذلك توثقت عرى الصداقة بين الدولتين ، وانتهز أوزبك تلك الفرصة وطلب من الناصر أن يساعده على خصمه أبى سعيد إيلخان المغول فى فارس . وصادف

---

(١) Allan : Cam. Shorter Hist . of India, p. 932.

هـذا الطلب قبولا من الناصر ، لأن مصر كانت إذ ذاك فى عداء مستحكم مع مغول فارس . على أن أبا سعيد سار على سياسة التودد إلى الناصر وأبرم الصلح بينهما وزال ما كان بين المماليك المغول من عداء . لذلك رفض الناصر مناصرة أوزبك على أبى سعيد وأوضح له أن إيلخان المغول فى فارس قد اعتنق الإسلام وأنه قد عمل على إزالة أسباب العداء بين البلدين . وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين أوزبك خان وأبى سعيد وانتهت بعقد الصلح بينهما (١) .

٣ — علاقات مصر بأرمينية

كانت بلادأرمينية هدفاً لغارات المصريين الذين غزوها أكثر من مرة واستولوا على حصونها ، وقد ظهرت العلاقات بين مصر وأرمينية فى عصر المماليك فى عهد السلطان بيبرس سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) . وذلك حين أغار ملك أرمينية هيثوم الثانى (Hethum (Haytom II على الحدود السورية بتحريض المغول فى فارس ومعاضدة سلطان دولة الروم السلجوقية . فسير بيبرس حملة لتأديبه واجتاح بلاد أرمينية من شمالها إلى جنوبها ، والتهمت النيران عاصمتها « سيس » (Sis) بعد أن تعرضت للسلب والنهب . وفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧م) أعلن الملك هيثوم قبوله حماية مصر ودفع الجزية لسلطان المماليك (٢) .

وظلت أرمينية خاضعة لمصر حتى اعتلى الناصر العرش . وكانت أرمينية قد انتهزت فرصة استيلاء المغول على بلاد الشام وطمعت فى استرداد حصونها التى خرجت عن سلطانها ، واستولت على معظم هذه الحصون . على أن الهدنة التى أبرمت بين المصريين والمغول هيأت للناصر الفرصة للاغارة على تلك البلاد ، فأرسل سنة ٧٠١هـ (١٣٠١ م) جيشا سار إليها . وتم للناصر ما أراد ، ولم تنج سيس وقلعتها من التدمير والتخريب وعادت الجيوش المصرية ظافرة إلى بلاد الشام (٣) .

---

(١) راجع ، على ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك ص ١٦٦ — ١٦٧.

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥١٠

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.23.

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٣ . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٢٨ — ١٣٩.

على أن الأرمن لم تلن لهم قناة ، فامتنعوا عن دفع الجزية وانضمت جيوشهم إلى جيوش المغول فى الحملة التى وجهوها إلى سوريا سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) ، تلك الحملة التى انتهت بانتصار المصريين انتصاراً باهراً فى موقعة مرج الصفر على ماتقدم ، ولم ير الناصر بدا من عقاب الأرمن ، لانضمامهم إلى المغول . فوجه إليهم فى أواخر سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) جيشاً من جند المماليك فى مصر والشام ، ودخل الجيش مدينة سيس عاصمة أرمينية للمرة الثالثة وضرب المماليك كثيراً من الحصون فى تلك البلاد .

ولكن الأرمن لم يفتروا عن مناوأة المصريين وعادوا إلى الامتناع عن دفع الجزية ، فجهز لهم قرة سنقر نائب حلب جيشاً سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) ، ولكنه هزم ، لاتحاد الأرمن والمغول والفرنجة على عدوهم المشترك : المماليك .

وقد أقلقت هذه الهزيمة بال الناصر ، فجهز جيشاً وصل إلى غزة . ولما اتصل ذلك بعلم هيثوم ملك أرمينية خشى عاقبة الأمر وبعث إلى قرة سنقر نائب حلب بالجزية المتأخرة عليه ورجا منه أن يشفع له عند الناصر . فأجابه الناصر إلى ماطلب وأمر بعودة الجيوش المصرية عن تلك البلاد ، وحرص ملك أرمينية على إرسال الجزية إلى مصر (١) . إلا أن الأرمن قد عادوا إلى العصيان فى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤م) فأرسل إليهم الناصر فى تلك السنة حملة من جند مصر، توالت انتصاراتها ففتحت كثيراً من مدن أرمينية ، وغنموا منها أموالا عظيمة (٢) .

وقد ساعدت الأحوال السيئة فى بلاد أرمينية الناصر محمداً على غزوها مرة أخرى، فقد تولى عرشها الملك ليو الخامس Leo V (٧٢٠—٧٢٣هـ = ١٣٢٠ - ١٣٤٢م). وكان طفلا قاصراً ، فطمع كثيرون فى عرشه ودسوا له الدسائس . وقد وجد الناصر فى هذه الأحوال فرصة سانحة لضم هذه البلاد إلى أملاكه ، فأرسل إليها (٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م) جيشاً بحجة جمع الجزية ، ولكنه كان فى حقيقة الأمر يرمى إلى احتلال هذه البلاد . ولما لم يجد ليو من ينصره فى محنته ، لم ير بداً من التسليم بمطالب الناصر وعقد معه هدنة أمدها خمس عشرة سنة ، على أن تدفع

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٢٠ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ص ٤٢٧ .

أرمينية لسلطان المماليك جزية سنوية وتعهد الناصر من ناحيته بإعادة بناء المدن التى هدمت ، على نفقته الخاصة (١) .

على أن السلام لم يدم طويلا بين مصر أرمينية ، فقد أعلن البابا جون الثانى فى سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) تسيير حملة صليبية إلى مصر بقيادة فيليب السادس ملك فرنسا فظن «ليو» أن الفرصة قد سنحت له ليتخلص من حماية الناصر ، وامتنع عن دفع الجزية وأرسل جيشاً للاغارة على حدود مصر من ناحية سورية . ولكن سوء الحظ قد لازم أرمينية ، فمات البابا ، وأغفل مشروع هذه الحملة الصليبية. أما الناصر فقد تغير على ليو وصمم على الانتقام منه لأنه لم يحرص على الوفاء بما عاهد الناصر عليه وسرعان ما اجتاحت الجيوش المصرية بلاد أرمينية ودخلت مدينة سيس Sis سنة ٧٣٦هـ ، ولم ير ليو بداً من التسليم بمطالب الناصر ، وسلم ما تأخر عليه من الجزية وقام بدفع نفقات هذه الحملة . ثم جلت جيوش الناصر عن هذه البلاد بعد أن جمعت كثيرا من الأسلاب والغنائم ، وبعد أن حلف الملك ليو ألا يناصر دولة أوربية على سلطان مصر . (٢)

٤ — علاقات مصر ببلاد العرب

١ — بلاد اليمن :

كان اسم سلطان المماليك واسم الخليفة العباسى فى القاهرة يذكران فى الخطبة وينقشان على السكة فى بلاد اليمن ، وكان هذان الأمران من أهم مظاهر سيادة مصر على تلك البلاد . ولكن بعض ملوك اليمن أظهروا رغبتهم فى عدم الاعتراف بسيادة سلطان المماليك على بلادهم ، فامتنعوا عن أداء مافرض عليهم من جزية ، ورفضوا ذكر اسم الخليفة العباسى فى القاهرة فى الخطبة . كما رغبوا عن إعطاء بلاد الحجاز التى كانت تابعة لمصر إذ ذاك ما اعتادوا إرساله إليها باسم مصر من الغلال ، على أن يرسلوه باسم اليمن ، حتى يتقدم اسم ملك اليمن على اسم سلطان مصر فى خطبة

---

(١) Camb. Med. History, Vol. IV, p. 18.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٣٠.
Camb. Med. History, Vol. IV . p. 108

الجمعة ، أضف إلى ذلك أنهم كثيراً ماأساءوا إلى التجار المصريين الذين كانوا يفدون على بلاد اليمن وسلبوهم أموالهم (١) .

وظهرت بوادر هذا العصيان والرغبة فى الانفصال عن مصر بجلاء فى عهد الناصر ، عند مامنع الملك المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول ، الهدية التى اعتاد ملوك اليمن إرسالها إلى سلطان مصر فى كل عام . فأرسل إليه الخليفة المستكفى بالله فى سنة ٧٠٧ (١٣٠٧م) كتاباً مسهباً ، يعد فى الواقع إنذاراً من الخليفة إلى ملك اليمن (٢) .

ولما لم يجد هذا التهديد نفعاً ، عول الناصر على إرسال جيش لقتال ملك اليمن . على أن وقوع الخلاف بين الناصر من جهة وبين أمراء مصر من جهة أخرى ، قد أدى إلى تأجيل هذا المشروع .

بيد أن العلاقات بين مصر واليمن قد دخلت فى طور جديد وحل الصفاء والوئام بين البلدين محل النزاع والخلاف ، بسبب رغبة أمير اليمن فى التماس مساعدة الناصر على منافسيه فى إمارة اليمن ، ووفدت رسل صاحب اليمن إلى مصر تحمل الهدايا إلى السلطان الناصر ، ثم التمس صاحب اليمن من السلطان أن يبعث من قبله جيشاً مصريا ينجده ويشد أزره على منافسيه فى العرش . فأمر الناصر بإعداد جيش ، كان مصيره الفشل ، بسبب عدم تعاون صاحب اليمن مع الحملة المصريه ، فضلا عن امتناعه عن دفع الجزيه إلى سلطان مصر بحجة عدم قدرته (٣) . ويظهر أن أمير اليمن قد خامرته الشكوك فى نيات الناصر نحو اليمن ، وخاف أن يكون ثمن هذه المساعدة أن يضع المصريون يدهم على حكومة اليمن تمهيدا للاستيلاء عليها . وقد أثار هذا العمل حنق الناصر ونسب إلى قائده تقصيره فى امتلاك بلاد اليمن ، فولاه غزة وأمر بالرحيل إليها ثم أمر بالقبض عليه هو وحاشيته لعدم إطاعته الأمر ، ثم عفا عنهم ، ولم يحاول الناصر فتح بلاد اليمن بعد ذلك .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

(٢) أورد القلقشندى : نفس المصدر ج ٢ ص ٤٢١ — ٤٢٦ ، نص هذا الكتاب .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ القسم الأول ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

ب — بلاد الحجاز:

كان استيلاء المماليك على بلاد الحجاز راجعا إلى عوامل سياسية أكثر منها دينية (١) ، وتلك العوامل السياسية تقوم على حقيقتين أساسيتين ورثهما مصر عن عهد الخلفاء الراشدين وهما : إرسال الغلال والميرة إلى بلاد الحجاز كضريبة يجب أن تؤديها نحو البلاد التى تضم الحرمين الشريفين ، وإرسال كسوة الكعبة التى كانت تصنع من أجمل وأنفس مصنوعات الشرق واشتهرت بها مصر منذ عهد بعد . وقد ثبت الظاهر بيبرس سيادة المماليك فى بلاد الحجاز ، حين قبل أشراف مكة فى سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . واستطاع قلاوون أن يظفر باعتراف أمير مكة بسلطانه وحلف يمين الولاء له . وحصل الناصر بعد ذلك على امتيازات جعلته صاحب الشأن الأول فى بلاد الحجاز ، كما يتضح ذلك من تدخله فى الأمور القضائية بين أمراء البلاد ونبلائها . وكان أشراف مكة إذا احتدم النقاش بينهم على السيادة والنفوذ يلجأون إلى الناصر ليحسم خلافاتهم .

غير أن سلطة الناصر فى بلاد الحجاز كانت صورية أكثر منها حقيقة واقعة وأن نفوذه لم يتعد ذكره فى الخطبة ونقشه على السكة أحيانا . أضف إلى ذلك أن أمراء مكة لم يقبلوا الاعتراف بسلطة الخليفة العباسى فى القاهرة ، حتى إن اسمه لم يذكر فى الخطبة على منابرها (٢) .

وهنا نشير إلى أن لقب « خادم الحرمين الشريفين » الذى اتخذه الأيوبيون واحتفظ به المماليك من بعدهم كان من ألقاب الملك الناصر ، كما كان من ألقابه أيضا «صاحب القبلتين» أى صاحب بيت المقدس ومكة (٣) .

---

(١) عن علاقة مصر بالحجاز : راجع Van Berhem: Corpus,Egypte, I.pp. 413-418 وما ذكره ڤان برشم من المراجع .

(٢) Arnold : The Caliphate, p. 100

(٣) Van Berchem, Op. Cit . pp. 127,497

٥ – اتساع نفوذ مصر فى إفريقية

امتد نفوذ الناصر على جزء كبير من شمالى إفريقية ، فذكر اسمه على منابر تونس وطرابلس ، إذ كان ملكها أبو زكريا يحيى (٧١١–٧١٧هـ = ١٣١١–١٣١٧م) من الحفصيين مديناً بعرشه لمعاضدة الناصر إياه وتأييده . (١) . وقد بلغ من تودد ملك المغرب للناصر أن بعث إليه رسلا يقال إنهم من أصل مراكشى ، يحملون إليه هدية ثمينة من الخيل العربية والبغال محملة بالسروج والذهب المصرى (٢) .

وامتدت غزوات الناصر إلى برقة فى سنة ٧١٩هـ (١٣١٨م) ،وذلك حين امتنع العرب النازلون فيها عن دفع الجزية له وشقوا عصا طاعته فجهز لهم جيشاً أوقع الهزيمة بهم وشتت الباقين فى كافة أرجاء بلاد المغرب .

كذلك عمل الناصر على مد نفوذه إلى بلاد النوبة ، فانتهز فرصة امتناع ملكها كربيس سنة ٧١٦هـ (١٣١٧م) عن دفع الجزية (٣) التى كان يؤديها من سبقوه من ملوك النوبة ، وجهز جيشا هزم ملك النوبة وساقه إلى مصر ، ولكن الأهالى رغبوا فى عوده ملكهم السابق فأجابهم الملك الناصر إلى طلبهم ، وخصوصا أنه كان قد اعتنق الإسلام . ومنذ عودة الملك كربيس انتشر الإسلام فى بلاد النوبة ، وأبطلت الجزية التى كانت تؤديها لمصر لدخول أهلها فى الإسلام(٤) ، ثم أخذ ملوك النوبة يعلنون شعائر ولائهم وإخلاصهم للناصر ويرسلون إليه الهدايا والتحف .

٦ – علاقات مصر بأوربا

كان بين سلاطين المماليك وبين معظم ملوك أوربا ، علاقات سياسية ، وخاصة فى عهد السلطان الناصر محمد ، الذى أصبح بلاطه محط رجال السفراء الذين وفدوا إلى مصر ، يحملون هدايا ملوكهم وأمرائهم ، ورسائلهم التى يؤكدون فيها صداقتهم ومودتهم ، حتى صار لمصر مركز دولى ممتاز وذاع صيتها بين الدول .

---

(١) Enc. Isl art. Al Nasir

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٣ ، راجع أيضا :
Geschichte der Abbasidenchalifats, 1. pp. 337 et seq.
حيث يستعرض العلاقات المصرية مع تونس .

(٣) كانت تعرف الجزية فى بلاد النوبة باسم (البقط) .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٩ . Enc. Isl, art. al-Nasir

وكان الغرض الأساسى من إرسال تلك الكتب يرجع أولا إلى استنجاد هؤلاء الملوك والأمراء بالناصر أو استدرار عطفه على المسيحيين المقيمين فى مصر وحسن معاملته لهم . وليس أدل على ذلك من أن البابا يوحنا الثانى والعشرين John XXII بنفسه ، أرسل فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) إلى الناصر كتابا يطلب فيه معاملة مسيحيي الشرق معاملة تنطوى على العدل والرعاية ، فى مقابلة معاملة البابا للمسلمين بالمثل ، وأن الناصر قد أجابه إلى ما طلب (١) .

كذلك أرسل شارل الرابع Charles IV (١٣٣٢ — ١٣٨٢ م) ملك فرنسا فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) إلى الناصر رسالة يتوسط فيها لمصلحة المسيحيين المقيمين فى دولته ، فرد عليه الناصر رداً جميلا ووعده بإجابة مطالبه . ومما تجب الإشارة إليه أنه لم تصل إلى مصر من ملك فرنسا رسالة بهذا المعنى منذ عهد الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٨ هـ = ١٢٤٠ — ١٩٤٩ م) (٢) .

وفى ذلك الوقت بعث أندرونيق الثانى باليولوج Andronicus II Palaeologus إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية إلى الناصر بعض السفراء يحملون إليه الهدايا ويطلبون معاملة المسيحيين المقيمين فى مملكته ، ولا سيما الملكانيين من بنى نحلته ، بالعطف والرعاية (٣) . فأجابه الناصر إلى طلبه وأعاد فتح بعض الكنائس المسيحية وسمح بإعادة فتح كنيسة بيت المقدس (٤) ، وأبرمت بين إمبراطور القسطنطينية وبين السلطان الناصر محالفة لصد الأتراك العثمانيين عن بلاده ، فإن انتصار الناصر على المغول جعل لمصر مركزاً ممتازاً فى نظر ملوك أوربا (٥) .

على أن العلاقات السياسية التى توطدت بين يعقوب ملك أرغونة وبين الناصر

---

(١) A. S. Atiya : Egypt and Aragon, pp. 54 - 55
Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p 73.

(٢) Weil : Geschichte der Abbasidenchalifats . Ibid. L. C. وقد جاء فى كتاب ذكر سفارة فرنسية إلى القاهرة من عند الملك فيليب السادس فى سنة ٧٣٠ هـ .

(٣) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, p. 372.

(٤) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 301.

(٥) اقرأ Camb. Med. History ,Vol. IV. pp. 735 - 745 لمعرفة حالة التفكك والضعف التى آلت إليها تلك الدولة إذ ذاك .

سلطان مصر ، كانت أهم تلك العلاقات وأعظمها شأنا . وإذا دققنا النظر فى المراسلات التى دارت بين الطرفين ، تبين لنا أنهما تبادلا الهدايا ووثقا عرى الصداقة فى كل المناسبات وحرصاً على تنمية علاقات المودة والصفاء . وقد تبولت هذه المراسلات فى الفتره التى تقع بين سنتى ٧٠٣ — ٧٢٨ هـ (١٣٠٢ — ١٣٢٧ م) . وقد بعث يعقوب ثمانيا من هذه الرسائل ورد الناصر على ست منها ، وفيها يظهران حرصهما على توطيد أواصر الصداقة ، كما يتبين مما جاء فى رد الناصر على رسالة الملك يعقوب الرابعة التى أرسلها إليه فى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) . ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل إن الناصر أكد فى رسالته السابعة بتاريخ ١٥ صفر سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) أنه يبادل الملك يعقوب حباً بحب ووداً بود (١) .

بينا قبل ذلك العلاقات التى قامت بين مصر وبين كل من المغول فى فارس ، وصاحب اليمن ، وملكى أرمينية والنوبة ، وامتلاء بلاط الناصر برسل هؤلاء وغيرهم . وهذه الظاهرة استوقفت نظر المؤرخ المقريزى الذى تصدى لذكرها بعبارة واضحة تقف منها على عظم مركز مصر بين الدول فى عصر المماليك عامة وعصر الناصر خاصة ، فقال :

« وفيه (٢٥ المحرم سنة ٧٢٥ هـ) اجتمع بمصر من رسل الملوك مالم يجتمع مثلهم فى الدولة التركية ، وهم : رسل صاحب اليمن ، ورسل صاحب اصطنبول ، ورسل الأشكرى ، ورسل متملك سيس ، ورسل أبى سعيد (٢) ، ورسل ماردين ، ورسل ابن قرمان ، ورسل متملك النوبة ، وكلهم يبذلون الطاعة » (٣) ، ويقول أبو المحاسن : « وكان ملوك البلاد الكبار يهادونه ويراسلونه وكانت ترد إليه رسل صاحب الهند وبلاد أزبك خان وملوك الغرب والفرنج وبلاد الأشكرى وصاحب اليمن » (٤) .

والخلاصة أنه كان لمصر فى العهد المملوكى علاقات سياسيه مع معظم دول الشرق

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. — 55.

(٢) أبو سعيد هو ملك التتار الذى تحسنت فى عهده العلاقات بين مصر والمغول .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ ص ١٦٢ — ٢٦٤ و ٢٥٩ .

(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ٢٥٠ .

والغرب . وظهرت فى بلاطه بعوث من القبيلة الذهبية ، وإيلخانات المغول ، ومن قبل بنى رسول فى اليمن ، وملك الحبشة . ومن قبل الحفصيين فى تونس وإمبراطور بيزنطة وقيصر بلغاريا [١] ، والبابا وملك أرغونة ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، ومحمد بن طغلق سلطان دهلى [٢] ، وهذا أقصى ما يمكن أن تتمناه أمة من مكانة بين الدول . إلا أن هذه العظمة التى شهدتها مصر فى عصر السلطان الناصر محمد ، ما لبثت أن زالت ، بدخول مصر فى عهد حكم أولاده وأحفاده .

٧– علاقات المماليك بجزيرتى قبرص ورودس

(١) قبرص :

استولى رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا على جزيرة قبرص سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م)، وهو فى طريقه إلى الشام لتتخذ منها قاعدة لإمداد الصليبيين بالشام بالمعونة العسكرية، وبالفعل شاهدت هذه الجزيرة بعض المدن الشامية بأن أرسل إليها ملك قبرص كثيراً من المؤونة والذخيرة ، وتمكنت من أن تصمد بذلك فترة طويلة لحصار المماليك فى عهد السلطان قلاوون وابنه السلطان خليل .

وبعد طرد الصليبيين من الشام سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) تجمعت كافة القوى الصليبية الباقية فى الشرق فى جزيرة قبرص واتخذتها مقرا لها ، كما أصبحت شواطىء تلك الجزيرة ملجأ للقراصنة [٣] مما سبب متاعب لدولة المماليك فى مصر والشام ، فإن سفنها أخذت تتعرض لتجارة المماليك فى البحر الأبيض ، وتهاجم الشواطىء المصرية والشامية ، ومن أبرز ما حدث من هذا القبيل وصول حملة إلى الأسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) بقيادة بطرس الأول ملك قبرص ، واستولت على المدينة وظلت بها حتى سمع الصليبيون بوصول الأمداد من القاهرة ، ففروا بعد أن أقاموا بالمدينة ثلاثة أيام حاملين معهم خمسة آلاف أسير . وظلت العلاقات

---

(١) وردت الاشارة فى كتاب: Weil : Geschichte der Abbasidenchalifats, p. 352, and uote 4. إلى ثمانى سفراء جاءوا مصر من بلغاريا ، وذلك نقلا عن المقريزى.

(٢) أنظر Enc. isl. Art. Al—Nasir

(٣) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 336.

عدائية بين الصليبيين والماليك حتى عقدت معاهدة بين الفريقين ، سمح فيها الماليك للفرنجة بزيارة كنيسة القيامة مقابل أخذ تعويض عما حل بالبلدان الإسلامية من تخريب وكذلك تدفع قبرص مبلغا من المال سنويا للسلطان . وظل الجو هادئا بين الماليك وقبرص حتى هاجم الصليبيون فى سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) مدينة الأسكندرية ونهبوها كما هاجم أسطول آخر فى سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) مدينتى طرابلس وبيروت وألحقوا بهما تلفا بالغا .

واستمر أهل قبرص يهاجمون الشواطىء المصرية والسورية حتى أرسل السلطان برسباى فى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) حملة مكونة من خمس سفن فقط إلى شواطىء قبرص ، بقصد اختبار قوة هذه الجزيرة لا بقصد فتحها . إلا أن هذه الحملة هاجمت ميناء ليماسول (Limasol) وأحرقت ثلاثا من سفن الأعداء اعترضتها ، وعادت الحملة إلى مصر محملة بالأقمشة والأثاث والمواد الغذائية وبعض الأسرى وغير ذلك من الغنائم.

وشجع هذا النصر السلطان برسباى ، على أن يرسل فى سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥م) حملة مكونة من أربعين سفينة . وحين وصلت هذه الحملة إلى قبرص استولى الماليك على ثغر فاماجوستا Famagusta وعلى ليماسول وعادت الحملة إلى مصر ومعها ألف أسيرا بيعوا فى أسواق القاهرة (١) .

وأرسل السلطان برسباى فى سنه ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) حملة ثالثة إلى قبرص ، كان الغرض منها هذه المرة فتح الجزيرة والاستيلاء عليها وضمها إلى إمبراطورية الماليك . ولمـــا وصلت تلك الحملة إلى جزيرة قبرص اشتبك الماليك والصليبيون فى عدة مواقع انتهت بانتصار الماليك وأسر جيمس لوزينيان ملك قبرص فى موقعة شيروكيتيوم Cheriocitium وجىء به إلى القاهرة هو وكثير من الأسرى، فأحضر الملك لمقابلة السلطان برسباى ، فلما وصل إلى القلعة كان بلاط السلطان حافلا بممثلى الدولة العثمانية وأمراء التركمان بآسيا الصغرى وممثلى القبائل العربية وشريف مكة وملك تونس ، ودخل ملك قبرص وسط هذا الجمع مكبلا بالأغلال وأجبر على تقبيل الأرض فأغمى عليه (٢)، وأقيمت الاحتفالات الباهرة فى القاهرة بمناسبة هذا النصر المبين .

---

(١) Lane—poole . Egypt in the Middle Ages, p. 336.

(٢) Lane—Poole : Op. Cit. p. 337.

ذلك أنه لما وصلت بشرى فتح قبرص إلى الملك برسباى يوم الاثنين ١٣ رمضان من تلك السنة سر سروراً عظيما وقرئت البشرى فى مدرسته بالعنبريين . وفى عيد الفطر من تلك السنة ، بدأ وصول الجنود الظافرة إلى ساحل بولاق ، واستمر وفودهم إلى أن تكامل عددهم يوم ٨ شوال ، حتى إذا كان اليوم التالى ، احتفلت القاهرة بمقدم هذا الجيش الظافر فسار فى شوارع المدينة ، ومعه الهدايا والأسرى ، وبينهم ملك قبرص . فلما وصلوا إلى قلعة الجبل بين هتاف الشعب والزينات ، استقبلهم الملك الأشرف وأنعم على القواد والجنود وهنأهم ، ثم أكرم ملك قبرص وهيأ مكانا لإقامته بالقلعة ، ثم بالقاهرة . واتفق فى ذلك الوقت أن تم بناء مدرسة الأشرف بالأشرفية فعلقت خوذة ملك قبرص على بابها تذكارا لهذا النصر ، وظلت باقية إلى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) . وقد حدث بعد ذلك أن بذل قنصل البندقية وغيره من القناصل مساعيهم فى سبيل الصلح فعقد بين الأشرف برسباى وملك قبرص على أن يقدم هذا الأخير مائتى ألف دينار ، يدفع منها مائة ألف ، والباقى عند عودته إلى بلاده ، وأن يقوم فى كل سنة بدفع جزية قدرها عشرون ألف دينار ، وعلى أثر هذا الاتفاق أطلق سراح ملك قبرص وعاد إلى وطنه .

ومنذ ذلك الحين أصبحت قبرص تحت سيطرة المماليك ، وطلب من إينال فى سنة ٨٦٢ هـ (١٤٥٨ م) أن يفصل فى النزاع الذى قام على وراثة العرش فى قبرص(١) ، وظلت تلك الجزيرة تابعة لدولة المماليك حتى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) حينما دخل العثمانيون مصر .

(ب) رودس :

ناصرت تلك الجزيرة أهالى قبرص فى هجماتهم على شواطىء مصر والشام ، كما أنها كانت معقل فرسان المعبد الذين أمعنوا فى قتال المسلمين فى الشام ، وكان السلام قائما بين هؤلاء الفرسان والمماليك فى عصر السلطان برقوق ، وذلك نتيجة للمعاهدة التى عقدت فى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) بين الطرفين ، ولكن ذلك السلام لم يدم

---

(١) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 338

طويلا ، على أثر مناصرة فرسان المعبد لأهل قبرص ضد المماليك ، فهاجم المماليك مقر الفرسان . إلا أن ظروف الفريقين المتحاربين كانت تقتضى الصلح إذ كان فرسان المعبد يخشون أن يحاول المماليك غزو رودس فعرضوا الصلح على السلطان برسباى ، فقبل ذلك لانشغاله فى الحرب ضد المغول .

ولما اعتلى جقمق السلطنة المملوكية بدأت محاولات المماليك لغزو جزيرة رودس ، فقد أرسل جقمق ثلاث حملات لغزوها : الأولى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) وكانت مكونة من خمس عشرة سفينة ، إلا أن الصليبيين تمكنوا من صدها لأنهم علموا بقيامها بواسطة جواسيسهم فى مصر فاستعدوا لقتالها وانسحب المماليك بعد أن تكبدوا خسائر فادحة (١) . واستعد جقمق لحملة الثانية فجمع المعدات الحربية وبنى السفن ، وسارت تلك الحملة سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) ميممة ناحية رودس ، إلا أن اشتداد الأعاصير والزوابع بسبب حلول فصل الشتاء اضطر الحملة إلى العودة إلى مصر قبل أن تصل إلى رودس . فأرسل جقمق فى سنة ٨٤٨ هـ حملة ثالثة إلى رودس فخربتها ، ولكن استبسال فرسان المعبد ومهاجمتهم المماليك أوجد الاضطراب فى صفوف المماليك فقتل منهم عدد كبير وفر الباقون إلى مصر . ولما كان كلا الفريقين قد أنهكته الحروب المتواصلة ، فإن الفرسان طلبوا الصلح وقبله جقمق سلطان المماليك ، ولذا ظل الفرسان فى رودس حتى سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٢ م) حين استولى عليها الأتراك العثمانيون ، ثم رحلوا عنها واتخذا مالطه مقرا لهم .

٨ — علاقة المماليك بالعثمانيين

لم تكن العلاقات بين المماليك والعثمانيين عدائية من بادى الأمر ، إلا أنها لم تكن ودية كذلك وكان كل طرف على حذر من الطرف الآخر ، فإن برقوقا سلطان المماليك فى مصر لم يرد أن ينضم إلى السلطان بايزيد العثمانى فى قتاله مع التتار ، حتى لا يقوى بايزيد ويحاول أن يستولى على مصر ، ولذا وقف على الحياد ولكن لما انتصر التتار على العثمانيين هدد التتار مصر ، فكأن برقوق نجح فى منع هجوم العثمانيين ،

---

(١) Lane Poole: Egypt in the Middle Ages, PP. 333—339.

إلا أنه لم يفلح فى اتقاء خطر التتار . وجاورت أملاك مصر فى عهد برسباى أملاك العثمانيين فى آسيا الصغرى ، وكان للماليك الجزء الشرقى وللأتراك الجزء الغربى ، ورغم ذلك لم تحدث بين الطرفين منازعات تذكر . ووطد جقمق سلطان المماليك علاقته بالدوله العثمانية وتزوج من شادة زادة إحدى أميرات الباب العالى ، وتبودلت بينه وبين السلطان العثمانى مراسلات ودية . وعندما سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين ، احتفل بهذا النصر فى مصر ، وأرسل السلطان إينال المملوكى التهانى إلى السلطان العثمانى محمد الثانى(١).

على أن تلك العلاقات لم تلبث أن أصبحت عدائية منذ عهد خشقدم . وبدأ سوء التفاهم من جانب العثمانيين ، فقد رفض رسول السلطان محمد الثانى أن يقوم بالمراسيم المعتاد إجرائها أمام سلطان مصر ، ومنها تقبيله الأرض بين يديه . وزاد الحالة سوءاً ، تدخل كل من المماليك والعثمانيين فى النزاع القائم بين أمراء آسيا الصغرى وانضمام سلطان مصر إلى جانب بعض الأمراء ومناصرة السلطان العثمانى للأمراء المنافسين لهم ممن انضم إليهم سلطان المماليك(٢). كذلك لما تولى بايزيد الثانى العثمانى العرش ، نافسه فيه أخوه جم ، ولكن السلطان بايزيد قضى على حركته ، ففر إلى مصر ، وكان بايزيد ينتظر من سلطان مصر أن يمنعه من الإقامة فيها ، إلا أن قايتباى أكرمه فغضب عليه بايزيد(٣) وزاده حنقا عليه اعتداء قايتباى على قافلة كانت تحمل هدايا لبايزيد ، وتأخر قايتباى عن إصلاح مجارى المياه فى مكة . وهكذا تطورت العلاقات بين المماليك والعثمانيين ، واستحكم العداء بينهم مما أدى إلى قيام الحرب بين الفريقين ، تلك الحرب التى انتهت بالقضاء على سلطان المماليك فى مصر .

ظهرت بوارد الحرب ، حين أغارت الجيوش العثمانية فجأة على سوريا ، واستولت على طرسوس وأطنة . ولكن السلطان قايتباى قابل عمل سلطان العثمانيين بالمثل ، وأرسل جيشاً إلى سوريا ، أحرز عدة انتصارات باهرة عند أطنة

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 178.
Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 347

(٣) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ٢ ص ٢٠٦ — ٢١١ Enc. Isl. art . Selim

وقيسارية ، واستولى على كثير من الغنائم والأسرى . ولكن الحرب لم تستمر طويلا ، وانتهى الأمر بإبرام الصلح بين الطرفين : لاضطراب أحوال مصر الداخلية وافتقار سلطان المماليك إلى المال وتفشي القحط في البلاد . ولم يرفض بايزيد الصلح حتى يتفرغ لفتح بلغراد وبذلك تم الصلح بين الطرفين ، وتبادلا الهدايا والأسرى(١).

ولكن ذلك الصلح لم يستمر طويلا وعاد العداء بين المماليك والعثمانيين على أثر رواج إشاعة بوجود تحالف بين السلطان قانصوه الغوري وإسماعيل الصفوي شاه فارس وعدو العثمانيين اللدود . ولما لم يقف الغوري موقفاً صريحاً من النزاع القائم بين السلطان سليم والشاه إسماعيل ، اعتبر سليم موقف الغوري عدائيا . وهكذا وجد سليم نفسه أمام عدوين خطرين : الصفويين في فارس ، والمماليك في مصر ، فعمل على مقاومتهما منفردين(٢). وتمكن بادىء الأمر من سحق جيش إسماعيل الصفوي في مواقع حاسمة قرب تبريز ، واكتسح ديار بكر والرها ونصيبين والموصل وغيرها . وبعد انتصاره على فارس ، عزم على قتال المماليك ، وخاصة بعد اتفاق قانصوه الغوري مع إسماعيل الصفوي ، وإيوائه لأخي سليم الثائر عليه ، وتعطيله إمدادات كانت في طريقها إلى سليم أثناء نضاله عند فارس .

سار سليم من القسطنطينية على رأس جيش كبير ، وواجه قوات الغوري في سوريا ، ولم تجد مفاوضات الصلح بينهما ، وأهان كل منهما رسل الآخر وأصبحت الحرب واقعة لامحالة بين الفريقين واشتبك الجيشان عند مرج دابق قرب حلب شمال الشام في أغسطس سنة ١٥١٦م(٣) ، واستطاع فرسان المماليك الشجعان أن يحرزوا نصراً جزئياً في أول المعركة . ولكن ذلك الانتصار لم يأت بالثمرة المرجوة لانسحاب خير بك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب حماة من جيش الغوري(٤) ،

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢٧ — Muir : Op. Cit. p. 177.

(٢) ابن إياس : نفس المصدر ج ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٨٧ Muir : Op. Cit. p. 178.

(٣) ابن إياس . نفس المصدر ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٤) راجع ابن إياس . نفس المصدر ج ٣ ص ١٨ — ٣٠ لمعرفة كيف خرج خير بك على الغوري وخانه .

وأوقعت المدفعية العثمانية بجيش المماليك ، فاختل نظامه وسقط الغورى نفسه عن جواده وقتل فى المعركة(١).

ويرجع انتصار العثمانيين فى مرج دابق إلى دقة نظام جيشهم ، وإلى خضوعهم لقيادة حازمة موحدة ، وإلى توافر فرق المدفعية الحديثة . أما هزيمة المماليك فترجع إلى أن جيشهم لم يكن دقيق النظام متماسك الأجزاء ، وإلى أن بعض فرق الجيش المملوكى كانت غير مخلصة للسلطان الغورى ، وإلى أن المماليك اعتمدوا على شجاعة فرسانهم ولم يستخدموا المدافع الحديثة ، فخسروا الحرب ، وتعد موقعة مرج دابق من المواقع الحاسمة فى التاريخ .

وكانت سهولة انتصار العثمانيين على المماليك عند أول قتال معهم ، داعيا إلى تشجيعهم على التوغل جنوبا متتبعين فلول المماليك . ودخل العثمانيون حلب بعد قليل ، ثم سقطت حماه وحمص فى يد سليم ، ووصل إلى دمشق فى سبتمبر سنة ١٥١٦ م ، حيث ذكر اسمه على منابرها ونودى به خادما للحرمين(٢).

ورغب سليم بعد ذلك فى عقد الصلح مع طومان باى ابن أخى الغورى ، الذى أنابه عمه عنه فى حكم مصر أثناء مقامه فى سوريا لقتال العثمانيين . فأرسل إليه كتابا يطلب منه الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر ، على أن يكون طومان باى نائبا عن سليم فى حكم البلاد حتى مدينة غزة ، وصك العملة باسمه ، فرفض طومان باى وصمم على القتال(٣). فتقدم العثمانيون من دمشق بقيادة سليم ، وفى طريقهم إلى مصر استولوا على يافا وغزة والعريش ، واخترق سليم صحراء سينا ، ودخل الدلتا ووصل إلى بلبيس ، وعلم طومان باى فجأة بوصول قوات العثمانيين إلى الريدانية فى يناير سنة ١٥١٧م، والتحم الفريقان فيها ، وأحرز سلطان المماليك نصراً مبدئيا ، ولكن هجمات الإنكشارية العنيفة وفتك المدفعية العثمانية قضت على مقاومة المماليك، وقد

---

(١) راجع تفاصيل القتال فى ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤٦ ، ٥٦ .
Enc. Isl. art. Djem.

(٢) ابن إياس : نفس المصدر ج ٣ ص ٧١ ، ٧٨ .

(٣) ابن إياس : نفس المصدر ج ٣ ص ٧١، ٧٣ .

السلطان سليم وزيره سنان باشا فى المعركة ، ثم دخل العثمانيون مدينة القاهرة . ورغم ذلك ، لم ييأس طومان باى ، وبذل أقصى جهده للدفاع عن بلاده ، وحدث قتال عنيف فى شوارع العاصمة ، وظفر طومان باى ببعض انتصارات محلية مؤقتة ، ولكن بدون جدوى(١) . وعندئذ حاول إسماعيل وقف القتال وعرض على طومان باى حكم الصعيد تحت السيادة العثمانية ، ولكنه رفض إذ كان لايزال يؤمل فى إنقاذ بلاده . إلا أن القتال انتهى بهزيمة المماليك ، واضطر طومان باى إلى الهرب ، والتجأ إلى الدلتا ، واختفى عند أحد زعماء العرب فى مديرية البحيرة ، فخانه وسلمه إلى العثمانيين ، عندما أيقن بزوال سلطان المماليك ، وأخيرا قتل طومان باى شنقا على باب زويلة فى إبريل سنة ١٥١٧ م(٢) . وبقتله انتهت سيادة المماليك فى مصر .

وهكذا نرى أن موقعة الريدانية مكملة لموقعة مرج دابق ، إذ أنها قررت مصير دوله المماليك ، وحولت مصر إلى ولاية عثمانية .

---

(١) ابن إياس : ابن إياس ج ٣ ص ٨٠ ، ٩٠ .
(٢) ابن إياس . نفس المصدر والجزء ص ١١٦ ، ١٣٤ .

الباب الخامس

نظم الحكم

السياسية ، والإدارية ، والقضائية ، والحربية .

أولا — من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

١ — النظام السياسى

من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية :

أصبحت مصر بعد الفتح الإسلامى ولاية عربية ، يحكمها الخليفة وينيب عنه فى حكمها موظفاً كبيراً هو الوالى (١) ، وهو على هذا الاعتبار الرئيس الأعلى للولاية وممثل الحكومة الإسلامية المركزية . ويعد أعظم موظفى الدولة فى حكومة العرب فى مصر : يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بصفته نائباً عن الخليفة حتى أطلق عليه اسم « أمير الصلاة »،ويجمع إلى سلطته إدارة المالية المعبر عنها باسم «ولاية الخراج» ، وبيده شئون الحرب أى رئاسة الجيش، وله الإشراف على الشرطة.

كان الوالى كثيراً ما يعمد — وخاصة فى عهد الأمويين والعباسيين — إلى إرسال شخص يحكم البلاد المعين على ولايتها نيابة عنه ، حتى يبقى بجوار الخليفة ويضمن رضاءه الدائم عليه بما يواليه من هداياه له ولرجال بلاطه . وكان الوالى يخشى ، إذا ما ابتعد عن دار الخلافة ، أن يدبر له أعداؤه الدسائس والفتن ، وقد يؤدى ذلك إلى غضب الخليفة وسخطه ، مما يدفعه إلى عزل الوالى عن منصبه . على أن الخلفاء

---

(١) كان حكام الأقاليم يسمون فى أول الأمر « عمالا » ، ثم استعملت بعد ذلك كلمة « الوالى » ، وانتهى الأمر بأن كان يطلق عليهم اسم « الأمراء » .
راجع Adam Metz : The Renaissance of Islam, p. 15

أنفسهم كانوا يرحبون ببقاء الولاة في العاصمة، خشية أن يستقلوا بأقاليمهم، ولكنهم لم يفطنوا إلى أن نواب الولاة قد يقومون بنفس الدور الذي كان الخليفة يخشى أن يقوم به الوالى. ولذا لم يكن من الصعب على رجل فى مثل مواهب أحمد بن طولون أن يظهر على مسرح السياسة فى عصر التبعية ويعمد إلى الاستقلال بمصر ويؤسس الدولة الطولونية.

وإذا استثنينا عدداً قليلا من الولاة الأقوياء ذوى الشخصيات البارزة الذين ولوا حكم مصر فى تلك الفترة، مثل عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد وعبد العزيز ابن مروان وقرة بن شريك، نلاحظ سرعة عزل الولاة عن مناصبهم، حتى لم تزد مدة حكم الوالى على سنتين بكثير، كما نلاحظ أيضاً كثرة عدد الولاة الذين ولوا أمور مصر عما لم يترك لأحدهم مجالا لخير البلاد بل كان همهم جمع المال بكل الطرق قبل أن يأتيهم أمر العزل، وإرضاء الخلفاء عن طريق الأموال التى يرسلونها إليهم كى تطول مدة ولايتهم. ويؤكد المؤرخ ستانلى لينبول القول « بأن الولاة كانوا يولون وجوههم شطر الضرائب بنوع خاص، وأنهم لم يهتموا بشئون البلاد بقدر ما كانوا يهتمون بتحصيل الجزية وضريبة الأراضى التى كانوا ينظرون إليها كما لو كانت ملكا يتصرفون فيه كما شاءوا ».

وكان ولاة مصر فى طول عصرى التبعية للخلفاء الراشدين والأمويين من العرب، ثم ظهر فى الدولة العباسية عنصر جديد اعتمد عليه الخلفاء هو عنصر الجند الترك.

وكان ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين يقيمون فى الفسطاط. فلما قدم صالح بن على وأسس مدينة العسكر، بنى دار الإمارة (مقر الوالى) سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م)، ومنذ ذلك الحين أخذ ولاة العباسيين فى مصر ينزلون بها حتى أنشأ أحمد بن طولون قصره فى القطائع، فأصبح ذلك القصر مسكنا له ولولاة الطولونيين إلى أن قضى محمد بن سليمان على القطائع سنة ٢٩٢ هـ. ولما تقلد محمد الإخشيد ولاية مصر وسع دار الإمارة سنة ٣٣١ هـ وعمل بها ميدانا جعل له بابا من الحديد. وظل الحال كذلك حتى بنى جوهر الصقلى مدينة القاهرة والقصر الشرقى سنة ٣٥٨ هـ، فصار ذلك القصر منزلا للخلفاء الفاطميين عوضاً عن دار الإمارة.

فى عهد الطولونيين :

يجب أن نتبين أولا مدى علاقة الطولونيين فى مصر بالخلافة العباسية فى بغداد ، لنرى مبلغ إشراف العباسيين عليهم . فقد صادف حكم الطولونيين فى مصر (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) قيام العصر العباسى الثانى فى بغداد (٢٣٢ — ٦٥٦هـ) وهو العصر الذى كان فيه الخلفاء العباسيون ألعوبة فى أيدى رجال القصر من الأتراك أولا (٢٣٢ — ٣٣٤هـ) ثم فى أيدى بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) ثانيا والسلاجقة (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) ثالثاً ، إذ كان فى يد هؤلاء سلطة إقامة الخليفة أو عزله ، مما قضى على هيبة الخلافة وما كان لها من الرهبة والجبروت ، حتى رأينا الخليفة المعتمد العباسى يطلب الإقامة فى مصر فى عهد ولاية أحمد بن طولون .

وفى تلك الفترة من الخلافة العباسية المتداعية ، حكم ابن طولون فى مصر ، وكان يصح أن ينتهز ابن طولون تلك الفرصة ، فيستقل عن الخلافة العباسية ، ولكنه لم يفعل . وكان إشراف الخلافة العباسية على الطولونيين ، مع ذلك ، إشرافا صوريا لاقيمة له ، حتى عد المؤرخون قيام الدور الطولونية فى مصرهو بدء عهد الاستقلال فى تاريخ مصر الوسيط .

إلا أنه أنه رغم ذلك ، قامت علاقات بين الوالى فى مصر والخليفة فى بغداد . وتنحصر تلك العلاقات فى أن هذا الوالى كان يؤدى للخليفة الجزية السنوية ، كما كان ينقش اسمه على السكة (١)، ويدعو له على المنابر ، وكلها مظاهر تدل على تبعية مصر للعباسيين . على أن الوالى المعين على مصر من قبل الخليفة لم يكن يحضر إليها بنفسه ، بل يكتفى باختيار رجل يثق به يعينه من قبله ، حتى لايتكلف هو مشقة الحضور إلى مصر . ولم يكتف الوالى الأصلى بتعيين نائب عنه فقط ، بل عين كذلك عدة رجال من قبل الخليفة أو من قبله حتى يكون كل منهم عيناً على نائب الوالى وعلى غيره من كبار موظفى مصر المعينين من بغداد ، ومن أهمهم عامل الخراج وعامل البريد وصاحب الشرطة والقاضى . أما نائب الوالى فكان يعين على العاصمة وما حولها ، وكان هناك نواب آخرون معينون على الأسكندرية وبرقة ، ولذا

(١) السكة : حديدة منقوشة يضرب عليها الدراهم .

عين ابن طولون أولا على الفسطاط ولم يتول أمور مصر كلها إلا بعد تولية صهره بارجوخ على مصر، فأناب ابن طولون عنه فى حكم مصر كلها ، ولم يتم توطيد سلطانه على البلاد كلها إلا بعد أن سار إلى الأسكندرية ، وضمها إلى دائرة سلطانه ، وفعل كذلك فى برقة . وقد أدى نظام تعدد كبار الموظفين ، بجانب الوالى بقصد منعه من التفكير فى الاستقلال، إلى ذلك النضال العنيف الذى قام بين ابن طولون وابن المدبر عامل الخراج ، وكان ذلك النضال من أظهر حوادث عصر الطولونيين .

ومن أبرز الحوادث التى أثرت فى نظام الحكم فى مصر فى العهد الطولونى ، تطور حالة العداء التى كانت قائمة بين ابن طولون وأبى أحمد الموفق طلحة ، أخى الخليفة العباسى المعتمد إلى حالة ود وصداقة بين خمارويه بن أحمد بن طولون والموفق ، فإن تلك الصداقة أدت إلى جعل مصر وراثية لخمارويه وأولاده مدة ثلاثين سنة إبتداء من سنة ٢٧٩ هـ . ولا تقتصر أهمية هذا الاتفاق على تقرير مبد الوراثة فى تولى الولاة فى مصر من أسرة معينة ، بل إنه كان أول حادث خطير فى نظام الحكم فى مصر منذ عهد تبعيتها للخلفاء الراشدين عقب الفتح العربى الذى تم على يد عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ . كذلك عد هذا الاتفاق خطيراً من الناحية السياسية، لأنه قضى على نظام تولية الولاة على مصر من دار الخلافة .

ويمكن القول إن قيام دولة ابن طولون فى مصر ، كان هو الحد الفاصل بين نظام الولاية القائم على الفوضى والاضطراب والذى استمر فى مصر أكثر من قرنين ونصف ، وبين نظام الولاية القائم على الوراثة فى الأسرة الطولونية ، تلك الأسرة التى يجب أن نشيد بذكرها ونرفع من قدرها ، لأن عهدها هو أول عهد الاستقلال الحقيقى فى تاريخ مصر السياسى فى العصور الوسطى . على أنه مما يجب ملاحظته أن ابن طولون كان من القوة ، بحيث استطاع أن يورث ولاية مصر لابنه خمارويه قبل ظهور ذلك الاتفاق بين خمارويه والموفق الذى نص على وراثة العرش فى مصر . وبمقتضى هذا الاتفاق استطاع خمارويه أن يورث العرش لولده «جيش» دون أن يكون للخليفة رأى فى هذا الشأن ودون أن تراعى سن الوالى، إذ كان لايزال قاصراً فاعتبر القاصر أهلا لأن يحكم بنفسه ، مع ما لمركز الولاية إذ ذاك من الخطورة، وظلت علاقات الود والصفاء قائمة بين ولاة الطولونيين فى مصر وخلفاء

العباسيين فى بغداد ، حتى اضطربت أحوال مصر ، ورأى الخليفة العباسى المكتفى إرسال جيش يقضى على الحكم الطولونى ويعيد البلاد إلى التبعية للدولة العباسية ، وتم له ذلك سنة ٢٩٢ هـ .

فى عهد الاخشيديين :

كان الإخشيد كابن طولون ، من الولاة الذين عينهم الخليفة العباسى على مصر ، فحكمها باسم الخلافة العباسية فى بغداد. وقد صادف حكم الإخشيديين لمصر كما صادف حكم الطولونيين من قبل ، عهد ضعف الخلافة العباسية .

ولذا تمكن الإخشيد من أن يقف فى وجه الخليفة العباسى ، حين عزم على إخراجه من ولاية مصر وتقليدها محمد بن رائق الخزرى ، واستطاع أن يعقد صلحاً مع ابن رائق وأن يثبت فى مركزه ، واتخذ — على ماقيل — قراراً بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للفاطميين مدة من الزمن .

وتمكن الإخشيد كذلك من وضع نظام وراثة الملك من بعده ، بأن أخذ البيعة من قواده وجنده ومن المصريين بصفة عامة لابنه أبى القاسم أنوجور ، وحملهم جميعا على الاعتراف له بولاية العهد(١) . وهذا النظام معناه استقلال مصر وبلاد الشام والحجاز التابعة لها ، كما أنه يدلنا على ثبات سلطة الإخشيد فى هذه الولايات ، وثبات قدم أولاده من بعده . وبذلك أوجد الإخشيد حكما وراثياً ، أقره الخليفة العباسى(٢). وتمتع فعلا بنوع من الاستقلال . وكان الإخشيد من القوة ، بحيث وطد مركزه ضد الدسائس التى كانت تدبرها دار الخلافة لولاة الأقاليم .

ويقول ستانلى لينبول تعليقاً على ذلك : « أقام الإخشيد إمارة وراثية ، أقره عليها الخليفة ، وتتضمن استقلال البلاد عمليا . حقا إن مدى هذا الاستقلال كان محدودا بثلاثين عاما ، كما أنه كان من الضرورى الحصول على تأييد الخلفاء المتعاقبين له ، مما يكلف الولاة ثمنا باهظا . ولكن هذا كان من قبيل الرسميات، إذ أن استقلال الدولة كانت تحافظ عليه أيد قادرة » (٣) .

---

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣١٥ .

(٢) بينا فى باب علاقات الإخشيد الخارجية ، أن الخليفة العباسى سمح لكافور بأن يلى مصر دون أن تكون له صلة قرابة أو نسب بالإخشيديين ، ووضحنا الظروف التى لم يتبع فيها نظام الوراثة .

(٣) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 86.

٢ — النظام الإدارى

من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية

كان المنتظر أن يقلب العرب بعد استيلائهم على مصر ، نظام الحكومة فيها . ولكن النظم الإدارية ظلت على النحو الذى كانت عليه فى مصر البيزنطية ، لأن الأمة البيزنطية التى بنى العرب حضارتهم على أنقاضها كانت ذات تاريخ مجيد عتيد، من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية . وبذلك وجد الفاتحون من العرب نظاما إداريا ثابتاً . فأبقوه على ما كان عليه من قبل ، على أن يحدثوا بعد ذلك ما يتطلبه الإصلاح من ضروب التغيير التى لاغنى عنها ، بما يتفق مع عقائدهم الدينية ، ويتمشى مع مصلحة الأمة المحكومة .

كانت مصر تنقسم إلى قسمين إداريين كبيرين : أحدهما هو مصر العليا واسمه « أعلى الأرض » والثانى هو مصر السفلى واسمه « أسفل الأرض ». وينقسم كل من هذين القسمين الرئيسين إلى أقسام أو أعمال ، والأعمال كانت منقسمة إلى كور بلغ عددها ثمانين كورة ، وهذه الكور كانت منقسمة إلى قرى ، وكانت الكور بمثابة المراكز التى عرفها وادى النيل فى العهد البيزنطى ، لأن العرب احتفظوا بنظم البيزنطيين الإدارية كما ذكرنا من قبل .

وقد بقى بعض أكابر حكام البيزنطيين فى أعمالهم، وسار عامة الروم على مناهجهم، ولكن خلت أعمال كثيرة بعد أن نزح عنها من كان يشغلها من الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب فى مكانهم عمالا من القبط ، وبذلك صار معظم عمال الدولة من المسيحيين بعد وقت قصير ، وخلا المسلمون من أعباء الحكم وانصرفوا إلى أمور الدين .

وكان أهم الموظفين فى مصر هم : الوالى ، وصاحب الشرطة ، وعامل الخراج ، وصاحب البريد . وكان « الوالى » أكبر موظف فى الدولة .

أما «صاحب الشرطة » فكان يشبه المحافظ فى عصرنا ، ويعتمد عليه الوالى فى حفظ النظام والقبض على الجناة ، وينوب عن الوالى فى الفسطاط إذا غاب، لذلك كانوا يعبرون عن وظيفة صاحب الشرطة باسم خلافة الفسطاط ، وبلغ من أهميته أنه كان يصلى بالناس إذا غاب الوالى، ويتولى توزيع أرزاق الجند ، حتى كان يعتبر نائباً للوالى.

وكانت وظيفة «عامل الخراج» من أهم الوظائف فى مصر ، وكان الوالى يحتفظ بها لنفسه ، وربما أسندها الخليفة إلى رجل من قبله ، فيعمل هذا الرجل مع الوالى جنباً إلى جنب : هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى أمور الدولة المالية . فكان بذلك بمثابة الرقيب على أعمال الوالى ، وكأن مصر كان يحكمها واليان من قبل الخليفة ، وهذا أدى إلى تنازع السلطة ، وقيام المنافسة بين الرجلين .

ومن أبرز الموظفين فى عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين والعباسيين « صاحب البريد » الذى أصبحت له هيبة فى النفوس ،وخاصة بعد أن استعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الأقاليم وكبار موظفيها ومراقبة شئون الحكم فى الولايات ، بعد أن كانت مهمته فى العهد الأموى مقصورة على نقل الأخبار من دار الخلافة إلى سائر الولايات .

وظهرت فى مصر فى عهد الأمويين روح قومية : تجلت فى جعل الكتابة فى الدواوين بالعربية بعد أن كانت تكتب قبل ذلك بالقبطية ، وتم ذلك التطور سنة ٨٧ھ فى عهد عبد الملك بن مروان . وكانت نتيجة هذا العمل إقصاء القبط عن مناصب الدولة بعد أن كانوا يقومون بجباية الخراج وتسند إليهم الوظائف الكتابية ، وأدت معاملتهم على هذا النحو إلى الثورة والقيام فى وجه الولاة (١) . تلك الظاهرة التى تميز بها عصر الأمويين والعباسيين فى مصر .

وبقى النظام الإدارى الذى سارت عليه مصر زمن البيزنطيين قائماً فى عهد عمرو ، دون أن يدخل عليه تغيير يستحق الذكر ، وظل كذلك فى طول حكم الأمويين والعباسيين لمصر على ما كان عليه فى عهد عمرو ، وأظهر ما دخل من تعديلات جوهرية على نظم الحكم كان فى عهد الفاطميين ، وعنهم أخذ من جاء بعدهم .

فى عهد الطولونيين :

قسمت مصر أيام الطولونيين إلى كور ، كان على رأس كل منها حاكم يسمى « صاحب الكورة » هو بمثابة المدير الحالى ، وتعهد إليه إمامة الناس عند الصلاة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٠٣، ٣٨٤ .

فى المساجد الرئيسية التى توجد فى عاصمة مديريته . ومن الثابت أن مصر كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية : مصر العليا ، ومصر الوسطى أو الصعيد الأوسط ، ومصر السفلى أو أسفل الأرض . وكثيرا ما قام ابن طولون وابنه خمارويه من بعده بالتفتيش بنفسه على تلك الأقسام الإدارية المختلفة لاستطلاع أحوال الأمن وحث الحكام على العناية بأقاليمهم (١) . وقد دون لنا المرحوم (الأمير السابق) عمر طوسون أسماء الكور المصرية فى دولة الطولونيين وما يقابلها من الأسماء الحالية على خرائط قيمة لا غنى عنها للباحثين فى تقسيم مصر الإدارى فى عصور مصر المختلفة القديمة والمتوسطة والحديثة .

وفى الدولة الطولونية وجد نظام الشرطة (٢) ، فوجدت شرطتان : الفوقانية والسفلانية أو الشرطة العليا أو الشرطة السفلى . ولم تقتصر سلطة صاحب الشرطة على تنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام فقط ، بل كانت له اختصاصات قضائية أيضاً ، وكان ذلك الموظف الكبير يعين من قبل الوالى على البلاد ويكون مقره العاصمة . وكانت الشرطة الفوقانية تختص بالنظر فى أحوال الطبقة العليا من القواد والعلماء والعظماء ، أما السفلانية فكانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأوساط الناس (٣) .

وكان لابن طولون عامل على البريد أو صاحب بريد ، له مساعدون يمثلونه فى مختلف كور مصر . ومهمة صاحب البريد الرئيسية أن يدرس عن كثب أحوال الأقاليم ، ثم يقدم التقارير إلى الوالى عن كل ما يجرى ، وكان يعين أحيانا من قبل الخليفة ليكاشف الخليفة بكل ما يحدث فى مصر . ويظهر أن مهمة ذلك الموظف كانت شاقة ، بدليل أن امرأة استعطفت ابن مهاجر صاحب البريد فى عهد ابن طولون ليجد لابنها وظيفة ، فلما رشحه عامل بريد فى قريته بمرتب عشرة دنانير شهريا ، رجته الأم أن يعفى إبنها من هذا العمل ، لأنه عمل يقوم على التجسس

---

(١) ابن الداية : المكافأة ص ٢١ .

(٢) أى البوليس police ، إذ كان العرب يسمون البوليس بالشرطة والعسس والولاية وغيرها من الأسماء التى كانت تختلف باختلاف البلاد والأزمنة ، وكانت الشرطة خاضعة للقضاء تساعد القاضى فى ثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الأحكام ، ويتولى صاحبها أيضاً إقامة الحدود على الزنا وشرب الخمر وغير ذلك من الأمور الشرعية .

(٣) الكندى ص ٢٢٣ .

وكشف عورات الناس [١] . وإلى جانب عمال البريد كان يوجد قوم يكتسبون عيشهم من مهمة التجسس ، وهى السياسة التى جرى عليها ابن طولون حيث بث العيون فى بغداد وبث الأرصاد فى مصر ، وكانت تلك السياسة من عوامل وقوف ابن طولون على مادبره له الموفق ، إذ كان على علم بأمر تلك التدبيرات ، مما مكنه من العمل على إحباطها .

واتخذ ابن طولون « كاتب الإنشاء والمراسلات » ، ومهمته تحرير الكتب التى يرسلها إلى غيره من الملوك والأمراء ، وما يترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم (٢) .

وإلى جانب ذلك ، كانت توجد وظيفة « كاتب السر » وهو بمثابة سكرتيره الخاص ومهمته القيام بتدوين كل ما يجرى فى حضرة الأمير ، فيدون محضر الجلسة حين تأتى الوفود أو حين يحظى كبار رجال الدولة أو بعض المتظلمين بمقابلة الوالى، وكانت وظيفته تستدعى السرعة مع الدقة التامة والهمة والنشاط واليقظة ، ويظهر أن نوعا من الاختزال كان معروفا لدى أمثال هؤلاء الكتاب (٣) .

ووجد نظام الحجابة فى البلاط الطولونى ، وهى وظيفة هامة تشبه وظيفة كبير الأمناء فى عصرنا الحالى . وكان هناك فى بلاطه كثيرون من الأشخاص يحملون هذا اللقب فى آن واحد ، ولكن لم يتول أحد منهم وظيفة كبير الحجاب إلا فى عهد هارون بن خمارويه ، ويخيل لنا أن وظيفة كبير الحجاب كانت فى أيام أحمد بن طولون فى يد نسيم الخادم وإن لم يلقب رسميا بهذا اللقب . واعتمد ابن طولون على نسيم الخادم فى المهام التى كان يكلفه بها لدى دار الخلافة العباسية ، وقام بها خير قيام . وإن ما يعرف عن أحمد بن طولون من الرغبة فى الاستبداد بكافة أعمال

---

(١) ابن الداية . المكافأة ١٥٨ .

(٢) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨١ .

(٣) Zaky . Hassan : Les Tulunides, p. 209

الدولة ، هو الذى حدا به إلى عدم منح أحد موظفيه لقب « كبير الحجاب » أو لقب « الوزير » .

ويتبين لنا من بحث قطع النقود الطولونية أنها لا تحمل اسم عامل السكة التى ضربها، ومن المحتمل أن يكون الطولونيون قد عهدوا بذلك إلى الإغريق . وفى عهد تبعية مصر للدولة العباسية ، كان المصريون يستعملون نفس العملة التى يتداولها العراقيون ، فلما جاء ابن طولون ضرب دنانير جديدة اسمها الأحمدية ، فلما صار والياً على مصر والشام معا سنة ٢٦٦ ﻫ ، أشير إلى ذلك على العملة التى صكت فى ذلك العهد (١) .

ويمكن القول إن الوظائف فى الدولة الطولونية كانت تقلد لذوى الكفايات الممتازة وأصحاب العقول الراجحة ، وأنها لم تكن تقلد لفئة دون غيرها ولم تقم الدولة على أكتاف الترك وحدهم أو الفرس أو العرب أو القبط ، وإنما كان لكل فئة منهم نصيب فى الوظائف العامة ، ولم يتقلد القبط الوظائف العالية فى الدولة كالأتراك أو المصريين المسلمين ، ولكنهم شغلوا الوظائف الصغيرة كوظائف الصيارفة أو المحصلين ، وتلك ظاهرة تميز عصر الطولونيين عن عصور من سبقهم ومن خلفهم أيام الإخشيديين ، حين كان يعهد بمعظم الوظائف الرئيسية إلى الأقباط (٢) .

فى عهد الإخشيديين :

لم يدون لنا التاريخ شيئا ذا غناء عن نظام الحكومة فى عهد الإخشيديين ، وكل ما يمكن ذكره أن الحال ظل كما كان عليه أيام الطولونيين ، فسكة الإخشيديين مثلا كانت كسكة الطولونيين مصنوعة من الذهب (٣) ، وصدرت نقود محمد بن طغج من دور الضرب فى مصر (الفسطاط) وفلسطين (الرملة)

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٣٣ ، ٤٣ .

(٢) Zaki Hassan : Les Tulunides, pp. 221-214.

(٣) Lane - Poole : Catalogue of Arabic Coins, pp. 143-144.

ودمشق . وأما العملة التى تحمل اسم أبى القاسم أنوجور بن الإخشيد ، فضربت فى مصر وفلسطين ودمشق وحمص وطبرية ، وكذلك كانت السكة فى أيام على بن الإخشيد تحمل اسمه ، وقد صدرت من دور الضرب فى مصر وفلسطين ، ولم تكن فى عهد كافور عملة باسمه بل كانت السكة فى أيامه باسم الخليفة العباسى وحده ، وأما نقود أحمد بن على بن الإخشيد فضربت فى مصر وفلسطين ، كما كانت هناك نقود تحمل اسم الحسين بن عبد الله صدرت فى فلسطين (الرملة) حيث كان هذا الأمير حاكما عليها[1].

وبذا نرى — مع استثناء عهد كافور — أن النقود المتبادلة فى مصر فى العهد الإخشيدى كانت تصدر باسم الولاة ، مع ملاحظة أن اسم الخليفة العباسى المتقى منقوش على احد وجهى النقود مع الإخشيد ، وأن اسم الخليفة العباسى المطيع مكتوب بجانب اسمى أبى القاسم وعلى بن الإخشيد ، ولكن ذلك لم يقلل من مظاهر استقلال مصر عن الخلافة العباسية فى ذلك العصر ، بل كان ذلك من قبيل الرسميات فقط .

كذلك ظلت الشرطة من المناصب الهامة فى مصر فى العهد الإخشيدى على نحو ما كانت عليه فى العهد الطولونى ، ولكن أمر تعيينهم وعزلهم كان يصدر عن والى مصر لا عن الخليفة العباسى ، تمشياً مع السياسة الاستقلالية التى سارت عليها مصر فى ذلك العصر . ومما هو جدير بالملاحظة هو : كثرة عدد من تولوا هذا المنصب ، رغم قصر مدة حكم الدولة الإخشيدية فى مصر ، كما أن بعض من قاموا بأعبائه تولوه أكثر من مرة .

ويعد الوزير الرئيس الأعلى للسلطة الإدارية فى الدولة المصرية . على أن منصب الوزارة فى مصر لم يشغله أحد فى عهد تبعيتها للخلفاء الراشدين والأمويين ، لأن هؤلاء الخلفاء لم يكونوا قد استحدثوا نظام الوزارة ، بل اكتفوا بأن يرسلوا إلى مصر ولاة يصرفون شئونها .

---

(١) Lane-Poole :Egypt in the Middle Ages, pp. 81 — 87 .

وعرفت الوزارة فى مصر لأول مرة فى عهد الإخشيديين . وأظهر من تقلد منصب الوزارة فى ذلك العهد أبو الفتح الفضل جعفر بن الفرات ، ولم يكن تعيين الفضل فى هذا المنصب من جانب الإخشيد ، وإنما كان الخليفة العباسى الراضى هو الذى عينه وزوده بسلطة واسعة . ولم يلبث الفضل أن ارتبط بالإخشيد برباط متين من المصاهرة والنسب ، إذ زوج الإخشيد ابنته من جعفر بن الفرات(١).

وكان لهذا الوزير أثر على مجرى الحوادث فى مصر فى العصر الإخشيدى . وكانت العلاقات بينه وبين الإخشيد قائمة على أساس وطيد من المودة والمحبة ، يتجلى ذلك فى خروجه بنفسه لتوديع وزيره إذا ماغادر البلاد ، أو لاستقباله إذا ماعاد إليها(٢). وقصد الفضل بعد حين بلاد العراق حيث تولى شئون الوزارة فيها، ولكنه مالبث أن استأذن الخليفة فى العودة إلى مصر فأذن له ، فلما كان فى الشام توفى فى الرملة فى جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩)(٣). فحزن عليه الإخشيد حزنا بالغاً وتأثر الخليفة الراضى تأثيراً عميقاً ، حتى كتب إلى الإخشيد يطلب إليه تعيين ابنه جعفر فى الوزارة بدلا منه .

عين جعفر وزيراً بعد أبيه وظل فى منصبه بعد وفاة الإخشيد ، فتولاه فى عهد أولاده وعهد كافور . وقام بتدبير شئون المملكة لأحمد بن على بن الإخشيد ، وقبض على كثير من رجال الدولة البارزين مثل يعقوب بن كلس ، ثم أطلق سراحه بعد أن توسط له فى ذلك أبو جعفر مسلم الشريف العلوى . ولكن ابن كلس خرج من مصر سنة ٣٥٧ هـ وقصد إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز الفاطمى وحثه على غزو مصر ، وظل فى المغرب حتى صحب المعز حين قدم إلى مصر فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ .

ولم يكن جعفر موفقاً فى وزارته ، فإنه لم يكف عن ابتزاز الأموال بكافة الطرق ، ولم يتمكن من إجابة المطالب التى تقدم بها إليه كل من الكافورية والإخشيدية

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ١١

(٢) ابن سعيد ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٠ — ١١١ .

والجند الأتراك ، فثاروا عليه واضطربت أحواله ونهبت دوره[١]. ولما قدم الحسين ابن عبيد الله بن طغج صاحب الرملة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) إلى مصر قبض على جعفر وصادر أمواله وعين مكانه الحسن بن جابر الرياحي وزيراً . ولكن الشريف الحسين توسط له عند أبي عبيد الله حتى أطلق سراحه . فلما عاد الحسين إلى الشام رجع جعفر إلى الوزارة في ربيع الآخر سنة ٣٥٨ هـ ، وظل أبو الفضل جعفر في هذا المنصب إلى أن زالت الدولة الإخشيدية . وقد أبى جوهر الصقلي في بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب ، وقال «ما كان وزير خليفة» إلا أنه أقره في منصبه ، ولكن لم يبق له إلا الاسم فقط ، فقد عين جوهر خادما يبيت معه في داره ويلازمه في غزواته وروحاته ويراقبه في حركاته وسكناته ، ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير وظل في منصبه حتى جاء المعز إلى مصر فصرفه عنه لأنه كان سنيا وكان الخليفة شيعيا[٢].

وكان أول من عين حاجبا للاخشيد هو عمران بن فارس ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، وصادر أمواله وغلمانه ، وعين بدلا منه فاتكا الرومي[٣]. ولم تقتصر الحجابة إذ ذاك على الولاة والملوك ، بل كان بعض الوزراء وكبار رجال الدولة الإخشيدية يتخذون لأنفسهم حجابا ، وكان هؤلاء الحجاب يربحون من مهنتهم موالا طائلة[٤].

٣ — النظام القضائي

من الفتح العربي إلى قيام الطولونية:

لما فتح عمرو بن العاص مصر ، أقر أهل الذمة على قضائهم ، وقسم الديار المصرية إلى كور ، وأقام على كل منها قاضياً يحكم بين المسلمين حسب الشريعة الإسلامية ، على

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٠ — ١١١ .
(٢) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلي ص ٢٧ — ٢٨ .
(٣) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٨ .
(٤) راجع في صدد النظام الإداري في مصر في ذلك العصر ، سيدة اسماعيل كاشف : كتاب «مصر في عصر الإخشيديين»

أن يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين قضاة من القبط يحكمون حسب شرائعهم، ولكن إذا حدث نزاع بين عربي وقبطي ، تقدم المتقاضون إلى مجلس مؤلف من قضاة يمثلون الفريقين المتنازعين .

وكان أول قضاة مصر قيس بن أبي العاص ، فظل يتولى منصب القضاء إلى أن مات سنة ٢٣ هـ . فخلفه عثمان بن قيس بن أبي العاص ، ولما مات في عهد علي بن أبي طالب ، شغر منصب القضاء بمصر ، إلى أن تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة فولى ابن عنز التجيبي قضاء مصر سنة ٤٠ هـ .

وكانت المحاكم تعقد في جامع عمرو بن العاص ، ولم يكن للقضاء مرجع يعتمدون عليه في إصدار أحكامهم ، كما لم تكن هناك سجلات تدون فيها الأحكام ، وإنما كان القاضي يقوم بالفصل في الخصومات وتنفيذ أحكامه(١) .

وكان القضاء في مصر في عهد الدولة الأموية على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين ، ولكننا نلاحظ ازدياد اختصاص القاضي في هذا العصر ، إذ أصبح يجمع بين النظر في الأمور المدنية والقضايا المتعلقة بالدين ، وبين النظر في الجرائم والشرطة(٢).

وقد أتى بعض قضاة العصر العباسي في مصر بضروب من الإصلاح : فطهروا القضاء من العيوب التي كانت فاشية فيه وأخصها شهادة الزور ، وكانوا على قسط وافر من التواضع ، واقتدوا بالرسول عليه الصلاة والسلام في بعده عن مظاهر الكبرياء ، وعنوا بالسجلات وجعلوها تامة وافية ، ودونوا فيها الوصايا والديون ، ونظموا الأحباس (الأوقاف) . وقد عمل القاضي ابن مسروق الكندي (١٧٧ — ١٨٤ هـ) على إعلاء مركز القضاء ، وأبى أن يخضع لسلطة الوالي ، ولم يحضر مجلس الحكم كما جرت العادة إلى وقته ، مما أدى إلى عدم حضور هذه المجالس بعد ذلك ، أضف إلى هذا إصلاحه ديوان القضاء باتخاذه قمطراً تودع فيه القضايا ثم يختم ، ثم يفض إذا جلس القضاة .

---

(١) حسن ابراهيم وعلي ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٣١ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٣٢ .

وقد اكتسب قضاة مصر فى عهد الأمويين وفى صدر الدولة العباسية خبرة من وراء أشتغالهم بالفقه الإسلامى . واشتهر القاضى بالاستقامة وسمو الخلق ، وأصبح لمركزه أهمية خاصة ، ولشخصه نفوذ كبير ، ولذلك لم يكن يجرى عليه ما كان يجرى على غيره من العزل ، بل ظل القاضى فى كثير من الأحيان يشغل منصبه فى عهد عدة ولاة ، ولم يكن أسرع من القاضى فى تقديم استقالته إذا تدخل فى أحكامه الشرعية أحد ، وبلغ من محبة الناس للقضاة ، أن أصبح الولاة يفكرون طويلا إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزلهم ، كما لم تعد للوالى فى العصر العباسى سلطة عزل القضاة ، بل صارت تصدر بتعيينهم المراسيم من بغداد مباشرة ، وأصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه (١) .

وقد عرف كثير من قضاة مصر فى تلك الفترة بالاستقلال فى الرأى ، والاجتهاد فى الأحكام ، والنزاهة ، والاستقامة ، وإدخال ضروب شتى من الإصلاح على النظام القضائى . ومن أبرز هؤلاء القضاة : قيس بن أبى العاص الذى ولاه عمر بن الخطاب ، وعثمان بن قيس بن أبى العاص وهما من قضاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين . ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضى مصر فى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان ، وتوبة بن نمر الحضرمى ، وخير بن نعيم الحضرمى ، ويحى بن ميمون الحضرمى ، وهم من قضاة مصر فى عهد تبعيتها للخلافة الأموية . ومنهم القاضى غوث ، وأبو خزيمة ، والمفضل بن فضاله ، وأبو عبد الله بن لهيعة بن عيسى ، وهم من قضاة مصر فى عهد العباسيين .

فى عهد الطولونيين :

كان القاضى يعين من قبل الخليفة فى بغداد ، ولم يكن القضاة تابعين لمذهب واحد ، وإنما كان القاضى يحكم وفق عقائد المذهب الذى ينتمى إليه . وفى عصر ابن طولون اشتهر القاضى بكار بن قتيبة بالعدل والورع ، حتى رفض أن يطيع ابن

---

(١) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 39 — 44
حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٤٥ .

طولون فى لعن الموفق على المنابر . ومع ذلك لم يجرؤ ابن طولون على خلعه (١) .

وكان للقاضى فى عصر الطولونيين أثر كبير فى حياة الناس العامة ، حتى إنه كان يشرف على ديوان الحسبة ونظام الأسواق . وانحطت شخصية القضاة بعد موت بكار ، فلم نعد نسمع عن شخصية قضائية فذة تماثل شخصيته ، بل كان جل هم القضاة منصرفا إلى خدمة الوالى دون أن يتحروا العدل فى أحكامهم . لذلك أفاض المؤرخون فى القول عن بكار (٢) ، دون أن يسهبوا فى الكلام عن خلعه .

ويجب علينا هنا أن نتكلم عن السجون فى مصر فى عصر الطولونيين ، فنبين أن المؤرخين العرب أوضحوا أن عدد المسجونين فى ذلك العصر ثمانية عشر ألف شخص ، وليس ذلك عجيباً فى وقت كان الوالى يعتمد فيه على عيون ترصد له حركات منافسيه ، بل تأتيه بمخاطبات أعدائه ، على أن المسجونين لم يكونوا جميعاً يسجنون لأسباب سياسية ، وإنما اختلفت أسباب حبسهم كما اختلفت طريقة سجنهم : فهناك نوع من الحبس يؤمر فيه المسجون بأن يلزم داره فلا يخرج منها ولا يتصل بالخارج ، وهناك نوع آخر من السجن ينقل المسجون إليه عقب الحكم عليه . على أن المسجونين لم يكلفوا بالأعمال الشاقة لحساب الدولة ، بل كانوا يقومون بصنع بعض الأشياء لحسابهم الخاص وبذا عاشوا فى السجن عيشة تقرب من الحياة العادية دون إرهاق أو تعذيب (٣) .

فى عهد الاخشيديين :

لم يكن اختيار القضاة فى عهد الدولة الإخشيدية يجرى على طريقة واحدة ، فكانوا يعينون تارة من قبل الخليفة وتارة أخرى من قبل الولاة ، وامتد اختصاصهم حتى شمل الأحباس والمواريث وما يتعلق بدار الضرب والمظالم . ولم يكن القضاة فى عهد الإخشيديين تابعين لمذهب واحد ، بل كان القاضى يحكم وفق عقائد المذهب

---

(١) راجع ماسبق أن كتبناه فى باب « العلاقات الخارجية » عن علاقة ابن طولون بالموفق
(٢) راجع سيرة ابن قتيبة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٥٠٩ — ٥١٤ .
(٣) Zaki Hassan : Les Tulunides, p. 209.

الذى ينتمى إليه ، واشتهر القضاة بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة ، وكثر عدد القضاة الذين شغلوا هذا المنصب فى العصر الإخشيدى ،وتولاه بعضهم أكثر من مرة.

ومن أشهر قضاة مصر فى عصر الإخشيديين القاضى أبو الطاهر ، وهو من قضاة المصريين السنيين ، تولى منصبه منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٧ هـ ، فرأى أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يجر إلى غضب المصريين وسخطهم ، فأقره فى منصبه ، وعمل فى الوقت نفسه على إضعاف نفوذه .

ولما وصل المعز إلى مصر وخف الناس لاستقباله ، ونزل الركب عن مطيهم . وقبلوا الأرض بين يديه ، ظل أبو الطاهر راكبا حتى قرب من الخليفة الفاطمى وترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض ، فلفت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجابه عن الرجل الذى خالف الناس كلهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ، ذكر قوله تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) [١] . ومع أن المعز قد أقر أبا الطاهر فى بعض اختصاصاته ، إلا أن سلطانه قد اضمحل حتى استقال من منصبه فى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ [٢] .

وكان الإخشيد يجلس للنظر فى المظالم كل أربعاء ، وحذا حذوه كافور ، فكان يعقد مجلس للمظالم يوم السبت من كل أسبوع ويحضره الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات والقضاة والفقهاء والشهود وأعيان البلاد .

أما مرتبات القضاة فى عهد الإخشيديين فلم يرد لها ذكر فى كتب المؤرخين ،سوى مانص عليه الكندى من أن رزق القاضى على بن الحسين بن حرب كان مائة وعشرين ديناراً فى الشهر [٣] .

---

(١) آية ٣٧ سورة فصلت .
(٢) ابن ميسر ص ٤٤ . والمقريزى : اتعاظ الحنفاء ص ٩٢.
راجع حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٤٧ .
(٣) الكندى : كتاب القضاة ص ٥٣١

٤ — النظام الحربى

من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية :

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر ، بقى الجيش العربى فى البلاد ، وكان عدده يتراوح إذ ذاك بين إثنى عشر ألفا وخمسة عشر ألفا من الجنود ، ولم يندمج المصريون فى الجيش الفاتح ، ولم ير العرب ضرورة السماح لسكان البلاد الأصليين بالاشتغال بالجندية حتى لايتفرقوا حربيا ويعملوا على طرد العرب من بلادهم متى حانت لهم الفرصة . ولم يسع المصريون للعمل فى جيش العرب واكتفوا بالأعمال المدنية ، لأن روح التخاذل والاعتماد على قوة الرومان الحربية كانت قد استولت عليهم ، بينما كان العرب يتفانون فى الحرب ويعتقدون أن من يقتل فى سبيل نشر الإسلام فى بلاد العرب أو فى خارجها إنما مصيره الجنة .

على أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى قواد جيشه بألا يعمل الجنود فى أى شىء سوى الجندية ويمتنعوا عن العمل فى التجارة والزراعة ، وأمر بأن تعطى لهم رواتبهم سواء أكانوا فى حالة حرب أو فى حالة سلم (١) ، وقصد عمر من ذلك ألا يترك الجند أمور الحرب والقتال ويعيشوا فى راحة ودعة ويوجهوا جهودهم إلى جمع المال ، فإذا دعا داعى القتال كانت روح الجندية قد هبطت وصعب على الجند أن ينتقلوا إلى إقليم آخر غير الإقليم الذى تجمع فيه عقارهم وثروتهم .

وأمر عمر بن الخطاب بأن تدون أسماء الجند وأسراتهم ورواتب كل منهم فى ديوان الجندية . ودون أسماء الجندمن ولاة مصر : عمرو بن العاص ، ثم عبد العزيز ابن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) ، سار على نهجهما قرة بن شريك (٩٠ — ٩٦هـ) ، ودون التدوين الرابع بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) فى عهد الخليفة يزيد ابن عبد الملك (٢) .

وكانت أرزاق الجند تحدد على أساس : سبق القبيلة — التى ينتسب إليها الجندى — إلى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٢ .
(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ٧١ . والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٦٤

الإسلام ، أو فضلها فى الجهاد ، أو عدد من يعوله الجندى من الأولاد ، أو ظروف المكان الذى يعيش فيه من حيث الرخص أو الغلاء .

وكانت أرزاق الجند تزداد حين كان يريد بعض الخلفاء استرضاء أفراد من بعض القبائل، واصطناع أبنائها ، وكان عطاء الفارس ضعف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه(١) . ولم يستمر عطاء الجند على حالة واحدة ، فكان يزيد أو ينقص تبعاً لأوامر بعض الخلفاء : فالخليفة عثمان بن عفان هو أول خليفة زاد فى عطاء الجند عما كان عليه فى عهد عمر ، وأبقى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) هذه الزيادة ، ثم أمر يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) بمنعها وكان العطاء يصرف فى رأس كل سنة(٢) . وكثيراً ما أثار إنقاص العطاء الاضطرابات والمشاكل بين الأجناد ، وخاصة فى أواخر العهد الأموى ، ويقال إن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قطع العطاء عن جند مصر سنة كاملة ، ولكنه مالبث فى نهايتها أن كتب يعتذر عما فعل وأعاد إليهم العطاء الذى منعه وعطاء السنة التالية ، واشترط الولاة على المصريين ضيافة من ينزل عليهم من الأجناد ثلاثة أيام .

وكان جند مصر فى عهد تبعيتها للخلفاء الراشدين والأمويين ، من العرب . وفى عهد الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس ظهرت عناصر فارسية دونت فى الديوان ، وما لبث أن ظهر فى أواخر عهد تلك الدولة عنصر جديد هو الجند الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم وأثبتهم فى الديوان ، وزاد الخليفة على ذلك أن أمر سنة ٢١٨ هـ واليه على مصر كيدر بن نصر بن عبد الله بإسقاط الجند العرب من الديوان وقطع أرزاقهم(٣) ، وكانت نتيجة ذلك العمل أن احترف العرب ، فى عهد تبعية مصر للعباسيين ، الزراعة والتجارة والصناعة ، وهى الحرف التى منعهم عمر بن الخطاب من مزاولتها إبقاء منه على صبغتهم الحربية الصرفة .

ولم تقتصر العناية فى ذلك العصر على القوة البرية ، بل اشتهرت مصر إذ ذاك بصناعة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : الجيش والبحرية من الفتح العربى الى بداية العصر الطولونى، الرسالة ٤٨ من رسائل الثقافة العسكرية ص ١٢ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ١٩٣ . المقريزى : الخطط جـ ٨ ص ٩٤ .

الوجهين البحرى والقبلى ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التى تكون منها الأسطول المصرى ، فقد قاتل عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان بن عفان، بلاد الدولة الرومانية الشرقية بحراً فى غزوة ذات الصوارى(١) . وكانت السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة ، وتبحر عن طريق الأسكندرية ودمياط وتنيس والفرما وبولاق لغزو بلاد الروم .

وأصبحت مصر مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة ، وصار اسم الصناعة فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الجديدة ، وأسست دار الصناعة بجزيرة الروضة فى سنة ١٥٤ هـ(٢)، وسميت جزيرة الروضة «جزيرة الصناعة» . وأظهر العمال المصريون مهارة كبرى فى صناعة السفن ، حتى كان يستعان بهم فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية .

وازدهرت صناعة السفن فى مصر فى العصر العباسى ، منذ أن نزل الروم فى دمياط سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل وولاية عنبسة بن اسحق . فأنشئت الشوانى(٣)، وحددت أرزاق رجال الأسطول على نحو ما كان متبعا مع الجنود ، واختير القواد المهرة لقيادته ، وأقبل الناس على تعليمهم فن القتال (٤) .

فى عهد الطولونيين :

استطاع ابن طولون أن يكون لدولته جيشا كثيف العدد ، وكان ذلك الجيش أول جيش مستقل فى مصر فى العصور الوسطى ، فقد كان قائده الأعلى هو ابن طولون، وليس لأحد غيره سلطان على الجيش ورجاله ، وبلغ جيش ابن طولون من قوة البأس ما جعل أنظار الخلافة العباسية تتجه إليه غير مرة . ومما يدعو إلى الإعجاب قدرة ابن طولون التى أظهرها فى إدارة جيش أربى عدد على مائة ألف جندى ، وكان جيشه يتألف من الرقيق اليونان والسودان ومن الأتراك (٥) .

(١) القريبة من ثغر فونيكة غرب الأسكندرية ، وسميت بذلك الاسم لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها .

(٢) المقريزى . الخطط ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) المراكب المعدة للجهاد فى البحار .

(٤) المقريزى : نفس المصدر ج ١ ص ١٩١ .

(٥) الكندى ص ٢٣٥ .

وكانت أرزاق الجند تدفع إليهم بنظام ، ولم يكن ابن طولون مكروها من جنده ، بدليل عدم خروجهم عليه وحماسهم فى الذود عنه وعن دولته ، وكان بقصر ابن طولون مكانا يشرف منه على الجيش فى يوم عرضه . وكان الجند فى الدولة الطولونية يستعملون فى قتالهم المجانيق والسيوف والقنابل الحارقة والنبال والقوس والرمح ، وكانت الفرق المحاربة تصطحب معها الموسيقى ، فتدق الطبول ، وتقرع الصنوج لبث الحماسة فى نفوس المقاتلين[١] .

ويتبين لنا مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش ، من وصف موكب خمارويه عند خروجه للصيد أو للتنزه أوالاحتفال بعيد من أعياد الدولة ومواسمها . فقد كان موكب هذا الأمير حافلا ، يزيده هيبة أولاد الحوف وسائر الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام عرفوا بالشجاعة والبأس ، فأدخلهم خمارويه فى خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ومنع عن الناس أذاهم ، واستعملهم حرسا له . وكانوا يلبسون الأقبيةمن الحرير والديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة ، وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة ، يتلوهم ألف من السودان لهم درق من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحراً أسود يسير ، لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ، ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض[٢] التى تقع من تحت العمائم ، فإذا مضى السودانيون قدم خمارويه ، وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة[٣] سهم ، ويحف به حرسه المختار ، وهو ممتط فرساً تكسوه الهيبة ، ويدل مظهره على السطوة وشدة البأس ، فإذا سار سار الناس جميعهم وبينهم الجند فى صمت عميق ، كأن على رءوسهم الطير [٤] .

أما عن الأسطول المصرى فى ذلك العصر ، فقد وصفه المقريزى بقوله : « وبنى (ابن طولون) أسطولا يتألف من مائة مركب حربية ، سوى مايضاف إليها من العلايات والحمائم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة » . ومن

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٨ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٠ .
(٢) البيض : جمع بيضة ، وهى الخوذة الحديدية .
(٣) رمية .
(٤) راجع ، حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٢٩ — ٢٤٠ .

الصعب أن نتحدث فى العصر الطولونى عن أسطول مصرى بالمعنى الحديث . ولم يقم الأسـطول الطولونى بدور كبير من الوجهة الحربية والاقتصادية ، وحتى ذلك الأسطول الصغير قد اختفى بعد موت ابن طولون ، رغم الجهود التى بذلها أولاده فى الاحتفاظ به (١) .

فى عهد الإخشيديين :

فى عهد الإخشيد كانت مصر آمنة مطمئنة ، قوية بجيشها ومالها ، ولاعجب فقد بلغ عدد جنوده ، وكانوا من الأتراك والروم ، أربعمائة ألف مقاتل ، عدا حرسه الخاص به ومماليكه الذين بلغ عددهم ثمانية آلاف رجل . وكانت رواتب هؤلاء الجنود تدفع بانتظام من الموارد التى هيأتها ثروة البلاد (٢) .

وقد استطاع جيش مصر فى عهد الإخشيد أن يصد محمد بن رائق الخزرى ، الذى أخذ مصر بتقليد من الخليفة العباسى ، وهزمه الإخشيد فى العريش سنة ٣٢٨ هـ ، كما صد سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ، ورد الحملات الفاطمية عن الديار المصرية ، وضم إلى حوزته مكة والمدينة والشام ، وأصبح من القوة بحيث استطاع أن يأمر عماله وقواده بأخذ ولاية العهد لابنه أنورجور .

وانقسم الجند فى عهد أنورجور بن الإخشيد إلى فريقين : الإخشيدية وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية وهم أنصار كافور . وكان القائد العام للجيوش المصرية فى عهد كافور هو شمول الإخشيدى ، وفى عهد تولى كافور أمور مصر انضم إلى الجيش عدد غير قليل من السودانيين ، وقيل إنه كان لكافور ١٧٠٠ غلام من الأتراك عدا جنده من الروم ، وكان قواد الجند يجتمعون فى دار كافور فيخلع عليهم الخلع الثمينة ويفرق عليهم الهبات السنية ، ولم يقل اهتمام الإخشيديين بالبحرية المصرية عن اهتمام الطولونيين (٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٢ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١١٠
Zaki Hassan : Les Tulunides, p. 274.

(٢) راجع ، حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٤٠

(٣) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ١٢ .

ثانيا — فى عصر الفاطميين

١ — النظام السياسى

كان الخلفاء الفاطميون فى صدر الدولة الفاطمية مصدر جميع السلطات ، يعاونهم الوزراء وولاة الأقاليم . ولكن سلطة الخلفاء ضعفت فى النصف الثانى من عصر المستنصر الفاطمى ، وخاصة حينما تقلد بدر الجمالى الوزارة فى مصر ، فإنه منذ ذلك الحين بدأ عهد نفوذ الوزراء وتلاشى سلطان الخلفاء .

كان الخليفة الفاطمى يسكن فى قصر فخم ، هائل البنيان ، رائع المنظر ، بديع الأثاث ، جدرانه وسقوفه حافلة بالألوان والزخارف الفنية ، وعلى نوافذه وأبوابه ستور من الحرير أو الديباج منسوجة بالذهب ، وأرضه مصنوعة من الرخام ومغطاة بالبسط والسجاجيد القيمة النادرة المثال ، وله أسوار عالية يحرسها خمسمائة من الفرسان ومثلها من المشاة ، ويعمل فيه الخدم والحشم والجوارى الحسان ، فقد كان بالقصر ٣٠ ألف جارية ، ١٢ بهوا ، وعشرة أبواب ، وكان موضعه وسط مدينة القاهرة .

وكان الخليفة المعز الفاطمى يعيش فى القصر الشرقى الكبير أو القصر المعزى الذى بناه له جوهر ، ثم انتقل العزيز إلى القصر الغربى الذى كان أصغر من قصر أبيه ، وكلا القصرين كان مؤثثاً بفاخر الرياش ويحوى كل ماتتطلبه أبهة الخلافة من الأثاث .

وإذا تكلمنا عن نظام الفاطميين السياسى ، فأول مايجب ذكره هو مجلس الملك فى العصر الفاطمى ، وكيف كان يعقد فى قاعة الذهب فى القصر الشرقى الكبير برياسة الخليفة وحضور كبار رجال الدولة للفصل فى مهام الأمور .

ويكفى للدلالة على عظمة الخليفة الفاطمى ، نظرة إليه وهو فى ملابسه التى تبهر الأنظار ، وجلاله الذى تخشع له الأبصار ، وحوله حاشيته من الأمراء وكبار رجال البلاط ، فى ملابس مزركشة من الحرير والديباج موشاة بالذهب الخالص .

وينتقل الخليفة فى هذا الموكب إلى حيث يعقد مجلس الملك فى قاعة الذهب ، وهى من أروع مارسم مهندس ومن أبرع مانحت فنان .

كانت قاعة الذهب مؤثثة أثاثا فخماً ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم ولون واحد . وفى صدر القاعة حشية(١) عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، فإذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تتضح بأجلى مظاهرها ، إذا ما انفرج الستران الحريريان، بفعل إثنين من الأساتذة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم « زمام القصر » . فيظهر شخص الخليفة وحوله جماعة من القراء يأخذون فى ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية ، ثم يأتى حامل الدواة فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب ، فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم إلى الخليفة .

وكان الوزير هو أول من يقدم إلى الخليفة فيخطو إلى الأمام ، ويحيي الخليفة بلثم يديه ، ويتراجع إلى مكانه ويظل واقفاً ، ثم يأذن له بوسادة يجلس عليها إلى يمين الخليفة ، ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ، ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بمسبحته قائلا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور اقترب منه واعتمد على سيفه ثم يشرع فى محادثته(٢) .

وكان مجلس الملك ينعقد برياسة الخليفة ثلاث ساعات فى العادة ، فتقدم إليه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح الخلع ، أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم . فإذا انتهى المجلس انصرف الحاضرون وبرح الوزير قاعة المجلس بعد أن يلثم يدى مولاه مرة ثانية ثم يركب إلى داره يحف به

---

(١) الفراش المحشو.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص٤٩٨ ، راجع، حسن ابراهيم: الفاطميون فى مصر ص٢٦٩ .

سائر أعضاء المجلس ، ثم ينزل الملك عن سرير الملك ، ويغادر الإيوان ، فتسدل الستور ويقفل الباب . ومن ذلك تتضح لنا الأبهة التى كانت تحيط بالخليفة الفاطمى حينما كان يرأس مجلس الملك(١) .

على أنه منذ أواخر عصر المستنصر ، بدأ الوزارة يستأثرون بالسلطة دون الخلفاء . ويرجع السبب فى ذلك إلى تهاون كبار رجال الدولة فى اختيار الخلفاء الأكفاء ، والبيعة للأطفال بالخلافة ، ليسهل على الوزراء والحجاب الاستبداد بالسلطة ، ومن ثم اشتد التنافس على المناصب وضاعت هيبة الخلافة .

٢ — النظام الإدارى

لم يدخل على النظام الإدارى فى مصر الإسلامية تغييرات تستحق الذكر ، منذ فتح العرب لمصر سنة ٢٠ هـ حتى جاءت الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨ هـ ، فأدخلت عليه كثيراً من مظاهر السلطان .

ذلك أن جوهراً الصقلى عمل على إحلال المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة . وبدأ بأن أشرك المغاربة مع المصريين فى وظائف الدولة ، حتى لم يكن هناك عمل من الأعمال إلا جعل فيه مغربياً شريكا لمن فيه ، ولم يتعجل فى قصاء السنيين عن المناصب الهامة حتى لا تتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب الأمن والنظام فى البلاد . ونجحت سياسة جوهر ، فلم تأت سنة ٣٥٩ هـ إلا وكانت غالبية الموظفين من الشيعة أنصار الدولة الحاكمة ، بل وحتم على الموظفين أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعى . وكانت أهم الأعمال التى عهد بها إلى الشيعيين : جباية الخراج والوزارة والقضاء والحسبة وغيرها(٢) .

وفى عهد الفاطميين ، كان هناك عدة دواوين ، على رأس كل منها موظف كبير ، منها : «ديوان الجيش» وكان يعرض عليه أمر الأجناد وخيولهم ، وديوان « الكسوة والطراز » ويتولاه رجل من كبار الموظفين من أرباب الأقلام ،

---

(١) راجع ، على ابراهيم حسن : عظمة الفاطميين ، مجلة الكتاب ، عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ .
(٢) على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ص ٧٣ .

وديوان « الأحباس » ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان « الرواتب » ومهمته عرض كشوف بأسماء الموظفين كل سنة على الخليفة ليزيد من يرى زيادته من طوائف الموظفين . وقيل إن كشوف المرتبات قد ذيلها الخليفة المستنصر مرة بهذه الآية (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) ، وذيلها الخليفة الحافظ بهذه الآية (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) .

ومن كبار الموظفين فى العصر الفاطمى « صاحب الإنشاء والمكاتبات » ، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً ، ويرأس ديوان الإنشاء الذى كان من أهم الدواوين الفاطمية. ويعمل تحت إدارته عدد من الكتاب، أهمهم « صاحب القلم الدقيق » ، ويلى صاحب الإنشاء فى الرتبة ، ومن مهامه التوقيع على المظالم ، ومجالسة الخليفة فى خلوته كى يدارسه كتاب الله ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء والعظماء ويحدثه عن مكارم الأخلاق ويعلمه تجويد الخط ، وكان راتبه مائة دينار فى كل شهر . وإذا جلس فى حضرة الخليفة وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى فى هذه الدواة عشرة دنانير مكافأة له ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند (عود عنبر) ممزوج بالمسك ليتبخر به عند دخوله على الخليفة فى المرة التالية . ولما أصبح الوزير فى آخر أيام الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم كان يجلس للمظالم ، وإلى جانبه « صاحب القلم الدقيق » . ويلى ذلك الموظف فى الرتبة « صاحب القلم الجليل » ، ومهمته تسلم أوراق مجلس النظر المظالم من صاحب القلم الدقيق ، ووضعها فى الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها. على أن كتاب ديوان الإنشاء فى العصر الفاطمى كانوا يختارون بوجه عام ممن اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب وامتازوا بالقدرة فى فن الإنشاء ، فقد كانت الكتابة فى ذلك العهد إحدى المناصب العالية التى تلى الوزارة فى المرتبة(١) .

وكان كبار الموظفين فى عهد الفاطميين ينقسمون إلى قسمين : أصحاب السيوف وأصحاب الأقلام . وكان أصحاب السيوف يشرفون على الجيش ومنهم الوزير إذا لم يكن صاحب قلم . ويليه أمير الباب ويطلق عليه الوزير الصغير ومهمته تقديم السفراء إلى الخليفة وإنزال كل منهم المكان اللائق به ، ومنهم القائد وإليه قيادة

---

(١) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨٣ .

الجيوش وحراسة قصر الخليفة ، ومنهم أيضاً زمام القصور الذى يعهد إليه بإدارة شئون القصر . ومن أصحاب السيوف : صاحب المظلة ، وحامل السيف وحامل الرمح وحامل الدواة ، وزمام الأقارب (العلويين) ، ووالى القاهرة ، ووالى مصر (الفسطاط) .

أما أصحاب الأقلام فمنهم الوزير إذ لم يكن من أرباب السيوف ، ومنهم قاضى القضاة ويعهد إليه النظر فى الأحكام الشرعية والإشراف على دور السكة وضبط عيارها . ويليه فى الرتبة داعى الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى المساجد ودار العلم وفى القصر الفاطمى ، وكثيراً ما كانت وظيفتا قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان إلى رجل واحد

وكان المحتسب من كبار الموظفين من أصحاب الأقلام ، وله النظر فى الأسواق والمحافظة على الفضيلة والأمانة والإشراف على الموازين والمكاييل وعلى استيفاء الديون ، وكان ينتخب من وجوه المسلمين ، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير . ومن كبار أصحاب الأقلام صاحب بيت المال وهو بمثابة وزير المالية فى العصر الحاضر ، وإليه عقد زواج الإمام وإبرام عقود بناء السفن ، ويليه وكيل بيت المال ، ومنهم أيضاً صاحب الرسائل وهو الذى كان يوصل رسالة الخليفة إلى الوزير يعلمه فيها بانعقاد مجلس الملك ، وكان هناك عدد كبير من القراء يقرءون القرآن بحضرة الخليفة فى مجالسه ومواكبه ويقال لهم « قراء الحضرة » ، وعدا هؤلاء كانت توجد وظيفة طبيبى الخليفة الخاصين ، وكان يطلق على صاحب بيت المال وصاحب الرسائل وزمام القصر «الأساتذة المحنكون» ، ويطلق هذا اللقب على آخرين من كبار الموظفين ،

وكانت مصر مقسمة فى العصر الفاطمى إلى إثنين وعشرين قسماً هى : الاسكندرية ، البحيرة ، فوة والمزاحميتين ، رشيد ، النستراوية ، مطمريسة ، الدنجواوية ، دمياط ، الإبوانية ، الفاقوسية والشرقية ، المرتاحية ، الدقهلية ، السمنودية ، السخاوية ، السنهورية ، حوف رمسيس ، جزيرة بنى نصر ، الطندتاوية جزيرة قوسنا ، المنوفيات ، القليوبية .

وكان أعظم ولاة مصر فى ذلك العصر أربعة هم : والى قوص ويعهد إليه بحكم الوجه القبلى ويلى الوزير فى الرتبة تقريباً ، وتحت نفوذه حكام يحكمون الكور المختلفة ، ووالى الشرقية أى بلبيس وقليوب وأشمون ، ووالى الغربية أى المحلة

الكبرى وإبيار ومنوف ، ووالى الاسكندرية أى مديرية البحيرة الآن .

وكانت مهمة هؤلاء الولاة إدارة شئون الكور المختلفة التى تضم الأقسام الإدارية التى تحت سلطانهم ، ويشرف عليهم مفتشون يعينون من القاهرة ويظهر أن الحكومة الفاطمية سلكت مع الفلاحين سبيل الشفقة والعدل . على أن المؤرخ لينبول يقول : إن هذا النظام الإقليمى يظهر حسنه ودقته على الورق ، أما إذا تعمقنا فى بحثه ، ألفينا نظاماً مشوباً بالخلل الإدارى ، لتفشى الرشوة والسخرة فى الأقاليم »[1].

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٦٢ – ٣٦٥ هـ) وزارة تنفيذ (٢)، بمعنى أن سلطة الوزير كانت محدودة ، لأن الوزير فى تلك الفترة من العصر الفاطمى رغم تمتعه بالقوة والنفوذ ، كان بقاؤه فى مركزه متوقفاً على تمتعه برضى الخليفة وتعضيده . ومن أشهر هؤلاء الوزراء يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

غير أن تلك الحال لم تلبث أن تبدلت لاسيما فى العهد الأخير من أيام الفاطميين بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض ، أى أن الخلفاء تنازلوا عن سلطانهم للوزراء ، ففى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، قامت وزارة التفويض حين استدعى هذا الخليفة بدراً الجمالى والى عكا لإصلاح أمور مصر بعد الشدة العظمى . وكان المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء من الضعف بحيث لم يبق لهم من النفوذ شىء ، حتى أطلق على هذا العصر « عصر الوزراء العظام » ، فقد تلاشت شخصية الخليفة وعظم سلطان الوزراء ، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء ، وعزلهم وكانوا يختارون أضعفهم إرادة حتى يكون ألعوبة فى أيديهم .

ومن أظهر ما انتاب الوزارة من تطور إذ ذاك ، أن بعض وزراء الدولة الفاطمية أطلقوا على أنفسهم لقب « ملك » ، وكان أول من تلقب منهم بهذا اللقب رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى فقد كان يطلق عليه الملك

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 155 157

(٢) كانت الوزارة فى عهد العباسيين نوعين : وزارة التنفيذ وتكون مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه ، ووزارة التفويض وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض إليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع إليه . ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٦ — ١٣٨ .

الأفضل ، كما تلقب الوزير طلائع بن رزيق بالملك المنصور ، وتلقب ابنه رزيق كما تلقب شاور وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين بالملك الناصر(١).

إلا أن سلطان الوزراء الفاطميين ظهر واضحاً فى عهد الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى وفى عهد الوزير على بن الأفضل ، فقد تمتع كل منهما بسلطة مطلقة وأصبحت موارد الدولة الفاطمية الواسعة فى قبضة أيديهما . وغدت دار كل منها المحور الذى تدور عليه الأعمال الحكومية فى الدولة .

٣ — النظام القضائى

لم يكن القضاة فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين تابعين لمذهب واحد ، بل كان القاضى يحكم وفق عقائد المذهب الذى ينتمى إليه . أما فى عهد الدولة الفاطمية، فقد كان منصب القضاء يسند إلى رجل من الشيعة يلقب باسم « قاضى القاضى»(٢)، له حق تعيين نواب الحكم (أو القضاة) عنه فى جميع المدن ، ويستمد أحكامه من الفقه الشيعى الذى انتشر فى مصر منذ الفتح الفاطمى ، إذ عمل جوهر الصقلى على نشر مذهب الشيعة فى هذه البلاد . ومع هذا فإن الفاطميين كانوا لايتعرضون لأهل السنة فى إقامة شعائرهم الدينية وفق مذاهبهم اكتسابا لودهم وتأليفاً لقلوبهم .

وقد أقام الفاطميون إلى جانب قضائهم الشيعيين قضاة من الشافعية والمالكية ، فإن الوزير أبا على بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى عين فى سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : إثنين من الشيعة : واثنين من السنة(٣).

ولم يكن نفوذ قاضى القضاة فى عهد الفاطميين مقصوراً على مصر ، بل كان يمتد أحياناً إلى سائر الولايات التابعة للامبراطورية الفاطمية شرقاً وغرباً ، ولم يكن

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤ .

(٢) لم يكن لقب قاضى القضاة معروفا فى أيام الخلفاء الراشدين ولا فى عهد الدولة الأموية، وإنما عرف فى أيام الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد ، أدخله البرامكة عن الفرس . وأول قاضى عباسى نال هذا اللقب هو القاضى أبو يوسف صاحب أبى حنيفة ومؤلف كتاب الخراج . عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ص ٩٥ — ٢٣١ .

(٣) أبوشامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩ . حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ٢٣٠ — ٢٣١ .

اختصاصه يشمل النظر فى قضايا الأحوال الشخصية فقط ، بل كان يتناول جميع القضايا بالمدنية والجنائية ، كما كان يقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة ، ويشرف على دار الضرب ويتفقد أحوال نوابه فى الأقاليم ويشرف عنهم ويسأل عنهم الثقات(١).

وأول من تلقب بلقب قاضى القضاة فى مصر هو القاضى على بن النعمان ، وذلك فى العصر الفاطمى الأول سنة ٣٦٦ هـ ، وعظم شأن ذلك المنصب حتى إن الخليفة العزيز بالله الفاطمى أجلس معه على المنبر فى يوم العيد القاضى أبا عبد الله محمد بن النعمان (٢).

ويرتبط بالنظام القضائى فى عصر الفاطميين ، النظر فى المظالم والحسبة : فوظيفة القاضى هى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب هى النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفى الجنايات مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم هى الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب .

وكانت مهمة المحتسب فى العصر الفاطمى ، هى الإشراف على نظام الأسواق : فكان له نواب يطوفون فيها فيفتشون الفنادق العامة ، ويشرفون على السقائين للتأكد من تغطيتهم القرب ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى لاتعوق بنظام المرور ، وكان له أن يمنع الناس من حمل مازاد على طاقتهم ، أوتحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغى ، وكان له أن يشرف على نظافة الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المبانى المتداعية للسقوط وإزالة أنقاضها ، ومنع معلمى الكتاتيب من ضرب الأولاد ضربا مبرحاً ، كما كان المحتسب يكشف عن صحة الموازين والمكاييل التى كانت لها دار خاصة بها تعرف باسم دار العيار(٣) ، فكان يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة يحملون موازينهم ومكاييلهم ليتأكد بنفسه من ضبط عيارها ، فإن وجد فيها خللا صادرها وألزم صاحبها بإصلاحها أو شراء غيرها . وقد بقيت الدار فى مصر طوال عصر الفاطميين والأيوبيين .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٣٤ — ٣٥. ابن إياس: بدائع الزهور ج١ص١٠١.
(٢) الكندى ص ٥٨٥ .
(٣) الماوردى ص ٢٢٧ — ٢٣٠.

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ونال قسطا وافراً من عناية خلفائهم، فعملوا على توسيع دائرة نفوذ المحتسب، حتى شملت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنظر فى مراعاة أحكام الشرع والإشراف على المساجد ليتأكدوا من أن الصلوات تقام فى مواعدها، وأن الأئمة والمؤذنين يؤدون أعمالهم وفق الأوامر الشرعية (١).

وكل هذه الأعمال كانت فى بداية الأمر من واجبات القاضى، إلا أنها صارت من اختصاص المحتسب الذى كان يقضى بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر. وأصبح رجال الشرطة مكلفين بتنفيذ أحكامه.

٤ — النظام الحربى

وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى، يكون عدتهم فى صد أعدائهم من القرامطة وغيرهم وفى مد حدود إمبراطوريتهم إلى المشرق. وكان هذا الجيش يتكون من الأمراء، ورؤساء الحرس والجنود. ولكل من هؤلاء الطبقات مرتبة لايتجاوزها إلى غيرها من ينتظم فى سلكها.

فالأمراء كانوا يتدرجون فى مراتب الرقى: فمن كان فى حوزته أو تحت سيطرته خمسة أو عشرة جنود تعرف طبقته باسم «أدوان الأمراء»، ثم تزيد مرتبته فيصبح فى خدمته من أربعين إلى ثمانين جنديا ويطلق على هؤلاء إذ ذاك «أرباب القضب» لأن كلا منهم كان يحمل فى يده عند خروجه فى المواكب قضيبا من الفضة، ثم يتدرج فى الرقى حتى يكون فى حوزته مائة جندى ويطلق على هذه الطبقة من أمراء الفاطميين، الأمراء المطوقون، نسبة إلى أطواق الذهب التى كانوا يضعونها فى أعناقهم (٢).

أما رؤساء الحرس فكانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: أساتذة وكانت بأيديهم المناصب الحربية الهامة فى الدولة، ورجال الحرس من الشبان وعددهم خمسمائة وينتخبون من الأسر الرفيعة، وحراس القصر وعددهم خمسة آلاف.

(١) المقريزى: الخطط ج ١ ص ٤٦٣. ومما تجب الإشارة إليه أن المقريزى تولى وظيفة الحسبة سنة ٨٠١ هـ.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٩.

أما الجنود فكانوا ينظمون فى فرق الجيش أو وحداته ، وكانت كل فرقة تسمى باسم أحد الخلفاء أو الوزراء أو باسم الأمة التى تنتسب إليها ، مثال ذلك : الحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ ، والآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر ، والجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، والأفضلية نسبة إلى الأفضل بن بدر الجمالى ، ويقال أيضاً الرومية ، والصقلبية ، والسودانية (١) . وتتكون طوائف الجند من عدة عناصر كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة (قبيلة من البربر بالمغرب) والسودان والأرمن . وقد كثر عدد رجال الجيش الفاطمى ، وكان عددهم يختلف باختلاف الزمن وميول الخليفة أو الوزير : فالبربر كثروا فى الجيش فى أوائل الفتح الفاطمى لمصر ، لأن مصر فتحت على أيديهم ، وكثر الأتراك فى عهد الخليفة الحاكم وكانوا من المرتزقة ، وكثر السودانيون فى عهد الخليفة المستنصر لأن أباه الظاهر كان قد تزوج من جارية سودانية ولدت له المستنصر ، فلما مات الظاهر واعتلى المستنصر العرش وهو فى السابعة من عمره وقبضت أمه على أمور الدولة أصبح للسودانيين الحظوة لديها وقامت من أجل ذلك الحروب العنيفة بينهم وبين الأتراك ، وظهر الأرمن فى الجيش فى أواخر عهد الدولة الفاطمية أيام أن تولى الوزارة بدر الجمالى وأولاده والوزير بهرام وتسببوا فى قيام مشاكل عديدة بينهم وبين أهل البلاد حتى كرههم المصريون . وقد سبب تعدد الجنسيات فى الجيش الفاطمى قيام عدة حروب عنصرية بين فرق الجيش ، وقاسى الشعب الأمرين من أجل ذلك .

ومن الوصف الذى أورده ناصر خسرو عن الاحتفال بجبر الخليج فى عهد المستنصر نستطيع أن نقف على ترتيب الجند . يقول هذا الرحالة الفارسى : إن الجند كانوا يسيرون فى صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ، فيسير فى المقدمة البربر ، ويليهم المغاربة ، ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ويتبعهم الحجازيون ، والسودان وكان يطلق عليهم اسم عبيد الشراء أى الأسرى الذين كانوا يشترون بالمال (٢) .

واهتم الخلفاء الفاطميون بتوديع المحلات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلا منها

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٢ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

إلى بلاد الشام وفلسطين التى كان أهلها فى ثورات متواصلة ضد سلطة الفاطميين . فكانوا يجلسون بمنظرة باب الفتوح (١) ، حيث كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب ، أما الصناديق والخزائن التى كانت تودع فيها معدات الجيوش من أموال وسلاح ومؤن ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم تشتمل على محتويات هذه الصناديق ، وكانت نوافذ المنظرة تفتح ، فإذا رأى الجند وجه الخليفة خروا مقبلين الأرض ، ثم يومىء الخليفة للجيوش فتسير (٢) .

على أن مجهودات الفاطميين لم تقف عند اهتمامهم بالجيش ، بل وجهوا عنايتهم إلى إنشاء أسطول قوى ، وذلك على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام واستيلائهم على أنطاكية وحلب . فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين المراكب الحربية فى مدينة مصر وفى الأسكندرية ودمياط ، وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان وفى عيذاب على البحر الأحمر ، وأنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة سفينة ، وصفها المسبحى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً وحسناً »

وكان على رأس الأسطول المصرى الفاطمى عشرة قواد ، عليهم رئيس يدعى قائد القواد أو أمير الأسطول ، وهؤلاء القواد كانوا يتناولون مرتبات تصل إلى العشرين ديناراً فى الشهر ، وأفرد للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها ، واشتهرت الروضة والإسكندرية بصنع السفن الحربية والتجارية ، وكان الأسطول يستعمل فى قمع الثورات التى كانت تقوم فى سورية .

ولم يزل الأسطول المصرى محل عناية الخلفاء الفاطميين حتى قام النزاع بين الصليبين ومصر ، فأمر شاروا بإحراق الفسطاط ليحول دون وصول العدو ، كما حرق مراكب الأسطول .

---

(١) عدد المقريزى « الخطط جـ ١ ص٤٦٥ » المناظر فقال إنها مناظر : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمسة وجوه ، الصناعات ، دار الملك ، منازل العز ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، السكرة . وتشبه المنظرة (Watch - tower) المقصورة الآن .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٨٣ .

ثالثا ــ فى عصر الأيوبيين والمماليك

١ ــ النظام السياسى

كانت أنظمة الحكم فى مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك واحدة ، فقد ذكر القلقشندى أن أنظمة الحكم فى الديار المصرية كانت واحدة ، وذلك منذ قيام الدولة الأيوبية إلى آخر أيامه (٨٢١هـ)(١). ومصداق ذلك أن سلاطين المماليك وأمراؤهم كانوا أرقاء ، وليست لهم تقاليد متأصلة فيهم أو ورثوها عن الأقاليم التى أتوا منها ، ولذلك يمكن القول أن الأيوبيين هم الذين وضعوا أسس نظم الحكم السياسية والإدارية والحربية فى مصر .

غير أن هناك فارقا جوهرياً فيما يتعلق بالنظام السياسى أيام الأيوبيين وأيام المماليك : فقد كان السلطان الأيوبى يطلب من الخليفة العباسى تفويضاً يجعل حكمه فى مصر شرعياً ، بينما تمكن السلطان بيبرس سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) من إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد زوالها من بغداد سنة ٦٥٦هـ فثبت سلطان المماليك إذ أصبحت مصر مقر الخلافة .

وكان السلطان صلاح الدين يوسف هو أول من ركب من سلاطين مصر بخلعة الخليفة العباسى ، كما كان السلطان الظاهر بيبرس أول من ركب بها من سلاطين المماليك ، وآخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخلافة هو السلطان الناصر محمد ابن قلاوون عند رجوعه إلى القاهرة من بلاد الشام عقب فرار السلطان لاجين من الديار المصرية سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨م)(٢)

وفى الدولة المملوكية كان السلطان واحدا من المماليك ، نشأ نشأتهم ، وعاش فى ظل نظامهم وتقاليدهم الحربية ، فكان يخاطب أكابر المماليك بلفظ « أخوكم » أو « والدكم » ، وينعت نفسه فى الرسائل بلفظ « المملوك » كناية عن أنه لايزال واحدا منهم وأن وظيفة السلطنة لم ترفعه عنهم ، وكان يطلق على الأمراء الذين نشأوا

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠٧ ، ١٠٨ . الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

عند سيد واحد ، فنبتت بينهم رابطة زمالة قديمة أطلق عليها اسم «الخشداشية» (١). ولما اعتلى السلطان لاجين العرش جمع الأمراء رجال الجيش وخاطبهم قائلا : « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسى عنكم ... وأنتم خوشداشيتى ومحل أخوتى » (٢) . كان ذلك القول من لاجين ، تواضعا منه ، حتى لا يشعر الأمراء أنه بعد أن يصل إلى السلطنة يتناساهم أو يتسامى عليهم .

ألقاب السلطان :

كان صلاح الدين أول من اتخذ لقب السلطنة من حكام مصر (٣) وتلقب المماليك بهذا اللقب من بعد الأيوبيين ، وسلطان لقب خاص ، قيل إن أول من لقب به هو خالد بن برمك وزير هارون الرشيد الخليفة العباسى ، ثم جاء بنو بويه فتلقب به ملوكهم ، وجاء بعدهم السلاجقة فتلقبوا بلقب سلطان أيضا ، أما ماعدا ذلك من الدول الاسلامية التى لم تبلغ مبلغ البويهيين والسلاجقة من القوة وبسطة الملك فقد قنع أصحابها بلقب ملك . بل لقد أطلق لفظ ملك على بعض وزراء الدولة الفاطمية فقد تلقب صلاح الدين يوسف بن أيوب آخر وزراء الفاطميين بالملك الناصر (٤)

وحصل صلاح الدين من الخلافة العباسية فى بغداد ، وكان الانحطاط قد دب إليها ، على لقب « محيى دولة أمير المؤمنين » (٥) ، وظفر بذلك اللقب لأعماله الجليلة فى القضاء على مذهب الشيعة ونشر المذهب السنى وفى مناهضة الصليبيين ، وكان الخليفة العباسى يمنح هذا اللقب لبعض سلاطين السلاجقة

على أن اللقب الذى تلقب به صلاح الدين ، على ما فيه من عظمة وجلال ،

---

(١) خوشداشية : مفردها خشداش ، وهى كلمة معربة عن اللفظ الفارسى (خواجاتاش) أى الزميل فى الخدمة . راجع كتاب « دراسات فى تاريخ المماليك » للدكتور على ابراهيم حسن ، الباب الأول .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ص ١٦٥ .

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte,I, pp. 290 — 291.

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤٠ .

(٥) Van Berchem : Op. Cit. pp. 84 - 88.

لايفيد معنى المشاركة فى شىء ، بخلاف سلطان المماليك ، فقد تلقب بيبرس بلقب « قسيم أمير المؤمنين » حين وفد عليه بمصر الإمام المستنصر بالله أحمد فى رجب سنة ٦٥٩ هـ فبايع السلطان ولقبه بهذا اللقب ، وجاء ذكر ذلك اللقب أيضاً عندما بويع بيبرس سنة ٦٦١ هـ من الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله، وتلقب بيبرس كذلك بلقب «زعيم أمراء المماليك » Premier des émirs ، وهذا الوصف يشبه ما كان حادثا فى أوربا فى أوائل العصور الوسطى ببعض الممالك حيث كانت الملكية انتخابية، واعتبر الملك أول أقرانه من بين أمراء الدولة primus inter pares .

وكان السلطان الناصر يلقب « بالسلطان الملك الناصر ، السيد العالم العادل ، المظفر المنصور ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين » ، وقد وردت هذه الألقاب كاملة فى كتاب الناصر بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ٩٢٧ م (٧٢٨ هـ) رداً على رسالة يعقوب ملك أرغونة (١) .

ويوجد فى دار الآثار العربية كرسى من النحاس على شكل منشور ، ذى ستة أضلاع ، مطعم بالذهب والفضة ومخرم وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية وفيه صور بط يطير، وجد فى مارستان السلطان الناصر محمد وعليه ألقاب هذا السلطان ، واسم صانعه محمد بن سنقر البغدادى وتاريخ عمله سنة ٧٢٨هـ.

وكثيراً ما نجد فى الكتابات التاريخية التى ترجع إلى أواخر العهد المملوكى أن السلطان يتخذ لقب « الإمام الأعظم » الذى كان يمثل سلطة الخليفة الدينية ، وأقدم هذه الكتابات واحدة ترجع إلى عهد السلطان جقمق نحو سنة ٨١٣ (٢) .

ولا شك أن هذا يبين مدى ما بلغه السلاطين من القوة والعظمة ، خصوصاً إذا علمنا أن تلك الألقاب ، لم تكتمل لهم عفواً ، وإنما اتخذوها إثر حوادث

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—96.
راجع أيضا : Van Berchem : Corpus, Egypte. I. pp. 152 —155 ; Mayer : Saracenic Heraldry, pp. 163 . 164.

(٢) Van Berchem : Corpus. Egypte, I. p. 46.

وظروف معينة . وقد دونت تلك الألقاب وأمثالها فى الرسائل التى تبودلت بين السلاطين وبين ملوك أوربا (١) ، وفى الكتابات التاريخية ، وعلى السكة ، والعمائر ، والتحف الفنية ، وفهارس دار الآثار العربية .

وظائف السلطان :

كان السلطان يقيم هو وأسرته وحاشيته ورجال بلاطه فى قلعة الجبل وكان يعتبر رئيس الدولة الأعلى : فهو المهيمن على شئون الأمراء الخاصة والعامة ، وصاحب الحق فى تدرجهم فى مراتب الرقى (٢) ، وفى توزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود وتحديد أنصبتهم فيها ، وتعيين كبار موظفى الدولة وعزلهم وتأديبهم ، والنظر فى المظالم ، وقيادة الجيوش التى طالما خاضوا غمارها بأنفسهم .

ولم يعهد السلاطين الأقوياء بهذه الاختصاصات إلى كبار الأمراء ، على نحو ما كان يفعله بعض السلاطين الضعفاء ، بل كانوا يباشرون هذه الشئون بأنفسهم . ولكنهم رغم هذا ، لم يكونوا مطلقى التصرف ، فإنهم كانوا إذا أرادوا البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان حرب أو إبرام صلح عقدوا « مجلس السلطنة » من كبار الموظفين للاستئناس بآرائهم قبل أن يقدموا على تنفيذ مشروعاتهم وخططهم (٣) .

ويتولى « أمير مجلس » الأمور الخاصة بمجلس السلطنة ، ويشبه منصبه فى كثير من الوجوه منصب كبير الأمناء فى عصرنا هذا ، إذ كان يهيمن على شئون البروتوكول ويتمتع بحكم وظيفته بالجلوس فى حضرة السلطان (٤) . وقد ازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره وفى حجرة نومه . وعرفت وظيفة أمير مجلس فى عهد الفاطميين ، وكان متوليها يطلق عليه اسم « صاحب المجلس » (٥) . وإذا انعقد مجلس السلطنة جلس « رأس نوبة » على يسار السلطان ، إذ كان

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon.

(٢) تدرج الأمراء من أمير خمسة ، إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين ، إلى أمير ستين . راجع الباب الخامس الخاص بالجيش والبحرية .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٥ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨١ .

يعتبر أكبر طائفة الأمراء مقاما وأعلاهم مركزاً بحكم زعامته للمماليك السلطانية(١). وكانت الخاصكية يظلون معظم النهار وجانباً من الليل فى خدمة القصر السلطانى، ومن هنا جاءت تسمية رئيس المماليك السلطانية جميعا — ومنهم الخاصكية — باسم « رأس نوبة » وعرفت تلك الوظيفة فى مصر فى عهد الأيوبيين، ولكنها لم تدخل على نظام الحكم فى دولة المماليك إلا فى عهد السلطان الظاهر بيبرس. ويظهر أنه أوجدها على النحو الذى كانت عليه أيام التتار (٢).

طرق تولية وعزل السلاطين

١ — فى عهد الأيوبيين

كان نظام الوراثة سائداً فى ولاية عرش السلطنة الأيوبية. غير أن عهد تلك الدولة تميز، رغم ذلك، بكثرة حوادث النزاع على عرش السلطنة، فقد انتهت حياة ثلاثة من سلاطين الأيوبيين بالقتل هم: العادل الثانى وتوران شاه وشجرة الدر ودبرت المؤامرات لقتل إثنين من سلاطينهم هما: صلاح الدين والملك الكامل ولكنها فشلت، وعزل سلطان واحد من سلاطين الأيوبيين هو الملك المنصور، وحاول الأفضل بن صلاح الدين أن يصل إلى العرش ولكنه فشل فى محاولته، أما عن حوادث تنازع الأخوة وأبناء العمومة فهى عديدة من أبرزها أن الصالح أيوب أمر بشنق أخيه العادل الثانى.

ويمكن أن نميز من بين خلفاء صلاح الدين ثلاثة سلاطين، كانوا أعظم من تولى حكم مصر من بعده وهم: العادل الأول، والكامل، والصالح أيوب، وكان العادل الأول والصالح هما الوحيدان، من بين سلاطين الأيوبيين، اللذان لم يقيما وزنا لنظام الوراثة ولوصية السلف للخلف

---

(١) القلقشندى. صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥.

(٢) القلقشندى. نفس المصدر ج ٤ ص ١٨.

٢ — فى عهد المماليك البحرية :

لتوضيح طرق اعتلاء السلاطين عرش السلطنة المملوكية ، ينبغى تحليل مبدأ الوارثة فى العصر المملوكى ، وأثر الأمراء فى سير الحوادث الجارية إذ ذاك ومركز الخليفة العباسى فى سلطنة المماليك :

١ — كان مبدأ الوراثة غير معترف به طوال حكم الدولة المملوكية ، لأن المماليك اعتقدوا أن الملك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة فى الحروب واعتبروا السلطان واحداً منهم يختارونه من بينهم ، لأنه لا يمتاز عنهم إلا بما وهبه الله من قوة وبسالة وسعة حيلة . وكان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته ومبلغ رضاء الأمراء عنه ، واتخذوا من صغر سن بعض السلاطين فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم فى الوصول إلى العرش غير مكترثين بمبدأ الوراثة .

وهذا يعلل لنا سبب وقوع حوادث الاغتصاب فى سلطنتى الناصر محمد الأولى والثانية ، فإن حوادث الناصر كانت تدور حول اغتصاب عرشه ، ومع ذلك يمكننا أن نطلق على ذلك العصر عصر الوراثة ، فقد تخللته فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفى ثم يعود صاحب العرش ليجلس على عرش أبيه . وليس غريبا أن يحدث ذلك الاغتصاب فى بيت قلاوون ، لأن قلاوون نفسه مؤسس هذا البيت اغتصب العرش من العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨ هـ ، ويعتبر من الممهدين لخلع أخيه السعيد بركة خان .

٢ — أن أمراء مصر فى العصر المملوكى كان لهم أكبر الأثر فى توطيد عروش السلاطين وتقويتها ، بما كان لهم من شدة البأس وقوة الشكيمة والعناد والقدرة على إثارة الدسائس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرمتهم من سلاطين مصر ، فإن مقتل قطز وعزل بركة خان وسلامش ابنى الظاهر بيبرس تم على يد أمراء مصر (١) .

---

(١) يلزم هنا أن نشير إلى الوصية التى أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه بركة خان من دمشق عندما أحس بدنو أجله ، ومنها نعلم أن بيبرس لم يكن يأمن على نفسه وعلى ابنه من غدر أمراء مصر وأنه كان يعلم مدى قدرتهم على الدس وإثارة الفتنة : «إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء =

ولم يكن تأييد الشعب للسلطان كفيلا بتثبيت عرشه ، فإن عزل الناصر كان يتم على يد أمراء الدولة الأقوياء مع وضوح حقه في العرش ، فدفعه ذلك فى سلطنته الثالثة إلى استرضائهم وأخذ من يشك فى أمره منهم بالشدة صيانة لعرشه من الزوال وحفظاً لكيان ملكه من التصدع والانهيار .

ويمكن القول بوجه عام إن الناصر كان محبوبا من الشعب ، وإنه كان فى الوقت نفسه مؤيداً من جانب فريق من الأمراء ، وهذان العاملان كانا من عوامل انتصاره على مغتصبى ملكه وتقويض عروشهم ، فإن الأمراء الذين اغتصبوا عروش أسلافه من سلاطين المماليك أمثال بيبرس وقلاوون لم يمكنوا السلاطين المعزولين من العودة إلى عروشهم ، ولذا يكون ذلك الحب المتبادل بين الناصر وبين شعبه عاملا مهماً فى استقرار سلطنته الثالثة . مع ملاحظة أنه لولا تأييد عدد من الأمراء له إذ ذاك لما تمكن بمساعدة الشعب وحده من العودة إلى عرشه (١) لأنه لم يكن للرأى العام المصرى أثر كبير فى سير الحوادث فى ذلك العصر .

ومن الأمور التى تسترعى النظر وتثبت حب الشعب المصرى للناصر محمد بوجه خاص وأسرة قلاوون بوجه عام ، أن أمراء مصر لما عادوا الناصر — على نحو ما درجوا عليه مع من سبقه من السلاطين — وحاصروه فى القلعة بقصد التضييق عليه واضطروه إلى اعتزال العرش ، قام عامة الشعب بمظاهرة هائلة وتكاثر عددهم واجتمعوا أمام القلعة وعلا صياحهم وأعلنوا أنهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من غير بيت قلاوون ، وكان من هتافات العامة العظيمة الدلالة ، هتافهم : « ياناصر يا منصور » (٢) ، فتحرج الأمر واضطربت أحوال الأمراء وزاد هلعهم إذ لم يتوقعوا أن يصل حماس الشعب فى تأييد الناصر إلى هذا الحد ، خصوصا وأنهم لم يتعودوا أن يروا للرأى العام أثراً إذا استقر رأى الأمراء على أمر من الأمور .

= يرونك بعين الصبى ، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك منه ، فأضرب عنقه فى وقته ، ولا تعتقه ، ولا تستشر أحداً فى ذلك ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك » . ابن واصل : مفرج الكروب (مخطوط) ج ٢ ص ٤٤ .

(١) العينى : عقد الجمان « مخطوط » ج ٢٣ الجزء الأول ص ١٥٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٥ — ١٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٣ .

٣ — أن الخلافة العباسية التي نقلها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ بعد أن قضى عليها التتار من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية ، جعلت مصر مقر الخلافة ، ومركز الرئاسة العامة على المسلمين ،وأظهرت سلاطين المماليك أمام العالم الإسلامي كأنهم حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وأكسبت سلطنتهم شرعية ما كانت لتكسبها من أى مصدر أخر . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن الخليفة العباسى فى القاهرة لم يكن إلا مظهرا خداعا جهد المماليك لإيجاده ذراً للرماد فى العيون ،حتى يقضوا على شهوة الطامحين فى ملك مصر ويبددوا السحب التى كانت تحوم حول مبلغ شرعية حكمهم للبلاد .

على أن الخليفة العباسى فى القاهرة قد أصبح ألعوبة فى أيدى السلطان يحركها كيفما شاء (١) ، وبذا فقد على توالى السنين قيمته فى نظر الشعب باعتباره حامى الدين والمسئول الأول عن شرعية السلطنة المملوكية . حقيقة أن إحياء الخلافة العباسية بمصر أصبح أمراً واقعاً وأنه كان يصحب اعتلاء كل خليفة منصبه عدة مظاهرة غاية فى الأبهة والعظمة : من لحص عن نسبه ، وتقليد السلطان له أمر الخلافة بالديار المصرية ، وتولية الخليفة للسلطان أمور البلاد فى حفل يجمع الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة ، ثم حمل ذلك التقليد على رأس الوالى فى موكب على يطوف أرجاء مدينة القاهرة ، مما يدل على تلهف السلطان وابتهاجه بحصوله على مثل ذلك التقليد الذى يجعل سلطانه فى نظر الشعب شرعيا ، ولكن كل ذلك لم يعد المظاهر التى لا تنطوى على أى نفوذ فعلى فى تصريف أمور الدولة أو التعرض لشئونها .

وكان جل عمل الخليفة العباسى فى القاهرة هو إعطاء السلطان تفويضاً بالحكم. إلا أن هيبة ذلك التفويض الشرعى بدأت تزول من نفوس المماليك ، بعد أن رأوا إقدام كبار الأمراء على اغتصاب العرش ، كلما واتتهم الفرصة ، وذلك رغم حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة . وعلى الرغم من أن الخليفة والقضاة الأربعة

---

(١) راجع فى هذا الصدد أقوال :

Arnold : The Caliphate. pp, 98-99.

Muir : The Caliphate, pp. 593 - 594.

كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش ، فإن ذلك لم يكن يتم إلا بعد أن يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وارتياحهم إلى توليته وبعد أن يأخذ عليهم السلطان الجديد العهود والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه .

وعلى ذلك فإن موافقة الأمراء وتأييدهم كانت العامل الأساسى الذى يسهل للسلطان الوصول إلى العرش والاحتفاظ به مدة تطول أو تقصر تبعاً لذلك التأييد ، أما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البيعة والشهادة على صدورها من الخليفة ، فقد كان أمراً صوريا لا يقدم ولا يؤخر فى توطيد عرش السلطان أو زعزعته ، ولكنه كان تقليداً اتبع منذ عهد بيبرس ، وعادة اصطلح عليها فى تلك الفترة من تاريخ مصر الإسلامية (١) .

وعلى الرغم من أن السلطان منح الخليفة العباسى فى القاهرة حق ذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، ونقشه على السكة إلى جانب اسم السلطان (٢) ، وإعطاء السلطان تفويضاً يجعل حكمه فى نظر الشعب شرعياً (٣) : فإن ذكر اسم الخليفة مع السلطان فى الخطبة على المنابر كان مقيداً ، وأن ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسم السلطان كان صورياً محضاً ، وأن منح الخليفة عهود التفويض للسلطان لم يمنع وقوع حوادث الاغتصاب المتكررة فى عصر دولة المماليك البحرية (٤) .

* * *

---

(١) راجع ، على ابراهيم حسن: آراء فى تاريخ دولة المماليك،صحيفة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد السابع ، ١٩٤٤ .

(٢) لم ينفذ قط فى دولة المماليك فى مصر مسألة ذكر اسم الخليفة ونقشه على السكة ، إلا أنه ثبت أن اسم المستكفى بالله نقش سنة ٧٢٦ هـ (١٢٢٥م) فى دلهى بأمر حاكمها ابن طغلق . أنظر :

Nelson Wright : The Coins and Metrology of the Sultans oj Delhi, pp. 168 - 179.

(٣) نفذ ذلك الشرط ، ولكنه فقد قيمته بتوالى حوادث الاغتصاب من السلاطين المفوضين من الخليفة شرعياً .

(٤) مثل اغتصاب الأمير قلاوون عرش سلامش بن بيبرس ، واغتصاب كل من كتبغا ولاجين عرش الناصر محمد .

أما عن طرق عزل سلاطين المماليك البحرية ، فنبين هنا أن عزلهم كان يتم إما عن طريق النفى ، أو القتل ، أو تدبير الأتابك :

١ — كان مصير بعض سلاطين المماليك الخلع ثم النفى ، وكان نفيهم فى العادة إلى قوص أعظم مدن الوجه القبلى إذ ذاك ، أو إلى الكرك بالشام ، وأحيانا يقيم بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس .

على أن نفى أولاد السلاطين إلى الكرك بالشام ، كان أهم ما يتميز به عصر السلطنة المملوكية بالديار المصرية ، وإليها رحل السلطان السعيد بركة خان بن بيبرس فى أواخر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ ، والسلطان العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس سنة ٦٧٩هـ ، والسلطان الناصر محمد فى سنتى ٦٩٤ هـ و٧٠٨ هـ .

إلا أن السلطان كتبغا بعد فراره أثناء عودته من دمشق قاصداً الديار المصرية ورجوعه إلى الشام ، بعد أن تحقق أن الأمير لاجين يريد الغدر به كى يصل إلى السلطنة طلب من لاجين بعد أن وصل إلى عرش مصر مكاناً يقيم فيه بقية حياته ، فقبل السلطان الجديد أن يتوجه سلطان المخلوع إلى مدينة صرخد بالشام فذهب إليها معززاً مكرما ، ومعه أولاده ومماليكه وغلمانه وأقام بها . وظل فيها حتى توفى فى ١٠ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م)(١) .

وهذه ظاهرة خطيرة أن يصبح السلطان السابق والياً على بلدة من أعمال دمشق ، وهو أول مثل ينزل فيه سلطان فى دولة المماليك إلى أمير ، وتتابعت حوادث نزول السلاطين عن عروشهم ، إلا أنهم كانوا يعزلون أو يقتلون أو يعزلون فى مكان أو يقبض عليهم كأولاد الناصر .

٢ — وانتهت حياة بعض السلاطين بالقتل أمثال المعز أيبك (٦٤٨ — ٦٥٥هـ) الذى قتلته شجرة الدر ، والمظفر قطز (٦٥٧ — ٦٥٨هـ) الذى قتله بيبرس ، والأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) الذى قتله كل من طغجى وكرجى .

وكان الاعتقاد السائد أن قاتل السلطان يجب أن يخلعه على العرش : فإن بيبرس حين سأله الأمير فارس الدين أقطاى نائب السلطنة عن بقية الأمراء عمن قتل قطزاً ، قال : أنا قتلته ! » ، ورد أقطاى فى بساطة تستدعى الدهشة : يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه(٢) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٤ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٧ .

ولما قتل السلطان خليل فى الحمامات بمديرية البحيرة ، اتفق الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة على تولية قاتله بيدرا العرش ، على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا فى الصالحية بعد قتل قطز . وبعد أن تم لكل من الأميرين طغجى وكرجى قتل السلطان لاجين بينما كان جالسا فى قصره يلعب الشطرنج ، عقد بعد مقتله بيومين اجتماعا حضره الأمراء ، وقام كرجى وقال : « يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان ، والملك الناصر صغير ما يصلح ، ولايكون السلطان إلا هذا — وأشار إلى طغجى — وأنا نائبه »(١) .

وهنا لاتتم المشابهة بين الظاهر بيبرس وبين بيدرا وكل من طغجى كورجى . فبينما نجد أن بيبرس قتل قطزاً وتمكن من الوصول إلى عرش السلطنة وتطول مدة سلطنته حتى يتمكن من أن يعهد بالملك لأولاده من بعده ومن تثبيت دعائم عرشه ، وينسى التاريخ فعلته لما كان عليه من حميد الصفات ، وما أتاه لخير مصر من جليل الأعمال ، نجد أن بيدرا وطغجى وكرجى لا يستطيعون الوصول إلى شىء من ذلك وسرعان ما انهارت آمالهم وتفرق عنهم أتباعهم وقتلوا شر قتلة .

ومن ذلك نرى أن بيبرس تولى العرش بموافقة تامة من أمراء مصر . ولم تقم فى وجهه أى معارضة قوية من جانبهم ، اللهم إلا من جانب الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق ، ونرى أيضاً أنه لم يكن من الضرورى أن يصل قاتل السلطان إلى العرش ، فإن بيدرا قاتل السلطان خليل بعد أن بايعه بعض الأمراض بالسلطنة تبعه الآخرون وذبحوه وقدموا العرش للسلطان محمد أخى السلطان خليل ، كذلك لم يتمكن كل من الأميرين طغجى وكرجى قاتلى السلطان لاجين من الوصول إلى العرش. ولعل عدم وصول قتلة الأشرف خليل والمنصور لاجين إلى السلطنة ، يرجع إلى أن السلاطين من بيت قلاوون كانوا محبوبين من الشعب ، واستقر الرأى فى الحالتين على إسناد العرش إلى الناصر محمد.

٣ — وقام الأتابكة بأدوار هامة فى سلطنة المماليك : فقد عزل السلطان على ابن أيبك على يد أتابكه الأمير سيف الدين قطز ، وعزل السلطان سلامش بن بيبرس

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٦٥ .

على يد أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون ، وفى كلتا الحالتين اعتلى كل من قطز وقلاوون عرش مصر ، وكذلك اغتصب الأمير زين الدين كتبغا عرش الناصر محمد. ولم يكن لهؤلاء الأتابكة أى حق شرعى فى الملك ، اللهم إلا ما كانوا ينتحلونه من الأعذار من اضطراب أحوال البلاد الداخلية بسبب صغر سن هؤلاء السلاطين .

ومما يجب الإشارة إليه هنا أنه لايصح أن يفهم من ذلك أن الأتابك هو الوصى على العرش ، بل كان كبير القواد فى الدولة ، وكان يوجد حتى إذا كان السلطان غير قاصر .

كذلك يجب أن يلاحظ أنه فى عهد سلطنة أولاد الناصر وأحفاده لم يفكر أحد الأتابكة فى اغتصاب العرش ، بل قنعوا إذ ذاك بخلع السلطان والحجر عليه أو تدبير أمر قتله ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يرغبون فيه فى التخلص من السلطان ، ثم يعمدوا إلى تولية أحد إخوته مكانه .

وكان من الغريب حقاً عدم وصول أحد الأتابكة إلى عرش السلطنة فى تلك الفترة التى اعتلى فيها العرش سلاطين لم يبلغوا سن الرشد ، على أنه يظهر أن فكرة وصول الأتابكة إلى العرش فى عصر سلطنة أولاد الناصر وأحفاده قد جالت فى أذهان بعضهم ولكنها لم تستمر طويلا ، وسرعان ما اختفت لخوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد الأمراء لهم فى تنفيذ فكرتهم ، لما كان بينهم من عوامل الحقد والتنافس على السلطة والنفوذ . فلم يكونوا يرضون أن يسودهم أحدهم ، خوفا من أن يستبد بهم بل كانوا يفضلون أن يكون سلطانهم ممن لاشخصية له ولا إرادة حتى يتمكنوا من أن يصلوا فى عهده إلى تحقيق كل أمانيهم . وهذه الصفات التى تطلبوها فى السلطان قد توافرت فى أولاد الناصر .

ولكن بتعيين برقوق سنة ٧٨٣ هـ أتابكا للسلطان الملك الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ = ١٣٨١ — ١٣٨٢ م) حفيد الناصر محمد يعود عهد طموح الأتابكة إلى عرش السلطنة ، وذلك على نحو ما كان متبعاً منذ قيام دولة المماليك حتى وفاة السلطان الناصر محمد . فقد عمل برقوق منذ أصبح أتابكا على الوصول إلى العرش ، ولم يمنعه من تنفيذ رغبته إلا خوفه من عدم تأييد الأمراء

له ، ولما اطمأن إلى زوال ما كان يخشاه ، خلع الصالح حاجى من السلطنة وجلس مكانه على العرش .

٣ — فى عهد المماليك البرجية :

لم يتمتع سلاطين المماليك البرجية بوجه عام بسلطة مطلقة ونفوذ كبير ، فقد كانوا عرضة للعزل ، وكثيراً ماثارضدهم المماليك وحاصروا القلعة وهددوا السلطان حتى اضطروه إلى الفرار ، كما حدث مع أحمد بن إينال الذى ترك العرش يائسا ، وقانصوه الأشرفى الذى هرب فى زى امرأة . على أن حوادث العزل لم تكن تمر دون مقاومة فقد قامت مؤامرة فى عهد جقمق لإرجاع يوسف بن برسباى إلى عرشه ، كما قامت مؤامرة فى عهد إينال لارجاع عثمان بن جقمق .

وأظهر ما نلاحظه على مسألة عزل السلاطين أن أغلبيتهم كانوا من الأطفال ، فقد كان السلطان يعهد قبل موته بالسلطنة إلى ابنه الطفل الذى يصبح ألعوبة فى نظر وصيه . وفى ذلك العصر لم يكن هنالا احترام لعهد أو نظام موضوع ، فكان الوصى يقوى مركزه ويستميل إليه الامراء ويسلب السلطة من أيدى السلطان الطفل ويظل يمهد للأمر حتى يخلعه ويستولى على كرسيه ، وبهذه الطريقة عزل يوسف بن برسباى .

ولم يكن التنافس والتناحر قائما فقط حول منصب السلطنة ، وإنما قام التنافس أيضاً بين الامراء والأوصياء ، كما حدث بين يلبغا ومنطاش وططر وطنبغا وجقمق وقرقميش . وكان يصحب كل هذا حروب داخلية ومؤامرات ، كما كان يصحبها عسف الجانب المنتصر وقيامه بحركة اضطهاد وإرهاب وسفك للدماء ، كالإرهاب الذى ساد فى عهد برقوق .

وكان الخليفة العباسى فى القاهرة فى سلطنة المماليك البرجية غير ثابت فى مركزه ، يعزله السلطان أو يبقيه كيفما أراد ، ومن أمثلة ذلك : الخليفة المتوكل على الله الذى عزله السلطان برقوق وعين بدله الخليفة الواثق ، والخليفة المستعين الذى عزله السلطان شيخ المؤيد ، ولم يكتف السلطان إينال بعزل الخليفة بل سجنه أيضا .

٢ — النظام الإدارى

كانت الحكومة المصرية فى ذلك العصر حكومة بيروقراطية ، بمعنى أن السلطان كان يعتمد فى إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين الإداريين ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها ، على رغم مراقبته له ومحاسبته إياه على أعماله .

(ا) الدواوين

أهم الدواوين :

كان بمصر إذ ذاك عدة دواوين حكومية ، يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحى الإدارة العامة . وأهم هذه الدواوين : ديوان الأحباس ، وديوان النظر ، وديوان الخاص ، وديوان الإنشاء .

ويشبه ديوان الأحباس وزارة الأوقاف ، ويتولى صاحبه الإشراف على المساجد والربط والزوايا والمدارس والأراضى والعقارات المحبوسة عليها والإحسان على الفقراء والمعوزين .

أما ديوان النظر ، فيشبه وزارة المالية ، ترجع إليه سائر الدواوين فى كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة ، وله فوق ذلك الإشراف على حساب الدولة وعلى أرزاق الموظفين الدائمين والمؤقتين ، وكان مقره القلعة .

وأنشأ السلطان الناصر محمد فى سنة ٧٢٧هـ «الديوان الخاص» لإدارة الشئون المالية التى تتعلق بالسلطان ويتولى الإشراف عليه « ناظر الخاص » الذى عرف أيضا بمصر فى عصر الفاطميين والأيوبيين من بعدهم ، ولكنه لم يبلغ من الأهمية القدر الذى بلغه أيام المماليك فى عهد الناصر .

وكانت هناك دواوين أخرى أقل شأنا من تلك الدواوين ، مثل : « ديوان الأهراء » وهى شون الغلال السلطانية ، و « ديوان الطواحين » ويتولى صاحبه الإشراف على طحن الغلال ، و « ديوان المرتجعات » ويشرف صاحبه على الأمور

الخاصة بتركات الأمراء(١) . وهناك دواوين أخرى ذكرها القلقشندى على أنها مستقلة ولكنها لم تكن فى حقيقة الأمر سوى إدارات تتصل اتصالا مباشرا بالقصر السلطانى أو الدواوين التى تكلمنا عنها ، ومنها : ديوان الإصطبلات ، وديوان الخزانة ، وديوان العمائر ، وديوان المستأجرات ، وديوان المواريث الحشرية للاشراف على من يموت ولا وارث له أو من يموت ولا وارث لايستحق ميراثه (٢) .

وقد سارت دواوين الحكومة فى ذلك العصر على نسق واحد من حيث التنظيم الإدارى ، فكان على رأس كل ديوان موظف كبير هو « الناظر » ، ويقوم بمهام الوزير اليوم . ويليه فى الرتبة مستوفى الصحبة ومستوفى الدولة، ويشرفان على موظفى الدواوين على اختلافهم . ويلى هؤلاء طبقة من الموظفين ، مثل الشاد والمستوفين والكتاب وغيرهم .

ديوان الإنشاء :

أما ديوان الإنشاء ، فقد كان من أهم اختصاصه تنظيم العلاقات الخارجية للدولة ، وهو أول ماوضع فى الإسلام من الدواوين . ويمكن تقسيم تاريخ هذا الديوان بمصر الإسلامية إلى خمسة أقسام :

أولها : من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠ — ٢٥٤ هـ) . وهنا نلاحظ أن ولاة مصر فى ذلك العصر لم يولوا هذا الديوان ما يستحقه من عناية واهتمام ، إذ لم يصدر عنهم مايدون فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة . ولعل ذلك يرجع إلى أن مصر كانت فى هذا العصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية ، ليس لها نصيب من الاستقلال .

وثانيها : عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية (٢٥٤ — ٣٥٨ هـ) . وفى ذلك العصر نرى تطوراً محسوساً فى نظام هذا الديوان ، لترتيب المكاتبات التى تصدر عنه أو ترد إليه (٣) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ .
Demomdynes : La Syrie, p. L XX IV.

(٢) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٣ .

(٤) راجع عن ديوان الإنشاء فى العصر الطولونى .
Zaki Hassan : Les Tulunides, pp. 279—282.

وثالثها : عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) — وهنا يوجه الفاطميون كل اهتمامهم إلى تنظيم ديوان الإنشاء الذى أصبح يعرف صاحبه باسم « كاتب الدست الشريف » ، وغدا يتولى شئونه جماعة من أكابر الكتاب وأرباب الأقلام ، فينهضون به ويعملون على بلوغه حد الكمال .

ورابعها : عهد الأيوبيين (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) — وقد أسند صلاح الدين ديوان الإنشاء إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) الذى تقلد منصب الوزارة على عهد صلاح الدين الأيوبى وولديه من بعده . وكان آخر من ولى هذا الديوان فى عهد الدول الأيوبية الصاحب فخر الدين ابن لقمان الأسعردى .

وخامسها : عهد دولة المماليك (٦٤٨ — ٩٢٣ هـ) — وفيها تم تنظيم هذا الديوان(١) ، وكان مقره قاعة الصاحب بقلعة الجبل(٢) ، حيث ترد المكاتبات إليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التى بينها وبين مصر علاقات سياسية ، كما كانت تحرر فيه الكتب التى يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء .

وكان صاحب ديوان الإنشاء فى أوائل عهد المماليك يلقب تارة باسم « صاحب الدست الشريف » كما كانت الحال أيام الدولة الفاطمية ، ويعبر عنه تارة باسم « كاتب الدرج » ، وتارة أخرى باسم « كاتب الدست » . وبقى الأمر كذلك إلى أن تقلد هذا الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر فى أيام السطان قلاوون ، فتلقب بلقب « كاتب السر » لأنه كان يكتم سر السلطان(٣) ، وكانت وظيفته من أعظم الوظائف الديوانية وأجلها قدراً ، ومن أعظم معاونيه « نائب كاتب السر » . ويليه فى المرتبة « كتاب الدست »(٤) المتصلون بديوان الإنشاء ، وكانو يجلسون

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥ — ٠٩٧

(٢) المقريزى . الخطط ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٣) الخالدى : المقصد ص ١٣ .

(٤) سموا كذلك إضافة إلى دست السلطان ، وهو مرتبة جلوسه ، لجلوسهم للكتابة بين يديه . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ١٣٩ .

مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى أيام المواكب ويطلق عليهم اسم الموقعين (١) . وهناك نوع آخر من الكتاب ، مهمتهم الاطلاع على الملاحظات التى يبديها كاتب السر أوكتاب الدست أونائب السلطنة أوالوزير على المكاتبات والمراسيم والمنشورات والرد عليها وفق ما جاء بهذه الملاحظات التى تعتبر أساساً لهذه الإجابة.

البريد :

وكان البريد إدارة تابعة لديوان الإنشاء ، وكان له أهمية كبرى ، لأنه كان واسطة الاتصال بين الدولة المملوكية فى مصر وبين نياباتها فى الشام وغيرها من الأقاليم ، ولم يقتصر المماليك على البريد العادى فى إرسال الرسائل ، بل استخدموا « حمام الزاجل » .

كانت القلعة مركز أبراج حمام الزاجل . كما كان له مراكز معينة فى جهات مختلفة كمراكز البريد البرى ، وخصص لكل محطة عدد من الحمام ، يعنى بشئونه موظفون إحصائيون . وفى كل محطة منها برج أو أكثر يحفظ فيه الحمام ، الذى يستخدم فى حمل الرسائل إلى المحطة التالية . وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام ، فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة ، ويكتفى فيها بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة موجزة ، كصيغ البرقيات فى وقتنا هذا ، كما كان يراعى فى استعمال الورق الذى يربط إلى جناح الطائر أن يكون رقيقا ، حتى لاينوء بحمله ، أو يكون سبباً فى تقليل سرعته. ولزيادة الاطمئنان والثقة ، كانت الرسالة تكتب من صورتين ، ترسلان مع حمامتين ، تطلق إحداهما بعد إطلاق الأخرى بساعتين ،حتى إذا تأخر أحد الطائرين ووصل الآخر أخذت البطاقة من تحت جناحه وترك حتى يعثر على رفيقه .

وقد عنى المماليك عناية شديدة بالرسائل التى يحملها الحمام ، حتى إن السلطان كان يأمر بإدخاله عليه حال وصوله ، وقد بلغ من شدة عنايته به ، أنه كان يترك طعامه أو يستيقظ من نومه فى الحال ، عند وصول رسائل الحمام (٢) .

---

(١) كان هؤلاء يتولون الإشراف على ديوان الإنشاء قبل أن يستحدث السلطان قلاوون وظيفة كاتب السر ، وكانوا يختارون من أعلام البيان وأفذاذ الكتاب ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ، حيث تجد تفصيلات عن « البريد فى عصر المماليك » .

(ب) كبار الموظفين الإداريين

وكانت أهم المناصب الإدارية فى ذلك الوقت هى : نائب السلطنة ، والأتابك ، والوزير ، وولاة القاهرة ، وولاة الأقاليم .

نائب السلطنة :

أما نيابة السلطنة ، فهى وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها بيبرس مع ما أحيا من الوظائف الأيوبية ، وكان نائب السلطنة فى ذلك العهد ـ كما يقول القلقشندى ـ « سلطانا مختصراً ، بل هو السلطان الثانى » (١) . فقد كان يشترك مع السلطان فى منح لقب الإمارة ، وتوزيع الإقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفا بأسماء الأشخاص الذين كان يرى فى ترشيحهم لهذه المناصب فيقره ؛ ولا يرفض تعيين أحد المرشحين إلا فى القليل النادر ومن أعمال النائب : توقيع المراسم والمنشورات وتنفيذ القوانين ، والركوب على رأس فرق الجيش فى المواكب الرسمية يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان (٢) . ولم يكن هذا كل ما يتمتع به نائب السلطنة من نفوذ ، بل كان سائر نواب الشام يكاتبونه فى مهام الأمور المتعلقة بنياباتهم (٣) ويجتمع ديوان الجيش برياسته (٤) . وكان نائب السلطنة يلقب « كافل المملكة الشريفة الإسلامية » ، لأنه كان يتكفل بتصريف أمور الدولة العامة ، سواء أكان السلطان فى القاهرة أم كان متغيبا عنها (٥) .

وهناك نوع آخر من النيابة هو « نيابة الغيبة » ويقوم فيها النائب بمهام الدولة إذا خرج السلطان للصيد أو سار على رأس الجيش فى حرب خارجية (٦) .

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ ، ٢٧ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٧ .
Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 29.

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ١٦ . المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٤ .

(٥) Van Berchem : Corpus, p. 216

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠

الاتابك :

أما الأتابك فهو القائد العام لجيوش الدولة ، وأتابك لفظ تركى مركب من كلمة « أطا » بمعنى أب ، وكلمة « بك » بمعنى السيد أو الأمير ، فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير الأب أى أب الأمراء(١) ، وقد أطلق هذا اللقب فى عهد المماليك على مقدم العساكر أو القائد لأنه يعتبر أبا العساكر والأمراء جميعاً . ويلى الأتابك فى المرتبة نائب السلطان ، غير أن الأتابك لم تكن له وظيفة ، وكثيرا ما اغتصب الأتابكة عروش أبناء سادتهم على نحو ما بيننا .

الوزير :

واتخذ سلاطين الأيوبيين فى مصر وزراء لم تعد سلطتهم سلطة وزراء التنفيذ ، بمعنى أن هؤلاء السلاطين قد عملوا على الحد من نفوذهم باستحداث نظام نيابة السلطنة ، فأصبح النائب تبعاً لهذا النظام يلى السلطان فى المرتبة ، ويتمتع بكل ما كان يتمتع به الوزير من قبل ، على أن سلطة الوزير فى عهد الأيوبيين — رغم هذا — لم تضعف إلى حد كبير ، بدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أمثال العمرى والقلقشندى والمقريزى . فالوزارة فى نظرهم : أعلى الوظائف وأسناها بعد السلطنة ، وصاحبها هو باب الملك المقصود ولسانه الناطق ويده الباسطة »(٢) ، كما أنها « أجل الوظائف وأرفعها رتبة فى الحقيقة »(٣) و « أجل رتب أرباب الأقلام لأن متوليها ثانى السلطان إذا أنصف وعرف حقه »(٤) .

وقد تطور نظام الوزارة فى مصر فى عهد المماليك ، فإن وزراء هذا العصر لم يتمتعوا بنفوذ مطلق ، لاستمرار نظام نيابة السلطنة الذى استحدثه الأيوبيون فى مصر وسار عليه المماليك ، ولأن الذين شغلوا هذا المنصب الأخير احتفظوا بسلطانه وكانوا ذوى شخصيات عظيمة . وقد ذكر العمرى « أن الوزارة تضاءلت وتأخرت

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص١٨ . الخالدى : المقصد ص ١٣٢
(٢) العمرى : مسالك الأبصار (مخطوط) ج ٥ ص ٣٤٩ .
(٣) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٨
(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ .

بسبب ذلك ، وقعد بها مكانها حتى صار المتحدث فيها كناظر المال لايتعدى الحديث فيه ولا يتسع له فى التصرف مجال ، ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لتطلع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال » (١) .

على أن الحد من سلطة الوزير لم يجعله كمية مهملة ، فقد حرص الظاهر بيبرس على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف (٢) ، فإذا كان الوزير من أرباب الأقلام أطلق عليه اسم « الصاحب » ، ثم أضيف إلى هذا اللقب لقب آخر هو « الوزير » وغدا يطلق عليه « الصاحب الوزير » (٣) أو « وزير الصحبة » ، وهو وزير متنقل يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شئون الوزارة ، وإذا كان الوزير من أرباب السيوف اكتفى بتلقيبه بالوزير دون الصاحب ، وهو بهذا الاعتبار الوزير الأصلى الذى يحضر مجلس السلطان مع أمراء المئين ويتصرف فى جميع أمور المملكة .

وقد أضعف السلطان الناصر نفوذ وزرائه ، حتى إن اختصاصهم لم يعد تنفيذ أوامر السلطان والنائب والنظر فى أمور الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة الذى يشبه وزير المالية اليوم ، بعد أن كان الوزير فى عهد الفاطميين والأيوبيين يعاون الخليفة أو السلطان فى إدارة شئون الدولة .

يقول ابن خلدون عن مركز الوزير فى عهد المماليك : « ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر ، فرأوا الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ، ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرءوسة ناقصة ، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة من اسم الوزارة ، وصار صاحب الأحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد ، وبقى اسم الحاجب فى مدلوله ، واختص الوزير عندهم بالنظر فى الجباية » (٤) .

لذلك لم يتمتع معظم وزراء هذا العهد بقسط وافر من النفوذ . ولكن لم يكن

(١) العمرى : مسالك الأبصار (مخطوط) جـ ٥ ص ٤٣٩ .
(٢) عن أرباب الأقلام والسيوف ، راجع :
Van Berchem : Corpus, Egypte, I. p. 233
(٣) علل الخالدى (المقصد ص ١٢٦) سبب تلقيب الوزراء بهذا اللقب بقوله إن « الوزير صاحب رأى الملك وتدبيره أمره » .
(٤) مقدمة ص ٢٠٨ .

ذلك حال جميع وزراء عصر المماليك، فقد تولى الوزارة أحياناً رجال عرفوا بالكفاية وحسن تصريف الأمور ، ومن أشهر هؤلاء الوزراء : بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا ، وعلم الدين سنجر الشجاعى ، وشمس الدين محمد عثمان المعروف بابن السلعوس ، وشمس الدين سنقر الأعسر . وعز الدين أيبك البغدادى ، وسيف الدين بكتمر ، وسيف الدين منجك (١) .

وكان الوزير يتناول راتباً شهرياً قدره مائتان وخمسون ديناراً ، عدا ماخصص له فى كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز والشمع والزيت وعليق دوابه ، ومقادير وفيرة من اللحم ترسل إلى داره فى شهر رمضان والعيدين، والكسوة التى تخلع عليه فى كل سنة .

وفى سنة ٧٢٧ هـ ألغى السلطان الناصر محمد كلا من منصبى الوزارة ونيابة السلطنة فى وقت واحد ، ومن ثم لم يتخذ الناصر وزيراً ، بل اعتمد على « ناظر الدولة » ، ثم استحدث وظيفة « ناظر الخاص » ليستعين به على إدارة شئون البلاد . ومنذ ذلك التاريخ ، ونظام الوزارة يمر بأدوار يكتنفها التقلقل والاضطراب ، إذ سرعان ما كانت توأد عقب إحيائها ، ثم لا تلبث أن تعود حتى تموت .

وفى عهد السلطان برقوق أول سلاطين دولة المماليك البرجية ألغيت الوزارة وتناوبتها الإعادة تارة والإلغاء أخرى واضمحل شأنها وضعف نفوذ شاغلها وتقاصرت حتى لم يبق منها إلا الإسم دون الرسم .

والى القاهرة :

استلزمت شؤون الإدارة والحكم تعيين موظف كبير ، عرف باسم « والى القاهرة » ، وهو يعد فى الواقع من أهم الموظفين الإداريين : فهو الذى ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ، ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر ، ويعاقب كلا من هؤلاء على حسب جريمته . ومن اختصاصه أيضاً مراقبة أبواب القاهرة ، والطواف

---

(١) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ، حيث تجد تراجم حياة هؤلاء الوزراء ومدى نفوذ كل منهم

بأحياء التجارة والمال[١]، وكان يطلق عليه أحياناً « صاحب العسس »[٢] أو « والى الطوف » .

ويعمل بجانب والى القاهرة ، الذى اقتصر نفوذه على العاصمة وضواحيها ، عدة ولاة آخرين ، لكل منهم عمل خاص به ، وأهمهم : والى الفسطاط ويحكم بمصر (أى الفسطاط والعسكر والقطائع) ، ووالى القرافة ومقره القاهرة ويشرف على إدارة الأمن فى جهات القرافة ويحكم نيابة عن والى الفسطاط ، ومن هؤلاء الولاة : والى القلعة أو نائب القلعة ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير المخصص لخروج الجند ودخولهم ، كما يتفقد أسوار القلعة ونوافذها ويعمل على إصلاحها ، ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات[٣].

ولاة الأقاليم :

وهؤلاء الموظفون الذين سبقت الإشارة إليهم يمثلون الإدارة المركزية فى القاهرة وضواحيها ، أما فى الأقاليم فكانت الإدارة المحلية ممثلة فى الوالى ، إذ كان يشرف على كل عمل من أعمال الوجهين البحرى والقبلى فئة من الموظفين وعلى رأسهم والى الإقليم ، الذى كانت مهمته العمل استتباب الأمن والنظام والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم .

وكان تقسيم الوجه البحرى إداريا فى أوائل عصر المماليك جاريا على النحو الذى تم فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى) حيث كان مقسما إلى إثنين وعشرين إقليما . وفى سنة ٨١٥ هـ (١٣١٥ م) مسحت أرض مصر فى عهد الناصر محمد ، وعرف ذلك باسم « الروك الناصرى » ، وأصبح عدد الأقاليم الإدارية بالوجه البحرى وفق هذا التقسيم إثنى عشر إقليما هى :

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢٨ .

(٢) العسس : الطواف بالليل ، لتتبع أهل الريب .

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ٧ .

أسماء الأقاليم	العواصم	أسماء الأقاليم	العواصم
ضواحي مصر	القاهرة	المنوفية	منوف العلا
القليوبية	قليوب	إبيار وجزيرة بنى نصر	إبيار
الشرقية	بلبيس	البحيره	دمنهور
الدقهلية والمزاحمية	أشمون طناح	فوة والمزاحميتين	فوة
دمياط	دمياط	النستراوية	نستراوة
الغربية	المحلة الكبرى	الأسكندرية	أسكندرية

وقد وردت أقسام الوجه القبلى فى كتاب « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» على النحو الآتى :

أسماء الأقاليم	العاصمة	أسماء الأقاليم	العاصمة
الجيزة	الجيزة	الإطفيحية	إطفيح
الفيوم	الفيوم	البهنساوية	البهنسا
الأشمونين	الأشمونين	الأسيوطية	أسيوط
الأخميمية	أخميم	القوصية	قوص

البيوت السلطانية ومديروها :

كانت قلعة الجبل تشمل أيضاً على خزانة السلطان ومطابخه واصطبلاته ، وكان القصر السلطانى منظماً تنظيماً دقيقاً . فقد كان يحوى عدة بيوت (خانات أو إدارات) ، لكل منها مهمة خاصة بها ، ويقوم بإدارتها موظفون معينون .

ومن أهم تلك الإدارات : الحوائج خاناه أو بيت الحوائج ، وفيها كانت تحفظ جميع الحاجيات اللازمة للمطبخ السلطانى كاللحوم والخضروات والتوابل والوقود والزيوت ، وكانت تعرف فى عهد الفاطميين باسم « خزانة الطعم » .

وتحفظ فى الشراب خانات أصناف السكر والفواكه والشراب والحلوى والبلح والمياة المفيدة والأوانى النفيسة التى تقدم فيها هذه الألوان ، وعرفت باسم « خزانة الشراب » فى عهد الفاطميين .

أما جميع مايخص السلطان من ثياب وجواهر وسيوف ، فكان يحفظ فى « الطست خاناه » ، وعرفت فى عهد الفاطميين باسم « خزانة الكسوة » .

وتشمل « الفراش خاناه » على أنواع المفروشات من البسط والخيام ، وقد أخذ سلاطين مصر هذا النظام عن العباسيين والفاطميين ، وكان يطلق على تلك الإدارة فى عهد الفاطميين « خزانة الفراش » .

وينزل السفراء والعربان الذين يفدون على السلطان فى « دار الضيافة » ، كل منهم فى المكان اللائق بمركزه .

وكذلك أفرد مكان خاص لحفظ الطبول والأبواق وما يتبعها من الآلات ، أطلق عليه اسم «الطبلخانة» ، وهى كلمة فارسية يقصد بها فرقة الموسيقى السلطانية ، ولم يسمح بتكوين فرقة موسيقية غير الفرقة السلطانية إلا للأمراء البارزين ، وهم الذين كان يطلق عليهم أمراء الطبلخاناة .

وكان للاصطبلات السلطانية إدارة خاصة عرفت باسم «الركاب خاناه» يحفظ فيها عدد الخيل من السروج واللحم وغيرها ، وكانت هذه الدار من أهم البيوت السلطانية لأن عدد الإصطبلات التابعة لها كان وفيراً .

وكان على رأس كل من هذه البيوت موظف كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين لكل منهم اختصاص محدود ، وقد استحدث سلاطين المماليك ، وخاصة بيبرس وقلاوون والناصر محمد ، بعض هذه الوظائف واقتبسوها من نظام البلاط عند العباسيين فى بغداد وعند الفاطميين والأيوبيين فى مصر .

وكان يتولى وظائف البلاط والحاشية فى القصر السلطانى طبقة خاصة من الأمراء ، ولم يكن للشعب سوى نصيب ضئيل فيها ، كذلك لم يكن للنساء حق فى الوظائف ولم يشغلنها . وكانت للأمراء أصحاب الوظائف الرئيسية أشعرة خاصة تعرف باسم « الرنوك » وهى كلمة فارسية الأصل ، مفردها « رنك » ، بمعنى لون ، استعملت فى العصور الوسطى للدلالة على الأشعرة .

وكان أكبر موظفى القصر السلطانى موظف يعرف باسم «الأستادار» ويشرف

على البيوت السلطانية من الحوائج خاناه والشراب خاناه والطست خاناه والفراش خاناه ورجال الحاشية .

ويتولى « الخازندار » الإشراف على حفظ ما يأمر الأستادار بجلبه إلى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى والصرف منه على قدر حاجة تلك البيوت ، فهو بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانية .

ويرأس الحوائج خاناه موظف معروف باسم « أستادار الصحبة» ،وهو يشرف على المطبخ السلطانى وموظفيه .

ويقوم « الجاشنكير » بذوق الطعام قبل تقديمه للسلطان ، ومهمته الإشراف على إعداد الأسمطة مع أستادار الصحبة .

ولكل بيت من البيوت السلطانية « مهتار » يرأس طائفة غلمان (خدم) البيت الذى يعمل فيه ، فيقال مهتار الشراب خاناه ومهتار الطست خاناه ومهتار الفراش خاناه .

ويتولى « أمير علم » أمر الأعلام فى الطبلخاناه السلطانية ، ويقوم «المهمندار» باستقبال السفراء والعرباز الذين يفدون على السلطان ، ويدير الإصطبلات السلطانية موظف يسمى «أمير آخور» ووظيفته من الوظائف الكبرى فى القصر السلطانى (١).

أمير جاندار والحاجب والدوادار :

ووجد فى ذلك العصر كثير من الوظائف الهامة مثل : « أمير جاندار » و «الحاجب» و « الدواذار » .

ويتولى أمير جاندار (٢) إدخال الناس على السلطان وهو جالس بالإيوان بقلعة

---

(١) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ، حيث تجد تفصيلا لما ذكرناه عن مديرى البيوت السلطانية .

(٢) أمير جاندار : اسم يتركب من ثلاث كلمات : إحداها عربى وهو أمير ، والثانية جان ومعناها بالفارسية والتركية الروح ، والثالثة دار ومعناها ممسك . فيكون المعنى المقصود من أمير جاندار : الأمير الممسك للروح . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦١ .

الجبل . أما الحاجب(١) فكان يقوم بهذه المهمة إذا جلس السلطان فى قصره بالقلعة، على أن يراعى مقام هؤلاء الناس وأهمية أعمالهم . وعلى الرغم من أن هذه الوظيفة كانت معروفة فى مصر فى العصر الطولونى وزمن الدولة الفاطمية ، وأن صاحبها أطلق عليه فى عهدها « صاحب الباب » ثم عرفت من بعدهم فى عهد الدولة الأيوبية فإن أهميتها عظمت فى عصر المماليك .

أما « الدوادار » فيتولى أمر تبليغ الرسائل إلى السلطان ويقوم بتقديم المنشورات إليه للتوقيع عليها .

***

وقد تطلب اختيار موظفى البلاط السلطانى ، الذين كان يعهد إليهم بأمر إدارة البيوت أو الإدارات السلطانية العديدة ، كياسة ومرونة من جانب السلطان ، لأنه كان ملزماً بأن يعمل على إرضاء أتباعه الكثيرين . لذلك اتبع سياسة الإكثار من عدد الموظفين فى القصر . فأدى ذلك إلى تخفيف حدة الأحقاد فى نفوس كبار المماليك على السلطة والنفوذ ، وإلى اكساب بلاط السلاطين رونقا وبهاء وعظمة أكثر مما كانت عليه الحال قبل وصول المماليك إلى عرش السلطنة .

وكانت اختصاصات بعض الموظفين مشتركة : كما كان يحدث بين القاضى ووالى القاهرة والمحتسب ، كذلك كانت سلطة الوظائف تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها ، فقد كان يقوى نفوذ بعض الموظفين وتظهر مواهبهم ، فيطغون على اختصاص غيرهم ، كما أن السلطان كان يعمل على إلغاء بعض الوظائف إذا لم يرض عن أصحابها ويعمد إلى إنشاء وظائف أخرى إذا أثبت أصحاب الوظائف الملغاة عجزاً عن القيام بأعبائها من جهة واستقلالا فى الرأى من جهة أخرى ، كما حدث حين ألغى الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ منصبى الوزارة ونيابة السلطة واستعاض عنها بوظيفة ناظر الخاص .

---

(١) كان من اختصاصات الحاجب إذ ذاك القضاء بين الأمراء والجند إما بنفسه أو بعد استشارة السلطان أو النائب ، كما كان يفصل فى خصومات الجند الخاصة بالإقطاعات . وكان الحاجب يقف أحيانا بين يدى السلطان فى المواكب ليبلغه رغبات رعيته ، كما كان يركب أمامه وهو يحمل عصا فى يده وينظر فى المظالم .
Van Berchem : Corpus, Egypte, I. p. 46.

ومثل هذا الاضطراب فى الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب فى بيئة لم تكن النظم الإدارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين مستقرة تمام الاستقرار . وبفضل ماجاء فى المصادر العربية ، وما ورد فى الكتابات التاريخية(١) أمكن تعرف الألقاب الكثيرة التى تشهد بتعدد الوظائف الإدارية فى مصر فى عصر المماليك وجنسية الأشخاص الذين كان يختار منهم موظفو الدواوين كديوان الإنشاء والخاص والأحباس والنظر ، كما أمكن تعرف قواعد الترقى والتأديب بين الموظفين .

٣ — النظام القضائى

اصدار الاحكام وفق المذهب السنى :

لما زالت الدولة الفاطمية وتأسست الدولة الأيوبية ، افتتح صلاح الدين فى سنة ٥٦٤ هـ مدرستين لتعليم الفقه : إحداهما لمذهب الإمام الشافعى ، والأخرى لمذهب الإمام مالك ، وصرف جميع القضاة الشيعيين ، وعين بدلهم قضاة من الشافعية السنيين الذين كان يتبع مذهبهم ، وبذلك اقتصر القضاة على مذهب الشافعى ، ولما كان قاضيه صدر الدين بن درباس شافعى المذهب ، فإنه لم ينب عنه فى أقاليم مصر إلا من كان شافعى المذهب مثله ، ومن ثم انتشر المذهب الشافعى فى مصر وما يتبعها من الأقاليم . وكان يتولى منصب القضاء فى عهد الأيوبيين فى القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية قاض واحد له حق إنابة نواب عنه فى بعض الأقاليم . وأحياناً كان يعين قاض للقاهرة والوجه البحرى(٢).

بقى الأمر كذلك فى مصر فى عهد الأيوبيين وطرفا من عهد المماليك . ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يشأ أن ينفرد قاضى قضاة الشافعية ، وهو تاج الدين ابن بنت الأعز ، بوظيفة القضاء فى مصر كلها ، بل أشرك معه القاضى برهان الدين السنجارى . واختص الأول بقضاء القاهرة والوجه البحرى ، وانفرد الثانى بالنظر

---

(١) Van Berchem ; Corpus, Egypte I. pp. 227—228.
Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 37.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ٢ ص ١٩١ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٣٢١ .

فى قضاء الفسطاط والوجه القبلى ، على نحو ماكان متبعاً فى عهد الأيوبيين . على أن السنجارى لم يلبث أن عزل ، وانفرد ابن بنت الأعز بقضاء مصر ، وقد عرفنا هذا القاضى بالتشدد فى أحكامه ، حتى إن السلطان أمره أن ينيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، للفصل فى بعض القضايا ، ولم يكن ذلك معروفا فى مصر من قبل(١) .

تقسيم القضاة بين قضاة المذاهب الأربعة :

وما زال بيبرس يتعهد النظام القضائى بالإصلاح والتعديل ، ورأى فى تقسيم مناصب القضاء بين قضاة المذاهب الأربعة مايضمن العدالة بين الناس والتيسير عليهم . وفى سنة ٦٦٣ هـ ، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وكتب لكل منهم تقليداً ، وأجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم فى أنحاء الديار المصريه(٢) .

وقد امتد اختصاص قاضى القضاة وقضاة الأقاليم وزاد نفوذهم : فتناول النظر فى الدعاوى التى تتضمن إثبات الحقوق ، والحكم بإيصالها إلى أربابها والأموال التى ليس لها ولى معين ، كما تناول تعيين أوصياء لليتامى ، وتفقد أحوال المحجور عليهم من المجانين والمفلسين وأهل السفه ، والنظر فى وصايا المسلمين(٣) .

كذلك كان القضاة ينظرون فى مصالح الأوقاف بحفظ أصولها ، وتثبيت فروعها ، وقبض ريعها وصرفه فى مصاريفه ، وقبض المال الموصى به لتنفيذ الوصية ، كما عهد إليهم تسلم أموال المواريث المتنازع عليها ، وأموال من يموتون غرباء ، وحفظها حتى يحضر ورثتهم ، وكان القضاة يقومون أحياناً بمهام أخرى زيادة على ماكانوا يضطلعون به من شئون القضاء . فقد تولى القاضى تقى الدين ابن بنت الأعز الوزارة بجانب القضاء . ولما صرف عن الوزارة بقى فى يده سبعة عشر منصباً من أهمها : قضاء القضاة بالديار المصرية ، وخطابة الجامع الأزهر ، ونظر الخزانة ، ونظر الأحباس ، ومشيخة الشيوخ ، والتدريس فى عدة مدارس .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٢١ . المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٤٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٣٥ ــ ٣٦ . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٦ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٩ عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ص ١١٢ ــ ١١٣ .

غير أن سلطة هؤلاء القضاة الأربعة ونوابهم كانت مقصورة على المدنيين، أما الجيش المملوكي، فكان له ثلاثة قضاة اختصوا بشئون العسكر، وكان كل منهم يعرف باسم « قاضي العسكر » وكانوا يفصلون في القضايا الخاصة بالعسكر والمدنيين(١) .

ويلي قضاة العسكر في الأهمية مفتو دار العدل، وهم أربعة يمثلون المذاهب الأربعة، وكانوا لا يفصلون في خصومات المدنيين والعسكريين، بل كانوا يبينون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل، كل على حسب مذهبه(٢) .

وكانت جلسات المحاكم في دولة المماليك تعقد علانية، ويحضرها من شاء من الناس . وكانت تنعقد في المساجد، وأحياناً في دور القضاة الخاصة، إذ لم يكن هناك دور معينة للمحاكم . وإذا جلس القاضي للفصل في الخصومات، رتب القضايا بحسب حضور الخصوم، حتى لا يتقدم على الآخر، لسمو منزلته أو علو مقامه أو ثرائه، وكان الرجال يجلسون في ناحية والنساء في ناحية أخرى .

أعوان القاضي :

وإذا جلس القاضي للحكم، استعان على تنظيم قاعة الجلسة بعدد من الموظفين، منهم : « الجلواز » ، ومهمته حفظ النظام، وترتيب الخصوم وفق ترتيب حضورهم، ومنعهم من التقدم للقاضي في غير دورهم، ومراعاة الآداب في مجلس القضاء . وكان للقاضي موظفون يعرفون باسم « الأعوان » ، مهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة والقيام بين يدي القاضي عند نظره في الخصومات، إجلالا لمركزه(٣) ويقوم بحفظ أموال اليتامى والغائبين جماعة يعرفون باسم « الأمناء »(٤) . ومن أعوان القاضي « العدول » ومهمتهم القيام بالشهادة فيما لهم وما عليهم، ومراعاة دقة عبارات السجلات والعقود ومطابقتها للشرع، وتزكية الشهود(٥). قال ابن خلدون : «العدالة

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ س ٣٦ . انظر أيضاً .
Demombynes : La Syrie. pp LXXVII.

(٢) القلقشندي : نفس المصدر والجزء س ٣٦ .

(٣) عرنوس : تاريخ القضاء س ١١٨ — ١١٩ .

(٤) تاج الدين السبكي : معيد النعم س ٨٧ .

(٥) عرنوس : نفس المصدر س ٣١ — ١٣٤ .

وظيفة دينية تابعة للقضاء ، ومن مواد تصريفه . وحقيقة هذه الوظيفة : القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس ، فيما لهم وعليهم ، تحملا عند الإشهاد ، وأداء عند التنازع ، وكتبا فى السجلات ، تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود، من جهة عباراتها وانتظام أصولها ،ومن جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها » .

وفى عهد المماليك بلغ راتب القاضى خمسين ديناراً ، عدا ماكان يحصل عليه من الأوقاف التى كان يتولى إدارتها ، وما يجرى عليه من الغلال والشعير والخبز واللحم والكساء (١) .

والخلاصة أنه كان فى مصر فى دولة المماليك نظام قضائى ممتاز ، وكان فيها قضاة عرفوا بحسن السيرة وطهارة الذمة ، يحترمون مركزهم القضائى ، ولا يقبلون تدخل أحد فى أعمالهم مهما علا مركزه . وكثيرا ماكانوا يرفعون استقالتهم من مناصبهم إذا هددوا فى كرامتهم ، أو اعتدى أحد على استقلالهم ، كما أنهم كانوا لايقبلون الرشوة ولا الهدية ، ولذلك كان لهؤلاء القضاة مقام كريم فى الدولة المصرية وفى نظر السلاطين والأمراء وجميع طبقات الشعب. وأحسن الأمثلة للتدليل على مانقول القاضى عبدالعزيز المعروف بعز الدين بن عبدالسلام (سلطان العلماء) ، والقاضى تقى الدين عبدالرحمن الشافعى ابن بنت الأعز ، والقاضى تقى الدين محمد بن دقيق العيد (٢) .

المحتسب وصاحب المظالم :

وبجانب هذه السلطة القضائية الممثلة فى قضاء القاهرة والأقاليم ، توجد سلطة أخرى للمحتسب ، وظل نظام الحسبة فى سلطنة المماليك على ماكان عليه فى عهد الفاطميين والأيوبيين .

وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من تولى النظر فى المظالم من سلاطين المماليك، وهو الذى أقام لذلك (سنة ٦٦١هـ) دار العدل . وكان يجلس بها الفصل فى القضايا

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ، الباب الخامس « بالقضاء والمظالم والحسبة » ، حيث تجد تراجم هؤلاء القضاة .

فى يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع ، يحيط به قضاة المذاهب الأربعة وكبار موظفيه الإداريين والماليين وكاتب السر . وظلت دار العدل مقراً لمحكمة المظالم التى كانت تعقد برياسة السلطان حتى جاء السلطان قلاوون سنة ٦٧٩ هـ وبنى «الإيوان» واتخذه مقراً لهذه المحكمة .

ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة . فقد عرضت على السلطان بيبرس فى سنة ٦٦٢ هـ قضية رجل من علية القوم ، شكا من أن بستانه قد اغتصب منه فى عهد السلطان أيبك وأخرج كتابا من ديوان الجيش يثبت صدق روايته ، فأمر بيبرس برد البستان إليه . وفى سنة ٦٦٣ هـ ارتفعت أثمان الغلال ، وندر وجود الخبز ، فذهب السلطان بيبرس إلى دار العدل وأمر بتخفيض أسعار الغلال [١] .

وإذا أصدر القاضى أو صاحب المظالم أو المحتسب حكمه فى قضية من القضايا ، نفذ هذا الحكم . فإذا قضى الحكم بالحبس ، سيق المحكوم عليه إلى أحد السجون ، ومنها « خزانة شمايل » التى كانت تعد أسوأ سجون القاهرة ، ويحبس فيها من حكم عليه بالقتل من أصحاب الجرائم وقطاع الطريق والمماليك المناوئين لحكم السلطان . ومن السجون التى عرفت فى ذلك الوقت « سجن الجب » بقلعة الجبل ، وكانت عبارة عن بئر مظلمة كثيرة الوطاويط كريهة الرائحة يقاسى فيها المسجون كل أنواع العذاب وضروب الشقاء [٢] .

ولم يقتصر العقاب على الحبس ، بل كانت هناك عدة طرق لتعذيبهم ، من بينها المعاصير والضرب بالمقارع [٣] . وهناك أيضا طريقة للتشهير ، وكان من يؤمر به ليشهر ويطوف ، يمد أولا على لوح من الخشب ، تسمر فيه رجلاه وذراعاه ، ثم ربط اللوح على ظهر جمل أو حمار ، ثم يطاف به فى طرق المدينة [٤] . ولم يكن ذلك يتبع إلا مع من عظمت جرائمهم واشتد خطرهم .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٥ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٨٨ .
Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 294.
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٠ ، ١٥٠ .
(٤) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ ص ٦٤ — ٦٥ .

٤ – النظام الحربى

الجيش :

إذا عرفنا أن حياة الأيوبيين كانت كلها حلقات متتابعة من النضال العنيف والقتال المستمر ، أدركنا مقدار اعتمادهم على الجيش وعنايتهم بأمره ، حتى إنهم كانوا ينفقون معظم إيرادات الدولة على إصلاح حاله وبناء مايلزمه من الحصون والقلاع ، وتمكن الجيش من أن يلعب دوراً خطيراً فى تاريخ الإسلام .

وتألف معظم الجيش من الترك والأكراد ، وهناك مجلس حرب اعتاد السلطان أن يستشيره فى الخطط التى يجب أن تتبع ، واعتاد السلطان أن يخضع لرأى المجلس مهما كان . وقسم الجيش إلى عدة فرق ، تنسب كل منها إلى أحد القواد العظام : فيقال «الأسدية» نسبة إلى أسد الدين شيركوه ، والصلاحية نسبة إلى صلاح الدين. وكان لأمراء هذه الفرق نفوذ كبير ، حتى إن أزكش مقدم الأسدية (قائدها) صار وصيا على الملك المنصور أثناء الفترة الأولى من حكمه .

وتكون الجيش الأيوبى من الفرسان والمشاة ، واستعمل فى قتاله السهام والرماح والنبال والنار اليونانية . وكانت مصر تعتمد على أسطول قوى ، رابط فى البحر الأحمر وفى شرق البحر الأبيض ، واستطاع هذا الأسطول أن ينتصر فى عدة معارك هامة .

واقتنى السلطان الصالح أيوب عددا كبيراً من المماليك ، معظمهم من الأتراك ، واستكثر من شرائهم ، وبنى لهم بجزيرة الروضة قلعة ، جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية والأقوات . وأسكنهم فيها وعرفوا منذ ذلك الوقت باسم « المماليك البحرية » وهم الفئة التى نمت قوتها وزادت سطوتها واغتصبت الملك من الأيوبيين، وأسست دولة المماليك البحرية فى مصر .

ووجه السلطان الظاهر بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى ، يكون عدته وقت الحروب ، فاستكثر من شراء المماليك وعنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية ، لمحاربة

أعدائه من الصليبيين والمغول ، وعين لـكل طائفة منهم فقيها يعلمهم القرآن ومبادئ القراءة والـكتابة ، حتى يصلوا إلى سن البلوغ ، ثم يمرنون بعد ذلك على الأعمال الحربية ، فإذا ما أتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان .

ولما ولى السلطان قلاوون (٦٧٩هـ = ١٢٨٠ م) ، زادت عنايته بشئون المماليك ، حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه فى كل يوم ، ولم يسمح لهم بمغادرة قلعة الجبل ليلا أو نهارا ، إلى أن ولى خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩هـ = ١٢٩٠م) فسمح لهم بالخروج نهارا ومنعهم من المبيت خارجها ، ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد ، الطباق(١) بساحة الإيوان بقلعة الجبل ، وجعلها مقرا للمماليك السلطانية ، وسمح لسائر المماليك بالخروج إلى الحمام مرة فى الأسبوع ، على أن يعودوا إلى القلعة فى آخر النهار .

وكان جيش المماليك يتكون عادة من المماليك السلطانية وجنود الحلقة ، ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لاتتجاوزها إلى غيرها : فالمماليك السلطانية ، هم مماليك السلطان ، وتنفق عليهم الخاصة السلطانية ، وهؤلاء هم حرس السلطان ، وكانوا ذوى ثروة كبيرة ونفوذ عظيم ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ، فهناك أمير خمسة وأمير عشرة وأمير أربعين وأمير مئين .

أما أمير خمسة فيكون فى خدمته خمسة مماليك ، وأمير عشرة يكون عدته عشرة مماليك . ويطلق على أمير أربعين أمير طبلخاناه لحقه فى دق الطبول على باب قصره كما يفعل السلطان . وهذه الطبقة من الأمراء لا ضابط لعدد أمرائها فقد يتفاوت عدد من يكون فى خدمة كل أمير منهم بين أربعين وثمانين مملوكا ، وأمير مائة يكون فى حوزته مائة مملوك وهو فى الوقت نفسه مقدم فى الحروب على ألف جندى من أجناد الحلقة ، فيقال أمير مائة مقدم ألف .

أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس ، لاحكم له إلا إذا

(١) شاهد المقريزى طباق القلعة،فقال : وأدركنا بالقلعة البيوت التى كان يقال لها الطباق (الخطط جـ ١ ص ٤٤٣) . وكان عدد طباق المماليك السلطانية إثنتى عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدر حارة ، تشتمل على عدة مساكن ، تسع نحو ألف مملوك . ابن شاهين . زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

خرجوا للقتال ، فيقوم بترتيبهم فى مواقفهم ، وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه .

وتضاف إلى هاتين الطائفتين طائفة ثالثة ، هى مماليك الأمراء ، وينفق عليهم أمراؤهم ، وهؤلاء كانوا يحرسون الأمراء ، ويساعدونهم على أعدائهم (١) .

ولم تكن هناك مرتبات ثابتة لهؤلاء الأمراء والأجناد ، بل أستعيض عن ذلك بإقطاعات كان يمنحها السلطان لهم ، وكان المقطع منهم يحل محل السلطان ، ليتمتع بغلاته وإيراداته ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليه أو بسبب وفاة المقطع . ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشىء الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم ، كما كانت لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت .

أما أساليب المماليك فى الحرب ، فقد كان المعتاد أن يعقد « مجلس الجيش » برياسة السلطان وعضوية أتابك العساكر والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين أميراً . وكان الغرض من عقد هذه المجالس الاستنارة بآراء كبار رجال الدولة قبل الإقدام على حرب من الحروب ، وجعل إعلان الحرب أمراً مشروعا . وهنا يأمر السلطان باستدعاء الجنود من مختلف جهات مصر فيحلفون يمين الطاعة والولاء فى حضرته ، ويتسلمون مايلزمهم من عتاد الحرب من خزانة السلاح التى كان يطلق عليها اسم « السلاح خاناه » ثم يعرضهم السلطان بنفسه وهو مرتد لباس الحرب ، ويعرف ذلك فى مصطلح المماليك الحربى باسم « النفير » (٢) .

وإذا ماعرض السلطان الجند وتفقد أحوالهم وسلاحهم ، عين من كبار قواده قائداً يسير على رأس الحملة الحربية ، وقد جرت العادة أن يتخذ القائد مركزه فى القلب حتى يراه جميع الجند وينفذون أوامره ، وقد يتخذ مركزه فى المقدمة ليثير الحماسة فى نفوس جنده ويلقى الرعب فى قلوب أعدائه .

وكان المماليك يتبعون فى حروبهم طريقة قتال الصفوف ، فيسير الجندى بجانب

---

(١) على ابراهيم حسن : الجيش والبحرية فى عصر المماليك ص ١٤ — ١٦ ، الرسالة الثالثة والخمسون من رسائل الثقافة العسكرية التى تصدرها وزارة الحربية والبحرية ، مارس ١٩٤٤ .

(٢) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢١٠

Demombynes : La Syrie, p. C. III.

صاحبه حتى يكاد يلتصق به ، وتنظم الصفوف كما تنظم صفوف الصلاة ، ويسيرون على هذا النحو ، حتى يصلوا إلى حيث استقر العدو (١) .

وكان الخليفة يصحب الحملات الحربية أحيانا لحث الجند على الجهاد وبث الروح الدينية فى نفوسهم (٢) . واعتمد المماليك على الخيل فى حروبهم ، ولذلك عنوا بأمرها كل العناية (٣) . وصارت الفروسية فى عهد المماليك فنا عظيم الشأن ، أفردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن المخطوطات الأوربية (٤) . وكانت الموسيقى تصحب جيوش المماليك وقت القتال ، وتوزع الفرق الموسيقية فى أنحاء المعسكرات بحيث يكون كل أمير بطبله الخاص . واتخذت الجيوش المملوكية الأعلام فى الحروب شعاراً يلتف حولها الجند ويدافعون عنها .

أما الأسلحة التى كان يستعملها المماليك فى حروبهم ، فمنها : السيف ، والخنجر ، والطبر ، والبلطة ، والفأس ، والقوس ، والسهم ، والمقلاع . والمنجنيق ، والدبابات ذوات العجل ، والضبور ، والكبش ، والقلاع المتحركة ، والنار اليونانية . وكانت هذه الأسلحة على اختلافها تحفظ فى دار أطلق عليها اسم « الزردخاناه » أو « السلاح خاناه » ومعناها بيت السلاح ، ويرأسها أمير من أمراء المئين ويطلق عليه اسم « أمير سلاح » يعاونه جماعة من الموظفين عرفوا باسم « السلاح دارية » ، ويشتغل فيها جماعة من الصناع يختص كل منهم بنوع من أنواع السلاح ، ويطلق على كل منهم اسم « الزردكاش » ومعناها صانع الزرد (٥) .

وقد ظل المماليك محافظين على صبغتهم الحربية ، حتى بعد أن ضعف شأنهم باستيلاء السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧ م .

---

(١) ابن خلدون ص ٢٥٦ .

(٢) المقريزى . المقريزى كتاب السلوك ج ١ ص ٩٢٣ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٣٠ ص ٣٣٦ .

(٤) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ، فى باب الجيش والبحرية ، حيث تجد أسماء هذه الكتب .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ — ٣٢ .

البحرية :

أما البحرية المصرية فى ذلك العصر ، فإنها بلغت شأواً كبيراً من العظمة ، فإنه لما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين يوسف ابن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية ، اهتم بأمر الأسطول اهتماما عظيما ، لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانى الإسلامية ، فخصص له ديواناً كبيراً ،عرف باسم « ديوان الأسطول » وأفرد له ميزانية خاصة ، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل ، وكان معظم أفراد الشعب فى عهد الأيوبيين يكرهون الحروب البحرية ، حتى إن السلاطين كانوا يضطرون لإرغام الناس على الاشتغال فى الأسطول ، إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه (١) .

ولما آلت مصر إلى سلطان المماليك ، عمل السلطان الظاهر بيبرس منذ سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٩ م) على إعداد قوة بحرية يستعين بها فى صد أعدائه الذين كانوا يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فاهتم بأمر الأسطول ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن . كما أمر بإنشاء الشوانى (٢) فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وكان يذهب بنفسه إلى « دار صناعة » بالجزيرة ، ويشرف على تجهيز هذه الشوانى ، واستطاع بذلك أن يعد أسطولا مكوناً من أربعين قطعة حربية ، سيرها إلى جزيرة قبرص ، سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) . ولكن هذا الأسطول تحطم قرب هذه الجزيرة ، فشرع بيبرس فى إنشاء أسطول آخر ، وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده (٣) .

وقد نسج على منوال بيبرس ، فى عنايته بالأسطول ، السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولا مكوناً من ستين مركباً ، جهزها بالآلات الحربية والرجال ، ثم سار إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة ، لعرض الأسطول ، وأقام لذلك

---

(١) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٥٣ .

(٢) الشوانى : هى سفن حربية ، ذات أبراج وقلاع ، للدفاع والهجوم .

(٣) المقريزى . الخطط ج ٢ ص ١٩٤ .

احتفالا كبيراً ، أقبل عليه الناس من كل حدب وصوب ، قبل الاحتفال بثلاثة أيام وبنوا أماكن من الخشب وأخصاصاً من القش على شاطىء النيل وشاطىء جزيرة الروضة ، وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى ، الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة الاحتفال (١) .

وسار السلطان الناصر محمد على منوال بيبرس وخليل من حيث عناية كل منهما بالأسطول ، حتى صار لمصر فى عهده قوة بحرية هائلة .

وكانت أهم القطع التى تألف منها الأسطول المصرى فى عهد المماليك هى: الشوانى والحراريق (٢) والطرادات (٣) والأغربة (٤) والبطس (٥) والقراقر (٦) .

وليس أدل على مبلغ اهتمام مصر بالقوة البحرية ، من هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى ، يصف بها الاحتفال بإنزال الشوانى إلى البحر استعداداً للسفر إلى طرابلس: « وفى المحرم (سنة ٧٠٥ هـ) تنجزت عمارة الشوانى ، وجهزت بالمقاتلة والآلات مع الأمير جمال الدين أقوش القارى العلائى والى البهنسا ، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر ، فركب أقوش فى الشينى الكبير وانحدر تجاه المقياس . . . وكان قد نزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك ، واجتمع من العالم مالم يحصهم إلا الله تعالى ، وبلغ كراء المركب الذى يحمل عشرة آلاف نفس مائة درهم ، وامتلأ البران من بولاق إلى دار الصناعة بالناس ، حتى لم يوجد موضع قدم خال ، ووقف العسكر على بر بستان الخشب ، وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة ، وبرزت الشوانى للعب

---

١) المقريزى : الخطط جـ ٢ س ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) الحراريق أو الحراقات : هى سفن حربية كبيرة ، تقل فى الحجم عن الشوانى ، وتستخدم فى حمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية ، وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران .

(٣) الطرادات أو الطرائد : هى سفن حربية ، صغيرة الحجم ، سريعة الحركة ، تستخدم فى حمل الخيول ، وتسع عدداً يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً .

(٤) الأغربة : هى من السفن الحربية القديمة التى أخذها المماليك عن القرطاجنيين والرومان. وقد سميت بهذا الاسم لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر ، وتمثل فى الماء الطير فى الهواء.

(٥) البطس : هى من السفن التى أخذها المماليك عن الصليبيين ، وتستعمل لحمل المجانيق.

(٦) القراقر : وتستعمل فى تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح.

كأنها فى الحرب ، فلعب الأول والثانى والثالث ، وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً، لكثرة ما كان فيها من النفوط وآلات الحرب . ثم تقدم الرابع وفيه أقوش ، فما هو إلا أن خرج من منية الصناعة بمصر وتوسط النيل ، إذا بالريح حركه فمال به ميلة واحدة ، انقلب بعدها وصار أعلاه أسفله . فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها ذوات الأحمال وتكدر ما كانوا فيه من الصفو وتلاحق الناس بالشينى وأخرجوا ما سقط منه فى الماء ، فلم يعدم منه سوى أقوش ، وسلم الجميع ، وعاد السلطان والأمراء إلى القلعة وانفض الجمع ، وبعد ثلاثة أيام أخرج الشينى . . . ووقع العمل فى إعادته حتى تنجز ، وندب الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصورى للسفر عوضاً عن أقوش القارى ، فسافر إلى طرابلس بالشوانى ، واستجد منها ستين مقاتلا من المماليك سوى البحرية والمطوعة »[1] .

وليس أدل على اهتمام مصر بأمر الأساطيل ، من اشتراك الأهالى مع الحكومة عند عرض الجيوش الحربية والأساطيل ، أو عند توديعها للغزو ، وكان الأهالى يعظمون رجال الأسطول ، ويطلقون عليهم : « المجاهدن فى سبيل الله » و « الغزاة فى أعداء الله » ويتبركون بدعائهم .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٨ .

الباب السادس

المنشـــآت

أولا – من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

١ – من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية

كان من أهم ما يرمى إليه ولاة المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية التى فتحوها ، تأسيس قاعدة لملكهم تسع جندهم وتؤوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وهذه السنة قد سنها ولاة مصر الإسلامية منذ فتحها عمرو بن العاص الذى أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن على العباسى فأسس هو وأبو عون العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر فأسس مدينة القاهرة .

الفسطاط :

تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم ، فقد أسسها عمرو بن العاص ، بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) ، وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية ، التى كانت عاصمة البلاد منذ أيام الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٠ ق.م خاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان . وأرسل بذلك إلى عمر ابن الخطاب ، فسأل الخليفة رسول عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » ، فكتب إلى عمرو : « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى ، حين أقدم عليكم ، قدمت ... » ، وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الإسكندرية .

وكان عمر بعيد النظر فى ذلك الاختيار ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية، ومن ثم لم تعد الأسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة الديار المصرية . فلم يكن بد إذن من أن تتخذ العاصمة الجديدة فى مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب ، ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق إلى بلاد العرب ، وفى مكان يسهل منه الإشراف على قسمى الديار المصرية الشمالى والجنوبى . فإن عمراً اتخذه حاضرة للبلاد .

تقع الفسطاط فى ذلك الفضاء المتسع الذى نزل فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون ، الذى لايبعد كثيراً عن منف عاصمة مصر القديمة ، ويقول المقريزى: « اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس به من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم »[(١)]. وقد حدد الأستاذ يوسف أحمد فى كتابه «الفسطاط» موضع هذه الحاضرة فقال : « إنها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو والتى تمتد شرقا حول قرب سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتى ساحل أثر النبى » .

ومن ذلك نرى أن عمراً قد راعى ، فى اختياره موضع الفسطاط لتأسيس حاضرة ولايته الجديدة ، الأمور الطبيعية التى يجب أن تتوافر فى عواصم الولايات ، فقد كانت فى موضع يجعلها فى مأمن من هجمات العدو ويسهل وصول المؤن والأقوات إليها ، لما كان يحوطها من المزارع ، إذ كان النيل يحدها غربا وجبل المقطم شرقا ، كما كانت واقعة على النيل من جهة وجبل يشكر من جهة أخرى ، أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا مما يسهل الإشراف على الوجهين البحرى والقبلى ، ولا شك فى أن العرب قد وفقوا فى اختيار الفسطاط أكثر من توفيقهم فى اختيار بعض العواصم الأخرى التى أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان .

شرع عمرو بعد أن فتح مدينة الإسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابليون ، فى تأسيس مدينة الفسطاط، واختط أول جامع بنى فى مصر فسمى: «الجامع العتيق»، و«جامع الفتح »، ثم أطلق عليه بعد ذلك «جامع عمرو » وهو الاسم الذى لايزال

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٨٩.

يعرف به حتى اليوم ، ثم اختطت القبائل العربية دورها بالقرب من ذلك المسجد .
وهكذا أنشئت الفسطاط وبنيت فيها المساكن، ونزل بها الناس واتسع نطاقها وأصبحت حاضرة للديار المصرية كما غدت من أمهات العواصم الإسلامية .

وقد اختلف المؤرخون فى سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم فقال بتلر : «إن لفظ الفسطاط مأخوذ من لفظ فساتم Fossetum ومعناها باللاتينية مدينة حصينة ، وعلل هذه التسمية بان العرب أخذوا هذا اللفظ عن الروم فى حربهم فى الشام ، إلا أنه من الصعب الأخذ بقول بتلر إذا علمنا أن كلمة الفسطاط موجودة من قديم الزمن فى اللغة العربية ومعناها « الخيمة » .

وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ، وقال فى كتاب غريب الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم،قال : «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط، والفسطاط المدينة ، وكل مدينة فسطاط . ولذلك قيل لعاصمة مصر فسطاط » .

ويقول المقريزى فى سبب تسمية الفسطاط : « إنما سميت الفسطاط لأن عمرو ابن العاص لما أراد التوجه إلى الأسكندرية لقتال من بها من الروم ، أمر بأن ينزع فسطاطه ، فإذا فيه يمام قد فرخ . فقال عمرو : لقد تحرم منا بمحرم فأمر به فأقر كما هو . . . فلما قفل المسلمون من الأسكندرية قالوا : أين ينزل ؟ قالوا : الفسطاط ، نسبة لفسطاط عمرو الذى خلفه لتبيض اليمامة فيه » .

ونحن نرجح أقوال المقريزى وابن قتيبة وغيرهما من مؤرخى العرب ، لأن عمرو ابن العاص لابد أنه كان قد أقام فسطاطه فى مكان صالح لأن تقام فيه حاضرة البلاد، ولم يكن هناك ما يمنع من اتخاذ العاصمة الجديدة فى هذا المكان ، ومن ثم سميت « الفسطاط » نسبة إلى فسطاط عمرو الذى خلفه لتبيض اليمامة فيه[1].

اتخذ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط مقراً لولايته ، ثم جاءت القبائل العربية للاقامة فيها ، فتنافست على المواضع فعين لهم عمرو بن العاص أربعة من رؤساء جنده ، فأنزلوا الناس منازلهم وجعلوا لكل قبيلة خطة ، وفى كتاب « الخطط فى فتوح مصر » لابن عبد الحكم وصف دقيق لهذه الخطط التى قامت فى العاصمة الأولى لمصر الإسلامية . ولما كان ابن عبد الحكم قد ولد فى الفسطاط ونشأ بها ورأى مساكنها

---

(١) على ابراهيم حسن : الفسطاط مجلة العلوم التى تصدرها جمعية المعلمين ، العدد الثانى ، السنة الخامسة ، فبراير سنة ١٩٣٨ .

ومبانيها والأماكن التى اختطتها القبائل ، فقد وضح فى كتابه هذا مواقع تلك المدينة توضيحا يصح أن يعتمد عليه المؤرخون .

كانت الخطط بمدينة الفسطاط بمنزلة الحارات بمدينة القاهرة اليوم ، وكانت بيوتها فى بادىء الأمر طبقة واحدة ، ثم أخذت تعلو شيئا فشيئا بعد الفتح حتى صارت خمس طبقات وستا وسبعاً ، وزاد عدد السكان الذين يقطنون المنزل الواحد زيادة عظيمة ، وبلغت أبنية مدينة الفسطاط درجة كبيرة من الترتيب والإبداع . ويصف ابن حوقل الرحالة البغدادى مدينة الفسطاط كما شهدها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وأواخر القرن العاشر الميلادى ، بأنها مدينة عامرة بالأسواق والمتاجر والبساتين وأن معظم مبانيها كانت من الطوب ، فيقول : « الفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة نحوثلث بغداد ، ومقدارها فرسخ ، على غاية العمارة والطيبة واللذة ، ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام ، ومتاجر فخام ، ولها ظاهر أنيق ، وبساتين نضرة ومتنزهات على ممر الأيام خضرة » .

وقيل إنه كان فى الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجد، ٨٠٠٠ شارع ، ١١٧ حماماً ، وإن كان فى ذلك شىء من المبالغة ، إلا أنه يدلنا على عظمة المدينة وكثرة عمرانها ، ويقول ابن دقماق إن أول حمام اختط بالفسطاط فى الإسلام هو « حمام الفار» ، بناها عمرو ابن العاص فى خطته بسويقه المغاربة ، وسميت بالفار استحقاراً لها لصغرها ، لأن حمامات الروم كانت واسعة ذات ثلاثة أقسام يدخل من الأول إلى الثانى ثم إلى الثالث ، وقد ذهب هذا الحمام فلم يبق له عين ولا أثر .

وبلغ من شدة تزاحم الناس فى الفسطاط أن جعلوا البيوت طبقات عديدة وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ شخص ، وبعد أن كان البنيان فى أول مره باللبن أصبح معظمه بالطوب ، واشتهر من تلك الأبنية « دار عبد العزيز » التى بلغ من اتساعها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يستقلون أربعمائة راوية ماء كل يوم .

وظلت الفسطاط مركزاً للحركة التجارية ، عامرة بالدور آهلة بالسكان ، حتى دخل مصر عمورى Amalaric ملك بيت المقدس فى سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) ، فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد الدفاع عنها : لأن المدينة لم تكن على عهدها الأول من القوة ، إضف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة ، فأمر بإخلائها

وحرقها . ويقول المقريزى . «وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف مشعل نار ، فرقت فيها.فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظراً مهولا ، فاستمرت النار تأتى على مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما ... ومن ثم تحولت مصرالفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان (تلال) مصر[١]».

وقد وصف ستانلى لينبول فى كتابه « سيرة القاهرة » حالة الفسطاط بعد ذلك الحريق ، فقال : « إن مابقى من آثار تلك المدينـة العظيمة ، التى ظلت العاصمة والميناء النهرية لمصر الإسلامية لعدة قرون ، تغطيه الآن رمال الصحراء ، فإنه عند هبوب ريح عاصفة فى ذلك المكان يمكن أن تلتقط بعض قطع من الزجاج والآنية الخزفية والمصابيح الرومانية والعملة والزجاجات ونقوش مكتوبة ، عليها أسماء ولاة القرن الثامن وما إلى ذلك مما كان فى الفسطاط . أما المنازل وقصور الحكام والحمامات والمدارس فقد أصبحت أثراً بعد عين »[٢]. ولم يتخلف من بقايا تلك المدينة البائدة إلا جامع عمرو وقصر الشمع .

جامع عمرو :

دخل الإسلام مصر سنة ٢٠ هـ فأخذ المسلمون فى بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها كما كان الحال فى جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعا إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضا . وكان بعض المساجد تتخذ حصونا ، فكان يراعى فى بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجند ، وخير مثل لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة فى مصر . ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت فى الأغراض العلمية إلى جانب الاغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين . وكان من بين تلك المساجد ، الجامع الأزهر الذى ذاعت شهرته وأصبح مركزاً لدراسة الدين الإسلامى ، ليس فى مصر فحسب بل فى العالم الإسلامى أجمع .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) Lane - Poole : The Story of Cairo, p 65.

كان جامع عمرو أقدم الجوامع فى مصر ، أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الأسكندرية بعد تخطيط مدينة الفسطاط ، وكان أول ما اتجه إليه نظره أن يبنى للسلمين مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جريا على السياسة التى سار عليها المسلمون ، فقد كانوا يقيمون فى عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجداً للجماعة . وقد سار على ذلك أبو موسى الأشعرى فى البصرة وسعد بن أبى وقاص فى الكوفة ، واتبع هذه السياسة نفسها عمرو بن العاص فى مصر .

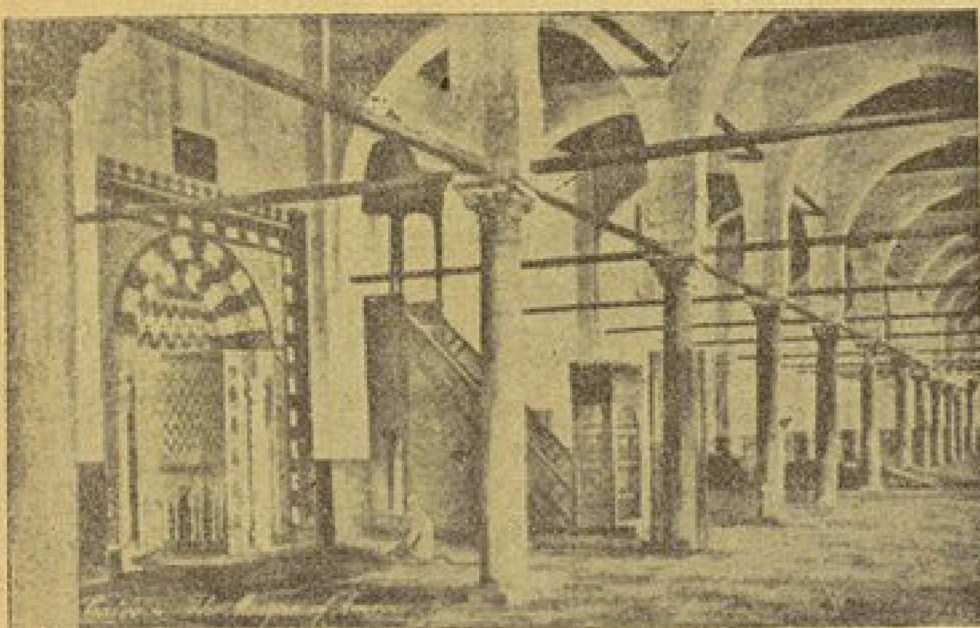
بنى عمرو بن العاص جامعه المشهور سنة ٢١ هـ وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية ، ومن ثم أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع(١) ، ويقع شمالى حصن نابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم وقت الفتح الإسلامى . وقد ذكر السيوطى وابن دقماق أنه كان بمصر إذ ذاك رجل من العرب اسمه قتيبة بن كلثوم التجيبى ، وكان قد سار ليعاون عمراً فى الفتح ، فلما بدأ المسلمون فى حصار حصن نابليون أقام قتيبة فسطاطه وسط بعض الحدائق القريبة من الحصن وأقام فيه مدة الحصار ، فلما تشاور المسلمون فى المكان الذى يبنى فيه الجامع وقع اختيارهم على دار قتيبة فتصدق بها على المسلمين .

ويبعد هذا الجامع عن دار عمرو بن العاص بسبعة أذرع وكان طوله فى مبدأ أمره خمسين ذراعا ، وعرضه ثلاثين ، وله ست أبواب : بابان منهما يقابلان دار عمرو وبابان شماليان وبابان غربيان . وكان الطريق يحيط به من كل ناحية ، ولم يكن له صحن فكان الناس يصلون بفنائه . وبنى عمرو بن العاص فى ذلك الجامع منبراً ، ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمره بكسره وقال له «أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟» فكسره عمرو . وقد كان هذا الجامع صغيراً فى مبدأ أمره . وقيل إنه قد وقف على قبلته ثمانون من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وهم الذين بعث بهم عمر بن الخطاب إلى عمرو حين عجز عن فتح حصن نابليون .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٣٣٨ .

وأول من زاد فى جامع عمرو ، مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى ولى مصر (٤٧ — ٦٤هـ) من قبل معاوية بن أبى سيفان وذلك فى سنة ٥٣ هـ ، على أثر شكاية الناس من ضيق المسجد لازدحامه ، وكتب بذلك إلى معاوية ، فأمر بإصلاحه فزاد فيه مسلمة من الجهتين الشرقية والبحرية ، ولم يحدث فيه زيادة من الجهتين الغربية والقبلية وزخرف جدرانه ، وبنى فيه مناراً وأمر المؤذنين أن يؤذنوا فى الفجر إذا مضى نصف الليل وكان لآذانهم دوى شديد ، وأمر أن يفرش الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء ، ومنع ضرب الناقوس عند الأذان فى الفجر .



جامع عمرو بن العاص

ولما ولى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان أمر بهدم المسجد الجامع سنة ٧٩هـ وبناه من جديد ووسع جميع جوانبه وخاصة من الجهة الغربية[1]، وظل المسجد بعد ذلك عامراً بالناس يؤمونه للصلاة[2].

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) على ابراهيم حسن : جامع عمرو بن العاص ، صحيفة الآداب والعلوم والفنون بجريدة الأهرام ، بتاريخ ١٩٣٥/١/ .

ولعمرو بن العاص خطبة شهيرة خطبها فى هذا الجامع . روى أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم عن سعيد بن ميسرة المعافرى ، فقال : رحت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة ، وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصارى بأيام يسيرة فأطلت الركوع إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت فقلت : يا أبت من هؤلاء ؟ قال يابنى هؤلاء الشرطة ، فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن به العقيان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ، ويامر بالاقتصاد ، وينهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال ، فقال يامعشر الناس ! إياكم وخلالا أربع فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العز : إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولانوال » .

ويستمر عمرو بن العاص فى خطبته ناصحا لرعيته حريصا على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب وإظهار زهده ، حاثا على تعهد الخيل التى هى عدتهم فى حروبهم ، مذكراً إياهم بحديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن القبط ، وهو أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة . ولا غرو فإن أم إسماعيل منهم وكذلك أم إبراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام وهى مارية القبطية .

وليس أدل على ما كان لذلك الجامع من المكانة الدينية لدى المصريين ، مما قاله ستانلى لينبول فى كتابه تاريخ مصر : « فى أوائل القرن التاسع عشر كان جامع عمرو لايزال مكانا مألوفا لأهالى القاهرة لصلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان . ويعتقد أن الله يتقبل هذه الصلوات التى يصليها المرء فى هذا الجامع العتيق . ولذلك فانه إذا تأخر فيضان النيل وخشى الناس قلة الماء ، وما ينتج عن ذلك من الجدب كان يؤمر كبار المشايخ وأئمة المساجد والعلماء وأهل الورع والتقوى من المسلمين فى العاصمة بالذهاب إلى جامع عمرو ليصلوا فيه ضارعين إلى الله أن يمن عليهم بزيادة ماء النيل » .

ولم يكن هذا المسجد مكاناً للعبادة فحسب، بل كان أيضا مركزاً للحركة السياسية والاجتماعية، كما صار أشبه بناد يجتمع فيه كبار رجال الدولة والعلماء، واتخذه العرب معهداً لدراسة علوم الدين من تفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف، وكان للصحابة الذين شهدوا فتح مصر أثر بارز فى العلوم الدينية، إذ هم الذين تولوا التدريس فى الحلقات التى كانت تعقد بين جدرانه. كذلك اتخذ جامع عمرو مكاناً تنعقد فيه المحاكم ويجلس فيه القضاة للفصل فى القضايا.

ولما أحرق شاور مدينة الفسطاط فى سنة ١١٦٨ م تهدم جزء كبير من جامع عمرو. ومع أن صلاح الدين الأيوبى قام بإصلاحه، إلا أنه لم يرجع إلى حالته الأصلية، كما أنه لم تعد إليه المكانة الدينية التى كانت له كأول جامع إسلامى بنى فى مصر. وكان جامع عمرو الأثر العظيم الخالد الذى بقى بعد حريق الفسطاط، وزاد الولاة فى بنائه حتى وصل إلى الحالة التى نراه عليها الآن. ولم يبق من البناء الأصلى شىء الآن، فقد بناه عمرو باللبن، إلا أن أهميته التاريخية ترجع إلى موضعه الذى بنى فيه أولا باعتباره الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد فى مصر (١).

العسكر:

أنشئت مدينة العسكر فى سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م)، على أثر سقوط الدولة الأموية وفرار آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد. فإنه لما ضاقت الفسطاط بعسكر العباسيين، اختاروا الفضاء الواقع فى الشمال الشرقى لمدينة الفسطاط لتأسيس حاضرة ولايتهم الجديدة، ومن أجل ذلك، أطلق عليها اسم العسكر، وكانت بالنسبة إلى الفسطاط أشبه بفرساى لباريس (٢).

كان موضع العسكر يعرف فى صدر الإسلام باسم «الحمراء القصوى» الذى نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب(٣) عقب الفتح الإسلامى، وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين، فأصبح مكانها قفراً. فى ذلك المكان، أنشئت العاصمة الجديدة، وتمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر الذى بنى فوقه جامع ابن طولون.

---

(١) Devonshire: Quatre — Vingts Mosquées du Caire, p. 10.

(٢) Lane — Poole: The story of Cairo, p. 65.

(٣) بنو يشكر، بنو روبيل، بنو الأزرق. المقريزى: الخطط ج ١ ص ٣٠٤.

وهناك أقام العباسيون دورهم، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن على العباسى دار الإمارة وثكنات الجند وسط هذه العاصمة كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد حتى لايكون أحد أبعد إليه من الآخر (١) .

وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاة العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الإمارة ، فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية ، ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة ، بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق. وهكذا أصبحت العسكر مقر الإمارة والإدارة والشرطة سنة ١٣٢ هـ (٢) .

ولكن أهمية العسكر قد قلت كثيرا منذ أن بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر ، فأصبحت هذه المدينة كأن لم تكن بالأمس . وقد ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الإمارة فى العسكر ، حتى بنى جوهر الصقلى قائد الجيوش المعزية مدينة القاهرة .

وقد تخربت مدينة العسكر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، على أثر المجاعة التى حدثت فى ذلك الحين ، فإن بدرا الجمالى لما حضر إلى مصر وأخذ فى تعمير القاهرة من جديد نقل إليها ماكان بالعسكر والقطائع من أنقاض المساكن ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين مقفرا موحشا .

ولم يبق عامرا إلى الآن من العسكر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون . ويصف لنا المقريزى فى الأبيات الآتية حالة العسكر ، بعد أن بادت حتى لم يبق لشىء منها أثر البتة ، بعد أن كانت عامرة بالدور والمساجد والأسواق والبساتين:

وبادوا فلا مخبر عنهم ۝ وماتوا جميعاً وهذا الخبر
فمن كان ذا خبرة فليكن ۝ فطينا ففى من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح ۝ فأين هم ثم أين الأثر

جامع العسكر :

أما مسجد العسكر (٣)، فقد أسسه سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م) الفضل بن صالح بن على

---

(١) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate

(٢) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٥٧ .

(٣) عرف هذا المسجد أولا باسم جامع العسكر ثم بجامع ساحل الغلة .

أحد ولاة العباسيين فى مصر من قبل الخليفة المهدى ، جريا على خطة المسلمين ، منذ فتح العرب مصر ، فغدا من المساجد الجامعة بالديار المصرية . وكان موضعه بجوار دار الإمارة التى أسسها صالح بن على وسط مدينة العسكر . ولما ولى عبدالله بن طاهر أمور مصر من قبل المأمون سنة ٢٢١هـ ، زاد فى عمارة هذا الجامع . واستمر الناس يصلون فيه ، حتى بنى جامع ابن طولون ، وظل قائماً فى مكانه حتى خربت مدينة العسكر نفسها ، ونقل أنقاضها بدر الجمالى إلى مدينة القاهرة لتعميرها (١) .

٢ — فى عهد الطولونيين

القطائع :

جاءت بعد ذلك الدولة الطولونية (٢٥٤هـ) ، فرأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده ، فسار على سنة عمرو بن العاص وصالح بن على فى تخطيط حاضرة جديدة ، تسع جنده وتوفر له مرافق الحياة . فاختار سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠م) المنطقة الواقعة شمالى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة بالعسكر ، لتأسيس الحاضرة الجديدة التى سمت « بالقطائع » .

وكانت مدينة القطائع تمتد فى عصر أحمد بن طولون من قبة الهواء التى بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ومن الرميلة الواقعة تحت الجبل إلى مسجد زين العابدين(٢) ، وهى مساحة قدرت بميل فى ميل(٣) وكانت تحد مدينة القطائع من جهة الغرب بركة الفيل والخليج المصرى ، وكلاهما من أجمل المتنزهات فى ذلك الوقت ، بالإضافة إلى منطقة المرصد(٤) التى وصفها موسى بن عيسى — أحد ولاة مصر فى العصر العباسى — بقوله « إنها ميدان رهان ، وجنان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكن ، وذروة جبل ، ونهر عجاج ، وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر ، وقانص وحش ، وملاح سفينة ، وحادى إبل ، ومغازة رمل ، وسهل وجبل » . وامتد العمران من الفسطاط إلى العسكر

(١) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٣١٣

(٣) ابن دقماق جـ ٤ ص ١٢١ . ويقال إن الذى قدر هذه المساحة هو ابن سعيد الأندلسى الذى زار مصر أيام الملك الصالح أيوب ، والميل ثلث الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .

(٤) تقع تجاه أثر النبى بطريق المعادى .

ثم إلى القطائع ، حتى أصبحت هذه المدن الثلاث كأنها مدينة واحدة لاتصال مبانيها وسهولة الاتصال بينها. وتحد مدينة القطائع: من الشرق بالقلعة، ومن الغرب بمسجد السيدة زينب، ومن الشمال بشارع الخضيرى والصليبة، ومن الجنوب بمدينة العسكر. وهى تقع فى المنطقة التى بها الآن المنشية وشارع الخليفة وما بها من حارات .

وفى المكان الذى يشمل الآن ميدان قرة ميدان والمنشية ، أنشأ ابن طولون لنفسه قصراً فخما أقام به ، بعد أن كان قد نزل حين وصوله إلى مصر بدار الإمارة التى بناها صالح بن على فى العسكر ،ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الإمارة . وجعل بينها وبين المسجد ميدانا فسيحاً ،كان ابن طولون وضباطه يلعبون فيه بالصوالجة ، وقد بلغ من الاتساع مبلغا عظيما حتى سمى القصر كله بالميدان ، ثم اختط كبار رجال دولة ابن طولون وقواده وغلمانه دورهم حول ذلك الميدان ، واتخذ كل منهم قطيعة خاصة به كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك لأرباب الحرف والصناعات والتجار قطائع يقيمون فيها ، وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التى تسكنها ، فسميت المدينة كلها «القطائع» (١) . ثم أخذ الناس فى البناء فعمرت المدينة وأقيمت فيها الدور العظيمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت أبنيتها بالفسطاط ، وأقام الضباط والقواد مساكنهم، وصارت الأسواق أحسن منها فى الفسطاط . ووسع ابن طولون قصره وجمله ، وكان الناس يدخلون إليه من أبواب متعددة ، فهناك: باب الخاصة يدخل منه خاصة الأمير ، وباب الميدان لدخول الجنود ، وباب الصلاة وكان يتوصل منه إلى جامع ابن طولون ، وباب الحريم ، وباب الساج لأنه مصنوع من خشب الساج(٢).

وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجملها وبنى بها كثيرا من المنشآت كبيت الذهب وبركة الزئبق والدكة ودار السباع . وتوفى خمارويه سنة ٢٨٢ هـ ، وتولى بعده ابنه أبو العساكر جيش ، ثم أبو موسى هارون وكان صغير السن غير صالح للولاية ، وظهر ضعف الحكم الطولونى أمام العباسيين ورغبوا فى إعادة مصر إلى سلطانهم . فبعث الخليفة المكتفى قائده المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر . فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) وأشعل فيها النار فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص١٥٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٥ .

والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة أثرا بعد عين (١) .

ويصف المقريزى فى « الخطط » كيف أزال محمد بن سليمان معالم الطولونيين فى القطائع وما ارتكبوه فيها وفى الفسطاط من الفظائع ، فى هذه العبارة: «دخل محمد ابن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول فألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهاجموا الدور ... وهتكوا الرعية ... وساقوا النساء، وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك . وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً وأخرج قوادهم، فلم يبق منهم أحد يذكر، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام،ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان وهو راكب ، فذبحوا بين يديه كما تذبح الشاة ، وقتل من السودان سكان القطائع خلقاً كثيراً » (٢) .

هكذا خربت القطائع وأضحت أطلالا دراسة لم يبق فيها غير المسجد الجامع ، ولا شك فى أن هذه مأساة مروعة انتابت الطولونيين وقضت عليهم وعلى عاصمتهم الزاهرة ، ومن ثم عادت الفسطاط مقر الإمارة ومركز الإدارة والجند ، فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها ، وظل الحال على ذلك حتى فتح جوهر الصقلى قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمى مصر وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

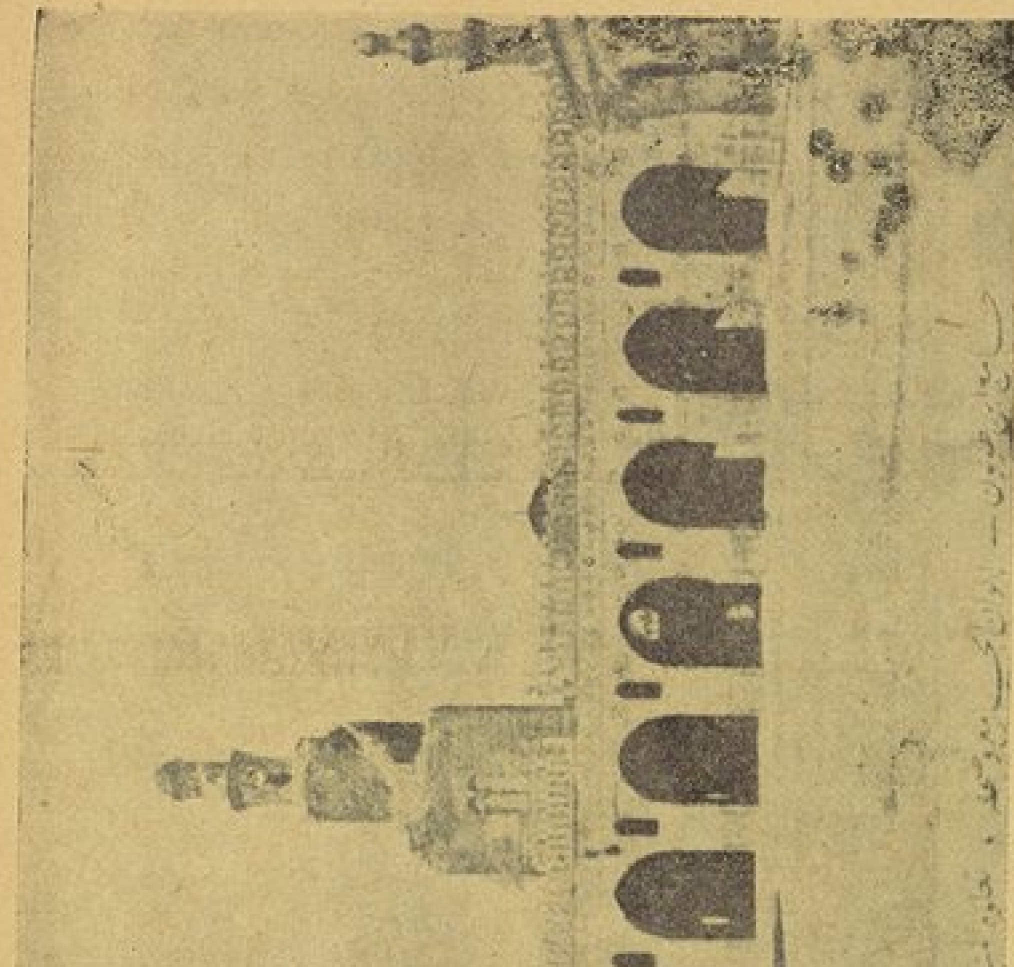
جامع ابن طولون :

من أشهر الآثار التى خلفها ابن طولون والتى اقترنت باسمه إلى اليوم ، ذلك المسجد الكبير الكائن بجهة الصليبة وقلعة الكبش ، والذى لا يزال حافظاً لرونقه وبهائه رغم توالى الأجيال عليه ، وهو يعد أقدم بناء إسلامى بحت بقى على أصله إلى اليوم . وجامع ابن طولون هو ثالث المساجد الجامعة فى مصر ، بناه أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ بعد بناء القطائع ، وبناه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية أو الجهة الشمالية من العسكر ، وكان قد بناه على ذلك الجبل

---

(١) على ابراهيم حسن : العسكر والقطائع ، صحيفة الآداب والعلوم والفنون ، بجريدة الأهرام ، بتاريخ ٢/٨/١٩٣٣ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٢ .



جامع ابن طولون

بناء على إشارة جماعة من الصالحين ، لأنه جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء فيه ، وأن الله تعالى كلم موسى عليه ، وقد عرف هذا المكان بأنه مكان مشهور بإجابة الدعوات فيه وأنه سمى باسم أحد الصالحين وهو يشكر بن جديلة ، وكان هذا الجبل يشرف على النيل ، وليس بينه وبين النيل شىء ، ويشرف على بركة قارون وهى البغالة الحالية ، وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق حين تجربتها قبل إرسالها إلى الثغور .

أما تاريخ إنشاء الجامع ، فقد اختلف فيه المؤرخون : فذهب بعضهم إلى أنه شرع فى بنائه سنة ٢٥٩ هـ ، وذكر البعض الآخر أنه بدىء فى بنائه سنة ٢٦٣ هـ وفرغ منه وأعد للصلاة سنة ٢٦٥ هـ . وهذا القول الأخير هو الأصح ، لوجود تاريخ الفراغ منه فى النقوش التاريخية التى وجدت على لوحة من الرخام مكتوبة بخط كوفى ، عثرت عليها لجنة حفظ الآثار العربية ، حين كانت تجرى بعض الأعمال بالجامع .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التى بقيت على حالها الأصلى ، وذلك إذا استثنينا مقياس النيل بجزيرة الروضة ، كما أن جامع عمرو هدم وبنى مراراً والباقى منه الآن هو الموقع فقط وتقليد البناء الأصلى ، وبذلك يعتبر جامع ابن طولون ، الأثر الوحيد الذى بقى قائماً بعد زوال الدولة الطولونية وتخريب القطائع على يد محمد بن سليمان القائد العباسى المشهور .

أما السبب الذى حدا بابن طولون إلى بناء هذا المسجد ، فهو ضيق مسجد العسكر بالمصلين ، لكثرة جند ابن طولون وخدمه وعبيده . فشكا الناس ذلك إلى ابن طولون فرأى أن يقوم ببناء مسجد ، تحقيقاً لرغبة الناس من وجهه ولرغبته المنطوية على فعل الخير من جهة أخرى ، ولأن وجود القطائع من غير مسجد نقص يجب تلافيه ، خصوصاً وأن أول شىء كان الولاة يعنون به هو بناء المساجد عندما ينشئون المدن لاتخاذها عواصم كما كان الحال بالنسبة إلى الفسطاط والعسكر والقاهرة .

وكان المهندس الذى قام ببنائه رجلا نصرانيا [1] اشتهر بالعمارة ، وهو نفس الرجل الذى قام ببناء القناطر التى أنشأها ابن طولون . وقد غضب عليه ابن طولون مرة عند ما غاصت فرسه فى موضع بالسقاية لم يكن قد جف بعد ، فأمر به فضرب

---

(١) ذكر البلوى فى كتابه « سيرة ابن طولون » ص ١٨١ فى أحد الهوامش أن اسم المهندس هو سعيد بن كاتب الفرغانى . ولم يتعرض أحد غيره من المؤرخين لذكر اسم هذا المهندس .

وسجن . فلما أراد بناء الجامع قدر له ٢٠٠ عامود . ولم يكن بد من إحضارها من الكنائس ، وفى إحضارها ما يثير غضب القبط عليه ، وهذا ما كان يريد ابن طولون تحاشيه . فلما علم المهندس المسجون بذلك بعث إلى ابن طولون يخبره بأنه يستطيع أن يبنى الجامع بلا عمد إلا عمودى القبلة . فلما بلغ ابن طولون ذلك أعجب بهذا الرأى وبعث فى طلب الرجل ، فصنع للجامع نموذجاً من جلد ، وهذا أول ما عرف من نماذج العمارات فى الإسلام .

ولم يتعرض المؤرخون لجنسية المهندس النصرانى الذى عهد إليه بناء هذا الجامع ، لمعرفة ما إذا كان بيزنطيا أو قبطيا أو عربيا . بيد أن ما أورده لنا ابن دقماق (١) والمقريزى (٢) من أن بناء هذا الجامع أقيم على مثال جامع سامرا ، يحمل على الظن بأن هذا المهندس كان عراقيا ، ويستبعد المؤرخ ستانلى لينبول فى كتابه « تاريخ القاهرة » أن هذا المهندس كان بيزنطيا .

وقد بناه هذا المهندس بالجص والرمل والآجر ، ولم يبنه باللبن ، لأن ابن طولون قال : أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى وإن غرقت بقى (٣) . ولما تم بناء الجامع علق المهندس فيه القناديل بالسلاسل البديعة الطوال وسلمه لابن طولون ، فخلع عليه عشرة آلاف دينار ، وبلغت نفقات الجامع مائة وعشرين ألف دينار . ولما فرغ من بناء هذا المسجد أقيمت فيه الخطبة والصلاة . أما الصلاة فقد أقيمت على يد القاضى بكار بن قتيبة أحد جهابذة القضاة وأعلمهم بالفقه كما اشتهر بالورع والتقشف . وألقى الحديث فى هذا الجامع الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى . وقيل إن ابن طولون منح هذا الفقيه بعد إلقاء هذا الحديث كيساً فيه ألف دينار ، ومن أشهر كلمات الربيع إذ ذاك قوله إن من بنى لله مسجداً ، بنى الله له بيتا فى الجنة .

وقد بذل ابن طولون فى سبيل بناء هذا الجامع أموالا ضخمة ، دعت الناس إلى القول بعدم جواز الصلاة فيه ، حتى إنه بعد أن تم بناؤه وأصبح معداً لإقامة

---

(١) الانتصار ج ٤ ص ١٢٤.
(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦٦ .
(٣) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٤١ — ٤٢ .

الصلاة ، لم يجتمع فيه أحد لاعتقاد الناس فى هذا العصر أنه بنى من مال لايعرفون أصله ، وساعد على تصميمهم على ذلك أنهم كانوا شديدى التمسك بأهداب الدين . فعز ذلك على ابن طولون وجمع الناس وألقى عليهم خطبة أقسم فيها أن ذلك الجامع لم يبن من أموال الدولة وأنه ليس هناك أى دليل على استخدام القسوة فى جمع الأموال التى بنى بها ، وأوضح لهم أنه بناه « من خالص ماأفاء الله عليه وطيبه » ، كما جاء فى الكتابات التاريخية الإنشائية التى وجدت على لوح خاص بجامع ابن طولون (١) ، فأقبل الناس على الصلاة فيه حتى ضاق بهم .

وتكلم المقريزى عن الكنز الذى شاع إذ ذاك أن ابن طولون عثر عليه واستخدمه فى بناء الجامع ، فذكر أن ابن طولون بنى الجامع من المال الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون (٢) . على أن بعض المؤرخين ذكروا أن هذا الخبر من قبيل الأساطير ، وأن مسألة الكنز قد انتشرت عن طريق ماتناقله الناس عن حادثة وقعت أيام ابن طولون ، وهى أن أحد قواده خرج إلى المكان الذى فيه تنور فرعون ، وكان قد نمى إلى هذا القائد أن فى ذلك المكان مالا ، فأجرى الحفر والتنقيب فلم يعثر على الكنز . على أنه لايبعد أن يكون ابن طولون قد عثر على الكنزين اللذين ورد ذكرهما فى أكثر كتب التاريخ .

ولجامع ابن طولون أهمية خاصة بالنسبة لجوامع مصر ، لأنه يعتبر المثال الأول الذى احتذى فى بناء المساجد الجامعة فيما بعد ، والذى بقى معمولا به فى هذه البلاد حتى العصور التى أدخلت فيها أساليب جديدة لبناء المساجد وبخاصة عقب استيلاء العثمانيين على مصر . وقد بنى هذا الجامع على شكل مربع ، وشغل مساحة تقدر بستة أفدنة ونصف فدان . وفى وسطه صحن مكشوف يحيط به من جوانبه الأربعة عدة أروقة ، وللمسجد أربعون بابا ، وفى مؤخرة هذا الجامع ميضأة وخزانة بها الأدوية والأشربة التى يحتاج إليها المصلون . وقد عين ابن طولون لهذا الجامع الخدم ، كما عين له طبيبا خاصا يقوم بعلاج ما يطرأ على المصلين يوم الجمعة وهو بمثابة طبيب الإسعاف فى هذه الأيام . وفى وسط الجامع فوارة عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠٧ ، ٤١٦ .

وعلى جوانبها ستة عشر عموداً من الرخام ، وأرض الفوارة مغطاة بالرخام كذلك ، وفي وسط المكان يغور الماء . وعلى سطح الجامع مزولة لتبين أوقات الصلاة مصنوعة من خشب الساج ، وقد احترقت تلك المزولة في خلافة العزيز بالله الفاطمي ، ولكنه عمرها وأعادها إلى ما كانت عليه . وأحاط ابن طولون جامعه من الداخل بسياج أشبه بحوض به عنبر ، فإذا احترقت وفاحت رائحته فاح في المكان أريج ذكي . ودرجات المنارة من الظاهر ، بمعنى أن الشخص الواقف داخل الجامع أو خارجه يرى منارة الجامع .

وقد جدد هذا الجامع السلطان المنصور لاجين أحد سلاطين المماليك البحرية . ذلك أنه على أثر مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على يد لاجين ، هرب لاجين إلى هذا الجامع واختفى فيه ، فنذر أن يعمره وأن يقف عليه الأوقاف إذا من الله عليه بالخلاص . فلما تحققت أمنيته وارتقى عرش مصر وفى بنذره ، فاهتم بعمارة هذا الجامع وأعاده إلى ما كان عليه من البهاء ، ثم قرر تدريس العلوم من فقه وحديث وقرآن وطب وغيرها من العلوم العقلية والنقلية في هذا المسجد كما وقف عليه كثيراً من المباني والأموال ، وجعل من هذا الوقف مقداراً خاصاً من المال يصرف على الدبكة التي جعلها على سطح الجامع لتعين المؤذنين على معرفة أوقات الصلاة (١) .

وحفل عصر ابن طولون بكثير من المنشآت الأخرى : فقد بنى مسجد التنور ، والقناطر والبئر في الصحراء ، وحصن جزيرة الروضة ، والمارستان . وقد كلفته تلك المنشآت أموالا طائلة لا تتحملها خزائنه ، مما دعا إلى ترديد القول بعثوره على كنز أنفق منه على تلك المنشآت الهائلة .

مسجد التنور :

بنى ابن طولون على جبل يشكر سنة ٢٥٩ هـ مسجداً عرف باسم «مسجد التنور» ، وكان يقع في المكان الذي فيه الآن مسجد أمير الجيوش بدر الجمالي المعروف بمسجد الجيوشي . ومن المرجح أن ابن طولون فكر في بناء هذا المسجد في هذا الموضع ، حين رأى كثرة النازحين إلى هذا المكان المقفر ، دون أن يكون به مسجد يستطيع

(١) ابن دقماق ج ٤ ص ١٢٢ — ١٢٤ . ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٣ .
Zaki Hessan : Les Tulunides, pp. 304— 305.

أن يؤدى فيه المارة صلاتهم . وكان بناؤه على موضع يقال له « تنور فرعون ». وكانت النيران تشعل فوق هذا الموضع كلما خرج ابن طولون فى موكب من قصره إلى الجهة التى يريدها . وبنى على هذا الجامع منارة ، يهتدى بها السارى إذا ضل طريقه . وجعل فيها صهريجاً للماء . ومن الغريب أن مسجد التنور لم تقم فيه صلاة الجمعة قط ، لأن المصلين كانوا يفضلون أن يذهبوا إلى المساجد القريبة من مقر أعمالهم (١) .

إصلاح مقياس الروضة :

وفى سنة ٢٥٩ هـ أصلح ابن طولون مقياس الروضة ، بعد أن أدرك أن النيل هو مصدر خير مصر وأن البلاد تعتمد عليه فى إحياء ثروتها . فركب فى ذلك العام . ومعه أبو أيوب صاحب الخراج وبكار بن قتيبة القاضى ، وأمر بإصلاح المقياس ، ورصد لذلك ألف دينار . ولا يزال هذا المقياس قائماً إلى اليوم فى بساتين المناسترلى بجهة الروضة .

إنشاء القناطر والبئر :

وفكر ابن طولون فى إنشاء قناطر وبئر الصحراء ، بعد أن مر بها كعادته لتفقد أحوال رعيته ووجد من فيها يقاسون الآلام من قلة الماء ، وتمتد هذه القناطر من جهة البساتين الحالية إلى القرافة الكبرى . ويرجع السبب فى بنائها وحفر البئر وإقامة الآلات الرافعة لجلب الماء منه ، على ماذكره ابن دقماق ، إلى أن ابن طولون مر ذات يوم بمسجد الأقدام وكان شديد العطش إذ ذاك ، فمر على حائك فقال له : ياخياط أعندك ماء ؟ فقال نعم ثم أخرج له كوزا فيه ماء وقال له ، إشرب ولا تمد (٢) . فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره ، ثم ناوله إياه وقال : يافتى سقيتنا وقلت لا تمد ، فقال : نعم أعزك الله ، موضعنا هاهنا منقطع ، وإنما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن رواية ماء فقال ابن طولون : والماء هاهنا معوز ؟ فقال نعم (٣) .

(١) الكندى ص ٢١٨ — ٢١٩ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٢) أى لا تشرب كثيرا .
(٣) الانتصار جـ ٤ ص ٥٧ .

وبعد أن عاد ابن طولون إلى داره أمر بإحضار هذا الخياط ، ولم يكن يدرى أن محدثه هو والى مصر . وبعد أن حادثه قليلا ، قال له : «سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء» . وأعطاه ألف دينار ، وأجرى عليه راتباً شهريا قدره عشرة دنانير ، وقال له : بشرنى ساعة يجرى الماء فيه(١).

وكان المهندس الذى أشرف على بناء القناطر حاذقا فى الهندسة ، فأحكم بناءها حتى صارت نادرة المثال ، وعجز من جاء بعد ابن طولون أن يبنى مثلها . ولما أتم بناءها خرج ابن طولون ليراها فأبدى إعجابه بجميع ماشاهده ، إلا أن رجل فرسه غاصت بطريق الصدفة فى موضع منها لرطوبة الجير فيه ، فكبا به الفرس فأمر بحبس المهندس ولم يخرج من حبسه حتى استدعاه ابن طولون لبناء مسجده المشهور ، وأنفق ابن طولون على بنائها أربعين ألف دينار . وازداد العمران فى منطقة السقاية إذ تنافس المصريون فى اقتناء الدور حولها ، لأنها وفرت عليهم مشاق استحضار الماء من مسافات بعيدة مع ما كانوا ينفقونه من جهد ومال فى هذا السبيل .

بنى أحمد بن طولون هذه القناطر ، على مثال ماراه فى طرسوس ، حين أقام فى آسيا الصغرى . فقد رأى هناك قناطر مقامة على أعمدة ، الغرض منها إيصال المياه إلى مكان مايتعذر وصول الماء إليه بواسطة الأنهار والجداول . وهذا المكان الذى يصل إليه الماء عبارة عن صهريج أو بركة أوبحيرة صغيرة يكون منسوب الماء فيها منخفضاً عن منسوب العين التى تبتدىء منها هذه القنطرة .

وبعد أن أتم بناءها ، اهتم بأمرها اهتماماً شديداً حتى عرف عنه أنه لايريد أن يسمع أى كلمة ضد هذا المشروع الضخم الذى قام به . فقد ذكر ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى المتوفى فى سنة ٢٧٦ هـ والمعاصر لابن طولون : « كنت ليلة فى دارى إذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون ، فقال لى : الأمير يدعوك فأيقنت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله فى ، فإنى شيخ كبير ضعيف مسن ، أفتدرى مايراد منى ؟ فارحمنى فقال : حذار أن يكون لك فى السقاية رأى ، وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء ، وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ، فنزلت وسلمت

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٥٧ .

عليه ، فلم يرد على : فقلت أيها الأمير ، إن الرسول أعنتنى وكدنى ، وقد عطشت أفيأذن لى الأمير فى الشرب . فأراد الغلمان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخذ بنفسى ، فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشق . ثم قلت أيها الأمير، سقاك الله من أنهار الجنة،فلقدأرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف:أطيب ماء فى حلاوته وبرده، أم صفاء كوب أوطيب ريح السقاية،فنظر إلى وقال : أريدك لأمر وليس هذا وقته،فاصرفوه فصرفت ، فقال لى الخادم : أصبت . فقلت : أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت» (١).

وكان لهذه القناطر فوائد عديدة ، فقد وجد فيها الأهلون ضالتهم ، فى وقت لم تكن وسائل النقل متوفرة ولم يكن من السهل وصول الماء إلى هذه الصحراء القاحلة إلا بهذه الطريقة. وصفها سعيد الشعاصى بقوله :

وعين معين الشرب عين زكية(٢) وعين أجاج(٣) للرواة وللطهر
كأن وفود النيل فى جنباتها تروح وتغدو بين مد إلى جزر
فأرفأها (٤) مستنبطا لمعينها من الأرض من عميق إلى ظهر
يمر على أرض المعافر كلها وشعبانة والأحور الحى من بشر
قبائل لانوء السحاب(٥) يمدها ولاالنيل يرويها ولاجدول يجرى(٦)

حصن جزيرة الروضة :

وابتنى ابن طولون حصناً منيعاً فى جزيرة الروضة ، كى يكون معقلا له ولأسرته ولحرسه وثروته ، يأوى إليه إذا ما حاق به خطر وخاصة أن العداء كان مستحكما إذ ذاك بينه وبين الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى ، وأنه كان من المحتمل أن يرسل الموفق جيشاً لمحاربته . وبالفعل بعث موسى بن بغا على رأس جيش كبير لقتال ابن طولون ولكن حال بين وصول جيش الموفق إلى مصر وفاة القائد موسى . وبعد ذلك صرف ابن طولون النظر عن إتمام هذا الحصن بعد أن أنفق عليه أكثر من ثمانين ألف دينار . وقد أشاد أحد شعراء العصر الطولونى وهو سعيد ابن القاضى بذكر هذا الحصن فقال:

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملا إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٧ . (٢) حلوة . (٣) ملحة
(٤) أخرجها . (٥) المطر . (٦) المقريزى : نفس المصدر ج ٢ ص ٤٥٨ .

ترى أثراً لم يبق من يستطيعه من الناس فى بدو ولا حضر
مآثر لاتبلى وإن باد ربها ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخر[١]

على أن كثيراً من المؤرخين والكتاب والشعراء قد لاموا ابن طولون على عدم إتمامه هذا الحصن ، وأوضحوا أن البلاد لم تستفد من هذا العمل غير تسخير الأهالى وضياع الأموال ومن أشهر ماقيل فى هذا الصدد :

بنى الجزيرة حصنا يستجد[٢] به بالعسف والضرب والصناع فى تعب
له مراكب فوق النيل راكدة فما سوى القار للنظار والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت بالشط ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروس محتسبا لكن بناها غداة الروع للهرب

المارستان :

وأمر ابن طولون ببناء مارستان[٣] فى سنة ٢٥٩ هـ ، وكان بناؤه هذا المارستان ابتغاء وجه الله . وجعله لجميع الناس دون تمييز بين الطبقات والأديان ، وحرم أخذ أجر نظير العلاج أو الإقامة للاستشفاء فيه ،ولم يكن فى مصر قبل ذلك مستشفيات عامة بالمعنى المفهوم الآن ، وأوقف ابن طولون على هذا المارستان الأوقاف العديدة وبلغ ما أنفقه على تشييده ستين ألف دينار . ويقع بين الفسطاط والقطائع، وكان حسن النظام سائداً فى المارستان ، فالمريض إذ حل فيه انتزعت عنه ملابسه وأعطى ملابس جديدة وسلمت ملابسه الخصوصية إلى أمين المستشفى ليحفظها حتى يبرأ المريض ، وكان الأطباء يفحصونه فحصاً دقيقاً ويكتبون له الدواء الذى يناسبه ، ويصرف بالمجان . وأنشأ فيه ابن طولون حمامين كبيرين أحدهما للرجال والآخر للسيدات ، وإذا أكل المريض رغيفاً ودجاجة ، كان ذلك علامة شفائه وأذن له بالانصراف ، وكان ابن طولون يذهب إلى تلك الدار كل يوم جمعه ، ويفتش على أعمال الأطباء ويواسى المرضى ليدخل السرور على نفوسهم[٤] .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٢٤ و جـ ٢ ص ١٨١ .
(٢) يستجد : يستتر .
(٣) المارستان : كلمة فارسية معناها مكان المرضى ، أما البيمارستان فكلمة معناها مستشفى الأمراض العقلية .
(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٥ .

منشآت خمارويه :

وتابع خمارويه سياسة أبيه ابن طولون فى الإنشاء والتعمير . وزاد خماويه فى قصر أبيه فى القطائع ، فأنشأ المكان المعروف باسم «بيت الذهب» وهو عبارة عن غرفة فسيحة تتصل برواق فسيح ، طليت حيطانه بالذهب المجدول باللازورد[١] ، عليها كثير من الصور البارزة على مقدار قامة ونصف مصنوعة من الخشب تمثل خمارويه ومغنياته ، وكانت رءوس صور النساء أكاليل من الذهب الخالص[٢].

وحفر خمارويه فى قصره بالقطائع بركة مربعة مساحتها ٢٢٥ متراً مربعاً ، سميت «بركة الزئبق». ويرجع السبب فى بنائها إلى أنه كان يشكو الأرق ، فأشار عليه طبيبه بعمل فسقية مملوءة بالزئبق ، وقد جعل خمارويه فى أركانها طرقا من الفضة ، وعمل مرتبة تنفخ بالهواء وتلقى فى البركة وتشد بالزنانير المصنوعة من الحرير المتين ، وينام خمارويه على هذا الفراش . فكان لهذه البركة منظر عجيب فى الليالى القمرية ، لأن الفراش كان يرتج بحركة الزئبق فيتألق نور القمر بنور الزئبق[٣].

وبنى خمارويه فى قصره قبة سماها «الدكة» وهى تضاهى قبة الهواء التى أنشأها حاتم الوالى العباسى سنة ٨١٠م وجعل لها الستر التى تقى الحر والبرد ، وعمل لكل فصل فرشاً خاصاً به ، فكانت هذه الدكة أعظم شىء بناه خمارويه ، وكثيراً ما كان يجلس فيها ليشرف على بستانه ويمتع ناظريه بالصحراء والنيل والجبل[٤] . وبنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه .

وأقام خمارويه فى قصره داراً للسباع ، جعل فيه بيوتاً صغيرة ، كل منها لسبع ولبؤة . وفى كل بيت باب يفتح بحركات معينة ، وفى كل منها طاق صغير فيه ميزاب من النحاس ، وكانت هذه البيوت تفتح بحركات معينة ، وكان من بين السباع سبع أليف ، اسمه رزيق ، له عينان زرقاوان ، وعلى رقبته طوق من الذهب ، فإذا مدت مائدة خمارويه أقبل رزيق ، ، وربض بين يدى صاحبه ، فيرمى إليه بالدجاج وقطع

---

(١) اللازود : نبات أزرق اللون ، طيب الرائحة ، يمتاز بحسن النقش وجمال التنسيق .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٥ .
(٣) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٦٠.
(٤) زكي محمد حسن : نفس المصدر ص ٥٩ .

اللحم وغيرها ، فإذا نام خمارويه جاء رزيق ليحرسه طول الليل . وأقيمت فى هذه الديار الفسيحة دار أخرى للنمور والفهود والفيلة والزرافات وغيرها ، فكانت هذه الحديقة لاتختلف عن حديقة الحيوانات اليوم .

٣ ــ فى عهد الإخشيديين

اهتم الإخشيد ، كابن طولون ، بالبناء وشيد قصراً جميلا فى جزيرة الروضة ، سمى «المختار» . وبنى قصراً آخر أطلق عليه فى عهد الدولة الفاطمية اسم «البستان الكافورى» ، كان يقع غربى سوق النحاسين الآن ، وقد ظل هذا القصر موضع عناية الإخشيد حتى كان ينزل به ويقيم فيه حتى مات ، فاهتم بأمره من بعده أنوجور وعلى . ولما تولى كافور ولاية مصر زادت عنايته به حتى كان يتنزه فيه أيام الجمعة والأحد والثلاثاء ، ويواصل الركوب إلى الميدان الذى يقع إلى جواره والذى جمعت فيه كل خيوله ، ويظهر أن شدة عناية كافور به هى السبب فى نسبته إليه فيما بعد(١).

وأنشأ الإخشيد ميداناً أطلق عليه «ميدان الإخشيد» ، بناه بجوار بستانه،وصار من أعظم الأماكن فى مصر، جمع فيه الخيول السلطانية فى الدولة الإخشيدية وجعل له بابين من الحديد(٢) . كذلك اهتم الإخشيد بالمساجد ، فجدد بناء كثير منها وزودها بما تحتاج إليه من الحصر والمصابيح ، وزين أكثر عمد جامع عمرو بن العاص وطوقها سنة ٣٢٤ هـ .

ولما طغت مياه النيل على مسجد الجيزة وهدمته سنة ٣٤٠ هـ قام محمد بن عبد الله الخازن ، فى المحرم سنة ٣٥٠ هـ بإعادة بنائه بأمر على بن الإخشيد . وشيد الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل مسجداً كان يعرف باسم « مسجد موسى » . وشيد

---

(١) لما فتح جوهر الصقلى مصروأسس القاهرة جعل هذا البستان ضمن عاصمته الجديدة، وأخذ الخلفاء الفاطميون يتنزهون فيه ، وكانوا يصلون إليه خلال سراديب بنيت تحت الأرض، ينزلون إليها من باب القصر الكبير الشرقى ويسيرون فيها بالدواب حتى لا يراهم إنسان ، ومازال هذا البستان عامراً حتى سنة ٦٥١ هـ حيث لحقته بالدمار فأزيلت أشجاره وأقيمت المنازل مكانه . وورد فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك (ج ١ ص ٣) أن مكانه اليوم فيما بين مسجد الشعرانى والسكة الحديدة بالقرب من الموسكى وتمتد شرقا إلى النحاسين وأن مساحته يبلغ ٣٦ فداناً بمقياسنا اليوم .

(٢) خلع جوهر هذين البابين عند قدوم القرامطة إلى مصر وجعلهما على باب الخندق الذى حفره خارج مدينة القاهرة بالقرب من عين شمس سنة ٣٦٠ هـ .

كافور مسجداً آخر أطلق عليه اسم « مسجد القفاعى » ، وكان فى وسطه محراب من الطوب ، هو أول محراب بنى فى هذه البلاد .

وشيد أبو بكر محمد بن على المادرانى فى وسط المقابر جوسقا(١) على هيئة الكعبة ، فكان يجمع الناس عنده فى الأعياد ويضاء كل سنة فى ليلة النصف من شهر شعبان بأنوار ساطعة ، فيلتف حوله القراء لتلاوة القرآن الكريم ، ويقصده الأهلون فى هذه الليلة وفى أيام الأعياد ، حيث يقضون جزءاً من وقتهم فى فرح وسرور .

وكان من أهم دور مصر فى العهد الإخشيدى ، الدار التى تعرف باسم « دار الفيل » ويطلق عليها أيضاً « جنان دار مسكين » ، وتقع على بركة قارون بالقرب من مسجد ابن طولون ، بناها كافور الإخشيدى وأنفق عليها مائة ألف دينار وسكن بها فى رجب سنة ٣٣٦ ﻫ (٢) .

وأمر كافور سنة ٣٣٦ ﻫ حين كان وصياً على أنوجور بن الإخشيد ، بحفر خليج اتصل بخليج بنى وائل ، وذلك عند ماجف ماء النيل عند ساحل مصر وأصبح الناس يشربون من النهر عند مكان بعيد يقع بين جزيرة الروضة والجيزة ، وكانوا يتحملون نتيجة لذلك مشقات عظيمة ويمشون مسافات طويلة فى سبيل الوصول إلى الماء ، وكانت نتيجة حفر كافور لذلك الخليج وصول الماء إلى ساحل مصر .

وكان فى الفسطاط بئر تعرف باسم « بئر الوطاويط » ، أنشأها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات وكتب عليها « بسم الله الرحمن الرحيم ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الشكر وله الحمد ، ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات(٣) التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين . . . وذلك فى سنة ٣٥٥ ﻫ » .

وقد كان لتلك الأعمال التى قام بها ولاة الإخشيديين أثر فى تخليد ذكراهم ، وخاصة أنهم أوقفوا ما بنوه على أعمال الخير والبر . على أنه مما يؤسف له أن جميع هذه المبانى وتلك الآثار قضى عليها ، حتى لم يبق منها أثر إلا اسمها .

---

(١) الجوسق : هو الحصن أو بناء يشبه الحصن .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١ ، ١٢٥ .

(٣) خربت هذه السقايات بعد قليل وتولد فيها كثير من الوطاويط ، ومن ثم عرفت باسم « بئر الوطاويط » .

ثانيا — فى عصر الفاطميين

حفل العصر الفاطمى بكثير من المنشئات ، أهمها تأسيس مدينة القاهرة وإنشاء الجامع الأزهر ، وهما من مفاخر عهد المعز .

القاهرة :

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية. وقد تأسست سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمى مصر بقيادة جوهر وقضائها على الدولة الإخشيدية (١) .

دخل جوهر الصقلى مدينة الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (١٧ يوليو سنة ٩٦٩ م) وعسكر فى الفضاء الواقع فى شمالها . وفى تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التى عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز (٢) ، وقد اختطت كل قبيلة من قبائل البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية ، واختط الروم حارتين أحدهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر (٢) . وأسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً لملك الفاطميين فى مصر ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية وليتخذوها حصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين بدءوا يهددون حدود مصر الشمالية . أضف إلى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد الشام — وكانت تابعة لمصر إذ ذاك — واستيلائهم على دمشق ، ومن ثم لم ير الفاطميون بدا من اتقاء شرهم ورد غاراتهم (٣) .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها

---

(١) حينما أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة كان حدها الغربى الخليج المصرى والبستان الكافورى . وكان الخليج المصرى يمتد من فم الخليج إلى غمرة ، ثم إلى الإسماعيلية ومنها إلى السويس . وقد ردم الخليج فيما بين غمرة وفم الخليج فى سنة ١٨٩٧ — ١٨٩٩ م. ولم يكن مجرى النيل وقتئذ بعيداً عنها كما هى عليه الحال الآن .

(٢) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 118

Migeon : Art Musulman, t. I p. 54

(٣) Wiet : Précis d' Histoire Musulmane d' Egypte, p. 32.

المنصورية نسبة إلى المنصور أبى المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسماها القاهرة [١] .

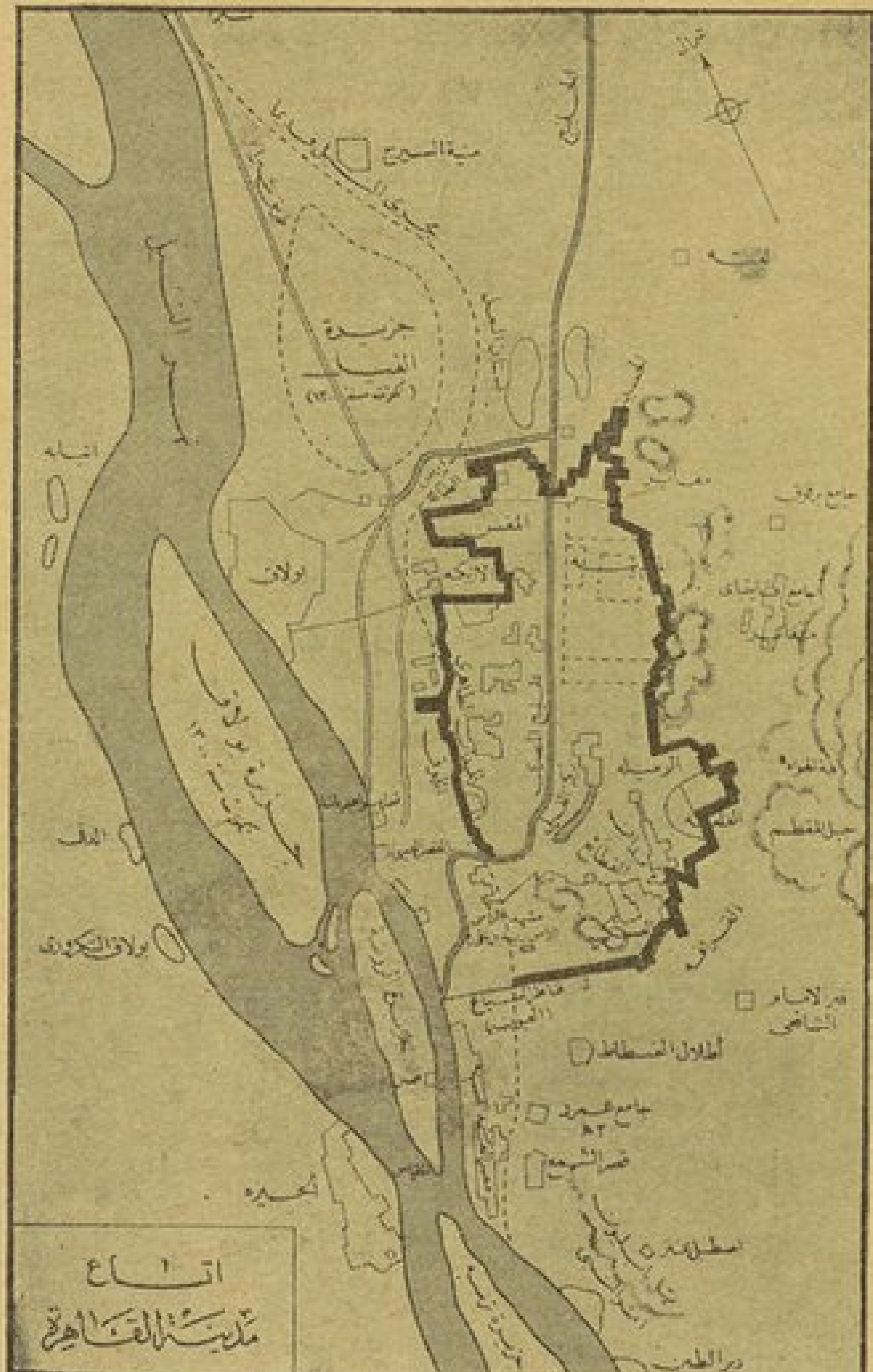
وقداختلف المؤرخون فى سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم. فقال ابن دقماق إنها سميت بذلك، لأن أساسها شق[٢] على طلوع كوكب رصده أحدالحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو كوكب يقال له « القاهرة » [٣] . ويقول المقريزى : « إن جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس، بحيث لايخرج البلدعن نسلهم أبداً ، فاختاروا طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشبية بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة ، ووقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع ، فمضى ذلك وفاتهم ماقصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة »[٤] .

ونحن لانستبعد صحة هذه الرواية ، لاسيما أن المعز ، على ماذكره ابن القلانسى كان مغرما بعلم النجوم وكان يستشير منجمه فى كل مايتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة[٥] .على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية تكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التى يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم، فقد ذكر المقريزى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الأسكندرية فى عهد الإسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها. وليس بعيداً أن يكون اسم « القاهرة » مأخوذا من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر « ولتدخلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » [٦] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ص ٧٣ .
(٢) شق : حفر .
(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٦ ص ٣٥ .
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٧٧ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ . المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٤ .
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٩ .



اتساع مدينة القاهرة

تقع القاهرة المعزية [١] شمال الفسطاط ، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية ، أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج [٢] . وعلى ذلك فهى تحد شمالا بباب النصر ، وجنوباً بباب زويلة [٣] ، وشرقاً بباب البرقية والباب المحروق [٤] ، وغرباً بباب السعادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية ، على ما رواه المقريزى ، أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق (٥) . ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ، ورأى أن لاساحل لها ، لم يعجبه موقعها ، وقال : « ياجوهر فاتتك عمارتها هاهنا » [٦] يريد المقس [٧] .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير [٨] من اللبن ، يقدر حجم اللبنة منه بذراع في ثلثى ذراع ، وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة وإلى الجنوب الشرقى من

---

(١) أطلق على المدينة التى بناها جوهر للمعز « القاهرة المعزية » ، نسبة إلى الخليفة المعز (ابن خلكان ج ٣ ص ١٠٣) كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وضخامة أبوابها .

(٢) Lane-Poole: The Story of Cairo, pp, 121-127

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التى أسسها جوهر ، بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ أن موضع هذين البابين هو غير الموضع الذى كانا فيه أيام جوهر .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٧٧ .

Lane-Poole: The Story of Cairo. p. 229

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤ .

(٧) المقس : ضيعة كانت تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل . وقد جعلها المعز مرفأ صناعياً ، وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والعشار فيها ثم قلبت فقيل المقس .

(٨) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى سنة ٣٤٨ هـ فى عهد القائد جوهر ، والثانية فى سنة ٤٨٠ هـ فى خلافة المستنصر على يد وزيره بدر الجمالى الذى هدم هذا السور وبناه بالأحجار ، والثالثة فى سنة ٥٦٦ فى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٧٧ .

ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منها تقس المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق(١) بعد أن تحول مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣ هـ عندما أمر السلطان الناصر محمد بعمارتها ، وبنى بها الدور على شاطىء النيل ، فسكنها الناس وعمروها وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق (٢) .

وفى ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز فى ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرق سور المدينة ، لذلك أطلق عليه اسم القصر الشرقى الكبير ، وكان يسمى هذا القصر أيضاً « القصر المعزى » ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر جوهرا ببنائه حين سيره لفتح مصر ووضع له رسمه (٣) . وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر فى أمور الدولة ، كما كانت به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها . وكذلك الجند لحراسة الخليفة ، وقيل إنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة (٤) .

وكان فى القصر أبواب كثيرة نخص بالذكر منها باب الذهب الذى تعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود فى يومى العيدين تعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ويصل إلى باب الزعفران وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة وموضعه خان الخليلى الآن ، وقد دفن المعز فى هذه المقبرة جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور التى أحضرها معه فى توابيت من بلاد المغرب ، وقد ظلت هذه المقبرة مدفناً للخلفاء وأولادهم ونسائهم حتى أنشأ فيها ركن الدين الخليلى أحد أمراء المماليك

---

(١) Lane—Poole ; Egypt in the Middle Ages, p. 112

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٩ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٤ .

(٤) Migeon : Art Musulman, t. 1 .p. 42.

ثانيا — فى عهد الفاطميين

تقلبت الحياة المصرية فى العصر الفاطمى بين ألوان من البذخ، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية.

طبقات الشعب :

كان الشعب المصرى فى عهد الفاطميين يتكون من عدة طبقات : طبقة أهالى البلاد الأصليين ويكونون السواد الأعظم من سكان البلاد . وطبقة المغاربة ، وكانوا عدة الجيش الذى حارب فى تأسيس الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وهو بهذا الاعتبار عصب الدولة الفاطمية فى مصر ويدينون بعقائد المذهب الشيعى مذهب الفاطميين . ثم طبقة الأتراك وقد كثر عددهم فى مصر منذ أيام الدولة الطولونية . أما السودانيون فقد ظهروا فى مصر منذ أيام كافور الإخشيدى وكثر عددهم فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله لأن أمه كانت سودانية وزاد خطرهم بسبب قيام النزاع بينهم وبين الأتراك . وكثر الأرمن فى مصر فى عهد وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله .

أهل الذمة :

عامل الخلفاء الفاطميون أهل الذمة — ونقصد بهم النصارى واليهود — بالعطف والرعاية ، واتبع الخليفة العزيز سياسة أبيه المعز أول خلفاء الفاطميين فى مصر من حيث العطف على النصارى ، ولكن العزيز كان مع ذلك أكثر عطفاً عليهم لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ، فإنه تزوج من سيدة نصرانية وعين أخويها بطريقين ملكيين ، أى بطريقين للكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية المخالفة لكنيسة اليعاقبة وجعل أحدهما فى الأسكندرية والآخر فى بيت المقدس ، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية ، كما توالى على جماعة الملكيين التى كانت تتبعها زوجته، وسمح للبطريرق القبطى أفراهام بإعادة كنيسة أبى سيفين المخربة بظاهر الفسطاط ، ورفع عيسى بن نسطوروس

إلى كرسى الوزارة ، فعامل أبناء طائفته معاملة تجلى فيها العطف وأسند إليهم الوظائف الكتابية وغيرها .

وعين الخليفة الحاكم القبط فى مناصب الدولة العالية ، وتقلد الوزارة من القبط فى عهده منصور بن عبدون وزرعة أخو عيسى بن نسطوروس .

وما لبث الحاكم أن اشتد فى معاملة النصارى واليهود ، حتى جعل لهم علامات تميزهم ، وذلك رغم أن وزراء العزيز كانوا منهم كابن كلس اليهودى وابن نسطوروس المسيحى . وزاد الحاكم على ذلك أن أمر بهدم كنائس القاهرة ونهب ما فيها وأمر بإلغاء الأعياد النصرانية كعيد الغطاس وعيد الشهيد وإلغاء جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة . وفى سنة ٤٠٢ هـ صدر مرسوم ضد النصارى واليهود بأن يلبسوا العمائم والثياب السود ، وأن يعلق النصارى فى أعناقهم قرامى الخشب ، وحرم على الفريقين ركوب الخيل ، وألا يستخدموا مسلماً أوجارية مسلمة ، وحذر المكارية المسلمين أن يحملوا على دوابهم ذميا ، كما حظر على الملاحين المسلمين أن يحملوا فى سفنهم ذمياً ، وأفردت لهم حمامات خاصة[١] . واشتد الأمر عليهم حتى ساءت حالهم واضطر كثير منهم إلى التظاهر باعتناق الإسلام أو الهجرة فى أراضى الدولة البيزنطية فراراً من هذا الاضطهاد . ولكن فى سنة ٤١١ هـ عاد الحاكم فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة التسامح الدينى إزاء طائفتى النصارى واليهود ، فأصدر عدة مراسيم بإطلاق حرية الشعائر الدينية لكل منهما وإلغاء القيود السابقة ، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديرة والسماح لهما ببناء الكنائس ورد ما أخذ أيضاً من التحف الثمينة فارتد كثيرون عن الإسلام[٢] . وأصدر الحاكم أمانا لهم جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن العزيز بالله لجماعة النصارى بمصر ، عند ما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم والجزع الذى هالهم ... وأجبتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم . . . فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله وأمان نبيه وأمان أمير المؤمنين على بن

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٠٢ .

أبى طالب . هذا [أمان] على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأحوالكم وأملاككم وماتحويه أيديكم أماناً صريحا ثابتاً » .

وفى عهد المستنصر تقلد القبط أرقى المناصب وأعلاها ، وشغلوا معظم المناصب المالية فى الدولة ، وتقلدوا الوزارة ، وتمتعوا بقسط وافر من التسامح الدينى كما يتجلى فى بناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

وكان الخليفة الحافظ الفاطمى يمنح الرهبان فى دير نهيا القرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير .

وأولع الخليفة الحافظ الفاطمى بزيارة أديرة النصارى ، واتخذ بهرام الأرمنى وزيراً ومستشاراً له يرجع إليه فى أمور الدوله وأسكنه فى قصره وأحله من نفسه محل الإكرام والتعظيم . ولما مات بهرام سنة ٥٣٥هـ حزن عليه الحافظ حزناً شديداً، ولما حان وقت صلاة الظهر أخرج النعش من القصر بجلله الديباج ويحف به النصارى يحملون المباخر ، وأشراف العلويين وغيرهم من علية القوم مشاة ، وسار الخليفة فى الموكب بنفسه راكباً بغلة وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر . ومازال الناس فى سيرهم والقسس يرتلون الإنجيل حتى وصلوا إلى دير الخندق خارج باب الفتوح ، فنزل الخليفة وجلس على حافة القبر وبكى بكاء شديداً ثم أمر بتعطيل الدواوين ثلاثة أيام .

ويمكن القول بأن تقدم الفنون فى العصر الفاطمى يرجع بوجه خاص إلى مهارة الصناع القبط . ويتبين ذلك بسهولة من الصور الجميلة والمجموعات الفنية فى دور الآثار ، فإن من بينها التحف العجيبة والأثاث واللابس وقطع البللور . وزادت أهمية القبط حين اتضحت قدرتهم فى الطب ، فقد اتخذ الخلفاء أطباءهم من بينهم ، ومنهم سهل بن كيسان الذى تمتع بعطف الخليفة العزيز . وكذا أبو الفتح سهل بن مقشر الطبيب الخاص للعزيز والحاكم ويحدثنا أبو صالح الأرمنى صاحب كتاب الأديرة الذى زار مصر فى أواخر عصر الفاطميين والمتوفى سنة ٦٠٦ هـ أن موارد الكنائس المصرية زادت زيادة عظيمة فى ذلك العصر .

النساء :

كان للمرأة فى العصر الفاطمى شأن كبير ، فكثيراً ماكانت النساء تتدخل فى شئون الدولة ، كما اشتهر كثيرات منهن بالثراء والبذخ ، فقد تركت بنتان للمعز إحداهما واسمها رشيدة مايقرب من مليون ونصف من العملة الذهب (أى ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار أى مليون جنيه مصرى) وتركت الأخرى واسمها عبدة كثيراً من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد وثلثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى وغير ذلك من الذخائر[١].

وفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز أموالا جمة على تشييد مسجدها بالقرافة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة .

وقد تزوج العزيز سيدة رومية على المذهب الملكانى ، مذهب كنيسة القسطنطينية ، ولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك ، وكان لزوجة العزيز نفوذ كبير فى الدولة حتى عين الخليفة أخويها بطريقين .

ومن نساء هذا العصر ، ست الملك ابنة العزيز وأخت الحاكم ، وقد امتازت بالحزم ورجاحة العقل ، كما اشتهرت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الدينى ، وكثيراً ماعطفت على النصارى ، وبلغت السادسة والعشرين من عمرها حين توفى أبوها ، وكانت ست الملك مع أخيها الحاكم مسلوبة السلطة ، فأثار ذلك حفيظتها ، ولاسيما عندما انتقد مسلكها فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة . وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة ، من ذلك ثلثمائة جارية ، وثمانى جرات ملآى بالمسك وكثير من الأحجار الكريمة من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل ، وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار[٢].

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص٤١٥

Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 133 .

(٢) على ابراهيم حسن: عظمة الفاطميين ، مجلة الكتاب ، السنة الثانية ، الجزء الثانى ، عدد ديسمبر ١٩٤٦ .

ومن نساء هذا العصر أيضا زوجة الظاهر وأم المستنصر، وكانت سودانية واشتهرت بالعطف على أبناء جنسها السودانيين، لذلك قوى بطشهم وتفاقم خطرهم فى عهد المستنصر حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفا .

الأعياد والمواسم الفاطمية :

كان الشعب المصرى يحتفل بأعياده ومواسمه فى العصر الفاطمى بأعظم مظاهر الابتهاج ، فتقام المآدب وتنظم الملاهى ويعم الناس الفرح والسرور، وفى هذه الأعياد والمواسم كانت تضاء الشوارع والحوانيت ويحمل الفقراء فى أيديهم فوانيس مقابل إعطاء كل منهم درهما ، كذلك كانت المساجد تضاء فى الأعياد بالمشاعل .

وفى عيد مولد النبى صلى الله عليه وسلم كان يصنع عشرون قناراً من الحلوى توضع على ثلثمائة صينية وتوزع فى الجامع الأزهر ، أما فى الاحتفال بوفاء النيل فكان يقام سماط عظيم فى سرادق رحب على شاطىء النيل يجلس فيه كل من اشترك فى الموكب .

وكان الشعب المصرى يستقبل الأعياد والمواسم بمظاهر البهجة والسرور إلا فى يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام ، تعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر فيلقون الأناشيد المحزنة فى رثاء الحسين بن على ، ويقام لهذه المناسبة سماط يسمى سماط الحزن ينظم بمنتهى البساطة فى بهو صغير ، ويمد على هذا السماط خبز الشعير والعدس والجبن ، ويحضره الخليفة ملثما ومرتديا ثوب الحداد ، كما كان يشهده الأمراء ورجال الدولة ملثمين[١] . وفى هذه الأعياد والمواسم كان الخلفاء الفاطميون يجودون على كبار موظفى الدولة بالخلع .

وكانت أشهر الأعياد والمواسم فى مصر فى العصر الفاطمى هى : ليالى الوقود ، ورمضان ، وعيد الفطر . وعيد الأضحى ، وأعياد الأقباط .

تقع ليالى الوقود فى أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان ، وكان الفاطميون يحتفلون بهذه الليالى الأربع بأبهة عظيمة ، إذ كان الناس تبعا للتعاليم الشيعية

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٤٩ .

يصومون بعض أيام هذين الشهرين ، كصومهم رمضان . ولذلك احتفلوا بهذه الأيام الأربعة احتفالهم برمضان ، فكانت المساجد تضاء بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس ، وفى كل ليلة منها كان يعقد بالجامع الأزهر مجلس حافل بالقضاة والعلماء برياسة قاضى القضاة ويبعث الخليفة إليهم سائر ألوان الطعام والحلوى ، ويخرج فى كل من هذه الليالى موكب حافل يتقدمه قاضى القضاة نائباً عن الخليفة[١] .

* * *

وبالغت الدولة الفاطمية فى الكرم فى رمضان ، إذ كان شهراً مباركا عليها كريماً بها ، فإنه لم يستهل رمضان سنة ٣٥٨ هـ حتى كان الله قد من على الفاطميين بفتح مصر بعد أن هزمت جيوشهم مراراً عند ما حاولوا فتحها فى مدى خمسين سنة قبل ذلك التاريخ ،وفى رمضان سنة ٣٦٢ هـ أصبحت مصر مركزاً للدولة الفاطمية المترامية الأطراف عندما انتقل إليها فى ذلك الشهر رابع خلفائهم فى المغرب وأولهم فى مصر المعز لدين الله واستقر فى القاهرة فى السابع من ذلك الشهر ، وفى منتصفه بدأ يباشر أمور خلافته الواسعة من مركزها الجديد . لذلك كان لرمضان مركز خاص به بين مواسمهم وأيامهم ، فكانوا يحيون كل ليلة من لياليه لا تفوتهم إحداها بدون إحياء ، وكانوا يأتون فيه من ضروب البر والخير الشىء الكثير مما كان يعم الرعية جميعها لافرق بين الأغنياء والفقراء[٢] .

ومنذ السابع والعشرين من شعبان ، يخرج القاضى يطوف على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر ، مبتدئا بجامع المقس ثم بجوامع القاهرة فالمشاهد فالقرافة فجامع عمرو ، ليتأكد من عمارتها وإنارتها بالقناديل وفرشها بالحصر النظيفة كرامة لرمضان ، ويسير فى ركاب القاضى حين خروجه خلق كثيرون ، منهم الموظفون الذين يريدون المباهاة والظهور ، ومنهم أولئك الذين يطلبون جمع العوائد من الناس ، ومنهم طلاب المرح الذين يتصايحون بالأذكار والأناشيد .

واستن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) أن تغلق فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم ويحذر أصحابها من بيع الخمر

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٦ .

(٢) مجلة الثقافة ، العدد ٤٥ ، السنة الأولى .

ثم عمم الوزير المأمون بن البطائحى هذا النظام فى سائر أقاليم الدولة فكتب به إلى ولاة الأعمال وأمرهم بالمناداة بأن «من تعرض لبيع شىء من المسكرات أو بشرائها سراً أوجهراً فى رمضان فقد عرض نفسه لتلفها وبرأت الذمة من هلاكه».

وكان الخلفاء الفاطميون يعظمون رمضان تعظيما بالغاً فى الروعة . ففى أول يوم من رمضان يرسل الخليفة إلى كل واحد من الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم وإلى كل واحد من أولادهم وإلى كل واحدة من زوجاتهم ، طبقا فيه حلوى وفى وسطه صرة من ذهب ، فيعم بذلك سائر أهل الدولة خير عميم ، ويركب الخليفة فى رمضان بموكب رائع .

وكان للخليفة الفاطمى عادات ورسوم ، تبدأ بابتداء رمضان ولا تنتهى إلا بانتهائه . ففى أوله توزع الكسوات من دار الكسوة على الأمراء والوجوه وكبار الموظفين والفقراء ، كل على حسب مرتبته ، ويصرف من دار التوابل مقادير هائلة من الند والبخور باسم الجامع الأزهر والجامع الحاكمى . وفى منتصفه ينتقل الخليفة ومعه الوزير وبعض الخواص إلى دار الفطرة ، حيث السكر والعسل والزعفران والطيب والدقيق والفستق إلى غير هذا كله من مواد صناعة الحلوى فيجدها فى الحواصل «معبأة مثل الجبال» ، فينقسم كل صنف إلى أكوام تختلف فى الوزن ، فمن ربع قنطار وهو أكبرها إلى عشرة أرطال إلى رطل واحد وهو أقلها . ثم ينصرف الخليفة ومعه الوزير بعد أن ينعم على مستخدمى الدار بستين ديناراً ، ويوجه صاحب الديوان من معه من الكتاب المسلمين إلى دار الفطرة ومع كل واحد منهم قائمة بأسماء طائفة من أرباب الرسوم وأمام كل اسم مرتبته ، ويبدأون التفريق ، فيحمل الفراشون نصيب كل واحد إلى بيته فى صينيات كبيرة أو صغيرة على حسب مقام الشخص ، ومع كل صينية رقعة من كاتب الديوان فيها كلمة بليغة تناسب المقام ، ويثبت أمام كل اسم فى القائمة اسم الفراش الذى حمل إليه رسمه حتى لايضيع شىء ، ولا يزال الفراشون يخرجون بالصينيات ملأى ويدخلون بها فارغة إلى أن ينقضى شهر رمضان ، ولا يفوت أحداً شىء من ذلك ويتهاداه الناس فى جميع الأقاليم ، وتبلغ قيمة مايفرق من دار الفطرة سبعة آلاف دينار .

وفى الليلة الختامية يرتل المقرئون جميع القرآن من فاتحته إلى خاتمته ، ومتى ختم القرآن ينشد المؤذنون الصوفيات ويهللون ويكبرون إلى أن تنثر عليهم الدنانير والدراهم من الجوشن الذى يجلس فيه الخليفة ، ويقدم من القطائف والحلوى أضعاف ما يقدم كل ليلة فيأكلون ويملأون أكمامهم ، ثم يخلع الخليفة على الخطيب والمقرئين والمؤذنين ويأخذون بعد ذلك فى الانصراف داعين مكبرين .

* * *

وفى آخر يوم من رمضان يبدأ الوزير ورجال الدواوين وحاشية القصر يعدون العدة لخروج الخليفة فى موكب العيد كل فى دائرة عمله ، وتبدأ مطابخ قصر الخليفة ودار الفطرة تعد معدات أسمطة العيد من مختلف الأشكال والألوان ، أما دار الكسوة فتكون قد أتمت صناعة الكسوات التى يخلعها الخليفة على وجوه الدولة وطوائف العامة .

وكان عدد الأسمطة التى يحضرها الخليفة بنفسه فى عيد الفطر سماطين ، بلغا حداً كبيراً من الروعة ووفرة كميات الطعام . ويقترن بهذا السماط ضروب لا تحصى من الهبات والإنعامات والخلع وتفريق الفطرة وخاصة على من صعدوا المنبر مع الخليفة فى صلاة العيد ، ومن أذنوا فى المصلى وعلى المصاطب وعلى الشيوخ والقضاة والأمراء والكتاب والشعراء والمتصدرين بالجوامع وفقهاء القاهرة ومصر وطوائف العامة ، ومن الخلفاء الفاطميين من شملت هباته اليهود والنصارى فى يوم العيد(١) .

وكان عيد الفطر يسمى فى الدولة الفاطمية « عيد الحلل » . وذلك لأن الحلل التى يخلعها الخليفة على الناس كانت تعم الطبقات جميعها غنيها وفقيرها ، أما فى غيره من المواسم فهى للأعيان خاصة ، فكانت الكسوات ترسل إلى الناس كل واحد على حسب مرتبته ، ومن الحلى ما كان مرصعا بالذهب والجواهر ، وكان يرسل مع كل كسوة رقعة من ديوان الإنشاء يوجه الخطاب فيها إلى من خلعت الحلة عليه ، وفى هذه الرقاع تتجلى بلاغة كتاب ذلك العصر .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٧ و ٤٥٢ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٧٦ .

اما عيد الأضحى فكان الفاطميون يحتفلون به احتفالا رائعاً ، وفيه يركب الخليفة إلى الصلاة على نحو ما كان يفعل فى عيد الفطر . ويقام فى أول أيام العيد سماط حافل ، يمتاز بركوب الخليفة ثلاث مرات فى الأيام الثلاثة الأولى ، كما يمتاز باشتراك الخليفة نفسه فى إجراءات النحر ، فبعد أن يفرغ من صلاة العيد يرتدى ثوبا أحمر ثم يركب إلى المذبح حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأمراء وكبار الموظفين فى انتظاره ، فإذا وصل إلى هذا المكان ذبح بيده إحدى وثلاثين رأسا من البقر والنوق وكلما نحر رأساً كبر المؤذنون . وفى اليوم التالى من أيام العيد ينظم نفس الموكب (الخلافى) إلى المذبح فينحر الخليفة بيده سبعة وعشرين رأساً ، وينحر فى الثالث ثلاثة وعشرين .

ومن التقاليد التى سار عليها الفاطميون أن أول ذبيحة تنحر كانت تقدد وتعمل منها شرائح ترسل إلى والى المدينة المنورة فيوزعها على أنصار الفاطميين ، أما لحوم سائر الضحايا فكان يفرق بعضها فى أطباق خاصة تبركا ، ويقوم قاضى القضاة بتوزيعها على الطلبة وغيرهم فى المساجد(١) .

أعياد القبط :

واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد القبط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة . وإليك أسماء أعياد القبط التى احتفل بها الفاطميون ، مشاركة لهم فى شعورهم الدينى ، وأهمها ليلة الغطاس والنيروز وخميس العهد .

وكانت ليلة الغطاس من أعظم الاحتفالات التى اشترك فى إحيائها المسلمون ، فقد كان الناس يسهرون طول الليل وتسرج المشاعل وتدق الطبول وتقام الملاهى ويظهر الأهالى بأعظم مباهج السرور والغبطة .

كذلك احتفل الفاطميون بالنيروز بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ، وكان النوروز من المواسم القديمة ، اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد وهو أول أيام السنة عندهم ، ويقع عند الاعتدال الربيعى ، أى عند ابتداء فصل الربيع ، وقد اتخذ ملوك خراسان هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، ويظهرأن

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٤٣٦ . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٧٧ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٨٨ .

الناس ارتكبوا فى عهد المعز لدين الله كثيراً من المنكرات أيام الاحتفال بعيدالنيروز مما دفعه إلى منع إيقاد النيران فى الطرقات ليلة الاحتفال بهذا العيد ، غير أن الناس عادوا فى العام التالى فغلوا فى احتفالهم بهذا العيد وأوقدوا النيران ورشقوا الناس بالماء وارتكبوا الآثام ، فغضب المعز وأمر بالكف عن الاحتفال بالعيد وسجن العابثين بالنظام . وكان من المعتاد إذا حل عيد النوروز أن توزع على الناس الملابس والنقود وكذلك البطيخ والرمان والموز والتمر والسفرجل والهريسة المصنوعة من لحوم الدجاج والضأن والبقر ، وكان الناس يكثرون أثناء النوروز من شرب الخمر ومن رشق الماء والأقذار على الناس حتى امتنع كثير من الأهلين عن الخروج من منازلهم ، وقيل إن الفاطميين اتخذوا أميراً سموه « أمير النوروز » مهمته الخروج فى موكب حافل فى ذلك العيد لتوزيع الهدايا على رجال الدولة على اختلاف درجاتهم .

أما خميس العهد فهو أحد الأعياد التى بقيت فى عهد الفاطميين مشاركة منهم للنصارى فى شعورهم الدينى ، وهو الخميس الذى كان يحتفل النصارى فيه بإنجيلهم قبل الفصح بثلاثة أيام ، وكان الاحتفال بهذا العيد يمتاز بالهدايا التى ينالها كبار الموظفين وغيرهم من الرجال المشهورين .

الولائم الفاطمية :

كانت الولائم فى العصر الفاطمى تقام فى بعض المساجد وفى دار الوزير وفى القصر فى المكان المعروف باسم قاعة الذهب ، وكان الخليفة المعز أول من استن تلك السنة ، وظلت الأسمطة لا تنقطع من قاعة الذهب أثناء شهر رمضان وأيام العيدين .

ويمد سماط رمضان بقاعة الذهب فى قصر الخليفة ابتداء من اليوم الرابع من رمضان إلى نهايته كل ليلة ، ويدعى إلى هذا السماط طبقات الموظفين والأعيان وطائفة من الأمراء كل ليلة بالتناوب حتى لا يحرموا الإفطار مع أولادهم . ويدعى القاضى فى ليالى الجمع فقط توقيراً له ، وإذا حضر الوزير جلس فى الصدر وجلس الجميع منه كل بحسب مرتبته ، وإن لم يحضر أناب عنه أخاه أو ابنه ، ويمتد السماط بطول القاعة العظيمة فيكون طوله ١٧٤ متراً وعرضه أربعة أمتار . ويقوم الفراشون

بخدمة الآكلين ويحضرون لهم كيزان الماء المبخر ، وتطول مدة تناول الطعام لتعدد الألوان وتمتد إلى ما بعد العشاء ويأخذ كل واحد منهم لأولاده ما يقدر على حمله ، ولم يكن ذلك منتقداً لأنه كان يؤخذ على سبيل البركة ، ويصل من السماط الشيء الكثير إلى أهل القاهرة ، ويتكرر هذا السماط كل ليلة إلى آخر رمضان ، ويبلغ ما يتكلفه هذا السماط مدة سبعة وعشرين يوما ثلاثة آلاف دينار .

وبعد منتصف الليل تقدم إلى الجميع أصناف لحوم الحيوان والحلوى فيأكلون ويشربون ويملأون أكمامهم ، ويوزع أحد الأستاذين ما أنعم به الخليفة عليهم ، ثم يجلس الخليفة إلى المائدة يحيط به خاصته ومن حضر السهرة معه ، ويومىء الخليفة فيأكل كل من الحاضرين ثم يحمل معه لأولاده وأهله ، وكل من تناول شيئاً قام وقبل الأرض أمام الخليفة وانصرف .

* * *

ولم تكن العناية التي كان يوجهها الفاطميون في أسمطة العيدين بأقل منها في الأسمطة الأخرى ، فقد كان يقام يوم عيد الفطر سماطان : أحدهما بعد صلاة الفجر والثاني بعد صلاة العيد وهذا يجلس عليه الخليفة ، وطول السماط الأول الذي كان يمد في الإيوان (بقاعة الذهب) ٤٠٠ ذراع (نحو ١٧٥ مترا) وعرضه سبعة أذرع (نحو ٤ أمتار) .

وكان هذا السماط يحوى صحافا ملآى بالفطائر والحلوى ، ويدعى الناس إليه من كل الطبقات فيأخذ كل ما يحب ، إذ كانت الأطعمة من الوفرة بحيث كان ما يتبقى منها تأخذه العامة الذين كان يسمح لهم بحمله وبيعه ، وكان الخليفة يجلس في إحدى النوافذ ليمتع نفسه بهذا المنظر الذي كان مظهراً من مظاهر جوده وكرمه كما كان القصد منه أن يجذب قلوب الناس .

وكان يقام بجوار سرير الملك بقاعة الذهب ديسق (أي خوان من الفضة) مربع يجلس عليه الخليفة ، وقد وضعت عليه الصحاف الذهبية . أما السماط العام فكان من خشب مدهون ، وعرضه عشرة أذرع وطوله طول القاعة ، وكان يزين بأزهار ذات رائحة وألوان مختلفة ، وتوضع في طرفي السماط كتلتان كبيرتان من الحلوى على هيئة القصرين تسعة عشر قنطارا محلاة بطبقة من الذهب وقد مثل فيها بالنتوءات صور الإنسان وغيره من الحيوانات المختلفة

وقد وصف القلقشندى هذا السماط وصفاً شائقاً وأمدنا ببيان عما كان يستعمل فيه من الأوانى ، فقد كانت توضع عليه إحدى وعشرين جفنة ، فى كل منها واحد وعشرون خروفا وثلثمائة وخمسون من الطير ما بين دجاج وحمام ، وكان يوضع فيما بين هذه الجفان صحاف فى كل منها سبع دجاجات ، وتحاط هذه الصحاف والجفان بأنواع مختلفة من الفطائر والحلوى ، ويدعى لهذا السماط الوزير ويجلس عن يسار الخليفة ويرتدى حلة خاصة للأكل ، كما كان يدعى إليه أيضاً بعض الأمراء وكبار الرجال ، غير أنه لا يحتمل على أن يأكل هؤلاء كل هذا الطعام ، لذلك كان ما يبقى من هذه الأطعمة يرسل بعضه إلى دور أصحاب الرسوم وسائره يأكله غيرهم ممن كان يسمح لهم بحضور السماط بعد فراغ كبار المدعوين(١) .

ولم يكن هذا كل ما يقدم من الأطعمة فى العيدين ، فقد كان يصحب ذلك سماط آخر يعد فى دار الوزير ، يدعى إليه كثيرون من رجالات الدولة ، ثم يمنح ما يزيد عن حاجتهم من الأطعمة للعامة .

المواكب الفاطمية :

كانت مواكب الخلافة الفاطمية وحفلاتها الرسمية الشعبية ومآدبها تثير كثيرا من الروعة والبهاء ، وكان الخليفة إذا خرج فى الموكب خرج معه أحد الموظفين يحمل كيساً من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزع فى الطريق الذى يجتازه الخليفة على الرجال والنساء والقراء الذين يقرأون القرآن على جانبى الطريق ، وكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود فى أكياس خاصة فى كل منها درهمان أو ثلاثة ، وكان الخلفاء يركبون فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهرى وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة

وكان صاحب بيت المال فى صبيحة كل جمعة من هذه الجمع يشرف بنفسه على تأثيث المسجد الذى كان يصلى الخليفة فيه صلاة الجمعة ، فكانت توضع فى المقصورة ثلاث طنافس بيضاء بعضها فوق بعض ، وتوضع فوق الجميع الحصيرة التى يقال إنها كانت لجعفر الصادق وأحضرت إلى مصر فى عهد الحاكم سنة ٤٠٠ هـ .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٣٤ .

خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية (١) . وبين باب الديلم وباب تربة الزعفران توجد الخوخ السبع التى كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر فى ليالى الوقود (٢) فيجلس بمنظرة الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم ، الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر وكان يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة . وبجوار رحبة باب العيد ، دار الضيافة وكانت تسمى بدار سعيد السعداء ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة (٣) . وبين هذا الباب والجامع ، كانت خزائن القصر ، ومن بينها خزائن الكتب والمشروبات والأسلحة والكسى والفرش ، وكانت تقع فى الجهة الشرقية من القاهرة المعزية ، وقد دخل المعز ذلك القصر فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وأثثه بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الملوك والخلفاء (٤) .

وكان يقع أمام الباب الشرقى ، القصر الذى بناه العزيز ، وكان أصغر منه ، ويعرف بالقصر الغربى وقد بنى فى موضعه المارستان المنصورى الكبير ، ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف باسم سوق النحاسين (٥) وبجواره الميدان والبستان الكافورى (٦) ودار الضيافة القديمة ورحبة الإقبال ، وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندى أطلق عليه فيما بعد «بين القصرين» ، وقد اختط جوهر طريقا عاما يمر وسط القاهرة ، من باب زويلة جنوبا إلى باب الفتوح .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٧ .

(٢) ليالى الوقود : هى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان ، وكان الناس تبعاً للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان ، واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

(٣) سمى باب الزهومة لأنه كانت تهم منه رائحة اللحم . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٤ .

(٥) Lane- Poole : The Story of Cairo, p.125

(٦) البستان الكافورى : هو الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها الفاطميون ، وكان يقع غرب سوق النحاسين الآن Migeon: Art Musulman 11.p.14.

ويصف على مبارك مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز فى هذه العبارة : شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ضلعه ألفان ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها نحو سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فدانا للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان هى التى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيدا عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور (١) ، وبنيت الأبواب من حجر (٢) .

ولما اختط القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين بول إن بابى زويلة يتكونان من بابين متجاورين : أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ولهذا سمى « باب القوس » وقد مر منه المعز عند قدومه من بلاد المغرب فكان الناس يمرون منه تبركا ، أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه (٣) . ويقول القلقشندى إن جوهراً سمى بابى زويلة بهذا الإسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب ، ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب زويلة الكبير الذى لايزال باقياً إلى اليوم ، أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله إلى المكان الذى يوجد به الآن (٤) . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابه الذى لم

---

(١) ذكر الأستاذ مرجليوث فى كتابه : Margoliouth ; Cairo, jerusalem & Damascus أن السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٦٠ فدانا .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٨ .

(٣) Lane-Poole : The Story of Cairo, P. 129

(٤) صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٢٥ .

وكان ينصب على جانبي المنبر ستران يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين . وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضي القضاة حاملا مبخرة فيبخر المنبر والقبة التي كان الخليفة يقف تحتها وقت إلقاء الخطبة التي كان يضعها له أحد كتاب البلاط في ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدي في هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ويحمل قضيب الملك بيده ، يحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن سائر الجنود والأشراف ، ويتبع هؤلاء جمع غفير من الناس ، وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجية ، حتى يصل إلى قاعة الخطبة ، وهي قاعة استقباله الخاص ، يحرسها قاضي القضاة وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة ويظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان ، وعندئذ يدخل قاضي القضاة ويقول السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ! الصلاة ، يرحمك الله ، فيخرج الخليفة وحوله الأساتذة المحنكون ويتبعه الوزير وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح فينتصرون بين قاعة الخطابة والمنبر ، أما الخليفة فيستمر في سيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر ، ويقف الوزير على باب المنبر .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الحسين وخذلان الكفار والمشركين فإذا ما فرغ من خطبته قال «اذكروا الله يذكركم» . وكان الوزير يصعد فيحل الستر ين ويظل هو وقاضي القضاة على الباب ويقوم الأساتذة المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد هذا يأخذ الخليفة في الصلاة فيبلغ الوزير عنه ثم قاضي القضاة ثم المؤذنون ، فإذا ما انتهت الصلاة يخلو الجامع من المصلين ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه ، وقاضي القضاة وداعي الدعاة عن يساره ، وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التي اتخذها في ذهابه إلى الجامع[1] .

* * *

على أن الاحتفال بوفاء النيل أو جبر الخليج كان يعد أعظم الاحتفالات التي كانت تقام بمصر في كل عام ، فقد كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر . وفي ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسورة بديباج مطرز باسم الخليفة ، ويلي هؤلاء صنوف

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٨١ و٢٨٤ .

من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من جند الخليفة ، كما كانت أسرجة البغال محلاة بالذهب .

أما الجند فكانت تسير فى صفوف منتظمة ميممين شطر فم الخليج ، فيبدأ البربر فالمغاربة فالمصاعدة ثم الأتراك فالفرس ويتبعهم بدو الحجاز والسودان ، ويلى هؤلاء عدد من الأرقاء ورجال الحاشية والموظفون على اختلاف مراتبهم والشعراء والعلماء والأمراء ، ويركب الخليفة بغلة عارية من كل زينة ويسير حرسه بجواره حاملين المعاول والمزاريق ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد رجال الدولة يحمل المظلة ويحف بالخليفة وحامل المظلة خصيان يلقون البخور على جانبي الطريق حتى إذا ماوصل الخليفة إلى الفسطاط المقام عند فم الخليج قذف المزارق فى سد النيل ومن ثم ينطلق الناس يعملون فى هذا السد بمعاولهم فينساب الماء ، وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جذلين يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمنا وتفاؤلا (١) .

واحتفل الخلفاء الفاطميون بمواكب ليالى الوقود الأربع ، فكان قاضى القضاة يتقدم الموكب نائباً عن الخليفة ممتطياً جواده ، يحيط به ثلاث من ممثلى الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ومؤذنوا المساجد المختلفة يحمدون الله ويدعون للخليفة ، وكان الشهود يمتطون الجياد وبأيديهم الشموع المضاءة ويحفون بقاضى القضاة حرساً له . وكان خطباء مساجد الأنور والأزهر والحاكم يخطبون بين يدى الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم ، فإذا ما انتهى الخطباء فتحت نوافذ المنظرة ، فيظهر وجه الخليفة وحوله الشموع الساطعة ، ثم يحيى أحد الأساتذة المحنكين هذه الجموع المتلهفة ويلوح بكمه ، علامة الانصراف ويقول : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » . وبعد هذا يستأنف الموكب سيره حتى دار الوزير ، ثم يعود الموكب ماراً بالمساجد ، وكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة لحفظ النظام ، وكانت الأسواق تسطع بالأنوار وتكثر فيها الحلوى سداً لحاجة المشترين (٢) .

* * *

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٥١٤ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٥٩ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٥٠١ حسن ابراهيم حسن : نفس المصدر ص ٤٧١ — ٤٧٤ .

وكان الخليفة يركب فى أول يوم رمضان فى موكب رائع ، وقدامتطى أكرم الجياد وتزيى بأفخم الأزياء ونشرت مظلته بجانبه من ثيابه ، يحف به وجوه دولتـه ، كل على حسب مرتبته ، وحملة المباخر على الجانبين وصفوف العساكر فارسها وراجلها بزيها وزينتها ، وعن يمينه وشماله الموسيقى تصدح على طول الطريق . ويخرج بهذا الموكب من باب الذهب (أحد أبواب القصر) إلى باب الفتوح ، ويسير الموكب خارج أسوار القاهرة إلى باب النصر ، فيدخل المدينة منه ثانية ثم يتوجه إلى القصر ، وقد قام تجار القاهرة بتزيين طريق الموكب ، فكان يشترك فى ذلك الجوهريون والصيارف والبزازون (تجار الأقمشة) وغيرهم ، ويحتشد على جانبى الطريق خلق كثيرون من القاهرة ومصر يحيون الخليفة ويتبركون بالنظر إليه ، وكانت بدرات الدنانير والدراهم تنثر أمام الخليفة فيعم فيضها الرعية ، فإذا بلغ القصر دخـله من باب الذهب أيضاً فيتلقاه المقرئون بالقرآن الكريم على طول الدهاليز إلى أن يدخل خزانة الثياب ليغير ثياب الموكب .

مواسم الصيد :

ونختم كلامنا عن الحالة الاجتماعية فى ذلك العصر بالتحدث عن الصيد ومواسمه فى مصر الفاطمية ومبلغ ولع خلفاء الفاطميين به . فقد كان الخليفة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر شديد الشغف بالصيد ، وكذلك عرف عن باقى الخلفاء الفاطميين الاهتمام بالصيد والبراعة فيه ، حتى لقد كان الخليفة الحافظ لدين الله المتوفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) يصطاد جوارح كثير من البزاة والصقور والشواهين . كما أن الخلفاء الفاطميين كانوا يصطادون نوعاً آخر يعرف باسم البج وكلاهما من طيور الماء ، وقد خصصت دار لهذه الطيور عرفت بدار الطيور كما خصص للبيازرة حارة عرفت بهم . ومما يدل على العناية بالصيد فى عهد الدولة الفاطمية ، ماتراه من الصور المسجلة على كثير من الطرف الأثرية الإسلامية والقبطية المصنوعة فى العصر الإسلامى : فالأخشاب الفاطمية المخلفة من القصور الفاطمية والمحفوظة فى دار الآثار العربية تضم من ذلك كثيراً من المناظر وفى المتحف القبطى قطعة خشبية لصياد صوب سهمه إلى غزال كما أنه توجد لوحات أخرى خشبية تمثل طيوراً تهبط على غزلان فى حجاب فاطمى من كنيسة الست بربارة .

ثالثاً — فى عصر الأيوبيين والمماليك

١ — فى عصر الأيوبيين

كان معظم سكان القاهرة فى العصر الأيوبى من النصارى واليهود ، وهم أهل الذمة الذين كانت أغلبيتهم تعمل فى جباية الخراج وتشتغل بالطب . وكان المسيحيون يتميزون فى ذلك العصر عن غيرهم بتلك الزنارات التى كانت تطوق أوساطهم ، بينما كان يتميز اليهود بلبس العمائم الصفراء(١) .

الأعياد والمواكب :

وكانت أهم المواكب الأيوبية التى يظهر فيها السلطان وتتجلى فيها مظاهر العظمة والأبهة هى : صلاة الجمعة ، وصلاة العيدين ، ووفاء النيل .

ففى صلاة الجمعة ،اعتاد السلطان أن يخرج إلى الجامع المجاور لقصره ومعه خاصة أمرائه ، فيصلى فى مقصورة الجامع عن يمين المحراب ، ومن حوله أكبر الأمراء ، على أن يصلى بقية الأمراء خارج المقصورة عن اليمين واليسار ، وإذا ما انتهت الصلاة عاد السلطان إلى قصره تحوطه الفخامة والجلال .

وفى صلاة العيدين ، كان السلطان يركب من قصره وينزل إلى الميدان المجاور له ، ويجتاز طريقاً فسيحاً إلى أن يصل إلى جامع قلعة الجبل ، حيث كان يصلى صلاة العيدين ، وفيه يحضر خطيب الجامع ، فيصلى بالناس ويعظمهم ، فإذا ما فرغ من خطبته ركب السلطان من باب الحديد ومن حوله الأمراء ، حتى يصل إلى الإيوان الكبير حيث يمد السماط ، ويخلع الهدايا النفيسة على حامل المظلة وأمير السلاح والأستادار والجاشنكير(٢) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) سبق تفسير المعنى المقصود من هذه الألفاظ عند كلامنا على الموظفين .

وفى يوم وفاء النيل ، يركب السلطان من القلعة ، متوجها إلى المقياس فيدخله ، ويمد سماط يأكل منه من معه من الأمراء ثم يذاب الزعفران فى إناء فيأخذه صاحب المقياس الذى يسبح فى فسقية المقياس فيخلق العمود ، وتكون حراقة السلطان وحراريق الأمراء قد زينت ، ثم يفتح شباك المقياس المطل على النيل ، حيث ترى حراقة السلطان المعروفة باسم « الذهبية » تسير فى المقدمة ومن خلفها حراقات الأمراء وتسير خلفها حتى مراكب المتفرجين ، إلى أن تصل إلى الخليج ، فإذا ما قطع السد بحضور السلطان ، عاد إلى قلعة الجبل ، وفى تلك المناسبة كانت تطلق مدافع النفط .

الأسمطة والولائم :

تجلت الفخامة فى الأسمطة التى كان يقيمها سلطان مصر فى الإيوان الكبير أيام المواكب ، فكان يمد السماط وعليه أنواع الأطعمة الفاخرة ، ثم يجلس السلطان على رأس الخوان ، والأمراء عن يمينه وعن يساره حسب مراتبهم ، فيأكلون طائفة بعد طائفة ، وفيما عدا هذه الأسمطة الكبيرة ، يمد سماط مرتين فى اليوم : أحدهما فى أول النهار ويعمل على ثلاث دفعات ويتناول السلطان طعامه حين يمد الخوان الثالث ، وثانيهما آخر النهار وهو ما كان يعرف باسم « الخاص »(١) .

واشتهر من ألوان الطعام فى مصر إذ ذاك : الدميس ، والصير ، والصحناة ، والبطارخ والنيرة وهى الحلاوة المصنوعة من القمح . وعرف فى ذلك العصر عدد من الطهاة المهرة الذين أتقنوا فى طهى أنواع مختلفة من الطعام ، حين كانوا يعملون فى قصور الخلفاء والأمراء الفاطميين ، الذين امتاز عصرهم بتلك الأسمطة الرائعة التى كانت تقام فى المناسبات المختلفة والتى كانت تنفق عليها الأموال الطائلة .

ومما يلاحظ أن سعر الخبز فى العصر الأيوبى كان منخفضا فى القاهرة ، مما شجع على ازدحامها بالسكان ، لانخفاض مستوى المعيشة ، غير أن ذلك لا يمنع من القول بأن الفسطاط كانت أرخص أسعاراً من القاهرة لقربها من النيل ، حيث كانت تجرى المراكب حاملة إليها الخيرات المتنوعة .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦ .

كذلك كثرت فى القاهرة أصناف الفاكهة مثل : الرمان والموز والتفاح والخوخ والليمون الأخضر . أما العنب فكان مايصل منه إلى القاهرة قليلا لكثرة ما كان يعصر منه فى الريف المصرى ، كما اشتهرت القاهرة إذ ذاك ببساتينها التى كانت تزدان بأنواع الأزهار المختلفة من ورد ونرجس وبنفسج وياسمين .

أما الشراب ، فإن أهل القاهرة ، اعتمدوا على مياه الآبار ، إلا أن ذلك لم يمنع الكثيرين من سكانها من الشرب من مياه النيل فى أيام الفيضان ، وكانت العامة يشربون المزر الأبيض المصنوع من القمح ، حتى إن أثمان القمح كانت ترفع أحياناً مما دفع بعض الولاة إلى كسر أوانى الشرب(١) .

* * *

وكانت أهم الألعاب المصرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى واحدة ، مما سنفصله عند كلامنا عن الألعاب فى عصر المماليك . على أن أهم لعبة برز فيها سلاطين الأيوبيين ، كانت هى لعبة كرة القدم التى كان السلطان يخرج للعبها أو مشاهدتها فى موكب حافل .

٢ — فى عصر المماليك

طبقات الشعب : التتار والفرنجة :

عاش فى مصر فى عهد المماليك عدة عناصر من السكان بجانب المصريين ، أهمهم طائفة التتار . وقد قدم التتار إلى مصر فى أوائل عصر السلطان الظاهر بيبرس ، واعتنقوا الدين الإسلامى ، وازداد عددهم فى عهد السلطان العادل كتبغا سنة ٦٥٩ هـ ، وكان ترحيبه بالأمراء والجند المغول الذين فروا إلى مصر من وجه غازان بعد اعتناقه الإسلام من العوامل التى أساءت إلى سمعته كتبغا ، لأنه سمح لهم بالإقامة فى مصر رغم عقائدهم الوثنية وكثرة عددهم إذ كانوا نحو عشرة آلاف ، ورغم القحط السائد فى البلاد وكان قصده من ذلك أن يتخذ تلك الطائفة عوناً له ضد سائر المماليك ، مما أثار حقد الجيش وسائر السكان(٢) ، وقد اتخذ التتار مقراً لهم حى الحسينية .

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٦٥ — ٣٧٠ .

(٢) Wiet : Histoire la Nation Egyptienne, t. IV. pp. 464 - 466 .

وكانت أشلون خاتون أم الناصر محمد من التتار ، قدم أبوها سكتاى بن قراجين إلى مصر فى عصر الظاهر بيبرس ، وكان من أمراء المغول (التتار) الذين نزل بهم سخط ملكهم ، ويظهر أن أشلون كانت تجمع إلى شرف محتدها أخلاقا عالية وصفات سامية ، فقدر قلاوون فيها هذه الصفات لم حتى إنه أنفق الأموال الوفيرة فى إقامة الحفلات ومد الأسمطة ابتهاجاً بزفافها إليه .

وقد اتصف أبناء التتار بالجمال النادر ، مما كان سبباً فى تنافس أمراء الدولة على التزوج من بناتهم ، فتكاثر نسلهم فى القاهرة ، وصار أهل الحسينية يوصفون بالحسن والجمال ، وفى ذلك قال الشيخ تقى الدين السروجى :

يا ساعى الشرق الذى مذ جرى   جرت دموعى فهى أعوانه
خذ لى جوابا عن كتابى الذى   إلى الحسينية عنوانه
فهى كما قيل وادى الحمى   وأهلها فى السجن غزلانه
إمش قليلا وانعطف يسرة   يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب ذاك الذى   بحسنه تحدث جيرانه[1] .

وإلى جانب التتار والمصريين . كان هناك بعض طوائف من الفرنجة استوطنت الثغور المصرية ، واشتغلت بالتجارة ، ولم يكن لها أى نفوذ فى البلاد ، وعاشت طائفة الأكراد كذلك فى الديار المصرية .

* * *

ويمكن القول أنه لم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ فى البلاد سوى المماليك ، الذين كانت تتكون منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش ، ويسند إليهم أكبر مناصب الدولة . ومن الغريب أن المماليك عاشوا أثناء حكمهم مصر كطائفة منفصلة عما حوالها واحتفظوا بشخصيتهم ، ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان سواء فى ذلك الأقباط والمسلمون ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أى جزء من أجزاء ممتلكاتهم بالانخراط فى صفوفهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر ، وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك ، فقد اشترطوا ألاينخرط فى سلك المماليك الحربية إلا من

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١١٥ .

يستوردونه من جديد ، فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والإدارية ، ولا يسمحون لهم بالدخول فى الجيش . أما أهل مصر فكانوا فى عصر المماليك يتولون وظائف القلم ، ولم يكن لهم نصيب فى الجيش العامل ، اللهم إلا فى بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصناع والأتباع .

وبذلك يمكن القول بأن مماليك مصر لم يختلطوا بأهلها ، بل ظلوا بمعزل عنهم بجنسيتهم وعاداتهم . وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المماليك حتى صارت من أخص مميزاتهم . ولم يكن زواج بعض المماليك من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعياً إلى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم ، ولعل هذا كان ترفعاً منهم على أهل البلاد المحكومين ومحافظة على الأرستقراطية التى تؤهل للعرش ، بدون نظر إلى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية .

أهل الذمة :

أما المصريون ، ومعظهم من القبط ، الذين عاشوا فى مصر ، فإن حكام وولاة مصر الاسلامية لم يتبعوا فى معاملتهم سياسة واحدة ، بل اختلفت هذه السياسة ليناً وشدة ، ورأفة وعنفاً ، وأحسن معاملة رأوها ، كانت فى عصر الفاطميين ، فقد اتخذوا منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية الذين جمعوا ثروة كبيرة وأصبحوا ذوى نفوذ وسلطان ، وفى العصور الوسطى . ظهر الأقباط فى مصر كطائفة محايدة وخاصة فى الحروب التى قامت بين المسلمين والصليبيين إذ لم يثبت أنهم مدوا يد المساعدة للمحاربين من الجانبين ، لذلك تمتعوا بحماية الولاة الذين منحوهم أنواع الحرية الدينية(١) .

ولكن فى عصر المماليك ، قاسى القبط كثيراً من ظلمهم . وإن لم يتعرض المماليك لآرائهم الدينية ، ولم تكن سياسة سلاطين المماليك فى معاملتهم واحدة . والحق أن القبط كانوا ذوى نشاط ظاهر فى دواوين الحكومة المملوكية ، وكانوا لازمين لحسن سير الأمور المالية فى البلاد ، ومع ذلك فإن الحكومة كانت تقصيهم على الوظائف بين

---

(١) S.Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 272 .

حين وآخر ، تحبباً إلى الشعب وإرضاء لروح التعصب ، غير أن هذا الإقصاء كان قصير الأمد لأن وجودهم فى تلك الوظائف كان ضروريا ، فقد كان حكام مصر من المماليك يشعرون بخلل الأداة الحكومية بعد ترك الأقباط لها . وكان شعور المماليك يثور على رعاياهم من الأقباط ، بسبب استمرار ذلك العداء الذى قام بين المماليك والصليبيين .

ولم تقع حوادث تستحق الذكر بين المسلمين وأهل الذمة ، حتى كانت سنة ٧٠٠ هـ حين قدم إلى القاهرة فى شهر رجب من تلك السنة وزير أبى عنان فارس المرينى ملك مراكش ، وتكلم مع السلطان الناصر محمد فى تغيير زى النصارى ليتميزوا عن المسلمين ، فتأثر السلطان بكلام وزير مراكش ، وفرض عدة قيود على أهل الذمة ، ذكرها النووى بالتفصيل وهى :

« اقتضت المباحث الشريفة بين العلماء أن يميز النصارى بلبس العمائم الزرق ، واليهود بلبس العمائم الصفر وتميز نساء أهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر ، ولا يركبوا الخيول ، ولا يحملوا سلاحاً ، ويركبوا الخيل الأحمر بالأكف عرضاً من غير تزيين لها ولا قيمة عظيمة ، ويجتنبون أوساط الطرق توسعة للمسلمين ، ولا يرفعوا أصواتهم على أصوات المسلمين ، ولا يعلوا أبناءهم على أبناء المسلمين ، ولا يظهروا شعانينهم ، ولا يضربوا بالنواقيس ، ولا ينصروا مسلماً ولا يهودوه ، ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ولا من سباه مسلم ولا ماجرت عليه سهام المسلمين ، ومن دخل الحمام منهم يميز بعلامة عن المسلمين بجرس فى رقبته ، ولا ينقشوا فصوص خواتيمهم بالعربى ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يستخدموا فى أعمالهم الشاقة مسلما ، ولا يوقدوا النيران »(١).

ومما زاد الحالة سوءاً ، ذلك المرسوم الذى صدر فى ٢٠ رجب من تلك السنة (٧٠٠ هـ) يحرم استخدام أحد من النصارى أو اليهود بديوان السلطان أو بدواوين الأمراء إلا من أسلم منهم ، ونودى فى القاهرة بأن كل من خالف أحد هذه القيود يكون جزاؤه القتل .

وقد حاول النصارى واليهود التحرر من هذه القيود أو من بعضها وبذلوا

---

(١) نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ص ٣٣٠ .

الأموال الوفيرة . فلم تلق هذه الالتماسات أذناً مصغية من السلطان الذى أمر بإغلاق الكنائس بمصر والقاهرة حتى اضطر كثير من النصارى إلى اعتناق الإسلاء ليتخلصوا من هذه القيود ويحتفظوا بوظائفهم . على أن سفراء من إمبراطورية بيزنطة وملك ارغون نجحوا فى تخفيف تلك القيود ، والحصول على قرار بفتح الكنائس .

على أنه يجب أن يلاحظ أن ذلك المرسوم صدر بتحريض رجل لايمت إلى المصريين بصلة ، ومن المؤكد أن نفسه لم تتشرب روح العدل والمساواة بين الأهلين مهما اختلفت دياناتهم وتباينت نحلهم ، وهى الروح التى سادت معظم عهود حكم العرب منذ ظهور الإسلام والتى كانت من العوامل التى جعلت المصريين - وكان السواد الأعظم معهم من القبط — يرحبون بفتح مصر على يد عمرو بن العاص ، فيخلصهم من الاضطهادات الدينية التى حلت بهم أبان حكم الروم . ومن الغريب أن ذلك التحريض وذلك الانقلاب قد حدث فى وقت كان فيه المصريون يعيشون فى سلام ووئام وخاصة فى قرى مصر . أما فى المدن فإن المنازعات التى قامت بين المسلمين والأقباط لم تعد أن تكون حوادث فجائية لاتؤثر فى تلك الحقيقة الواضحة الملموسة ، وهى أن المصريين قبطا ومسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم جنسا واحداً يشترك فى تحمل عسف بعض أمراء المماليك .

على أن الناصر رغم ذلك كان يبذل قصارى جهده للتخفيف من وقع ذلك المرسوم والعمل على إقامة العدل والإنصاف بين أهل الذمة ، فحمى الكنائس من التخريب وأعاد فتح كثير منها ورفض أن يصدق الوشاة بأن كل حريق أو تدمير أو إضرار يقع للأهلين يكون ناشئا من المؤامرات التى يثيرها النصارى(١) .

ولكن بعض فقهاء المسلمين أعلنوا تذمرهم من المبالغة فى التراخى مع المسيحيين وحاولت العامة القيام على النصارى ، مما أثار شعور المسيحيين وجعلهم يعمدون إلى إشعال النيران فى القاهرة ، حتى كاد لايخلو منها موضع . وشاع أن الأقباط هم مدبرو هذا الحريق ، ومن ثم أعيد تنفيذ القرار الذى أصدره الناصر فى رجب

---

(١) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p.212 .

سنة ٧٠٠ هـ خاصاً بمعاملة النصارى . على أنه يظهر لنا أن الناصر إنما أكره على إصدار هذا القانون ردعاً لجماعة من « مفسدى النصارى » فإن الناصر عين بعض وزرائه من المسيحيين ، ومنهم الوزير عبد الكريم بن هبة الله الملقب باسم « كرم الدين » والوزير « شرف الدين النشو » ، ولكنه حين اتصل بعلمه شدتهما واغتصابهما أموال الأهلين أمر بالقبض عليهما وقتلهما .

وجملة القول أن الناصر محمدا قد أحسن فى مدة حكمه الطويل إلى كل من الأقباط والمسلمين ، إلا إذا استثنينا هذه الظروف التى أدت إلى معاملة إحدى هاتين الطبقتين معامله فيها شىء من الشذوذ .

وسار أولاد الناصر محمد وأحفاده على سياسة أبيهم فى العطف على المسيحيين . إلا أنه فى عهد ابنه السلطان الصالح صلاح الدين صالح وقعت بضع حوادث أدت إلى إصدار السلطان فى جمادى الآخر سنة ٧٦٦ هـ مرسوماً يشبه مرسوم رجب سنة ٧٠٠ هـ ، وتبع ذلك هدم بعض كنائسهم ومساكنهم . ولكن مالبثت الحال أن عادت إلى مجراها الطبيعى ، ودخل كثير من النصارى فى الإسلام ، وعادوا إلى مباشرة أعمالهم ، ثم تزوجوا من المسلمات ، وصار بعض أولادهم « قضاة وشهود وعلماء » .

ولم تقع بعد ذلك حوادث من هذا النوع تستحق الذكر فى البقية الباقية من عصر دولة المماليك ، وهدأت الأمور ، واستقرت الأحوال .

المواكب :

تعددت المواكب فى عصر المماليك حتى شملت : موكب السلطنة ، والاحتفال بجبر الخليج ، وصلاة الجمعة والعيدين ، ولعب الكرة ، والخروج إلى سرياقوس ، والسرحات أى الصيد الذى كان يخرج له السلطان سبع مرات فى فصل الربيع :

١ — ظل سلاطين مصر من المماليك بعد بيبرس يتبعون نفس نظام موكب السلطنة الذى كان يتبع عند اعتلائه كل منهم العرش وتقليد الخليفة لهم أمور البلاد. وفى ذلك الموكب كان يركب السلطان والخليفة والوزراء والأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة إلى خيمة تقام خارج باب النصر ، وهناك يلبس الخليفة السلطان خلعة

السلطنة ويعود السلطان بموكبه بعد ذلك إلى القاهرة لابساً تلك الخلعة ، ومخترقا طريقاً مفروشاً بالبسط ، يمتد من باب النصر إلى القلعة .

وفى عهد أولاد الناصر أدخلت تعديلات جوهرية على نظام موكب السلطنة ، وأصبح أكثر روعة وبهجة ، فضلا عما أحيط به من مظاهر الفخامة والأبهة .

وهنا يجب أن يلاحظ أن السلطان الناصر كان آخر من ركب بشعار السلطنة(١) وخلعة الخلافة والتقليد من سكان مصر . وكان أول من ركب بها منهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يركب بها من سلاطين المماليك أحد قبل بيبرس(٢) .

٢ — أما هيئة السلطان فى « الركوب لجبر الخليج » فسنقتصر فى وصفها على بيان الحرس السلطانى وأنواع الأدوات التى كان يخرج ويعود بها فى مثل هذا الموكب. يقول القلقشندى : «واعلم أن السلطان قد يركب لجبر الخليج من القلعة عند طلوع صاحب المقياس بالوفاء فى أى وقت كان، ويتوجه إلى المقياس فيدخل من بابه ،ويمد هناك سماطاً يأكل منه هو ومن معه من الأمراء » (٣) .

— أما صلاة العيدين وهيئة السلطان فيها ، فقد وصفها القلقشندى بقوله : «وأما صلاة العيدين، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من منفذه من الإصطبل إلى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دهليز على أكمل ما يكون من الهيئة ، ويحضر خطيب جامع القلعه إلى الميدان فيصلى به العيد ويخطب ، فإذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والمماليك يمشون حوله ، ويخرج من باب الإصطبل ويطلع إلى الإيوان الكبير حيث يمد السماط .

٤ — وكان السلطان يخرج للعب الكرة « على الهيئة المذكورة فى العيد ، ما عدا الجتر وهو المظلة فإنه لا يحمل على رأسه ، بل تحمل الغاشية أمامه فى أول

---

(١) شرح القلقشندى (صبح الأعشى فى مواضع متفرقة) شعار السلطنة من أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها فى موكب السلطنة ونحوه من الملابس . ولم يكتب فى هذا الموضوع بهذه الإقامة غيره من الكتاب المعروفين .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ . الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٣) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٤٧ — ٤٨ . أنظر كذلك خطط المقريزى ج ٢ ص ٧٤٠ و٤٨٩ — ٤٩٣ لمعرفة تفاصيل حفلات « تخليق المقياس وفتح الخليج » .

الطريق وآخره ، ويسير إلى الميدان » (١) .

ووصف المقريزى رسوم السلطان فى خروجه إلى سرياقوس من ضواحى القاهرة وغيرها من الأسفار ، فقال إن السلطان كان فى مثل تلك الحالات « لايتكلف إظهار كل شعائر السلطنة ، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه . وأما هو بنفسه فإنه يركب ومعه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص وجملة من خواص مماليكه ، ويقصد فى الغالب تأخير النزول إلى الليل ، فإذا جاء الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل ، فإذا قارب مخيمه تلقى شموعا موكبية فى شمعدانات ونزل الناس كافة إلى حملة السلاح فإنهم وراءه حتى يصل إلى القصور بسرياقوس أو الدهليز من الخيم ، فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة ودار بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهليز فى كل ليلة وتدرو بسرياقوس حول القصر فى كل ليلة مرتين: الأولى حين يأوى إلى النوم والثانية عند قعوده من النوم» .

بذلك كان لكل من هذه المواكب نظام خاص وترتيب معين ، فقد كان يخرج فى معية السلطان أعيان الدولة وكبار موظفيها ويسير خلفه كثير من المماليك السلطانية ويصحبه الخاصكية مرتدين الثياب المزركشة ومتمنطقين بالسيوف اللامعة مما كان يكسب تلك المواكب جلالا وأبهة .

الملابس :

كان أهم مايسترعى النظر فى عصر المماليك ، تلك العناية الفائقة بالملابس التى كانت تخاط وتزين بحوانيت الخياطين والرسميين والخلعيين الذين يصنعون الخلع الملوكية ، فقد نهض المماليك فى صناعة المنسوجات التى كانوا يصنعون منها ملابسهم حتى كان للمصريين شهرة عالية فى ذلك المضمار ، وكان المماليك يستعملون الفراء ولهم سوق عرفت بسوق الفرائين يسكن فيها صناع الفراء وتجاره ، فعرف بهم . وكان يوجد فى سوق الجمالين الصغير بالقاهرة كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان ، وأصناف ثياب القطن ، وبه عدد من الخياطين والغزالين ، وكانت سويقة أمير الجيوش فى عصر المماليك أكبر أسواق القاهرة ، بها عدة حوانيت فيها

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦ .

الرفاءون والحائكون والرسامون (أى حوانيت التطريز) والفراءون والخياطون ومعظمها لسكنى البزازين والخلعيين (الذين يصنعون الخلع) ، ويباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة (وهى أشبه بشركات الملابس) (١) .

من ذلك نرى مبلغ اهتمام المماليك بالملابس الثمينة ، وكان الجند فى ذلك العصر يلبسون على رءوسهم الكلوتات (٢) التى استحدثت فى مصر فى عهد الأيوبيين الذين اتخذوها من الجوخ الأصفر بغير عمامة ، وذوائب شعورهم مرخاة من تحتها . ولما انتقل الحكم إلى المماليك لبس جندهم الكلوتات الصفر بغير عمامة ، وظل ذلك متبعاً فى عهد السلطان الناصر . وقد أخذت طريقة لبس الكلوتة أشكالا مختلفة ، كما كان لونها يتغير حسبما يراه كل سلطان : ففى عهد السلطان قلاوون أضيف لبس الشاش على الكلوتة ، ثم فى عهد ابنه السلطان خليل تغير لون الكلوتات من الصفرة إلى الحمرة وأصبحت العمائم تلبس فوقها مع بقاء لبسها فوق ذوائب الشعر فى أكياس من الحرير الأحمر والأصفر ، يطلق على كل منها اسم الدبوقة ومقلعة من الرأس إلى الخلف وتوضع فيها جدائل الشعر بعد تصفيفها وضبطها على نحو ما كان سائداً فى عصر الأيوبيين (٣) .

وفى عهد السلطان الناصر محمد استحدثت العمائم الناصرية ، وكانت عمائم صغيرة حتى لاتعوق الجندى فى أثناء القتال ، وأصبح لبس العمامة أمراً قوميا حتى صار نزعها أو تغييرها من العار . ولكن بطل إرخاء ذوائب الشعر حين حلق السلطان الناصر رأسه بمناسبة رحيله إلى الحج فبادر الأمراء والجند إلى تقليده وحلقوا رؤوسهم (٤) .

وكان الجند يلبسون أقبية(٥) بيضاء ضيقة الأكمام مصنوعة من القطن البلجيكى

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .

(٢) الكلوتات ــ جمع كلوتة ، بتشديد اللام : هى كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٩ ــ ٤٠ . السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص٧٤

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٧ . ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ .

(٥) الأقبية : جمع قباء : وهو يلبس فوق الثياب .

وهى زرق أو حمر . ومن فوق هـذا القباء كمران (١) بحلق وأبزيم (٢) كما كانوا يشدون على أوساطهم بنوداً من القطن ، ويلبسون فى أرجلهم خفاً فوقه خف آخر يقال له السقمان (٣) ، ويتخذ من الجلد البلغارى الأسود ، ويثبت فى هذه الأخفاف المهاميز التى كانت تصنع من الحديد أولا . ولما زادت ثروة الجندى عن طريق الإقطاعات ، اتخذوها من الفضة ، ثم من الفضة المكفتة بالذهب ، ثم اتخذت المهاميز أخيراً من الذهب (٤) .

ومما كان يستعمل فى عصر الناصر حقائب كبيرة من الجلد البلغارى تسمى الصوالق (واحدها صولق) (٥) . وتعلق بالمنطقة إلى الجانب الأيمن من الحزام ، وكانت الواحدة منها تسع نحو نصف ويبة ويعلق فيها منديل طوله نحو ثلاثة أذرع ، ولعل الصوالق تشبه ما يستعمله الجندى الآن فى رحلاته من حمل حقيبة وراء ظهره يأخذ فيها زاده وذخيرته ، ويظهر أن الدافع لهم على تكبير حجم هذه الصوالق إنما يرجع إلى احتياجهم لها وقت جمع الأسلاب والغنائم (٦) . ويمكن القول أن زى الجند فى العصر المملوكى قد بلغ درجة كبيرة من حسن الرونق وبديع التنسيق ، حتى أصبح جمال هندامهم مضرب الأمثال فى غير مصر من الأقطار (٧) .

وكانت الطرحات من مميزات لباس القضاة فى عصر المماليك بمصر ، وكانت الطرحة والعمامة والشاشة تصنع كلها من قماش أسود . وفى القلقشندى وصف دقيق لأزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فى ذلك العصر ، هاك نصه : « ويختلف ذلك (أى لباس رجال الدين) باختلاف مراتبهم : فالقضاة والعلماء منهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة

---

(١) كمران : هى جمع كمر وهى كلمة فارسية معناها الحزام المفرغ من وسطه لحشو النقود ونحوها .

(٢) الأبزيم ، كما ورد فى اللسان ، حديدة تكون فى طرف الحزام يدخل فيها الطرف الآخر .

(٣) السقمان : خف ثان يلبس فوق خف آخر .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٤١ . المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٩٨ .

(٥) راجع المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٦٨٩ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٧ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣٠ .

(٧) أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٧ ص ١٤٢ .

تلحق قربوس (١) سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوقه دلقا متسع الأكمام طويلها ، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه ، ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره . وكان قبل ذلك مختصا بالشافعى ، وكان من دونهم عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه ، من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان الأعلى من ملبوسهم من الصوف الأبيض المطلى ، ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات ، ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفى بغير مهاميز » (٢) .

وذكر ابن بطوطة فيما شاهده من أزياء القضاة فى مصر أن قاضى الإسكندرية عماد الدين الكندى كان يلبس عمامة تخالف غيرها من العمائم المعتاد لبسها إذ ذاك ، وقال : « لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب » (٣) .

وفى سنة ٧٦٣ هـ أمر السلطان الأشرف شعبان بن حسن ، حفيد الناصر محمد أن يلبس أشراف مصر والشام عمائم ، على كل منها علامة خضراء تميزها ، إجلالا لمقامهم وتعظيما لقدرتهم ، كى يحسن استقبالهم ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين ، ومنذ ذلك التاريخ وضع كل شريف تلك العلامة الخضراء على عمامته ، وظل الحال على ذلك طوال عصر دولة المماليك فى مصر .

وفى ذلك يقول شمس الدين محمد بن إبراهيم :

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر كأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها ... شرفا لنعرفهم من الأطراف

---

(١) القربوس : حلقة عنان الدابة .

Dozy : Dictiounaire Detaillé des Noms des Vetéments chey Les Arabes.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١ — ٤٢ . راجع لتفسير أسماء الملابس الواردة فى هذا النص : طيلسان ص ٢٧٨ — ٢٨٠ ودلق ص ١٨٣ — ١٨٥ وفرجية ص ٣٢٧ — ٣٢٤ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ١٠ .

ويقول ابن جابر الأندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال ابن حبيب الحلبي :

عمائم الأشراف قد تميزت بخضرة رقت وراقت منظرا
وهذه إشارة أن لهم فى جنة الخلد لباساً أخضرا (١).

وشاع بين رجال دولة المماليك من الأمراء والأجناد ومن يتشبه بهم، لبس الطواقى على رءوسهم بغير عمامة فى أيام دولة المماليك البرجية ، وصاروا لا يرون فى ذلك بأساً بعد أن كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة . وتنوعت هذه الطواقى ما بين خضر وحمر وزرق وغير ذلك من الألوان ، وبلغ ارتفاعها ثلثى ذراع،وكان أعلاها مدوراً ، وذاع كذلك استعمال الفراء فى أيام السلطان الظاهر برقوق ، وكذلك لبس فرو السمور بعد أن كان من أعز الأشياء التى يستطيع كل فرد اقتناءها .

وكان السلطان المملوكى يظهر فى المواكب التى يخرج فيها بأنواع مختلفة من الملابس ، وكان للملابس السلطانية موظفون يختارون للسلطان الملابس المناسبة له فى المواكب والحفلات ، ومنهم الجدار ووظيفته مباشرة أمر الملابس ، والبشمقدار ويحمل نعل السلطان (٢) .

وكانت السيدات فى عصر المماليك يلبسن «الطواقى» كما يلبسنها اليوم. ولما اتسعت ملابس السيدات فى عصر السلطان برقوق وبعد أن أبطلت بأمر السلطان الناصر حسن سنة ٧٥١ هـ (٣) حتى كانت أكمام القميص وبدنه اثنتين وسبعين ذراعا من القماش أى ما يقرب من ثلاثة وأربعين متراً ، قرر كمشبغا والى القاهرة فى عهد برقوق نقص هذا المقدار إلى أربعة وعشرين ذراعاً ، كما أمر يشبك الجمالى محتسب القاهرة فى عهد السلطان قايتباى بأن ينادى بألا تلبس النساء العصابة المقنزعة (أى القصيرة)

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول س ٢١٥ — ٢١٨ . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ س ٢٧٧ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك س ١٠٤

Lane—Poole : The Art of the Saracens, p. 31,

(٣) بدائع الزهور جـ ١ س ١٩٣ .

من الحرير ، وألا يقل طول العصابة عن ثلث ذراع ، وأن تكون مختومة من الجانبين بخاتم السلطان . وأرسل المحتسب نوابه إلى الأسواق ، وبث عيونه فى المجتمعات العامة ، فإذا عثر أحدهم على امرأة تلبس هذا النوع الذى حرمته الحكومة ، أهينت وعلقت العصابة فى عنقها على مرأى من الناس ، وكان من أثر ذلك أن نزل النساء على أمر المحتسب ، ولبسن العصائب الطوال إذا ما خرجن من بيوتهن (١) .

وفى ذلك قال زين الدين بن النحاس :

أمر الإمام مليكنا بعصائب   فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسنها   ودخلن تحت عصائب السلطان

الألعاب الرياضية :

كان المماليك بمصر أشبه بطبقة من الفرسان فى أوروبا فى العصور الوسطى . لذلك عنوا بالالعاب الرياضية مثل لعب الرمح ورمى النشاب والرماية ، والصيد ولعب الكرة وسباق الخيل .

وكان السلطان الظاهر بيبرس حاذقا فى رمى السهام ، حتى بلغ من عنايته بالرماية أن أقام ميدانا ودارا خارج باب النصر ، كان يمكث فيها من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس ، يشجع الأمراء ورجال الحاشية على الرماية . وقد أطلق على الهدف الذى كان مستعملا فى الرماية اسم «القبق» .

وقد وصف المقريزى لعب القبق فى هذه العبارة : « القبق عبارة عن خشبة عالية جداً ، تنصب فى برج من الأرض . ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة ، لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمريناً لهم على إحكام الرمى» (٢) .

وأوضح المقريزى أهمية رمى القبق عند المماليك وإقبال السلاطين والأمراء على ذلك النوع من الرياضة فى هذه العبارة : «كان لرمى القبق ميدان خاص خارج القاهرة ، يقال له ميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق .

---

(١) Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 110

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١١١ .

وهو ميدان الظاهر بيبرس . وقد بنى مصطبة فى المحرم من سنة ٦٦٦ هـ ، عندما احتفل برمى الشاب وأمور الحرب ، وحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب . وصار ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة فلا يركب منها إلى العشاء الآخرة ، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمى والنضال والرهان ، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله ، وتوفر الناس على الرمح ورمى النشاب ، وما برح من جاء بعده من أولاده والملك المنصور سيف الدين قلاوون والملك الأشرف خليل بن قلاوون يركبون فى الموكب لهذا الميدان » (١) .

وقد وصف أبو المحاسن لعب القبق وصفا يختلف عن الوصف المتقدم ، فيقول إن طريقة لعب القبق : «أن ينصب صار طويل ، ويعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضة ، ويجعل فى القرعة طير حمام ، ثم يأتى الرامى بالنشاب وهو سائق فرسه ، ويرمى عليه ، فمن أصاب القرعة وطير الحمام ، خلع عليه خلعة تليق به ثم يأخذ القرعة» (٢) .

ومن الألعاب التى اشتهر بها المماليك ، الصيد ، ومما رواه المؤرخون يتضح مدى اهتمام السلاطين بالصيد . يقول المقريزى : « فى المحرم سنة ٦٦٣ هـ توجه الملك الظاهر من قلعة الجبل إلى الصيد ، فأقام بوسيم ، ثم سار إلى العباسية ورمى البندق » (٣) . وروى النويرى : « حكى لى بعض من أثق بهم عن الأمير بدر الدين بكتوت العلائى حكاية عجيبة تتعلق به وبالسلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ، أحببت ذكرها هنا ، والشىء بالشىء يذكر . قال بكتوت العلائى : كنت فى خدمة السلطان الملك الأشرف فى الصيد ، وأنا والأمير حسام الدين لاجين سلاح دارية ، نحمل السلاح خلف السلطان ، فاجتمعنا بحلقة صيد وكانت النوبة فى حمل السلاح خلف السلطان للأمير حسام الدين ... » (٤) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١١ — ١١٣ .

راجع أيضا ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦ . المقريزى . كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٨٥ — ٧٨٦ Lane—Poole ; The Art of the Saracens. p. 33. حيث تجد تفصيلات عن لعب القبق .

(٢) أبو المحاسن : الزاهرة النجوم جـ ٨ ص ١٦ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٣٢ .

(٤) نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ص ٣٢٠ ب .

كذلك حذق المماليك لعبة « صرع الطيور » . ويقول عنها المقريزى : « فى سنة ٦٨٣ هـ [فى سلطنة قلاوون] سرح الملك الصالح على، ومعه أخوه خليل إلى العباسة ومعهما الأمير بيبرس الفارقانى – وإليه يومئذ أمر رماة البندق – فأقاموا أياماً فى الصيد ، ومعهم جماعة كبيرة من الرماة ، فصرع الصالح طيرا خطته الرماة ، وصرع أخوه خليل بعده طيراً آخر ، فبعث الفارقانى يبشر السلطان بذلك » (١) .

وشغف سلاطين المماليك بالخيل . وكان أشهر السلاطين شغفا بها هو الناصر محمد، فقد عنى بشراء الخيل العربية الأصيلة ، وبذل فى شرائها أموالا ضخمة ، حتى كان ثمن الواحد منها أحيانا ثلاثين ألف درهم، وكان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء، والإخلاص لعرشه وعلى أفراد حاشيته المقربين له ، واشتهر بشدة العناية بأمرها ، حتى صارت له دراية عظيمة بأنواع الخيل التى يشتريها، فيذكر أسماء بائعها وتاريخ شرائها وثمن كل منها ، وبلغ عددها فى عهده أربعة آلاف وثمانمائة من الخيل وخمسة آلاف من الهجن والنوق ، وعرف سباق الخيل فى عهده ، وكثرت حتى بلغت مائة وخمسين (٢)

وقد اعتمد المماليك على الخيل فى حروبهم . وصارت الفروسية فى عهد المماليك فنا عظيم الشأن ، أفردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة ، وكان للاصطبلات السلطانية إدارة خاصة ، عرفت باسم «الركاب خاناه» . وكانت هذه الدار من أهم البيوت السلطانية ، فقد كان عدد الاسطبلات التابعة لها وفيراً (٣) .

ومما جاء فى القلقشندى نتبين مقدار الأموال الطائلة التى كان ينفقها السلطان فى شراء الخيول التى ينعم بها على أمرائه ومماليكه : « قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين فى كل سنة : الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على القرط فى أواخر ربيعها فينعم على أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم . والمرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان ، وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية ، كل أحد بحسبه ... » (٤) .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٢٥ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢ .

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ٥٤ـ ٥٥ .

يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى (١) . وهذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناءها بدر الجمالى ، تجمع بين سلامة الذوق ودقة البناء ، وهى من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها (٢) .

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ، وليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة (٣) ، وكان سكانها جميعاً من الشيعة ، ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المبانى الفخمة والقصور الشاهقة والأسواق الكبيرة وأنشئت فيها الحدائق الغناء وبنيت بها الدور والحمامات والحوانيت والمدارس والمساجد والفنادق واختطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات (٤) .

وقد وصلت هذه المدينة إلى درجة كبيرة من الرقى فى العمارات وبالغت الحكومة والأهالى فى تحسينها وتجميلها حتى اتصلت بالفسطاط ، فصارا بلداً واحداً ، وقد فضلها كثير من الرحالة الذين شاهدوها على مدينة الفسطاط وهى فى أوج عظمتها فذكروا أنها كانت أعظم عمارة وأكثر دوراً .

وعلى الرغم مما وصلت إليه القاهرة من الرقى والتقدم فى فن العمارة ، فقد كانت دروبها ضيقة مظلمة كثيرة التراب ، كما كانت مياهها غير صالحة للشرب لبعد النيل عنها . وفى ذلك يقول ابن سعيد « هذه المدينة أسمها أعظم منها ، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، ولقد كنت إذا مشيت يضيق صدرى وتدركنى وحشة حتى أخرج إلى بين القصرين » .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨١ .

(٢) Mme. R.L. Devonshire :Quatre– Vingts Mosquées du Caire, P. 21.

(٣) Lane–Poole : The story of Cairo, p. 125.

(٤) على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ٨٨ — ٩٧ و « القاهرة المعزية » ، جريدة الأهرام ، بصحيفة الآداب والعلوم والفنون فى ١٩٣٣/٨/٨ .

الجامع الأزهر :

ولما جاءت الدولة الفاطمية وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ أسس مدينة القاهرة فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط ، والعسكر) لتكون أشبه بمدينة حصينة ومعقلا لجنده وأنصاره من المغاربه ولتقيه شر القرامطة . وكان المذهب السنى فى ذلك الوقت منتشراً ، ولم ير جوهر بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر أن يفاجىء السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى ، نخص منها بالذكر تلك العبارة : « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » ، التى كان يذكرها الفاطميون فى الخطبة ، حتى لا يثير جوهر حفيظة المصريين .

لذلك عول جوهر على تلافى الشر قبل وقوعه . فبنى مسجداً يتلقى فيه الناس عقائد المذهب الفاطمى ، ومن ثم شرع فى بناء الجامع الأزهر فى يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) وتم بناؤه فى سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٠ هـ (٢٢ يونيو سنة ٩٧١ م) .

كان الأزهر أول مسجد شيد فى مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع فى العالم الإسلامى ، وأعظم جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية تقصده آلاف الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه (١) .

وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذا الجامع : فقال بعضهم إنه كان يحيط به القصور الزاهرة التى بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ولهذا سمى بالأزهر ، وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبيرة بازدهار العلوم فيه ، ويظهر لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا ، وما إلى ذلك من الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات ومغاطس

---

(١) Wiet : Précis d'Histoire Musulman de l'Egypte, p. 33

الولائم :

تجلت مظاهر العظمة والأبهة فى بلاط معظم سلاطين المماليك ، وأعظم دليل على ذلك ، تلك الأسمطة التى كانت تمد بالإيوان الكبير بدار العدل فى أيام المواكب فتقدم فيها مقادير ضخمة من اللحوم والدجاج والأوز وسائر الأطعمة الفاخرة .

وقد وصف القلقشندى الأسمطة السلطانية فقال : « إعلم أن أسمطة السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب ، وإذا خرجت القضاة وسائر الأقلام من الخدمة مد السماط بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة الملونة الفاخرة ، ويجلس السلطان على رأس الخوان والأمراء يمنة ويسرة على قدر مراتبهم فى القرب من السلطان ، فيأكلون أكلا خفيفاً ثم يقومون ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ثم يرفع الخوان . وأما فى بقية الأيام فيمد الخوان فى طرفى النهار لعامة الأمراء خلا الأجانب فإنه لا يحضره منهم إلا القليل النادر »(١) .

وقد وصف ابن فضل الله العمرى بعض ألوان الطعام التى كانت معروفة عند المماليك فى قصيدة له ، بمناسبة صحبته للسلطان الناصر محمد عند زيارته للدير الأبيض بوادى النطرون ، نذكر منها :

هذا وكنا قد أمرنا الطاهى	بأخذ تلك الجلة الزواهى
فأتقن الجميع بالتنظيف	وزانها فى الوضع والتصنيف
وصب من أطايب الأصلاص	حقائبا مسدودة العفاص
ونضد البقول فى الأطباق	مثل الحرير لف فى الأوراق
ووضع الكماج والرقاقا	حتى استدار حولها نطاقا
وقرب الحلواء ملء الجام	كمثل قرص الشمس بالتمام

وقد اتخذت مآدب المماليك مظاهر خاصة من الأبهة والبذخ ، فإنه لما فرغ السلطان الناصر محمد من بناء القصر الأبلق بقلعة الجبل ، دعى الأمراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة لافتتاحه ، وبدىء الاحتفال بتلاوة آى الذكر الحكيم

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦ .

ومد سماط عظيم ، كما ملئت فسقية القصر بعصير الليمون الممزوج بالسكر والماء المثلج فأكلوا وشربوا ، ثم خلع السلطان على الأمراء والعلماء ووزع الصدقات على الفقراء .

ومن الأمثلة التى توضح إسراف المماليك فى إقامة الأسمطة ، ما قيل من أن السلطان الغورى مد ، فى المحرم سنة ٩١٥ هـ ، سماطا حافلا كان به أربعمائة صحن صينى وألف وخمسمائة رطل من اللحم ، وألف طير من الدجاج وخمسون من الغنم ، وبلغ مقدار ما تكلفه ذلك السماط من الأموال ألف دينار .

وكانت الفواكه التى تنبت فى بساتين ضواحى القاهرة ترد إلى فندق دار التفاح بالقرب من باب زويلة . وبظاهر هذه الدار حوانيت فيها الفاكهة التى كان الباعة يعنون بتنظيمها وتصنيفها وتزيينها بالرياحين والأزهار . وولع المماليك بإنشاء البساتين فى مصر ، فغرس السلطان الناصر محمد بستانا كبيراً فى سرياقوس نقل إليه الأشجار والفواكه . وعنى السلطان الغورى بغرس الأشجار بميدان قلعة الجبل ، وذلك يدلنا على أن الفاكهة كانت من الأطعمة الرئيسية عند المماليك(١) .

الأعياد :

ظلت الأعياد فى دولة المماليك ، تقام بنفس مظاهر البهجة والسرور ، التى كانت تقام بها فى دولة الفاطميين ، اللهم إلا ما كان من إلغاء عيد الشهيد بمصر .

ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المسيطر على شئون مصر ، سار مع الأمير سلار نائب السلطنة إذ ذاك على سياسة اضطهاد النصارى واليهود ، فأمر بإغلاق الكنائس بمدينة القاهرة . وذكر المقريزى أن بيبرس أمر كذلك بإبطال عيد الشهيد بمصر ، إذ جرت عادة الأقباط بأن يلقوا فى النيل فى كل عام تابوتاً من خشب بداخله أصبع من أصابع أسلافهم الموتى . وكانوا يعتقدون أن النيل لا يزيد إلا إذا ألقى فيه هذا التابوت كما كانوا يفدون من جميع جهات القطر إلى شبرا لمشاهدة رمى الأصبع ، ويخرج أهالى مصر والقاهرة على اختلاف طبقاتهم وينصبون

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣٦١ .

الخيام على شاطىء النيل وفى الجزائر القريبة منه . وأضاف المقريزى إلى ماتقدم أن إبطال هذا العيد قد شق على النصارى وأن شكواهم لم تلق من بيبرس الجاشنكير أذنا مصغية لإعادة الاحتفال به . وغدا ذلك الأمر من العوامل التى أثارت النصارى على المسلمين فى عهد سلطنة الناصر محمد الثالثة ، وأعيد عيد الشهيد فى أواخر عهد الناصر محمد سنة ٧٣٨ هـ ، وما لبث أن ألغى سنة ٧٥٥ هـ فى عهد السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد ، ولم يعد هذا العيد مرة أخرى منذ ذلك العهد[١].

أما النيروز . وهو أول السنة القبطية بمصر وأول يوم من توت ، فقد ظل قائما فى دولة المماليك كغيره من الأعياد على النحو الذى كان يقام به فى دولة الفاطميين حتى أمر الأمير برقوق ، قبل أن يجلس على عرش السلطنة ، بإلغاء الاحتفال به وهدد من أحياه بالعقوبات الصارمة ، ومنذ ذلك التاريخ ـ على ما يقول المقريزى ـ « عكف الناس عن اللعب فى القاهرة ، وصاروا يعملون شيئا من ذلك فى الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه ، بعدما كانت أسواق القاهرة تعطل فى يوم النيروز عن البيع والشراء ، ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب مايخرجون به عن حد الحياء والحشمة ، إلى الغاية من الفجور ، فما انقضى يوم نيروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر ، ولم يبق الآن للناس من الفراغ مايقتضى ذلك ، وما أحسن ما قال بعضهم :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكنى　　　وكل ما فيه يحكينى وأحكيه
فتارة كلهيب النار فى كبدى　　　وتارة تتولى دمعتى فيه[٢]

الغناء والخمر :

كان بعض سلاطين المماليك يميلون إلى سماع الموسيقى والغناء كالسلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، والسلطان الغورى الذى كان إذا أراد الاستراحة من

---

(١) المقريزى : السلوك (مخطوط) ج ٢ ص ١٥ ـ ١٧ .
٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٩ .

عناء الملك خرج إلى مقياس الروضة أو قبة الأمير يشبك ، وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين ، وقد بلغ من شغفه بالغناء أنه ألف بعض الموشحات والألحان التى كان يغنى بها فى عصره ، ومن ذلك قوله :

بالملك أنعم ربنا الرحمن وهو الكريم المنعم المنان
فله علينا الشكر حق واجب يقضيه قلب مخلص ولسان

وتجلت فى حياة المماليك مظاهر الترف ، فيعطرون لحاهم بالمسك ويرشون على ثيابهم الفاخرة ماء الورد ، وكثيراً ما يحرقون عود الند لينتشر شذاه فى الحجرات كما كانوا يفرشون منازلهم بأثمن الطنافس والبسط ويقتنون أوانى الشراب والطسوت المطعمة بالذهب والفضة .

وكان من أثر مظاهر الترف والبذخ التى انتشرت فى المجتمع المصرى فى عهد المماليك ، أن اختلطت حياة الجد بحياة اللهو ، حتى أغضب ذلك بعض السلاطين كالملك الظاهر بيبرس ، فإنه اضطهد المغنين والمغنيات ، وأصدر أوامره سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م) بإغلاق الحانات ولاسيما ما كان منتشراً منها بالاسكندرية ، وفرض العقوبات المشددة على من يتعاطى الخمر ، ولقد حدث أن جيء له بسكير ، فأمر به فصلب ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه ، فقال فى ذلك بعض الشعراء :

لقد كان حد الشرب من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا (١)

ويظهر أن الحالة فى مصر فى ذلك العصر كانت قد تدهورت كثيراً ، بدليل تلك القصيدة التى كتبها شمس الدين بن دانيال والتى توضح لنا أثر القضاء على شرب الخمر فى نفوس المدمنين عليه :

منعونا ماء العنب ياسين رب سلم لم يمنعونا التين
هات قل لى إذا منعنا الراح وحرمنا من الوجوه الصباح
بيش نبقى نستجلب الأفراح والخليع كيف يعيش مسكين

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ص ٥٥٣ .

على ماء العنب بكى الراوق   والشمع صار بعبرتو مخنوق
والندامى جميعهم فى شتات   حزنوا كأن مات لهم أموات
هذا قاعد يبكى على ما فات   وذا يندب وذا الآخر حزين
ولى صاحب زمان معى كان طبيب   جانى وقال لى مشتاق أنا يا أديب
لجريرة لو أنها من زبيب   أرى قلبى يرتاح لهذا الحين [١]

وقد سار السلطان بيبرس الجاشنكير ، المعروف فى دولة المماليك باسم بيبرس الثانى ، على سياسة الظاهر بيبرس فى المحافظة على الآداب ونشر الفضيلة بين الرعية فقد « أبطل سائر الخمارات من السواحل من بلاد الشام ، وكبست أماكن بالقاهرة ومصر ، وأريقت الخمور ، وضرب أناس كثيرون فى ذلك بالمقارع ، وتتبع أماكن الفساد ، وبالغ فى إزالته ، ولم يراء فى ذلك أحداً من الكتاب ولا من الأمراء ، فخف المنكر وخفى الفساد »[٢] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٦ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤١٧ .

مصادر الكتاب[1]

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا : مصادر عربية مخطوطة

بيبرس الداوادار : (٧٢٥ هـ = ٢٣٢٥ م) .
« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » الجزء التاسع .
مخطوط بمكتبة بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨

ابن حجر العسقلانى : (٨٥٣ هـ = ١٤٤٠ م) شهاب الدين بن على .
« رفع الإصر[2] عن قضاه مصر » .
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥) .

الخالدى : (٩٩٧ هـ = ١٥٣٠ — ١٥٣١ م) بهاء الدين محمد بن لطف الله
ابن عبد الله بن عبيد الله الغمرى
« كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا »[3]
مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ .

العينى : (٨٨٥ هـ = ١٤٥١ م بدر الدين محمود .
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ٢٤ جزءاً فى ٦٠ مجلداً .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

العمرى : (٧٤٢ هـ = ١٤٤١ م) ابن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٧ .

---

(١) السنوات المثبتة أمام اسم كل مؤلف ، هى سنة وفاته مبينة بالهجرى والميلادى .

(٢) الإصر : الذنب .

(٣) لهذا الكتاب قيمة خاصة فى بحث الحكم فى الدول الإسلامية بوجه عام وفى مصر بوجه خاص . وهى معلومات انفرد بها الخالدى فى هذا الكتاب عمن سبقه من الكتاب من هذه الناحية من نواحى التاريخ المصرى ، وهو يقع فى ٣٥٠ صفحة ، ويشمل على ثلاثة عشر قسما.

أبو المحاسن : (٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الرابع .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٣ .

المقريزى : (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على .
« كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك » الجزء الثالث .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية .

النويرى[1] : (٧٣٢ = ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ٣٢ جزءاً .
صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٠ معارف عامة ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

ابن واصل : (٦٩٧ هـ = ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) جمال الدين عبد محمد بن سليم
« مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب » جزءان .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ .

ثانياً : مصادر عربية مطبوعة

أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م) .
الإدريسى[2] : (٦٤٩ هـ = ١١٨٨ م) .
« كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان » .

أسامه بن منقذ[3] (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) .
« كتاب الاعتبار » و « حياة أسامة »

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٧ م) على بن أحمد بن أبى الكرم .
الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءاً (بولاق سنة ٢٩٤ هـ) .

---

(١) اشترك النويرى فى حروب المماليك اشتراكا فعليا ، ووصف كثيرا من وقائعهم ، ويمتاز كتابه بالوثائق التى يثبت بها وجهة نظره فيما أدلى به من آراء .

(٢) جاءت شهرة الإدريسى لا عن طريق تأليفه هذا الكتاب ، بل لرسمه خريطة للعالم فى العصر الذى عاش فيه .

(٣) رحل أسامة إلى مصر سنة ٥٤٩ هـ رغبة فى صلات الخلفاء الفاطميين ، ثم إلى الشام ومعلوماته التى ضمنها كتابه جليلة الشأن ، لأنه شاهد بنفسه حوادث مصر فى ذلك العصر .

ابن الإخوة : « معالم القربة فى أحكام الحسبة » (طبعة روبين ليفى Rubien Levy بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .

ابن إياس : (٩٣٠ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد .

« كتاب تاريخ مصر « المعروف باسم « بدائع الزهور » ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ) .

ابن بطوطة : (٧٧٩ هـ = ١٣٨٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد .

« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جزءان (القاهرة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨ م) ترجمه إلى الفرنسية ديفريميرى Defremery وسانجنيتى Sanguinetti (باريس ١٣٥٣ — ١٣٥٨هـ = ١٨٦٩ — ١٨٧٩ م) .

البكرى[1] : (٤٨٧هـ = ١٠٩٧م) « كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » .

البلوى[2] : (لم تعرف سنة وفاته) كتاب « سيرة ابن طولون »[3] لأبى محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدنى ، وقام بنشره مخطوط البلوى الأستاذ كرد على وزير معارف سوريا الأسبق وذيله بفهارس مختلفة .

البيرونى[4] : (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » .

ابن تيمية : « الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية » جزء واحد .

ابن جبير : (٦١٤ هـ = ١٢٨٧م)

« رحلة ابن جبير » (طبع فى ليدن سنة ١٨٥٢ م) .

جورجى زيدان : « تاريخ التمدن الإسلامى » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢) .

---

(١) ينسب البكرى لأبى بكر الصديق ، وبكتابه معلومات جليلة الشأن عن شمال إفريقية وسكانها .

(٢) ينسب إلى قبيلة البلوى بلى ، التى ينتهى نسبها إلى قحطان .

(٣) يحتوى كتاب البلوى على وثائق على أعظم جانب من الأهمية ، منها الرسائل المتبادلة بين أحمد بن طولون والموفق طلحة ولى عهد الخلافة العباسية وبين ابن طولون وولده العباس وبقية أولاده وقواده .

(٤) البيرونى من سكان بيرون Berun أحد أحياء جنوة ، وكان يطلق على الحى والبلدة اسم خوارزم .

ابن الجيعان : (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) شرف الدين يحيى علم الدين شاكر بن المعز
« التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » . (القاهرة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨م) .
نشره المستشرق مورتز Mositz .

ابن حجر العسقلانى : (٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) . شهاب الدين بن على
« الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » أربعة أجزاء (طبعة حيدر أباد الهند سنة ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ) .

حسن ابراهيم حسن : « عمرو بن العاص » (القاهرة ١٩٢٣ م) .
« الفاطميون فى مصر » عن الإنجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م) .
« تاريخ الإسلام » — ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٤٦ - ١٩٤٨) .
« انتشار الإسلام بين المغول » (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية ، مايو سنة ١٩٣٣) .
« انتشار الإسلام فى الهند » (بحث فى مجلة كلية الآداب سنة ١٩٤٤) .
« عبيد الله المهدى » (القاهرة ١٩٤٧) بالاشتراك مع الدكتور طه شرف .
« المعز لدين الله » (القاهرة ١٩٤٧) بالاشتراك مع الدكتور طه شرف .

ابن خلدون : ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) . عبد الرحمن محمد .
« مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٩٠٠ م) .
« العبر وديوان المبتدا والخبر » ٧ أجزا (القاهرة ١٢٨٤ م) .

ابن خلكان : (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبى بكر الشافعى .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » جزءان .
(بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة اليمنية بمصر ١٢١٠ هـ) .

ابن الداية[1] : (حوالى سنة ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م) . أبو جعفر أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم .
(ا) « سيرة ابن طولون »
(ب) « المكافأة » نشر كتاب المكافأة الأستاذان أحمد أمين وعلى الجارم .

(١) كان ابن الداية عراقى الأصل ، وعرف بذلك الأسم لأن أباه كان والد داية ابراهيم ابن الخليفة المهدى العباسى ، ولد فى مصر لأن أباه كان قد رحل إليها بعد وفاة مولاه ابراهيم، وسنة ولادته غير معروفة تماما .

ابن دقماق : (٨٠٩هـ = ١٤٠٦—١٤٠٧م) ابراهيم بن محمد المصرى .
«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» جزء ٤ ، ٥ القاهرة سنة ١٣٠٩هـ=١٨٠٣م)
نشره المستشرق فولرز Ed. Vollers
راشد البراوى : الحالة الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
رشيد الدين فضل الله : (١٣١٨هـ) « كتاب جامع التواريخ » ترجمه إلى الفرنسية
مسيو إتيين كترمير E Quatremère . وانتهى رشيد الدين من تأليفه سنة
٧٠١هـ [١٠٣١م] .
زترستين : «تاريخ سلاطين المماليك» نشره ك . ف . زترستين K.F.Zetterstéen
[لندن ١٩١٩] .
زكى محمد حسن :
« الفن الإسلامى فى مصر »(القاهرة ١٩٣٥م) .
« مصر والحضارة الإسلامية » الرسالة الخامسة عشر من سلسلة الثقافة العسكرية
التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الحربية والبحرية .
«الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى »(القاهرة ١٩٤٥).
ابن زولاق : (٣٧٨هـ = ٩٩٧م) «العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج»(١)
السبكى : (٧٧١هـ = ١٣٧٠ م) تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب .
«معيد النعم ومبيد النقم » . (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولهم موهرمن
David W. Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .
«طبقات الشافعية الكبرى » جـ ٥ ، ٦ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .
سعيد بن البطريق(٢) : (٣٢٨هـ = ٩٤٠م) .
« التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق »
سيدة إسماعيل كاشف : « مصر فى فجر الإسلام » القاهرة ١٩٤٨ .
«الجيش والبحرية من الفتح العربى إلى بداية العصر الطولونى» ، الرسالة ٤٨
من رسائل الثقافة العسكرية
«مصر فى عصر الإخشيديين » القاهرة ١٩٥٠ .

---

(١) هو عبارة عن سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، لكنه أمدنا فى الوقت نفسه بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى سنة ٣٨٦ هـ .

(٢) كان سعيد بن البطريق معروفا باسم أوتيخا Eutychus عند الأفرنج ، وكان بطريقا للقبط وكتب كثيرا عن تاريخ مصر ، وأمدنا بمعلومات تعتبر أصلية ، الا أن لغته يعيبها الركاكة وأتم كتابه رجل من أنطاكية يدعى يحى بن سعيد المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .

السيوطى : (٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) . جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد
« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » (القاهرة سنة ١٨٨١ م)
ترجمه إلى الإنجليزية الميجر هـ . س . جارت (كلكتا سنة ١٨٨١ م)
« تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» . إدارة المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ .

ابن شاكر : (٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى
« فوات الوفيات » (بولاق ١٢٩٩ م)

ابن شاهين : (٨٧٣ هـ = ١٤٦٨ — ١٤٦٩ م) . غرس الدين خليل الظاهرى .
«كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» (باريس سنة ١٨٩١م)

أبو شامة : (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ — ١٢٥٨ م) . عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة شافعى من أهل دمشق .
« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين »
Recueil des Historiens Croisades . Historiens Orientaux. t.VI.
وهناك طبعة أخرى فى مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ م) .

ابن شداد : (٦٣٢ هـ = ١٢٣٤م) « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »(١)

أبو صالح الأرمنى : (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م) .
« تاريخ أبى صالح الأرمنى » المعروف باسم « كنائس وأديرة مصر » (٢) .
طبعة Evetts فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ م ، وقرن نصه العربى بترجمة إنجليزية.

ابن طباطبا : ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأتم كتابه سنة ٧٠١ هـ ، ولا تعرف سنة وفاته) . محمد بن على المعروف باسم الطقطق .
« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩١٣ م)

---

(١) يعتمد عليه فى دراسة تاريخ صلاح الدين الأيوبى .

(٢) فيه يكتب المؤلف تاريخ الكنائس والأديرة المصرية وأحياء النصارى وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة الأيوبية وإقطاعاتها وخراجها .

ابن عبد الحكم (١) : (٢٨٦ هـ) : « كتاب فتوح مصر والمغرب » .
عبد الرحمن زكى : « القاهرة » (١٩٤٣ م) .
عبد اللطيف البغدادى : (٦٢٩هـ = ١٢٣١ م) « مختصر تاريخ مصر » .
على ابراهيم حسن :
« جوهر الصقلى » (القاهرة ١٩٣٣ م) .
« النظم الإسلامية » . بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٩ م) .
« دراسات فى تاريخ المماليك البحرية » (القاهرة ١٩٤٤ و١٩٤٨)
« استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط » (القاهرة ١٩٤٩)
الجيش والبحرية فى عصر المماليك »
الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الحربية ، القاهرة ، مارس ١٩٤٤)
« آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية » .
(بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجد السابع ، ١٩٤٤) .
« أخطر المجاعات فى مصر » و « عظمة الفاطميين » (بحثان فى مجلة الكتاب — عددا يونيه وديسمبر ١٩٤٦) .
على مبارك : «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة» ٣٠ جزءاً فى أربع مجلدات (بولاق ١٣٠٥ هـ) .
عمارة اليمنى (٢) (٦٥٩ هـ = ١١٧٤ م):
« كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » .
« ديوان عمارة اليمنى » .

---

(١) كان ابن عبد الحكم معاصرا لأحمد بن طولون ، ومات بعده بست سنوات ، وكتابه من أقدم الكتب التى كتبت عن تاريخ مصر الإسلامية .

(٢) تنحصر أهمية عمارة فى معاصرته للحوادث التى جرت بمصر فى أواخر أيام الفاطميين، فكان كشاهد عيان لهذه الحوادث .

العمرى : (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) شهاب الدين أحمد بن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » الجزء الأول .
نشره وعلق عليه المرحوم الأستاذ أحمد زكى ، (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .
« التعريف بالمصطلح الشريف » (القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) .
عمر طوسون : « كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن »
(الأسكندرية سنة ١٩٤١ م) .
أبو الفداء (١) : (٧٣٢ هـ = ١٣٣٠ م) . اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه
« المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ) .
ابن أبى الفضائل ، مفضل : « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .
(Texte Arabe Publiée et traduit en Francais par E. Blochet . Palaogia Orientalis . t . Fasc. 3 Paris, III, 1930
ابن القلانسى : (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو على حمزة .
« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨ م)
القلقشندى (٢) : (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد .
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٧ م) .
« ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » (القاهرة ١٠٩٦ م) .
الكندى (٣) : (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
« كتاب الولاة والقضاة » به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى ، طبعة رفن جست .
E.J.Y. Gibb Memorial Series, XIX. 1912, R . Guest

---

(١) أشترك أبو الفداء بنفسه فى بعض الوقائع الحربية التى حدثت فى عصر المماليك ، وأهمها واقعة مرج الصفر بين الناصر وغازان .

(٢) ولد سنة ٨٥٦ هـ ببلدة قلقشندة من أعمال مديرية القليوبية .

(٣) كان الكندى مصرى المولد والدار ، ولما توفى سنة ٣٥٠ هـ أتم كتابه ابن زولاق المصرى الجنس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ فى خلافة الحاكم بأمر الله ووصل فى كتابته إلى سنة ٣٨٦ هـ أى قبل وفاته بسنة ، وأتى بعدهما ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٣٤٩ م) وأتم كتاب القضاة وسمى « رفع الإصر عن قضاة مصر » ونشرت هذه الكتب الثلاث كلها مع بعض .

الماوردى : (٤٥٠ هـ = ١٥٠٧ م) . أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصرى .
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ م) .

أبو المحاسن . (٨٧٤ هـ = ١٨٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ١٠ أجزاء
(مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٠—١٣٥٧هـ = ١٩٣٠ — ١٩٤٠م)
والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثانى (جزءان) - طبع جامعة كليفورنيا بإشراف William Popper

محمد جمال الدين سرور : « الظاهر بيبرس » (القاهرة ١٩٣٨ م)
« دولة بنى قلاوون فى مصر » ، القاهرة ١٩٣٨ م .
« النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب » ، القاهرة ١٩٥٠م .

محمد محمود عرنوس «تاريخ القضاء فى الإسلام» . القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤م.

المقريزى (١) : ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م ، تقى الدين أحمد بن على .
« المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » . جزءان ، بولاق ٢٧٠ هـ .
نشر مسيو جاستون فيت جانباً من الجزء الأول ، طبعة بولاق ، فى أربعة مجلدات فى المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية فى القاهرة ، القاهرة ١٩١١ — ١٩٢٤م .
« كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » الجزء الأول والجزء الثانى إلى سنة ٧٤١ هـ نشرها وعلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢ .
« كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة » نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م .

ابن مماتى : ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م . شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد «كتاب قوانين الدواوين» . نشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية

---

(١) ولد تقى الدين المقريزى فى القاهرة سنة ٧٦٦ هـ ويكنى جده لأبيه بالمقريزى نسبة إلى مقريز من خطط بعلبك بسورية .

(طبعة الجمعية العمومية الزراعية الملكية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون القاهرة ١٩٤٣ م)

ابن منجب الصيرفى (٥٤٢ هـ) : « الإشارة إلى من نال الوزارة » (١) .

ابن ميسر : (٦٧٧ هـ = ١٢٧٥ م) .

« تاريخ مصر » طبعة هنرى ماسيه . (القاهرة ١٩١٩) .

ياقوت : (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .

« معجم البلدان » ١٢ جزءاً . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثاً — مصادر أوربية

Allan : (j .)

The Cambridge Shorter History of India . (Camdridge, 1924).

Arnold : (T. W.)

The Caliphate (Oxford, 1924) .

Aitya(A. S.)

The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938 .

Egypt and Aragon.) Leipzig, 1938).

Embassies and Diplomatic Correspondence betweeu 1300 and 1330 A. D.

Blochet (E)

Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). (Extrait de la Revue de l'Orient Latin, Tomes VIII—XI)

Browne, (E. G.)

Literay History of Persia from the the Earliest times until Firdawsi . (London, 1909).

Literary Hisrory of Persia under Tartar Dominion. (1265 - 1502 A. B) Vol. II . (Cambridge, 1920).

Literary History of Persia . Vol. III. the Tartar Dominion 1265 - 1502. (Cambridge, 1923).

---

(١) لكتابه قيمة خاصة فى بحث تاريخ الفاطميين ، لأن ابن منجب تقلد ديوان الرسائل فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى من سنة ٤٢٥ هـ حتى ٥٣٦ هـ ، كما كان متصلا بالبلاط الملكى اتصالا مباشرا .

Budge (. A . W .)

A History of Ethiopia . Nubia and Abbysinia -2 Vols .

Bulletin of the School of Oriental Studies (B . SC . G .) .

(Cam . Med . Hist .) Cambridge Mediaeval History (Vol . IV) .

Christensen . (A.)

L'Empire des Sassanides . (Copenhague, 1907. Memoires de l'Academie Royale des Sciences et des Lett Denmark) .

Colin . (G . S.) et E . Levi – Provencal .

Un Manuel Hispanique de Hisba (Paris, 1931) .

Corbet .

The Life and Works of Ahmad ibn Tulun .

(Journal of the Royal Asiatic Society, 1891).

Demombynes . (G)

La Syrie à l'Epoque des Mamelouks . (Paris, 1922 .)

De Sacy : (S.)

Bibliothèques Arabissant Francais (Le Caire) 1933 . (Mem I. F A. Caire)

D' Hosson (Baroun).

Histoire des Mongols dequis Techinguiz Khan jusqu' a Timour Bey ou Temerlan, vol . III. (The Hague Amesterdam . 193 1835)

Dozy (R.)

Supplément aux Dictionnaire détaille des Noms de Vétements Chez les Arabes (Paris, 1845)

(Enc. Isl.) Encylopaedia of Islam.

Devonshire .(R. L .)

Rambles in Cairo, 1931 .

Hassan H . I .

Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940) .

Hautecoeur (L.) et Wiet (G).

Les Mosquèes du Caire . 2 . vols . (Le Caire, 1923) .

Heyd : (W.)

Histoire du Commerce au Moyen-Age. Vol . II . (Leipzig . 1925).

Hitti : (P. R.)

The History of the Arabs . (London, 1940)

(J. A) Journal Asiatique .
Howorth (Sir Henry)
History of the Mongols Part III .vol. IV. (London, 1876-1888).
Kendrick . (A. F.)
Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period . (Victoria and Albert Museum).
Lane - Poole , (S.)
The Art of the Saracens (London, 1888) .
The Story of Cairo . (London, 1982) .
History of Egypt in the Middle Ages (London 1900) .
The Muhammadan Dynasties (Paris 1905).
Medieval India Under Muhammadan Rule (London, 1912).
Lavoix (H.)
Catalogne de Monnaies Musulmanes de la Bebliotheque Nationale, Egypt et Syrie .
Le Strange (G.)
Palestine under the Moslems .
Marcel (M J. J.)
Histoire de L'Egypte depuis la Conquète des Arabes Jusqu'a' L'Expédition Francaise .(Paris, 1848)
Mayer (L. A)
Saracenic Heraldry (Oxford,1933)
Mercier
La Chasse et les Sports chez tes Arabes . (Paris, 1927).
Michel (B)
L'Organisaihn Financiére de l'Egypt sous les Sultans Mamlouks d'aprés Qalqachandi . Le Caie,1925 .
(Extrait de bulletin de l'institut d'Egpte,T. VII . Session 1924—1925)
Muir (W.E.)
The Mameluke or Slave dynasty of Egypt . (London, 1896) .
The Caliphate, ite Rise, Decline and Fall (Oxfsrd.1902) .
Poliak (A.N.)
Feudalism in Egypt,Syria, Palestine and the Lebanon (London, 1939).
Les Revoltes Populaires en Egypte à l'Epoque de Mamelouks et leurs Causes Economiques, vol . 8, (1924) .

Quatremére(E).

Histoire de Sultans Mamlouks de l' Egypte 2. vols. Paris, 1837—1844).

Toussoun : (Omar).

La Géogrophie de l'Egypte a l'Epoque Arabe (Memoires de la Société Royale de Georaphie d'Egypts, t. VIII. 1 . 2 parties-Le Caire 1926-1928).

Sanhoury . (A. A.)

Le Califat (Poris, 1926).

Van Berchem(Max.)

Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum . (Le Caire, 1823) Mem. I.F.A. Caire .

Wiet : G

Hisloire de la Nation EgyPtienne, L'Egypte Arabe, Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte. Le Caire 1933 .

Les Biographies du Manhal Safi . Memoires Presentés à l'institut d'Egypte. Le Caire, 1932.

Trois Formules d'indépendence dans l'Egypte Medievale. ed . de la Revue du Caire, 1942 .

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome. II. Mem. de l'institut fr. d'archeologie, 1910.

Zaki Hassan :

Les Tulunides (paris1932).

Hunting as practised in Arab Countries of the Middle ages. (Cairo ,1937)

Moslem Art in the Fouad I University Museum (Cairo, 1950).

كتب المؤلف

مطبعة السعادة بمصر

وغيرها ، وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عموداً من الرخام الجيد الأبيض اللون فى صفوف متحاذية ، وفى سنة ١١٦٧م بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام(١) ، وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان ، عدد أعمدتهما مائة وستة وعشرون عموداً ، وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن تلك التى بناها القائد جوهر ، وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفى كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء .

وأما صحن الجامع ، فقد كان متسعاً غير مسقوف ، مرصوفا بالحجر ، يجلس فيه الطلبة فى الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، ويأمون به فى فصل الصيف عند اشتداد الحر ، ويقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين ، وهو محاط من جهاته الأربع بواائك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفى جميل .

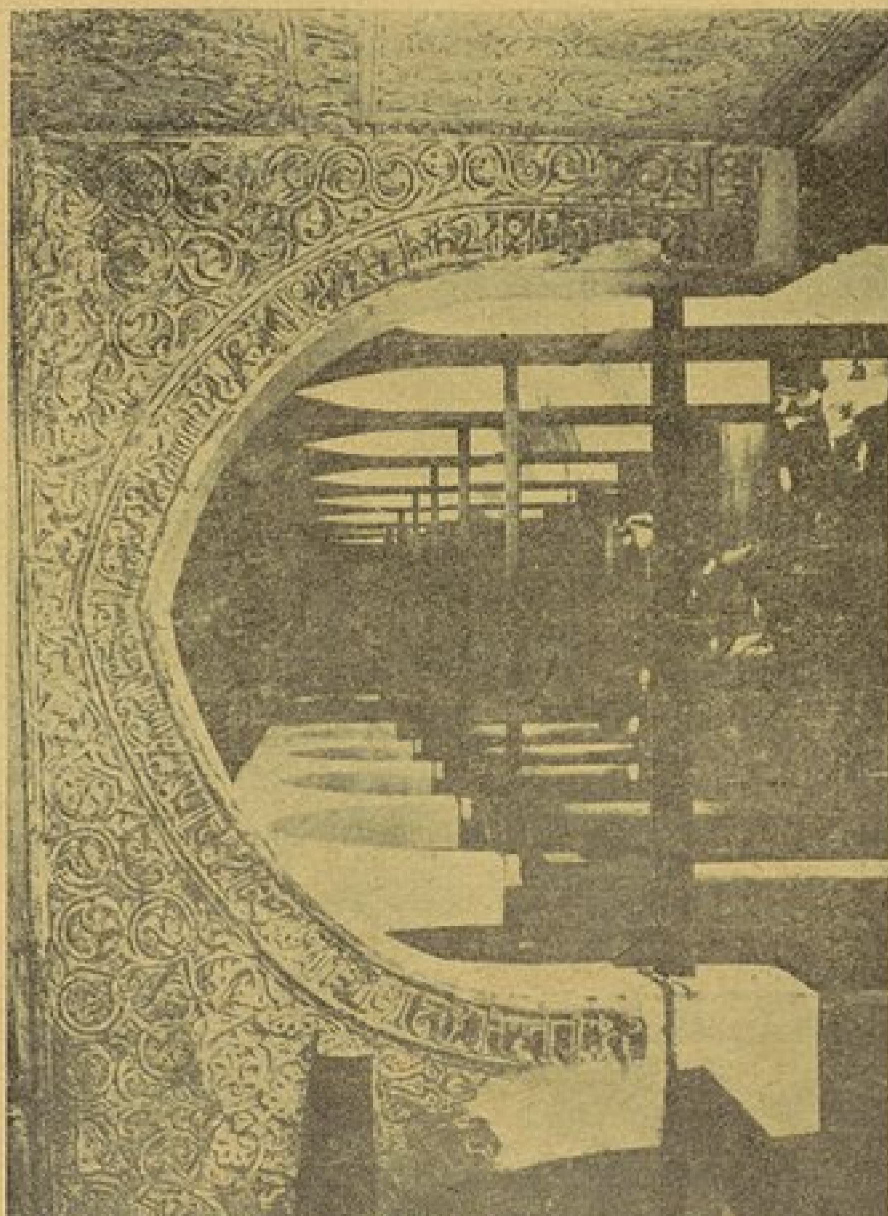
وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محرابا بالمقصورة القديمة ، يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت تسعة محاريب أخرى ، ولم يبق من هذه المحاريب كلها سوى ستة أشهرها إثنان أحدهما بالمقصورة القديمة والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه فى المذهب الدينى .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وله خطيب خاص يخطب فى الجمع والأعياد ، وقد نقل المنبر الأصلى الذى أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم (٢) .

وقد أنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح له فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس وفى ليالى رمضان والمواسم ، وكانوا يعرفون

---

(١) Devonshire : Quatre-Vingts Mosquées du Caire, p. 11.
(٢) Wiet : Précis d'Histoire Musulman de l'Egypte, p. 42.
(٣) مصطفى بيرم : الجامع الأزهر ص ٢٠٤ .



الجامع الأزهر — بعض عقود الجامع وهي من عهد إنشائه

أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، ووظيفة التنبيه على أوقات الصلاة ، وكان يتبع آذان المنارات الأخرى بالقاهرة آذان الأزهر ، أما الميقاتى فكان يعرف الأوقاف بالنظر فى المزولة التى لا تزال قائمة إلى اليوم بإحدى جدران صحن الأزهر[١] .

وكانت منارات الجامع الأزهر توقد أيام الخلفاء الفاطميين وتزين بزينة باهرة ، حتى إن الخليفة المعز بنى فى قصره منظرة خاصة تسمى منظرة الجامع الأزهر ، وكان يجلس فيها ليشاهد منها الزينات ، ولاسيما فى أوقات الاحتفالات الرسمية وبخاصة فى ليالى الوقود الأربع ، فقد كان الجامع الأزهر يضاء فى هذه الليالى بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس ويدعو مؤذنو هذا الجامع للخليفة[٢] .

وكان أول مادرس بالجامع الأزهر ، الفقه الفاطمى على المذهب الشيعى ، ففى رمضان سنة ٣٦٥ هـ جلس على بن النعمان فى الجامع وأملى على الطلاب مختصر أبيه فى الفقه عند أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر باسم « الاقتصاد » ، وكان بالجامع عدد عظيم من المستمعين . وبقى الأزهر مهد الفقه الفاطمى إلى أن بنى جامع الحاكم سنة ٣٨٠ هـ ، فكان يختلف إليه الفقهاء الذين كانوا يدرسون بالجامع الأزهر . وظل المذهب الشيعى منتشراً فى مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ فعاد المذهب الشيعى فى مصر سيرته الأولى . وكان الخليفة العزيز الفاطمى هو أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الصلاة إلى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ، وبنى لهم مساكن . وكان أول من رتب لهم من الأمراء صلة ، وزيره أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، وقد سأل الوزير فى سنة ٣٦٥ هـ فى صلة رزق جماعة من الفقهاء ، فأطلق ما يكفى لكل منهم من الرزق وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بالجامع الأزهر . فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر وذلك لقراءة الفقه على مذهب الفاطميين وكانوا شيعة إسماعيلية ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثين

---

(١) على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ص ١٠١ — ١٠٣ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٥ ، ٤٧٦ .

رجلا وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر(١) .

ولم يكتف الخلفاء الفاطميون وأتباعهم بإجراء الأرزاق على العلماء والطلبة فى هذا الجامع وإغداق الهبات عليهم بل وقفوا عليهم الأوقاف الكثيرة ، ذات الريع الوافر ، وشاركهم فى ذلك غيرهم من الأمراء والأعيان(٢) .

وكانت الأرزاق التى تعطى للأساتذة والطلبة ثلاثة أقسام :

القسم الأول منها هو المرتب الشهرى الذى كان يعطى لكل مدرس ولعدد معين من الطلبة ، والقسم الثانى هو الخبز (الجراية) وكان يعطى لهم فى كل يوم وقد استبدل الآن بعوض مالى ، والقسم الثالث ما كان يمنح فى المواسم . وكانت هذه المرتبات المختلفة من الأسباب التى جذبت إلى الأزهر الطلبة الغرباء إليه من كل فج وسهلت لهم التفرغ لطلب العلم فانصرف الطلبة للمطالعة والدرس .

وقد أخذ الأمراء والوزراء بعد العزيز فى تعمير الأزهر وتوسيعه فشيدوا الأروقة لسكنى الطلبة . وقد بنيت تلك الأروقة تدريجياً وأثثت ، وجعل بجانبها محال للغسل وأخرى للوضوء وغيرها لطهى الطعام واتصلت بالجامع حتى كان الطالب لا يحتاج للخروج من الأزهر إلا نادراً ، وقد سهلت هذه المساكن على الطلبة الغرباء معيشتهم فجذبتهم من بلادهم البعيدة ، وآخت بين الطلبة على اختلاف جنسياتهم ، فكنت ترى فيها المصرى والكسروى والهندى والسودانى والأفغانى والحبشى والمراكشى والجاوى والجزائرى والشامى .

والرواق هو منزل معد لسكنى الطلبة وينقسم إلى غرف ومرافق ، لكل غرفة فيه دواليب لوضع الملابس والكتب ، ولكل جهة من جهات مصر وكل بلد من البلاد الإسلامية رواق خاص ، ومن هذه الأروقة رواق الصعايدة لأهل الصعيد ، ورواق الحرمين الشريفين للطلبة النازحين من الحجاز ، ورواق دارفور ، ورواق الأكراد ، ورواق الهنود ، ورواق اليمن ، ورواق البغدادية ، ورواق الصعيد لأهالى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٢) Lane - Poole : The Story of Cairo, p. 124

الصعيد مابين مصر والسودان ، وهكذا . وأكبر هذه الأروقة : رواق الأتراك ، ورواق الشوام ، ورواق المغاربة ويضم أهل مراكش والجزائر وتونس وطرابلس، ولكل رواق شيخ ينتخبه الطلبة للإشراف عليهم والاهتمام بشئونهم والفصل فى الخصومة بينهم والدفاع عن حقوقهم . ولما زاد عدد الطلبة وأصبحت الأروقة لاتتسع لهم ، اضطر الكثير منهم إلى السكنى خارج الأزهر .

وقد عنى الفاطميون عناية كبيرة بدراسة العلوم الحديثة كالعلوم الرياضية والجغرافية والفلكية وغيرها ، ولا غرو فقد كانت مكتبة القصر تضم فى خزائنها مائة ألف مجلد فى مختلف العلوم والفنون عدا كرتين سماويتين إحداهما من الفضة يقال إن بطليوس نفسه هو الذى صنعها وأنه أنفق على عملها ماقيمته ثلاثة آلاف دينار ، كما كانت مكتبة الأزهر تحوى أيضاً على كثير من المصورات الجغرافية . وقد وصفها المقريزى فى هذه الكلمات : دخل هذه المكتبة (مكتبة الفاطميين) أحد السياح فرأى فيها معطفاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة ، فيه صور أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها وجميع المواطن المقدسة ، لعلها مبينة أىظاهرة للناظر مكتوبة بالذهب وغيرها بالفضة والحرير .

وكانت مدة الدراسة فى الأزهر غير محدودة . فقد شجع نظام الجراية وعدم إلزام الطالب بدخول الإمتحان بعد فترة معينة ، على عدم الاهتمام بتحصيل العلوم واتخاذ الأزهر ملجأ يقضى فيه أكثر الطلبة زهرة حياتهم حتى يدركهم الهرم .

ومن أهم الحوادث فى تاريخ الأزهر منع الخطبة والصلاة فيه ، فإنه لما انتهت دولة الفاطميين وتولى صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر سنة ٥٦٧ هـ ، وقلد صدر الدين بن درباس الشافعى المذهب وظيفة قاضى القضاة فى مصر رفض إقامة خطبتين فى بلد واحد ، فمنع الخطبة فى الجامع الأزهر وأقرها فى جامع الحاكم لسعته ، فظل الأزهر نحو قرن لاتقام فيه صلاة الجمعة بعد أن كان الخلفاء الفاطميون يذهبون إلى هذا الجامع للصلاة بالناس والخطابة فيهم بأنفسهم لنشر الدعوة الفاطمية وترويج المذهب الشيعى فى مصر . ولم يزل الأزهر على ذلك حتى ولى مصر السلطان

بيبرس سنة ٦٥٧ هـ فأمر بإعادة الخطبة والصلاة فيه ووقف عليه الأوقاف الكبيرة واتخذه معهداً للعلم سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) .

كان الخلفاء والأمراء يقفون على طلبة الأزهر الكتب النافعة فى مختلف العلوم والفنون لينتفعوا بها فى دراستهم، إلا أنهم كانوا لايستفيدون من هذه الكتب كثيراً لتفرقها وعدم تنظيمها(١).

وأدى الأزهر خدمات عظيمة للعلم فى مصر خاصة والشرق عامة ، فقد كان وجوده السبب فى استعمال اللغة العربية الصحيحة فى الخطابة والكتابة ، كما كان السبب فى انتشار العلوم والفنون(٢).

منشآت العزيز

تابع العزيز سياسة أبيه المعز فى الإنشاء فبنى كثيراً من المنشآت التى تدل على ثروة مصر فى عهده ، ومنها : القصر الغربى وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً(٣).

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس أطلق عليها قصور عين شمس(٤) ، وبنى قصر البحر الذى يقول عنه ابن خلكان إنه لايوجد له شبيه فى الشرق ولا فى الغرب(٥) ، واهتم ببناء المساجد كمسجد الحاكم الذى أسسه سنة ٣٨٠ هـ ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه الحاكم ونسب إليه(٦) ، وأقام العزيز فى جامع عمرو منبراً مذهباً كان آية من آيات الفن(٧).

---

(١) مصطفى بيرم :الجامع الأزهر ص ٤٣ .
(٢) على ابراهيم حسن : بناء الجامع الأزهر ، جريدة الأهرام ،صحيفة الآداب والعلوم والفنون بتاريخ ١٩٣٣/٧/١٧ .
(٣) Lane - Poole : The Story of Cairo, p. 128
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٥٣ .
(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٧ .
(٦) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٢٦ . راجع ما ذكرناه عن إتمام هذا الجامع عند كلامنا على عهد الحاكم .
(٧) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٣١٨ .

وأسس العزيز قاعة الذهب التى كان يجتمع فيها مجلس الملك ، وكان مؤثثة أثاثاً فخما ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم ولون واحد . وفى صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور(١).

وفى عهد العزيز ، بنت الملكة تغريد ، زوجة المعز وأخت العزيز ، مسجدا بالقرافة سنة ٣٦٦ هـ ، أطلق عليه اسم جامع القرافة وسمى فيما بعد باسم جامع الأولياء ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين وأهل البصرة ويحيط به حديقة غناء ، وصهريج ، وصفح بابه بالحديد ، وكان يدخل إلى مقصورته من أربعة عشر باباً ، أمام كل باب قنطرة مقوسة مقامة على عمودين من الرخام ، ولونت أبواب هذا المسجد وسقوفه بمختلف الألوان(٢).

وبنت تغريد أيضا قصر القرافة ، ويتصل به بستان وحمام وبئر . وقد وصف المقريزى هذا القصر ، فقال : إنه كان قصرا فخما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة ، وبه قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس(٣) ، وكان بذلك من أحسن المتنزهات . وبنت تغريد « منازل العز » وهو قصر فخم ، بنته على شاطىء النيل واتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه(٤) .

منشآت الحاكم :

ولم يكن عصر الحاكم خاليامن الإنشاء والتعمير : فقد زاد فى بناء الجامع الأزهر

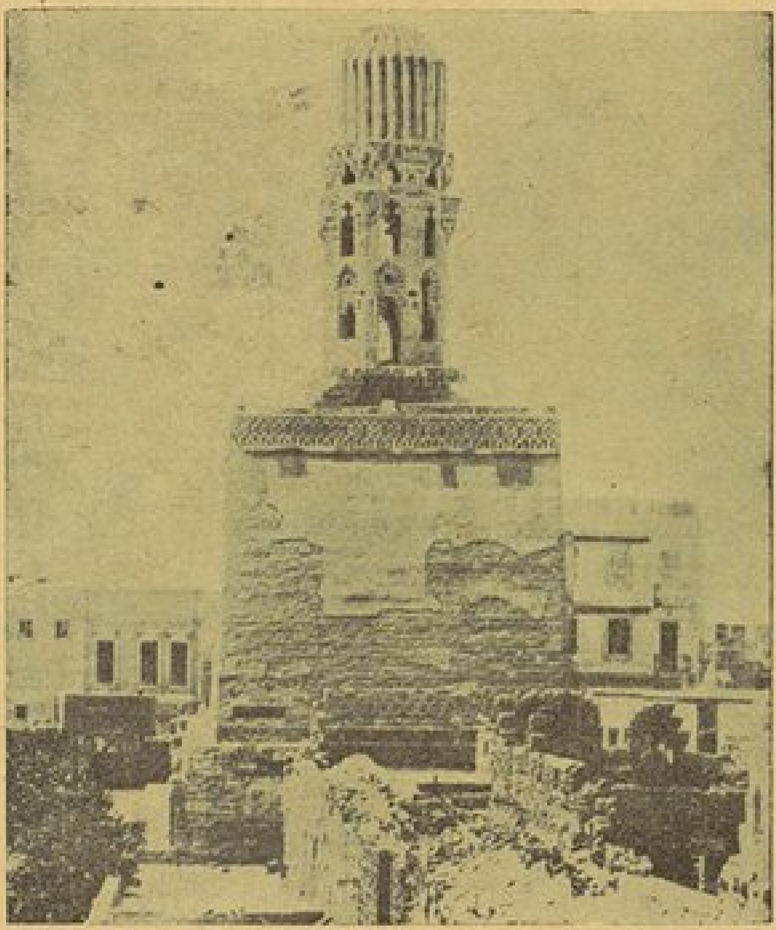
---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٢٢ . حسن إبراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ٢٦٩ .

(٢) بقى جامع القرافة على حاله يصلى الناس فيه نهاراً وينامون ليلا حتى أتلفه الحريق الذى حرق فيه جامع عمرو سنة ٥٦٤ هـ ، ولم يبق من هذا المسجد بعد هذا الحريق سوى المحراب الأخضر ، وقد جددت عمارة هذا الجامع فى أيام المستنصر عندما كانت القرافة الكبرى عامرة بالناس ، ثم هجر بعد ذلك ودرست معالمه .

(٣) جدد الخليفة الآمر الفاطمى قصر القرافة سنة ٥٢٢ هـ وبقى عامرا حتى سنة ٥٦٧ هـ أى إلى نهاية الدولة الفاطمية . راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٤) المقريزى . نفس المصدر ج ١ ص ٣٦٤ .



جامع الحاكم

وفى الأوقاف المرصودة عليه وفى الهبات التى قدمت إليه ، وأمر بعمل مصور فنى دقيق للعالم ، كان محلى بكيلتين من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة (١) .

وأتم سنة ٣٩٣ ﻫ (١٠٠٣ م) بناء الجامع الذى بدأه أبوه العزيز وهو معروف باسم « جامع الحاكم » وأقيمت فيه الصلاة ونسب إليه ، وكان يطلق عليه أحيانا جامع الأنور (٢) أو الجامع الجديد ، وأمر بفرشه وتأثيثه ، ففرش أرضه بستة وثلاثين ألف متر مربع من الحصر وأضىء بالقناديل وعلق على أبوابه ستوراً دبيقية عملت له خصيصا ، ونصب فيه المنبر ، وبلغت نفقة فرشه خمسة آلاف دينار تقريبا(٣) ، وحبس الحاكم عليه أملاكا كبيرة . وقد كان طراز بناء هذا الجامع قريب الشبه بجامع ابن طولون ، فقد كانت له أقبية مدببة قليلا على شكل حدوة الفرس ، ومحمولة على أعمدة مربعة من الحجارة ، وكان يحمل السقوف دعامات خشبية مغطاة بالطين ، ويوجد فوق المحراب قبة صغيرة فى الجهة الجنوبية(٤) . وأنشأ الحاكم فى سنة ٣٩٥ﻫ دار الحكمة ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم ، فلم تلبث أن أصبحت من أعظم مكاتب العالم الإسلامى (٥) .

منشآت الظاهر والمستنصر والآمر :

وفى عصر الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ ﻫ) بنى القصر المعروف باسم «قصر اللؤلؤة » القريب من القصر الغربى ، وهو من أحسن القصور التى بنيت فى القاهرة فى العصر الفاطمى . وكان الظاهر يذهب إليه للنزهة ، واتخذه الخلفاء الذين جاءوا بعده للاقامة فيه وقت الفيضان ، ويمتاز هذا القصر بحسن موقعه ، إذ كان

(١) زكى محمد حسن . كنوز الفاطميين ص ٥٣ .

(٢) سمى « الأنور » تقليداً لكلمة « الأزهر » ، راجع .

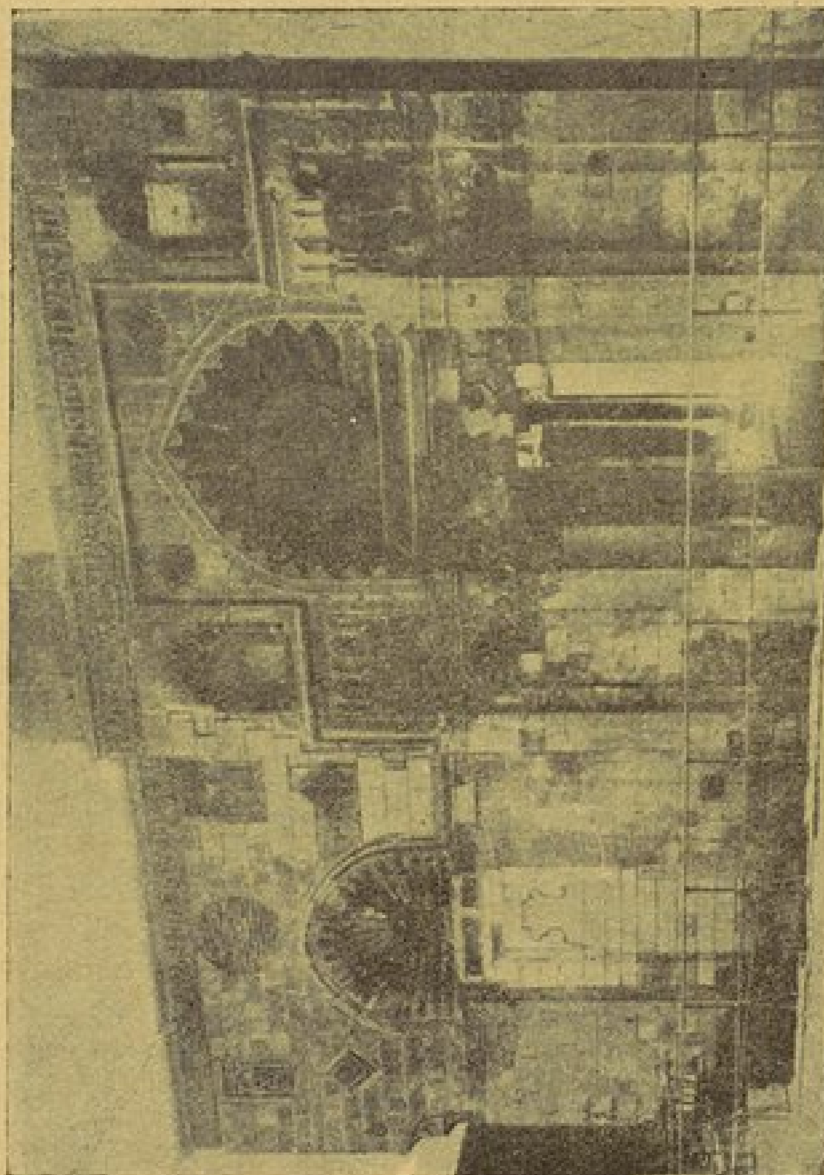
Stanley Laue-Poole : The Story of Cairo, p. 178

واختار الخليفة العزيز موضع هذا الجامع خارج باب الفتوح ، ولكنه أصبح داخل حدود مدينة القاهرة ، بعد أن وسع بدر الجمالى هذه المدينة .

(٣) المقريزى . الخطط ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٤) أصبح الجامع الحاكمى فى الوقت الحاضر مخربا ، ولم يبق منه سوى أطلال بالية ، وجزء من مآذنه .

(٥) راجع تفصيل الكلام على مكتبة « دار العلم » فى باب « تاريخ الفاطميين السياسى » عند كلامنا على عصر الحاكم .



جامع الأقمر — واجهة الجامع الذي بناه الخليفة الآمر

يشرف من الشرق على البستان الكافورى ، ويطل من الغرب على الخليج الذى كان يوجد فى غربه حدائق غناء وبركة جميلة تسر الناظرين . وكان الجالس فى هذا القصر يتمتع بمنظر خلاب إذ كان يرى خلف هذه الحدائق مياه النيل تجرى ، ولذا اعتبر من أحسن متنزهات العالم ، وقد ظل هذا القصر حافظا لرونقه حتى أصابه التلف والتصدع أثناء وقوع الغلاء فى مصر وما تبعه من تفكك البلاد وانحلالها فى عهد المستنصر (١) .

وبنى بدر الجمالى وزير المستنصر بالله جامعا فخما على جبل المقطم سنة ٤٨٧ هـ ، نظهر على يمينه الآن قلعة الجبل وعن يساره جامع محمد على بمنارتيه العاليتين، عرف باسم « جامع الجيوشى » نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهو اللقب الذى اتخذه لنفسه .

ومن إصلاحات الخليفة الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) النظرة التى شيدها مطلة على بركة الحبش ، وتجديد قصر القرافة الذى بنته تغريد زوجة المعز ، وبناء قصر الهودج فى جزيرة الروضة لزوجته البدوية على هيئة لاتجعلها تشعر بوطأة الانتقال من الحياة البدوية التى كانت تعيشها قبل زواجها بالخليفة . وبنى الآمر أيضا جامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ، وتعتبر واجهته الغربية وحيدة فى طرازها بما حوته من نقوش وكتابات كوفية ، ولكن الزمن اعتدى عليها ففقد نصفها الأيمن . وهذا الجامع صغير الحجم ، وله صحن مكشوف يحيط به أربعة إيوانات بها عمد رخامية تحمل عقوداً فارسية مغطاة بقبوات صغيرة . وفى سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) قام بعمارته الأمير يلبغا السالمى ، فأقام به منارة وأصلح المنبر ، ويقع بشارع المعز لدين الله (النحاسين الآن) .

وفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) أنشأ طلائع بن رزيك وزير الخليفتين الفاطميين الفائز والعاضد جامعا ، هو آخر جامع أنشىء فى الدولة الفاطمية ، وحليت واجهته الغربية بنقوش وكتابات تضمنت اسم المنشىء ، ويقع فى ميدان باب زويلة ، ويعرف باسم جامع الصالح طلائع

---

(١) أبوالمحاسن . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٤ .

ثالثا — فى عصر الأيوبيين والمماليك

(ا) فى عصر الأيوبيين

كان عصر الأيوبيين ، رغم اضطرابه الداخلى والخارجى ، حافلا بالإنشاء والتعمير ، فقد بنيت فيه المدارس والمستشفيات، ونسقت الحدائق . ولما كانت الدولة الأيوبية دولة حربية ، بحسب نزعتها وظروفها ، فإننا نلاحظ أن أغلب منشآتها أقيمت لأغراض حربية دفاعية أو هجومية .

قلعة الجبل :

وكان أبرز ماخلفه الأيوبيون من منشآتها هو قلعة الجبل . فقد كانت القلاع فى أيام صلاح الدين منتشرة فى كل مدن الشام ، حتى فى إمارات الفرنجة أيضا ، وكانت القلاع تعتبر من أهم مظاهر القوة (١) . وكان من الطبعى إذن أن تبنى قلعة فى القاهرة ، حتى لاتظل هذه المدينة العظيمة أقل من غيرها قوة وتحصينا . على أن الأمر لم يكن مجرد مظهر أو تقليد ، وإنما بناها صلاح الدين لتكون مقرا لحكومته ، ومعقلا لجيشه الكبير ، وحصناً يمكنه من الإشراف على حاضرة دولته ويحميه من الثورات الداخلية ، ونقطة دفاعية يصد منها غارات المغيرين على مصر من الفرنجة .

وقد عهد صلاح الدين ببناء تلك القلعة إلى وزيره بهاء الدين قراقوش (٢) ، واستخدم فى تشييدها الأسرى والمسيحيين، ولكن صلاح الدين توفى ، ولم يكن قد تم من بناء القلعة إلا هيكلها فقط والبئر الحلزونى . ورغم ارتفاع هذه القلعة ،

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 109

(٢) كان قراقوش هذا رجلا عظيما ، ولكن أحد حاسديه أشاع حوله قصصا خرافية تنسب إليه أحكاما مضحكة ، وجمع ذلك فى كتاب سماه « الفاشوش ، فى أحكام قراقوش »، ومنذ ذلك الوقت أخذ العامة عن قراقوش فكرة غير صحيحة وأصبح مجالا للهزء والسخرية،

كان يوجد بها بئر عمقها ٩٠ متراً ، مملوءة بالماء العذب ، منقوبة فى الحجر،حفرها بهاء الدين ، ويوجد بأسفلها سواق تدور فيها الأبقار وتنقل الماء إلى وسطها الذى يوجد فيه أبقار تنقل الماء إلى أعلاها . وهذا البئر من أعجب الآبار ، ويعرف باسم « بئر يوسف » نسبة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لا إلى يوسف الصديق كما يعتقد العامة .

وأتم بناء القلعة ، السلطان الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ هـ ، وانتقل من دار الوزارة إليها ، وسجن فيها أسرة العاضد .

وكان لهذه القلعة سور ، وأبراج ، وثلاثة أبواب : أحدها من جهة القرافة وجبل المقطم ، والثانى من جهة جدارها البحرى ويعرف باسم باب السر ، والثالث يقع مدخله فى أول الجانب الشرقى من القلعة ويصل الداخل منه إلى فناء مستطيل به دواوين الحكومة . وبهذا الفناء باب يسمى باب القبلة ، ويمتد منه دهاليز فسيحة ، على يسار الداخل منها باب يوصل إلى جامع الخطبة وهو من أعظم الجوامع لاتساع أرجائه وكثرة زخرفته ، وفى وسطه قبة ، تليها مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة . وبصدر الدهاليز ، مدخل يوصل إلى الإيوان الكبير الذى كان ينصب به سرير الملك، وهو منبر من الرخام ، ويمتد من هذا الإيوان مساحة كبيرة بها باب القصر الأبلق الذى بناه السلطان الظاهر بيبرس ، وكان يجلس فيه أيام الأسبوع ، وبهذا القصر من جهتى الشمال والجنوب إيوانان يشرفان على الإصطبلات السلطانية .

وصارت القلعة منذ أن تم بناؤها مقراً للدواوين السلطانية ودور الحكومة ، وهى حصينة جداً ، تشتمل على كثير من القصور والإيوانات والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات . وكان بها دار الوزارة وديوان الإنشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والدور السلطانية والجب والأبراج التى كان يحبس بها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان (١) .

---

(١) المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٢٠٥ .

وهذه هى الكتابة المنقوشة على باب القلعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة التى جمعت نفعا وتحصينا وسعة ، على من التجأ إلى ظل ملكه ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المكى الناصرى، فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة » .

غير أن هذه القلعة لم تظل على وضعها الأيوبى ، فقد أدخلت عليها تغييرات فى عهد المماليك فى أيام محمد على ، حتى أخذت شكلها الحالى الذى نراها عليه الآن .

عاصمة مصر فى العهد الأيوبى :

ولم يعمد صلاح الدين الأيوبى إلى إنشاء عاصمة جديدة ، جريا على سياسة من سبقه من ولاة مصر وخلفائها ، بل استن سنة جديدة ، بأن عمل على ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة بعضها إلى بعض ، وذلك بقصد توسيع مدينة القاهرة .

وأحاط هذه العاصمة بسور عظيم ، يبلغ طوله نحو ١٥ كيلو مترا ، ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار ، ويتراوح ارتفاعه بين تسعة وعشرة أمتار ، وبنى وجه هذا السور من الحجر المنحوت تتخلله الأبراج، ولا تزال بقايا هذا السور قائمة فى جهات مختلفة ، أظهرها الفسطاط .

وقد استدعى ضم تلك العواصم بعضها إلى بعض وإحاطتها بالسور وبناء القلعة، هدم المبانى الموجودة فى ضواحى القاهرة من مصر القديمة إلى مقام السيدة زينب ، وزرعت مكان هذه المبانى حدائق للفاكهة (١) .

وأقيم سد على حافة الصحراء بالجيزة لحماية القاهرة من الغرب ، وبنى هذا السد بأحجار أخذت من الأهرام الصغيرة، وكانت تحمل إلى الجيزة على قناطر على طول حدود الصحراء .

---

(١) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 159.

انشاء المدارس :

وعنى صلاح الدين ببناء المدارس : فبنى مدرسة بالقرب من قبر الإمام الشافعى بالقرافة ، وبنى مدارس الناصرية والقمحية ، وأسس الأيوبيين كثير من المعاهد الدينية كالمدرسة السنية التى أنشأها صلاح الدين ودار الحديث أو الكاية الكاملية نسبة إلى الملك الكامل (١) . وكانت المدرسة عبارة عن بناء متجه إلى القبلة ، وفى وسطه صحن كبير مربع ، وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب ، ومن ثم لم تختلف هيئة المدارس فى الجملة عن هيئة المساجد ، وكان الطلبة يذهبون إلى تلك المدارس بانتظام ويتلقون العلم بالمجان (٢) . وكان سلاطين الأيوبيين يهتمون بإنشاء المدارس ، ويقفون عليها الأوقاف الكثيرة ويرتبون لها الفقهاء والعلماء ، وتدرس فيها الشرائع الأربع ، ويلقن الطلبة دروساً فى القانون ، وكثرت فيها المباحثات والمناقشات ، وكان السلاطين يشجعونها لشغفهم بالبحث والجدل ، فقد كان بعضهم أدباء ينظمون الشعر ويجيدونه كالملك الكامل ، فلا غرو إذا كثرت المدارس وازداد الاهتمام بإنشائها .

تأسيس المنصورة :

وأنشأ السلطان الكامل سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) مدينة جديدة على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، بدء فى بنائها بعد سقوط دمياط فى أيدى المماليك لويس التاسع واتخذها الكامل مركزاً دفاعيا يقاوم منه الصليبيين ، وسماها « المنصورة » بعد أن تمكن من استرجاع دمياط وذلك تيمنا بنصره . على أنها كانت فى ذلك الوقت مدينة بسيطة ، ولكنها ما لبثت أن كبرت واتسعت ، وبنيت بها الفنادق والحمامات وأصبحت من أمهات المدن المصرية ، واشتهرت منذ إنشائها بأنها مدينة حصينة ، وفيها سجن الملك لويس التاسع هو ومن معه ، فقد أمر توران شاه بسجنهم فى دار

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 193.

(٢) أخذ الأيوبيون هذا النظام عن الفرس ، إذ أنه لم يكن معروفا فى العصر الفاطمى، وإنما كانت هناك المعاهد التى تدرس المذهب الشيعى وتنشره مثل دار الحكمة .

الحكمة لا تزال معروفة إلى اليوم لدى العامة باسم دار ابن لقمان ، لأن القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان كان ينزل فيها كلما جاء إلى المنصورة (١) ، وهى التى قال عنها الشاعر جمال الدين يحى ، ينبه الفرنسيين إلى مصيرهم إذا ما حاولوا غزو الديار المصرية من جديد :

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح(٢)

قلعة الروضة :

وبنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب قلعة فى جنوب جزيرة الروضة ، سميت « قلعة الروضة » أنشأها سنة ٦٣٨ هـ ليسكن فيها مماليكه البحرية ، وذلك حين أكثر من شراء المماليك من الترك خاصة ، وبنى لهم من المساكن فى تلك القلعة، وهى تشغل مساحة كبيرة من الأرض وقد عمرت بالأبنية والقصور ، وجهزت بكثير من الأسلحة والآلات الحربية ، وأنشأ فيها جامعا وشيد برجا ، ولما أتم بناءها انتقل إليها هو وأفراد أسرته ومماليكه البحرية ، كما اتخذها مقراً لملكه (٣) . وأطلق على القلعة التى بناها صلاح الدين « قلعة الجبل » تمييزا لها عن « قلعة الروضة » التى بناها الصالح أيوب ، والتى ظلت عامرة بالمماليك حتى زالت دولة بنى أيوب ، وتولى المعز أيبك سلطنة مصر فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل .

ومما يلاحظ أن المنشئات الأيوبية كانت تخضع فى بنائها للطابع الأفرنجى لا الطابع البيزنطى القديم ، بسبب شدة اتصال المسلمين بالفرنجة ، كما يمكن القول أن معظم تلك المنشآت كان من مستلزمات الحرب .

---

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤١ .
(٢) راجع بقية القصيدة فى نهاية كلامنا على علاقات الأيوبيين بالصليبيين فى الباب الرابع .
(٣) المقريزى . كتاب السلوك ج ١ ص ٣٠١ .

(ب) فى عهد المماليك

منشآت بيبرس وقلاوون :

وفى عهد المماليك بنى السلطان الظاهر فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) مسجده المعروف باسمه بميدان الظاهر فى القاهرة ، وجلب لذلك الرخام والأخشاب وغيرها من أدوات البناء من سائر البلاد ، وزينه بزخارف الجص ، وهو أحسن مثل للمساجد الضخمة التى بنيت فى عهد دولة المماليك البحرية .

وبنى بيبرس كذلك برجا لقلعة الجبل ، وشيد قناطر السباع على الخليج المصرى ، وعرفت بذلك الاسم لأنه نصب عليها سباعا من الحجارة ، (١) وأصلح منارتى رشيد والأسكندرية ، وجدد سور الأسكندرية ، وردم مدخل فم دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة من العبور إذا ما أرادوا الإغارة على مصر .

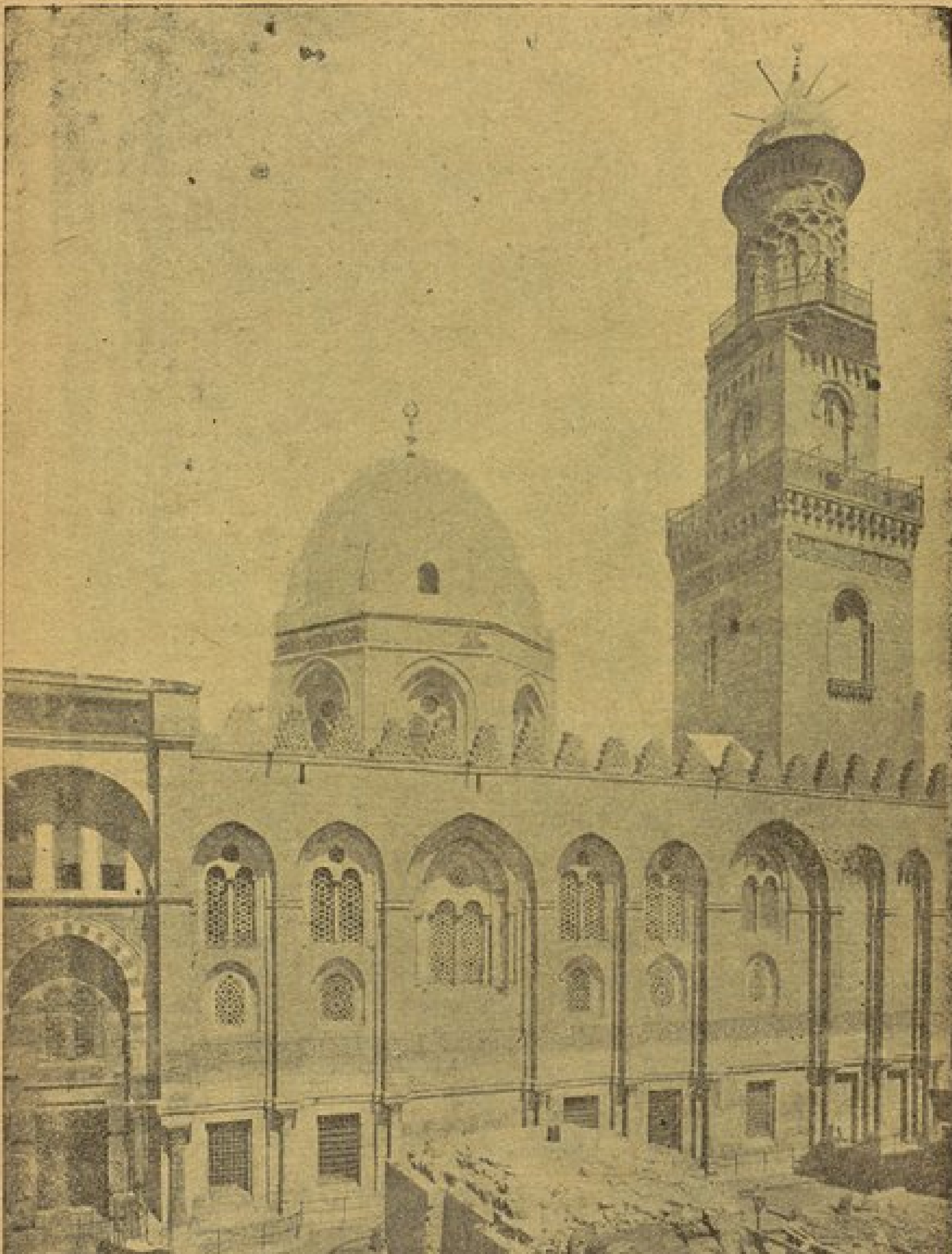
وأنشأ السلطان المنصور قلاوون القبة التى دفن تحتها ، ومدرسته ، ومارستانه الذى يعرف الآن بمستشفى قلاوون وكان سبب إقامته سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٨ م) أنه لما ذهب لغزو الروم سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) فى عهد السلطان بيبرس ، أصابه وهو بدمشق مرض شديد ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت من مارستان السلطان نور الدين محمود ، ولما شفى قلاوون ذهب بنفسه لمشاهدة المارستان ، ونذر إن هو عتلى عرش مصر أن يبنى مارستانا مثله (٢) .

منشآت الناصر محمد :

وتابع السلطان الناصر محمد سياسة أبيه قلاوون فى الإنشاء والتعمير : فشيد « المدرسة الناصرية » ، وتقع بشارع المعز لدين الله (النحاسين) ، أنشئت على جزء من أرض القصر الصغير الفاطمى ، بدأ فى إنشائها السلطان العادل كتبغا ، وخلع

---

(١) المقريزى . الخطط ج ١ ص ١٤٦ .
(٢) المقريزى . نفس المصدر ج٢ ص٤٠٦ .



مدرسة وقبة وبيمارستان السلطان قلاوون

كتبغا من الملك قبل أن يتمها . ولما عاد الناصر إلى عرشه للمرة الثانية أتم بناء هذه المدرسة ، وبنى فى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) قبة وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة وألحق بها مكتبة حافلة ، ثم نقل إلى القبة رفات والدته [١] .

وبنى الناصر القصر الأبلق بقلعة الجبل ، وقد سمى بهذا الاسم لأنه بنى من الحجر الأبيض والأسود ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخل بعضها فى بعض .

وبنى الناصر مسجده بالقلعة سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ثم هدمه فى سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٥ م) وأعاد بناءه من جديد لتوسيع جوانبه[٢] ، وكان أول أمره مدرسة ، وضع أساسها السلطان كتبغا سنة ٦٦٥هـ (١٢٩٦ م) . وفى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) جدد السلطان الناصر محمد بناء المارستان الكبير الذى أسسه السلطان قلاوون . وأنشأ فى سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣ م) خانقاه [٣] سرياقوس من ضواحى القاهرة ، وكان سبب إنشائها أن الناصر ركب كعادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق انتابه ألم شديد كاد يقضى عليه ، فنزل عن فرسه ، ولكن الألم تزايد عليه ، فنذر إن عافاه الله أن يبنى فى هذا الموضع مكانا يتعبد فيه الناس لله تعالى ، ولما عاد إلى قلعة الجبل وشفى من مرضه ، سار بنفسه إلى الموضع الذى انتابه فيه المرض وصحب جماعة من المهندسين واختط هذه الخانقاه وشيد الناصر سبيلا ملحقا بمدرسته وجامع قلاوون .

وقد اقتدى بالناصر فى العناية بتأسيس المبانى أتباعه من الأمراء ، حتى قيل إن مهندساً من تبريز دعى سنة ٧٣٠هـ (١٣٣٠ م) لتشييد جامع الأمير قوصون بشارع محمد على [٤] ، ومن المساجد الأخرى التى بناها أمراء الناصر : مسجد الماردانى بالدرب الأحمر ، ومسجد ألماس بالحلمية .

---

(١) مجلة العمارة : س ٧ — ٨ لسنة ١٩٤١ ص ٢٩٩ — ٣٠٠
Van Berchem : Corpus, Egypte, I. p. 200 – 205.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٣) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت ، وقد اتخذت مصر مقراً لإيواء فقراء الصوفية القادمين من البلاد الشرقية . وبلغ الصوفية أوج عزهم فى أيام صلاح الدين الأيوبى وخلفائه ، كما يشهد بذلك العدد الوافر من البيوت التى شيدت لهم والتى تعرف باسم الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة .
زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٧ .

(٤) Hautecoeur et Wiet : Les mosquées du Caire, p. 127 .

منشآت الناصر حسن :

ومن المساجد الضخمة التى بنيت فى عهد المماليك البحرية : مسجد السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون القريب من القلعة . وبنى الناصر أيضا قاعة البيسرية فى قصره بالقلعة ، وكان بها تسع وأربعون ثوباً ، ومقدار ما استعمل فى تزيينها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠٫٠٠٠ درهم ، وكانت كلها مطلية بالذهب ، وبلغ ارتفاعها ٨٨ ذراعا ، وأقيم عليها برج مطعم بالأبنوس ، كما كان يعلوها قبة مصنوعة من الذهب الخالص تزن ٣٨٠٠٠ مثقال . وقد أنفق على هذه القاعة مليون درهم من الفضة أو ٥٠٫٠٠٠ دينار من الذهب .

منشآت سلاطين المماليك البرجية :

أما فى عصر دولة المماليك البرجية . فقد أصبحت المساجد أصغر حجما ، ولكنها امتازت بجمال الفن ودقته ، ونرى ذلك واضحا فى مسجد السلطان قايتباى بقرافة المماليك قرب العباسية ، وبنى السلطان المؤيد شيخ جامعه المعروف باسمه وزين محرابه ومنبره بالفسيفساء ، كما أسس المارستان المؤيدى وذلك سنة ٨٢١ هـ . ومن المساجد التى بنيت فى ذلك العصر جامع برقوق ، وجامع الأشرف برسباى ، وقبة الغورى بالغورية .

وأشهر سلاطين المماليك البرجية شغفا بالبناء هو قايتباى . فإنه عدا مسجده الذى أنشأه ، صرف مائة ألف دينار على إعادة تشييد مسجد المدينة المنورة . وبنى قلعة بالأسكندرية ، وأقام مبانى جديدة فى القلعة . كذلك حصن السلطان الغورى مدينتى الأسكندرية ورشيد ، كما حصن طومان باى مكة . وامتاز عصر المماليك البرجية عما أقيم فيه من قصور شاهقة وعمارات أنيقة .

الباب السابع

الحالة الاقتصادية

أولا – من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

١ – من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية

كان خراج مصر فى الإسلام يأتى من ناحيتين : أولهما ضرائب الأطيان ، وثانيهما الضرائب الشخصية وهى جزية الرءوس التى فرضت على أهل الذمة من القبط واليهود والإغريق وهى عبارة عن دينارين فى السنة أو ثمانية قروش ونصف فى الشهر، وقد فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل تأمينهم على أموالهم وكنائسهم والدفاع عنهم ، ومع هذا فقد أعفى من هذه الضريبة النساء والأطفال والشيوخ ، وفرضت الجزية على الذميين مقابل فرض الزكاة على المسلمين. وكان مجموع الأطيان والضرائب الشخصية يعرف باسم «الخراج» .

ولم يزد خراج مصر بنوعيه فى السنة الأولى من ولاية عمرو عن عشرة ملايين دينار ، ولم يزد فى السنة الثانية عن إثنى عشر مليون دينار ، وهذا القدر لم يرض الخليفة عمر، الذى بلغه أنه فى عهد المقوقس وصل إلى عشرين مليونا ، وجعله البعض ٢٤٫٤٠٠٫٠٠٠ دينار فى عهد الفراعنة .

لهذا عجب عمر بن الخطاب ، الذى اشتهر بالتشدد على عمال الخراج ، من أن مصر لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه قبل الإسلام . وكان سوء التفاهم بينه وبين واليه على مصر ، بسبب تأجيل دفع الخراج وشك عمر فى ذمة عمرو . ولكن إذا علمنا أن عمراً قد راعى فى جباية الخراج حالة النيل من حيث زيادته ونقصانه حتى اضطر أحياناً إلى تأجيل دفعه ، وإذا علمنا أن عمرو بن العاص كان يدفع أعطيات الجند من أموال الخراج ، وينفذ المشروعات التى تتطلبها حالة الرى كشق الترع ، وبناء القناطر، يتضح أن عمراً كان له العذر فيما فعل ، وأنه راعى مصلحة الدولة الحاكمة

والبلاد المحكومة ، وأنه خفف عن المصريين الأعباء الثقيلة التى كانوا يئنون تحتها من تعدد الضرائب التى شملت كل شىء فى عهد الرومان . وقدعزا المؤرخ ملن نقص الخراج فى أيام عمرو، عما كان عليه فى عهد الرومان ، إلى إلغاء كثيرمن الضرائب لرغبة عمرو فى عدم إرهاق أهالى مصر(١).

دارت بين عمر بن الخطاب وواليه عمر بن العاص مكاتبات بخصوص نقص مقدار الخراج فى مصر عما كان عليه فى عهد المقوقس . وفى إحداها يقول الخليفة : «سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة ، فى بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب ماعجبت أنها لاتؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولاجدب» .

ورد عليه عمرو بن العاص يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمر بن العاص . سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام ، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر ، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام ، وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً ، قطع الله درها ، وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وثربت(٢)، وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من أئمتنا ، نر غير ذلك قبيحاً والعمل به شينا فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم(٣) ومن شر الشيم . . . »(٤) .

---

(١) Milne : Egypt under Roman Rule, p 115

(٢) التثريب : التأنيب والتعيير والاستقصاء فى اللوم .

(٣) جمع طعمة : وهى المأكلة .

(٤) راجع تلك المكاتبات كاملة فى: حسن ابراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص٣٥١ ـ ٣٠٥ .

واستمرت تلك المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من أجل الخراج . ولكن عمراً لم يتمتع طويلا بولايته ، فلم يكد عثمان بن عفان يتولى الخلافة حتى عزله ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى بلغ الخراج فى عهده أربعة عشر مليون دينار . وعير عثمان عمراً على ذلك وقال له : «أن اللقاح(١) بعدك قد درت ألبانها »(٢) ، ورد عليه عمر رده المشهور : « نعم ! ولكنها أعجفت فصيلها» (٣). وعقب ذلك قامت تلك الفتنة المعروفة التى انتهت بقتل عثمان نتيجة سوء سياسته وسياسة ولاته فى الأمصار الإسلامية وتشددهم مع أهالى مصر فى جباية الضرائب وإسرافهم فى سفك الدماء .

وفى خلافة على بن أبى طالب انضم عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبى سيفان وإلى الشام ضد على . وحارب معاوية وعمرو الخليفة عليا فى واقعة صفين التى انتهت بتحكيم القرآن بدل السيف، وأدى التحكيم إلى عزل على عن الخلافة وتثبيت سلطان معاوية ووصوله إلى الخلافة وتأسيس الدولة الأموية بعد عزل الحسن بن على عن الخلافة ، وكافأ معاوية قائده عمرو بن العاص بولاية مصر للمرة الثانية ، على ن تعطى له طعمة بمعنى أنه يتصرف فى شئونها المالية كما يشاء . وظل عمرو يتمتع بسلطان مطلق فى إدارة البلاد وجباية أموالها ، حتى توفى سنة ٤٢ ﻫ بعد أن ظل فى ولايته الثانية ثلاث سنوات .

وفى طول حكم الأمويين والعباسيين لمصر ، ظل النظام الإدارى على ما كان عليه فى عهد عمر ، ولكن يلاحظ على نظام الحكم فى ذلك العصر كثرة عدد الولاة الذين ولوا أمور مصر وسرعة عزلهم عن مناصبهم ، مما أدى إلى حصر جهود هؤلاء الولاة لافى ترقية الزراعة أو التجارة أو الصناعة ، بل إلى جمع المال بأية وسيلة مها أدى ذلك إلى ظلم الأهالى وعدم القيام بالمشروعات النافعة . واشتهر معظم ولاة ذلك العصر بالشدة فى جمع الخراج، ولذلك فإن المصريين قاسوا كثيراً من جراء التعسف فى جباية الضرائب .

---

(١) اللقاح بالكسر: الإبل، واحدتها لقوح.
(٢) أى أن مقدار الخراج زاد عما كان عليه أيام عمرو .
(٣) أى أهزلت صغارها .

وقد أدت تلك السياسة إلى استياء المصريين وخروجهم على الولاة وخاصة في عهد بني أمية وبني العباس. وأخذ خراج مصر يقل بعد عمرو وابن أبي سرح، حتى إنه لما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة وولي عمرو بن العاص مصر ثانية، كان خراجها تسعة ملايين دينار، بل إنه لم يزد في أواخر أيام عمرو على خمسة ملايين دينار في السنة، ولم يزد في أيام الأمويين والعباسيين عن ثلاثة ملايين إلا مرات قليلة.

وقد فطن الولاة إلى أن سبب قلة الخراج يرجع إلى أن المورد الثاني لخراج مصر، وهو الجزية، أخذ في النقص لكثرة دخول أهل مصر في الإسلام، حتى اضطر بعض الولاة إلى اقتراح فرض الجزية على من أسلم. فإنه لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة الأموية، بعث إليه واليه في مصر أيوب بن شرحبيل الأصبحي يشكو كثرة دخول الناس في الإسلام، ويذكر له أثر ذلك في الخراج ويستأذنه في فرض الجزية على من أسلم. فرد عليه عمر بكلمته الخالدة: « قبح الله رأيك! إنما بعث الله محمداً هاديا ولم يبعثه جابيا. فضع الجزية عمن أسلم، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه ».

٢ — في عهد الطولونيين

الزراعة:

أدرك ابن طولون ما للزراعة من الأهمية الكبرى في رخاء مصر، ولذا لم يترك وسيلة من الوسائل الناجعة لتشجيع الزراعة إلا طرقها، فقد أصلح الطرق وأنشأ الترع والمصارف، واهتم بأمر تطهيرها، ولكن يظهر أنه لجأ في عمليات الإنشاء والتطهير والإصلاح إلى السخرة جريا على النظام الذي سار عليه ولاة مصر منذ الفتح العربي، واستمرت السخرة قائمة حتى ألغيت من مصر عام ١٩٣٠م. وعني ابن طولون بماء النيل حتى ظلت مياه الفيضان محتفظة طول عهده وعهد ابنه خمارويه بمنسوبها العادي ولم يذكر لنا المؤرخون أن مصر عانت من جراء مياه النيل أية أزمة إلا بعد وفاة ابن طولون، حتى بعد وفاته لم يقل الفيضان إلى درجة حدوث قحط أو

مجاعة كما حدث فى مصر فى عهد الفاطميين فى عهد المستنصر وكما حدث فى أواخر عهد دولة المماليك البحرية . ويمكن القول أن المحصولات الزراعية كانت كلها فى مرتبة واحدة ، من حيث اعتبارها مصدرا للثروة الأهلية ، عدا الكتان فإنه كان محصول مصر الرئيسى ، كما هو الحال الآن فى مصر بالنسبة إلى القطن (١) .

الضرائب :

كان يتولى أمر الخراج فى العصر الطولونى أحمد بن المدبر ، فزاد الضرائب ولجأ إلى القسوة فى جبايتها ، وابتدع عدة طرق لجباية الأموال : فحجر على النطرون بعد أن كان مباحاً للناس ، وقرر على الكلأ المباح مالا سماه المراعى وأنشأ لذلك ديواناً خاصا ، وقرر على مايصاد من سمك البحر والنيل فى البحيرات والبرك مالا سماه المصايد .

وانقسم خراج مصر إلى خراجى وهلالى : فالخراجى مايؤخذ على الأرض التى تزرع حبوبا ونخلا وفاكهة وما يؤخذ على المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج ، والهلالى مايؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك .

ولم يكن الباعث لابن المدبر على فرض هذه الضرائب العمل على إنماء ثروة البلاد وعمارة الأرض والترفيه عن الأهلين ، وإنما كان يجمع الخراج ويرسل منه الجزية المخصصة لدار الخلافة وما بقى يتصرف فيه تصرفا لا يتفق ومصلحة البلاد ، حتى كان ذلك سبباً فى تأخر البلاد وخراب أرضها حتى انحط خراجها إلى ٨٠٠٫٠٠٠ دينار مع أنه بلغ ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى عهد ولاية عمرو بن العاص و ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى عهد خلفه عبد الله بن أبى سرح . وقد أثار ابن المدبر بهذه السياسة سخط الأهلين، فعملوا على الكيد له ، حتى صرف عن خراج مصر ، وفى سنة ٢٦٣ هـ قلد الخليفة العباسى خراج مصر لابن طولون وأصبحت جميع أعمال الدولة المالية فى يده .

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٣٩ .
Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p . 20 .

وبلغ خراج مصر فى عهد أحمد بن طولون ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولم يلجأ فى جمعه إلى شىء من العسف . على أن الخراج نقص فى عهد ابنه خمارويه ، لما بذله من الأموال والنفقات فى الصرف على جيشه وعلى جهاز ابنته قطر الندى ، كما كان يدفع للخليفة فى كل عام ٢٠٠٫٠٠٠ دينار عن كل عام للمستقبل نظير تعيينه هو وأولاده من بعده مدة ثلاثين سنة فى البلاد الممتدة من الفرات إلى برقة (١) .

التجارة :

وإلى جانب ذلك ، كانت مصر بحكم موقعها الجغرافى مركزاً يلتقى عنده المشتغلون بالتجارة فى العصور الوسطى . وهنا نورد عبارة ننقلها عن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الجغرافى المشهور ، لنتبين منها حركة الاتجار بين الشرق والغرب وعلاقة مصر بتلك الحركة فى الدولة الطولونية : «كانت مصر مسلك التجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والفرنجية والأندلسية والصقلية ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والفراء والسيوف ويخرجون إلى الفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون من القلزم إلى جدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور وغير ذلك حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملون إلى الفرما ثم يركبون فى البحر وربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم» (٢) .

وفى ذلك الوقت الذى لم توجد فيه أية وسيلة من وسائل النقل الحديثة كالسكك الحديدية ونحوها ، قام النيل بدور هام فى الملاحة النهرية ، مما يدلنا على أنه كان فى مصر فى ذلك العصر عدد لا بأس به من السفن التى كانت تنقل المحصولات من أقصى البلاد حتى دمياط والأسكندرية ، حيث كان التجار الغربيون يحصلون ما كانوا

---

(١) راجع ، حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص٣٣١ — ٣٣١ ؛
(٢) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك ص ١٥٣.

يحتاجونه من واردات الشرق . والظاهر أن مصر كانت على اتصال تجارى ببلاد النوبة جنوبا ، إذ وفد عليها فى عصر الدولة الطولونية بعض التجار يحملون أنفس البضائع السودانية ، كالعاج والأبنوس وريش النعام وسن الفيل الذى كان يباع خاصة فى أسواق الفسطاط .

الصناعة :

أما من الوجهة الصناعية ، فقد قامت فى مصر فى عهد الطولونيين بضع صناعات تدل على الانتعاش الصناعى فى البلاد من أهمها صناعة النسيج ، وكانت تلك الصناعة يدوية ، بمعنى أن الصناع كانوا يعتمدون على الأنوال ، فيحركون الخيط بواسطة مهماز من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين ، مع استعمال أقدامهم أيضاً . وكانت تلك الصناعة دقيقة ، بدليل أن الخلع التى كانت ترسل إلى الخليفة العباسى فى بغداد كانت من هذه الأقمشة . وقد نمت هذه الصناعة فى مصر فى مدن تنيس والأسكندرية وبهنسا (بصعيد مصر) والأشمونين ودمياط وأخميم وأسيوط ، وفيها كان ينسج الكتان والصوف والقطن ، أما الأقمشة الحريرية فكانت تصنع فى الأسكندرية ودبيق . وكانت هناك مصانع حكومية يطلق عليها اسم الطراز تقوم بنسج ثياب الأمراء والوزراء ، وكبار رجال الدولة وصنع الخلع التى كان يخلعها الوالى على أفراد حاشيته وذوى الحظوة عنده من رعيته ، كما اختصت تلك المصانع الحكومية بصناعة الوشى والديباج ، وكان لها مديرون فنيون يتقاضون مرتباتهم من الدولة . وفى دار الآثار العربية بالقاهرة مجموعة قيمة من قطع النسيج عليها بعض أسماء أمراء الدولة الطولونية وأسماء يظن أنها أسماء مديرى المصانع أو عمال الخراج . ومن هذه القطع قطعة عليها اسم الخليفة المهتدى العباسى واسم محمد بن هلال عامل الخراج ، وقطعة عليها اسم الخليفة المعتمد العباسى وعليها أيضاً اسم خمارويه وبيان أنها صنعت فى مصنع النسيج فى تنيس سنة ٢٣٨ ﻫ ، وقطعة عليها اسم الخليفة المهتدى العباسى واسم محمد بن شاهين الذى يرجح أنه كان مديراً لأحد المصانع .

ومن الصناعات الهامة التى عرفت فى العصر الطولونى ، صناعة الأسلحة . وكانت

دار الصناعة هى التى تقوم بصناعتها ، وكذلك عرفت فى مصر فى ذلك العصر صناعة الصابون وصناعة السكر . وتعتبر صناعة الحفر على الخشب من الصناعات الهامة التى امتاز بها العصر الطولونى ، وكانت تقام إذ ذاك فى الفسطاط أسواق كثيرة للخشب . وكما عرف الحفر على الخشب، عرف كذلك فن الكتابة عليه بالخط الكوفى ، وظل إلى العصر الحالى بعض قطع خشبية من الجامع الطولونى مكتوب عليها ذلك الخط . وإلى جانب تلك الصناعات، وجدت فى مصر صناعة الزجاج وصناعة المعادن وعرف استعمال الخزف فى مصر أيام الطولونيين،ويشبه كثيراً الخزف الذى كان مستعملا فى سامرا ، وليس لدينا وثائق من هذا العصر تثبت أن التصوير كان منتشرا فى العصر الطولونى فى مصر (١) .

ويمكن القول أن أكثر الصناع كانوا من المصريين الوطنيين سواء من اعتنق الإسلام أومن بقى على مسيحيته، وكان لتنقل الصناع من مصر إلى الأقطار الإسلامية الأخرى أومن هذه الأقطار إلى مصر، أثر فى نقل الفن الفارسى والعراق والبيزنطى إلى مصر أو نقل الفن القبطى والطولونى إلى هذه الأقطار . وكذلك يمكن القول أن مصر الطولونية عملت على نشر التجارة المحلية والتجارة الخارجية، فكانت أسواقها رائجة بحكم مركزها الجغرافى ، وكان أكثر التجار من اليهود الذين ساعدهم حذقهم فى اللغات الأجنبية على رواج تجارتهم . ومن ذلك نرى أن مصر الطولونية أخذت بمبدأ حرية التجارة ، فلم تحتكر الحكومة صنفاً من الأصناف ولم تشجع الاحتكار.

٣ — فى عهد الإخشيديين

تمتعت مصر فى عهد الإخشيديين بالهدوء والطمأنينة ، حتى انتعشت أحوالها الاقتصادية ، وقد تولى جباية الخراج فى مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة المادرائيين (٢) . وبلغ خراج مصر فى عهد الإخشيد ٢٠٠٠٠٠٠ دينار فى السنة، سوى خراج الرملة وطبرية ودمشق والسواحل ، وعدا خراج ضياعه التى كانت ملكا خاصا له (٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٣

(٢) نسبة إلى مادرايا ، موطنهم الأصلى ، وهى مدينة تقع على نهر الفرات بالقرب من البصرة

(٣) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣٦ .

وفيما عدا الخراج، جمع الإخشيد أموالا طائلة، استحوذ عليها عن طريق المصادرة، فقد استولى بهذه الطريقة من أبي بكر محمد بن علي المادرانى على أموال وضياع بلغت قيمتها ثلاثة وثلاثين أردبا من الدنانير (١). كذلك قبض الإخشيد على رجل من أهل مصر يدعى «بارشكور» وصادر أمواله وكانت تبلغ مائتى ألف دينار واستولى على جميع غلمانه بسلاحهم ودوابهم وثيابهم (٢) وكان إذا توفى قائد من قواد الإخشيد أو كاتب من كتابه أو أحد الأغنياء من التجار شارك ورثته فى تركته. ويظهر أن الدول الحديثة فيما قررته من فرض ضريبة على التركات، إنما تبرر إلى حد بعيد ما كان يفعله الإخشيد. وأمدنا ابن زولاق بأخبار طريفة عن طرق المصادرة التى كان يتبعها للوصول إلى غرضه، وعن أعمال التجسس التى نشرها فى البلاد بقصد معرفة حقيقة مقدار الاموال المودعة لدى أغنياء مصر، وقد لجأ الإخشيد إلى المصادرة مرغماً، وعبر عن ذلك بقوله: «المصادرة مشئومة وأنا مضطر إليها وما أنفقتها إلا فى سفر إلى عدو» (٣).

وكان الإخشيد ينفق جزءاً كبيراً من الأموال فى إقامة المنشآت العامة كبناء القصور وإنشاء الميادين وعمل المتنزهات وتنمية الزراعة وترقية الصناعة، ودفع ما قد ترتبط به مصر من التزامات فى معاهداتها مع جيرانها. وكان يستنفد الجزء الأكبر من هذه الأموال فى فداء الأسرى من المسلمين بصفة عامة ورعاياه بصفة خاصة. يضاف إلى ذلك كله أن الإخشيد لم يكن ليتأخر عن مد يد المساعدة والمعونة إلى رجال الدولة العباسية فى بغداد إذا ما وقعوا فى ضيق مالى أو أصابتهم الفاقة. كذلك تشبه الإخشيد بابن طولون عندما أجرى الأرزاق على من قصده من أمراء بغداد وقوادها وكتابها ووزرائها.

وكان الإخشيد أول وال رتب المرتبات فى مصر، ولم يحاول إنقاصها رغم المحاولات التى بذلها كتابه ليصلوا إلى ذلك لأن «أصحاب الرواتب فيهم الضعفاء وفيهم المستورون وأبناء النعم».

وخلف الإخشيد ثروة طائلة، أحصاها لنا المؤرخ ابن زولاق، فقال إنه خلف

---

(١) ابن سعيد ص ٣٦، ٤١.
(٢) ابن سعيد ص ١٦.
(٣) ابن سعيد ص ٣.

من الجوهر ماقيمته مائتا ألف دينار ، ومن العنبر ثمانمائة رطل ، ومن العبيد ثلاثة آلاف مابين روم وسود ومولدين ، ومن الخيل المخصصة لركوبه ألف ومائتا فرس سوى دواب غلمانه ، ومن البغال ثلاثة آلاف ، ومن النوق ثلاث آلاف ، ومن السفن مائة سفينة سوى العشاريات وكانت كل سفينة منها تقوم عليه بثلاثة آلاف دينار . وتحدث ابن زولاق نقلا عن صالح بن نافع ، أن الأخشيد أوقفه على سبع مطامير ، فى كل مطمورة ألف ألف دينار : مطمورة من الدنانير الإخشيدية ، ومطمورة مقتدرية ، ومطمورة متقية ، ومطمورة مغربيـة ، ومطمورة من خلط دنانير العراق (١) . ومن الطبيعى أن الإخشيد اسـتحوذ على معظم تلك الثروة الطائلة نتيجة لسياسة مصادرة أموال الأغنيـاء .

أما كافور فقد بذل جهده لتنمية الزراعة ، حتى زاد خراج مصر على أربعة ملايين دينار كل سنة ، وبلغ خراج الفيوم وحده سنة ٣٥٦ هـ فى عهد كافور أكثر من ٦٢٠,٠٠٠ دينار ، وبلغت المرتبات فى عهده ٥٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة كانت تصرف لأرباب النعم والمستورين (الأغنياء) وبعض الأهلين ، ولم يكن يدخل فى عدادهم أحد من رجال الجيش أو الحاشية أو المتصرفين فى الأعمال . واستحوذ كافور على ثروة طائلة ، ولـكنها لم تبلغ الحد الذى وصلت إليه ثروة الإخشيد فكان له من العين سبعمائة ألف دينار ، ومن الورق والحلى والجوهر والعنبر والثياب والآلات والفرش والخيام والعبيد والجوارى والدواب ماقيمته ستمائة ألف دينار .

إلا أنه أواخر عهد كافور ، انخفض ماء النيل انخفاضاً دام تسع سنين (٣٥١ — ٣٦٠هـ) وظل حتى أيام الفاطميين . وقد قاست البلاد الأمرين مما أصابها من القحط والوباء ، واشتد الغلاء ، وندر وجود القمح وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ومواراتهم حتى بلغ عدد من مات فى تلك الشدة ستمائة ألف . وكان يلقى بجثث الموتى فى النيل لـكثرتها ، وقد تبع انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحـكومية وانتشار المجاعات والأوبئة ، فنهب المحاصيل ، وعم السلب والنهب ، حتى إن كافوراً لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند فثاروا عليه (٢) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) Lane—Poole : The Story of Cairo, p . 125 .

ثانيا — فى عصر الفاطميين

الزراعة :

واجه الفاطميون منذ استيلائهم على مصر ، المجاعة التى انتابت البلاد فى عهد كافور الإخشيدى وبدأت سنة ٣٥١ هـ واستمرت فى حكم الفاطميين إلى سنة ٣٦٠ هـ . ولذا عمل جوهر الصقلى على تخفيف ذلك القحط بأن أنشأ مخزناً للحبوب ، عهد برقابته إلى المحتسب الذى جعلت مهمته منع احتكار الحبوب .

وبلغت مساحة الأرض المزروعة فى عهد الخليفة الفاطمى المعز نحو ٢٨٥ ألف فدان وبلغت نحو هذا المقدار أيضا فى أيام الوزير بدر الجمالى ، وقد ظلت أحوال مصر الزراعية فى انتعاش مستمر ، ولكن مساحة الأرض المزروعة انعدمت أو كادت ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وهى المجاعة التى اشتدت بين سنى ٤٥٩ — ٤٦٩ هـ والمعروفة فى التاريخ باسم « الشدة المستنصرية » . وقد يبدو عجيباً أن تحدث مجاعة فى عصر الفاطميين ، الذين بلغت البلاد فى أيامهم حالة من الثراء والرخاء أصبحت معها مضرب الأمثال فى سائر الأقطار ، بل أعجب من ذلك أن تحدث تلك المجاعة فى زمن المستنصر ، وهو الذى كانت ثروته لا تقدر بمال ، إذ كان قصره عامراً بالتماثيل الرائعة والتحف النادرة ، وكلها من الذهب والياقوت والزبرجد .

وفى غضون تلك المحنة ، اشتد الجوع على الناس : فأكلوا لحم القطط والكلاب ، وبيعت الخيل والحمير بأثمان غالية ، ثم ندر وجودها ، وبلغ ثمن الكلب خمسة دنانير وثمن القطة ثلاثة ، وسرقت كل دواب الخليفة وإبله وخيوله وكانت تعد بالآلاف . وقيل فى هذا الصدد : إن وزير المستنصر نزل عن بغلته أمام باب القصر وتركها تحت رعاية غلامه ، فهجم ثلاثة رجال على الغلام وأخذوا البغلة منه ، أما هو فلم يقدر على منعهم لضعفه من الجوع ، وذبح الرجال البغلة وأكلوها ، فقبض عليهم وصلبوا عقاباً لهم ، ولكن لما أصبح الناس لم يروا إلا عظامهم ، إذ كان الشعب الجوعان قد أكل لحومهم أثناء الليل (١) .

(١) على ابراهيم حسن « أخطر المجاعات فى مصر » ، مجلة الكتاب ، العدد الثامن ، المجلد الثانى ، يونية ١٩٤٦ .

واشتدت المحنة على الناس حتى كانوا من هول الجوع يأكل بعضهم بعضاً، ووصلت الوحشية بأحد الطباخين حداً لا يمكن تصديقه ، فقد ذبح عدداً من الصبيان والنساء وطبخ لحومهم وأكل منها وباع للناس . ومما يذكر من حوادث تلك المجاعة أن امرأة بدينة كانت سائرة فى الطريق فصادها الجنود بالكلاليب ، وأخذوا بعضاً من لحمها وأكلوه ، فلما استغاثت وجاء الوالى لنجدتها وجد فى الدار ألوفاً من القتلى .
وازدادت الحالة خطورة حتى بيع لحم الإنسان عند الجزارين ، وضاعت قيمة المال والذهب والأحجار الكريمة ، فقد كان النساء يعرضن حليهن فى الأسواق فيأخذن عوضاً عنها شيئاً من الدقيق أو الخبز أو الطعام فلا يوجد من يشتريها ، وباع رجل داراً كان قد اشتراها بتسعمائة دينار بعشرين رطلا دقيق ، وعزت الأقوات حتى كان الرغيف يباع أحياناً بخمسين ديناراً .

دامت هذه الشدة سبع سنوات طوال، انتشرت خلالها الأوبئة، وأهلك الطاعون كثيراً من الأهلين، وكابد الناس أقسى ألوان البؤس وأشد صنوف البلاء، ورحلت أم الخليفة المستنصر وبناته إلى بغداد خوفاً من الموت جوعاً ، وبدأ الخليفة يبيع أثاث قصره وتحفه وملابسه كى يسدد رمقه ، ولم تبق له غير دابة واحدة يركبها ، أما رجال بلاطه فكانوا يسيرون فى معيته مشياً على أقدامهم فيسقطون على الأرض من شدة الجوع (١) .

وقد استطاع الوزير اليازورى أن يصلح ما فسد ، فقد رأى أن يبيع قمح الحكومة بسعر معتدل، دون أن ينتظر ارتفاع الأسعار كما كان يفعل الوزراء من قبله . وكان من أثر هذه السياسة أن خسرت الحكومة مبالغ كبيرة من المال، وخلت المخازن من القمح الاحتياطى الذى كان ضرورياً لها فى عهود الشدة التى تلت ، ثم انتهز الوزير اليازورى فرصة زيادة المحصول فى إحدى السنين ، وحال دون إرهاق المرابين والتجار والفلاحين ، بأن منعهم من شراء المحاصيل بأسعار منخفضة ثم أقام مخازن كبيرة من القمح فى الفسطاط ليحول دون انتشار خطر المجاعة .

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦ .

الضرائب :

كانت الضريبة المفروضة على الأرض أو الخراج تزيد أو تقل تبعا لزيادة المحصول وقلته . وكان ذلك يتوقف بطبيعة الحال على ارتفاع مياه النيل أو انخفاضه ، وقد انخفض مقدار الخراج كثيراً فى أواخر أيام كافور الإخشيدى لما أصاب البلاد من القحط والوباء . وفى السنة الأولى من ولاية جوهر الصقلى على مصر جبى خراج البلاد ٣٤٠٠٠٠٠ دينار . وقد نظم يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بأمر الخليفة المعز الفاطمى ، نظام الضرائب فى مصر ، وحددت الضرائب التى تفرض على الأراضى والأملاك ، وروعى العدل فى تقديرها وجبايتها ، فزادت موارد البلاد وحرم على عمال الجباية استعمال الشدة مع دافعى الضرائب ، وقد فرض على الفدان فى عهد المعز سبعة دنانير ، فبلغ مقدار الخراج فى أوائل عصره مليونى دينار . إلا أن مقدار الضريبة ارتفع فى عهد المستنصر ، ولم يعرف مقدارها على الفدان بالضبط ، وفرضت ضرائب على أنواع من المحاصيل لم تقدر عليها ضرائب منذ الفتح الإسلامى ، كذلك أصبحت الضرائب فادحة على المواد الضرورية كالقمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه . وجبى الوزير اليازورى خراج مصر فى أيام المستنصر مليونى دينار ، منها مليون من مصر ومليون من الشام ، وكان ذلك بسبب انخفاض النيل .

أما بدر الجمالى الذى استدعاه المستنصر لمعالجة خطر المجاعة ، فقد بلغ خراج مصر فى عهده ٣١٠٠٠٠٠ دينار ، بعد أن كان فى سنة ٤٦٣ هـ ٢٢٠٠٠٠٠ دينار ، مما يدل على حسن إدارة بدر ، لأنه جبى هذا المقدار على الرغم من صغر مساحة الأرض الصالحة للزراعة إذ ذاك . وجبى الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى خراج مصر ٥٠٠٠٠٠٠ دينار ، وهذا أقصى قدر جبى فى عصر الفاطميين على الإطلاق .

وفيما عدا ضريبة الأرض أو الخراج ، الذى فرضه الفاطميون على الأراضى باختلاف المحاصيل الزراعية ، فرضوا جزية الرءوس وهى عبارة عن دينار وربع عن الشخص ، مع أنها كانت دينارين فى العهود التى سبقتهم ، وفرضوها على أهل الذمة

أى النصارى واليهود ، وكان ما يجبى منها قليلا إذا راعينا أن السواد الأعظم من المصريين قد أصبح فى الوقت من المسلمين ، وكانت هناك ضرائب أخرى تفرض على أرباب الحرف والصناعات .

وقد اتفق معظم المؤرخين على أن سياسة الفاطميين كانت ترمى إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم بالضرائب ومعاملتهم بعاملة تنطوى على العطف ، ولا سيما فى عهد المعز والعزيز ، ولكن لما بدأ أمر الخلفاء يضعف ونجم الوزراء يعلو ، خرج أمر الرعية من يد الخلفاء وتصرف الوزراء حسب أهوائهم وقلت عنايتهم بالأحوال الاقتصادية .

التجارة :

كانت محاصيل مصر فى عهد الفاطميين تنقل فى خليج أمير المؤمنين إلى القلزم (السويس) ، ومنها تنقل إلى بلاد المشرق ، وقد ظلت القلزم مفتاح التجارة مع الشرق حتى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ ﻫ) حيث تحول طريق التجارة والحج إلى مدينة عيذاب الواقعة على ساحل البحر الأحمر على مقربة من مدينة القصير الآن ، تجاه جدة ميناء مكة . وكان التجار والحجاج يركبون السفن النيلية إلى قوص ، ومنها يمتطون ظهور الإبل إلى عيذاب ، فيقطعون هذه المسافة فى ١٧ يوما ، وكان أهل عيذاب يجنون ثروة ضخمة من التجار والحجاج ، وكثرت الضرائب الجمركية على السلع الواردة إلى مصر من بلاد الشرق . وإذا ما وصل التجار والحجاج إلى عيذاب أقلتهم السفن إلى جدة أو إلى المشرق عن طريق باب المندب ، وبذلك أصبحت عيذاب مركزاً للتجارة المصرية ، ترسو فيها السفن الآتية من بلاد الهند واليمن والحبشة ، فتحمل السلع على ظهور الإبل إلى قوص ، ومنها تنقل فى النيل إلى الفسطاط .

وكان يصل إلى مصر عن طريق عيذاب أنواع البهار كالقرفة والفلفل وكذلك البخور وغيرها من منتجات الهند والحبشة ، كما كان يصدر منها المصنوعات المصرية إلى البلاد الشرقية .

وظلت عيذاب على أهميتها التجارية ، منذ عصر الفاطميين إلى عهد السلطان الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية ، فأخذت فى الانحطاط ، وحلت محلها عدن سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) ، وخلفتها جدة ميناء مكة فى أواخر أيام المماليك حول سنة ٨٨٠ هـ وأصبحت من أعظم موانى العالم .

الصناعة :

كانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة حتى صار للفاطميين فى ميدان الصناعة ماض حافل ، وأصبحت الدولة الفاطمية أجمل حلية فى زخرف الدنيا ، وأروع تحفة فى معرض الزمن .

وكان أروع مابرز الفاطميون فى صنعه هو المنسوجات بمختلف أنواعها ، فقد كان فى هذه الدولة كنز لاينضب من الحرير والذهب . وبنى المعز دار الكسوة ، حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم فى الشتاء والصيف ، وحذا حذوه من جاء بعده من الخلفاء . كما أنشأ الفاطميون مكان دار الوزارة الكبرى داراً أخرى لصناعة الحرير ، أطلق عليها اسم دار الديباج (١) وقد بلغت مخصصات دار الكسوة لعمل الملابس سنة ٥١٦ هـ مبلغ ٦٠٠٠٠٠ دينار .

وكانت الحلل تقدم إلى الأمراء والوزراء والأشراف فى عيد الفطر ، ولذا سمى هذا العيد باسم « عيد الحلل » . وكان الخلفاء يتنافسون فى الإنعام على كبار رجال الدولة ، فقد أثر عن العزيز أنه قال « ياعم ، أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى » (٢) . وكذلك كانت الحلل المزركشة تقدم إلى رجال البلاط وكبار الموظفين فى عيد أول رمضان وفى الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه (٣) ، على أن كبار الأمراء كانوا يمتازون عن غيرهم بلبس الأطواق والأساور

---

(١) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٦٤ .

(٢) ابو المحاسن . والنجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٤٧ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٤١٩

وكان نقش اسم الخليفة فى الطراز إحدى تقاليد ذلك العهد ، فكان يعتبر شارة من شارات الملك كنقش اسمه على السكة والدعاء له فى الخطبة، وقد وجد بين القطع الشهيرة من النسيج المحفوظة فى دار الآثار العربية قطع باسم الخليفة المعز وقطع باسم ابنه الحاكم، بعضها عليه كتابات بحروف كبيرة وعلى الأخرى كتابات بحروف صغيرة (١) ، ويوجد فى متحف المتروبوليتان بنيويورك بعض الأقمشة الفاطمية بينها قطعة باسم الخليفة العزيز أيضاً (٢) ، وكان اسم الخليفة ينسج فى الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان ، وقد أذن العزيز بالله بوضع اسم وزيره يعقوب بن كلس على الطراز تقديراً له ، وحذا حذوه كثير من الخلفاء، فأذنوا بكتابة أسماء وزرائهم فى الطراز (٣) .

ويتبين لنا مقدار مهارة المصريين فى عهد الفاطميين فى صناعة المنسوجات ، من وصف الكسوة التى أمر المعز لدين الله بعملها للكعبة الشريفة ، وهى مربعة الشكل مصنوعة من ديباج أحمر ، ونقشت عليها الآيات التى وردت عن الحج بالزمرد الأخضر . وقد وصفها ابن ميسر بقوله :

« وفى يوم عرفه نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها إثنا عشر شبرا فى إثنى عشر شبرا، وأرضها ديباج أحمر، ودررها عشر هلال ذهبا ، فى كل هلال أترجة ذهب مشبك ، وجوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفيها كتابة دررها آيات الحج زمرد أخضر ، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق ، فرآها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها ، وإنما نصها عدة فراشين لثقل وزنها » (٤) .

ولا زالت مصر حتى الآن تهتم بكسوة الكعبة ، فترسل فى كل عام المحمل

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٤ .

(٢) زكى محمد حسن : نفس المصدر ص ١٣٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٤) زكى محمد حسن : نفس المصدر ص ٣٨ ، نقلا عن ابن ميسر

الشريف إلى بيت الله الحرام ، وتقيم لذلك الاحتفالات، وتودعه فى ذهابه بكل إجلال وتستقبله عند إيابه بالحفاوة والتكريم .

ويتبين لنا مدى مهارة المصريين فى صناعة المنسوجات ، من أنه حين نهب الأتراك قصر الخليفة المستنصر عثر فيه على مقطع من الحرير الأزرق، غريب الصنعة، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير ، وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها وطرقها ، وفيه صورة مكة والمدينة، ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه أو اسمها بالذهب أو الفضة أو الحرير ، وكان فى نهاية المقطع العبارة الآتية : « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » (١) .

ويظهر لنا أن صناعة المنسوجات قد زادت فى ثروة مصر فى عهد الفاطميين ، حتى إن خراج مدن تنيس (٢) ودمياط والأشمونين زاد عن ٢٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة فى سنة ٣٦٣ هـ ، وهو أمر لم تعهده مصر من قبل ، وكذلك كان لمصر مركز ممتاز فى هذة الصناعة ، حتى كانت تصدر إلى بلاد العراق نوعاً من المنسوجات يقال له « الرفيع » اختصت بصناعته مدن تنيس ودمياط وشطا وتونة (٣) ، وبلغ ثمن الثوب الأبيض الخالى من الذهب مبلغ ثلثمائة دينار على حسب رواية المؤرخ المصرى ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ .

واشتهرت مدن تنيس وتونة ودمياط بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، حتى كانت لها شهرة عالمية فى ذلك المضمار ، فكان يضرب المثل بثياب تونة التى كانت تصنع منها كسوة الكعبة أحيانا . واشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وعرف أهل دمياط بصناعة الأقمشة العلمونية التى أخذت صناعتها عن بلاد اليونان وهى أقمشة ذات ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، وكان حاكة الثياب الرفيعة فى مدينتى دمياط وتنيس من القبط ،

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٦٢ .
(٢) تنيس : جزيرة بين الفرما ودمياط ، وتقع شرق الفرما .
(٣) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط

وكان أهل دمياط يستأجرون غرفا فى قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة باسم الشرب (١) .

ومن بين المصنوعات التى اشتهرت بها مصر ،صناعة الفرش والبسط والفساطيط والمضارب وشراعات السفن ، وكانت تلك المصنوعات محلاة ومزركشة بصور الحيوانات المختلفة ومهر فى عملها أهل دمياط . وكان من الخيم نوع يقال له المسطح ، وهو بيت مربع له أربعة حيطان وسقف بستة أعمدة . وكان من أمتعة قصر الخليفة المستنصر الذى نهبه الثوار أثناء الشدة المستنصرية،فسطاط الخليفة الظاهر الفاطمى، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة وبلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار (٢) . وكذلك مضرب الوزير اليازورى ، وكان مجموعة رسوم فنية كلفه ٣٠٠٠٠٠ دينار واشتغل فى صنعه ١٥٠ فنانا لمدة تسع سنوات حتى أتموه ونقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم .

ومن بين الثروة التى خلفها الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى أربع حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفرش والوسائد والمساند والديباج وأنواع مختلفة من الحرير والذهب وأربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد وسبعة آلاف سرج (٣) .

وضرب الفاطميون بسهم وافر فى صناعة السروج ، حتى كان لها شأن كبير . وقد تخصص العمال المصريون فى عملها، وكان منهم فى المكان المعروف باسم «الصاغة» عدد كبير لايفتر عن العمل. وكان يوجد بخزائن السروجية فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى صناديق ملأى بالسروج المحلاة بالفضة ، وقد زاد عدد هذه السروج على أربعة آلاف ، يتراوح ثمن كل منها بين ألف وسبعة الآلاف دينار، وقد احتوت تلك الخزائن مالا تحتوى عليه مملكة من الممالك من السروج .

وكانت خزانة السروج عبارة عن قاعة كبيرة بها مصطبة ارتفاعها ذراعان ،

---

(١) على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ص ١٠٨ .
(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٦٣ .
(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ٥٧ .

علها متكآت ، على كل متكأ ثلاثة سروج متراصة . وبلغت صناعة السروج الذروة فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى ، فقد صنع له المصريون عند ما أراد الإغارة على بغداد وغيرها من بلاد الشرق سروجا مجوفة مبطنة بصفائح القصدير ليحمل فيها الماء ، وجعل لها أفواهاً ، فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منها الفارس ، وكان كل سرج يسع سبعة أرطال من الماء .

***

وعنى المصريون عناية خاصة فى العصر الفاطمى بصناعة المعادن ، ولا سيما صناعة الذهب والفضة . ويتبين لنا ذلك من هدية القائد جوهر للخليفة المعز عند قدومه إلى مصر . فقد كانت تشتمل على أربعة صناديق ، يرى ما بداخلها ، وفيها أوانى الذهب والفضة ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، وصناديق مخرقة من فضة ، وحوت كذلك ثمين الجواهر ، واشتملت أيضاً على سبعمائة من الآنية حوت الطرائف المختلفة التى انتخبها هذا القائد من ذخائر مصر للخليفة الفاطمى(١) .

وإن فى وصف عرش الخلفاء الفاطميين لمثلا حياً لحذق الصناع المصريين . فقد كان به من الذهب ما يزيد عن ١١٧٫٠٠٠ مثقال ، ورصع الستر بـ ١٥٦٠ قطعة من الجواهر المختلفـــة الألوان ، وكان الستر موضوعا قبالة العرش وتحلى بما زنته ٣٠٠٫٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص(٢) .

واتخذ المصريون مشاجب لتوضع عليها الثياب ، فقد كان لكل بيت من بيوت الأفضل مسامير من الذهب ، اتخذت كمشاجب ، كل مسمار وزنه ١٠٠ مثقال ، عليها العمائم المختلفة الألوان .

***

ومن أشهر الصناعات الفاطمية التى ظهر فيها فنهم ، النقش على الخشب . وكان من بين تلك النقوش آيات قرآنية على أبواب المساجد ومنابرها أو صور تمثل بعض

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٦ ٣٨٥ . على ابراهيم حسن . تاريخ جوهر الصقلى ص١٠٦ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ٢٣٤

مناظر الحياة الطبيعية كصور موسيقيين يعزفان على العود وحولهما جماعة من الراقصين ، أو صورة صراع بين أسد وحيوان ونحو ذلك ، وكثيراً ما نقشت تلك النقوش بالعاج أو الزمرد ، وكانت دقيقة فى رسمها روعى فيها إظهار الحقيقة لا الخيال .

على أن الفن البديع كان من أبرز الأمور التى أظهرت عظمة الفاطميين ، فقد مهروا فى صناعة التماثيل ، إذ وجد فى بيت المستنصر نخلة ، هى وثمرها من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة ، يكاد يخالها الناظر طبيعية . وكان بداره أيضاً طاووس من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة والجواهر النفيسة ، عيناه ياقوتتان ، وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، ووجد بداره أيضاً ديك من الذهب مرصع باللؤلؤ ، ومنضدة قائمتها من العقيق .

ووجد بدار الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ثمانية تماثيل لثمانى جوار متقابلات ، منهن أربع بيض مصنوعة من الكافور ، وأربع سود مصنوعة من العنبر ، وكلهن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى ، يمسكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة ، ومن الغريب أن الأفضل كان إذا دخل من باب المجلس نكسن رءوسهن إجلالا له ، فإذا ما أخذ مكانه من صدر المجلس استوين قائمات . ويظهر أن تلك التماثيل كانت تتحرك بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخول الأفضل إلى مجلسه[١] .

وأفاض الفن من جماله على الصناعة ، ويتجلى ذلك فى صناعة الآنية فى عصر الفاطميين ، مما خلفوه لنا من الصحاف ، وأوانى الذهب ، والصوانى المحلاة بالذهب وكافة أنواع الأوانى الخزفية ، وقد اشتملت أوانى المستنصر على ستة آلاف آنية للنرجس . كذلك نبغ الفاطميون فى صنع المرايا ، وكانوا يتخذونها من الصلب ويحلونها بالذهب والفضة[٢] .

ومهر المصريون فى صناعة الزجاج ، حتى كان الإنسان يرى يده إذا وضعها

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٥٢ـ ١٥٧، ١٨١ـ١٨٢ .

(٢) ابن ميسر ص ٥٨ .

داخل إناء الزجاج . وقد اكتشفت قطع كثيرة من الزجاج سنة ٨٧٧ هـ فى قرية سمناى القريبة من تنيس ، مكتوب على بعضها اسم المعز وعلى بعضها الآخر اسم العزيز ، ومنها مانقش عليه اسم الحاكم بأمر الله ، ومنها ما عليه اسم الظاهر . على أن أكثر أسماء الخلفاء ظهوراً على تلك القطع الزجاجية هو اسم المستنصر ، مما يدل على تقدم هذه الصناعة فى عهد ذلك الخليفة[١] . وتقدمت صناعة الزجاج فى عصر الفاطميين تقدما عظيما ، يدل على ذلك أن البقالين وبائعى الخردة كانوا يأخذون على عاتقهم إعطاء الزجاج والأوانى الخزفية والورق ليوضع فيها مايبيعونه ، كما أن التجار الذين يذهبون إلى بلاد النوبة كانوا يبيعون فيها الخرز والأمشاط والمرجان ، وصنع المصريون زجاجاً شفافاً عظيم النقاوة يشبه الزمرد ويباع بالوزن . وأعجب الرحالة الذين زاروا مصر إذ ذاك بسوق القناديل — بجوار جامع عمرو — فقد راجت فيه التجارة وبيعت أثمن التحف وأندرها . وكانت مراكز صناعة الزجاج قائمة فى الفسطاط ومدينة الفيوم والأشمونين والأسكندرية ، وتطورت زخرفة الزجاج فى هذا العصر ، وتجلى ذلك فى دقة الصنعة وإتقان الزخرفة . ودار الآثار العربية غنية بما فيها من القنانى والزجاجات الصغيرة المصنوعة فى عصر الفاطميين[٢] .

أطنب ناصر خسرو الرحالة الفارسى فى وصف الصناعة المصرية فى العصر الفاطمى ، فقال إنه لم يجد أثناء زيارته للبلاد المصرية ما يحاكيها ولا يدانيها فى جمع الأقطار التى شاهدها فى أسفاره . وخص من بين هذه الصناعات : صناعة الخزف والزجاج ، والسفن . واستلفت نظر ناصر خسرو أن التجار كانوا يبيعون سلعهم بأثمان محددة ، وأنهم اتصفوا بالأمانة ، وكان يشهر كل من ارتكب منهم غشاً أو زيفاً فى تجارته ، فيطاف به فى الشوارع بين اللعنات ودق الأجراس ، ولم يشك أحد من سلب أو نهب ، حتى كان التجار لا يحفلون بإغلاق حوانيتهم فى الليل[٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ٤٨٤

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٤٨٠

(٣) Lane—PooLe : Egypt in the Middle Aaes, pp. 140-141

ثالثاً — فى عصر الأيوبيين والمماليك

١ — فى عصر الأيوبيين

الزراعة والتجارة والصناعة :

كانت مصر فى العصر الأيوبى غنية ، يأتيها المال من موارد عدة ، فقد كانت تمتلك ما ورثته عن الفاطميين من كنوز ، وكانت تصلها الجزية من كثير من الإمارات كما كانت تجبى من الشعب الضرائب المعتادة ، يضاف إلى كل هذا ما غنمته الدولة فى حروبها من أسلاب المدن المحتلة وفدية الأسرى العديدين .

وأغلب هذه الأموال المتدفقة على خزانة الدولة ، كانت تنفق على الجيش وما تستلزمه الحرب من بناء استحكامات وقلاع وحصون ، وما يتبقى بعد ذلك يستخدم فى الإصلاح الداخلى .

ولما اعتلى صلاح الدين كرسى السلطنة ، قلل من النظام الإقطاعى الذى ساد طريقة امتلاك الأراضى فى العهد الفاطمى ، وحطم بذلك استقلال أمراء الإقطاعات وقوى الحكومة المركزية ، وكان لهذا أكبر الأثر فى نشاط الحالة الاقتصادية فى البلاد .

واهتم الأيوبيون بالزراعة : فطهروا الترع ، وأقاموا الجسور ، ونظموا وسائل الرى ، واهتموا بذلك اهتماماً كبيراً حتى إن السلطان الكامل كان يراقب المهندسين بنفسه أثناء إقامتهم السدود والخزانات ، وغير هذا من الأعمال الخاصة بالرى . وهكذا نشطت الزراعة ، ولم تستطع حروب الأيوبيين أن تؤثر عليها ، إذ أن الحروب كانت تتوقف فى سوريا شتاء ، وهو موسم الزراعة فى مصر .

أما التجارة فقد ازدهرت فى العهد الأيوبى ، وأصبحت مصر هى الوسيطة بين الشرق وأوربا ، فقد عقد السلطان العادل فى سنة ٦٠٥هـ (١٢٩٨م) معاهدة تجارية مع البندقية : حصل بها البنادقة على تسهيلات تجارية فى الموانى المصرية وخاصة الأسكندرية ، فى مقابل أن يعملوا على منع الصليبيين من التقدم نحو مصر . وثبت السلطان الكامل الامتيازات التى أعطاها أبوه للبنادقة ، وسمح لهم بتأسيس سوق تجارية فى الأسكندرية ، سميت « سوق الأيك » ومنحت نفس الامتيازات لأهل بيزة ، الذين أرسلوا قنصلا إلى الأسكندرية .

المجاعات

وخلاصة القول أن الحالة الاقتصادية فى مصر زمن الأيوبيين كانت منتعشة ، ولم تحدث فى عهدهم إلا مجاعة واحدة فى عهد السلطان العادل ، استمرت حوالى ثلاث سنوات، وكان سببها انخفاض مياه النيل ، مما أعاد إلى الأذهان ذكرى «الشدة العظمى» التى وقعت فى عصر المستنصر الفاطمى ، إذ انتشر القحط ، حتى هرب الناس من مصر إلى الشام وغيرهما ، فماتوا فى الطريق من التعب والجوع[١] وانعدمت الحبوب، واشتد الغلاء ، وندرت الحيوانات حتى صارت رأس البقر بسبعين ديناراً والدجاجة بثمانين درهما ، وخلت قرى بأكملها من سكانها ، وكانت الفتيات الأحرار يبعن فى الأسواق بثمن زهيد ، وتوسل كثير من النساء ليشترين كرقيقات فراراً من الموت جوعا[٢] . وأكلت لحوم الكلاب واشتدت الحالة حتى أكل الناس اللحوم البشرية ، فكان الرجل يذبح ابنه الصغير وتساعده زوجته على طبخه وشيه[٣] ، وكان الصديق يذبح صديقه ، ويتظاهر الناس بالمرض ويستدعون الأطباء لعلاجهم حتى يتمكنوا منهم ويذبحونهم ويأكلونهم[٤] ، وأصبح أكل لحم الأطفال المفروم ورءوسهم المقطعة أمراً مألوفاً ، بعد أن كان القانون الذى سن فى بدء قيام المجاعة ينص على حرق كل شخص يحاول أكل لحم البشر ، وكثر الموت حتى عجز الناس عن دفن موتاهم ، وأصبحت جثث الموتى تلق فى الشوارع حتى امتلأت الطرقات بالرمم ، وضبطت سيدة تأكل لحم زوجها الميت ، وساد وباء الطاعون فى الدلتا وانتشر منها إلى الريف وأصيب به الآلاف من الزراع ، فهبطت قيمة العقارات ، وانخفض إيجار المنازل فى القاهرة إلى السبع لقلة عدد السكان[٥] .

وقد بذل العادل جهوداً كبيرة لمقاومة هذه المجاعة ، فكان يخرج بنفسه أثناء الليل ويوزع الأموال على الفقراء والمساكين ، وكفن من ماله الخاص ثلاثمائة ألف

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ٤ ص ١٥٦

(٢) Lane—Poole: Egypt in the Middle Ages, p. 215

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٣

(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص ١٥٦

(٥) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٠

من الغرباء (١) وتفاقم خطر المجاعة بذلك الزلزال الذى روع أهل مصر والشام، وهدم كثيراً من المبانى وأزهق أرواحا عديدة(٢). على أنه فى سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) رجعت مياه النيل إلى حالتها الأولى، فخفت حدة المجاعة وزال الغلال (٣)، وانتهى أمر هذه النكبة التى افتتح بها عهد العادل.

٢ — فى عصر المماليك

الضرائب :

تعددت موارد تلك الثروة الطائلة، التى زخرت بهـا خزانة المماليك البحرية، ومن أهمها :

١ — ضريبة الأرض أو الخراج، وكانت تختلف باختلاف البلاد، ففى الوجه البحرى كانت أغلب ضرائب الأرض نقداً، بعكس الوجه القبلى الذى كانت الضريبة فيه نوعية (عيناً) أى تؤخذ من غلة الأرض وكانت تزيد وتنقص تبعاً لخصوبة الأرض ومقدار ما تنتجه من غلة (٤). وقد بلغ خراج مصر فى عهد بيبرس ١٢ مليونا من الجنيهات (٥)، وهو أقصى مقدار للخراج جبته مصر منذ عهد ابن أبى سرح.

٢ — المعادن : وأهمها ثلاثة، الزمرد والشب والنطرون. أما الزمرد فقد هجرت مناجمه فى أواخر عصر السلطان الناصر محمد لقلة ما كان يتحصل منه، وكان معدن الشب يستجلب من الوجه القبلى والواحات ويحمل إلى قوص أو إلى أسيوط وأخميم والبهنسا ومنها ينقل فى النيل إلى الأسكندرية ويباع للتجار الأوربيين خاصة، وقد خصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء وبعض نفقات الجيش، أما النطرون فقد كان يستخرج من ناحية الطرانة بمديرية البحيرة وخصص ثلث ثمنه لنفقات الجيش (٦).

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٧٤.

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ١٦٢.

(٣) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 294.

(٤) القلقشندى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٢ — ٤٥٤.

(٥) انفرد ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٦٦ بإيراد هذا الرقم.

(٦) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٥٥، ٤٥٧. أنظر Enc. Isl. art. Egypt.

٣ — زكاة الدولة : وكان يدفعها أصحاب الأموال .

٤ — الجوالى : وهى مايجبى من أهل الذمة نظير حماية الجنود لهم ، وهذه الضريبة تفرض على كل قادر بنسبة معينة .

٥ — مقرر جباية الدينار : وهو ما كان يجبى من كل تاجر عند رحيل عسكر مصر فى حرب من الحروب ، وقد أبطل السلطان قلاوون هذه الضريبة .

٦ — أسلاب الحرب وغنائمها ، وما كان يؤخذ من فدية يدفعها الأسرى أو تدفعها مدينة مفتوحة طبقاً لاتفاق خاص .

٧ — المكوس أو الرسوم الجمركية : وتجبى عن البضائع الواردة إلى الأسكندرية أو إلى دمياط ، ويقرب مقدارها من ١٠ ٪ من قيمة البضائع الواردة ، وكانت هذه الرسوم فادحة جداً حتى إن السفينة التى كانت تصل من أوربا إلى ميناء الأسكندرية تدفع ضريبة تربو على الأربعين ألف دينار . ولم يسر المماليك على نظام ثابت فى تقدير هذه الرسوم بل كانت تزيد أو تخفض تشجيعا للتجارة (١) .

٨ — موارد الديوان الخاص (٢) : وكانت تجمع أموال هذا الديوان باسم السلطان فى الأسكندرية وتروجة (الواقعة فى مديرية البحيرة) وفوه ونستره (أى بحيرة البرلس)، ويودع هذا المال فى الديوان الخاص الذى يشرف عليه أحد النظار، وقد استحدث هذه الضريبة السلطان الناصر .

٩ — وهناك ضرائب أخرى عديدة مثل : ما كان يؤخذ من التركات التى لا وارث لها وتعرف باسم « المواريث الحشرية » وما يتحصل من دار الضرب على النقود فى القاهرة ، وما كان يجبى عند وفاء النيل وقد أبطله السلطان قلاوون ، وكانت هناك رسوم على الموتى ، وضرائب على الممتلكات الكبيرة لم تستثن منها الأوقاف .

وكانت الضرائب المباشرة تجمع بنظام، لنشاط موظفى ديوان النظر من الأقباط،

---

(١) عن المكس والمقس — راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢١ و ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) تناول ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ ، مصادر إيرادات ومصروفات ديوان الخاص .

وهم الذين كان يعهد إليهم أمر جبايتها ، وتؤخذ فى كثير من الحالات بالقوة وضرب السياط . كما كان يفعل السلطان الناصر محمد وكما فعل السلطان قايتباى مع أحد أمرائه . وتعسف المماليك فى جباية الرسوم الجمركية والضرائب الخاصة بالتجار ، ولم يتورعوا فى سبيل جبايتها عن الالتجاء إلى السلب والنهب ، حتى كان التجار يخفون بضائعهم فى خنادق خوفا من سلبها .

وكانت هذه الأموال الوفيرة التى تدفقت فى خزانة المماليك تصرف فى دفع أرزاق الموظفين والولاة والقضاة والوزراء ونواب الأقاليم والكتاب ونظار الدواوين وسائر عمال الدولة ، كما كانت تنفق على ما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح : كحفر الترع وبناء المساجد وإنشاء المدارس والخوانك والمقابر والمستشفيات ، حتى تميز ذلك العصر بفخامة العمارة ، فقد كثرت فيه القصور الشاهقة والقلاع الشامخة والمساجد الضخمة ، وأنفق المماليك كثيرا من الأموال التى جمعوها على مظاهر الترف التى تميزت بها حياة أهل الطبقة العليا فى ذلك العصر ، فقد كانوا يركبون الخيول المطهمة ويلبسون الملابس الحريرية المزركشة ، ويأكلون فى صحاف من ذهب ، ويقيمون فى قصورهم الأسمطة التى تقدم فيها مقادير وفيرة من الدجاج واللحوم وسائر الأطعمة الفاخرة ، وتمكن المماليك بتلك الثروة الطائلة من توسيع رقعة أملاكهم والظهور بالمظهر اللائق بها بين الدول الغربية والشرقية ، واستطاعوا أن يعنوا عناية خاصة بتدريب جيوشهم وتزويدها بالمعدات الحربية ، واهتموا بصناعة السفن فأسسوا جيشاً نظاميا كثيف العدد وجعلوا للأسطول المصرى شأنا عظيما .

الزراعة والتجارة والصناعة :

عنى المماليك بالزراعة ، فأقاموا مقاييس للنيل وطهروا الترع ، وأنشأوا الجسور وحسنوا وسائل الرى ، كما عنوا بالصناعة وخاصة صناعة المنسوجات فكثرت حوانيت التطريز والغزل والنسيج ، وأتقن المصريون صناعة الفرش والبسط والثياب بكافة أنواعها .

وشجع المماليك التجارة ، فعقدوا المحالفات الودية والتجارية مع إمبراطور القسطنطينية وملوك أسبانيا وأمراء نابلى وجنوة والبندقية وسلاجقة آسيا الصغرى . وكاد المماليك بالاتفاق مع أمراء الموانى الإيطالية ، أن يحتكروا التجارة الهندية

وخاصة التوابل المارة بالبحر الأبيض ، وكان لهـذا أكبر الأثر فى نمو ثروتهم وبعد استيلاء المماليك على مكة وجدة، أصبحت مكة من أشهر الأسواق التجارية فى الشرق .

ورغم ما بذله المماليك فى سبيل إنعاش الحالة الاقتصادية فى البلاد ، فقد انتابها الركود أحيانا نتيجة كثرة حوادث السلب والنهب ، وإغارات البدو ، وظلم المماليك وكثيرا ماخوت خزانة الدولة المملوكية حتى لم تعد قادرة على سد حاجات البـلاد ، وذلك حين كانت تنتشر بها المجاعات والأوبئة التى تهدد الحرث والنسل،فيذهب ضحيتها الآلاف من الأنفس البشرية ، دون أن تستطيع الحكومة أن تصد تيارها الجارف .

أثر تحول طريق التجارة من مصر الى رأس الرجاء الصالح :

كان أهم حادث أثر فى حالة البلاد الاقتصادية فى مبدأ العصور الحديثة، هو تحول طرق التجارة بين أوربا والشرق من طريق مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، الذى كشفه فاسكو دى جاما البرتغالى سنة ١٤٩٨م ، بعد أن كشف كرستوف كولمب طريق الدنيا الجديدة ، فأحدث هذان الكشفان انقلابا خطيراً فى عالم التجارة ، إذ انتقل المركز التجارى العالمى من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى فنضبت منابع الثروة فى مصر لحرمانها من تجارة الشرق، بعد أن كانت خزائن مصر تفيض بأموال الأجانب من تجار البندقية وجنوة ، الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق إلى أوربا عن طريق مصر ويدفعون عنهـا ضرائب عن دخول السلع إلى موانى مصر وخروجها منها .

لذلك فإنه كان لتحول طريق التجارة من مصر إلى رأس الرجاء الصالح عدة آثار بعيدة المدى : فقد كسدت التجارة والزراعة ، فلم تعد مصر تنتج للأسواق الخارجية كثيراً ، إذ اقتصرت فى إنتاجها على قدر حاجات أهلها وسادتها المماليك ، ووقف دولاب العمل وقلت موارد البلاد، وكثيراً ما كان يشتد بها العوز وتتهددها المجاعات والأمراض. كذلك انحط شأن الإسكندرية وقل عدد الأجانب فيها،وتأخرت الصناعات وأصبحت مقصورة على عدد قليل من الصناعات الرائجـة كما تدهورت الحالة الفنية بنقل موارد الثروة. ولذلك لا نجد آثاراً خلفها عهد العثمانيين فى مصر ، مثل ما تركه سلاطين المماليك من آثار تنم عن ثروة وقوة .

المجاعات :

ومن أهم ماتتميز به الحالة الاقتصادية فى مصر فى عصر المماليك ، تلك المجاعات المخيفة التى اكتسحت أرض النيل فى فترات متفرقة ، فذهب ضحيتها الكثيرون وكان من أسباب هذه الحالة السيئة أن بعض ولاة ذلك العصر كانوا يصلون إلى مراكزهم عن طريق الرشوة ، فإذا ماوصلوا إلى الحكم أرادوا أن يعوضوا مادفعوه من المال ، فيفرضون على أهل الريف المغارم ، حتى تضيق بهم الحال فيهجرون أراضيهم وتضمحل الزراعة تبعاً لذلك ، وتقل الغلال ، ويبدأ شبح المجاعة فى الظهور . وكان انخفاض النيل أو انتشار بعض الأوبئة المروعة كالطاعون من أهم عوامل حدوث المجاعات فى العصر المملوكى ، كما كان الحال تماماً حين وقعت «الشدة المستنصرية» فى العصر الفاطمى.

ومن أشهر المجاعات التى حدثت أيام المماليك ، تلك المجاعة التى روعت مصر أيام السلطان العادل كتبغا سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) ، فقد توقف النيل ونقص نقصاً كبيراً فجفت الآبار ، وفات على الفلاحين أوان الزرع ، وندرت المحاصيل. وزاد الحال شدة أن ريحاً سوداء مظلمة هبت على مصر من بلاد برقة حاملة تراباً غطى الزرع ، وعمت تلك الريح أقاليم البحيرة والشرقية والغربية وأعالى الصعيد ، ففسدت المزروعات وخاصة الصيفية منها كالأرز والسمسم والقلقاس وقصب السكر . وزاد فى وقع هذا الغلاء أن كثيرين من المنكوبين فى برقة هاجروا إلى مصر ، فكثر عدد الأهالى فى وقت قل فيه القوت ، ويقال إن أردب القمح وصل ثمنه إلى مائة وثمانين درهما والفول إلى تسعين ، وهلكت معظم الدواب لعدم وجود علف لإطعامها حتى لم توجد دابة واحدة للكراء ، كما ماتت الكلاب والقطط من الجوع ، وسرى البخل بين أكابر الأعيان والأمراء ، حتى كانوا يمنعون الناس من الدخول عليهم أثناء طعامهم .

بلغت الشدة غايتها ، فأكل الناس الميتة من الكلاب والمواشى وبنى آدم ، وأكل النساء أولادهن الموتى. وكان الناس يبيعون أولادهم لشراء القوت ، ونهب الأهالى الخبز من الأفران والحوانيت ، ولم يكن الخبز يخرج من الأفران إلا ومعه حراس يحملون العصى ، ومع ذلك كان الجوع يدفع كثيرين منهم لأن يلقى أحدهم بنفسه على الخبز ليختطف منه شيئا ، غير مبال بما ينال رأسه وبدنه من الضرب الشديد. وكثيرا ماضبط أشخاص ، ومع كل منهم كتف طفل صغير أو فخذه أو شىء من لحمه ، ولذا

كان الأطفال من أوائل ضحايا تلك المجاعة . وكان لابد من إيجاد حل لتلك المحنة القاسية التى تمر بالبلاد ، فجمع السلطان كتبغا الفقراء والجياع وفرقهم على الأمراء ليطعموهم ، فكانوا يقدمون لهم الخبز واللحم والمرق ، وأحياناً الكعك والرقاق ، على أن هذا الإجراء لم يفد كثيراً فى تخفيف حدة المجاعة ، إذ انتشر الوباء وعم كل أرجاء القطر وخاصة الأرياف . وبذل الأطباء غاية جهودهم ، وبذلت لهم الأموال ، حتى كان الشخص الواحد يكسب فى اليوم أكثر من مائة درهم . ولكن الوباء أعجزهم عن متابعة جهودهم ، فكثر عدد الموتى وازداد بشكل مروع لم يسبق له مثيل ، حتى كان ، على ما ذكره المقريزى : يخرج من كل باب من أبواب القاهرة فى كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت ، ولا يكاد أحد من المستورين بالقاهرة ومصر إلا ويصبح على بابه عدة أموات قد طرحوا حتى يكفنهم ويدفنهم فيشغل نهاره بهم . ثم تزايد الأمر فصارت الأموات تدفن بغير غسل ولا كفن فإنه يدفن الواحد فى ثوب ثم ساعة ما يوضع فى حفرته يؤخذ ثوبه حتى يلبس لميت آخر ، فيكفن فى الثوب الواحد عدة أموات ، وعجز الناس عن مواراة الأموات فى القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم حفائر كبار ألقيت فيها الأموات من الرجال والنساء والصبيان حتى تمتلىء الحفرة ثم تطم بالتراب»[1] .

وقد انتفع من هذه المجاعة الأطباء وحفارو القبور ، وذهب ضحيتها أصحاب المزارع . فإن الأمير فخر الدين الطنبغا كان له من بين مزروعاته مائة فدان فولا ، هجم الناس عليها وظلوا يأكلون فولها الأخضر حتى لم يبقوا على شىء ، وخرج الأمير ليرى مزرعته ، فإذا به يرى تلا كبيراً من القشر ، فأمر بأن يدرس حتى ينتفع بتبنه . وكان من آثار تلك المجاعة أن الناس بدءوا يهاجرون من مدنهم وقراهم حتى أن القرية التى كان بها مائة نفس لم يبق بها إلا نحو العشرين . وقد أراد السلطان أن يصلح الحال ولو قليلا ، فانطلق بجيشه إلى سوريا وجمع كل ما أمكنه جمعه من الغلال وفرقها على الناس ثم أخذت الأحوال تعود سيرتها الطبيعية .

***

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨١٤ .

على أن أحوال مصر الاقتصادية قد انتعشت فى عصر السلطان الناصر محمد، بفضل عنايته بالزراعة وزيادة المحاصيل وتحسين الرى. وعرف الناصر بحزمه فى معالجة الأزمات، فقد حدث فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) أن ساءت أحوال البلاد الاقتصادية وارتفعت أثمان الغلال، وساعد الأمراء على ازدياد الحالة سوءاً بامتناعهم عن البيع لزيادة الربح، فخاف الناصر العاقبة وأمر نجم الدين محمد بن حسين محتسب القاهرة وعلاء الدين على المرواني والى القاهرة بالطواف معاً على الطواحين، فاشتد على الخبازين بقصد الوصول إلى انفراج الأزمة. إلا أن الحالة ازدادت سوءاً حتى أقفلت الحوانيت وتعذر على الناس شراء مايلزمهم من الخبز. ولكن السلطان أمر بأن ترسل الغلال إلى مصر من دمشق وغزة والكرك والشوبك وأمر بأن لايباع الأردب من القمح بأكثر من ثلاثين درهما، وطلب إلى الأمراء عدم مخالفة ذلك. واشتد على المخالفين، حتى قيل إنه عاقب سمسارى الأمير بن قوصون وبشتاك بالضرب المبرح لبيعهما الخبز بأكثر من السعر الذى حدده. وكانت نتيجة ذلك أن خفت حدة المجاعة(١)، مما يدل على ضرورة الحزم والعزم فى مثل تلك الظروف التى كان الشعب فيها على حافة الهلاك.

وفى ذلك يقول المقريزى: «وطلب (الناصر) الأمير قوصون بحضرة الأمراء، وصرخ عليه: ويلك، أنت تريد أن تخرب على مصر وتخالف مرسومى. وسبه ولعنه وشهر عليه السيف وضربه على وأكتافه، وصاح: هاتوا أستاداره، فسارع النقباء لإحضاره. ومن شدة غضب السلطان صار يقوم ويقعد ويقول: هاتوا أستاداره، حتى خرج أمير مسعود الحاجب إلى باب القلعة بأسرها وخاف الأمراء كلهم لشدة مارأوه من غضب السلطان. فلم يكن أسرع من حضور قطلوا أستادار قوصون، فأمر بضربه بالمقارع، ثم أمر به فبطح بين يديه وضرب ... فلم يتجاسر من بعدها أحد من الأمراء أن يفتح شونته إلا بأمر المحتسب»(٢).

***

ومالبث خطر المجاعة أن ظهر فى مصر سنة ٨٤٩ هـ، فى عهد السلطان الناصر

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١١٤، ١٦٩.
(٢) المقريزى: كتاب السلوك جـ ٢ ص ٤٤٦.

حسن بن الناصر محمد ، حينما نكبت مصر بالطاعون الذى أزهق الأرواح ،حتى بلغ عدد الموتى فى شهرين تسعمائة ألف ، وقلت المزروعات لموت الفلاحين،فانتشر القحط والجوع فى البلاد من جديد، وفتك الطاعون بالحيوانات أيضاً ، فكثيراً ماشوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور وهى ملقاة فى البرارى والطرقات . وساد الحزن جميع أرجاء البلاد ، حتى أنه لم يوجد منزل إلا وفيه صياح على ميت ، وخلت كثير من الديار ، وصارت أمتعة أهلها ملقاة لاتجد من يأخذها . وكان الشخص إذا ورث شيئاً عن قريب له لايلبث ميراثه أن ينتقل إلى ثان وثالث فى الأسبوع نفسه ، ولكثرة الموتى لم تكفهم النعوش ، فكانوا يحملون على أقفاص أو ألواح من الخشب ويحمل على اللوح الوحد عدة أشخاص ، وصارت مهنة القراءة على الموتى ومهنة حملهم ودفنهم من المهن الرابحة . وامتلأت المقابر بالناس ، وكان الموتى يلقون فى الطرقات على التراب ، وأحياناً كان يموت من فى الدار جميعاً فيتركون على حالهم دون أن يجدوا من يدفنهم ، ولم تكن هناك صلاة خاصة لميت بل كان الإمام يصلى على عدد كبير من الموتى دفعة واحدة .

على أن كثرة عدد الموتى جعلت الناس يتقربون إلى الله ، ويكثرون من الصلاة والصوم وفعل الخير ،وادعى كثيرون أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحلامهم وشكوا إليه مانزل بهم من الشقاء فأمرهم بالتوبة والدعاء ، وهكذا مال الناس إلى العبادة وزهد أصحاب الأموال فى أموالهم وأكثروا من إحسانهم إلى الفقراء[١].

وأخذ الشعراء ينظمون شعراً مليئاً بالأسى ، لما كانوا يلمحونه كل يوم من مناظر الموت الذى كان شبحه مجسما أمام أعينهم فى كل حين ، وفى ذلك يقول بدر الدين الحسن بن حبيب الحلبى :

إن هذا الطاعون يفتك فى العا　　لم فتك أمرىء ظلوم حقود
ويطوف البلاد شرقا وغرباً　　ويسوق العباد نحو اللحود

---

(١) النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) الفصل الأول ص ٦٦ ، ٧١ .
على ابراهيم حسن : أخطر المجاعات بمصر ، مجلة الكتاب الجزء الثامن، المجلد الثانى ، عدد يونية ١٩٤٦ .

كم طوى الشر من أخ عن أخيه وسبى عقل والد بوليد
إن أعش بعده فإنى شكور مخلص الحمد للولى الحميد[1]

ويقول الصلاح الصفدى فى ذلك :

ياطالباً للموت قم واغتنم هذا أوان الموت مافاتا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا

ويقول أيضاً :

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبة
بيعت الأنفس فيه كل نفس بحبة[2]

وقاست مصر الأمرين فى تلك الشدة وفقدت مئات الألوف من أهلها الأعزاء عليها ، فهم عدتها فى الحروب وعلى سواعدهم تزدهر الصناعات وتروج التجارة وتنمو الحاصلات . وظلت الحال فى الديار المصرية على هذا المنوال حتى كشف الله تعالى عنها تلك الغمة ، وجاهدت البلاد كى تسترد نشاطها السياسى والاقتصادى .

إلا أن البلاد تعرضت من جديد لمجاعات أشد قسوة فى عهد دولة المماليك البرجية . سببتها كثرة الاضطرابات الداخلية ودوام تعرض البلاد للأخطار الخارجية وإسراف المماليك فى جباية الضرائب . وحدثت معظم تلك المجاعات فى عهد كل من السلاطين : برقوق ، وشيخ المؤيد المحمودى ، وإينال ، وقايتباى .

الإقطاعات :

ومن الموضوعات التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ المماليك الاقتصادى ، موضوع «الإقطاعات» . فقد كانت أرض مصر فى عهد الدولة الأيوبية تنقسم إلى أربعة وعشرين قسما أوقيراطاً : منها أربعة قراريط للسلطان ، وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد[3] . وظلت الحال كذلك فى صدر دولة المماليك البحرية حتى آلت السلطة إلى المنصور

(١) كتاب السلوك (مخطوط) القسم السادس أول س ٥٩٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ س ١٩٢ ورد البيت الثانى على هذه الصورة التى لايرضى عنها العرضيون) .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ س ٨٧ .

Poliak :Feudalism in the Near East, p. 24 .

حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦ هـ . فمسح البلاد وقسمها تقسيما آخر عرف فى التاريخ باسم «الروك[١] الحسامى» .

وقد مسحت أرض أرض مصر فى العصور الإسلامية الأولى خمس مرات: المرة الأولى على يد عبد الملك بن رفاعة عامل الخراج فى مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى وأخيه سليمان وذلك حول سنة ٩٧ هـ (٧١٥م) ، والمرة الثانية كانت على يد عبد الله بن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى حوالى سنة ١١٠ هـ (٧٢٩م) ، والمرة الثالثة كانت على يد ابن مدبر فى خلافة المعتز بالله العباسى حول سنة ٢٤٣ هـ (٨٦٧م) ، والمرة الرابعة كانت فى عهد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ - ١١٠٨ م) ، والمرة الخامسة كانت فى عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وذلك سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) .

ويلاحظ أن أغلب الباحثين فى مالية مصر لم يتعرضوا لموضوع «الروك الصلاحى» الذى ظل أمره غامضاً عليهم . غير أن أمر هذا الروك يتضح جليا من الاطلاع على كتاب قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى وزير صلاح الدين ، فقد أحصى فيه بلاد القطر المصرى التى كانت تعتبر وحدات مالية فى ذلك العهد وإن لم يكن قد نص على «عبراتها[٢] ومساحها» لأن ابن مماتى — وكان من رجال الدولة المسئولين اعتبر أن مثل هذه المعلومات «من أسرار الدولة التى لا يجوز إذاعتها»[٣].

كانت الروك الحسامى أول روك للأراضى المصرية فى عهد المماليك ، ويرجع السبب فى هذا الروك « إلى أن الأمراء كانوا يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شىء » ، وبمقتضاه قسم السلطان حسام الدين لاجين أرض مصر : بأن جعل للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطاً ، ووزع عشرة منها ، وأبقى القيراط الحادى عشر لزيادة إقطاع من يتضح فيما بعد أنه قد حاق به شىء من الغبن وجعل للسلطان أربع قراريط ، وخصصت التسعة القراريط الباقية ليكون فرقاً جديدة فى الجيش . على أن الأمراء والأجناد لم يرضوا عن هذا الروك وشكوا

---

(١) الروك : هو مسح أرض الزراعة فى بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال :
(٢) العبرة : كلمة إصلاحية معناها « مقدار المساحة » .
(٣) راجع عزيز سوريال عطية : قوانين الدواوين حيث تجد تفصيلا عن ذلك فى الباب الثالث .

محتجين عما أصابهم . وكانت إقطاعات الأمراء والجند إما بلاداً يستغلها مقطعها أو نقوداً يحصلها من بعض البلاد[١] .

لذلك فإنه بعد مقتل السلطان لاجين سنة ٦٩٨ هـ شرع السلطان الناصر محمد فى عمل الروك الذى عرف باسم « الروك الناصرى » نسبة إليه ، وهو الروك الثانى فى تاريخ دولة المماليك البحرية والسابع فى تاريخ مصر الإسلامية . وبمقتضى هذا الروك زيدت أنصبة الأمراء والأجناد عما كانت عليه فى الروك الحسامى ، فأصبحت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر ، وخصصت العشرة القراريط الباقية للسلطان ومماليكه وكتبت مثالات [٢] بقراريط الأمراء والأجناد ووزعها السلطان الناصر فى قلعة الجبل[٣] .

واشتد الناصر فى معاملة كل من حاول التقدم بالشكوى من جراء ما أصابه من الإقطاع ، فكان جزاء من يحتج الضرب والحبس والحرمان من نصيبه . وهذا الروك « غبن أكبر الأجناد فإنهم أخذوا إقطاعا دون الإقطاع الذى كان معهم »[٤] ، كما أن كثيراً من الأمراء ، ممن بلغ إقطاع الواحد منهم ألف دينار قد هبط إلى مائتى دينار ، على حين زادت أنصبة الكثيرين منهم رغم عدم استحقاقهم لتلك الزيادة . ورغم ذلك ، أحجم الأمراء عن تبليغ السلطان استياء الأجناد من هذا الروك . ومما نال أحد أتباعه من التعذيب البالغ على أثر إبلاغه مولاه أمر هذا الاستياء ، نتبين أن عدم إعلان الأجناد تذمرهم من أنصبتهم فى هذا الروك ، كان راجعاً قبل كل شىء إلى ما عرف عنه من الصلابة والتمسك بتنفيذ القانون .

---

(١) راجع أيضا ما ذكرناه عن « إقطاعات الأجناد » عند كلامنا على « الجيش فى عصر المماليك » .

(٢) المثال : عبارة من ورقة أى وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبيناً بها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الاقليم والعزبة والقبالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض الذى خصصت له . المقريزى . الخطط ج ١ ص ٨٧

(٣) على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ، حيث تجد تفصيلا عن الإقطاعات

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٠ .

ومهما قيل فى الروك الناصرى ، فما لاشك فيه أن مصر كان يسودها الاضطراب والفوضى قبل عمله ، وخاصة إذا عرفنا أن السلطان الناصر اعتبر ما كان يقدمه الفلاحون إلى الأمراء من الزجاج والعسل والخراف والكشك والكعك والبرسيم والعلف والدواب وهو ما عرف باسم « حق الضيافة » من القيمة المستحقة لكل من الأمراء والأجناد فى إقطاعاتهم ، كما أن الناصر أبطل عدة ضرائب بلغ مجموعها أربعة عشر . وقد أعجب المرحوم « عمر طوسون » بهذا الروك أيما إعجاب ووصفه فى كتابه « مالية مصر » ، فقال إنه كان « محكما فى بابه ، ولم يكن فقط أكثر استيفاء من المساحات التى سبقته فى العهد العربى ، بل كان عملا متقنا تفتخر به أى مصلحة من مصالح المساحة المالية »[١] .

ويعد كتاب « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لمؤلفه ابن الجيعان ، رئيس حسابات ديوان الجيش فى عهد السلطان قايتباى سنة (٨٨٣ هـ) ، أوفى مصدر فى هذا الموضوع بين الكتب القديمة ، فهو جامع لأسماء المدن والقرى المصرية التى كانت بمصر فى ذلك الوقت ، وهو آخر حصر رسمى عمل عنها فى عهد الدولة المملوكية ، أساسه الروك الناصرى .

---

(١) عمر طوسون : مالية مصر ص ٢٥٥ .

الباب الثامن
الحالة الاجتماعية

أولا – من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى

١ – من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية

طبقات الشعب :

كان سكان مصر وقت الفتح العربى أخلاطاً من مختلف الأجناس من قبط وروم وعرب وأكراد وأحباش وديلم ، وقد أصبح الرومان فى مصر بعد الفتح أقلية ضئيلة ، ولكنهم فضلوا الإقامة فيها على الرحيل إلى وطنهم ، إلا أنهم لم يكن لهم أثر فى سير الحوادث .

أما العرب الفاتحون ، فإنهم على الرغم من قلة عددهم بالنسبة لأهل البلاد فقد عملوا على إقامة مدنية عربية إسلامية وسط المحيط المصرى ، وعدلوا عن اتخاذ الأسكندرية حاضرة مصر زمن الرومان عاصمة لهم ، وأسسوا مدينة الفسطاط التى أصبحت حاضرة لمصر العربية ، واتخذت كل قبيلة من القبائل التى فتحت مصر خطة لنفسها ، أى نزلت فى الجهة التى حددت لها فى تلك المدينة ، ومن ثم عرفت كل خطة باسم القبيلة التى نزلت بها ، وسكن بعض تلك الخطط أقوام من أصل فارسى أو رومى أو يهودى وهؤلاء كانوا أقلية ، أما الأكثرية التى سكنت تلك الخطط فكانت من العرب ، لاسيما عرب الجنوب أو اليمنية . وقد ظل العرب يحتفظون بنسبتهم لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى حل اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتمى إليه الشخص محل اسم القبيلة[١] . ومنذ عهد

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦

المعتصم العباسى ، فقد العرب مركزهم فى الدولة الإسلامية ، على أثر ازدياد نفوذ الأتراك ، وإسقاط المعتصم للجند العربى من ديوان الجيش ، فانتشر العرب فى الريف واختلطوا بالمصريين ، واشتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عنها من قبل .

أما القبط فكانوا يكونون السواد الأعظم من سكان مصر ، وهم الذين لحق بهم ظلم الرومان من قبل . وكان القبط موضع عطف كثيرين من الولاة لانضمامهم إلى العرب وقت الفتح أو على الأقل لالتزامهم الحيدة . ودليلنا على ذلك رد عمرو بن العاص لبطريرك القبط بنيامين إلى منصبه الذى أقصاه عنه الرومان ، كما أنه ترك للقبط الحرية التامة فى معتقداتهم الدينية ، وتعهد بحماية أرواحهم وممتلكاتهم . ويتبين لنا ذلك من معاملة كل من الواليين مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٢ هـ) وعبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) لقبط مصر ، مدى العطف الذى لاقته تلك الطائفة من بعض حكام مصر من قبل الأمويين ، وخاصة إذا علمنا أنهما سمحا للقبط ببناء الكنائس . ورغم ذلك فقد أدت سياسة بعض الولاة العرب إلى قيام القبط بالثورة أحيانا ، لتشدد هؤلاء الولاة معهم فى جباية الخراج وإقصائهم عن مناصب الدولة ، بعد أصبحت الكتابة فى الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان (٨٧ هـ) باللغة العربية بعد أن كانت بالقبطية .

وعلى الرغم من تسامح العرب مع القبط ، نجد أن هناك عدة أمور ، كان يجب على أهل الذمة اتباعها من حيث ملبسهم وزيهم ومنازلهم والدواب التى كانوا يركبونها وطريقة بناء كنائسهم وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين . فقد اشترط عليهم أن تختم رقابهم وقت جباية جزية الرؤوس ، وأن يجعلوا فى وسطهم الزنارات وأن تكون قلانسهم مضربة (مخيطة بالقطن) وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل (السروج من جلد) ، ولا يبيعون خموراً ولا خنزيراً ، ولا يظهرون الصلبان فى الجهات التى يسكنون فيها ويكون فى رقابهم عند دخولهم الحمام رصاص أو نحاس أو يعلقون أجراساً ، ولا يسمح لهم بلبس العمائم والطيلسان ، ويحرم عليهم إقامة أبنية تعلو على أبنية المسلمين بل أن تكون مساوية لها فى الارتفاع على الأكثر ، ويمنعوا من ركوب الخيل ، ومن رفع أصوات نواقيسهم أو تلاوه كتبهم بحيث يسمعها

المسلمون ، وأن يخفوا دفن موتاهم ، أما المرأة فتشد الزنار من تحت الإزار أو من فوقه ، ويوضع فى عنقها طوق ، ويكون لون أحد خفيها أسود والآخر أبيض .

وقد فرضت تلك القيود على الأقباط منذ عهد عمر بن الخطاب ، وعرفت فى التاريخ باسم « العهد العمرى » . ويظهر أن الخلفاء تهاونوا فى إلزام القبط اتباع تلك القيود ، وإن كان بعض الخلفاء والسلاطين فى مصر قد أعاد العمل بها ضد القبط فى ظروف معينة وخاصة فى عهد الفاطميين والمماليك .

الطعام والشراب :

كانت أغذية أهل مصر فى ذلك العصر مختلفة : فأهل الصعيد يكثرون من أكل البلح والحلاوة المصنوعة من قصب السكر ، وكانت تلك الأشياء تحمل إلى الفسطاط حيث تباع . أما أهل الوجه البحرى فكانوا يكثرون من أكل القلقاس والجلبان ، وكان الفلاحون يأكلون نوعا من الخبز يعمل من جريس الحنطة بعد تجفيفه . وكذا الغلات الزراعية كالحنطة والشعير والعدس والحمص والجلبان .

على أن هذه الأغذية التى كانت معروفة لديهم والتى كان يتطرق إليها الفساد ، ساعدت على سرعة تأثر السكان بالأمراض . وكانت الأمراض تنتشر بكثرة فى أواخر الخريف فى أوائل الشتاء . ويظهر أنه كان للرطوبة أكبر الأثر فى نشرها ، إلا أن درجة تأثر أهل الريف والمدن بالأمراض كانت تختلف ، وفى ذلك يقول المقريزى : « إن أهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن ، ولذلك هم أصح أبدانا ، بل إن الرياضة تصلب أعضاءهم وتقويها » . ويقول أيضا : « من قرب من الجنوب شعر بالحرارة التى يتبعها قلة العفونة فى ماء النيل، وأكثرما كان فى شمال الفسطاط ، فإنهم يستعملون الأغذية الغليظة ويشربون من الماء الردىء ، وأما الأسكندرية وتنيس وأمثالها فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد مما يصلح من أمر أهلها»

وكان معظم سكان مصر إذ ذاك يشربون من ماء النيل ، وبعضهم من مياه الآبار وكان القبط يشربون نوعا من الخمر يصنعون من عصير الكروم ، وعرف عندهم نوع من الشراب يسمى الشمسى .

الأعياد والمواسم :

لم يجد الأقباط فى العرب عدواً لدينهم ، بل كفل لهم العرب الحرية التامة فى إقامة شعائر دينهم ، وكان احتفال الأقباط بأعيادهم الدينية بالغاً حد الروعة والبهاء وإن لم يشترك معهم العرب فى إحيائها .

كان للقبط فى مصر عند الفتح أربعة عشر عيداً فى كل سنة من سنهم القبطية منها سبعة أعياد يسمونها الأعياد الكبار وهى : عيد البشارة ، وعيد الزيتونة ، وعيد الفصح ، وعيد خميس الأربعين ، وعيد الخميس ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطاس . وهناك سبعة أعياد أخرى يطلقون عليها الأعياد الصغار وهى : عيد الختان، وعيد الأربعين ، وخميس العهد ، وسبت النور، وأحد الحدود ، والتجلى، وعيد الصليب .

أما عيد البشارة فيقع فى ٢٩ برمهات ، وأصله أن جبريل بشر مريم بميلاد المسيح . ويعرف عيد الزيتونة بعيد الشعانين ، ويعتقدون أنه اليوم الذى ركب فيه المسيح حماراً فى القدس ودخل به إلى صهيون يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والناس بين يديه ، وفى هذا العيد يحمل القبط الخوص ، ويزينون كنائسهم بسعف النخل ، وظلت تقاليد ذلك العيد قائمة حتى ألغاها الخليفة الحاكم بأمر الله . وعيد الفصح هو العيد الكبير ويقع بعد الصلبوت . ويقع خميس الأربعين فى اليوم الذى اعتقد فيه المسيحيون أنه ، بعد أربعين يوما من قيامة المسيح ، بارك تلاميذه وصعد إلى السماء . ويسمى عيد الخميس عيد العنصرة أيضا ، ويحتفلون به بعد خمسين يوما من يوم القيامة ، ويقع بعد عشرة أيام من صعود المسيح ، وخمسين يوما من بعد أن تجلى روح القدس لتلاميذ المسيح ، فتكلموا بجميع اللغات ، وظهرت على أيديهم عدة آيات وأخذوا يبشرون المسيحية ، مما سبب معاداه اليهود لهم . أما عيد الميلاد فهو يوم مولد المسيح ، وفيه تباع الشموع المزادنة بالأصباغ والتماثيل البديعة . وأصل الغطاس أن يحى بن زكريا المعروف باسم يوحنا المعمدان عمد المسيح أى غسله فى مياه نهر الأردن ، حيث اتصل به روح القدس فصار المسيحيون يغسلون أولادهم فى الماء ، وأصبح لليلة الغطاس فى مصر شأن عظيم ، يجتمع فيها على شاطىء النيل آلاف من الناس من المسلمين والمسيحيين

مرتدين أبهى حللهم ، وتكثر المآكل والمشارب ، ويغطس أكثرهم فى النيل ، إذ يعتقدون أن فى ذلك شفاء من الأمراض .

ومن الأعياد الصغار : عيد الختان ويقع فى ٦ بؤونة ، ويعتقد المسيحيون أن المسيح ختن فى هذا اليوم . أما خميس العهد فهو الخميس الذى أخذ المسيح فيه العهد على تلاميذه بألا يتفرقوا وأن يجعلوا التواضع رائدهم ، وصار ذلك اليوم من أعظم المواسم الدينية التى يحفل بها احتفالا باهراً فى مصر . ويقع سبت النور قبل عيد الفصح بيوم واحد ، وفيه ظهر النور على قبر المسيح . أما حد الحدود فهو أول يوم أحد بعد الفطر ، وفيه يجدد المسيحيون الأثاث واللابس واعتقد المسيحون أنه فى ٣ مسرى تجلى المسيح لتلاميذه بعد أن صعد إلى السماء ، وسمى ذلك اليوم «عيد التجلى» . وكان النيروز هو أول السنة القبطية بمصر ، وهو أول يوم من توت وفيه تشعل النيران وترش المياه[1] .

ويظهر أن العرب لم يحدوا من حرية الأقباط فى احتفالاتهم بهذه الأعياد والمواسم ، رغم أن ولاة مصر فى ذلك العهد لم يشتركوا فى الاحتفالات الرسمية لهذه الأعياد . ولم يجد المصريون المسلمون (الأقباط الذين أسلموا بعد الفتح) بأساً من الاشتراك فى تلك الأعياد . واكتفى ولاة مصر بمشاركة القبط فى الاحتفال بوفاء النيل فى كل عام ، فإنهم كانوا يشتركون معهم فى الصلاة من أجل النيل وقت حلول موعد فيضانه إذا كان ناقصاً عن منسوبه العادى ، كما حدث أثناء ولاية أبى عون على مصر (١٣٣ — ١٣٦هـ) .

٢ — فى عهد الطولونيين

طبقات الشعب :

كان ابن طولون لايتصل اتصالا مباشراً بالشعب ، بل كان يسمح لكبار الناس بالجلوس فى حضرته والاستماع إلى شكاويهم ، بدليل ماذكره ابن الداية ، من أن قوما استأذنوا فى الدخول على ابن طولون للتكلم معه فى شأن يوسف بن ابراهيم والد أحمد

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

ابن يوسف صاحب كتاب المكافأة وكان محبوساً بأمر الوالى فأذن لهم بالدخول وبالجلوس وبالكلام فيما جاءوا من أجله ، ثم أمر بتحقيق رجائهم وأطلق سراح يوسف[1].

كذلك كان ابن طولون يخرج فى الغسق راكبا مع بعض خاصته لصلاة الفجر ، وكان فى أثناء سيره هذا لايمتنع عن سماع شكوى المظلومين ، بدليل ماذكره ابن الداية من أن ابن طولون ركب مرة إلى الجيزة ، فاعترضه شيخ هرم ، فأشار بعدم تنحيته عن طريقه وأمر بسؤاله عسى أن يكون متظلماً من أمر أصابه[2].

وكانت طبقات الشعب تدين بالطاعة والولاء للوالى الطولونى فى مصر ، الذى كان يتولى أمور الشعب بنفسه دون تفريق بين طبقة وأخرى . كذلك كان كبار الموظفين على اتصال مباشر بحاكم البلاد ، أماطبقات الشعب من زراع وتجار وصناع ، فلم يكن هنالك مايمنع من أن يتصلوا بالحاكم فى قصره .

ويمكننا أن نخص بالذكر طائفتى الأقباط سكان البلاد الأصليين ، واليهود . فقد كان هؤلاء يتمتعون فى العصر الطولونى بحرية دينية طالما كانوا يؤدون الضرائب المفروضة عليهم لبيت المال ، وكثيراً ما أنصفهم ولاة الطولونيين من عسف أصابهم . فقد ذكر ابن الداية أن رهبان دير القصير بجهة المعصرة الحالية اجتمعوا يوماً فى ديرهم بعد وفاة ابن طولون ، وترحموا عليه حين ورد ذكر اسمه على لسانهم وقالوا «طالبنا ابن المدبر بجزية رءوسنا ووافى أحمد بن طولون الدير لأنه كان يخلو فيه للرأى ، فشكونا إليه ابن المدبر وهو يتقلد الخراج بمصر فوقع إليه بإعفائنا»[3].

وذكر أبو المحاسن حكاية تبين لنا مدى عطف ابن طولون على المسيحيين وتسامحه الدينى ، ذلك أنه حينما دخل دمشق علم أن حريقاً شب بجوار كنيسة مارى العذراء فتوجه إلى مكان الحادث فى صحبة جماعة من خاصته وأمر بسبعين ألف دينار للمنكوبين فى هذا الحريق ومعظمهم من المسيحيين[4]. كذلك عرف ابنه خمارويه بعدم التعصب الدينى فقد أطلق فى بدء ولايته على مصر سراح بطريق الأسكندرية ميخائيل الثالث وكان أبوه ابن طولون قد أمر بحبسه سنة ٢٦٨ هـ لأنه قد اتصل به

---

(١) ابن الداية : المكافأة ص ٤٩ — ٥٠ . (٢) المكافأة ص ١٧ .
(٣) سيرة ابن طولون ص ٨٣ . (٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤ .

أنه يخفى ثروة عظيمة ورفض أن يودع بعض ثروته خزانة الدولة ، حين احتاج ابن طولون إلى المال لحروبه فى الشام . كذلك تمتع اليهود بالحرية الدينية ، فلم يحرموا من مزاولة المهن المختلفة واقتناء الضياع ، والظاهر أنهم اشتغلوا بالوظائف المالية فى الريف وبالتجارة كما اشتغلوا بالعلوم والطب ، واستطاع كل من الأقباط واليهود فى العهد الطولونى أن يعيشوا ممتعين بقسط وافر من الحرية والكرامة ، حتى إننا لانسمع عن إهانة لحقتهم من الشعب المصرى المسلم ، ولم نسمع أيضاً عن عسف نزل بأحدهم بسبب كونه نصرانيا أو يهوديا .

البلاط الطولونى

لم يكن لمصر بلاط خاص قبل حضور ابن طولون إليها ، لأن ولاتها كانوا لايقيمون بها سوى مدد يسيرة عدا عدد قليل جداً منهم ، ويظهر أن الحرس الأول الذى اتخذه ابن طولون هو الحرس الخاص الذى كان يحيط بابن المدبر عامل الخراج والذى كان يسير فى ركابه إذ سار ويقف فى مجلسه إذا جلس ، وهو الحرس الذى ذكرنا أن ابن طولون طلبه من ابن المدبر بعد وصوله إلى مصر بقليل ، ثم فكر ابن طولون بعد ذلك فى أن يكون له بلاط خاص أوعلى الأصح يضع نظاما للبلاط ، ظل يتعهده ويرعاه حتى جعله بلاطا على جانب عظيم من الأبهة والفخامة ، ولانعدو الحقيقة إذا قلنا إنه فاق فى كثيرمن مظاهره بلاط بغداد . ولكن لانتصور أن تلك العظمة التىأحاطت قصره معناها أنه كان غارقا فى الترف والنعيم يقضى وقته بين الخمر والجوارى ، بل على العكس كان رغم ذلك متفرغا لأعمال الدولة . وكان يعيش فى قصره كرب أسرة وسط حريمه وأولاده ومواليه وخدمه ، كما كان شديد القسوة على رجال البلاط يزج بمن يهفو منهم فى سجن المطبق ، وربما ساقه إلى ذلك تخوفه من أن تحاك له المكائد على نحو ما كان يحيكها للخلفاء العباسيين رجال بلاطهم . أما خمارويه وابناه أبو العساكر جيش وأبو موسى هارون فقد كانوا منغمسين فى الترف والملاذ يصرفون جل أوقاتهم فى مجالس السمر والطرب .

ولم يعثر على مجموعة الأغانى التىكان الشعب يتداولها فى عصر الطولونيين ، وإنما كل نعرفه هو ماذكره ابن الداية ونقله عنه المؤرخون ، من أن « كثيراً » كان هو

المغنى الخاص لأحمد بن طولون[١]. وذكر البلوى أن ابن طولون كان يقترح على مغنيه أن يغنى له أحد الأغانى الآتية ، نذكرها على سبيل المثال:

١ — متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

٢ — رب من أنضجت غيظا صدره فتمنى لى موتا لم يطع

٣ — طلعت عليك طوالع الوخط[٢] فرضيتهن رضا على سخط[٣]

ومن الآلات الموسيقية التى عرفت فى أيام الطولونيين : العود والدف والصاجات النحاسية .

ومما ذكرنا نتبين أن مجالس الغناء فى العصر الطولوني ، كانت قليلة أيام أحمد ، كثيرة فى عهد أولاده . وذكر المقريزى بعض بيانات بهذا الصدد تبين لنا الفرق بين حالة الترف فى البلاط الطولونى فى عهد أحمد وعهد أولاده من الولاة ، وأتى بأرقام هائلة عن عدد جوارى القصر ومقدار الهبات ووصف الحفلات وآلاف الدنانير الذهبية التى كانت تنثر فيها على المغنيات ، وكل ذلك فى عهد أولاد ابن طولون وخاصة خمارويه[٤]، مما لوصح لاتخذ دليلا على مبلغ الفساد الذى دب فى البلاط الطولونى بعد وفاة أحمد رأس الأسرة الطولونية وعميدها ، مما أدى بالبلاد وخاصة بعد خمارويه إلى الانحلال والاضمحلال ، فتمكن الخليفة العباسى بذلك من بسط يده على البلاد من جديد .

الأعياد والمواسم :

كان المسلمون من مختلف جهات مصر يشتركون معاً فى الأعياد العامة ، وتقام الأذكار أطراف النهار وأثناء الليل ، وكان ولاة مصر الطولونية يخرجون إلى الجامع الذى أنشأه ابن طولون كل يوم من أيام العيد الصغير وعيد الأضحى ، وكذا فى يوم الجمعة ، وجعل ابن طولون وأولاده من بعده فى القصر رحبة فسيحة يجلس فيها إثنا عشر من المكبرين ، يجعلون الليل نوباً بينهم ، فيكبر كل أربعة من ذوى

(١) سيرة ابن طولون ص ٤٢ .
(٢) الوخط . الشيب .
(٣) سيرة ابن طولون ص ٣٤٨ .
(٤) الخطط ج ١ ص ٣٣ .

الأصوات الشجية معاً ، ويسبحون ويحمدون الله ويقرأون القرآن الكريم بألحان مطربة ونغمات شجية . وكان خمارويه إذا جلس فى الليل للشراب وسمع المكبرين ، وضع القدح من يده وذكر الله مع المكبرين ويظل على ذكره حتى يسكنون ، وكان ذلك التكبير يتخذ مظهرا رائعا أيام الأعياد والمواسم .

ومن الأعياد القومية غير الدينية التى كان المصريون يحتفلون بها فى العصر الطولونى ، حفلة وفاء النيل . وكان ولاة الطولونيين يخرجون فى ذلك اليوم وفى أيام الأعياد ويوم عرض الجيش فى موكب حافل ، يمتطى الوالى حصانا مطهما ويتقلد سيفا ، وتفتح أبواب القصر على مصاريعها ، ويخرج الوالى من القصر من باب خاص فى الوسط ويسير فى موكب تحفه المهابة وتعلوه العظمة ، وإذا جاء عصر أحد تلك الأيام جلس الوالى فى مجلس خاص يشرف منه على النظام المتبع على توزيع الصدقات .وفى أيام الأعياد خاصة يجلس ليشاهد حركات الغلمان ومبلغ مرحهم بالعيد . وكانت تنصب الموائد وتقام الولائم فى القصر الطولونى فى أمثال تلك المناسبات وتحوى أفخم الطعام والشراب . على أن الولائم لم تكن تمد فى تلك المناسبات فقط ، بل كان ولاة الطولونيين كثيراً ما يجتمع إلى موائدهم كبار رجال البلاط والخاصة من قوادهم ورجال الوفود القادمة من بغداد وسر من رأى .

الألعاب الرياضية :

كان اهتمام الطولونيين بالألعاب الرياضية كبيرا ، فقد اهتم ابن طولون بسباق الخيل ، وأنشأ لذلك حلبة كبيرة أمام قصره ، تطلق فيها الخيول الأصيلة لتتسابق ويلعب الفرسان على ظهورها لعبة الصوالجة وهى اللعبة المعروفة اليوم عند الإنجليز باسم البولو (Polo) ، وفى أيام الأعياد والمواسم كانت الأعلام ترفع فى كل مكان بحيث يبدو الميدان فى منظر خلاب فيؤمه أفراد الشعب للاستمتاع بتلك المناظر . وكذلك كان غلمان ابن طولون يركبون جيادهم فى نظام بديع ، وبنى ابن طولون مكانا يستعرض منه الخيل سماه « المنظر » ، قال عنه المؤرخ المصرى القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ إنه من عجائب الإسلام الأربعة ، وهى فى نظره : عرض سباق الخيل فى مصر زمن الطولونيين ، ورمضان فى مكة ، والعيد فى طرسوس ، والجمعة فى بغداد .

وأشاد كل من المقريزى (١) وأبى المحاسن (٢) بتلك الحفلات الرياضية الطولونية ، وأعجبوا بنظامها وترتيبها وبهائها أيما إعجاب .

وولع خمارويه بالصيد ولعا شديدا ، فكان يخرج للصيد فى جهة الأهرام، وكان إذا سمع عن سبع ذهب إليه فى صحبة رجال عليهم اللبود(٣) ، فيدخلون الغابة حيث يوجد الأسد وينازلونه بأيديهم ثم يضعونه فى قفص محكم من الخشب يسعه وهو نائم، فإذا فرغ خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذى به السبع وتجتمع الناس لمشاهدة ما نالههذا الأمير من الصيد .

الطعام

كان من الأطعمة المعروفة فى العصر الطولونى : لحم الجدى والضأن والدجاج والخضروات والأسماك ، ومن الحلويات : الفالوذج أو البالوظة ، وكذلك اللوزنيخ وهى تشبه القطايف وتعمل بدهن اللوز . وكانت العصيدة تعرف باسم المأمونية ، وهى طعام كان شائعا بين مختلف طبقات الشعب ، يمكن أن يشتريها المرء بدرهم أو درهمين على الأكثر. وقيل إن اللحم البارد والماء المثلج عرفا فى عصر الطولونيين، وكانت المأكولات من خضروات ولحوم تباع بسهولة ، ويمكن لمن يريد أن يشترى شيئا منها أن يقصد إلى السوق الخاص بها فى دار الحريم (٤) .

٣ — فى عهد الإخشيديين

طبقات الشعب :

كان عصر الإخشيديين فى مصر، عصرا تجلى فيه مقدار التسامح وحسن معاملة ولاة مصر لغير المسلمين ، حتى يمكن القول إن المسلمين والمسيحيين على السواء

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٠ .
(٣) اللبود : الصوف المجتمع المتلبد الذى لا ينفذ منه ظفر السبع .
(٤) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٧٢ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٨ .

كانوا يعيشون فى وئام وسلام (١) . ومن مظاهر ذلك : إعفاء الأساقفة والرهبان والضعفاء من النصارى من أداء الجزية بعد أن كانوا قد ألزموا بدفعها حين قدم مصر من بغداد الوزير على بن عيسى بن الجراح وفرض عليهم الجزية ، كذلك تمتع النصارى بالحرية التامة فى إقامة حفلاتهم وإحياء أعيادهم . وكان الاحتفال بليلة الغطاس وهو من أهم أعياد المسيحيين بالغاً حد الروعة والجلال فى مصر حتى اشترك محمد الإخشيد بنفسه فى إحيائه (٢) . ومما يدل على رفق الإخشيد فى معاملة رعاياه من النصارى أنه حين تهدم جزء من كنيسة الأنبا شنودة سنة ٣٢٦ هـ وخشى النصارى أن تسقط جميعها وتقدموا إلى الإخشيد بأموال كثيرة لعمارتها واختلف الفقهاء فى عدم جواز ترميمها ، أمر الإخشيد أن تبقى على حالها مدة أربعين سنة ثم تعمر ، وبالفعل عمرت سنة ٣٦٦ هـ (٣) .

وعلى الجملة ، فإن المصريين جميعاً من مسلمين ومسيحيين ، كانوا يتمتعون فى ظل الإخشيديين بالرخاء والنعيم وكانت الثقة والطمأنينة متبادلتين بين الجميع. وليس أدل على يسر أهل مصر وأنهم كانوا فى سعة من العيش من أن الناس أصبحوا فى عهد كافور الإخشيدى فى غير حاجة إلى الزكاة التى كان يوزعها الأغنياء على الفقراء والمحتاجين . ويرجع ذلك إلى كثرة صدقات كافور على أفراد شعبه ، حتى اضطر الأغنياء أن ينفقوا أموالهم التى كانت مخصصة للزكاة فى بناء المساجد (٤) .

وكانت العناية ببث الأخلاق بين طبقات الشعب من أهم ما يعنى به ولاة الإخشيديين ، فقد أمر الإخشيد بهدم دور القمار ، وأغلق أماكن الفساد ، وحرم النواح ، ومنع النداء على الجنائز . كذلك فى أواخر أيام الدولة الإخشيدية وفى عهد ضعفها ، عمل أحمد بن على بن الإخشيد على رفع المستوى الخلقى بين أفراد الشعب فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر (٥) .

---

(١) Miet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV, p. 135

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣٢ — ٣٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٢٩ — ٤٣٣ .

(٥) الكندى . كتاب الولاة ص ٢٦٦ و ٢٩٧ .

الأعياد والمواسم :

كادت مواسم الدولة الإخشيدية وأعيادها تبلغ حد الكمال والروعة والجلال ، وقد شاركت الحكومة الشعب فى إحيائها سواء أكان ذلك فى أعياد المسلمين أو القبط .

وكانت ليلة الغطاس من أعظم الاحتفالات التى اشترك فى إحيائها المسلمون والقبط، وقد وصف المسعودى الذى زار مصر فى عهد الإخشيد ليلة الغطاس فى هذه العبارة: « لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لاينام الناس فيها ، وهى ليلة عشر تمضى من كانون الثانى. ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس فى مصر ، والإخشيد محمد بن طغج قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل،غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط لايتناكرون الحضور ، ويظهرون كل مايمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والرصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق بها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أنه أمان من المرض» (١) .

هذا هو الوصف الذى جاء به المسعودى لليلة الغطاس فى عهد الإخشيديين ، يمثل لنا كيفية الاحتفال به . كذلك كان يسود أعياد المسلمين جميع مظاهر البهجة والانشراح ، حتى كان الولاة يقومون فيها بأنفسهم بتهنئة رعاياهم والبر بفقرائهم . فقد كان كافور فى عيد الأضحى يسلم أحد رجاله، ويدعى أبا بكر المحلى وكان يتولى أمر نفقاته ، بغلا محملا ذهبا وجريدة تتضمن أسماء بعض الأشخاص لتوزع عليهم هذه الأموال . ويصف أبو بكر مهمته فى العيد فى تلك العبارة : كان يمشى معى صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل ، وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة ، فأطرق منزل كل إنسان مابين رجل وامرأة وأقول : «الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدى يهنئك بالعيد ويقول لك : إصرف هذا فى منفعتك » .

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥.

الطعام والشراب :

كان الاهتمام بالطعام والشراب فى العهد الإخشيدى ، لا يقل عن اهتمام الطولونيين بهما ، فإنهما على الرغم مما عرف عن الإخشيد من البخل ، فإن مائدته كانت تحوى الشهى من ألوان الطعام والثمين من الأدوات ، حتى كانت مضرب الأمثال فى التأنق والتنسيق .

وكان الإخشيد يميل إلى أكل الفاكهة ، حتى كانت مائدته لا تخلو منها ، كذلك كان يميل كثيراً إلى لون من الطعام يقال له « حماضية » والحماض هو عصير البرتقال(١) ، وكان المصريون فى العهد الإخشيدى يعرفون إلى جانب لحوم الحيوان الطيور الداجنة من طيور وغيرها ، ولم يكونوا يقتصرون فى طعامهم على العناصر الضرورية كالخبز واللحم ، وإنما كانوا يتفننون فى عمل كثير من الحلوى ، ومن أشهرها الكعك المحشو بالسكر ، والقرص الصغيرة التى تعرف باسم « إفطن له »(٢) ، والفستق الملبس بالسكر الأبيض المطيب بالمسك . وكثر فى الأسواق المصرية إذ ذاك الأماكن الخاصة ببيع « الشواء » وهو المعروف اليوم باسم « الكباب » ، وكان معظم الشواء يباع نيئا ويخلط بلحم الماعز ، حتى إن الإخشيد حذر أبا القاسم سعيداً من أكله(٣) .

وكان للاخشيد طبيب خاص هو أبو الفرج الباسى ، وكان موضع ثقته لأن

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣١ .

(٢) من أطرف مارواه المقريزى بصدد هذا الصنف أن أبا عبد الله بن مقشر قاضى مصر اقتبس فكرة هذا الصنف من المادرائيين لأنه سمع أنهم عملوا الحلوى التى تسمى « إفطن له » ، ووضعوا داخل كل واحدة منها خمسة دنانير . فلما وضعت على المائدة عدة أطباق كان من بينها واحد يحتوى على هذه الدنانير ، وقد وقف على السماط أستاذ يرمز لأحد الجالسين بقوله : « إفطن له » ويشير إلى الطبق المذكور ، فتنبه الرجل إلى مافيه وأخذ يأكل منه بصفة خاصة فحصل على مافيه من الذهب . ولما رآه الناس وهو يأكل ، ويخرج من فمه ويجمع بيده ثم يضع فى حجره تنبهوا له وتزاحموا عليه ، وسمى هذا النوع من الحلوى منذ ذلك الوقت باسم « إفطن له » .

(٣) ابن سعيد : نفس المصدر ص ٢٣

مهمته كانت هى الأشراف على كل لون من ألوان الطعام وتقدير مدى صلاحية مايقدم من كل منها لمولاه حتى يرد الباقى ، ويتقى الإخشيد بذلك أن يدس له أحد أعدائه فى وقت كثرت فيه الفتن والمؤامرات(١) .

وقد أسرف كافور فى الإنفاق على مائدته . ويدل على ذلك ما رواه أبو المحاسن من أنه بلغ ما كان يعمل فى مطبخ كافور ، لما قوى سلطانه وكثرت أمواله ، فى كل يوم من اللحم ألفين وسبعمائة رطل ، وخمسمائة طائر دجاج ، وألف طائر حمام ، ومائة طائر أوز ، وخمسين خروفا رميسا (٢) ، ومائة جدى سمين ، وعشرين فرخا سمكا ، وخمسمائة صحن حلوى ، فى كل صحن عشرون رطلا ومائتين وخمسين طبقا فاكهة ، وعشرة أفراد نقل ، وخمسمائة كوز فقاع(٣) كبير ، ومائة قربة سكر ليمون »(٤) ، وروى هذا المؤرخ أيضا أن سماط كافور كان يتكون فى اليوم من مائتى خروف كبير ، ومائة خروف رميس ومائتين وخمسين أوزة ، وخمسمائة دجاجة وألف طير من الحمام ، ومائة صحن من الحلوى ، يحتوى كل منها على عشرة أرطال ومائتين وخمسين قرابة أقسما(٥) .

الملابس والزينة :

اختلفت ملابس الناس فى العهد الإخشيدى ، تبعا لمراكزهم فى الدولة وحسب ثروتهم ونوع العمل الذى يتولونه ، فقد اختلفت ملابس الفقهاء والقضاة والكتاب عن ملابس الجند ورجال الشرطة ، وكان الإخشيد يستعمل العطر ، حتى قيل إن خزانة الطيب الذى كان يستعمله حملت فى إحدى سفراته على أكثر من خمسين جملا ، وعرف عن الإخشيد حبه للعنبر أيضا ، مما يدلنا على حب المصريين للعطور والروائح

---

(١) ابن سعيد ص ٣٦ .

(٢) الرميس : هو ولد الضأن الصغير .

(٣) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير .

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص٩.

(٥) الأقسما : نقيع الزبيب .

الغناء والموسيقى :

لم يلق الغناء والموسيقى حظه من التشجيع فى عهد الإخشيديين ، فقد نفر منه الناس إذ ذاك ، واعتبروه من اللهو والمجون ، وقبض الإخشيد على أحد المغنين ويدعى مقبل وأمر بحبسه ، وظل فى الحبس حتى شفع له لديه أحد أصدقائه فأطلق سراحه وهدده بإعادته إلى السجن إن هو عاد إلى الغناء ، كذلك نظر الأمراء والعلماء إلى الغناء والموسيقى على أنهما من أنواع اللعب التى تباعد بينهم وبين التقوى والصلاح .

وخالف كافور الإخشيدى هؤلاء جميعا ، لأنه كان من السودانيين الذين كانوا يحبون سماع الغناء . ومما يدل على مدى محبته لذلك الفن أنه مر بجماعة من السودان كانوا يضربون على الطبل المعروف عندهم بالدبدبة ، فطرب كافور وحرك أكتافه على نغمات الطبل ، على نحو ما يفعل السودانيون إذا ما أطربهم هذا النوع من الضرب . فلما أفاق لنفسه وعلم أنه فعل ذلك من غير قصد ، جعل يهز أكتافه فى أغلب الأحيان دفعاً لما قد تجره هذه الحركة من نقد الناس وسخريتهم به ، حتى لا يعتقدوا أنه إنما فعل ذلك من أجل هذه الدبدبة(١) .

المواكب والحفلات :

سادت الفخامة والأبهة مواكب الإخشيديين ، فقد كان الإخشيد أول من أنار الشموع على البغال فى موكبه ليلا إلى الجامع العتيق ليحضر إحياء ليلة التاسع والعشرين من رمضان ، وجعل على كل بغل رجلا يلتفت إلى الشمعة كل حين وآخر لإصلاحها ، فكان إذا أراد استعراض الجند ، استعد لذلك استعداداً كبيرا ، وظهر القواد والجند بمظهر فخم ، إذ يجلس الإخشيد فى المنظرة التى كانت على باب دار الإمارة ويعرض جنده ، فإذا انتهى العرض ركب غلمانه وهم إذ ذاك مزودون بالدروع والجواشن(٢) . وأمر الإخشيد ، بعد أن استتب له الأمر فى مصر وقوى نفوذه ، أن لا يكون فى جنده شيخ ، وأن يصبغ الشيوخ منهم لحاهم ، وفى سبيل ذلك أعطى كل جندى خمسة دنانير .

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٤٧ .

(٢) الجوشن : مثل الزرد يلبس على الظهر ، والفرق بينهما : أن الزرد يكون من حلقة وأما الجوشن فيكون حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك .